تأملات
من دعاء كميل

دار الولاء
لصناعة النشر

الرويس، شارع الرويس، بيروت - لبنان
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com
P.O. Box: 307/25 | www.daralwalaa.com

ISBN 978-614-420-457-3

تأملات من دعاء كميل

المؤلف: السيد ياسر محفوظ الموسوي الساري.

الناشر: دار الولاء لصناعة النشر.
الطبعة: الأولى بيروت_لبنان ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

إخراج فني وتنفيذ:
eight
press & production
www.8eightproduction.com | 00961 3 017 565

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

السيد ياسر محفوظ الموسوي الساري

تأملات
من دعاء كميل

دار الولاء
لصناعة النشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تهيئة ١١

دروس النبي موسى والخضر عليهما السلام في مفهوم التعليم والتعلم ١١

الحاجة إلى أدب الدعاء ١٣

الدعاء وذكر الذنوب ١٣

خلوص الدعاء للّه تعالى ١٤

فلسفة تأخير استجابة الدعاء ١٥

آسيا بنت مزاحم نموذجٌ في الصبر ١٦

عظمة الدعاء عند اللّه تعالى ١٨

الطاعة للّه تعالى شرط الاستجابة ١٩

نظام الدعاء ٢٠

شروط استجابة الدعاء ٢١

نص الدعاء الشريف ٢٩

أهمية قراءة الأدعية ٣٥

كميل مستودع الأسرار ٣٧

كميل يروي الدعاء ٣٩

الدعاء والعصمة ٤١

مدخل الى الدعاء ٤٣

الفقرة الأولى ٤٥

الرحمة الواسعة ٤٥

القوة القاهِرة ٤٦

الخضوع والذل أمام القوة القاهرة ٤٨

السلطة الجبروتية ٥٠

العزة للّه تبارك وتعالى ٥٢

العظمة الجبّارة ٥٣

السلطان الإلهي ٥٥

الذات المقدسة ٥٧

أسماء اللّه الحسنى ٥٨

العلم الإلهي ٦٠

نور اللّه ٦٢

نداءات الرحمة (النداء الأول) ٦٣

نداءات الرحمة (النداء الثاني) ٦٤

نداءات الرحمة (النداء الثالث) ٦٧

الفقرة الثانية ٦٩

الذنب الذي يهتك العصمة ٦٩

نزول النقم ٧٢

تغيير النعمة ٧٤

حبس الدعاء ٧٧
نزول البلاء ٧٨
قطع الرجاء ٨١
الذنب والخطأ ٨٣
الفقرة الثالثة ٨٥
القربى الى اللّه تعالى بذكره ٨٥
الشفاعة الربانية ٨٨
الجواد والقريب ٩٠
الشكر للّه تعالى ٩٤
مرتبة الإلهام ٩٦
حاجة الإنسان وضعفه آناً واستمراراً للّه تعالى ١٠٣
الفقرة الرابعة ١٠٩
شدة الحاجة وعِظَمُ الفاقة ١٠٩
السلطان العظيم ١١٥
المكانة العُليا ١١٨
خفاء المكر ١٢١
ظهور أمر الله تبارك وتعالى ١٢٥
الغلبة الربانية ١٢٩
المخلوقات تحت قدرة الله تعالى ١٣٠
لا مفر من حكومة اللّه تعالى ١٣٥

الفقرة الخامسة ١٤١
لا ملجأ من الذنوب إلّا إلى اللّه تعالى ١٤١
كلمة التوحيد ١٤٨
ظلم النفس ١٥٦
الجرأة على اللّه تعالى ١٥٩
الذكر القديم والمنّ من اللّه تعالى ١٦٢
الفقرة السادسة ١٦٩
الاعتراف بنعم اللّه ـ ستر القبائح ١٦٩
الاعتراف بنعم اللّه ـ البلاء الثقيل ١٧٤
الاعتراف بنعم اللّه ـ النجاة من السقوط في الهاوية ١٧٨
الاعتراف بنعم اللّه ـ الكراهة المدفوعة عن العبد ١٨١
الاعتراف بنعم اللّه ـ الذكر الحسن بين الناس على العبد ١٨٧
عظم الفاجعة وسوء الحال ١٩٤
العمل المقيّد والقصير ١٩٩
طـول الأمل ٢٠٦
خداعُ الدنيا بغرورها ٢١٥
النفس الخائنة ـ تهذيب النفس ٢٢٦
تسويف النفس ٢٣٩
الدعاء المحجوب بسبب العمل ٢٤٢
السر المخفيّ... والفضيحة ٢٤٨

تعجيل العقوبة ٢٥٦
الفقرة السابعة ٢٦٩
الرأفة والعطف ٢٦٩
اللجوء إلى الأول والآخر ٢٧٣
تزيين المعصية ٢٧٨
تغريرُ الشيطان ٢٨١
إعانة الشيطان والقضاء والقدر ٢٨٤
حدود اللّه ٢٩٠
حجّـة اللّه ـ الصيغة الأولى ٢٩٤
حجة اللّه ـ الصيغة الثانية ٣٠١
الفقرة الثامنة ٣١٣
حالة انكسار وخضوع العبد أمام اللّه تعالى ٣١٣
التأكيد على الاعتذار، والاعتراف بالنعم ٣٨٩
الفقرة التاسعة ٣٩٥
الهيكـل الجسدي للإنسان وإمداد الرحمة الإلهية له ٣٩٥
أساسيات التربية وأهدافها ٤٥٩
مدخل ٤٥٩
المصادر ٤٨٧

تهيئة

بسم اللّه الرحمن الرحيم وبه نستعين والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين وخاتمهم إلى يوم الدين محمد وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين

من المعروف أنّ كميل بن زياد أخذ الدعاء عن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ وينسبه الإمام سلام اللّه عليه إلى الخضر حيث تشير الرواية التي ستمرّ عليك عزيزي القارئ.

دروس النبي موسى والخضر عليهما السلام في مفهوم التعليم والتعلم

والخضر عليه السلام شخصية قد ذكرها القرآن الكريم بمصطلح العبد من جملة قصص النبي موسى (على نبينا وآله وعليه السلام) يقول اللّه تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(1).

وتشير هذه الحادثة التي تناولها القرآن الكريم، إلى مفاهيمَ عميقةٍ جدّاً بين الطالب والأستاذ؛ والأستاذ مع الطالب، حيث يشتركان في سبر المفهوم الأخلاقي والاجتماعي، فمن خلال هذه الحادثة سعى القرآن الكريم إلى توصيل الأدب الرسالي، إذ يعبر عن الروح النورانية الواجدة لروح التواضع للعلم والعلماء وطالب العلم، ولا ترى في التحاور مع الأستاذية التي تمتلك المخزون العلمي أيَّ تعالٍ أو تكبّر على مفهوم التلمذة بين يديها، حيث غابت مفاهيم المراكز الاجتماعية أو الدينية، وعلى العكس من ذلك، نرى حضور العطش العلمي الذي يمثله التلميذ، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(2).

(1) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

(2) (م.ن)، الآية: ٦٦.

الأمر الآخر الذي يمكن أن نستفيده من هذه الحادثة هو الروح العملية التي كان يتمتع بها الأستاذ حيث الأسلوب الواقعي الحقيقي، من غير فرض أوضاع اجتماعية يتأثر بها، حيث لم يتناول أساليب اللف والدوران، التي تخدع الآخرين من خلال بعث معلومات إلى ذهن الطالب يحاول من خلالها فرض واقع موهوم غير واقعي، فمثلاً حين خرق السفينة؛ كان الطالب يبدي امتعاضه من هكذا تصرف غير إنسانيّ، قال تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾[(١)] فإنّ الطالب ركز على المفهوم الظاهري، ولم يمتلك المفهوم الواقعي والعملي، فإنّ خرق السفينة، هو فعل سيء يؤدي إلى قتل من على ظهرها، وضياع الثروة الاقتصادية؛ لكن المفهوم الواقعي ينظر بعين المصلحة لهؤلاء الناس الموجودين على ظهرها، حيث يبين أن الخرق هو الحالة العملية التي من خلاله يحافظون عليها من السطو ومن السرقة، قال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[(٢)] فالأستاذ وضَّحَ للطالب المفهوم الغائب عنه، حيث أشار إلى الواقع الاجتماعي المزري الذي يعيشه هؤلاء المساكين.

الفصل الآخر من هذه الحادثة هو حالة الانضباط والالتزام حينما يكون في خطِّ المسؤولية، هو درس يحاول القران توصيله إلينا من خلال الأساليب التي تفنن الأستاذ والتلميذ في تناولها من غير الهروب الى الأمام، أو التملص من المشكلة، فإنّ بناء الجدار يحتاج إلى قوة وإرادة؛ لكن نرى أن التلميذ الذي كان جائعاً ويحتاج إلى الماء بعد عناء السفر في البحر، أمره الأستاذ ببناء الجدار؛ وقد أدّى كامل مسؤوليته من بناء الجدار، قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾[(٣)] حيث عناء الجهد والتعب قد أخذا كلَّ موضعٍ من الجسد، وليس في مقدور الإنسان الموصوف بالصفات

(١) سورة الكهف، الآية: ٧١.

(٢) (م.ن)، الآية: ٧٩.

(٣) (م.ن)، الآية: ٧٧.

المذكورة أن يقوم بعمل يخرج بنتيجة متقنة وناجحة، وذلك لحاجة الإنسان إلى طاقةٍ تُقوّيهِ على ممارسة مهمّاته بكل نجاح؛ لكنّ وجود الإرادة والعزيمة، ووجود هدف سام، وهو الحفاظ على الكنز لليتيمين، وإقامة الجدار كان أمراً إلهيّاً، هو الدافع وراء نجاح المسؤولية، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[1].

وتكمن الفائدة المتوخّاة من هذه القصة القرآنيّة؛ في التواضع للعلم، والرحلة والسفر لطلب العلم، والجدية في العلم؛ وهناك أدب متبادل موجود بين الطالب والأستاذ، وهكذا من الفوائد الموجودة في القصة.

الحاجة إلى أدب الدعاء

لكن ما يهمنا في ذلك هو آداب قراءة الأدعية الشريفة، ولا بدّ قراءة لطبيعة الأجواء التي يتمتع بها أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، حيث أخذوا هذه الآداب والتعاليم؛ وقد زرع فيهم كيفية التخاطب أمام اللّه تعالى، حيث نرى عمق الأدب الدعائي الذي يستخدمه الأمير عليه السلام عند ما يخاطب اللّه تعالى، وهذه الصحيفة العلوية المباركة مليئة بكثرة هذه الأساليب التي ترشد المؤمنين إلى استخدام الأسلوب المليء بالخضوع والتذلّل والاعتراف بالتقصير أمام اللّه تعالى...

الدعاء وذكر الذنوب

هذه أحد أوجه التفسير حول مسألة الفقرات التي يوجد فيها اعتراف بارتكاب الذنب وإتيان المعصية بلسان الإمام المعصوم؛ وهناك وجه آخر، وهو أن مقام الذات الإلهية، له مكانة عظيمة، وأن جلالة العظمة الربانية، لا يمكن الوصول إليها بأي حال، حتى لو تصنّعَ، تصغير النفس وتذليل الذات، أمام هذا الشموخ والكبرياء المقدس، فالإمام المعصوم الذي لا يرتكب، ولا يخطر على باله الشريف قضية

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

المعصية... يقول: هذا أقصى ما يمكن الوصول إليه، والاعتراف به أمام اللّه تبارك وتعالى. ويمكن أن نمثل به ذاك الذي كسرت رجلاه ولا يمكنه التحرك... وقد زاره أحد الفقهاء الذين يجب إبداء الاحترام لهم... فهو مجبور على مدّ كلتا رجليه أمام هذا الفقيه الجليل، حيث أقصى ما يمكنه أن يفعله أمام الفقيه، هو مدّ الرجلين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١] تشير هذه الآية: المباركة إلى عدّة مهمّات ضرورية ومفصلية في حياة وشؤون الإنسان. في البداية نجد أن الخطاب مصدره من الحاكم المستكبر، والعدل المتجبر، وهو اللّه جلّ جلاله وهو موجَّه إلى هذا الإنسان الضعيف الذي لا يملك القوة؛ وهو بهذا الخطاب يرسخ في الإنسان الرشد والتربية، ويفتح له آفاقاً واسعة من المعارف الكونية التي تُسلِّم له مفاتيح الساحة المعرفية على مستوى الإنسان في معرفة نفسه من كونها محتاجة إلى من يرشدها نحو الصراط المستقيم، وترشدنا الآية: المباركة إلى أن ثمة علاقة وطيدة موجودة بين الإنسان وربه، وهي تختصر الترابط الوثيق الدائم في كل مجالات و مسيرة حياة الإنسان في هذه الدنيا، وهي بذلك تسعى إلى أن ترسخ للإنسان مفهوم التوجه الصحيح عند كل مأساة تواجهه في معترك الحياة، حيث من اللازم اللجوء إلى اللّه تعالى حتى يفرج عنه البلايا والمآسي التي في أغلبها امتحانات تصيب المؤمن[٢].

خلوص الدعاء لله تعالى

وبحسب الآية: الكريمة فمن اللائق أن يكون الدعاء خالصاً للّه تعالى من غير دَخالة أيّ أحدٍ من المخلوقين الآخرين، فاللّه تبارك وتعالى عالم بحقائق ما يحتاجه

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) عَنْ سَماعَةَ، عَنْ أَبي عَبْدِ اللّه عليه السلام قالَ: «إنَّ في كِتاب عَليٍّ عليه السلام: إنَّ أَشَدّ النّاس بَلاءً النَّبيُّونَ ثُمَّ الوَصيُّونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ وَإنَّما يُبْتَلَى المُؤْمِنُ عَلى قَدرِ أَعْماله الحَسَنَة، فَمَنْ صَحَّ دِينُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، اشْتَدَّ بَلاؤه وَذلكَ أنَّ اللّهَ تَعالى لَمْ يَجْعَل الدُّنْيا ثَواباً لِمُؤْمنٍ وَلا عُقُوبَةً لكافِرٍ وَمَنْ سَخُفَ دينُهُ وَضَعُفَ عَقْلُهُ، قَلَّ بَلاؤهُ وَإنَّ البَلاء أَسْرَعُ إلى المُؤْمِنِ التَّقِيِّ مِنَ المَطَرِ إِلَى قَرارِ الأَرْضِ».

الإنسان ويريده، إلّا أنه جل جلاله حثّ الإنسان على طلب الحوائج والدعاء من أجل إظهار الآثار المترتبة على ذلك، والتي من جملتها الضّعة في النفس والشعور بالنقص والحاجة الدائمة والمستمرة حاضراً ومستقبلاً، وهو بذلك يزرع في النفس عدم الحاجة إلى الاستكبار والظلم والطغيان في الأرض، وعلى الفورية تكون الاستجابة متحققة وحاصلة بالقرينة الموجودة في الآية: المباركة والمباشرة من غير فصل وهي ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ فلو أن أداة من أدوات الفصل موجودة من قبيل الفاء أو «ثم» لاحتاج ذلك إلى مدة طويلة حتى يستجاب الدعاء، وبذلك نستفيد أنه لا وجود لوسائط في كيفية الدعاء، ولا في مدة الاستجابة ومن هنا نفهم أن الاستجابة فوريّة، وهي وعد إلهيّ ربانيّ، وفي حال تأخّر الإجابة فلا ينبغي للإنسان، أن يظنَّ السوء[1].

فلسفة تأخير استجابة الدعاء

إذ لعل هناك ما يمنع فوريّة الإجابة، والإنسان بذلك يجهل المصلحة المترتبة من تأخيرها، جاء في دعاء الافتتاح: «... **فَإِنْ أَبطَأَ عَنِّي عَتَبتُ بِجَهْلِي عَلَيكَ وَلَعَلَّ الَّذي أَبطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لي لِعِلْمِكَ بِعاقِبَةِ الأُمُورِ فَلَمْ أَرَ مَوْليً كَرِيماً أَصْبَرَ عَلى عَبْدٍ لَئِيم مِنْكَ عَلَيَّ...**» هذه الفقرة من دعاء الافتتاح المبارك، توضح للعبد المؤمن حقيقةً من اللازم أن تكون حاضرة لديه، ولا ينبغي أن يغفل عنها مهما كانت الظروف التي يعيشها؛ وهي متمثلة في شكواه من عدم إجابة الدعاء.

فإنّ المؤمن يدعو اللّه تعالى دعاءً بليغاً مؤثراً في ظلمة الليل، وفي ليلة مباركة وفي زمن مبارك؛ كشهر رمضان المبارك، وفي ليلة هي من أعظم الليالي، ليلة القدر الشريفة.

ولكن أثراً في إجابة الدعاء لا يرى!! حيث حوائجه التي أخذ في سردها وعرضها وبثّها إلى ربّ السماوات والأرض لم تتحقق.

(١) استفدت في فهم الآية الكريمة من تفسير النور ج٨، ص ٢٣٨-٢٣٩.

وبذلك يجدُ الشيطانُ باباً مشرَّعاً واسعاً من خلاله يدخل ويبدأ عمله في بثِّ الأفكار السيئة.

حينها يطرح الداعي تلك الأسئلة المتولدة من أثر الشكوك والظنون.

أين الوعد الإلهي المذكور في الآية: الكريمة ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾؟

ويبدأ الداعي في الولوج في بحار الشكوك في القدرة الإلهية، وعدم الرضا والقبول، والدخول في أمواج من السخط وسوء الظن، وهكذا.

ولكنَّ الداعيَ نتيجةَ التفكير الخاطئ، ينظر بعين ونظر قصير جداً، تحده هذه الدنيا، والسويعات القصيرة التي سيعيشها في الحياة الدنيوية، ولعل سببه الأنس بالحياة المادية التي تفتقر إلى البعد الروحانيّ، وفلسفة الماورائيات، والتي تمتلك عالماً أوسع بكثير مما يظُنُّ الداعي لكونه لم يخطر على باله، حيث أكثر التصاقهِ وأنسِهِ بالدنيا؛ فإنّه يغفل عن أن البلاء الذي يصيبه يتحول إلى نعيم دائم في الآخرة التي سينتقل إليها عاجلاً أم آجلاً، فالمؤمن ينبغي أن يكون طموحه ورغبته عاليةً جدّاً، ونظرته واسعة وموضوعية، شاملة لكل جانب من جوانب الحياة الدنيوية والأخروية، يقول أمير المؤمنين الامام علي عليه السلام في وصف المتقين: «**صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مَرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُم**»[1] لقد صبر المؤمن المتقيّ على المكاره أياماً وترك الملاذ حال حياته الدنيوية، وقد احتمل المؤمن الأذى الصادر من الناس، والصبر هو نوع من أنواع المقاومة الشريفة التي تردع النفس عن غيها وأذاها[2].

آسيا بنت مزاحم نموذجٌ في الصبر

ونلاحظ أن القرآن الكريم ذكر قسماً من الشخصيات المؤمنة، وهم الذين صبروا على الأذى وكانوا يدعون الله تعالى للفرج، وقد صبروا، فمن جملتهم آسيا امرأة فرعون، يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ

(١) شرح نهج البلاغة، لابن ميثم البحراني ج٣، ص ٣٨٢.
(٢) راجع شرح نهج البلاغة، لابن ميثم البحراني ج٣، ص ٣٨٧.

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١) تسرد الآية: المباركة مثالاً واضحاً في الايمان والتضحية والنبل، وقوة العقيدة، إنها زوجة فرعون، حيث عمق الكفر، وعملاق الشرك باللّه سبحانه وتعالى، إنّه فرعون الذي لم يهتدِ بهداية النبي موسى عليه السلام، يقول اللّه تعالى حكاية عن فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٢) فمن المؤكد أن الذي آمن برسالة ونبوة النبي موسى عليه السلام معرض للخطر، وهو مهدد بالتصفية الجسدية، وآسيا بنت مزاحم كانت تعيش في مقام السيدة الأولى في مصر؛ بحسب المصطلح المتداول في عالم اليوم، حيث القصور والخدم والحشم الذين يأتمرون بأمرها وينزجرون بزجرها، ناهيك عن الوجاهة الاجتماعية، والمكانة الكبيرة التي يتمتع بها زوجها فرعون، بين أطياف الناس.

ولكن هذه المرأةَ اختارت الايمان باللّه تعالى وتصديق النبي موسى عليه السلام، على هذا النعيم الزائل، إذ طلبت من اللّه تعالى أن يخلّصَها من طغيان فرعون وكفره واستبداده، حيث أعلنت البراءة منه ومن عمله، وهذا الخطُّ الإيمانيّ، لم يكن متصوَّراً، لكونها السيدة الأولى في مصر، ويُسبِّبُ توجّهُها الجديد لها معاناةً شديدةً جدّاً، من التعذيب والتنكيل من قبل الظالمين، فهذا ديدنهم في كل زمان ومكان؛ لكنها لم تفقد الأمل باللّه تعالى حيث جعلته نصب عينها وطلبت منه سبحانه أن يبنيَ لها بيتاً في الجنة.

وهي لم تُبدِ تذمّراً من ذلك، لكونها آمنت باللّه تعالى، وكان ايمانها سبباً للمعاناة والحياة القاسية في الدنيا، وإنّما وظفت هذه المعاناة في طلب الرقيّ والتقرب الى اللّه تعالى؛ وحريٌّ بالمؤمنين أن يأخذوا من هذه السيدة الجليلة درساً في الصبر والتضحية والمعاناة في هذه الحياة الدنيا.

ولعل من القبيح أن يكون الإنسان معاتباً ربه، شاهراً سيف الاتهام بأنّه فاقد الحكمة، وأنه لم يفِ بالعهد ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ﴾ وهذه الأفكار لو أنه أجراها على أطراف لسانه لعُدَّ من زمرة الكفار.

(١) سورة التحريم، الآية: ١١.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

عظمة الدعاء عند الله تعالى

ومن الآيات التي تناولت عظمة الدعاء الآية: الكريمة، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(١).

تناول الفخر الرازي في كتابه (التفسير الكبير) تحت هذه الآية: المباركة، بحثاً يختصُّ بمسائل عدّةٍ أهمّها فلسفة تأخير استجابة الدعاء، ومدى تأثير المصلحة والمفسدة في حياة الداعي الدنيوية والأخروية، وتناول الإشكاليات التي تثار حول مدى فاعلية الدعاء وقراءته؛ إذا كانت الأقدار والأقضية قد حُتِّمت من قبل اللّه سبحانه وتعالى؛ وقد أجاب عنها بشكل مفصل ودقيق، وهو واقعاً بحثٌ نافعٌ وجيد(٢).

فيما أشار المفسر الكبير العلامة الطباطبائي قدس سره وأعلى اللّه مقامه الشريف، إلى أن الآية: الشريفة تحتوي على تكرار ضمير المتكلم سبع مرات:

الأول: حذف الغَيبة وإيجاد مفهوم الحضور من غير وضع وسائط أو إشارة إلى البعد أو الغَيبة؛ فإنّ موضوعيّة الآية: الكريمة تقول: إنّ اللّه تعالى حاضر حيثما كان العبد ووقتما أراد.

الثاني: الآية: الكريمة قالت ﴿عِبَادِي﴾ ولم تقل: «الناس». وهذا التعبير هو أقرب إلى العناية والرعاية.

الثالث: لا وجود للوسائط بينه وبين العباد ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ إذ لم يقل: فقل: إني قريب.

الرابع: التأكيد على القرب بإنّ ﴿فَإِنِّي﴾ إشارةً إلى مقامه المقدس.

الخامس: الإتيان بضمير المتكلم ياء المتكلم في ﴿فَإِنِّي﴾ وهذا يدلُّ على القرب الإلهي ثابت ودوامه مستمر حالاً ومستقبلاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) راجع المعجم في فقه لغة القران وسر بلاغته ج ١٩، ص ٥٠٨-٥١٤ مادة (د ع و).

السادس: وهناك دلالة حتمية على تجدد الإجابة وأنها مستمرة، حيث أتى بالفعل المضارع ﴿أُجِيبُ﴾.

السابع: أن الجواب مقيّد بالدعوة ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ الذي يقيّده ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ وهذا القيد لا يزيد على قوله: دعوة الداعي المقيد به شيءٌ بل هو عينه، وفيه دلالة على أن دعوة الداعي مجابة من غير شرط وقيد كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فهذه سبع نكات في الآية: تنبىء بالاهتمام باستجابة الدعاء والعناية بها، مع كون الآية: قد كرر فيها - على إيجازها - ضمير المتكلم سبع مرات، و هي الآية: الوحيدة في القرآن على هذا الوصف[١].

الطاعة لله تعالى شرط الاستجابة

وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قلت له: آيتان في كتاب اللّه لا أدري ما تأويلهما؟ فقال: «**وما هما؟**» قال: قلت: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢] ثم أدعو فلا أرى الإجابة، قال: فقال لي: «**أفتَرى اللّه تعالى أخلفَ وعدَهُ**»؟ قال: قلت: لا. قال: «**فَمَه**»؟ قلت: لا أدري. فقال: «**الآية الأخرى**» قال: قلت: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٣] فانفق لا أرى خلفاً، قال: «**افترى اللّه أخلف وعده**»؟ قال: قلت: لا قال: «**فمه**»؟ قلت: لا أدري قال: «**لكني أخبرك إن شاء اللّه تعالى أما إنكم لو أطعتموه فيما أمركم به، ثم دعوتموه لأجابكم، ولكن تخالفونه وتعصونه فلا يجيبكم. وأمّا قولك: تنفقون فلا ترون خَلَفاً أما إنكم لو كسبتم المال من حله ثم أنفقتموه في حقه، لم ينفق رجل درهما إلا أخلفه اللّه عليه، ولو دعوتموه من جهة الدعاء لأجابكم، وإن كنتم عاصين**». قال: قلت: وما جهة الدعاء؟ قال: «**إذا أديت الفريضة مجدت اللّه وعظمته وتمدحه بكل ما تقدر عليه، وتصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتجتهد في الصلاة عليه وتشهد له بتبليغ الرسالة وتصلي على أئمة الهدى عليهم السلام، ثم تذكر بعد التحميد اللّه والثناء عليه**

(١) تفسير الميزان، ج٢، ص ٣١-٣٢.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) سورة سبأ، ٣٩.

والصلاة على النبي ﷺ وما أبلاك وأولاك، وتذكر نعمه عندك وعليك، وما صنع بك فتحمده وتشكره على ذلك، ثم تعترف بذنوبك ذنب ذنب وتقر بها أو بما ذكرت منها، وتجمل ما خفي عليك منها، فتتوب إلى اللّه من جميع معاصيك وأنت تنوي ألا تعود، وتستغفر اللّه منها بندامة وصدق نية وخوف ورجاء، ويكون من قولك: «اللهم إني أعتذر إليك من ذنوبي وأستغفرك فأعنّي على طاعتك، ووفّقني لما أوجبت عليّ من كل ما يرضيك، فإنّي لم أرَ أحداً بلغ شيئاً من طاعتك إلّا بنعمتك عليه قبل طاعتك فأنعِمْ عليّ بنعمةٍ أنالُ بها رضوانَك والجنّة» ثم تسأل بعد ذلك حاجتك فاني أرجو أن لا يخيبك إن شاء اللّه تعالى»[1].

نظام الدعاء

ثمّ إنّ الدعاء له نظام يلزم على الداعي التقيد به، حاله حال الأنظمة الأخرى، كالنظام الاجتماعي، والنظام الاقتصادي، والنظام التكويني، وغيرها من الأنظمة التي يتحرك ويسير الناس عليها ووفق القوانين التي تشغل هذه الأنظمة. فكذلك الدعاء له نظام معيّن يحكمُ قوانينه وتشريعاته وشروطه؛ التي إن تمّت على أفضل ما يكون، تكون الإجابة حتمية كما وعدت الآيات الكثيرة في القرآن والأحاديث الصادرة من أهل البيت عليهم السلام، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إحفظ أدبَ الدعاءِ وانظرْ من تدعو، كيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقّق عظمة اللّه وكبرياءه، وعاينْ بقلبك علمه بما في ضميرك واطّلاعه على سرّك وما تكون فيه من الحقّ والباطل، واعرف طرق نجاتك وهلاكك كيلا تدعو اللّه تعالى بشيء فيه هلاكك وأنت تظنّ أن فيه نجاتك، قال اللّه تعالى ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، وتفكّر ماذا تسأل ولماذا تسأل... فإن لم تأتِ بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، فلعلك تدعوه بشيء قد علِمَ من سرِّكَ خلافَ ذلك**».

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٣١٩-٣٢٠ باب ١٧ ح ٢٨.

شروط استجابة الدعاء

١ ـ معرفة اللّه تعالى[1]

وهي من أهم الشروط الواجب معرفتها على الداعي، وهي شرط أساس في استجابة الدعاء، إذ معرفة اللّه تعالى تكوّن البنية الايمانية، وتهيئ للإيمان بسلطان اللّه وقدرته المطلق.

فعن معاذ بن جبل، عن رسول اللّه ﷺ: «**لو عرفتم اللّه حقَّ معرفته، لزالت لدعائكم الجبال**». وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ قال: «**يعلمون أني أقدر أن أعطيهم ما يسألوني**». وروي أن الإمام الصادق عليه السلام قرأ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فسئل: ما لنا ندعو، ولا يستجاب لنا؟ فقال: «**لأنكم تدعون من لا تعرفون، وتسألون ما لا تفهمون**» هذا الحديث يركز على مفهوم المعرفة في أهمية الوعي في طرح السؤال ومدى فاعليته في المصلحة والمفسدة، وأيضاً يشير الحديث إلى معرفة المسؤول ـ والمسؤول هو اللّه تعالى ـ وهو شرط لازم في عملية إجابة الدعاء، حيث ما لم يوجد الوعي في طرح السؤال ومعرفة المسؤول فإن المطلوب لن يتحقق بحسب الحديث.

٢ ـ حسن الظن باللّه.

بالعادة يستولي على الإنسان الذي لا يمتلك المعرفة، سوءُ الظنِّ بالآخرين، وكلُّه نتيجة الخمول وعدم التحرك لردع الجهل ومحاولة التعلم والتفهم في أسلوب التعاطي مع الطرف الآخر، و من هنا نجد الخطاب القراني يحث المؤمنين على الاجتناب عن رذائل الأخلاق، وسوء الظن هو عمق الرذائل يقول

---

(١) استفادة هذه العناوين من كتاب الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام لالآية اللّه الشيخ محمد مهدي الآصفي قدس سره.

اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(١) وهو ناتج عن فساد في التفكير، ومنبع هذه الصفات السيئة هو الوهم. ومن يتصف بهذه الصفة السيئة، ويحمل سوء الظنّ بالناس نتيجة مقدمات مغلوطة؛ فإنه بالنتيجة يصل إلى سوء الظن باللّه تعالى، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾(٢) هذه الآية: الكريمة تتحدّث عن سوء الظن باللّه، وكان موضوعها المجرمين الذين يرتكبون الإثم وهم غافلون عن أن هناك شهوداً سوف يشهدون بما ارتكبته تصرفاتهم وأعمالهم، وهؤلاء الشهود أعضاؤهم، ولكونهم فاقدي المعرفة باللّه تعالى، من بكون تحركاتهم كلِّها مرصودةً في محضر اللّه تعالى، وهو سبب رئيس لفقدان الهداية الإلهية والوصول إلى طريق الهدى والصراط المستقيم، فإنهم وقعوا في شَرَكِ الشيطان، والصفات والأخلاق السيئة، واتصافهم بسوء الظن باللّه تعالى... فمن خلال المعرفة باللّه تعالى، وتعميق المعارف العقائدية، سوف يحترز الإنسان من سوء الظن باللّه... وكلّما كان الإنسانُ حَسَنَ الظنِّ كانت استجابةُ دعائه أقرب، وكان القرب إلى اللّه تعالى أوثق، والعلاقة أكثر ترابطية، في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، فلا يَظُنُّ بي إلّا خيراً**» وعن رسول اللّه ﷺ: «**ادعوا اللّه، وأنتم موقنون بالإجابة**».

وأوحى اللّه تعالى إلى موسى: «**ما دعوتَني ورجوتَني فإنّي سامعٌ لك**» وعن أبي عبد اللّه الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا دعوتَ فأقبلْ بقلبك، وظُنَّ حاجتَكَ بالباب**» وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**فإذا دعوت فأقبلْ بقلبكَ ثم استيقِن الإجابة**». وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: جُعِلْتُ فداك إني قد سألت اللّه حاجةً منذ كذا وكذا سنة وقد دخل قلبي من إبطائها شيء، فقال: «**يا أحمدُ إيّاك والشيطان أن يكون له عليك سبيل حتى**

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٢-٢٣.

يقنطك، إن أبا جعفر صلوات اللّه عليه كان يقول: إن المؤمن يسأل اللّه عز وجل حاجة فيؤخر عنه تعجيل إجابته حبّاً لصوته واستماع نحيبه ثمّ قال: واللّه ما أَخَرَّ اللّه عزّ وجلّ عن المؤمنين ما يطلبون من هذه الدنيا خيرٌ لهم مما عجَّلَ لهم فيها وأيّ شيء الدنيا، إن أبا جعفر عليه السلام كان يقول: ينبغي للمؤمن أن يكون دعاؤه في الرخاء نحواً من دعائه في الشدة، ليس إذا أعطي فتر، فلا تملَّ الدعاء فإنّه من اللّه عزوجل بمكان وعليك بالصبر وطلب الحلال وصلة الرحم وإيّاك ومكاشفةَ الناسِ فإنّا أهلَ البيت نصلُ من قطعنا ونُحسن إلى من أساء إلينا، فنرى واللّهِ في ذلكَ العاقبةَ الحسنةَ. إنّ صاحبَ النعمة في الدنيا إذا سأل فأعطِيَ طلبَ غير الذي سأل وصغرت النعمةُ في عينه فلا يشبع من شيء وإذا كثرت النعم كان المسلم من ذلك على خطر للحقوق التي تجب عليه وما يخاف من الفتنة فيها، أخبرني عنك لو أني قلت لك قولا أكنت تثق به مني؟» فقلت له: جعلت فداك إذا لم أثق بقولك فبمن أثق وأنت حجة اللّه على خلقه؟ قال: «**فكن باللّه أوثق فإنك على موعد من اللّه، أليس اللّه عزوجل يقول:** ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ **وقال:** ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ **وقال:** ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ **فكن باللّه عز وجل أوثق منك بغيره ولا تجعلوا في أنفسكم إلّا خيراً فإنّه مغفورٌ لكم»**.

٣ ـ الاضطرار إلى اللّه

من الشروط الأساسية في حتمية استجابة الدعاء، هو لجوء الإنسان الى اللّه تعالى لا إلى غيره، بحيث لا يجد من يضع كامل ثقته ورجائِهِ في قضاء حاجته غير اللّه تعالى... إذ حين تكون الثقة متوزعة بين اللّه تعالى وغيره من عباده، لا يحصل الانقطاع الى اللّه تعالى، ولا يجد من نفسه حالة الاضطرار إلى اللّه، وبذلك يفقد شرطاً أساسيّاً من شروط استجابة الدعاء... قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وبالإخلاص يكون الخلاص فإذا اشتدَّ الفزع فإلى اللّه المفزع**»(١).

(١) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج٣، ص ١٨٣.

فيلزمُ على الإنسان أن يكون أكثرَ دقَّةً في اللجوء إلى طلب الحاجة، وأن يكون مالكاً للوعي الكافي الذي ينقذه وقت الوقوع في المشكلات، بحيث يلتجئ إلى من يضمن أن يرفع عنه تلك المشكلات التي ابتُليَ بها، ولا يوجد في هذا الكون المترامي الأطراف من هو أقدر على تلبية المطالب، وحل المشكلات غير اللّه تعالى... وهناك من يقع في أزمة اقتصادية، أو مشكلة نفسية، أو عائلية، أو أسريّة؛ ومن عظم ذهوله يفزع إلى غير المؤهَّل، وإلى غير المختصّ في حلّ هذه المشكلات، فيوقعه في أزمات ومشكلات أكثر، لماذا؟، لأنه ببساطة؛ غفل عن اللّه تعالى ومن أوكلهم اللّه تعالى لامتلاكهم مفاتيح الحلول، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[١] وحالة الرجوع إلى اللّه تعالى وأهل البيت عليهم السلام، في كل تنازع ومشكلة تقع على المؤمنين لحل الأزمات التي تطرأ عليهم، قد وضحتها هذه الآية: الكريمة، فإن اللجوء إلى غير هذا الطريق هو الضياع الحتمي، وعدم النجاة... فمن أخلص للّه والرسول وأهل بيت الرسول، سيكون على خير، وحين تقع المصاعب الشديدة سيكون حلُّها أسهل، لكونهم لديهم مفاتيح الحلول، وهناك الكثير من الروايات الدالة إلى أن جملة من أصحاب أهل البيت عليهم السلام قد لجأوا إليهم بدلالة الآية: الكريمة الدالة على الرجوع إليهم في كل تنازع، كما هو حالُ عليّ بن يقطين[٢] مع هارون الحاكم العباسي، في زمن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام...

٤ ـ الدخول من الأبواب التي أمر اللّه بها.

مثلما أشرنا سابقاً نقولُ بأنّ الدعاء له نظام معيّن، خاضع لقوانين واضحة؛ فمن راعى الضوابط والقوانين لهذا النظام استجاب له اللّه تعالى، ومن أهمل هذه الضوابط وأخذ يمشي ويعدو من غير ذليل أو مرشد يرشده نحو اتخاذ الطرق السليمة، فإنه بحسب المنظومة للنظام؛ سيكون معرَّضاً للضياع والتيه، ناهيك عن أن الشيطان سيتخذ من هذا الإنسان الضائع ألعوبة، يتلاعب به، قال الإمام

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) راجع رجال الكشي، ص ٣٠٧.

الصادق عليه السلام: «**السائر على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا تزيده كثرة السير إلّا بعدا**» ولا يوجد حُكّام على نظام الدعاء وآدابه أفضل من أهل البيت عليهم السلام، فَهُمُ الأبواب التي أمر اللّه تعالى الخلق بأنْ تطرق، يقول الإمام المعصوم عليه السلام في الزيارة المعروفة بالزيارة الجامعة: «**اَلسَّلامُ عَلَيْكُمْ يا اَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَوْضِعَ الرِّسالَةِ، وَمُخْتَلَفَ الْمَلائِكَةِ، وَمَهْبِطَ الْوَحْيِ، وَمَعْدِنَ الرَّحْمَةِ، وَخُزّانَ الْعِلْمِ، وَمُنْتَهَى الْحِلْمِ، وَاُصُولَ الْكَرَمِ، وَقادَةَ الاُمَمِ، وَاَوْلِياءَ النِّعَمِ، وَعَناصِرَ الأبْرارِ، وَدَعائِمَ الأخْيارِ، وَساسَةَ الْعِبادِ، وَاَرْكانَ الْبِلادِ، وَاَبْوابَ الايمانِ، وَاُمَناءَ الرَّحْمنِ، وَسُلالَةَ النَّبِيّينَ، وَصَفْوَةَ الْمُرْسَلينَ، وَعِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ الْعالَمينَ وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ ... اَلسَّلامُ عَلى اَئِمَّةِ الْهُدى، وَمَصابيحِ الدُّجى، وَاَعْلامِ التُّقى، وَذَوِى النُّهى، وَاُولِى الْحِجى، وَكَهْفِ الْوَرى، وَوَرَثَةِ الاَنْبِياءِ، وَالْمَثَلِ الاَعْلى، وَالدَّعْوَةِ الْحُسْنى، وَحُجَجِ اللّهِ عَلى اَهْلِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَالاُولى وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ ... اَلسَّلامُ عَلى مَحالِّ مَعْرِفَةِ اللّهِ، وَمَساكِنِ بَرَكَةِ اللّهِ، وَمَعادِنِ حِكْمَةِ اللّهِ، وَحَفَظَةِ سِرِّ اللّهِ، وَحَمَلَةِ كِتابِ اللّهِ، وَاَوْصِياءِ نَبِيِّ اللّهِ، وَذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ... اَلسَّلامُ عَلَى الدُّعاةِ اِلَى اللّهِ، وَالأَدِلاّءِ عَلى مَرْضاةِ اللّهِ، وَالْمُسْتَقِرّينَ فى اَمْرِ اللّهِ، وَالتّامّينَ فى مَحَبَّةِ اللّهِ، وَالْمُخْلِصينَ فى تَوْحيدِ اللّهِ، وَالْمُظْهِرينَ لأَمْرِ اللّهِ وَنَهْيِهِ، وَعِبادِهِ الْمُكْرَمينَ الَّذينَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِاَمْرِهِ يَعْمَلُونَ وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ**» في هذا المقطع الشريف من الزيارة الجامعة يتّضح بشكل لا لبسَ فيه أنّ المقصود من الأبواب التي من الواجب العبور منها لاستجابة الدعاء وقضاء الحاجات هم أئمة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، وهناك روايات تدل على هذا الوجه، عن أبي بصير، قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**الأوصياء هم أبواب اللّه عزَّ وجلَّ التي يؤتى منها، ولولاهم ما عُرِفَ اللّه عزَّ وجلَّ، وبهم احتجَّ اللّه تبارك وتعالى على خلقه**»(١) وعن أسود بن سعيد، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام، فأنشأ يقول ابتداءً من غير أن أسأله: «**نحن حجة اللّه، ونحن باب اللّه، ونحن لسان**

(١) تفسير البرهان،، ج١، ص ٤١٥.

اللّه، ونحن وجه اللّه، ونحن عين اللّه في خلقه، ونحن ولاة أمر اللّه في عباده»[١].
وعن سعد، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته عن هذه الآية: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[٢]. فقال: «**آل محمد أبواب اللّه وسبيله، والدعاة إلى الجنة، والقادة إليها، والأدلاء عليها إلى يوم القيامة**»[٣] وقال أبو جعفر عليه السلام: «**آل محمد أبواب اللّه وسبله، والدعاة إلى الجنة، والقادة إليها، والأدلاء عليها إلى يوم القيامة**»[٤].

عن ظريف، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «**من أتى آل محمد أتى عيناً صافيةً، تجري بعلم اللّه، ليس لها نفاد ولا انقطاع، ذلك بأن اللّه لو شاء لأراهم شخصه حتى يأتوه من بابه، ولكن جعل آل محمد أبوابه التي يؤتى منها، وذلك قوله عز وجل:** ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾»[٥].

عن الأصبغ بن نباتة، قال: كنت جالساً عند أمير المؤمنين عليه السلام، فجاء ابن الكواء، فقال: يا أمير المؤمنين، مَن البيوت في قول اللّه عز وجل: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾؟!. قال الامام علي عليه السلام: «**نحن البيوت التي أمر اللّه بأن تؤتى من أبوابها. نحن باب اللّه وبيوته التي يؤتى منها. فمن بايعنا، وأقر بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها. ومن خالفنا، وفضل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها**». فقال: يا أمير المؤمنين، ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾؟!. فقال الامام علي عليه السلام: «**نحن أصحاب الأعراف، نعرف أنصارنا بسيماهم. ونحن الأعراف يوم القيامة بين الجنة والنار، فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلّا من أنكرنا وأنكرناه، وذلك بأن اللّه عز وجل لو شاء عرَّف الناس نفسه، حتى يعرفوه وحده، ويأتوه من بابه.**

(١) تفسير البرهان، ج١، ص ٤١٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٣) تفسير البرهان، ج١، ص ٤١٦.
(٤) تفسير البرهان، ج١، ص ٤١٦.
(٥) تفسير البرهان، ج١، ص ٤١٦.

ولكنه جعلنا أبوابه، وصراطه، وسبيله، وبابه الذي يؤتى منه، فقال في من عدل عن ولايتنا، وفضل علينا غيرنا: فإنهم ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾»[(١)].

٥ ـ إقبال القلب على اللّه.

يشكل القلب المعنوي واحداً من المنظومات التي تتكامل مجتمعة في استجابة الدعاء، ولعله ركن أصيل في هذه المنظومة، بحيث تصرح الروايات بأنّ أحد أسباب عدم استجابة الدعاء؛ عدم إقبال وترقيق القلب قال الإمام الصادق أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «**إن اللّه عزو جل لا يستجيب دعاءً بظهرِ قلب ساهٍ فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثُمّ استيقن بالإجابة**» من خلال كلام الامام عليه السلام، يُلزِمُ الداعي بشرطين ضروريين، من أجل استجابة الدعاء؛ الأول: أن يكون القلب غير غافل، وغير ساهٍ، فيكون الداعي ملتفتاً إلى ما يقول من كلمات ومضامين. والثاني: أن يكون على يقين من تحصيل استجابة الدعاء، فعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه: «**لا يقبل اللّه عزَّ وجلَّ دعاءَ قلب لاه**»، وكان عليٌّ عليه السلام يقول: «**إذا دعاء أحدُكُم للميّتِ فلا يدعو له وقلبُهُ لاهٍ عنه ولكن ليجتهد له في الدعاء**»، وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**إذا دعوت فأقبل بقلبك وظُنَّ حاجتَكَ بالباب**»، وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**إن اللّه عزو جل لا يستجيب دعاءً بظهرِ قلبٍ قاسٍ**».

نكتفي إلى هنا بذكر ما يجبُ على الداعي أن يحقِّقه من شروط استجابة الدعاء.

هذا، وقد رغبت في وضع تأملات كنت أتأملها حين قراءة دعاء كميل؛ حيث تحضر تلك المفاهيم المتولدة من الفقرات والكلمات من الدعاء الشريف، إذ، تكونت في الذهن مجموعة من الأفكار والمضامين، فكان الاختيار على محاولة إيرادها على الورق، لحفظها أولاً وثانياً الرجوع إليها وقت الحاجة، وخصوصاً الاستفادة من الآيات المباركة، الأحاديث الشريفة.

وهناك نقطة جديرة بالذكر، وهي: أن ذكر الرأي العلمي من علماء الطبيعة لا يعني جزماً أنّه الرأي المؤيّد للنصّ الديني، إذ لربما تبطل النظرية العلمية الواردة

(١) الاحتجاج، ج١، ص ٢٧٧– ٢٧٨.

تحت النص الديني، لكن النص لا يبطل، وذلك لكونه صادراً من معصوم، لا يطرأ عليه الخطأ أو النسيان أو الغفلة، بينما النظرية صادرة عن انسان طبيعي عادة ليس لديه ميزة العصمة، كما هي للأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام، هذا ما لزم بيانه.
واللّهَ نسألُ التوفيق، وأن يجعلَ هذا القليلَ خالصاً له تعالى.

السيد ياسر محفوظ الموسوي الساري
٤ شعبان ١٤٣٨
يوم ولادة العباس بن أمير المؤمنين عليهما السلام
١/ مايو ٥/ ٢٠١٧
الاثنين

نص الدعاء الشريف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اَللّـهُمَّ اِنّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء، وَبِقُوَّتِكَ الَّتي قَهَرْتَ بِها كُلَّ شَيْء، وَخَضَعَ لَها كُلُّ شَيء، وَذَلَّ لَها كُلُّ شَيء، وَبِجَبَرُوتِكَ الَّتي غَلَبْتَ بِها كُلَّ شَيء، وَبِعِزَّتِكَ الَّتي لا يَقُومُ لَها شَيءٌ، وَبِعَظَمَتِكَ الَّتي مَلاَتْ كُلَّ شَيء، وَبِسُلْطانِكَ الَّذي عَلا كُلَّ شَيء، وَبِوَجْهِكَ الْباقي بَعْدَ فَناءِ كُلِّ شَيء، وَبِأَسْمائِكَ الَّتي مَلاَتْ اَرْكانَ كُلِّ شَيء، وَبِعِلْمِكَ الَّذي اَحاطَ بِكُلِّ شَيء، وَبِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي اَضاءَ لَهُ كُلُّ شَيء، يا نُورُ يا قُدُّوسُ، يا اَوَّلَ الاَْوَّلِينَ وَيا آخِرَ الاْخِرِينَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ، اَللّـهُمَّ اغْفِـرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّـرُ النِّعَمَ، اَللّـهُمَّ اغْفِرْ لي الذُّنُوبَ الَّتي تَحْبِسُ الدُّعاءَ، اَللّـهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ الْبَلاءَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لي كُلَّ ذَنْب اَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ خَطيئَة اَخْطَأْتُها، اَللّهُمَّ اِنّي اَتَقَرَّبُ اِلَيْكَ بِذِكْرِكَ، وَاَسْتَشْفِعُ بِكَ اِلى نَفْسِكَ، وَأَسْأَلُكَ بِجُودِكَ اَنْ تُدْنِيَني مِنْ قُرْبِكَ، وَاَنْ تُوزِعَني شُكْرَكَ، وَاَنْ تُلْهِمَني ذِكْرَكَ، اَللّهُمَّ اِنّي أَسْأَلُكَ سُؤالَ خاضِع مُتَذَلِّل خاشِع اَنْ تُسامِحَني وَتَرْحَمَني وَتَجْعَلَني بِقِسَمِكَ راضِياً قانِعاً وَفي جَميعِ الاَْحْوالِ مُتَواضِعاً، اَللّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ سُؤالَ مَنِ اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ، وَاَنْزَلَ بِكَ عِنْدَ الشَّدائِدِ حاجَتَهُ، وَعَظُمَ فيما عِنْدَكَ رَغْبَتُهُ، اَللّـهُمَّ عَظُمَ سُلْطانُكَ وَعَلا مَكانُكَ وَخَفِي مَكْرُكَ وَظَهَرَ اَمْرُكَ وَغَلَبَ قَهْرُكَ وَجَرَتْ قُدْرَتُكَ وَلا يُمْكِنُ الْفِرارُ مِنْ حُكُومَتِكَ، اَللّهُمَّ لا اَجِدُ لِذُنُوبي غافِراً، وَلا لِقَبائِحي ساتِراً، وَلا لِشَيءٍ مِنْ عَمَلِيَ الْقَبيحِ بِالْحَسَنِ مُبَدِّلاً غَيْرَكَ لا اِلـهَ إلاّ اَنْتَ سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ ظَلَمْتُ نَفْسي، وَتَجَرَّأْتُ بِجَهْلي وَسَكَنْتُ

اِلى قَديم ذِكْرِكَ لي وَمَنِّكَ عَلَيَّ، اَللّهُمَّ مَوْلاي كَمْ مِنْ قَبيح سَتَرْتَهُ وَكَمْ مِنْ فادح مِنَ الْبَلاءِ اَقَلْتَهُ (اَمَلْتَهُ) وَكَمْ مِنْ عِثار وَقَيْتَهُ، وَكَمْ مِنْ مَكْرُوه دَفَعْتَهُ، وَكَمْ مِنْ ثَناءٍ جَميلٍ لَسْتُ اَهْلاً لَهُ نَشَرْتَهُ، اَللّهُمَّ عَظُمَ بَلائي وَاَفْرَطَ بي سُوءُ حالي، وَقَصُرَتْ (قَصَّرَتْ) بي اَعْمالي وَقَعَدَتْ بي أَغْلالي، وَحَبَسَني عَنْ نَفْعي بُعْدُ اَمَلي (آمالي)، وَخَدَعَتْنِي الدُّنْيا بِغُرُورِها، وَنَفْسي بِجِنايَتِها (بِخِيانَتِها) وَمِطالي يا سَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ اَنْ لا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعائي سُوءُ عَمَلي وَفِعالي، وَلا تَفْضَحْني بِخَفِي مَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ سِرّى، وَلا تُعاجِلْني بِالْعُقُوبَةِ عَلى ما عَمِلْتُهُ في خَلَواتي مِنْ سُوءِ فِعْلي وَإساءَتي وَدَوامِ تَفْريطي وَجَهالَتي وَكَثْرَةِ شَهَواتي وَغَفْلَتي، وَكُنِ اللّهُمَّ بِعِزَّتِكَ لي في كُلِّ الأَحْوالِ (فِي الأَحْوالِ كُلِّها) رَؤوفاً وَعَلَي في جَميعِ الأُمُورِ عَطُوفاً اِلـهي وَرَبّي مَنْ لي غَيْرُكَ أَسْأَلُهُ كَشْفَ ضُرّي وَالنَّظَرَ في اَمْري، اِلهي وَمَوْلاي اَجْرَيْتَ عَلَي حُكْماً اِتَّبَعْتُ فيهِ هَوى نَفْسي وَلَمْ اَحْتَرِسْ فيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوّي، فَغَرَّني بِما اَهْوى وَاَسْعَدَهُ عَلى ذلِكَ الْقَضاءُ فَتَجاوَزْتُ بِما جَرى عَلَي مِنْ ذلِكَ بَعْضَ حُدُودِكَ، وَخالَفْتُ بَعْضَ اَوامِرِكَ فَلَكَ الْحَمْدُ (اَلْحُجَّةُ) عَلَيَّ في جَميعِ ذلِكَ وَلا حُجَّةَ لي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُكَ وَاَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ، وَقَدْ اَتَيْتُكَ يا اِلـهي بَعْدَ تَقْصيري وَاِسْرافي عَلى نَفْسي مُعْتَذِراً نادِماً مُنْكَسِراً مُسْتَقيلاً مُسْتَغْفِراً مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِناً مُعْتَرِفاً لا اَجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنّي وَلا مَفْزَعاً اَتَوَجَّهُ اِلَيْهِ في اَمْري غَيْرَ قَبُولِكَ عُذْري وَاِدْخالِكَ اِيّايَ في سَعَة (مِن) رَحْمَتِكَ اَللّـهُمَّ (اِلـهي) فَاقْبَلْ عُذْري وَارْحَمْ شِدَّةَ ضُرّي وَفُكَّني مِنْ شَدِّ وَثاقي، يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَني وَرِقَّةَ جِلْدي وَدِقَّةَ عَظْمي، يا مَنْ بَدَأَ خَلْقي وَذِكْري وَتَرْبِيَتي وَبِرّى وَتَغْذِيَتي هَبْني لاِبْتِداءِ كَرَمِكَ وَسالِفِ بِرِّكَ بي يا اِلـهي وَسَيِّدي وَرَبّي، اَتُراكَ مُعَذِّبي بِنارِكَ بَعْدَ تَوْحيدِكَ وَبَعْدَ مَا انْطَوى عَلَيْهِ قَلْبي مِنْ مَعْرِفَتِكَ وَلَهِجَ بِهِ لِساني مِنْ ذِكْرِكَ، وَاعْتَقَدَهُ ضَميري مِنْ حُبِّكَ، وَبَعْدَ صِدْقِ اعْتِرافي وَدُعائي خاضِعاً لِرُبُوبِيَّتِكَ، هَيْهاتَ اَنْتَ اَكْرَمُ مِنْ اَنْ تُضَيِّعَ مَنْ رَبَّيْتَهُ اَوْ تُبْعِدَ (تُبَعِّدَ) مَنْ اَدْنَيْتَهُ اَوْ تُشَرِّدَ مَنْ اوَيْتَهُ اَوْ تُسَلِّمَ اِلَى الْبَلاءِ مَنْ كَفَيْتَهُ وَرَحِمْتَهُ، وَلَيْتَ شِعْرى يا سَيِّدي

وَالِـهي وَمَوْلايَ اَتُسَلِّطُ النّارَ عَلى وُجُوه خَرَّتْ لِعَظَمَتِكَ ساجِدَةً، وَعَلى اَلْسُنٍ نَطَقَتْ بِتَوْحيدِكَ صادِقَةً، وَبِشُكْرِكَ مادِحَةً، وَعَلى قُلُوب اعْتَرَفَتْ بِإِلهِيَّتِكَ مُحَقِّقَةً، وَعَلى ضَمائِرَ حَوَتْ مِنَ الْعِلْمِ بِكَ حَتّى صارَتْ خاشِعَةً، وَعَلى جَوارِحَ سَعَتْ اِلى اَوْطانِ تَعَبُّدِكَ طائِعَةً وَاَشارَتْ بِاسْتِغْفارِكَ مُذْعِنَةً، ما هكَذَا الظَّنُّ بِكَ وَلا اُخْبِرْنا بِفَضْلِكَ عَنْكَ يا كَريمُ يا رَبِّ وَاَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفي عَنْ قَليل مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا وَعُقُوباتِها وَما يَجْري فيها مِنَ الْمَكارِهِ عَلى اَهْلِها، عَلى اَنَّ ذلِكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَليلٌ مَكْثُهُ، يَسيرٌ بَقاؤُهُ، قَصيرٌ مُدَّتُهُ فَكَيْفَ احْتِمالي لِبَلاءِ الاْخِرَةِ وَجَليلِ (حُلُولِ) وُقُوعِ الْمَكارِهِ فيها وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقامُهُ وَلا يُخَفَّفُ عَنْ اَهْلِهِ لاَنَّهُ لا يَكُونُ إلاّ عَنْ غَضَبِكَ وَاْنتِقامِكَ وَسَخَطِكَ، وَهذا ما لا تَقُومُ لَهُ السَّمـاواتُ وَالأرْضُ يا سَيِّدِي فَكَيْفَ لي (بي) وَاَنَا عَبْدُكَ الضَّعيفُ الذَّليلُ الْحَقيرُ الْمِسْكينُ الْمُسْتَكينُ، يا اِلهي وَرَبّي وَسَيِّدِي وَمَوْلايَ لاَيِّ الاُْمُورِ اِلَيْكَ اَشْكُو وَلِما مِنْها اَضِجُّ وَاَبْكي لاَِليمِ الْعَذابِ وَشِدَّتِهِ، اَمْ لِطُولِ الْبَلاءِ وَمُدَّتِهِ، فَلَئِنْ صَيَّرْتَنى لِلْعُقُوباتِ مَعَ اَعْدائِكَ وَجَمَعْتَ بَيْني وَبَيْنَ اَهْلِ بَلائِكَ وَفَرَّقْتَ بَيْني وَبَيْنَ اَحِبّائِكَ وَاَوْلِيائِكَ، فَهَبْني يا اِلـهى وَسَيِّدِي وَمَوْلايَ وَرَبّي صَبَرْتُ عَلى عَذابِكَ فَكَيْفَ اَصْبِرُ عَلى فِراقِكَ، وَهَبْني (يا اِلـهي) صَبَرْتُ عَلى حَرِّ نارِكَ فَكَيْفَ اَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ اِلى كَرامَتِكَ اَمْ كَيْفَ اَسْكُنُ فِي النّارِ وَرَجائي عَفْوُكَ فَبِعِزَّتِكَ يا سَيِّدى وَمَوْلايَ اُقْسِمُ صادِقاً لَئِنْ تَرَكْتَني ناطِقاً لأَضِجَّنَّ اِلَيْكَ بَيْنَ اَهْلِها ضَجيجَ الآمِلينَ (الاْلِمينَ) وَلاَ صْرُخَنَّ اِلَيْكَ صُراخَ الْمَسْتَصْرِخينَ، وَلاَ بْكِيَنَّ عَلَيْكَ بُكاءَ الْفاقِدينَ، وَلاَ نادِيَنَّكَ اَيْنَ كُنْتَ يا وَلِيَّ الْمُؤْمِنينَ، يا غايَةَ آمالِ الْعارِفينَ، يا غِياثَ الْمُسْتَغيثينَ، يا حَبيبَ قُلُوبِ الصّادِقينَ، وَ يا اِلهَ الْعالَمينَ، اَفَتُراكَ سُبْحانَكَ يا اِلهى وَبِحَمْدِكَ تَسْمَعُ فيها صَوْتَ عَبْد مُسْلِم سُجِنَ (يُسْجَنُ) فيها بِمُخالَفَتِهِ، وَذاقَ طَعْمَ عَذابِها بِمَعْصِيَتِهِ وَحُبِسَ بَيْنَ اَطْباقِها بِجُرْمِهِ وَجَريرَتِهِ وَهُوَ يَضِجُّ اِلَيْكَ ضَجيجَ مُؤَمِّل لِرَحْمَتِكَ، وَيُناديكَ بِلِسانِ اَهْلِ تَوْحيدِكَ، وَيَتَوَسَّلُ اِلَيْكَ بِرُبُوبِيَّتِكَ، يا مَوْلايَ فَكَيْفَ يَبْقى فِي الْعَذابِ وَهُوَ يَرْجُو ما سَلَفَ مِنْ حِلْمِكَ، اَمْ

كَيْفَ تُؤْلِمُهُ النّارُ وَهُوَ يَأْمَلُ فَضْلَكَ وَرَحْمَتَكَ اَمْ كَيْفَ يُحْرِقُهُ لَهيبُها وَاَنْتَ تَسْمَعُ صَوْتَهُ وَتَرى مَكانَه اَمْ كَيْفَ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ زَفيرُها وَاَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفَهُ، اَمْ كَيْفَ يَتَقَلْقَلُ بَيْنَ اَطْباقِها وَاَنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ، اَمْ كَيْفَ تَزْجُرُهُ زَبانِيَتُها وَهُوَ يُناديكَ يا رَبَّهُ، اَمْ كَيْفَ يَرْجُو فَضْلَكَ في عِتْقِهِ مِنْها فَتَتْرُكُهُ فيها هَيْهاتَ ما ذلِكَ الظَّنُ بِكَ وَلاَ الْمَعْرُوفُ مِنْ فَضْلِكَ وَلا مُشْبِهٌ لِما عامَلْتَ بِهِ الْمُوَحِّدينَ مِنْ بِرِّكَ وَاِحْسانِكَ، فَبِالْيَقينِ اَقْطَعُ لَوْلا ما حَكَمْتَ بِهِ مِنْ تَعْذيبِ جاحِديكَ، وَقَضَيْتَ بِهِ مِنْ اِخْلادِ مُعانِديكَ لَجَعَلْتَ النّارَ كُلَّها بَرْداً وَسَلاماً وَما كانَ لاَحَد فيها مَقَرّاً وَلا مُقاماً لكِنَّكَ تَقَدَّسَتْ اَسْماؤُكَ اَقْسَمْتَ اَنْ تَمْلاَها مِنَ الْكافِرينَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنّاسِ اَجْمَعينَ، وَاَنْ تُخَلِّدَ فيهَا الْمُعانِدينَ وَاَنْتَ جَلَّ ثَناؤُكَ قُلْتَ مُبْتَدِئاً، وَتَطَوَّلْتَ بِالاْنْعامِ مُتَكَرِّماً اَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ، اِلهى وَسَيِّدى فَأَسْأَلُكَ بِالْقُدْرَةِ الَّتى قَدَّرْتَها، وَبِالْقَضِيَّةِ الَّتي حَتَمْتَها وَحَكَمْتَها وَغَلَبْتَ مَنْ عَلَيْهِ اَجْرَيْتَها اَنْ تَهَبَ لى فى هذِهِ اللَّيْلَةِ وَفي هذِهِ السّاعَةِ كُلَّ جُرْمٍ اَجْرَمْتُهُ، وَكُلَّ ذَنْبٍ اَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ قَبيحٍ اَسْرَرْتُهُ، وَكُلَّ جَهْلٍ عَمِلْتُهُ، كَتَمْتُهُ اَوْ اَعْلَنْتُهُ اَخْفَيْتُهُ اَوْ اَظْهَرْتُهُ، وَكُلَّ سَيِّئَةٍ اَمَرْتَ بِاِثْباتِهَا الْكِرامَ الْكاتِبينَ الَّذينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ ما يَكُونُ مِنّي وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوارِحي، وَكُنْتَ اَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرائِهِمْ، وَالشّاهِدَ لِما خَفِيَ عَنْهُمْ، وَبِرَحْمَتِكَ اَخْفَيْتَهُ، وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ، وَاَنْ تُوَفِّرَ حَظّي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ اَنْزَلْتَهُ (تُنَزِّلُهُ) اَوْ اِحْسانٍ فَضَّلْتَهُ اَوْ بِرٍّ نَشَرْتَهُ (تَنْشُرُهُ) اَوْ رِزْقٍ بَسَطْتَهُ (تَبْسُطُهُ) اَوْ ذَنْبٍ تَغْفِرُهُ اَوْ خَطَأٍ تَسْتُرُهُ، يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبِّ يا اِلهي وَسَيِّدي وَمَوْلايَ وَمالِكَ رِقّى، يا مَنْ بِيَدِهِ ناصِيَتى يا عَليماً بِضُرّى (بِفَقْرى) وَمَسْكَنَتى، يا خَبيراً بِفَقْرى وَفاقَتى يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ وَقُدْسِكَ وَاَعْظَمِ صِفاتِكَ وَاَسْمائِكَ اَنْ تَجْعَلَ اَوْقاتي مِنَ (فِي) اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بِذِكْرِكَ مَعْمُورَةً، وَبِخِدْمَتِكَ مَوْصُولَةً، وَاَعْمالى عِنْدَكَ مَقْبُولَةً حَتّى تَكُونَ اَعْمالي وَاَوْرادى (وَاِرادَتي) كُلُّها وِرْداً واحِداً وَحالى فى خِدْمَتِكَ سَرْمَداً، يا سَيِّدي يا مَنْ عَلَيْهِ مُعَوَّلي يا مَنْ اِلَيْهِ شَكَوْتُ اَحْوالي يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبِّ، قَوِّ عَلى خِدْمَتِكَ جَوارِحى وَاشْدُدْ عَلَى الْعَزيمَةِ جَوانِحي وَهَبْ لِيَ الْجِدَّ في

خَشْيَتِكَ، وَالدَّوامَ فِي الاْتِّصالِ بِخِدْمَتِكَ، حَتّى اَسْرَحَ اِلَيْكَ في مَيادينِ السّابِقينَ وَاُسْرِعَ اِلَيْكَ فِي الْبارِزينَ (الْمُبادِرينَ) وَاَشْتاقَ اِلى قُرْبِكَ فِي الْمُشْتاقينَ وَاَدْنُوَ مِنْكَ دُنُوَّ الْمخْلِصينَ، وَاَخافَكَ مَخافَةَ الْمُوقِنينَ، وَاَجْتَمِعَ فى جِوارِكَ مَعَ الْمُؤْمِنينَ، اَللّهُمَّ وَمَنْ اَرادَني بِسُوء فَاَرِدْهُ وَمَنْ كادَني فَكِدْهُ، وَاجْعَلْني مِنْ اَحْسَنِ عَبيدِكَ نَصيباً عِنْدَكَ، وَاَقْرَبِهِمْ مَنْزِلَةً مِنْكَ، وَاَخَصِّهِمْ زُلْفَةً لَدَيْكَ، فَاِنَّهُ لا يُنالُ ذلِكَ إلاّ بِفَضْلِكَ، وَجُدْ لي بِجُودِكَ وَاعْطِفْ عَلَيَّ بِمَجْدِكَ وَاحْفَظْني بِرَحْمَتِكَ، وَاجْعَلْ لِساني بِذِكْرِكَ لَهِجاً وَقَلْبي بِحُبِّكَ مُتَيَّماً وَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْنِ اِجابَتِكَ، وَاَقِلْني عَثْرَتي وَاغْفِرْ زَلَّتي، فَاِنَّكَ قَضَيْتَ عَلى عِبادِكَ بِعِبادَتِكَ، وَاَمَرْتَهُمْ بِدُعائِكَ، وَضَمِنْتَ لَهُمُ الاْجابَةَ، فَاِلَيْكَ يا رَبِّ نَصَبْتُ وَجْهي وَاِلَيْكَ يا رَبِّ مَدَدْتُ يَدي، فَبِعِزَّتِكَ اسْتَجِبْ لي دُعائي وَبَلِّغْني مُنايَ وَلا تَقْطَعْ مِنْ فَضْلِكَ رَجائي، وَاكْفِني شَرَّ الْجِنِّ وَالاْنْسِ مِنْ اَعْدائي، يا سَريعَ الرِّضا اِغْفِرْ لِمَنْ لا يَمْلِكُ إلاّ الدُّعاءَ فَاِنَّكَ فَعّالٌ لِما تَشاءُ، يا مَنِ اسْمُهُ دَواءٌ وَذِكْرُهُ شِفاءٌ وَطاعَتُهُ غِنىً، اِرْحَمْ مَنْ رَأْسُ مالِهِ الرَّجاءُ وَسِلاحُهُ الْبُكاءُ، يا سابِغَ النِّعَمِ، يا دافِعَ النِّقَمِ، يا نُورَ الْمُسْتَوْحِشينَ فِي الظُّلَمِ، يا عالِماً لا يُعَلَّمُ، صَلِّ عَلى مُحَمَّدِ وَآلِ مُحَمَّدِ وَافْعَلْ بي ما اَنْتَ اَهْلُهُ وَصَلَّى اللّهُ عَلى رَسُولِهِ وَالأئِمَّةِ الْمَيامينِ مِنْ آلِهِ (اَهْلِهِ) وَسَلَّمَ تَسْليماً كَثيراً.

أهمية قراءة الأدعية

تكمن أهمية قراءة الأدعية في كونها العقل المفكر للعبادة، قال رسول اللّه ﷺ: «**الدعاء مخ العبادة**».

ومن هذا المنطلق ترتكز لدينا عدة أمور من أهمها أنّه:

١ - يوفر الدعاء المخزون الكافي للمعرفة العقائدية فمن جملة النصوص الواردة في هذا الشأن قول الإمام الحسين في دعائه في يوم عرفة: «**كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيبا وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا**». ونلاحظ جيداً الأسلوب الجذاب الذي أبدعه الإمام في توصيل يد العبد الى المعرفة الإلهية.

٢ - يستوقف الدعاء عند واحدة هي من المراحل المصيرية للإنسان، وهي العناية بتربية النفس وخوض جهادٍ لمقاومة هذا العدو «**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**». فمن جملة النصوص الواردة في هذا الشأن المناجاة الثانية للإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام حيث يقول: «**إلهي أشكو إليك نفساً بالسوء أمّارة وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيكَ مولعة، ولسخطك متعرضة تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل طويلة الأمل، إن مسها الشر تجزع وإن مسها الخير تمنع، ميالة الى اللعب واللهو، مملوَّةً بالغفلة والسهو، تسرع بي الى الحوبة وتسوّفني بالتوبة**» وواضح من خلال هذا النص الوارد كيف تتم الشكوى من النفس والمتأمل يجد في هذا النص الكثير من البراهين المتجلية حول العناية بالنفس.

٣ ـ يهتم الدعاء بالقضايا الاجتماعية ويحاول وضع الحلول المناسبة حول المشكلات المستعصية، ومن منطلق النصّ الوارد «**من أصبح ولم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم**» فإنّ الدعاء يرسم لنا المنعطفات الاستراتيجيّة ويحاول من جانب آخر أن يزحزح المجتمع الإسلامي عن الهفوات الهينة والعظيمة. فمن جملة النصوص الواردة، قول الإمام السجاد عليه السلام في دعائه لأهل الثغور: «**اللهمّ صلِّ على محمد وآل محمد وحصّن ثغور المسلمين بعزتك وأيد حماتها بقوتك وأسبغ عطاياهم من جدتك اللهم صلِّ على محمد وآله وكثّر عدَّتهم واشحذ أسلحتهم واحرس حوزتهم وامنع حومتهم وألّف جمعهم ودبّر أمرهم وواتر بين مِيرَهم وتوحّد بكفاية مؤنهم واعضُدْهم بالنصر وأعنهم بالصبر والطف لهم في المكر...** » الخ. نرى في هذا النص الروح الواحدة في المجتمع الإسلامي، ونلاحظ الكيفية التي من خلالها يتمُّ رسمُ الخططِ المستقبليةِ (الاستراتيجية) وحماية المجتمع من التلوث العدائي فيما بين أفراده من خلال التكاتفِ والتراصِّ وإشاعةِ روح المحبّة والتسالم، وذلك من أجل تكوين الكتلة الإيمانية المتحابّة.

كميل مستودع الأسرار

هو كميل بن زياد بن سهيل بن هيثم بن سعد بن مالك بن الحارث بن صهبان بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن وعلة بن خالد بن مالك بن أدد كان من أصحاب الإمام علي عليه السلام وشيعته وخاصّته، وقتله الحجّاجُ على المذهب فيمن قتل من الشيعة وكان كميل بن زياد عامل علي عليه السلام على هيت وكان ضعيفاً تمرُّ عليه سرايا معاوية تنهب أطراف العراق ولا يردها ويحاول أن يجبر ما عنده من الضعف بأن يغير على أطراف أعمال معاوية مثل قرقيسيا وما يجري مجراها من القرى التي على الفرات فأنكر الامام عليه السلام ذلك من فعله وقال: إن من العجز الحاضر أن يُهملَ الوالي ما وليَهُ ويتكلّفُ ما ليس من تكليفه[1]. وهو يحتلُّ المكانة العظيمة، والثقة العالية لدى أمير المؤمنين عليه السلام، إذ طالما كان الأخير يصطحبه في اسفاره، ويُطلِعُهُ على أسرارٍ لم يُطلعْ عليها غيرَهُ، حتى عُدَّ بأنّه من أعاظم خواصِّ أمير المؤمنين، وأصحاب سرِّهِ.

قال الشيخ المفيد: قال: لما وليّ الحجّاج لعنه اللّه، طلب كميل بن زياد فهرب منه، فحرم قومه عطاءهم، فلما رأى كميل ذلك قال: أنا شيخ كبير وقد نفد عمري ولا ينبغي أن أحرم قومي عطاءهم، فخرج فدفع بيده إلى الحجّاج، فلمّا رآه قال له: لقد كنت أحبّ أن أجد عليك سبيلاً، فقال له كميل: لا تصرف عليّ أنيابك ولا تهدم عليّ، فواللّهِ ما بقي من عمري إلاّ مثلُ كواسر الغبار، فاقضِ ما أنت قاض، فإنّ الموعد اللّه، وبعد القتل الحساب، ولقد خبّرني أمير المؤمنينَ عليه السلام أنّك قاتلي، قال: فقال له الحجّاج: الحجّة عليك إذاً، فقال له كميل: ذاك إذا كان القضاء إليك، قال: بلى، قد كنت فيمن قتل عثمان بن عفان! إضربوا عنقه، فضربت عنقه!!.

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ج١٧، ص ١٠٧ الكتب والرسائل ٦١.

قال السيد الخوئي قدس سره: جلالة كميل واختصاصه بأمير المؤمنين عليه السلام من الواضحات التي لا يدخلها ريب[١].

ونستفيد من هذه الشخصية الجليلة أنّها حريصةٌ كلَّ الحرصِ على أنّها تمتلك هذه المنزلة الشريفة والمقام الرفيع لدى امير المؤمنين عليه السلام، وحيث إنّ القربَ إلى الإمام لم يكن بالأمر الهيّنِ والسهلِ، فمن الطبيعي أنَّ هذه الشخصيةَ قد وصلت إلى الجهاد الأكبر في ذروته العَظمى، ومن الطبيعي أيضاً أنَّ السلوكيّاتِ الاجتماعيّة لها النصيبُ الوافر في تحليل هذه الشخصية، مما جعلها تحتلُّ المكانةَ القدسيّةَ الى يومنا هذا، وذلك ببركة الرعاية والعناية، حيث كان الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام يضع أحد أهمِّ أصحابِهِ في خانة الاهتمام والتربية وصناعة الجيل الواعي والذي يحمل الروح الواعية والسلاح الفكري الناضج.

هذا وقد استشهد على يد جلّاد وطاغي عصره الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٩٢هـ وهو ابن ٩٠ عاماً.

(١) معجم رجال الحديث، ج ١٥، ص ١٣٢.

كميل يروي الدعاء

روى السيد في الإقبال: قال كميلُ بن زياد: كنت جالساً مع مولاي أمير المؤمنين عليه السَّلام في مسجد البصرة ومعه جماعة من أصحابه. فقال بعضهم: ما معنى قول اللّه عَزَّ وجَلَّ: «**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ؟**» قال عليه السلام: «**ليلة النصف من شعبان، الذي نفس عليٍّ بيده إنه ما من عبد إلاّ و جميع ما يجري عليه من خير و شر مقسوم له في ليلة النصف من شعبان إلى آخر السنة في مثل تلك الليلة المقبلة، و ما من عبد يحييها و يدعو بدعاء الخضر** عليه السلام **إلا أجيب (له)..**». فلما انصرف طرقته ليلاً. فقال عليه السلام: «**ما جاء بك يا كميل**«؟ قلت: يا أمير المؤمنين دعاء الخضر.

فقال: «**اجلس يا كميل، إذا حفظت هذا الدعاء فادعُ به كل ليلة جمعة، أو في الشهر مرة، أو في السنة مرة، أو في عمرك مرة، تُكْفَ وَ تُنْصَر وَ تُرْزَق، وَ لَنْ تُعْدَم المغفرة. يا كميل: أوجَبَ لك طول الصحبة لنا أن نَجُودَ لكَ بما سألت**». ثم قال: «**اَللّـهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء**»[1] ... وذَكَرَ الدعاء.

وإذ الرواية مفادها أنَّ كميل كان جالساً مع الامام وجماعة من أصحاب الإمام في مسجد البصرة، وقد تطرق الجماعة إلى معنى الآية: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فقال الإمام عليه السلام: ليلة النصف من شعبان، إذ يقسم الامام حينئذٍ باللّه عز وجل على أنّ هذه الليلة يقدر فيها الخير والشرّ للناس وان للمؤمن الثواب الجزيل إذا أحياها، وأن يَدعو بدعاء الخضر عليه السلام... وفي وقت لاحق ينصرف من حضر ومن ثمَّ يطرقه كميل في ظلمة الليل طالباً أمير المؤمنين أن يُعلِّمَه الدعاء... فيبدأ الإمام في سرد الدعاء وكميل يدونه في صحيفة استعداداً للتعبد والتقرب به الى اللّه تبارك وتعالى .

---

(١) شرح دعاء كميل، للسيد السبزواري، ص ٧، نقلاً عن كتاب إقبال الأعمال.

ونستفيد من ذلك أنَّ التمسُّك بالثقافة والفكر الاسلامي له الطابعُ العامُّ في السلوك الفردي والاجتماعي، وحينئذٍ يعزز الحضور الاسلامي في قلب وشرايين المجتمع... وثمة التفاتة دقيقة في الرواية الاخيرة وهي الإصرار المتشدد على وعيٍ ومعرفةِ الدعاء، وكان ذلك طبعاً بالإخلاص للّه تبارك وتعالى.

وهذا الإصرارُ يُرشدنا إلى قراءة الدعاء بلهفة شديدة ومحاولة الإدمان عليه في كلِّ ليلة جمعة مشاركين تلك الفئة المؤمنة ونحلِّقُ حيث رحابُ اللّه سبحانه وتعالى.

الدعاء والعصمة

عادةً يُطرح إشكال يتعلَّقُ بالدعاء مفادُهُ: أنّ الدعاءَ يتناولُ قسماً كبيراً من الاعترافات بارتكاب الذنوب الكبيرة والعظيمة، والتي من خلالها تهتك العصم، وتنزل النقم، وتغيّر النعم، وتحبس الدعاء، وتنزل البلاء، حيث الامام قد نطق بلسانه، وفي مقابل هذا الاعتراف القرآن الكريم يُقِرُّ بعصمة الإمام من الخطأ والسهو والنسيان فضلاً عن الذنوب العظيمة سواءٌ أكانت كبيرةً أم صغيرةً، فكيف نوفق في ذلك؟

يلاحظ عليه من خلال إجابتين:

١ ـ أراد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يُرشد الناسَ إلى كيفيّة التخاطب مع اللّه عز وجل، حيث الاستكانة والخضوع والاعتراف بالجرم، وفي ذات اللحظة يتذوق العبد طعم القرب إلى اللّه تبارك وتعالى.

٢ ـ أنّ المقامَ الذي وصل إليه أمير المؤمنين عليه السلام عند اللّه تعالى عالٍ ورفيع المنزلة، بحيث صرَّحَ في قول بليغ أنّه «لو كُشِفَ ليَ الغطاء ما ازددتُ يقيناً»، وفي مقابل ذلك يرى عظمة الخالق وجبروته، وحينئذٍ يستشعر الامام بالهيبة الربانية وعظم واجب الوجود في ذات نفس الإمام مما يجعله صغيراً أمام هذه العظمة القدسيّة، ويكون حينئذٍ كمن أذنب واعترف بالذنب، وقصّر واعترف بالتقصير، وهو بعيدٌ كلَّ البعدِ عن الذنوب والتقصير.

مدخل الى الدعاء

توجدُ ثلاث مراحل يتوقّفُ عندها العبدُ كحدٍ أدنى في الدعاء يستمدُّ منها القربَ إلى اللّه تبارك وتعالى وهي:

المرحلة الأولى: عملية التأدّب أمام العظمة الربانيّة، والخوض في بحار المدح والثناء على اللّه سبحانه، ساعياً بذلك إلى الوصول الى مقام الاعتراف بالذنب، وهذه المرحلة تبدأ من قوله «**اللهم اني اسألك برحمتك التي وسعت كل شيء... الى قوله ... يا أول الأولين ويا آخر الآخِرين...**».

المرحلة الثانية: الخوض في بحرِ الاعتراف بالذنوب، وسيبقى العبد يبحر ويبحر في هذه المياه النتنة إلى أن تصلَ به الأمواج العاتية الى مياه البحار النظيفة والتي يستعد فيها العبد للانطلاق إلى فضاء الحرية، وتبدأ هذه المرحلة من قوله «**اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم** ... إلى قوله ... **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون**».

المرحلة الثالثة: يحاول العبد ان يتنفس الصعداء بعد طول عناء ومشقة من جرّاءِ ثقل الذنوب التي كان يحملها. وهو الآن في هذه المرحلة يسعى ويطلُبُ الحصول ونيل المناصب العليا، ويترقّى إلى أعلى الرتب والدرجات، وخصوصاً أنّه قد علم مسبقاً أنَّ من غفر له الذنوبَ، فإنّه كمن ولدته أمّه، فهو يتحرك بشوق ولهفة شديدة، وتبدأ هذه المرحلة من قوله «**إلهي وسيدي فأسألك بالقدرة التي قدرتها...**» إلى آخر الدعاء.

الفقرة الأولى

اَللّـهُمَّ اِنّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء، وَبِقُوَّتِكَ الَّتي قَهَرْتَ بِها كُلَّ شَيْء، وَخَضَعَ لَها كُلُّ شَيء، وَذَلَّ لَها كُلُّ شَيء، وَبِجَبَرُوتِكَ الَّتي غَلَبْتَ بِها كُلَّ شَيء، وَبِعِزَّتِكَ الَّتي لا يَقُومُ لَها شَيءٌ، وَبِعَظَمَتِكَ الَّتي مَلاََتْ كُلَّ شَيء، وَبِسُلْطانِكَ الَّذي عَلا كُلَّ شَيء، وَبِوَجْهِكَ الْباقي بَعْدَ فَناءِ كُلِّ شَيء، وَبِأَسْمائِكَ الَّتي مَلاََتْ اَرْكانَ كُلِّ شَيء، وَبِعِلْمِكَ الَّذي اَحاطَ بِكُلِّ شَيء، وَبِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي اَضاءَ لَهُ كُلُّ شَيء، يا نُورُ يا قُدُّوسُ، يا اَوَّلَ الاَوَّلينَ وَيا آخِرَ الاْخِرينَ.

الرحمة الواسعة

يبدأ العبد بالشروع بالدعاء وكلُّهُ رجاءٌ وخوفٌ، حيث يُفصِحُ بـ«**اللهمَّ إني أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء**»، وكأنّه يُقِرُّ بالضعف الذي خيّم وسيطر عليه من كلّ مكان، ليس هو فحسب، وإنّما الوجود بأسره يُقِرُّ بالمهزوميّة أمام الرحمة التي تَعُمُّ كلَّ جزءٍ من هذا الكون الواسع العظيم، وهذا بحدِّ ذاته مدعاة للتمسك بالإيديولوجية الإلهية، وثبات الرسالة التي سعى إلى نشرها نبيُّ الإسلام رسول اللّه ﷺ وتتمثَّلُ بالقول والعمل بالقرآن الكريم والعترة الهادية الاثني عَشَريّة عليهم السلام.

ثمَّةَ فرقٌ بين السؤال والأمر، حيث الأول يكون من الداني إلى العالي، بينما الأخير يكون من العالي الى الداني وهناك فرق واضح بينهما.

فالسؤال يكون من العبد وهو الطلب إذا كان قد صدر منه (أي: من العبد) بينما الطلبُ إذا كان من اللّه عزَّ وجلَّ فهو بمعنى الأمر.

وفي مقامنا هنا يحاول العبد أن يطلب من اللّه تبارك وتعالى أن تشمله الرحمة

الواسعة، إذ يقول العبد «**اللهم إني أسألك برحمتك**» وطبعاً يقع السؤال من العبد وهو في قمة الخضوع والخشوع والاستكانة أمام رحمة اللّه سبحانه وتعالى.

والباء في «برحمتك» للقسم، حيث العبد أو الداعي يقسم على اللّه عز وجل برحمته، التي في حقيقة الواقع، ما هي إلّا انكسارٌ ورقّةٌ في القلب، وانجرار يُفضي إلى التفضّل والعطف عليه، ويساعدُ على الإحسان، وانسكاب المغفرة على روحه المسكينة، التي تحتاج الى التفاتة ربانية وتدعيم رحماني، يهيئ له الوقوف على قدميه.

وطبعاً هذه الرحمة التي يسعى العبد الى أن تشمله لم تكن خاصة، بل هي شاملة، بحيث تدخل المخلوقات والموجودات كافّةً في عالم الوجود اللامتناهي في هذه الرحمة الواسعة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾[2]، وهاتان الآيتان تركزان مدى شمولية الرحمة الواسعة، فالعبد إذاً يحاول أن تنالَهُ الرحمةُ العامّةُ «**برحمتك التي وسعت كل شيء**».

ويمكن أن نضع بين أيديكم أحبّتي المؤمنين، أن من جملة الرحمة الواسعة، هي هذه الموجودات الحية التي تعيش على وجه الأرض، حيث النمل والنحل وأممٌ كثيرة من الطيور العجيبة وسائر الحيوانات التي يكفي في كلِّ صنفٍ منها رحمةٌ أخرى تنقذ الإنسان من أهوال المشكلات والحوادث الأليمة التي تحدث له.

القوة القاهِرة

يتمتع الوجود بسماوات تحيطها أبهى النجوم وألمعها، ويملئها من الكواكب والمجرات ـ العظيمة ـ العدد الكبير، وحيثما نريد التكلم عن مجرتنا التي يطلق عليها (درب التبّانة) فإننا نذهل مما نقرأُهُ في الموسوعات الكبرى، وهذا يركز لنا فهم القوة التي تسيطر على هذا الكون العظيم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٧.

ففي موسوعة القرن الفرنسية لاروس LAROUSSE تتحدث عن تركيبة المجرة فتقول: «تمثل الشمس واحداً من ٢٠٠ مليار من النجوم المتجمعة داخل مجموعة نجمية ضخمة تتخللها مادة نجميّة: إنّها المجرة التي تستمد تماسكها من الجاذبية. تظهر المجرة لأول وهلة على شكل اسطوانة مسطحة جداً يبلغ قطرها حوالي ١٠٠ ألف سنة ضوئية وهي موحدة السمك تقريباً، وأمّا مركزها فهو مجال انتفاخ (١٥ ألف سنة ضوئية) يسمى رأس البصلة. وبالنسبة لنا يوجد المركز في مستوى برج القوس»[١].

وفي مكان آخر على وجه الأرض وبالتحديد في أعماق البحار تضيف الموسوعة تحت عنوان «حبّارات عملاقة» توجد على عمق أقلّ (لا شكّ في أنّه بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠م) الحبّاراتُ العملاقة. الرقم القياسي في طول الجسد ١٩م، منها ١٦م لأطول لامسة. لونها غالباً أحمر، قطر عينيها ٤٠ سم، وهي تنتمي الى جنس أرشتتيس[٢].

وغيرها من المخلوقات المذهلة والتي نجدُ بحقٍّ ويقينٍ أنّ صانعها قادر على إبادتها وقهرها من عالم الوجود الى عالم العدم مثلما أوجدها أوّل مرّة.

هذه القوة العظيمة يحاول العبد الضعيف أن يقسم بها «**وبقوتك التي قهرت بها كل شيء**»، والواو هنا عطف على السابق، أي: أسألك يا رب بالقوة التي تتمتع بها وتسيطر من خلالها على مجرات هذا الكون العظيم.

والباء للقسم أيضاً في قوله «**وبقوتك**».

إنّ القوة التي يتشدَّق بها الإنسان ما هي إلّا مصدر من القوة الإلهيّة، حيث الاستمداد الطبيعي من اللّه تبارك وتعالى.

ومن خلال الطرح العلمي الذي ذكرناه سالفاً يتبين لنا أن العبد يتحرك بجد وإصرار نحو الكمال المطلق، إلى حيث القوة: اللهمّ إني أسألك «**وبقوتك**». ترتكز

(١) موسوعة القرن، ج١، ص ١٠.

(٢) موسوعة القرن، ج١، ص ١٤٩.

الحالة الشعورية والإرادية للعبد، ويتحرك جاهداً لنيل أعلى الرتب والكمالات والأوسمة من هذه القوة العظيمة لا من غيرها، وان كانت هذه الغير استحوذت على الملك والرئاسة، أو أنها سيطرت على مقاليد القرار بالقوة، أو أنها حاولت (بكلِّ ما لديها من مكر وخداع) التشويه والتظليل للرأي العام من أجل حرف مسار القضايا الحقة، فان القوة الإلهية هي قابضة على مقبض الأمور، وهي مسيطرة على مجريات العالم والكون الواسع العظيم، وباستطاعتها إبادة هذه القوى من على وجه الكون بأسره، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢] يتضح من خلال هذه الآية: المقدسة أن كل مجريات هذا الكون مردُّها اللّه تبارك وتعالى. «**وبقوتك التي قهرت بها كل شيء**» إن الذين يتبخترون على وجه الأرض ولديهم رهبة العظمة، ويتحسسون من الفقراء ويسعون إلى التكبر عليهم كلُّ هؤلاء مردُّهم الى القهر، ذلك القهر الذي قهر الجبال وهي شامخة بعزتها، وقهر البحار العميقة والتي لا يجرؤ أحدٌ من المخلوقين على أن يتحدّاها، وقهر تلك الشموس والمجرات البعيدة التي لا يعلم كُنْهَها أحدٌ سوى مالك القوة القاهرة.

الخضوع والذل أمام القوة القاهرة

الخضوع: الانقياد.

الذلّ: الهوان والضعف أمام هذه القوة الجبارة.

لعل من أعلى مصاديق الخضوع والذل المذكورة بالدرجة الثانية بعد طاعة اللّه سبحانه هي طاعة الوالدين قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[٣]، ومن الطبيعي أن هذا الذل المذكور في الآية: هو عنوان من عناوين الاحترام والتواضع لشأنهما، وتقديراً لتربيتهما التي سعيا إلى إيجادها

(١) سورة غافر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

في كيان ابنهما، وعلى العموم هذه الطاعة واجبة شرعاً، وهي واضحة تمام الوضوح من خلال القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾[١].

«**وخضع لها كل شيء**» الخضوع والخشوع للّه تعالى هو الانحناء والاستسلام لإرادة وقدرة وعظمة اللّه تعالى، إذ لا إرادة أمام إرادة اللّه، ولا قدرة أمام قدرة اللّه، ولا عظمة أمام عظمة اللّه، فاللّه هو ملاذ اللائذين، ومنجي الهالكين، وغياث المستغيثين، وناصر المستضعفين.

إن هذا الوجود المترامي وتلك السماوات البعيدة والنجوم والمجرات في أغوارها السحيقة وهذه الأرض بكل غاباتها الكثيفة ومجاهلها والحيوانات التي تنتشر في البراري وفي البحار والمحيطات من الفيروسات المتناهية في الصغر الى الحيتان الكبيرة[٢]... كل هذه الموجودات خاضعة وذليلة للّه تبارك وتعالى.

«**وذَلَّ لها كلُّ شيء**» حيث المخلوقات المذكورة أعلاه تصبح ذليلة هيّنة ضعيفة أمام القدرة والقوة الربانية.

هذا الإنسانُ أصلُهُ من النطفة القذرة، قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾[٣] هذه طبيعة أصل خلقة الإنسان، خلقه من ماء ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[٤] يخرج من الرجل والمرأة، وهذا الماء قذر ونتن ويتقزز منه... إلّا أنّ الإنسانَ لا يتعظ بأصله، فهو دائماً يتعالى على من هو دونه ويتكبر على الجاهل والفقير والمسكين، ويسعى جَهدَ الإمكان إلى نيل الرتب العالية حتى يسيطر على الناس بمشتهياتِهِ ورغباتِهِ الدنيئة، ويحاول قدر المستطاع أن يظهر بمظهر الاستعلاء وعجرفة العظمة.

---

(١) (م.ن)، الآية: ٢٤.

(٢) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٧٨.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٧-٨.

(٤) سورة الطارق، الآية: ٧.

السلطة الجبروتية

لا زال العبد يبدي الحمد والثناء على اللّه تبارك وتعالى، أملاً منه أن ينظر إليه نظرة عفو ورحمة، وأن يشملَهُ بالعناية والكرامة، وأن يحظى بالرتب والدرجات العليا لديه، وأن يقرّبَهُ إلى حضرته القدسية.

«**وبجبروتك التي غلبت بها كل شيء**» الجبر هو إصلاح الشيء كما هو في مفردات الأصفهاني وقال الإمام زين العابـدين عليه السلام في مناجاة التائبين «**ولا أرى لكسري غيرك جابراً**» هذا في المعنى اللغوي.

وأمّا الاصطلاحي، فالمقصود من الجبروت هنا هو الاستعلاء والقهر والغلبة، والكلمة ضربٌ من المبالغة إشارة الى السيطرة الشاملة على كل جزء من هذا الكون الرهيب.

وهناك آيات قرآنية تدلنا على أن اللّه تعالى هو سيد العالم والكون، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١]هذا الجبروت هيمن على كل شيء في هذا الوجود ولم يتركْ شيئاً من هذه الكائنات التي تسبح في هذا الفضاء العظيم، ويمكن أن نضع بعض المصاديق التي تشير الى جبروت اللّه تبارك وتعالى فمنها: ـ هذه الشمس التي تبعث في كل ثانية أكثر من ١٢،٤٠٠،٠٠٠ طن من الطاقة ولو أردنا معادلة تلك الطاقة بالفحم الحجري لبلغ ٦٧٩ مليون مليا رد طن!!

إنّ وزن ما تستهلكه الشمس من الطاقة يبلغ أربعة ملايين طن في الثانية الواحدة حيث يصبح مجموع ذلك في السنة، ١٢٦،١٤٤،٠٠٠،٠٠٠[٢].

ـ وبالنسبة لهذه الجبال العظيمة التي ليس في مقدور أحد أن يزحزحها عن

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٣.
(٢) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٨٢- ٨٣ .

مكانها اكتُشِفَ أخيراً علميّةُ هذه الآية: المباركة ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[(١)] حيث «ثبت علميّاً في عام ١٩٥٦م أنّ الجبل لـه جذر يخترق طبقات الأرض ويمتد تحت سطح الأرض حتى يصل الى طبقة الغطاء (السيما) وهذا الجذر يعادلُ ما بين خمسة وعشرة أضعافِ ارتفاع الجبل فوق سطح الأرض. وقد تم تصوير هذا الجذر بطريقة الهيلوغرافية.

ومثال على ذلك أعلى قمة في العالم هي قمة ايفرست، يبلغ ارتفاعها ٩ كم، بينما جذورها تمتدُّ إلى عمق ١٣٥ كم تحت الأرض. كل هذه الآيات تدُلُّ على جبروت اللّه تبارك وتعالى، وتعبر بالضرورة عن أنَّ السيطرةَ في قبضته ويمينه[(٢)].

إلّا أنَّ بعضَ أفرادِ بني البشر لم يعقلوا هذا الجبروت، وسَعَوْا إلى أن يتصفوا بمثل هذه الصفة الحميدة إذا كانت للّه عز وجل لأنها من مختصاته ولا يجوز للآخرين انتحال صفات الغير، وإلّا سيكون المنتحل مذموماً، وهذه أقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام في شأن ذلك:

- قال الإمام عليّ عليه السلام - في كتابه للأشتر حين ولاّه مصر-: «**إياك ومساماة اللّه في عظمته، والتشبُّه به في جبروته، فان اللّه يذل كل جبّار ويهين كل مختال**»[(٣)].

- وقال عليه السلام: «**يا عـقـيل أتئنُّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرُّني إلى نار سجَّرها جبارها لغضبه؟! أتئنُّ من الأذى ولا أئن من لظى؟!**».

- وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**كلُّ جبارٍ عنيد من أبى أن يقول: لا اله إلا اللّه**»[(٤)].

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٦-٧.

(٢) الموسوعة الكونية الكبرى، ج ٩، ص ٧٤- ٧٥.

(٣) ميزان الحكمة، ج٢، ص ٤٨٤.

(٤) ميزان الحكمة، ج٢، ص ٤٨٤.

العزة لله تبارك وتعالى

«**وبعزتك التي لا يقوم لها شيء**».

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: العزّةُ: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلَبَ. من قولهم: أرض عزاز أي: صلبة[١].

وفي الاصطلاح تكون العزة ضرباً من الكرامة والأنفة والحمية، والتي لا تقبل الذل مهما كان السبب أو تغيرت الشكليات الموجبة للذل.

وفي مقامنا هنا إشارة إلى عِزَّةِ اللّه تعالى، حيث كلُّ المخلوقات تصبح ذليلةً أمامَ عزّتِهِ، تلك الشمس وهذه الأرض وذلك الكون المليء بالكواكب السيارة والنجوم المتلألئة والمجرات الضخمة، والحيوانات الكبيرة التي تعيش تحت أعماق البحار السحيقة، وهذه التي تعيش بين أظهرنا من الأسود والنمور والفهود والصقور والنسور وغيرها الكثير الكثير التي لا يعلمها سوى اللّه تبارك وتعالى، كلُّ هذه الكائنات هي ذليلةٌ أمامَ عِزَّةِ اللّه تعالى، وحتى هذا الإنسان هو الآخر كذلك.

«**التي لا يقوم لها شيء**» حيث لا يمكن لهذه المخلوقات أن تكون مقابل عزّة اللّه تعالى، ليس لها ثمن عزيز أمام العزيز الجبار، الكلُّ ينطوي تحت عزّتِهِ تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾[٢].

وثمَّةَ عزَّةٌ يُفيضُها اللّه تبارك وتعالى على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾[٤].

ويمكن أن نتناول هذه الأحاديث تبركاً.

---

(١) مفردات الأصفهاني، ص ٥٦٣ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

(٣) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١٨٠.

قال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام - وقد قيل له عليه السلام: فيك عظمة! -: لا بل فيَّ عزة، قال اللّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ اللّه فوّض الى المؤمن أموره كلها، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع اللّه تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ...﴾؟! فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، إن المؤمن أعزُّ من الجبل؛ لأن الجبل يستقل منه بالمعاول، والمؤمن لا يُسْتَقَلُّ من دينه بشيء**»[٢].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**إن اللّه تبارك وتعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال: العز في الدنيا والآخرة، والفلج في الدنيا والآخرة، والمهابة في صدور الظّالمين**»[٣].

العظمة الجبّارة

«**وبعظمتك التي ملأت كل شيء**».

يقول ابن منظور في لسانه في شأن المعنى اللغوي للعظيم، عظم: من صفات اللّه عزَّ وجلَّ العليُّ العظيم، ويسبّح العبد ربه فيقول: سبحان ربي العظيم؛ العظيم: الذي تجاوز قدره وجل عن حدود العقول حتى لا تُتَصوَّرَ الإحاطةُ بكنهه وحقيقته[٤].

يتحرك العبد أو الداعي انطلاقاً من كونه ضعيفاً وليس في مقدورِهِ فعلُ شيءٍ إلّا بالإرادة الإلهية، فالعبد ينظر الى عظمة اللّه تعالى، على أنّها هي القوة التي ستُمِدُّهُ بالحياة.

«**وبعظمتك**» هذه العظمة الوجودية التي أوجدت هذه المخلوقات الضخمة والتي جاء ذكرها في الدروس المنصرمة، وتحاول ان تركز في وجودها العظمة الربانية، وأن تثبت بكل ما للدليل من قوة وتبرز هذه الحقيقة المتجلية للعيان.

---

(١) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٢٥٩٧.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٢٥٩٧.

(٣) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٢٥٩٧.

(٤) لسان العرب،: ج ١٢، ص ٤٠٩.

«**التي ملأت كلّ شيء**» في كل شبر من هذا الكون الواسع توجَدُ العظمة من اللّه تبارك وتعالى، ومنها: هذه الكواكب عميقة الغور في هذا البحر الكوني، وتلك الشموس التي تسبح في الفضاء، وهذه الأرض التي بها من الدلائل المهولة والراشدة لعظمة اللّه تعالى. ويمكن أن نضع هنا المعلومة الثانية التي تعبر عن العظمة الربّانيّة وهي تحت عنوان الشجرة الغابة:

- إنّها تينة بانيان في الهند التي تعود بأصلها الى التين البنغالي وهو شجر غريب جدّاً، فأثناء نمو هذه الشجرة تتشكل لها شيئاً فشيئاً جذور هوائية تنطلق من الأغصان باتجاه الأرض مما يوفر للشجرة مع اكتمال نمو هذا الجذور تشكيل ما يشبه الأكواخ الكبيرة.

في بنغال الغربية هناك نوع من أشجار التين قد يصل عدد جذور الواحدة منها الى ٣٠٠ جذر ضخم تغطي مساحة ٣٠٠٠٠م٢ [١].

إنّ هذه الطبيعة الخلابة تنم عن عظمة خالقها وأنه تبارك وتعالى في كل جزء من هذا الكون قد أوجد هيبته وعظمته سبحانه، وحتى في أعماق البحار.

قال تعالى: ﴿**أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ**﴾[٢].

- لقد نجح فريق الغواصين المؤلف من ديفيد دوبلتيس واشر جال وهوارد روز تشين في الدخول في أعماق البحر اللجيّ غرب المحيط الهندي وقد كانوا على ظهر السفينة «كنوز«ذات التجهيزات العلمية الراقية ولقد وجدوا أسراب السمك المائية في صفوف منتظمة تهيم فوق الموج الأول للبحر اللجي وهي تحاول الدخول في أعماقه ولكنها لا تستطيع ووجدوا أن حياة البحر اللجي مختلفة عن

(١) الموسوعة الكونية الكبرى، ج ١٠، ص ٤٤٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.

حياة البحر السطحي فأسماكها بلا أبصار ووجدوا حمماً وأخاديدَ وشقوقاً بركانيّةً في قاع هذا البحر المظلم[١].

وتشير الموسوعة[٢] في طرف آخر من نفس الموضوع إلى أنه لو كنت أنت أيها الإنسان في وسط هذا البحر المكون من الظلمات الكثيفة وأردت إخراج يدك ورفعها الى القرب من وجهك فانك لا تراها أو لا تكاد تراها، وهذا تعبير رائع أشارت إليه الآية: الشريفة.

هذه عظمة اللّه تعالى التي ملأت كلَّ جزءٍ من هذا الكون الواسع الرحب.

السلطان الإلهي

«وبسلطانك الذي علا كل شيء»

السلطان: قدرة الملك كما جاء في اللسان[٣]، سلطان اللّه عز وجل هو قدرته وملكه وسيطرته على مجاري الأمور، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[٤] فهذه الآية: تشير الى أن اللّه تعالى هو الحاكم والسلطان على كلِّ عالم الوجود، من سماواته وأرضه، ولم يجعل لنفسه شريكاً يساعده في تدبير هذا الكون الواسع، وأعطى كلَّ شيءٍ حقّه ولم يبخس حقَّ شيءٍ من هذه الموجودات الممكنة، وقد قدّر الموجودات بدقة عالية ومتنامية، فعلى سبيل المثال نضع هذه المعلومة العلمية من تفسير الأمثل،:

يقول العلماء: لو كانت قشرة الأرض أسمك مما عليه الآن بمقدار بضعة أقدام، لما وُجِدَ «الأوكسجين» الذي يعتبر المادة الأصلية للحياة، ولو كانت البحار أعمق من عمقها الفعلي عدة أمتار لامتصّت جميع ما في الجو من الكربون والأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة لحيوان ونبات على سطح الأرض، ويحتمل أن تقوم قشرة

(١) هامش الموسوعة الكونية الكبرى، ج ٨، ص ٣١٤.
(٢) الموسوعة الكونية الكبرى، ج ٨، ص ٣١٩.
(٣) لسان العرب، ج٧، ص ٣٢١.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢.

الأرض والبحار بامتصاص كل الأوكسجين، وكان على الإنسان أن ينتظر نمو النباتات التي تلفظ الأوكسجين.

وطبقاً للحسابات الدقيقة في هذا المجال يتضح أن للأوكسجين مصادر مختلفة، ولكن مهما كان مصدره، فإنّ كميته مطابقة لاحتياجاتنا بالضبط.

ولو أن طبقة الغلاف الجوي أرق مما هي عليه الآن مما هو، فإنّ بعض الشهب التي تحترق كلَّ يوم بالملايين في الهواء الخارجي، كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية، وكان بإمكانها أن تُشعِلَ كلَّ شيء قابل للاحتراق.

ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة، ولو تعرض الإنسان للاصطدام بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، لتحول الى رماد لمجرد حرارته[١].

«**الذي علا كل شيء**» العُلوُّ: ضد السُّفل، والعُلْويّ والسُّفلي المنسوب إليهما، والعلوُّ: الارتفاع[٢] كما هو في المفردات للأصفهاني.

إنّ الحساباتِ الدقيقةَ التي ذكرناها آنفاً تدلُّ على أن السلطة الربانية حاكمة على مقاليد وأسرار السماوات والأرض، وهذا يركّز لنا المعطيات العلميّة التي تبرهن على الدقة المترامية التي سيطرت على مجاري الأمور.

إلّا أنّ قسماً من بني البشر لم يتفاعل مع هذه الحقيقة، بل راح يوجِّهُ نفوذه السلطوي الى تمييّع هذه الحقيقة لمصالحَ يرتجي منها المنفعة والفائدة، حيث كوّن لذاته شأنيّةً من الطغيان والاستبداد، وسعى جاهداً إلى قذفها نحو هذه الناس المستضعفة ساعياً من خلال ذلك إلى إلهاء الناس عن السرقات التي تقترفُها يده ويد الآخرين الذين يُعبِّدون له الشارع، فهؤلاء ينهبون الأموال ويغصبون الأراضي ويحاولون قدر المستطاع نشر المادّة الفاسدة من الأفلام والأغاني الصاخبة،

(١) تفسير الأمثل، ج ١١، ص ١٢٥.

(٢) مفردات الأصفهاني، ص ٥٨٣.

وكلٌّ هؤلاء أمسكوا السلطةَ بالحديد والنار، وحكموا العالم بذراعِ القوة الطاغية والمستبدة. لم يستضيئوا بنور اللّه تعالى، ولم يلبسوا ثياب الورعَ والتقوى، ولم تكن مهمّتهم خوفَ العدالة الإلهية.

الذات المقدسة

«وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء».

الوجه: أصل الوجه الجارحة[1]، وهذا هو المعنى اللغوي في كتاب المفردات للأصفهاني. وفي لسان العرب، أن الوجه هو ذات اللّه المقدسة ونفسه[2].

ومن الطبيعي أن المعنى الاصطلاحي للوجه في الدعاء، هو الذات المقدسة ونفسه، وهنا يُقسِمُ العبدُ أو الداعي بالذات الإلهية المقدسة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾[3] والمراد من (وجه اللّه) هو ذاته تعالى، وإلّا فليس للّه صورة جسمانية، وهذا هو ما اعتمده وأكده القرآن في كثير من آياته، كما في الآية: (٢٧٢) من سورة البقرة، ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ والآية (٢٨) من سورة الكهف التي تصف جلساء النبي ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[4].

«**الباقي بعد فناء كل شيء**» جاء في لسان العرب، الباقي من أسماء اللّه الحسنى: هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال الى آخر ينتهي إليه، ويعبر عنه بأنه أبديّ الوجود[5]. وجاء في المفردات البقاء: ثبات الشيء على حاله الأولى، وهو يضادُّ الفناء[6].

(١) مفردات الأصفهاني، ص ٨٥٥.
(٢) أضواء على دعاء كميل، ١١٣.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ٩.
(٤) تفسير الأمثل، ج ١٩، ص ١٥٧.
(٥) لسان العرب، ج ١٤، ص ٧٩.
(٦) مفردات الأصفهاني، ص ١٣٨.

والعبد أو الداعي يتوسل بالباقي الذي لا يموت في مقابل هذه المخلوقات العملاقة منها (- من قبيل هذا الكون الواسع الذي تسبح فيه هذه الكواكب والنجوم والمجرات التي تزيد عن مليار مليار مجرة، وتحتوي كل مجرة ما يزيد عن ٢٠٠ مليار نجم غير الكواكب[١] -)، والضعيفة مثل هذا الإنسان فان مجموع هذه الكائنات مصيرها الى الفناء الأبدي، قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[٢]. قال أمير المؤمنين عليه السلام في احد خطبه: «**الحمد الله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه لأنه كل يوم هو في شأن، من إحداث بديع لم يكن**»[٣].

أسماء اللّه الحسنى

«وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء»

الأسماء: جاء في المنجد الاسم والاسم أسماء وأسام وأسامي وأسماوات: اللفظ الموضوع على جوهر أو عرض لتعيينه ولتمييزه، وهمزته همزة وصل وتحذف همزة اسم في البسملة وتثبت في غيرها[٤].

«**وبأسمائك**» حيث كل ذرة في هذا الوجود يدل على اسم الجلالة وعظمة القداسة والجبروت، وهنا يتذوَّق العبد طعم السمو الروحي والعذبات الملكوتية.

والأسماء في هذا الكلام الملكوتي والأفق العرشي ليست أسماء لفظية تتألف من الحروف، وإنّما المراد منها الحقائق والمصاديق التي تدلُّ عليها الأسماء[٥].

ويقول الإمام الباقر عليه السلام في دعاء السِمات: «**اللهم إني أسألك باسمك العظيم الأعظم الأعز الأجل الأكرم، الذي إذا دعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح**

(١) راجع الموسوعة الكونية الكبرى، ج ٧، ص ١١٩.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٦- ٢٧.

(٣) تفسير الأمثل، ج ١٧، ص ٢٥٧.

(٤) المنجد في اللغة والأعلام، مادة «سما»، ص ٣٥٢.

(٥) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٩٥.

بالرحمة انفتحت، وإذا دعيت به على مضائق أبوب الأرض للفرج انفرجت، وإذا دعيت به على العسر لليسر تيسرت، وإذا دعيت به على الأموات للنشور انتشرت، وإذا دعيت به على كشف البأساء والضراء انكشفت»[١].

نلاحظ أن هذه الأسماء الشريفة لها بعد أعمق مما يمكن أن نتخيله، وهي أسماء تحمل قوّةَ في التأثير في القوانين الكونية، وطبيعي أنها ليست ألفاظاً دائرة على ألسنتنا، ولكنّها معانٍ فلسفية وجوهرية لها قوة في صرف المكاره، ويبقى على هذا العبد أن يجتهد في العلم والعبادة حتى يحصل على هذه المراتب العليا عند اللّه تعالى.

«**التي ملأت أركان كل شيء**» الواقع أنّنا لو دققنا في حركاتنا اليومية، وحتى السلوكيات التي يذمها العقلاء والمشرعون، فإننا سنحصل على لطف وعناية ربانية بدليل «**ملأت أركان كل شيء**»، وهذا ليس مدعاة الى ارتكاب المحارم والمآثم، وإنّما هو إشارة الى أنّ كلَّ ذرّةٍ في الكون الواسع تستمدُّ قواها وعافيتها من واجب الوجود.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[٢] وقال تعالت أسمائه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾[٣] وقال تبارك وتعالى: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٤].

قال النبي ﷺ: «**إنّ له (للّه تعالى) تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**»[٥] وينبغي أن ندرك أتمَّ الإدراك أنّ مسألة الإحصاء المشار إليها في الحديث هي المعرفة والعلم بهذه الأسماء، وفهم الفلسفة الجوهرية من حقيقة هذه الأسماء المقدسة.

---

(١) مفاتيح الجنان، ص ١٠٩.
(٢) سورة طه، الآية: ٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٤.
(٥) نفحات الولاية شرح نهج البلاغة، ج١، ص ٧٥.

العلم الإلهي

«وبعلمك الذي أحاط بكل شيء».

يقسم العلماء العلم الى قسمين:

١ - العلم الحصولي: وهو الصورة الذهنية الحاصلة من جرّاء انعكاسها من الخارج، وهذا الانعكاس نتيجة احتكاك الإنسان بالخارج. وقد أخذ الحكماء هذا التعريف من العلوم الرائجة عند الإنسان[١].

والإنسان يستمدُّ في اكتسابه للعلمِ من خلال حواسه الخمس وهي الشم واللمس والذوق والبصر والسمع، فمثلاً العلمُ بوجودِ شجرةٍ ما يكون عن طريق البصر واللمس إذا عرف الضرير بعض الخصوصيات للشجرة[٢].

٢ - العلم الحضوري: وهو حضور المدرَك لدى المدرِك من دون توسط شيء[٣] وتقريب هذا التعريف بالمثال التالي: إذا أصابني جرح ما في يـدي وهو يؤلمني كثيراً، وأخبرت الطبيب عن أثر هذا الجرح الذي أصابني، فإنَّ الطبيبَ يصفُ لي الدواء عن ضوء وصفي له الجرح ورؤيته، لا عن طريق تألُّمه بالجرح، فإنَّ الذي يتألم هو أنا وليس الطبيب.

إذن تبيّن لنا من خلال هذا المثال حالتان:

الحالة الأولى: أن الذي يشعر بالجرح هو المصاب وليس الطبيب وهذا هو الذي يسمى بالعلم الحضوري، إذ المصاب حضر لديه الألم وليس الطبيب الذي حصل لديه العلم عن طريق المصاب فيوجد فرق واضح بين العلمين.

الحالة الثانية: ينبغي أن نلاحظ، أنّ العلوم التي توجد لدى الإنسان (من علوم رياضية وأحيائية وفيزيائية، والعلوم الجيولوجية وغيرها من العلوم التي تحتاج

(١) الإلهيات، ج ١ ص١٠٧.
(٢) من يريد التفصيل يراجع كتاب الإلهيات ج١، ص ١٠٧ - ١٠٨ وكتاب منطق المظفر، ص ١٨.
(٣) الإلهيات، ج١، ص ١٠٨.

إلى دقّة النظر والتمحيص)، كلَّ هذه العلوم هي علوم حصوليّة وليست علوماً حضوريّة، وكذا العلوم الدينية التي يتشرف بتعلمها عن طريق عالم الدين، ويمكن أن ينال الإنسان شرف الوصول الى العلم الحضوري أو الشهودي ولكن من خلال المجاهدة والتربية الشديدة والقاسية للنفس.

قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾(٢) وقال تعالت قدسيته: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾(٣) وقال تبارك وتعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾(٤).

والداعي أو العبد في هذه الفقرة يقسم على اللّه عز وجل بعلمه الذي أحاط بكلِّ جزء الجزء الجزء من هذا الوجود الواسع.

هذا الوجود الذي يزخر بتفاصيل الأشياء وأسرار الكائنات انظر إليهِ في ليلة صيف سماؤها صافية.. انظر الى السماء المرصعة بملايين النجوم وأصغ الى أصوات آلاف الحشرات والهوامّ واستنشق نسائم الهواء لتدرك عظمة هذا الوجود الزاخر بالأسرار.. أسرار وأسرار لا يحيط بها علماً إلا الواحد القهار(٥).

قال الإمام السجاد زين العابدين عليه السلام في تسبيحه للّه عز وجل: «**سبحانك اللهم وحنانيك سبحانك اللهم وتعاليت... سبحانك من عظيم ما أعظمك! سبحانك سُبِّحْتَ في الأعلى تسمعُ وترى ما تحت الثرى. سبحانك ترى ما في قعر الماء. سبحانك تسمع أنفاسَ الحيتان في قعور البحار. سبحانك تعلم وزن السماوات. سبحانك تعلم وزن الأرضيين. سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر. سبحانك تعلم**

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٩.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٢.
(٥) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٩٧- ٩٨.

وزن الظلمة والنور. سبحانك تعلم وزن الفيءِ والهواء. سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرّة»[١].

نور اللّه

«وبنور وجهك الذي أضاء له كلُ شيء»

جاء في مفردات الأصفهاني، النور: الضّوء المنتشر الذي يُعينُ على الإبصار، وذلك ضربان دنيوي، وأخروي؛ فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن. ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين والنجوم النيرات[٢]. وفي لسان العرب،: هو من أسماء اللّه تعالى؛ قال ابن الأثير: هو الذي يبصر بنوره ذو العماية ويرشد بهداه ذو الغواية[٣].

والنور قسمان: حسي، ومعنوي.

أمّا الحسيُّ: فهو ما كان قائماً بغيره كنور الشمس، ونور الكهرباء وغيرهما.

وأمّا المعنويُّ: فهو ما كان قائماً بذاته[٤].

ونور اللّه المقصود هو الأخير، لكونه يستمد القوة والعظمة من ذاته. والنور المعنوي هنا، لا ينجر الى الكائنات المعنوية الأخرى، من قبيل الملائكة والأرواح، فان هذه المخلوقات تستمد نورها من خالقها، وهي ليست قائمة بذاتها، لأنها لا تملك القوة، وهي ضعيفة القوى من غير اللّه تعالى... بل هي منعدمة الوجود، إذا صرف اللّه عنها عنايته ورحمته.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٥] نلاحظ من خلال هذه الآية: المقدسة

---

(١) الصحيفة السجادية، ص ٢٥٧- ٢٥٨.

(٢) مفردات الأصفهاني، ص ٨٢٧.

(٣) لسان العرب، ج٥، ص ٢٤٠.

(٤) أضواء على دعاء كميل، ص ١١٨.

(٥) سورة النور، الآية: ٣٥.

أن كل من في الوجود يستقي النفحات القدسية، ويستنير القبسات الرضوانية من اللّه تعالى، وهذا يدل على أن كل المخلوقات تستعذب الطعم الرباني، وتدعو جاهدة ساعيةً إلى أنْ تدنُو إليه بكل رغبة ولهفة شديدين.

وهنا العبد يقسم على اللّه تعالى بالنور الذي أضاء هذا الوجود فأشرقت الكائنات من جلال نوره متجليةً وظاهرةً للعيان، حيث كان الظلام هو سيد الموقف.

قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في مناجاته الشعبانية: «... **وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرقَ أبصارُ القلوبِ حُجُبَ النور... إلهي وألحقني بنور عِزِّكَ الأبهج**»[(١)].

نداءات الرحمة (النداء الأول)

«يا نور يا قدوس يا أول الأولين ويا آخر الآخرين»

يحاول العبد أو الداعي في هذه الفقرة أن ينطلق من حالة القسم التي سعى من خلالها إلى أن يُظهِرَ حالات الخضوع والخشوع والتذلّل بذكر الثناء والمدح والحمد للّه تعالى.

«**يا نور**» النداء الأول، ويحاول الداعي أن يستعين بهذه الصفة الكريمة بأن يتوسل الى اللّه تعالى، لأنْ ينير له الطريق، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[(٢)] وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾[(٣)] وقال تعالى أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[(٤)] وتلاحظون أن هذه الآيات الشريفة تنطلق من كون أن الخطاب أكثر ما يكون هو متحرك من الساحة الإيمانية التي تحمل فكر واتجاه الوعي الإسلامي، القائم على ركائز المبدأ

(١) الصحيفة العلوية، ص ١١١- ١١٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٣) سورة الحديد، الآية: ١٢.
(٤) سورة التحريم، الآية: ٨.

والثقافة المصيرية، وهي الانصهار في فكر أهل البيت عليهم السلام، ولذلك سنجدُ هذا المنطلق متجلّياً في القران بشكل واضح، حيث الفئة التي تحمل الفكر الآخر هنا في عالم الدنيا، لا نجد لها أي إشارة من إشارات التكريم والتبجيل في عالم الآخرة، بل يتمثل الحضور من خلال التهميش والضياع في ذلك العالم المهول، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[١] القول بالرجوع هو الرجوع الى الدنيا واكتساب النور والإيمان والعمل الصالح وليسوا براجعين ولا يستطيعون، فيكون الأمر بالرجوع كالأمر بالسجود في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * ... وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[٢] يتبيّن لنا جليّاً أنّ العبد يحتاج الى النور هنا في هذا العالم عالم الدنيا من أجل أن يتبصّر الحقائق، وتتضّح له معالم الأمور، حتى يكون له خير مساعد هناك في عالم القيامة، ويكون قد وضع له مبدأً استراتيجيّاً يستفيد منه يومَ غد، وهذا من فصيل الفئة المؤمنة. بينما الفئة الأخرى ليس لها مجال لاكتساب النور وجعله منطلقاً استراتيجيّاً في عالم الآخرة، وذلك لأن البنية الأرضية غير متناسقة مع الهدف والمخطط الإلهي، وبذلك لا يوجد منطلق أيديولوجي متزن، بل ثمة منطلق أيديولوجي قائم على تفاعل أصول الإرهاب الفكري والسلوكي، وكلها لا تتوافق مع المبدأ الإلهي.

نداءات الرحمة (النداء الثاني)

«يا قدوس»

النداء الثاني: القُدُّوس بضم القاف وتشديد الدال مع ضمها، وهو بمعنى الطاهر، المنزّه عن العيوب والنقائص[٣]. والتقديس: التطهير الإلهي المذكور في

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤٢-٤٣. تفسير الميزان، ج ١٩ص ١٦٢- ١٦٣.

(٣) شرح دعاء كميل، ص٥٩ - ٦٠.

قوله ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[١] دون التطهير الذي هو إزالة النجاسة المحسوسة[٢]. وجاء في لسان العرب، التقديس: تنزيه اللّه عز وجل. وفي التهذيب: القُدُس تنزيه اللّه تعالى، وهو المتقدس القدوس المقدس[٣].

يتبن من خلال هذه التعريفات أن العبد يحاول أن ينزه الساحة الربانية من النواقص لكي ينهي مروره بهذه المرحلة، وقد وضع القاعدة الاستراتيجية التي سيقف عليها وهو يناجي ربه بقلب كسير.

والتنزيه والتطهير بالنسبة اللّه تعالى من خلال ثلاثِ مراتبَ:

المرتبة الأولى: الذات الإلهية منزهة عن التركّب الخارجي[٤]. والتركّب يكونُ إذا كان الشيء ذا أجزاء خارجية. ومن الطبيعي أنّ هذه المرتبة وهي التركّب تستحيل في شأن اللّه عز وجل؛ لأن الشيء المركب من مجموعة الأجزاء سيكون (محتاجاً) في وجوده الى تلك الأجزاء لا محالة، والمحتاج الى غيره معلول[٥] لذلك الغير ولا يصلح للألوهية حينئذٍ[٦].

المرتبة الثانية: ذات اللّه عز وجل منزهة عن الأجزاء العقليّة. وبيان ذلك أن اللّه تبارك وتعالى بعيد كل البعد عن الفكر البشري، والذي يقوم على معرفة الشيء عن طريق الجنس ـ إنسان، حيوان، نبات وغير ذلك ـ وفصله ـ إلى أي فصيل ينتمي هل إلى النباتية أو الحيوانية أو الجمادية [٧]ـ.

المرتبة الثالثة: أنّ اللّه تعالى صفاته عين ذاته وذلك أنّ صفة العلم هي بعينها الحكمة والقدرة، هي بعينها الرحمة، لا يوجد اثنينية في صفات اللّه عز وجل، أي:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) مفردات الأصفهاني، ص ٦٦٠.

(٣) لسان العرب، ج٦، ص ١٦٨.

(٤) مثل الإنسان الذي يتركب من أجزاء كاليد والرأس وغيرهما من الأجزاء.

(٥) كالإنسان مثلاً فإنّه محتاج الى اللّه تعالى؛ لأنه لا يملك مصلحة نفسه، وكل من بهذه الشاكلة يكون محتاجاً بالضرورة.

(٦) مفاهيم القران، ج١، ص ٢٨٢.

(٧) يمكن مراجعة مفاهيم القران، ج١، ص ٢٨٢.

أن العلم الإلهي لا يكون مستقلاً بذاته عن القدرة، والحكمة الربانية لا تكون بعيدة عن القوة وهلمّ جرّا[١].

وصفة القدّوس جاءت بصيغة مبالغة كما تلاحظون، وهو تعبير لا يخلو من وجه تقني يحاول العبد من خلاله أن يحدد المسار والاتجاه الفكري والعقائدي الذي يتبناه، في مقابل الجموع التي تحمل الشبهة الفكرية والعقائدية.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٢] وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾[٣] وتشير الآيتان الى أن قسماً من البشر وقع في فخ الشّرك باللّه عز وجل، إذ جعل الولد والبنين للّه، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾[٤]، أو التثليث، وهو اللّه، وعيسى، ومريم، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ ﴾[٥] كل هذه القضايا تعد من منظور القران جرائم لا تغتفر قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٦] وهذه الآية: المباركة تصرح بأن أيديولوجية التوحيد للّه تعالى قائمة على نفي الشريك للّه تعالى، وواضح أن الآيات المقدسة في الأعلى تشير الى جموع من البشرية اتخذت نبي اللّه عيسى ولداً للّه تبارك وتعالى، وأن هذه الجموع لم تنزه اللّه عن هذه التسميات، بل أصرت على الضلال.

وفي هذا المقام يتحرك العبد من أجل أن يعلن عن أن هذه الجرائم ليست من مبتنياته ولا من معتقداته، الأمر الذي جعله يبالغ في التنزيه والتقديس للّه تعالى

---

(١) يمكن مراجعة مفاهيم القران، ج١، ص ٢٨٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٦ – ١١٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٦) سورة النساء، الآية: ٤٨.

بـ«**يا قدوس**». وهذه دعوة الى تنزيه كل معتقداتنا من جميع الخرافات البعيدة عن روح الاسلام وسماحته.

نداءات الرحمة (النداء الثالث)

«يا أول الأولين ويا آخر الآخرين»

الأول جاء في مفردات الأصفهاني: إذا قيل في صفة اللّه: هو الأول فمعناه: أنه الذي لم يسبقه في الوجود شيء، والى هذا يرجع قول من قال: هو الذي لا يحتاج الى غيره، ومن قال: هو المستغني بنفسه[١]. وليست الأولية والآخرية بالنسبة إليه تعالى زمانيتين لأن حده بالزمان يستلزم محدوديته، واستلزام محدوديته معناه: إحاطة الزمان به. وهذا يعني احتياجه تعالى الى المحدود. وكل ذلك نقص فيه وهو المنزه عن كل نقص[٢]. وينبغي أن ندرك أنَّ الذات الإلهية ليست عدداً ـ كما هو هذا الإنسان حيث يُعدَّد ـ وذلك لأن اللّه تعالى خارج عن حدود الزمان والمكان الذي يوجَدُ في الماضي والحاضر والمستقبل. إن من يحكمه الزمان والمكان هي هذه الكائنات الموجودة في نطاق وحدود هذا الكون الواسع. فمثلاً هذا الإنسان لا يستطيع التجرد عن الزمان فأنت تقول (في زمان كذا مات عمرو وولد زيد وهلُمَّ جرّا)، وليس لهذا الإنسان التخلص من المكان، فعندما تقول: (رأيت زيداً يركض في الساحة) وهذه الرؤية حُدت بزمان ومكان معاً فهو رأى زيداً في الماضي «هذا الزمان» ورآه في الساحة «هذا المكان» بحيث لا توجد القدرة لزيد التخلص والتجرد من المكان والزمان، وقس على هذا المثال جميع المخلوقات، بما فيهم الملائكة. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣] وليست أوليته، ولا آخريته (ولا ظهوره، ولا بطونه زمانية ولا مكانية)، بمعنى مظروفيته لهما وإلا لم يتقدمهما ولا تنزه عنهما سبحانه بل هو محيط بالأشياء على أي نحو

(١) مفردات الأصفهاني، ص ١٠٠.
(٢) أضواء على دعاء كميل، ص ١٢٠.
(٣) سورة الحديد: الآية: ٣.

فرضت وكيفما تصوّرت[١]. الوصف هنا بـ«**الأول والآخر**» تعبير رائع عن أزليته وأبديته تعالى، لأننا نعلم أنه وجود لا متناهٍ وأنه (واجب الوجوب) أي: أنَّ وجوده من نفس ذاته، وليس خارجاً عنه حتى تكونَ له بداية ونهاية، وبناءً على هذا فانه كان من الأزل وسيبقى الى الأبد[٢].

يقول رسول اللّه ﷺ: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[٣].

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، هو الأول لم يزل، والباقي بلا أجل.. الظاهر لا يقال مم؟ والباطن لا يقال فيم؟**»[٤].

ويقول الإمام المجتبى عليه السلام في خطبة له: «**الحمد اللّه الذي لم يكن فيه أول معلوم، ولا آخرُ متناهٍ... فلا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكر وخطراتها. ولا الألباب وأذهانها صفته، فتقول: متى ولا بِدعَ مِمَّا؟ ولا ظاهر على ما؟ ولا باطن فيما؟**»[٥].

(١) تفسير الميزان، ج ١٩، ص ١٥٢.
(٢) تفسير الأمثل، ج١٨ ص٩.
(٣) تفسير الأمثل، ج١٨ ص١٠.
(٤) تفسير الأمثل، ج١٨ ص١٠.
(٥) تفسير الأمثل، ج١٨ ص١٠.

الفقرة الثانية

اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ، اَللّـهُمَّ اغْفِـرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّـرُ النِّعَمَ، اَللّـهُمَّ اغْفِرْ لي الذُّنُوبَ الَّتي تَحْبِسُ الدُّعاءَ، اَللّـهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ الْبَلاءَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لي كُلَّ ذَنْبٍ اَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ خَطيئَة اَخْطَأْتُها.

الذنب الذي يهتك العصمة

«اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ»

بعد أن أخذ العبد شطراً من المدح والحمد والثناء على اللّه تعالى، قضاه في ذكر ووصف طائفة من أسمائه الحسنى وصفاته العليا، استشعرَ بجماله وجلاله، وتحيّر في عظمته تعالى وكماله، فبهر في عقله والتفت الى ذنوبه وآثامه، فارتعشت من خوفه تعالى فرائصه وعظامه، فرفع يديه ملحاً وفزعاً إليه فقال مستغفراً منه تعالى[١].

«اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ» الغفران والمغفرة: الستر، ومنه قولهم: جاء الجمع الغفير، أي: الجمع الستير، يعني: لكثرتهم كأنهم ستروا وجه الأرض من جوانبه[٢]. وجاء في المفردات: الغفر: إلباس ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل: اغفر ثوبك في الوعاء، واصبغ ثوبك فإنّه أغفر للوسخ، والغفران والمغفرة من اللّه هو أن يصون العبدَ من أن يمسَّهُ العذاب[٣].

---

(١) شرح دعاء كميل، ص٦٢.

(٢) شرح دعاء كميل، ص ٦٣.

(٣) مفردات الأصفهاني، ص٦٠٩.

والذنب: الإثم والجرم والمعصية، والجمع ذنوب، وذنوبات جمع الجمع، وقد أذنب الرجل؛ وقوله، عز وجل، في مناجاة موسى، على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام: «**ولهم عليّ ذنب**»؛ عنى بالذنب قتل الرجل الذي وكزه موسى، عليه السلام، فقضى عليه وكان ذلك الرجل من آل فرعون[١]. وفي المفردات: الذنب الدابة وغيرها معروف، ويعبّر به عن المتأخر والرذل، يقال: هم أذناب القوم، وعنه استعير، مذانب التّلاع، لمسايل مياهها[٢].

والهتك: هتك ـ هتكاً الستر ونحوه: خرقه «جذبه فقطعه من موضعه» شق منه جزءً فبدا ما وراءه ـ والثوب شقه طولاً يقال «هتك اللّه ستر الفاجر» أي: فضحه. و«هتك عرشه» إذا ذهب عزه[٣].

والعصمة في كلامِ العرب: المنع. وعصمة اللّه عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه[٤]. وفي المفردات: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك[٥].

وقد تضمنت هذه الجملة التماس العبد من ربه غفران الذنوب التي تهتك العصم أي: الذنوب التي تكون سبباً في زوال مناعة العبد من الوقوع في الموبقات، والرذائل[٦].

المعصية هي التي تورث الذنب العظيم وهو بحال يحدث آثاراً وخيمةً على كيان الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[٧] المصيبة النائبة تصيب الإنسان كأنها تقصده، والمراد بما كسبت أيديكم المعاصي والسيئات... فيكون المراد أن المصائب والنوائب التي تصيب

(١) لسان العرب، ج ١، ص ٣٨٩ مادة «ذنب».
(٢) مفردات الأصفهاني، ص ٣٣١.
(٣) المنجد، ص ٨٥٤ مادة «هتك».
(٤) لسان العرب، ج١٢، ص ٤٠٣.
(٥) مفردات الأصفهاني، ص ٥٦٩.
(٦) أضواء على دعاء كميل، ص ١٢٣.
(٧) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

مجتمعكم ويصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم...[١] ومن الطبيعي أن الإبحار في هذه المياه النتنة سوف تخلف وراءها الكثير من الأعمال المغامرة ذات المعطيات السيئة، والتي ترتكز على قواعد هشة غير قابلة لتشييد كيان قوي يتحمل المصاعب، لماذا؟ لأن البنية الأرضية لم تُهيّأ بشكل استراتيجي يستفيد منه من يتحرك بالمشاريع التنموية ذات الأمد البعيد.

هنا وفي هذا المقطع نرى الفجوة التي يحاول العبد أن يسدها من خلال التوسل باللّه تعالى والتضرع إليه، وحيث توجد ذنوب أتى بها هي في حقيقة الواقع لها القدرة المعنوية على كشف ما هو مستور عن أنظارِ الآخرين ـ مثلاً الذنوب التي ترتكب في ظلام الليل والكثير من الجرائم التي تَحاك ليلاً والناس في سبات عميق، وهناك من الجرائم التي تباد فيها شعوب عن بكرة أبيها بسبب سياسات حمقاء ـ مثل هذه الذنوب تكون مدعاةً الى هتك الستر والعصمة قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[٢] وهذا مخرج للإنسان العاصي الذي تمرغ بالذنوب، حيث الهدف من هذه الآية: الكريمة هو محاولة التوعية لعواقب هذه الذنوب الكبيرة، وهو إشارة الى أن العيش الكريم متوقف على الاجتناب عن كبائر الذنوب وهو مدخل لنيل الحياة المرفهة في هذه الدنيا وغداً في الآخرة سيكون الجزاء مضاعفاً.

والذنوب التي تهتك العصم ـ على ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام ـ «**هي شرب الخمر واللعب والقمار، وفعل ما يضحك الناس من المزاح واللهو وذكر عيوب الناس، ومجالسة أهل الريب**»[٣]. هذه الذنوب ينبغي أن نكون ملتفتين إليها أكثر؛ لأن من تهتك عصمته فهو في ضياع والعياذ باللّه تعالى. وليس لأحد أن يقول: (إنّني لست معصوماً) وبحجّة ذلك يرتكب هذه الذنوب!! لاحظ هذه الأمثلة قتل النفس بأي آلةٍ، بالسكّين أو بأيِّ آلة أخرى، تعاطي السم والمخدرات، والخروج

(١) تفسير الميزان، ج ١٨ ص٥٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٣) شرح دعاء كميل، ص٦٧.

من حالة الهدوء والسكينة وراحة البال والاطمئنان، الى حالة لا يعلم بها إلا اللّه تعالى. أعاذنا اللّه وإياكم من هتك العصم.

نزول النقم

«اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ»

النقمة كما في لسان العرب، هي المكافأة بالعقوبة(١). وجاء في مختار الصحاح: نقم عليه فهو ناقم أي: عتب عليه يقال: ما نقم منه إلا الإحسان(٢). وجاء في المفردات، نقمتُ الشيء ونقمتُهُ: إذا أنكرته؛ إمّا باللسان؛ وإمّا بالعقوبة(٣). وفي المنجد، نَقَمَ ـ ونَقِم ـ نقماً... من فلان: عاقبه والأمر على فلان أو من فلان أنكره عليه وعابه وكرهه أشد الكراهة لسوء فعله. يقال «نقم فلان وتره» أي: انتقم(٤).

إن المعاني اللغوية المذكورة هي المقصودة من الأحداث التاريخية التي وردت في القرآن الكريم، حيث أنّ فداحة الذنب وعظم شناعته وآثاره توجب نزول النقمة والعقوبة على المذنبين، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٥) وهذا نوع من التحدي والإصرار والعناد تجاه نبيهم موسى على نبينا وآله وعليه السلام، ومحاولةً منهم لكسب النفوذ الشعبي في مجتمعهم، مؤكدين على أن هذه القضية محسومة مهما كانت البراهين التي سوف يأتي بها النبيّ موسى عليه السلام، وهذا الفكر سينتشر بين أوساط الناس، الذين تعتمد عليهم هذه الفئة، وخصوصاً أنه آتٍ من كبار القوم، إذا لم يتحرك النبي في حرف مسار هذا التفكير لدى عامة الناس وتوجيهه إلى الصراط المستقيم. وحاصلُ هذه الأفكار الحمقاء والتي تنمو عن غباء في رسم الاستراتيجية لمجتمعهم أنّه سبَّبَ لهم أضعافاً من الخسائر الفادحة، حيث انتقم اللّه لنبيه موسى وأرسل العقوبة قال اللّه تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ

(١) لسان العرب، ج١٢، ص ٥٩٠.
(٢) مختار الصحاح، ص ٢٨٢.
(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٨٢٢.
(٤) المنجد، ص ٨٣٤ مادة «نقم».
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٣٢.

وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[1] إلى آخر الآيات ومن ثمَّ يقول تبارك وتعالى بعد أن أقروا بالإيمان، لكنهم في وقت لاحق خالفوه: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[2] وهذه نتيجة محتومة، وذلك لأن من يحاول أن يغير النظام الكوني القائم على معادلات دقيقة وفي غاية الحساسية سيُجابَهُ بهكذا عقوبات. وثمَّة قضايا كثيرة موجودة في القرآن تسعى الى وضع حلول لمشكلاتنا، لكننا غافلون عن ذاك العالم الإيماني، لماذا؟ لأننا وبكل بساطة تمرغنا في وحول الذنوب الكبيرة والمعاصي الفاجرة، فلم يعد بمقدورنا أن نفكر بالآية التي نتلوها ماذا تريد منّا من عمل لنقومَ بِهِ؟!!.

«**الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ**» على ما جاءت به الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**نقض العهد، وظهور الفاحشة، وشيوع الكذب، والحكم بغير ما أنزل اللّه تعالى، ومنع الزكاة، وتطفيف الكيل**»[3].

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: (**خمس بخمس**). قالوا: يا رسول اللّه، ما خمس بخمس؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما نقض قوم العهد إلّا وسلط اللّه عليهم عدوهم، وما ظهرت عنهم الفاحشة إلا وقد فشا فيهم الموت، وما شاع فيهم الكذب والحكم بغير ما أنزل اللّه إلا وقد فشا فيهم الفقر، وما منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر، وما طففوا الكيل إلّا مُنِعوا النباتَ وأُخذوا بالسنين**»[4].

قال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾[5] وهذه الآية: تحدثنا عن عناد مجموعة من بني إسرائيل حتى في ترتيل عبارة الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة أخرى فيها معنى السخرية والاستهزاء[6].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٦.
(٣) شرح دعاء كميل، ص ٦٨.
(٤) شرح دعاء كميل، ص ٦٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٩.
(٦) تفسير الأمثل، ج١ ص١٦٠.

وَجَوٌّ هذه الآية: والأحاديث أعلاه يدعو الى التفكير والتأمل مليّاً، حيث عملية إفشاء الفاحشة وإشاعة الكذب والانحراف ١٠٠٪ عن أوامر اللّه تعالى وحكومة القرآن الكريم، وهذا ميل عن الهدف والنظام الذي قام على أساسه هذا الوجود. وإنّ هذه العناوين المذكورة هي جزء من التركيبة المضادة السلبية في مقابل الصدق وإشاعة الخير وإظهار المحبة للناس كافّة. والقوانين الكونية قامت على نظام مرتكز على أساسه قواعد فلسفية فلا يمكن أن يكون ثمَّةَ تبديل أو تغيير.

قال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1] وقال تعالى أيضاً: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[2] وقال تعالت قدسيته: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[3]. يقول سبحانه هذا النكال الذي أوعدنا به المنافقين[4] ومن يحذو حذوهم من النفي، والقتل الذريع هو سنة اللّه التي جرت في الماضين، فكلما بالغ قوم في الإفساد وإلقاء الاضطراب بين الناس وتمادوا وطغوا في ذلك أخذناهم كذلك. ولن تجد لسنة اللّه تبديلا فتجري فيكم كما جرت في الأمم من قبلكم[5].

تغيير النعمة

«اَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّـرُ النِّعَم»

النعمة: النعيم والنعمى والنعماء والنعمة، كله: الخفض والدعة والمال، وهو ضد البأساء والبُؤسى. وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾[6]؛ يعني في هذا الموضع حجج اللّه الدالة على أمر النبي، ﷺ. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٤ وسورة الكهف: الآية: ٢٧

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٣.

(٤) إشارة الى الآيتين التي قبلها وهي قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾.

(٥) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣٤٦

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢١١.

يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[١]؛ أي لتُسألُن يوم القيامة عن كل ما استمتعتم به في الدنيا، وجمع النعمة نِعَمٌ وأنعُمٌ كشِدةٍ وأشُدٍ؛ حكاه سيبويه؛ وقال النابغة:

فلن أذكر النعمان إلا بصالح، فإنَّ له عندي يُدَيّاً وأنعما[٢].

وجاء في المفردات النعمة: الحالة الحسنة، وبناءُ النعمة بناءُ الحالة التي يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة.[٣]

وتنقسم النعمة في اللوح المحفوظ الى قسمين:

١ ـ النعمة الثابتة على الإطلاق فهذه حتمية غير مشروطة لا تُغيَّرُ ولا تُبدَّلُ.

٢ ـ النعمة المتغيّرة بالشرط، فان هذه النعمة قائمة على اعتبار عمل صالح معين، إذا أقدم العبد على عمله تغيرت هذه النعمة من حالة الحسن الى الأحسن، وإذا تباطأ تبقى على ما هي عليه، وتقل حينئذٍ الصلاحيات، نحو أن يكون ثابتاً في اللوح أن زيداً إذا وصل رحمه يعيش ثلاثين عاماً، وإنْ قَطَعَ رَحِمَهُ فإنَّهُ حينئذ تبقى له ثلاثة أعوام على ما هي عليه في اللوح المحفوظ[٤]. قال تعالى: ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[٥].

والعبد في هذا المقطع يطلب من البارئ الغفّار أن يغفر له تلك الذنوب، التي لها مدلولات سلبية على مستوى النعم، حيث تأثيرها يصل الى تغيير النعم، ومن المعلوم جيداً أن هذه الذنوب لها تأثير مباشر على سلوكيات وأخلاقيات الفرد والمجتمع، بحيث أن مرتكبها يسقط عن نظر اعتبار الشارع المقدس وذلك ـ حسب ما تدلُّ عليه الرواية والتي سننقلها بعد برهة ـ لأن الاسلام له فلسفيات التعامل مع الفرد والمجتمع، وإذا تهاوت هذه الفلسفيات من نظر الفرد، فانه حينئذٍ ستسقط كل قوانين وأنظمة اللائحة الأخلاقية، وبالتالي يصبح غير مستحق لهذه

(١) سورة التكاثر، الآية: ٨.
(٢) لسان العرب، ج ١٢، ص ٥٧٩.
(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٨١٤.
(٤) تجد هذا المعنى في شرح دعاء كميل، للسبزواري، ص ٦٩ .
(٥) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

النعم، وسوف تكون معرضة للزوال والتغيير المستمر، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[1].

وبعبارة أخرى: أنَّ الرحمة الربانية عامّة تسع جميع الخلق، لكنها تبلغ الناس وتصل إليهم بما يناسب كفاءتهم وشأنهم، فإنّ اللّه سبحانه يُغدِقُ مُبدِئاً بنعمه المادية والمعنوية على جميع الأمم، فإذا استفادوا من تلك النعم في السير نحو الكمال والاستمداد منها في سبيل الحق تعالى والشكر على نعمائه، بالإفادة منها إفادةً صحيحةً، فإنَّ اللّه سبحانه سيثّبت نعماءه ويزيدها. وأما إذا استغلّوا تلك المواهب في سبيل الطغيان والانحراف والعنصرية، وكفران النعمة والغرور والفساد، فان اللّه سيسلبهم تلك النعم أو يبدلها الى بلاء ومصيبة. وبناءً على ذلك فإنَّ التغيير يكون من قبلنا دائماً، وإلاّ فان النعماء الإلهية لا تزول![2].

وكنتيجة حتمية وطبيعية خاضعة لاعتبارات هذا القانون الإلهي، وكحالة من الحالات الكثيرة، أكلت الذنوب نعمهم، ويذكر لنا القرآنُ المصاديق الكثيرة، ومنها قوم فرعون، قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾[3].

والنعم كثيرة جداً لا تحصى ولا تعد قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾[4].

و«**الذُّنوبَ الَّتي تُغَيِّـرُ النِّعَم**» فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**ترك شكر المنعم، والافتراء على اللّه والرسول، وقطع صلة الرحم، وتأخير الصلاة عن أوقاتها حتى انقضت أوقاتها، والدياثة[5]، وترك إغاثة الملهوفين المستغيثين، وترك إعانة المظلومين**»[6].

---

(١) سورة الأنفال: الآية: ٥٣.

(٢) تفسير الأمثل، ج٥، ص ٢٨٢.

(٣) سورة الأنفال: الآية: ٥٤.

(٤) سورة إبراهيم: الآية: ٣٤.

(٥) الدياثة: والديوث القوّاد على أهله. والذي لا يغار على أهله: ديّوث. والتدييث: القيادة. لسان العرب، ج٢، ص ١٥٠.

(٦) شرح دعاء كميل، ص ٦٩.

حبس الدعاء

«اَللّـهُمَّ اغْفِرْ لي الذُّنُوبَ الَّتي تَحْبِسُ الدُّعاءَ»

ونلاحظ عزيزي القارئ أن هذه الفقرة تحوي على تعبير لطيف وهو حبس الدعاء، وتشعر أنك أمام كيان متجذر في قوانينه، يسعى الى وضع سلوكيات أخلاقية وعقدية في سلامة فكاك العبد من قيد الدعاء (حبس الدعاء)، وهو محاولة في تركيز المفهوم التوعوي لدى الطبقات المؤمنة، وإشارة الى كيفية التخاطب أمام هذه العظمة الجبارة المتكبرة، حيث التأدب مطلوب من حيث الجلسة والمكان والزمان والوقت والهدوء وإشاعة الحالات المعنوية في قلب الداعي، وكلٌّ هذه من الآداب مطلوبةٌ في أثناء تلاوة الدعاء.

وثمّة أعمالٌ إذا أقدم عليها العبد وأتى بها، فإنّها حينئذٍ تكون سبباً لعدم استجابة الدعاء، قال الإمام سيد الساجدين وزين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «**هي: سوء النية، وخبث السريرة، والنفاق مع الإخوان، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلاة المفروضة عن أوقاتها**»[١] وبالجملة هذه أسباب الذنوب التي تحبس الدعاء، حيث فساد النيات للأغراض السيئة والباطلة حيث سوء النية والظنّ بالناس الذي يكون سبباً مؤكداً لسوء النيّة والظنِّ باللّه تعالى، وهذا بطبيعة الحال يكشف عن الأهواء والنفوس والقلوب الفاسدة، التي تراكمت عليها أعشاش الشياطين، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾[٢] وبديهي أن الحق كالصراط المستقيم واحد لا نظيرَ له، بينما الأهواء النفسية متعددة كأوثان المشركين. فأيُّهما نتبع الحقَّ أم الهوى؟ أنتبعُ الهوى الذي هو مصدر الفساد في السماء والأرض وفي جميع الموجودات، أَم الحقَّ الذي هو رمز الوحدة والتوحيد والنظام والانسجام؟

والجواب في غاية الوضوح والإشراق[٣].

---

(١) شرح دعاء كميل، ص ٧١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

(٣) تفسير الأمثل، ج١٠، ص ٣٠١.

وثمَّةَ روايةٌ عن الامام زين العابدين عليه السلام في شأن الذنوب الحابسة لغيث السماء وخيراتها: «**هي جور الحكام، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، ومنع الزكاة، والمعاونة على الظّلم، وقساوة القلب على الفقراء**»[١].

نزول البلاء

«اَللّـهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ الْبَلاءَ»

البلاء. بلا ـ بلواً وبلا الرجل: اختبرَهُ جرَّبَهُ وامتحنَهُ[٢]. وفي لسان العرب، بلوتُ الرجل بلواً وبِلاءً وابتليته: اختبرته، وبلاهُ يبلوه بلواً إذا جرّبه واختبره. وفي حديث حذيفة: لا أُبلي أحداً بعدك أبداً[٣]. وفي المفردات بَلي الثوب بِلىً وبَلاءً، أي: أخلَقَ، ومنه قيل لمن سافر: بلو سفر وبلي سفر، أي: أبلاه السفر: اختبره كأني أخلقته من كثرة اختباري له[٤].

والبلاء يأتي على قسمين:

١ - البلاء الحسن، قال تعالى: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾[٥] وهذه الآية: تتكلم عن المؤمنين في معركة بدر الكبرى التي انتصر فيها المؤمنون على الكفار.

ولقد شاء اللّه أن يذيق المؤمنين في أوّل مواجهة مسلحة بينهم وبين أعدائهم طعم النصر، وأن يجعلهم متفائلين بالمستقبل، وهذه الموهبة الإلهية كانت اختباراً لهم جميعاً، وإلّا فلا ينبغي لهم أن يغتروا بهذا الانتصار أبداً، فتكون النتيجة سلبية، وذلك بأن يروا عدوهم حقيراً وينسوا بناء ذواتهم ويغفلوا عن الاعتماد على اللّه[٦].

(١) شرح دعاء كميل، ص ٧١.
(٢) المنجد، ص ٤٩ مادة «بلا».
(٣) لسان العرب، ج١٤ ص٨٣ مادة «بلا».
(٤) مفردات الأصفهاني، ص ١٤٥ مادة «بلى».
(٥) سورة الأنفال، الآية: ١٧.
(٦) تفسير الأمثل، ج٥، ص ٢٣٨.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(١) إنّ ذكر الموت هنا قبل الحياة هو بلحاظ التأثير العميق الذي يتركه الالتفات الى الموت، وما يترتب على ذلك من سلوك قويم وأعمال مقترنة بالطاعة والالتزام، إضافةً إلى أنّ الموت كان في حقيقته قبل الحياة. وأمّا الهدف من الامتحان فهو تربية الإنسان كي يجسد الاستقامة والتقوى والطهر في الميدان العملي ليكون لائقاً للقرب من اللّه سبحانه(٢).

ولذلك حتى الأنبياء يبتليهم اللّه تعالى، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل**» وقال سلام اللّه عليه حيث ذكر عنده البلاء وما يخصُّ اللّه عزَّ وجلَّ به المؤمنَ، فقال: «**سئل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ أشدُّ الناس بلاء في الدنيا فقال: النبيون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله فمن صحَّ إيمانه وحَسُنَ عمله اشتدَّ بلاؤه ومن سخف إيمانه وضَعُفَ عمله قلَّ بلاؤه**»(٣).

٢ - البلاء السيئ، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٤) ومما يسترعي النظر أن «الشر» مقدم على «الخير» من بين المواد الامتحانيّة، وينبغي أن يكون كذلك، لأن الامتحان الإلهي وإن كان تارة بالنعمة وأخرى بالبلاء، إلا أن من المسلّم أن الامتحان بالبلاء أشد وأصعب(٥).

وفي الحديث أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام مرض يوماً فجاء جمع من أصحابه لعيادته، فقالوا: كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: «**بشَرٍّ**»! قالوا: ما هذا كلام مثلك؟! قال: «**إنّ اللّه تعالى يقول: ونبلوكم بالشر والخير فتنة، فالخير الصحة والغنى، والشرُّ المرض والفقر**»(٦).

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢.
(٢) تفسير الأمثل، ج ١٨ ص ٣٠٠.
(٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٥٩ كتاب الإيمان والكفر، باب شدة ابتلاء المؤمن.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٥) تفسير الأمثل، ج ١٠، ص ١٠٥.
(٦) تفسير الأمثل، ج ١٠، ص ١٠٥ .

وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾(١) وهذه الآية: تضع لنا أهم التعاليم الالتزامية، حيث عدم التقيّد بالقانون الإلهي يدفع الى الوقوع في مرمى المعصية ومخالفة الأحكام الإلهية. وهذا ما تشير إليه الآية، حيث اليهود الذين كانوا يعيشون على ساحل البحر... وكان يومُ السبت يوم عطلةٍ لديهم، بحيث أن عليهم أن يتوقفوا عن طلب الكسب والرزق وصيد السمك، وأن يوظفوا جهدهم فقط وفقط للإشتغال بالعبادة وذكر اللّه تعالى، إلا أن الغالبية العظمى منهم لم ترضخ لهذا القرار الإلهي الذي هو نوع من الإبتلاءات.

إن هذا الموضوع سواءٌ كان له جانب طبيعي عادي أم كان له جانب استثنائي وإلهي، كان وسيلة لامتحان واختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن ما مضمونه: وهكذا اختبرناهم بشيء يخالفونه ويعصون الأمر فيه ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾(٢).

والمقصود من البلاء في هذا المقطع من الدعاء، هو الغمّ(٣).

و«**الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ الْبَلاءَ**» عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**ترك إغاثة الملهوف، وترك إعانة المظلوم، وتضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»(٤).

وفي بعض الأخبار أنها سبع: «**الشرك باللّه، وقتل النفس التي حرَّمَ اللّه تعالى، وقذف المحصنة وأكل مال اليتيم ظلماً، والزنا، والفرار من الزحف، والسرقة**»(٥).

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.
(٢) تفسير الأمثل، ج ٥ ص١٦٥.
(٣) شرح دعاء كميل، ص ٧٣، راجع أيضاً أضواء على دعاء كميل، ص ١٣٢.
(٤) شرح دعاء كميل، ص ٧٤.
(٥) أضواء على دعاء كميل، ص ١٣٢.

قطع الرجاء

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تقطع الرجاء»[١]

القطع: قطَعَ، يقطَعُ الشيءَ قطعاً: جزَّهُ أبانَهُ وفَصَلَهُ[٢]. والرجاء: من الأمل: نقيض اليأس، ممدود[٣]. وفي المفردات، رجا البئر والسماء وغيرها: جانبها، والجمع أرجاء، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾[٤] والرجاء ظنٌّ يقتضي حصول ما فيه مسرّة، وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[٥] قيل: مالكم لا تخافون[٦]. والرجاء: يجيء بمعنى التمني والترجي، وبمعنى الخوف، ومن هذا قول الشاعر:

لعمرك ما أرجو إذا مُتُ مسلماً   على أي جنب كان في اللّه مصرعي[٧]

يتحرك العبد إلى قضية هي في حقيقة الحال تُعَدُّ من إحدى القضايا التي امتزجت مع الإنسان في حياته وهي الرجاء، حيث هذا الكيان الضعيف ليس في مقدور قوته أن يتحمل عذاب الذنوب التي احتطبها على ظهره، الأمر الذي كوّن حاجزاً بينه وبين الرجاء للّه تعالى، وهذا بدافع اللهو واللعب والهزل الذي سعى جاهلاً إلى أن يتجلّى بين يديه.

قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[٨] وهذه الآية: ترسم لنا

---

(١) هذا المقطع من الدعاء لا يوجد في أغلب كتب الأدعية، وقد تعرض لهذا المقطع بعض الشراح من العلماء الأجّلاء فأحببنا إيراده زيادةً في المعرفة، وتبركاً به. وتجد هذا المقطع من الدعاء في كتاب المصباح للكفعمي، ص ٧٣٨.

(٢) المنجد، ص ٦٣٨ مادة «قَطَعَ».

(٣) لسان العرب، ج ١٤، ص ٣٠٩ مادة «رجا».

(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

(٥) سورة نوح، الآية: ١٣.

(٦) مفردات الأصفهاني، ص ٣٤٦.

(٧) شرح دعاء كميل، ص ٧٤ نقلاً عن مجمع البحرين ج١، ص ١٧٦ مادة «رجا».

(٨) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

مركزية التصادم بين الرجاء والخوف من اللّه تعالى، وبين دفن الهوى في أعماق ملذات الدنيا فيُصاب الإنسان حينئذٍ بالهوس الدنيوي لكثرة ارتباطه بها، وعند ذاك تأتي العوامل الأُخرى الموجبة لقطع الرجاء، وهي على ما جاءت به الرواية عن المعصوم عليه السلام: «**اليأس من روح اللّه، والقنوط من رحمة اللّه، والثقة بغير اللّه، والتكذيب بوعده**»(١) فهذه العوامل تركزت أغلبها بفيوضات اللّه تعالى من الرحمة والنعمة، فاليأس من روح اللّه رسم حجة قوية في قطع الرجاء وكذا القنوط الذي يعد من أعظم الذنوب لأنه حينئذ لا تبقى له وسيلة أخرى يتمسك بها لنيل الرحمة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢) وهذه الآية، تسعى الى حلحلة القضية من خلال وضع علاج يكون مساعداً على رسم الحياة الاستراتيجية في الآخرة وهو محاولة كسب النفوذ الرباني، وجعله نقطة حركية نحو الفوز بالسعادة السرمدية.

ومن جملة النصوص التي رسمت طريق الرجاء الى اللّه تعالى (وكانت بحقٍّ منطلقاً مساعداً يستهدف نجاةَ الحالة الفردية)، النصوص الواردة من الأئمة المعصومين عليهم السلام، فعن الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي، قال: «**إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللت على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي الى النار، وحُلْتَ بيني وبين الأبرار، ما قطعتُ منك رجائي، ولا صرفتُ وجه تأمّلي للعفو عنك، ولا خَرَجَ حُبُّكَ عن قلبي، أنا لا أنسى أياديَكَ عندي، وسترك عليّ في دار الدنيا**»(٣) في هذا النص من هذا الدعاء الشريف يضع أهمَّ المنعطفات العملية في رسم طريق النجاة من القنوط، مستمداً الرحمة الربانيّة والتي سبقت غضبه، حيث القرين وهو الخليل أو الصديق مع الأصفاد وهي الحديد(٤) وهو يدل على القساوة التي سيكون عليها العبد، وهذه إشارة مؤكدة الى أن هذا الحديد ما كان إلّا من خلال أعمال العبد الإجرامية عند اللّه تعالى، وقس على هذا بقية المعاني

(١) شرح دعاء كميل، ص ٧٤ .
(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٣) مفاتيح الجنان، ص ٢٤٦.
(٤) المنجد، ص ٤٢٧ مادة «صفد».

المذكورة في هذا المقطع من الدعاء، وكل هذه المحطات المؤلمة التي سيعاني منها العبد وهو في قلبِ النار الملتهبة التي تطلع على الأفئدة، إلا أنه لم يقطع حلاوة الرجاء باللّه تعالى، ولم يصرف روح الأمل عن العفو من اللّه تعالى، ولا حتى أنه خرج حب اللّه من قلبه، بل بقي معشعشاً فيه أملاً منه أن يصيبه لطف من اللّه تعالى، ينتشله من هذه النار، لماذا؟ لأن العبد يبقى وسيبقى تحت نعمة اللّه تعالى، وستره المرخى عليه.

الذنب والخطأ

«اَللّهُمَّ اغْفِرْ لي كُلَّ ذَنْب اَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ خَطيئَة اَخْطَأْتُها»

يقف العبد في هذا المقطع على منعطف استراتيجي، يحاول من خلاله أن يسلك طريق التقرب الى اللّه تعالى بكل يسر وسهولة، بعد أن فرغ للتّو من التخلص من تبعات الذنوب العظيمة، والتي هي في حقيقة الحال ليست ثقلاً يحمله العبد على ظهره فحسب، بل هي تشمل تبعاتِ التشهير والفضيحة في هذه الحياة قبل الأخرى، فهتك العصمة، ونزول النقمة، وتغيير النعمة، وحبس الدعاء، ونزول البلاء، وقطع الرجاء، كلها تراكمات تؤدي الى ضياع المصلحة الدينية، وقلع جذور الأمن والسلم الاجتماعي، وهو عملياً يصب في قالب الخسران، ووقوع الشخصية الملتزمة والمحافظة في كومة من الفضائح.

بعد كل هذه الوقفات عند غفران الذنوب الكبيرة والعظيمة؛ يتوجه العبد الآن الى مجمل ذنوبه وأخطائه طالباً من البارئ تبارك وتعالى، أن يعطف عليه من لطائفه وجرعات رحماته، ويمده بالغفران لهذه الذنوب، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾[1] هذه الآية: تشير الى مركزية غفران الذنوب، حيث لا غفّار إلّا اللّه تعالى، وهذا التعبير ينمُّ عن عمق العلقة الوثيقة بين العبد الذي تجرَّأ وأقدم على ارتكاب أفظع الذنوب والجرائم في حق اللّه تبارك وتعالى، وبين خالق هذا الوجود اللّه تعالى، وهو نوع من التشويق وإيقاظ لقريحة اللواذ والالتجاء في الإنسان[2].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٢) تفسير الميزان، ج ٤، ص ٢٢.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[١] وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢].

قال النبي ﷺ يوماً: «**يا كريم العفو**» فقال له جبرئيل: «**أتدري ما تفسير يا كريم العفو؟ هو أن يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه**»[٣].

وليس بعيداً عن مضمار الذنب، إلا أن وطأته أخف منه، وذلك لأنه صدر من باب المحض الإرادي الأعمى، لكون فاعله لا يدرك العواقب المتوخاة من جراء حدوثه، وحيث يعد من الأعمال الإرادية المغتفرة، فإنه لا يؤثر بذاك التأثير بعيدِ المدى الذي تتأثّرُ من خلاله مصلحة الحياة الأخروية.

وهنا يسعى العبد الى أن يبطل هذا المفعول الذي صدر عن إرادة، ويحاول أن يتحرك في مساحات متأقلمة مع طبيعة الجو المناسب للمقطع من الدعاء المبارك، فهو يقول «**وكل خطيئة أخطأتها**» وهذا يعبّر عن العمق التفاعلي الذي يختزله العبد في جعبته، فالخطأ يؤثر بحسب تكوينته النفسية «السيكولوجية» على طبيعة المجريات العملية في الحياة الدنيوية والأخروية، ولذلك ورد الدعاء في القرآن بصيغة الطلب من اللّه تعالى بعدم المؤاخذة، وأن يتفضَّلَ عليه بلطفه بالعفو والمغفرة، قال اللّه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾[٤] ولعل ما في صدر الآية: من تبيان لوظيفة العبد من عدم المؤاخذة الذي أتى به نسياناً أو خطأً، ساعد العبد أو المكلف الى الاستغلال الاستراتيجي في المدى القريب، وحاولت الآية: رسم منظومة فكرية تقوم على مبدأ أن العمل الذي كان مصدره ناتجاً عن الخطأ والنسيان غيرُ منظور إليه، وليس له في واقع حاله أي تأثير في المدى القريب، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾[٥].

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٣) أضواء على دعاء كميل، ص ١٣٥ نقلاً عن جامع السعادات، ج ١، ص ٢٥١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الفقرة الثالثة

اَللّهُمَّ اِنّي اَتَقَرَّبُ اِلَيْكَ بِذِكْرِكَ، وَاَسْتَشْفِعُ بِكَ اِلى نَفْسِكَ، وَأَسْأَلُكَ بِجُودِكَ اَنْ تُدْنِيَني مِنْ قُرْبِكَ، وَاَنْ تُوزِعَني شُكْرَكَ، وَاَنْ تُلْهِمَني ذِكْرَكَ، اَللّهُمَّ اِنّي أَسْأَلُكَ سُؤالَ خاضِعٍ مُتَذَلِّلٍ خاشِعٍ اَنْ تُسامِحَني وَتَرْحَمَني وَتَجْعَلَني بِقَسْمِكَ راضِياً قانِعاً وَفي جَميعِ الأَحْوالِ مُتَواضِعاً.

القربى الى الله تعالى بذكره

«اَللّهُمَّ إني اَتَقَرَّبُ اِلَيْكَ بِذِكْرِكَ»

القرب كما في اللسان نقيض البعد. قَرُبَ الشيءُ، بالضم، يقرب قرباً وقرباناً أي: دنا، فهو قريب، الواحد والاثنان والجميع في ذلك سواء(١).

وفي المنجد كذلك(٢).

وفي المفردات، القرب والبعد يتقابلان. يقال: قَرُبْتُ منه أقرُبُ، وقربته أُقربه قُرباً وقُرباناً، ويستعمل ذلك في المكان، وفي الزمان، وفي النسبة، وفي الحظوة، والرعاية، والقدرة(٣).

والذكر: الحفظ للشيء تذكره. والذكر أيضاً: الشيء يجري على اللسان(٤).

والذكر في المفردات: تارة يقال به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ

(١) لسان العرب، ج ١، ص ٦٦٢ مادة «قرب».
(٢) المنجد، ص ٦١٧ مادة «قرب».
(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٦٦٣ مادة «قرب».
(٤) لسان العرب، ج ٤، ص ٣٠٨ مادة «ذكر».

ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء بالقلب أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللسان. وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان. وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ[١].

والمقصود بالتقرب، هو القرب المعنوي، لا المكاني لاستحالة ذلك بالنسبة إليه تعالى لاستلزام التقرب المكاني تحديده بالمكان؛ وتعالى اللّه عن ذلك سبحانه. وأما الذكر فالمراد منه الاتصال باللّه عن طريق استحضار أسمائه، وصفاته المقدسة في قلب الداعي، وعلى لسانه[٢].

يتنفس العبد الصعداء، بعد أن خاض أهوال أمواج البحار المرعبة، واستطاع بفضل اللّه تعالى أن يتخلص من هذه المعارك بقوة وصبر شديدين، فيما يبقى بعضُ الحواجز التي يسهل تجاوزها وعبورها، نفذ العبد بجلده من عذاب محتوم فهتكُ العصمة دليل على أن الطريق مهول، وسلوكه مليء بالمطبات الفاضحة.

ويبقى الأمل معقوداً باللّه تعالى، في نجاة العبد من كل عثرة، ولذلك فهو «أي العبد» الآن يحاول أن يتحرك وفق منظومة تتوافق مع المعادلات والقوانين المعنوية، وهذا يتطلب الكثير من الجهد والتعب المضني، حيث القربة هي أعلى أداة يستخدمها العبد، من أجل الوصول الى تجليات اللّه تعالى وفيوضاته.

وحتى يكون القرب الى اللّه تعالى محاطاً بوهج النور والتقوى، فلا بدّ له من أن يستمدَّ القوة الإيمانية من البيت المحمدي الأصيل، حيث أهل البيت عليهم السلام الحبل المتصل الى اللّه تعالى، قال الإمام المهدي المنتظر عليه السلام وعجل اللّه تعالى فرجه الشريف في دعاء الندبة: «... **أين باب اللّه الذي منه يؤتى أين وجه اللّه الذي إليه يتوجه الأولياء أين السبب المتصل بين الأرض والسماء ...**»[٣] حيث أهل البيت هم الذين يوصلون العبد التائه (الذي ضلّ الطريق، وسلك سبلاً

(١) مفردات الإصفهاني، ص ٣٢٨ مادة «ذكر».
(٢) أضواء على دعاء كميل، ص ١٣٧.
(٣) مفاتيح الجنان، ص ٦١١.

متعددة الضّلال) إلى الصراط المستقيم، فهم كما يقول الإمام السجاد عليه السلام: «... **شجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعدن العلم، وأهل بيت الوحي، اللهم صل على محمد وآل محمد، الفلك الجارية، في اللّجج الغامرة، يأمن من ركبها ويغرق من تركها، المتقدم لهم مارق، والمتأخر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق... اللهم صل على محمد وآل محمد، الكهف الحصين، وغياث المضطرِّ المستكين، وملجأ الهاربين، وعصمة المعتصمين...**»[(١)]. ويقول الإمام الباقر عليه السلام في ذيل رواية بالغة الأهمية حول مفاد الآية: الكريمة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[(٢)] «**نحن ذكر اللّه ونحن أكبر**»[(٣)].

ولا ريبَ في أنّ المقصودَ بالذكرِ هو ذكرُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الأطهار وهم اثنا عشر إماماً ورثوا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ميراث الإيمان والخلق العظيم.

وهم مفسرو القران من لهم القدرة على بيان أحكامه. وهم كنوز الإيمان ومظاهر صفات اللّه وأسمائه، وهم عِدلُ القرآنِ والثقل الذي أوصى به رسول الرحمن.

وقد تواتر عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «**يوشك أن أدعى فأجيب وإنّي تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي**»[(٤)].

وقال الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٥)]، قال: «**نحن واللّه أهل الذكر**». فقيل: أنتم المسؤولون؟ قال: «**نعم**». قيل: وعليكم أن تجيبونا؟ قال عليه السلام: «**ذاك إلينا إن شئنا فعلنا، وإن شئنا تركنا**»[(٦)].

إذن أهل البيت عليهم السلام خير وسيلة يمكن أن تساعد العبد على التقرب الى

---

(١) مفاتيح الجنان، ص ٢٠٧.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٣) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ١٦٢ - ١٦٣.
(٤) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ١٦٣.
(٥) سورة النحل، الآية: ٤٣.
(٦) شرح دعاء كميل، ص٧٨.

اللّه تعالى، على أن يكون استخدام الوسيلة خاضعاً لاعتبارات ترفع من شأنهم ومرتبتهم المقدسة سلام اللّه عليهم.

وحينئذٍ يكون مراد العبد من هذه الفقرة من الدعاء المبارك: أتقرب إليك بأهل ذكرك، يعني بمحبتهم وموالاتهم عليهم السلام[١].

الشفاعة الربانية

«وَاَسْتَشْفِعُ بِكَ إلى نَفْسِكَ»

الشفاعة، في اللسان الشفع: خلاف الوتر، وهو الزوج. تقول: كان وتراً فشفعته شفعاً: صيرته زوجاً[٢].

وفي المنجد، شفع شفعاً الشيء: صيّره زوجاً بأن يضيف إليه مثلَه. يقال: كان وتراً فشفعه بآخر، أي: قرنه به[٣].

وفي المختار، الشفع ضد الوتر. يقال: كان وتراً فشفعه من باب قطع[٤].

وفي المفردات، الشفع: ضمُّ الشيء الى مثله[٥].

ولعلَّ من لطائف العبارات التي وردت في الدعاء المبارك، أن هذا العبد الذي ركب سفينة العناد والمعصية وتحدى خالق الأكوان ورب الأرباب بمعاصيه وجرائمه، يتوسل ويتقرب الى اللّه تعالى بالذات المقدسة للّه تعالى، على الرغم من فظاعة جرمه، فهو يحاربه ويرفع سلاح العصيان شهاراً جهاراً غير مكترث بالمقام الذي يتحدّاهُ تارةً، ويتودد إليه بأقدس ما هي إليه تبارك وتعالى وهي أسمائه وصفاته، وأهل قرابته من عباده وخلقه تارةً أُخرى، وبملاحظة المقطع السابق والتمعن في هذا المقطع سوف تتجلى لعقولنا الكثير من الحقائق المخفية عنا،

(١) شرح دعاء كميل، ص٧٨.
(٢) لسان العرب، ج ٨، ص ١٨٣ مادة «شفع».
(٣) المنجد، ص ٣٩٥ مادة «شفع».
(٤) مختار الصحاح، ص ١٤٤ مادة «شفع».
(٥) مفردات الإصفهاني، ص ٤٥٧ مادة «شفع».

حيث من عجيب العبارة أنها تحاول أن تركز للعبدِ الوجودَ الربانيَّ في وجدانه، من خلال الهروب منه وفي ذات الوقت يكون الملجأ إليه.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاته للّه تعالى في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**وأنا عائذ بفضلك هارب منك إليك**»[١] وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أزكى الصلوات المباركات في دعاء الصباح: «**إلهي كيف تطرد مسكيناً التجأ إليك من الذنوب هارباً؟ أم كيف تخيب مسترشداً قصد الى جنابك ساعياً؟ أم كيف ترد ضمآناً ورد الى حياضك شارباً؟ كلّا وحياضك مترعة في ضنك المحول، وبابك مفتوح للطلب والوغول، وأنت غاية المسؤول، ونهاية المأمول**»[٢] وهذه العملية تمثل قمة من العطاء الإلهي من الرحمة والسعة في الرزق، والتوفيق في هذه الدنيا على الرغم من أن العبد وصل إلى أن تُهتَكَ عصمتُهُ تُغيَّرَ النعمُ التي يتمتع بها، إلّا أن رحمة اللّه واسعة، لم تطرده من ساحة القداسة الرحمانية، ولم تمنعه من التوسل بالذات الإلهية... فهذا العبد يطلب الشفاعة باللّه تعالى الذي قبل برهة لم يُراع، ولم يحترمْهُ، ولم يتخَلَّ عن طباعه السيئة، ولم يتفاعل بعبادته، فهذا العبد يطلبَ الشفاعة من اللّهِ تعالى من خلال ذاته القدسية باعتبار أن الشفاعة له سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[٣].

والشفاعة لا تنال هكذا من دون المرور على الوسائط والمقربين الى اللّه تعالى وهم أهل البيت عليهم السلام. قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٥] وقال اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾[٦] وقال

(١) مفاتيح الجنان، ص ٢٤٤.

(٢) مفاتيح الجنان، ص ٩٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٥) سورة يونس، الآية: ٣.

(٦) سورة طه، الآية: ١٠٩.

تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[١] وهذه الآيات تؤشر الى أن القيمة التي تمتلكها الشفاعة لها مفعولها التوعوي والإرشادي في هداية الناس، وأن أهل البيت عليهم السلام، هم فحسب لا يتعدّاهم أحد لنيل هذه المراتب الربانية، لكون الشفاعة لها عمق وبعد استراتيجي قائم على موازنة الفكر الذي جاء به القرآن الكريم واعتمده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطيبين الطاهرين، وهو مودة أهل البيت عليهم السلام قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٢]، فلا يمكن أن تكون الشفاعة الربانية خاضعة لاعتبارات قائمة على مناصبَ دنيويّةٍ قائمةٍ على جماجم ودماء الأبرياء من المؤمنين والناس في كافة أصقاع العالم الأرضي، وهذا يتبيّن من خلال قراءة أحداث القضايا التاريخية التي بثّها القرآن في بعض مشاهده الدرامية الجذّابة، وتناقلتها ألسن الروايات التي اصطبغت بواقع الحال والحقيقة الواقعية.

الجواد والقريب

«وَأَسْأَلُكَ بِجُودِكَ أن تُدْنِيَني مِنْ قُرْبِكَ»

الجواد في اللسان. الجود: رجل جواد: سخي،...وجاد الرجل بماله يجود جُوداً، بالضم، فهو جواد[٣].

وفي المفردات. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾[٤] قيل: هو اسم جبل بين الموصل والجزيرة، وهو في الأصل منسوب الى الجود، والجود: بذل المقتنيات مالاً كان أو علماً، ويقال: رجل جواد، وفرس جواد، يجود بمدّخر عدوه، والجمع: الجياد، قال تعالى: ﴿بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾[٥].

---

(١) سورة مريم، الآية، ٨٧.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٣) لسان العرب، ج ٣، ص ١٣٥ - ١٣٦ مادة «جود».

(٤) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٥) مفردات الإصفهاني، ص ٢١٠ - ٢١١ مادة «جود». والآية في سورة، ص الآية: ٣١.

والجود: بمعنى السخاء، وهو بمعنى الكرم، وقيل: الجواد الذي لا يبخل بعطائه، وهو من أسماء اللّه[١].

والدنوّ: دنا الشيء من الشيء دنوّاً ودناوةً: قرب وفي حديث الإيمان: أُدْنُه؛ هو أمر بالدنو والقرب، والهاء فيه للسكت، وجيءَ بها لبيان الحركة. وبينهما دناوة أي: قرابة[٢].

وفي المفردات. الدنو: القرب بالذات، أو الحكم، ويستعمل في المكان والزمان والمنزلة[٣].

فهم النص

في هذه الفقرة من الدعاء يتحرك العبد الى الحصول على بعدين أساسيين في مسيرة الطريق الى اللّه تعالى، وهما يُعدّانِ واحدةً من أهمِّ الركائز التوعوية في العبادة القائمة على ثوابتَ فكريّةٍ، ذاتِ أهدافٍ ومعايير تكون لمصلحة العبد والناس كافّة، وهما:

البعد الأول: محاولة الحصول على شرف نيل الكرامةِ والجودِ والخيرِ الكثيرِ من اللّه تبارك وتعالى.

البعد الثاني: السعي جاهداً للتقرب نحو الحضرة والساحة الربانية المقدسة.

وببلوغ هذين البعدين يقف العبد لمواجهة التقدم الذي يواصل المسير فيه، وهو نوع من السلوك الذي لا يخلو من مواجهة مصيرية.

«فمن دون الفيض الإلهي الذي ينعكس في أعماق العبد شوقاً ورغبةً لا يمكن أن يتقدم السالك الى اللّه تبارك وتعالى خطوةً واحدةً.

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ١٤٠ نقلاً عن مجمع البحرين: مادة «جود».

(٢) لسان العرب، ج١٤، ص ٢٧١ مادة «دنا».

(٣) مفردات الإصفهاني، ص ٣١٨.

إن جود اللّه سبحانه وكرمه وسخاءه هو الذي يوفق العبد لاختراق الحجب الظلمانية وطيِّ المراحل في بلوغ المراتب العالية وما الدعاء الذي يطلقه الداعي من أعماق قلبه إلّا نفحةُ حبٍّ أزليّة تغمر العبد المؤمن فيوفق للدعاء»[١].

فبإتمام هذا الطريق من السلوك الى اللّه، وهو نيل الكرامة والتنعم بالسخاء الإلهي، يكون العبد قد وصل الى مشارف الحضرة الربانية، ويلزمه أن يتحرك نحو مقتضيات تأله الى أن يصل الى مقام الدنوّ ونيل شرف التعمق في سبحات اللّه تعالى، والخوض في بحار المعرفة، ومحاولة التوقف عند دقائق المطالب المعرفية، والتي هي الباب الموصل الى مقامات الدنوّ الرباني.

فالعبد بدوره يقوم بما يؤهله الى التقرب الى اللّه تعالى، ولكنه: - في الوقت نفسه -يلتمس من اللّه، وهو الجواد الذي لا يبخل بالعطاء: أن لا يخيب آمال هذا العبد المتضرع إليه بأن يقبل منه هذا القليل فيستجيب له بالدنو منه[٢].

ولعل من المواد التي وصلتنا عن لسان المشرع من الأئمة الطاهرين عليهم السلام، هو ما قد يحثنا على تناول أسلوب الجود والدنوّ بحالٍ أليق، وهو ما سنقف معه في كثير من محطات هذا الدعاء المبارك من أجل الاستيعاب والفهم.

فدعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة مليء بهكذا وصف، حيث يركز على النعم والكرم والجود الإلهي الذي يتمتع بها العبد، وهو نوع من المواجهة الصريحة من العبد لكي يعترف بأنّه مقصر تجاه هذه النعم الربانية.

يقول الإمام الحسين عليه السلام: «**فلك الحمد والشكر يا من أقال عثرتي، ونفّس كربتي، وأجاب دعوتي، وستر عورتي، وغفر ذنوبي، وبلغني طلبتي، ونصرني على عدوّي، وإنْ أعُدَّ نعمك ومننك وكرائم منحك لا أحصيها، يا مولاي؛ أنت**

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ١٦٩.
(٢) أضواء على دعاء كميل، ص ١٤١.

الذي مننت، أنت الذي أنعمت، أنت الذي أحسنت، أنت الذي أجملت، أنت الذي أفضلت، أنت الذي أكملت، أنت الذي رزقت، أنت الذي وفقت، أنت الذي أعطيت، أنت الذي أغنيت، أنت الذي أقنيت، أنت الذي آويت، أنت الذي كفيت، أنت الذي هديت، أنت الذي عصمت، أنت الذي سترت، أنت الذي غفرت، أنت الذي أقلت، أنت الذي مكّنت، أنت الذي أعززت، أنت الذي عضدت، أنت الذي أيّدت، أنت الذي نصرت، أنت الذي شفيت، أنت الذي عافيت، أنت الذي أكرمت، تباركت وتعاليت، فلَكَ الحمدُ دائماً، ولكَ الشكر واصباً أبداً»(١).

وفي مقابل هذه النعم نجد الإمام عليه السلام يصف العبد كيف أنه يواجه هذه الثروة العظيمة، حيث الإساءة والخطأ والهمّة بالمعصية والجهل بها والغفلة والسهو والاعتماد على غير اللّه تعالى، ومحاولة التعمد لارتكاب الجرائر والجرائم، وغيرها الكثير من الذنوب، إذ لم يلحظ هذا العبد تلك النعم، ولم يجعل لرازقها أيَّ اهتمام، وكل هذه الكمية والكيفية التي تصدر من العبد هي من إفرازات هذا التعمّق السلبي في هذه الدنيا.

ويقول الإمام السجاد زين العابدين عليه السلام في مناجاته من دعاء أبي حمزة الثمالي: **«... وجلّلني بسترك، واعفُ عن توبيخي بكرم وجهك، سيدي؛ أنا الصغير الذي ربيته، وأنا الجاهل الذي علَّمتَهُ، وأنا الضّال الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته، والجائع الذي أشبعتَهُ، والعطشان الذي أرويته، والعاري الذي كسوته، والفقير الذي أغنيته، والضعيف الذي قوّيته، والذليل الذي أعززته، والسقيم الذي شفيته، والسائل الذي أعطيته، والمذنب الذي سترتَهُ، والخاطئ الذي أقلتَهُ، وأنا القليل الذي كثّرْتَهُ، والمستضعف الذي نصرتَهُ، وأنا الطّريد الذي آويتَهُ...»**(٢).

(١) مفاتيح الجنان، ص ٣٢٣- ٣٢٤.

(٢) مفاتيح الجنان، ص ٢٤٥.

الشكر لله تعالى

«وَأَنْ تُوزِعَني شُكْرَكَ»

في المختار: استوزعتُ اللّهَ شكرَهُ فأوزَعَني أي: استلهمتُهُ فألهمني[(١)].

والمقصود من الإيزاع في هذا المقطع من «**تُوزِعَني**«هو ما تفضل به الرازي في المختار وهو حصول الإلهام من اللّه تعالى لشكره.

ولا شكّ أنّ العبدَ أو الداعيَ قد وصل الى درجة أرقى من ذي قبل، حيث الإلهام الذي يُعدُّ واحداً من أبرز الوجوه التي تتغنّى بها تلك القلوب الوالهة والعاشقة للّه تعالى. وسنأتي عليه لاحقاً بإذن اللّه تعالى.

ويسعى العبد من خلال الإلهام الى حالة عظيمة هي عند اللّه تعالى من أرقى المراتب، وهي محاولة تحصيل الشكر والثناء للّه تبارك وتعالى، ومن المعلوم جيداً أن هذا العمل الصالح يحتاج إلى قوّة، تساعد العبد على الابتهال والتشرف بالشكر، فالعبد ومن خلال هذه الفرصة، التي وفقه اللّه فيها للدعاء، استغلّها لطلب الإلهام وتحصيل الرغبة في الشكر، ذلك لأن الشكر لا يأتي من غير اللطف الرباني قال تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾[(٢)]والآية تهدف الى إيجاد حالة ترابطية تقوم على مفاصل الدمج بين النعم الإلهية التي يهبها اللّه تعالى، وبين الشكر الذي هو علامة من مقومات البقاء في نعيم هذه الخيرات الكثيرة.

ويتعانق الشكر وبقاء النعم من خلال التواصل مع منعم هذه الخيرات، وهذه يؤثر في مسار الحياة العملية قال الإمام الصادق عليه السلام: «**شكر النعمة اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد اللّه رب العالمين**»[(٣)] ونلاحظ أن الحديث يحاول أن يتحرك من عمق الصلابة الدينية، والتي تحث على اجتناب كل ما هو موجب

(١) مختار الصحاح، ص ٢٩٩ مادة «وزع».

(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٣) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ١٩٧٤ ح ٩٦٠٧.

لإزالة النعم، وعدم بقائها على دوامها، حيث ركوب المعصية علامة على سلبية الواقع في الحياة، وقال الإمام علي عليه السلام: «**شكر كل نعمة الورع عن محارم اللّه**»[١] وقال سلام اللّه عليه أيضاً: «**شُكر إلهك بطول الثناء، شُكر من فوقك بصدق الولاء، شُكر نظيرك بحسن الإخاء، شُكر من دونك بسبب العطاء**»[٢] ونلاحظ جيداً من خلال هذه الأحاديث المتقدّمة، أن الشكر قوة عملية تتحرك وفق منظومة الحياة، وتتعاطى جملة من القوالب التي تقوّم مسيرة الحياة لدى الإنسان بسبب الشكر، وهذا ما نجد معناه في الحديث الأخير، والذي يوصي بالشكر ويعطي النتائج الواقعية في مسيرة الحياة، وهي نتائج وإن كانت مخفية، إلّا أنّ آثارها واضحة للعيان.

وهذا يتحرك مع دوام الشكر للمنعم، إلّا أنّ قسماً كبيراً من البشر لا يجد للشكر محلّاً في لسانه، وهم كثيرون قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[٣] وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٥]. وتركّز هذه الآيات على نقطة هي أقرب للمنطق العقلي منها الى العرف الاجتماعي، وهي وجوب شكر المنعم، الذي أنعم على هذا الوجود بواسع رحمته ومغفرته. وفي مصباح الشريعة: «**لو كان عند اللّه عبادة يتعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال لأطلق لفظه فيهم من جميع الخلق، فلما لم يكن أفضل منها خصّها من بين العبادات وخصّ أربابها، فقال تعالى:** ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ

(١) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ١٩٧٤ ح ٩٦٠٨.
(٢) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ١٩٧٤ ح ٩٦٠٩.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦١.
(٤) سورة يونس، الآية: ٦٠.
(٥) سورة سبأ، الآية: ١٣.

ٱلشَّكُورُ ﴾»[١] وقال الإمام علي عليه السلام: «**أوصيكم بتقوى اللّه... فما أقلَّ من قَبلَها، وحملَها حقَّ حملِها! أولئك الأقلّون عدداً، وهم أهلُ صفةِ اللّهِ سبحانه إذ يقول:** ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾»[٢] ويلزم قراءة هذه الأحاديث بصورة واقعية، والاهتمام بهذه القضية، فهي تركز على قليل من عباد اللّه تعالى الذين يؤدون الشكر والحمد والثناء للّه سبحانه، وهذا ما يستدعي طرح سؤال حول البقية من البشر الذين هم يتمتعون بنعم اللّه تعالى... أين هؤلاء؟؟ لماذا لا يؤدون عبادة الشكر والثناء؟؟؟، ولعلّهم -واللّه العالم- كان مقتضى واقعهم الفكري لا يؤهلهم الى الوصول الى هذه المقامات والرتب الإلهية، وثمة جواب ثانٍ وهو امتزاج الطبيعة المادية وما فيها من قساوة الصلابة التي اشتهرت بها، وأن هذا الإنسان الذي تأكسدت طبيعته جنباً الى جنب وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من واقعه في الحياة المادية، وأن الحالات المعنوية تحتاج الى التخلي عن مفاهيم هذه الطبيعة، وعدم التعمق فيها وجعلها إلهاً يُعبَدُ. كلُّ ذلك أدّى به إلى عدم الشعور بمقتضى الشكر للّه تعالى، حيث التأكسد والصدأ المادي، وامتزاج مفاهيمه، وجعله إلهاً يعبُدُه في قرارةِ نفسه، كان هذا سبباً قوياً لحرفِ المجاميع الكثيرة من البشر الى الطريق المعوج.

مرتبة الإلهام

«وَأَنْ تُلْهِمَني ذِكْرَكَ»

الإلهام. جاء في اللسان: ألهمه اللّه خيراً: لقنه إياه. واستلهمه إياه: سأله أن يلهمه إياه. والإلهام: ما يُلقى في الروع. ويستلهمُ اللّهَ الرشادَ، وألهمَ اللّهُ فلاناً. وفي الحديث: أسألك رحمة من عندك تلهمني بها رشدي؛ الإلهام أن يُلقِيَ اللّه في النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك، وهو نوع من الوحي، يخصُّ اللّهُ به من يشاء من عباده[٣].

(١) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ١٩٧١ ح ٩٥٨٨.
(٢) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ١٩٧١ ح ٩٥٨٩.
(٣) لسان العرب، ج ١٢، ص ٥٥٥ مادة «لهم».

وفي المنجد: إستلهم اللّهَ خيراً: سألهُ أن يُلهِمَهُ إيّاه[١].

وفي المختار: الإلهام ما يُلقى في الروع يقال: ألهمه اللّه واستلهمَ اللّهَ الصبرَ[٢].

وفي المفردات الإلهام: إلقاء الشيء في الروع، ويختص ذلك بما كان من جهة اللّه تعالى، وجهة الملإ الأعلى. قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٣] وذلك نحو ما عبر عنه بلمة الملك، وبالنفث في الروع كقوله عليه وآله الصلاة والسلام: «**إن للملك لمة وللشيطان لمة**»، وكقوله عليه وآله الصلاة والسلام: «**إن روح القدس نفث في روعي**» وأصله من التهام الشيء، وهو ابتلاعه، والتهم الفصيل ما في الضرع، وفرسٌ لهم: كأنه يلتهم الأرض لشدَّة عَدْوِهِ[٤].

فهم النص

يتدرج العبد من خلال هذا المقطع من الدعاء إلى واحدة هي من أسمى وأهم المراتب المتاحة إليه في عالم الوعي والتفكير المترامي نحو المبدع الخلاّق، وهي الإلهام.

إذ يسعى إلى تحصيل الذكر من خلال الإلهام وهي محاولة توظيف الخصال الحميدة نحو التمسك بالثوابت والضوابط الإلهية، وهي إلقاء الروع أو الذكر في قلب المؤمن، قال الإمام علي بن الحسين السجاد زين العابدين عليه السلام في شأن ذلك: «**اللهم اجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمني، والتظني، والحسد.. ذكراً لعظمتك، وتفكراً في قدرتك، وتدبيراً على عدوك**»[٥] ويدل هذا المشهد من الدعاء على أن الروع يأتي أيضاً من ناحية الشيطان وليس فحسب من اللّه تعالى.. إلا أن ثمة لفتة دقيقة في هذه الفقرتين وهي عندما يكون الروع من جانب اللّه عز وجل يوصف بالإلهام، وحين يكون غير ذلك يوصف بالروع.

---

(١) المنجد، ص ٧٣٦- ٧٣٧ مادة «لهم».

(٢) مختار الصحاح للرازي، ص ٢٥٣ مادة «لهم - ل ه م».

(٣) سورة الشمس، الآية: ٨.

(٤) مفردات الإصفهاني، ص ٧٤٨ مادة «لهم».

(٥) الصحيفة السجادية، الدعاء العشرون، دعاؤه في مكارم الأخلاق.

وهذا الطلب نوع من التماس العبد باللّه تعالى لان يوفقه بالذكر من خلال الإلهام.

وقد تكرر مثل هذا الالتماس في كثير من الأدعية والمناجاة التي كانت تتردد على لسان أهل البيت عليهم السلام.

ولنستمع إلى الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يتضرع إلى ربه قائلاً: «**اللهم ألهمنا طاعتك، وجنبنا معصيتك، ويسر لنا بلوغ ما نتمنى من ابتغاء مرضاتك**». إن الإمام في طلبه هذا لا يرى في نفسه - وهو زين العابدين وسيد الساجدين - القدرة على أداء الطاعة على النحو الذي يتناسب ويليق بمكانته سبحانه وتعالى(١).

وحتى يمكن أن يحصل العبد على فيوضات وألطاف اللّه تعالى من الإلهام يلزم تحصيل ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى: نقاوة القلب من الذنوب والمعاصي

لا بُدَّ في هذه المرحلة من أن يتحرك العبد نحو تطهير ونقاوة القلب من الذنوب والمعاصي، حيث القلب مركز القيادة إلى الطريق السليم، وإذا كانت القيادة نظامها غير متزن ولا هو مستقر، فان عملية تسير القوانين لن تكون بالحال المطلوب، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢) والرين هنا هو الصدأ يعلو الشيء الجلي(٣) ولا ريب في أن القلب الذي تلوث بهذه الذنوب قد يصدأُ من كثرتها، ولا موضع قدم في القلب للإلهام لكونه مليئاً بالآثام والمعاصي.

قال الإمام الصادق عليه السلام: كان أبي عليه السلام يقول: «**ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة. إنَّ القلبَ ليواقعُ الخطيئةَ فما تزال به حتى تغلبَ عليهِ فيُصيِّر أعلاه أسفلَهُ**»(٤).

(١) أضواء على دعاء كميل،:، ص ١٤٢- ١٤٣.
(٢) سورة المطفّفين، الآية: ١٤.
(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٣٧٣.
(٤) ميزان الحكمة، ج٣، ص ١٣٤١.

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فان تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يُغطّيَ البياضَ، فإذا تغطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول اللّه عز وجل** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾»[1] وقال الإمام علي عليه السلام «**ما جفّت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلّا لكثرة الذنوب**»[2] ونلاحظ من خلال هذه الأحاديث كيف أن الذنب له السلطة في السيطرة على مفاصل وحدود القلب، الأمر الذي يجعل سلاح القسوة هو المتحكّم في الداخل والخارج، وحيث الحكمة والإلهام والصفات الحميدة يراد لها الطريق المتعبد بالورع والتقوى والابتعاد عن المحارم، وتجنب ارتكاب الذنوب.

المرحلة الثانية: السعي نحو المعرفة وطلب العلم

تتحرك هذه المرحلة باكتمال الأولى، حيث القلب المذنب لا يمكن أن يحمل العلم والمعرفة، وهذا القول قد تسالمت المنهجيات الطبيعية عليه، إذ الكأس المملوء ماءً لا يمكن أن يُملأَ بمادة غير الماء، فكذلك القلب الذي فاضت أنحاؤُهُ بالذنوب والآثام لا يمكن أن يحل فيه نور العلم والمعرفة.

والعلم حاجة ماسة للإنسان المؤمن، إذ بدونه لن ينال مرتبة الإلهام والقرب الإلهي، ومن المعلوم أن العلم هو مصدر أساسي لاكتشاف ما هو مجهول عند الإنسان، فإذا علم تبدد مفعول الجهل إلى علم. والطريق إلى اللّه تعالى مقرون بالعلم، إذ ما أكثرَ العوالمَ التي يسلكها الإنسان في عالم السير إلى اللّه تعالى، وإذا كان الإنسان غافلاً عن نفسه، فان الشيطان لن يغفلَ عنه، وسيوقعه حتماً في مصائده وشراكه، ولذلك وضع الأئمة الأطهار عليهم السلام أساليب قبول الأعمال عند اللّه تعالى، حيث بينوا أن السلوك لا بد أن يكون عن علم ومعرفة.

---

(١) ميزان الحكمة، ج٣، ص ١٣٤١- ١٣٤٢ .

(٢) ميزان الحكمة، ج٣، ص ١٣٤٢.

قال الإمام الصادق عليه السلام: **«العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق ولا يزيده سرعة السير من الطريق إلا بعدا»**(١).

ويقول أبو عبد اللّه الصادق عليه السلام أيضاً: **«لا يقبل اللّه عز وجل عملاً إلّا بمعرفة ولا معرفة إلّا بعمل فمن عرف دلته المعرفة على العمل ومن لم يعمل فلا معرفة له، إنّ الإيمانَ بعضه من بعض»**(٢).

وقال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«المتعبد على غير فقه كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح وركعتان من عالم خير من سبعين ركعةً من جاهل؛ لأن العالم تأتيه الفتنة فيخرج منها بعلمه وتأتي الجاهل فتنسفه نسفاً وقليل العمل مع كثير العلم خير كثير العمل مع قليل العلم والشك والشبهة»**(٣).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: **«فليصدق رائد أهله وليحضر عقله وليكن من أبناء الآخرة فإنّه منها قدم واليها ينقلب، فالناظرُ بالقلب العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم أعمله عليه أم له؟ فإنْ كان له مضى وإنْ كان عليه وقف عنه فان العامل بغير علم كالسائر على غير طريق فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعداً من حاجته والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح، فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع»**(٤).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: **«أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله وانصحوا لأنفسكم وجاهدوها في طلب معرفة ما لا عذر لكم في جهله فإنّ لدين اللّه أركاناً لا ينفع من جهلها شدَّةُ اجتهاده في طلب ظاهر عبادته ولا يضرّ من عرفها، فدان بها حسن اقتصاده ولا سبيل لأحد إلى ذلك إلا بعون من اللّه عزّ وجلّ»**(٥).

وترشدنا هذه الأحاديث إلى ضرورة التمسك بطلب العلم والمعرفة، حيث

(١) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٦.
(٢) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٧.
(٣) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٨.
(٤) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٩.
(٥) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٩.

تبين مدى الحاجة الماسة إلى ذلك، وأنَّ الأعمال تتوقف على اتساع العلم وضيقِهِ، الأمر الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى ضياع العمل وخسرانه.

المرحلة الثالثة: عملية التفكير

تتمحور هذه المرحلة من خلال اكتساب القواعد والقوانين الأساسية التي تساعد على استنباط الفكرة والمفهوم الصحيح، وتندرج تحت منهجيات طلب العلم المشار إليه سلفاً، ومن المعلوم أن اكتساب العلم المجرد عن قانون التفكير، لا يزيد صاحبه إلا بعداً عن ساحة استدراكات الواقع.

وقد تناول القرآن الكريم هذا الباب بقوة وأصرَّ عليه، وجعل مشوار التقدّم مبنيّاً على التفكير المنطقي القائم على قواعد وأساسيات عقلية خاضعة لاعتبارات الواقع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[١] وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٢].

نلاحظ أن الآية: الأولى شبَّهت أولئك الناس الذين لا يستخدمون وظيفة العقل الذي وهبه اللّه تعالى لهم بأنهم أنعام وأضلُّ من الأنعام، ووصفهم بالغافلين، وحالة الغفلة طبيعية فيمن هم على هذه الشاكلة، إذ استخدام وظيفة العقل هو عامل ذاتيّ للرقيّ في التقدّم الدنيوي والأخروي، وهو حال من الحالات الممنهجة الخاضعة لظروف التفكر. وأمّا في الآية: الأخيرة فان المعبَّرَ عنه بالقلب هو العقل، والذي هو بالنتيجة موصل إلى التفكير الصحيح القائم على ارتكازات طبيعية، ودراسات منطقية، فإنَّ هذا التفكر يوصل صاحبه إلى فضاءات واسعة، ويخرجه من عالم الكبت الذاتي إلى عالم النور، ويسلمه إلى الانشراح الفكري القائم على الإلهامات الربانية.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.

وثمَّة ما يرشدنا أكثر حول أهمية التفكير، واتخاذه سلاحاً للمقاومة والدفاع عن الدولة والمملكة النفسية، واعتباره من أبرز الفضائل المولدة للإلهام، وهو الأحاديث المروية عن لسان المعصوم عليه السلام، حيث تُعتبر القوّة الصاعدة نحو العمل الصالح، والتزام الصبر واتّباع الحقّ إذا كان التفكر مبنيّاً على القواعد الصحيحة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: قال كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**نبه بالتفكر قلبك؛ وجاف عن الليل جنبك، واتّق اللّه ربك**»[1] ومدلولات هذا الحديث كثيرة، حيث يركز لنا عدة نقاط ويحاول أنَ يرسم المنهجية المنضبطة للعبادة، فهو أولاً وضع التفكير أول العلامات في تحريك الحس القلبي وثانياً، اتخذ من قيام الليل أحد أهم الوسائل للوصول إلى المقامات والمراتب العليا عند اللّه تعالى، وثالثاً، ركز على التقوى التي هي علامة من علامات القبول. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

يقول الحسن بن الصقيل سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عما يروي الناس أن تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكر؟ قال: «**يمر بالخربة أو بالدار فيقول: أين ساكنوك، أين بانوك ما بالك لا تتكلمين**»[2] ويقول الإمام الرضا عليه السلام: «**ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر اللّه عز وجل**»[3] ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن التفكر يدعو إلى البر والعمل به**»[4].

وهكذا تنطوي المراحل التي تكون إحدى الإشارات البارزة في التقدم والرقي إلى الدرجات العليا عند اللّه تعالى، وهي أيضاً إحدى العلامات المساعدة على استلهام الذكر الإلهامي المشار إليه في فقرة الدعاء.

فالذكر الإلهامي، هو أساس السعادة في الدنيا والآخرة والسبب لبلوغ الحقائق

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص ٥٩.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص ٥٩.

(٣) أصول الكافي، ج٢، ص ٥٩.

(٤) أصول الكافي، ج٢، ص ٦٠.

التي يُقصِّرُ عن بلوغها الغافون. والذكر الإلهامي ذكر الحال لا ذكر القيل والقال؛ لأن ذكر القول هو لعب بالألفاظ، وذكر الحال هو عروج القلب إلى رحاب بعيدة المنال لا يصلُ إليها إلّا من أرادَ الوصال.

إن ذكر الحال يفتح بصيرة الإنسان فيرى جمال الحق وحينئذٍ يهيم العبد عشقاً من أجل لقاء المحبوب ومن أجل ذلك هتف سيدنا الحسين في الظهيرة العظمى من يوم عاشوراء:

تركت الخلق طُراً في هواكا — وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني بالحب إرباً — لما مال الفؤاد إلى سواكا(١)

حاجة الإنسان وضعفه آناً واستمراراً للّه تعالى

«اَللّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ سُؤالَ خاضِع مُتَذَلِّل خاشِع أن تُسامِحَني وَتَرْحَمَني وَتَجْعَلَني بِقَسْمِكَ راضِياً قانِعاً، وَفي جَميعِ الأحوال مُتَواضِعاً»

إنّ من نافلة القول أنّ العبد قد التفت إلى أنه لا يزالُ في بداية الطريق، وأنّه يحتاجُ إلى دفعة من الشحنات القوية حتى يدرك الغاية والهدف الأسمى، الذي يصبو إليه.

وقد عمد إلى تغيير نمط الخطاب الموجّه إلى الذات الأحدية؛ حيث نلاحظ في بدايات الدعاء كيف أن العبد طمعَ بالرحمة، وتمسك بالمدح والثناء، على أن القوة والجبروت والعزة والعظمة وكل الصفات التي ذكرت هناك، لا تدل على أن العبد قد تمسكن وخضع للّه تعالى، فهو عبثاً قفز إلى المطالبة بغفران الذنوب والخطايا، في حين أن منها، هاتكاً للعصمة، ومُنزلاً للنقمة، ومغيّراً للنعمة، وما أشبه من هذه الذنوب الكبرى والفاضحة... فحقاً توجد حاجةٌ إلى عمل جهادي يرتقي بالعبد إلى للتخلّص منها.

وفي هذه الفقرة من الدعاء نلاحظ مدى التغيير والإدراك الذي التفت به العبد،

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ١٧٨ – ١٧٩.

والحال التي أصابته بآثارها وتراكماتها الكثيرة، فهو الآن يتحرك وفق منظومة متكاملة، تهدف الى رسم آليات مستقبلية، لكي تساعده في التقدم والرقي الفكري والعقلي، وانطلق من ثلاثة أبعاد أساسية:

البعد الأول: الخضوع.

البعد الثاني: التذلّل.

البعد الثالث: الخشوع.

وتشكل هذه الأبعاد مجتمعةً حالة من مرحلية الواقع الذي يعيش فيه، فهو إن لم يخضع ولم يتذلّل ولم يخشع، لم ولنِ يصل إلى مراده، على أن أيّاً من هذه الأبعاد الثلاثة له مدلولات وآثار سوف نتناولُ قسماً منها.

فالخضوع هو التواضع والتّطامُن. خضع يخضع خضعاً وخضوعاً واختضع: ذلّ[١].

وهنا العبد يرسم لنا صورة واقعية حول المبالغة في الخضوع، وهذا يعبر عن مدى الانفعالية الروحانية التي يتمتع بها هذا العبد، على أن الالتفاف مكّنه من خلال سرعة البديهة من أن يشير إلى نقطة السؤال الخاضع، والمتذلّل (ذلّاً وذِلّةً وذلالةً ومذلّةً: ضدّ عزّ هانَ فهو ذليل)[٢].

وجاء في اللسان الذلّ نقيض العز، ذلّ يذلّ ذُلّاً وذلّة وذلالةً ومذلّةً، فهو ذليل[٣].

وهذه إشارة واضحة إلى عمق التمازج التكويني بين الكلمتين الخضوع والتذلل، الأمر الذي يثبّت القوة في طرح السؤال ومحوريته في حدود قواسم مشتركة.

والخشوع: خشع يخشع خشوعاً واختشع وتخشع: رمى ببصره نحو الأرض وغضَّهُ وخفض صوته[٤].

(١) لسان العرب، ج٨، ص ٧٢.

(٢) المنجد، ص ٢٣٦ مادة «ذل».

(٣) لسان العرب، ج ١١ ص٢٥٦ مادة «ذلل».

(٤) لسان العرب، ج٨، ص ٧١.

بهذا المعنى يمكن أن ندرك من خلال المصطلح سالف الذكر أنّ هذا العنوان نتيجة متولدة من رحم الخضوع والذلّ.

ولكون العبد وصل إلى مرحلة من الهيام والعشق الإلهي المقدس، وذاق طعم الذل والهوان أمام الجبروت والملكوت الأعلى، فإنّه بلطف اللّه تعالى ينال الخشوع الروحي، وعندئذٍ إذا شعر بهذه الجذبة يبدأ في رسم المستقبل والمخطط التصوري لعالم الدنيا والآخرة، حيث يتناول في السؤال خمسة مطالب:

المطلب الأول: المسامحة والتساهل في الحساب والتماس العفو من اللّه تعالى.

المطلب الثاني: أن ينال اللطف الرباني من الرحمة، وأن لا ينسى كما هو العبد ينسى، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾[1].

المطلب الثالث: وقد اهتم العبد بأمر المعاش، حيث شعر بأنّ الحياة تحاول أن تضغط عليه من كل الجوانب؛ فهو يتحرك وفق المنظومة المادية التي ليس في أجندتها عالم الروح والمعنويات، بل تقوم نظريتها وفق وحدود كيانها، محاولة إبطال ما هو دونها من غير الرجوع إلى مصادر ومستندات ووثائق تلك العوالم. ومن كان هذا طريقه ومساره فهو دائماً في نهم مستمر يطلب المزيد ولا يرضى بالقليل. ومن كانت هذه حالته فهو مسلوب الراحة يحشد طاقاته لتأمين كافة احتياجاته الحياتية[2]. والآن يحاول العبد في هذا المشهد من الدعاء الشريف، أن ينظِّم حركة الحياة ويديرها وفق ما تحتاجه حياته، وأن يرضى بالقليل، وأن لا يطمع بالمزيد.

المطلب الرابع: وحتى يكون الطلب السابق متكامل الخصال، لا بدّ من أن

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤ – ١٢٦.

(٢) أضواء على دعاء كميل، ص ١٤٥.

تكون هناك القناعة مركزة ضمن الأهداف الاستراتيجية، وإذا فقدت هذه الصفة فانه لا مجال للطلب الثالث، وذلك لأن الرضا بالقليل من دون قناعة يحدث شرخاً في توجّهات العبد ومساراته في الحياة، والقناعة بمثابة قيد لتنظيم الحركة في طلب المعاش الدنيوي.

المطلب الخامس: أنّ طيَّ جميع المراحل والمطالب خاضع لموازين الأخلاق والتربية النفسية والتعامل مع الألطاف الربانية على أنها هبات إلهية تفضّل بها اللّه تعالى على العبد، فلو أن التسامح والرحمة والرضا والقناعة قد حصل عليها العبد من اللّه تعالى ؛ لكنه فاقد لصفة التواضع في كل أحوال حياته من خير وشر ومشكلات اجتماعية ومصائب وبلايا أهلية ونفسية، فإنّه لا يستفيد من كل المطالب والصفات المتقدمة، وذلك لأنّ هذه الصفة جامعة ومكملة للرؤية الاجتماعية قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] وهذه الآية: الشريفة تضع لنا الصفة الأخلاقية للفرد المؤمن، والتي ينبغي أن يتحلى بها وهي التواضع أمام من هو أهل لذلك.

وتشكل هذه المطالب الخمسة مرتكزاتٍ ذاتيةً لتكوين وصقل الشخصية الإيمانية، وتمثل منظومة أخلاقية في عالم الدنيا والآخرة معاً، فعملية التسامح والرحمة للآخرين والرضا عن الآخرين والقناعة بما في يديه وعدم النظر إلى ما في أيدي الغير والتواضع للآخرين، كلّها قوانين دنيوية خاضعة لمجريات الظروف الموضوعية، فلا يكون العبد ساذجاً إلى حدّ أن الآخرين يضعونه موضع المستهزئين به، ولا أن يكون بالمتكبر الذي يخشى المؤمنونَ من سطوته وجبروته.

عن معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سمعته يقول: «**إن في السماء ملكين موكلين بالعباد، فمن تواضع للّه رفعاه ومن تكبر وضعاه**»[2] وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس وأن تسلم على من تلقى وأن تترك المراء وإن كنت محقاً وأنْ لا تحب تحمد على التقوى**»[3].

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٢) الكافي ج ٢، ص ١٢٨.
(٣) الكافي ج ٢، ص ١٢٩.

والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع والخشية والحياء، وإنهنّ لا يأتين إلاّ منها وفيها، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلا للمتواضع في ذات اللّه تعالى.

وقال الإمام أبو محمد الحسن بن علي العسكري عليهما السلام: «**أعرفُ الناس بحقوق إخوانهم وأشدُّهم قضاءً لهم أعظمهم عند اللّه شأناً ومن تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند اللّه من الصديقين ومن شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام حقاً**»[١].

(١) جامع السعادات، ج١، ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

الفقرة الرابعة

اَللّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ سُؤالَ مَن اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ، وَاَنْزَلَ بِكَ عِنْدَ الشَّدائد حاجَتَهُ، وَعَظُمَ فيما عِنْدَكَ رَغْبَتُهُ، اَللّـهُمَّ عَظُمَ سُلْطانُكَ وَعَلا مَكانُكَ وَخَفِي مَكْرُكَ وَظَهَرَ اَمْرُكَ وَغَلَبَ قَهْرُكَ وَجَرَتْ قُدْرَتُكَ وَلا يُمْكِنُ الْفِرارُ مِنْ حُكُومَتِكَ...

شدة الحاجة وعِظَمُ الفاقة

«اَللّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ سُؤالَ مَنِ اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ، وَاَنْزَلَ بِكَ عِنْدَ الشَّدائِدِ حاجَتَهُ، وَعَظُمَ فيما عِنْدَكَ رَغْبَتُهُ»

الدلالة اللغوية

الشدّة: اسم من الاشتداد (نقيض اللين والرخاء ورغد العيش) ما يحلُّ بالإنسان من مكاره الدهر، شدَّةُ الأرض: صلابتها[1].

الفاقة: الفائق: عظم في العنق. وفئِقَ فأقاً، فهو فئِقٌ مفئِقٌ: اشتكى فائقه[2].

والفاقة والخصاصة والإملاق والمسكنة والمتربة، جميعاً بمعنىً واحد: هو الافتقار، يقال: فلان اشتدت فاقته، أي: بلغت فاقته وحاجته في أمر إلى النهاية، بحيث لا يتصور فوقها حاجة وفاقة فيه؛ إذ للاحتياج مراتب مختلفة، بعضها في الشدة واللزوم فوق بعض؛ لأن احتياج الإنسان إلى طعامه أشدّ وآكد من احتياجه إلى ملح طعامه، واحتياجه إلى الماء أشدّ من احتياجه إلى القصعة والكوزة، واحتياج الوجودات إلى مقوّمها وقيوّمها أشدُّ وآكد من احتياجها إلى نفسها[3].

---

(١) المنجد، ص ٣٧٨ مادة «شدّ».

(٢) لسان العرب، ج ١٠، ص ٢٩٦ مادة «فأق».

(٣) شرح دعاء كميل، ص٨٩.

الحاجة: الحاجة إلى الشئ: الفقر إليه مع محبته، وجمعُها: حاجات وحوائج، وحاج يحوج: احتاج قال تعالى: ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾[(١)]، وقال: ﴿ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا ﴾[(٢)]، والحوجاء: الحاجة، وقيل: الحاج ضرب من الشوك[(٣)].

فهم النص

لا يزالُ العبد يجّدُ في السير والسلوك إلى اللّه تعالى من خلال الاعتراف بالضعف والمسكنة، ويصور لنا في هذا المقطع من الدعاء مدى الحاجة القوية، والفقر الشديد إلى اللّه تعالى.

ونلاحظ لسان العبد لا يهدأ من تكرار السؤال من خلال المقاطع السالفة والتي سنشير إليها تباعاً، يا تُرى، لماذا لسانه يكرر هذا النمط من الدعاء؟ هل هو حقاً يشعر بحالة يرثى لها من الفقر والفاقة أمام اللّه تعالى؟

نعم... هناك حالتان في الإجابة:

ففي الحالة الأولى: هو يشعر بالندم على ما فرّطَ في حقّ اللّه تعالى، فهو من جانب يُقرُّ بالفقر والمسكنة والضعف أمام هذا المعبود، ومن جانب آخر، يحاول أن يرفع من قيمته وحضوره أمام اللّه تعالى من خلال الإقرار بالذنب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ﴾[(٤)] ونلاحظ من خلال الآية: أن هذا العبد الكائن البشري بحاجة ماسة إلى اللّه تعالى، وذلك لأنّ الفقر أمر حتمي لا يستطيع المفر منه فهو دائماً واستمراراً يسأل اللّه ويطلب منه أن يقضيَ حوائجه مهما كانت صغيرة وحقيرة فضلاً عن المسائل الكبيرة والعظيمة.

وفي الحالة الثانية: هو يكرّر السؤال ويقرنه بلفظ الجلالة للالتذاذ والأنس بذكر

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٢٦٣ مادة «حاج».

(٤) سورة فاطر، الآية: ١٥.

اللّه تعالى؛ إذ ذكر الحبيب على الحبيب أحلى وألذّ من العسل المصفّى الذي نهره في الجنة موعود المتقين بل أهنأ وأمرأ من الخمر التي هي لذة للشاربين[١].

وهناك نموذج في القرآن الكريم يتحدَّث عن الوله والشوق الإلهي حيث كان أنبياء اللّه تعالى يسبحون في هذا العذب المقدّس، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[٢] في هذه الآية: نلاحظ أن اللّه تعالى سأل النبي موسى عليه السلام عن ماهية الأداة التي في يمين النبي عليه السلام؟ ولم يسأله عن أسباب حمله هذه الأداة؟... إذ من اللازم حسب حدود واستيعاب السؤال، أن يجيبه فقط وفقط بأنّها عصا، لا أن يدخل في التفاصيل التي تعد في أغلب الأحيان من المملات المطولة التي لا يُرجى منها فائدة، خصوصاً إذا كان السائل حكيماً وعليماً مثل اللّه تعالى... فما الغاية التي يسعى النبي الوصول إليها من خلال التطويل؟

الملاحظ أنّ هذا ليس من باب التطويل والعبث، وإنّما هو من كونه أُنساً ومناجاةً للمحبوب، وهذا في قمة الالتذاذ والعشق، وهذا حاصل في اجتماعاتنا ولقاءاتنا على مستوى حياة الإنسان العادي، فأنت ترى الصديقين حين يلتقيان كيف ينصرم الوقت عندهما وهما في غفلة عن ذلك وما هذا إلا أنهما قد ذابا فيما بينهما. وهنا النبي موسى عليه السلام كذلك فإطنابه عليه السلام بالإطالة في ذكر أوصاف العصا وخواصّها قيل فيه: لأن المقام وهو مقام المناجاة والمسارّة مع المحبوب يقتضي ذلك؛ لأن مكالمة المحبوب لذيذة ولذا ذكر أولاً أنّها عصاه ليرتب عليه منافعها العامة وهذه هي النكتة في ذكر أنها عصاه[٣].

وثمة التفاتة في هذا المقطع من الدعاء؛ والمقطع سابق الذكر، وهي أن السؤال قد ركز على أحد مفهومين:

المفهوم الأول: أنّ المقطع السابق يتقرب العبد بلسان ذاك الإنسان الذي وصل

(١) شرح دعاء كميل، ص٨٩.

(٢) سورة طه، الآية: ١٧ - ١٨.

(٣) تفسير الميزان، ج ١٤، ص ١٤٢ - ١٤٣.

إلى مراتب عليا عند اللّه تعالى فهو يسأله سؤال خاضع متذلل خاشع فهذا اللسان لا يرتكب المحظورات.

المفهوم الثاني: حيث في هذا المقطع الذي تحت أيدينا يتناوله بلسان ذاك الإنسان الذي وصل إلى أسفل حضيض من أعماله فهو فقير جداً بحيث يصل إلى الفاقة والعوز.

وهنا وفي هذا المقطع من الدعاء المبارك، يركز العبد على ثلاث حالات أساسية وذاتية في المخلوقات كافة وهي:

الحالة الأولى: حيث يظهر العبد وهو في حالة الفقر المدقع، والفاقة التي يرثى لها، فهو يضع نصب عينيه ذلك الإنسان الذي وصل إلى حال من المأساة والمعاناة في حياته، ذلك الإنسان الذي لا يملك لنفسه مالاً ولا جاهً، ونلاحظ من خلال الدعاء حينما نعيد قراءته «**اَللّٰهُمَّ وَأَسْأَلُكَ سُؤالَ مَنِ اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ**» أنّ السائل لم يتكلم عن كنه ذاته مباشرةً بقدر ما جعل العنوان منصباً على ذات المبتلى بهذه الصفة، بمعنى أن حياة العبد قد لا تكون تحمل شيئاً من الأهميّة، وذلك لأنّ العبدَ في أغلب الأحيان مذنبٌ غير مُوفِّرٍ للشروط المطلوبة، من طهارة القلب وصفاء الباطن، بينما الإنسان المبتلى الذي يعيش في بيئة فقيرة، وشديدة الفاقة، عادةً مثل هذا الإنسان يحمل الصفاء القلبي وطهارة الروح. بخلاف أولئك الذين يشعرون بغناهم ويتطاولون بجاههم وثرائهم، ولا يدركون ارتباطهم بنبع الفيض؛ قد أسكرتهم النعم وتلبستهم حالة من الشيطان يتقلبون في اللذائذ غافلين وما يشعرون أنهم يأكلون ثمار أشجار الغفلة المرّة، وقد عميت بصائرهم عن رؤية الرحمة المطلقة، وقد حُرِموا من الحضور في رحاب ربّ الوجود ربّ الأرباب، حيث الكائنات تتضرع في حضرته وتطلب منه وتسأله وتشكره وتتغنّى بوحدانيته. وأمّا الغافلون فهم في غيّهم سادرون قد استحالت حياتهم إلى غابة مظلمة لا تسمع فيها سوى أصوات حيوانات مسعورة يُغيرُ بعضها على بعض ويأكُلُ بعضُها بعضاً في غفلة عن مالك السموات والأرض ربّ العالمين[١].

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ١٩٨.

الحالة الثانية: في هذه الحالة ـ التي لها ارتباط وثيق بالسابقة إلا أنّها أشدّ ـ يحاول العبد أن يسأل اللّه تعالى بلسان ذاك الإنسان الذي وقع في مأزق ولا يستطيع أن يخرج منه إلّا بالدعاء بقلب ملهوف ولسان صادق ليس بكاذب ولا منافق، وحتى يتضح المراد من الداعي نأتي بهذه المقاطع من دعاء الجو شن الصغير، حيث يتناول قسماً عملياً منه، وهو يركز على الجهوزية التي يتمتع بها العبد وهو في تلك الحالات والظروف القاهرة والشديدة، إذ الدعاء يستحق التأمل والتدبر، وهو مرويّ عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، قال الإمام: «**إلهي وكم من عبد أمسى وأصبح في كرب الموت، وحشرجة الصدر، والنظر إلى ما تقشعرُّ منه الجلود، وتفزع له القلوب... إلهي وكم من عبد أمسى وأصحب خائفاً مرعوباً مشفقاً وجلاً هارباً طريداً منجحراً في مضيقٍ ومخبأةٍ من المخابئ قد ضاقت عليه الأرض برُحبها، لا يجدُ حيلةً ولا منجى... إلهي وكم من عبد أمسى وأصبح مغلولاً مكبّلاً في الحديد بأيدي العِداة لا يرحمونه، فقيداً من أهله وولده منقطعاً عن إخوانه وبلده، يتوقّعُ كل ساعة بأي قِتلةُ يقتلُ، وبأي مُثلةُ يمثّل به...**»(١) إلى آخر الدعاء الذي يحمل من التصاوير المفزعة والمواقف الشديدة، والتي تستدعي الخشوع القلبي في كل موقف يتناوله كل مقطع من الدعاء، وهنا يسعى العبد أنْ يسأل اللّه تعالى بلسان مثل هذا العبد حيث لا مفرَّ له سوى الدعاء بقلب خالص، من الداخل الفطري، الذي لم يتخلله ذنب ولا أثم، ونلاحظ العبد أنه لم يلجأ في طلب حوائجه إلى غير اللّه تعالى، والذي يقتضي أن المطالب كبيرة كانت أو صغيرة لا يُلجأ لتحقيقها إلّا إلى اللّه تعالى، وجاء في الحديث القدسي الشريف: «**أيأمل عبدي في الشدائد غيري؟ والشدائد بيدي ويرجو سواي؟ وأنا الغني الجواد وأبواب الحوائج عندي، وبيدي مفاتيحها وهي مغلقة؛ فما لي أرى عبدي معرضاً عني وقد أعطيته بجودي وكرمي ما لم يسألني؛ فأعرض عني وسأل في حوائجه غيري، وأنا اللّه لا إله إلا أنا ابتدئ بالعطيّة من غير مسألة؛ أفأسأل ولا أجود؟! أليس الجود والكرم لي؟! أليس الدنيا والآخرة بيدي؟! فلو أن كل أهل السموات والأرض سألني مثل السموات والأرض**

(١) مفاتيح الجنان، ص ١٤٧- ١٤٨.

وأعطيته ما نقص ذلك من ملكي جناح بعوضة، فيا بؤساً لمن أعرض عني وسأل في حوائجه غيري»[١].

الحالة الثالثة: يظهر من هذه الحالة، أن العبد يحاول أن يبحر في الحب الإلهي المقدس، ويسعى جاهداً إلى نيل المراتب العليا ومقاماتها، وهذا يُعبِّرُ عن مكنون العبد الطامع، حيث الحالتان الأولى والثانية قد عبَّدَتا الطريق للسير نحو آفاق وآمال بعيدة المنال قد أصبحت قريبة، ونلاحظ من خلال العبارة من الدعاء، كيف أنها تحمل خطاب العاشق والمشوق، ولعلّ ثمّة نبرةَ ولهجةَ مبالَغة جاءت على لسان العبد في هذا المقطع من الدعاء والله العالم: «**وَعَظُمَ فيما عِنْدَكَ رَغْبَتُهُ**» دقِّق عزيزي في الفقرة بمجموعها، في أنّه كان شديد الفاقة تارةً، وأخرى يستعطف الله تعالى لشدة حاجته، وثالثةً لديه شوق وحب ورغبة في نيل بالثواب وعظيم الدرجات، ولعل ذلك من نباهة العبد وفطنته، إلى أن الأجر والثواب لا يُنالُ إلّا من الصالحين والمتقين والعاملين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾[٤] وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾[٥] إلى غيرها الآيات التي تحث المؤمنين على السعي الدؤوب نحو التقيد بالأعمال الصالحة بأي نحو من الأنحاء، وهناك أحاديث وروايات تناولت هذه الحالة بشكل مطنب، منها ما قاله الإمام علي عليه السلام: «**ثابروا على الطاعات وسارعوا إلى فعل الخيرات، وتجنبوا السيئات، وبادروا إلى فعل الحسنات وتجنبوا ارتكاب المحارم**»[٦]

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢٠١.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.
(٤) سورة الحديد، الآية: ١٨.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٨.
(٦) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٨٣.

وقال عليه السلام أيضاً: «**ثقلوا موازينكم بالصدقة**»[١] وقال عليه السلام أيضاً: «**ثقلوا موازينكم بالعمل الصالح**»[٢] وقال عليه السلام أيضاً: «**ثمن الجنة العمل الصالح**»[٣] وقال عليه السلام أيضاً: «**ثواب العلم يخلدك، ولا يبلى، ويبقيك ولا يفنى**»[٤] وقال عليه السلام أيضاً: «**ثواب العمل على قدر المشقة فيه**»[٥] وقال عليه السلام أيضاً: «**ثواب المصيبة على قدر الصبر عليها**»[٦].

وعن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم: **إن الله عز وجل، أوحى إلى الدنيا: أن أَتعبي من خَدَمَك، واخدِمي من رَفَضَكِ. وان العبد إذا تخلى بسيده في جوف الليل المظلم ونَاجاه، أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال: يا رب يا رب، ناداه الجليل جل جلاله: لبيك عبدي سلني أُعطِكَ، وتوكل عليّ أكفِكَ، ثم يقول جل جلاله لملائكته: يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، فقد تخلّى بي في جوف الليل المظلم، والبطالون لاهون، والغافلون نيام، اشهدوا أني قد غفرت له**»[٧] وقال الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «**لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلا وجبت له الجنة، فإذا صلّيت فأقبل بقلبك على الله عز وجل فانه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله عز وجل في صلاته ودعائه إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين إليه وأيّده مع مودّتهم إيّاه بالجنة**»[٨] إلى آخر الأحاديث الواردة في ترغيب المؤمن إلى ثواب الله تعالى.

السلطان العظيم

«اَللّـهُمَّ عَظُمَ سُلْطانُكَ»

يظهر أن العبد بعد أن طرح كافة مسائله واحتياجاته والتي لم تنتهِ عند هذا الحد (وسيُبدي جُلّ ذنوبه أمام الله تعالى فيما سيأتي من مسيرة الدعاء) بعد أن تناول

(١) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٨٣.
(٢) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٨٣.
(٣) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٨٣.
(٤) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٨٣.
(٥) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٨٣.
(٦) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٨٣ - ١٨٤.
(٧) مستدرك الوسائل، ج٥، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ باب ٢٨ ح ٥٧٠٨.
(٨) وسائل الشيعة، ج٥، ص ٤٧٧ باب ٣ أبواب أفعال الصلاة ح ٣ تسلسل الحديث ٧١٠٦.

ذلك، يميل الآن نحو النظر إلى العلو والمقامات الراقية عند اللّه تعالى، وذلك عن طريق المدح والثناء على الذات الإلهية المقدسة، ونلاحظ أن هذا الأسلوب كان أداة بيد العبد في بدايات الدعاء المبارك، وها هو يتناوله بكيفية مختلفة حسبما تقتضي الظروف الموضوعية لذلك.

ومعه فإنّ العبد يتحرك بنمط تداركي، يدل على عمق الترابط الذي أحدثه هذا المشوار من الدعاء، حيث الاعتراف كوّن هالة من الوهج نحو الميل الذاتي إلى اللّه تعالى رغبة ولهفة، ولذلك انعطف إلى الملك وعظمة السلطان، حيث اتضح له من السير والسلوك نحو اللّه تعالى أن المالك الحقيقي في هذا الوجود هو اللّه تبارك وتعالى، وما سوى ذلك يكون ملكاً اعتبارياً، ليس له قيمة أمام عظمة وسلطان اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾(١) وقال تعالى أيضاً: ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾(٢) وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾(٣) وقال عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾(٤) الى غيرها من الآيات التي تتحدث عن ملك وسلطان اللّه تعالى، وهذا يدعو الى التأمّل في هذه الآيات المباركة، ومحاولة رسم مرتكز أساسي، يكون هو الداعم نحو تطلع الى المستقبل الموعود، والنظر الى عالم التاريخ كقوة للعبرة والموعظة.

وذلك بنظرةٍ إجمالية الى التاريخ، وما يحمل من حوادث تدعو الى التوقف مليّاً، والتأمّل في قسماتها التفصيلية، ترسم لنا صورة واقعية تاريخية، عن قضايا الملوك والسلاطين والحكام على طول الخط منذ بدء الخليقة الى عصرنا هذا، حيث تفشي الظلم، وانتشار الفساد، وشيوع الانحراف الأخلاقي والسلوكي، ناهيك عن ضعة

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٩.
(٣) سور النور، الآية: ٤٢.
(٤) سورة الجاثية، الآية: ٢٧.

الحاكم عن مقاصده وأهدافه النبيلة، حيث يصب جُل حمم لهيبه الغضبية على هؤلاء الناس من بني جلدته، ولكونهم مستضعفين لا يملكون وسيلة للدفاع عن أنفسهم ولا قوة.

ومع هذا الظلم من الحكّام والسلاطين، نجد هذا الفرد من الناس، لا يقدر للسلطان أيّ قيمة معنوية ولا تأييد للنظام، بسبب تعجرف الحاكم، وسطوته على العباد من غير وجه حق، فحينئذٍ تسقط كل الاعتبارات من هيبة واحترام وسيطرة على القلوب، فلا تبقى أيّ قيمة لها.

وفي خضم سقوط هذه الاعتبارات، يقف العبد أمام سلطان اللّه تعالى ليجد أن كل الملوك والسلاطين والحكام تحت رحمة اللّه تعالى، حيث لا توجد هيبة ولا كرامة ولا عظمة سوى هيبة وكرامة وعظمة سلطان اللّه تعالى، وجاء في دعاء الافتتاح: «**الحمد اللّه الذي يؤمن الخائفين وينجّي الصالحين ويرفع المستضعفين ويضع المستكبرين ويهلك ملوكاً ويستخلف آخرين...**»[1] حيث نلاحظ جيداً أنّ قضيّة بقاء الحاكم وإزالته ليست بيد الحاكم نفسه ولا بيد الناس، وإنّما هي بيدِ اللّه تبارك وتعالى.

وهذه روايات تبين الفرق بين الحاكم الذي وضعه اللّه تعالى حاكماً على البشر والحاكم الذي وضعه الناس، عن سليم بن قيس قال سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**احذروا على دينكم ثلاثة: رجلاً قرأ القران حتى إذا رأيت عليه بهجته، اخترط[2] سيفه على جاره، ورماه بالشرك، قلت: يا أمير المؤمنين أيهما أولى بالشرك، قال: الرامي، ورجلاً استخفّته الأحاديث، كلما حدَّث أُحدوثةً كذبٍ مدّها بأطولَ منها، ورجلاً آتاه اللّه عز وجل سلطاناً فزعم أن طاعته طاعة اللّه، ومعصيته معصية اللّه، وكذب، لأنه**

---

(١) مفاتيح الجنان، ص ٢٣٣.

(٢) انخرط الرجل في الأمر وتخرط: ركب فيه من غير علم ولا معرفة. وحديث عليٍّ كرم اللّه وجهه: أنه أتاه قوم برجلٍ فقالوا: إن هذا يؤمنا ونحن له كارهون، فقال له (الامام) علي عليه السلام رضي اللّه منه: **انك لخروطٌ، أتؤم قوماً وهم لك كارهون؟** قال أبو عبيد: الخروط الذي يتهوّر في الأمور ويركب رأسه في كل ما يريد بالجهل وقلة المعرفة بالأمور، كالفرس الخروط الذي يجتذب رسنه من يد ممسكه ويمضي لوجهه؛ ومنه قيل: انخرط علينا فلان إذا أندرأ عليهم بالقول السيّء والفعل. لسان العرب، ج٧، ص ٢٨٥.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لا ينبغي للمخلوق، أن يكون حبه لمعصية الله، فلا طاعة في معصيته، ولا طاعة لمن عصى الله، إنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر، وإنما أمر الله عز وجل بطاعة الرسول؛ لأنه معصوم مطهر، لا يأمر بمعصية، وإنما أمر بطاعة أولي الأمر؛ لأنهم معصومون مطهرون، لا يأمرون بمعصيته»[١] وهذا حديث يتحدث عن غاية وهدف وجود الحاكم في السلطة وكيف أن الله تعالى لا يدع مظلومية من ظُلِمَ وإن كان كافراً، عن أبي عبد الصادق عليه السلام قال: «**إن الله أوحى إلى نبي من الأنبياء في جبّار من الجبابرة أن أئت هذا الجبار فقل له: إني لم استعملك على سفك الدماء واتخاذ الأموال وإنما استعملتك لتكف عني أصوات المظلومين فاني لن أدع ظلامتهم وإن كانوا كفاراً**»[٢] وهنا حديث جيد للإفادة والعبرة والموعظة وخصوصاً لذلك الإنسان الذي يُشيِّدُ آمالاً طويلة في هذه الدنيا بحيث تملكه وتسلبه مشاعره بكل ما للكلمة من معنى، فعن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر صلوات الله عليه قال: «**إن مَلِكاً من بني إسرائيل قال: لأبنين مدينة لا يعيبها أحد فلما فرغ من بنائها اجتمع رأيهم على أنهم لم يروا مثلها قط فقال له رجل: لو آمنتني على نفسي لأخبرتك بعيبها فقال: لك الأمان فقال: لها عيبان أحدهما أنك تهلك عنها والثاني أنها تخرب من بعدك فقال الملك: وأي عيب أعيب من هذا؟! ثم قال: فما نصنع قال: تبني ما يبقى ولا يفنى وتكون شاباً لا تهرم أبداً فقال الملك لابنته ذلك فقالت: ما صدقك أحد غيره من مملكتك**»[٣].

المكانة العُليا

«وَعَلا مَكانُكَ»

الدلالة اللغوية

والمكان: مكن مكانة عند الأمير ارتفع و صار ذا منزلة[٤].

(١) بحار الأنوار، ج٧٥ ٣٣٧- ٣٣٨.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص ٣٤٦.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٥، ص ٣٤٦.
(٤) المنجد، ص ٧٧١ مادة «مكن».

والمكان: الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين حاوٍ ومحوي، وذلك أن يكون سطح الجسم الحاوي محيطاً بالمَحويِّ، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين[١].

فهم النص

ليس المراد من العُلُوِّ بمعنى الفوقية من الناحية المادية، وليس المراد من المكان بمعنى الجهة والتحديد، وانما هما لهما معنىً آخر غير الذي ذكرته كتب اللغة.

والمراد من العلوّ هو العلوّ المعنويّ الذي لا نبلغ كنه عظمته، والمكان هو المكانة المعنوية في القلوب المؤمنة، وقد ورد في شأن ذلك: «**ما وسعتني سماواتي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن**» وورد أيضاً: «**إن قلب المؤمن عرش اللّه**»[٢] وورد أيضاً: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلّبه كيف يشاء**»[٣] ونلاحظ جيداً أن الأحاديث ركزت على بعد معنوي، وهو قوة الثبات الإيماني لدى العبد المؤمن، من خلال الشعور الباطني والإحساس بمحضر اللّه تعالى.

ويلزم أن نعلم أن اللّه تعالى لا يوصف بما توصف به المخلوقات، فليس هو بجسم ولا صورة، وليس جوهراً ولا عرضاً، وليس له ثقل أو خفّة ولا حركة أو سكون، ولا مكان، ولا زمان، ولا يشار اليه، كما لا نِدّ له، ولا شَبَهَ، ولا ضدَّ، ولا صاحبة له، ولا ولد، ولا شريك، ولم يكن له كفواً أحد. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار[٤].

والعلوّ المشار إليه في فقرة الدعاء هو العلوّ المعنويّ، وموقعه في القلب، حيث العبد هو في حالة عليا من الالتفات واليقظة، سَرَحَ في جلال اللّه تبارك وتعالى، واستدركته لطائف العذب الروحاني الإلهي، وأشار بقلبه إلى جنب اللّه تعالى، واصفاً إياه بالعلو وعظم المكانة في القلب، حيث لا عليّ ولا عظيم سوى اللّه سبحانه وتعالى.

(١) مفردات الأصفهاني، ص ٧٧٢- ٧٧٣.
(٢) شرح دعاء كميل، ص ٩٢.
(٣) شرح دعاء كميل، ص ٩٣.
(٤) الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية، ج١ ص٨٥.

وقد وردت آيات في شأن عدم رؤيته بالعين المادية قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾[١] فالآية تضع لنا فئتين من مرتكبي الجرائم المعدودة في القرآن.

الفئة الأولى: أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى[٢] الذين سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء غير القرآن، وقد ذمَّهم الله تعالى على سؤالهم هذا، لوجود القرآن بين أظهرهم، وحاولوا تنقيص القرآن الكريم، على الرغم مما به من الإعجاز الذي عجز عن مقارعته بلغاء العرب وفطاحلهم في ميدان الشعر.

الفئة الثانية: بحسب التبادر من سياق الآية: الكريمة، أن الذين سألوا موسى هم أنفسهم من أهل الكتاب، وليسوا هم اليهود، حيث يبين أن هؤلاء قد سألوا موسى إراءتهم الله جهرةً بالعين الماديّة، ومن المعلوم جيداً أن رؤية الله سبحانه بالعين المادية من المحالات العَقلية لأدلّةٍ وبراهينَ مبحوثةٍ في مظانّها من علم الكلام.

ومن الآيات الكريمة قول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٣].

ومن الروايات الواردة في هذا الشأن، ما ورد عن عبد الله بن سنان عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام ودخل عليه رجل من الخوارج فقال: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟ قال: «**الله**» قال: رأيته! قال: «**لم تره العيون بمشاهدة العيان ورأته القلوب بحقائق الإيمان لا يعرف بالقياس ولا يدرك بالحواس ولا يشبه بالناس موصوف بالآيات معروف بالعلامات لا يجور في حكمه ذلك الله لا اله إلا هو**» قال: فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[٤].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٢) تفسير الميزان،: ج ٥، ص ١٣٠، حيث العلامة الطباطبائي يقول في ذلك: أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما هو المعهود في عرف القران في أمثال هذه الموارد، وعليه فالسائل هو الطائفتان جميعاً دون اليهود فحسب.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٤) بحار الأنوار، ج٤، ص ٢٦.

وعن الأصبغ قال: قام إليه رجل يقال له (ذُعلب) فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك فقال: **ويلك يا ذعلب لم أكن بالذي أعبد ربّاً لم أره.** قال: فكيف رأيته صفه لنا قال: «**ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك! يا ذعلب، إن ربي لا يوصف بالبعد، ولا بالحركة، ولا بالسكون، ولا بالقيام قيام انتصاب، ولا بجيئة، ولا بذهاب، لطيف اللطافة لا يوصف باللطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقة، مؤمن لا بعبادة، مدرك لا بمجسة، قائل لا بلفظ، هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة، فوق كلّ شيء، ولا يقال شيءٌ، فوقه أمامَ كلِّ شيءٍ، ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيءٍ في شيءٍ داخل، وخارج منها لا كشيء من شيءٍ خارج**» فخرَّ ذعلب مغشيّاً عليه[1].

خفاء المكر

«**وَخَفِي مَكْرُكَ**»

المكر: صرف الغير عمّا يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكر محمود، وذلك أن يُتحرّى بذلك فعلٌ جميلٌ، ومذمومٌ: وهو أن يُتحرّى به فعلٌ قبيحٌ[2].

فهم النص

المكر يكون على صنفين.

الصنف الأول: مكر يكون من الإنسان، وهو مذموم منه، وقد وردة آيات في ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[3] وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ

(١) بحار الأنوار، ج٤، ص ٢٧.

(٢) مفردات الأصفهاني، ص ٧٧٢ مادة «مكر».

(٣) سورة يونس: الآية، ٢١.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[١] وقال الله تعالى أيضاً: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾[٢] وتشير هذه الآيات الشريفة إلى أن المكر الصادر من الإنسان مذموم، وذلك لأنّه مصدر الخداع للآخرين، ويكون موضعاً للتلبيس على الناس وموضعَ خِداعٍ للضعفاء. ومقتضى هذه الآيات أنّ عملية المكر خاضعة لحسابات المخاتلة والمخادعة والتضليل.

وبالجملة هذه الرذيلة أخبث الرذائل وأشدُّها معصيةً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**ليس منّا من ماكر مسلماً**».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس**» وكان عليه السلام كثيراً ما يتنفّس الصعداء ويقول: «**وويلاه يمكرون بي ويعلمون أني بمكرهم عالم وأعرف منهم بوجوه المكر، ولكني أعلم أن المكر والخديعة في النار فأصبر على مكرهم ولا أرتكب ما ارتكبوا**»[٣].

ومن الروايات الواردة في هذا الشأن عن الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان مسلماً فلا يمكر ولا يخدع، فإنّي سمعت جبرئيل يقول: إن المكر والخديعة في النار، ثم قال: ليس منا من غش مسلماً، وليس منا من خان مسلماً، ثم قال** ﷺ: **إن جبرئيل الروح الأمين نزل عليّ من عند رب العالمين فقال: يا محمد، عليك بحسن الخلق، فإنّ سوء الخلق يُذهبُ بخير الدنيا والآخرة، ألا وإنّ أشبهكم بي أحسنكم خلقاً**»[٤] وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المكر، والخديعة، والخيانة في النار**»[٥] إلى غيرها من الروايات الواردة في هذا الشأن والتي تنزل الذم على من اتصف بهذه الصفة الرذيلة.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.
(٢) سورة نوح، الآية: ٢١ - ٢٢ .
(٣) جامع السعادات، ج١، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٤١ باب ١٣٧ تحريم المكر والحسد والغش والخيانة .
(٥) مستدرك الوسائل، ج ٩، ص ٨٠ باب ١١٩ باب تحريم المكر، والحسد، والغش، والخيانة.

الصنف الثاني: وهو المكر الذي يكون من اللّه تعالى، وهو إرداف النعم مع المخالفة، وإبقاء الحال مع سوء الأدب وإظهار خوارق العادات التي هي من قبيل الاستدراجات(١).

الاستدراج: استدرجَهُ: رقّاه من درجة إلى درجة=خدعه=وكذا: قرَّبَهُ إليه(٢).

والاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجةً فدرجة(٣). وقد وردت آيات تحذيريّة من هذا الأسلوب، وهو أسلوب يستخدمه اللّه تعالى للمكذبين والعاصين الذين لم يرتدعوا عن طريق الباطل والانحراف، حيث لا يزال اللّه تعالى يُغدق عليهم بالنعم والخيرات، إذ تلهيهم عن ذكر اللّه تعالى، ولكونهم ارتكبوا ذنباً ولم يستغفروا منه فاللّه عز وجل لا يزال يعطيهم من نعمه وخيراته، وهم في ذلك غافلون، قال اللّه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ * وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾(٤) يستفاد من هذه الآية: في شأن الاستدراج، أو العذاب الاستدراجي، أن اللّه لا يتعجل بالعذاب على الطغاة والعاصين المتجرئين وفقاً لسنته في عباده، بل يفتح عليهم أبواب النعم (فكلما ازدادوا طغياناً زادهم نِعماً).

وهذا الأمر لا يخلو من إحدى حالتين: إمّا أن تكون هذه النعم مدعاةً للتنبيه والإيقاظ فتكون الهداية الإلهية في هذه الحال عمليّة، أو أن هذه النعم تزيدهم غروراً وجهلاً، فعندئذٍ يكون عقاب اللّه لهم في آخر مرحلة أوجع، لأنهم حين يغرقون في نعم اللّه وملذاتهم ويبطرون، فإنّ اللّه سبحانه يسلبهم عندئذ هذه النعم، ويطوي سجل حياتهم، فيكون هذا العقاب صارماً، وشديداً جداً...(٥) وتقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون للدلالة على أن هذا التقريب خفيٌّ غير ظاهر عليهم بل مستبطن فيما يتلهون فيه من مظاهر الحياة المادية فلا يزالون يقتربون

(١) شرح دعاء كميل، ٩٥.
(٢) المنجد، ص ٢١٠ مادة «درج».
(٣) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٣٥١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢ - ١٨٣.
(٥) تفسير الأمثل، ج ٥، ص ١٩٥ .

من الهلاك باشتداد مظالمهم فهو تجديد نعمة بعد نعمة حتى يصرفهم التلذذ بها عن التأمل في وبال أمرهم كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا ﴾[١] وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[٢][٣].

هذا وقد وردت روايات في هذا الشأن منها: يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة إنّه: «**من وُسِّعَ عليه في ذاتِ يدِهِ فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً**»[٤] وقال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**إنّ اللّه إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويُذكِّرُهُ الاستغفارَ، وإذا أراد بعبد شرّاً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة ليُنسيَه الاستغفار، ويتمادى بها، وهو قول اللّه عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بالنعم عند المعاصي**»[٥] سُئِلَ أبو عبد اللّه عليه السلام عن الاستدراج فقال: «**هو العبد يذنب الذنب فيُملى له ويُجدَّد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب فهو مستدرج من حيث لا يعلم**»[٦].

ويستفاد من هذه الروايات أن العبد لابد أن تكون إرادته متوافقة مع إرادة اللّه تعالى، وذلك من أجل أن الهداية إلى الصراط المستقيم تكون مدعاةً إلى اختيار العبد الطريق السليم، قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٧] حيث بيّنَ اللّه تعالى له معالم ومميزات الخير والشر ووضع القوانين التي من خلالها ينقاد إمّا إلى الخير وإمّا إلى الشر، وعلى ضوء ذلك يكون الإنسان هو الذي يرسم معالم اختياره، فلو ارتكب إثماً، وكان الطريق صالحاً للاستغفار، سيكون تحت عناية اللّه تعالى، ويمهد له هذا الطريق بإذن اللّه تعالى، وذلك من خلال نقمة اللّه سبحانه وتعالى يصيبه بها،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٦-١٩٧.
(٣) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٣٥١.
(٤) تفسير الأمثل، ج ٥، ص ١٩٥ .
(٥) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٢.
(٦) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٢ .
(٧) سورة البلد، الآية: ١٠.

من مرض أو مصيبة في فقدان عزيز أو خسارة مال عظيم وهلُمَّ جرّا من النقمات التي يبتلي بها اللّه عباده المؤمنين؛ لكن فيما لو لم يكن الطريق مُعبَّداً للاستغفار والتوبة، وإنّما هو نتيجةَ عدم الدقة في الاختيار، وقع في مصارع الذنوب والخطيئة، فهذا العبد... وإن كان الاستغفار وعوامل التهيئة والتعبئة موجودة أمام عينيه إلا أنه لا يهتدي الصراط المستقيم، لماذا؟... لأنّ الأرضية التي رسم عليها معالم ومسارات حياته غير صالحة للهداية، وكان باختياره وبإرادته، فإنّ اللّه تعالى، لا يزال يُنعِمُ عليه من النعم والخيرات الكثيرة، التي ستكون سبباً لغفلته عن ذكر اللّه تعالى والتوجّه إليه، فهذا هو الاستدراج وخفاء المكر من حيث لا يعلم العبد أنه في غفلة نتيجة عمى البصيرة.

ظهور أمر اللّه تبارك وتعالى

«وَظَهَرَ أَمْرُكَ»

الظهور: ظهر: ظُهوراً: برز بعد الخفاء وظهراً وظهوراً على السر: اطلع[١].

والظهور: جمع الظهر من كل شيء: خلاف البطن[٢].

الظهر: ضدّ البطن. وهو أيضاً الركاب. وهو أيضاً طريق البرّ[٣].

ويذكر أهل اللغة لكلمة ظهر (بالفتح) معنيين: **أحدهما**: أنها بمعنى (تبيَّن)، فالظهور به (يتبيَّن الشيء الخفيّ). **وثانيها**: أنها بمعنى القوة والغلبة، يقال: ظهرت عليه: أي قويت عليه، ويقال: ظهرت على الرجل غلبته[٤].

والأمر: الشأن، وجمعه أمور، ومصدر أمرته: إذا كلّفته أن يفعل شيئاً، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها[٥].

(١) المنجد، ص ٤٨٢ مادة «ظهر».

(٢) لسان العرب، ج ٤، ص ٥٢٠ مادة «ظهر».

(٣) مختار الصحاح ص ١٧١ مادة «ظهر».

(٤) أضواء على دعاء كميل، ص ١٥٧ نقلاً عن لسان العرب،: مادة «ظهر».

(٥) مفردات الأصفهاني، ص ٨٨ مادة «أمر».

والأمر: معروف، نقيض النهي[١].

فهم النص

تأتي كلمة الأمر ويراد منها أحدُ قسمين:

القسم الأول: الأمر التكويني وهو يُلحَظُ من آيات اللّه تعالى في القرآن الكريم، وهو كلمة «كن» الوجودية التي جميع الأشياء ظاهرة بها، وهي بذاتها لا لذاتها، بل لعلتها التي هي ذات اللّه العليا[٢].

وتتجسد الإرادة الربانية والأوامر الإلهية من خلال كلمة «كن» فيترتب على ذلك فوراً وجود الشيء.(حتى كلمة «كن» جاءت من باب ضيق البيان، وإلّا فإنّ الإرادة الإلهية متحققة بمجرد الإرادة).

ولذلك فإنّ اليوم الذي تقوم فيه الساعة يحدث بأمر اللّه بلمح البصر، وكلُّ شيءٍ يكون في مسار الآخرة حينئذٍ، وتُبعَثُ الحياةُ من جديد في الأبدان. كما أن المشيئة الإلهية في مجازاة المجرمين بالصواعق والصيحات السماوية والزلازل والطوفان والرياح العاتية...كل ذلك يحدث بمجرّد الأمر الإلهي وبدون تأخير. إن هذه الإنذارات الموجهة للعصاة والمذنبين كلُّها من أجل أن يعلموا أن اللّه، كما هو حكيم في أمره فإنّه حازم في فعله، فهو حكيم في عين الحزم، وحازم في عين الحكمة. فليحذروا مخالفة تعاليمه وأوامره[٣].

ومن الآيات الواردة في ذلك قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[٤] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[٥] وقال اللّه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾[٦] ويستفاد

(١) لسان العرب، ج ٤، ص ٢٦ مادة «أمر».
(٢) شرح دعاء كميل، ص ٩٥.
(٣) تفسير الأمثل، ج ١٧، ص ٢٢٢.
(٤) سورة يس، الآية: ٨٤.
(٥) سورة القمر، الآية: ٥٠.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

من ذلك أن الأمر المذكور هو ذلك الذي لا يقبل أن يتبدل إلا من موجده والآمر به.

القسم الثاني: الأمر التشريعي والتكليفي وهو الأمر الصادر من اللّه تعالى عن طريق لسان الأنبياء والرسل لإرشاد الناس إلى أحكام اللّه تعالى، من الأوامر والنواهي، وهي حسب التقسيم الذي قسمه العلماء الأجلاء على خمسة:

أ ـ الحلال

ب ـ الحرام

ج ـ المستحب

د ـ المكروه

هـ ـ المباح.

وهي مستفادة من المصادر الأساسية أو الأدلة الأربعة على ما قسمه علماء الإسلام، وهي: ١ ـ الكتاب

٣ ـالسنة

٤ ـالعقل

٥ ـ الإجماع.

ومعه يكون كلا القسمين هو المراد من العبارة المذكورة في الفقرة من الدعاء المبحوث فيها-واللّه العالم-حيث يتجلى مدى الروعة والجمالية في العبارة، ودقّة التسلل الذي ظهرت فيها، اذ الخفاء يناقض الظهور بطبيعة الحال، إلّا أنَّ ثمَّة تداخلاً بينهما في هذه العبارة، يدل على المعبود ومدى سيطرته على مجريات وحياة العبد، حيث يبين حقيقة الضعف الواقعية لدى العبد.

فالعبد بعد أن خاطب ربّه بأنّه: مع كل نعمك عليّ يا رب، فقد خفي مكرك وهو مجازاتك لي على جرائمي وذنوبي. قال بعد ذلك «وظهرَ أمرك». ومعناه: أن هذا الستر الذي أرخيته علي لا عن عجز منك عن المجازاة، بل ذلك بعد أن ظهر أمرك،

وهو أنك إذا أردت شيئاً فلا يتخلف المراد عن إرادتك، فكان ذلك ستراً من قادر ظاهر أمره لكل أحد لا من عاجز غير قادر(١).

ولعل المقصود من ظهور أمر اللّه تعالى، هو شيوع الدين الإسلامي المحمدي الأصيل، الذي يستقي الناس معالمه وتعاليمه من أهل البيت عليهم السلام، وهو بذلك يُثبت أنّ العلومَ لا يمكن تُنالَ من شخص ليس له في الإيمان شأن يذكر، فعن عبد اللّه سليمان قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام وعنده رجل من أهل البصرة يقال له عثمان الأعمى وهو يقول: إن الحسن البصري يزعم أن الذين يكتمون العلم يؤذي ريح بطونهم أهل النار، قال أبو جعفر عليه السلام: «**فهلك إذاً مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتوماً منذ بعث اللّه نوحاً عليه السلام، فليذهب الحسن يميناً وشمالاً فو اللّه ما يوجد العلم إلّا ها هنا**»(٢).

عن أبي مريم قال: قال أبو جعفر عليه السلام لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: «**شرّقا وغرّبا لن تجدا علماً صحيحاً إلّا شيئاً يخرج من عندنا أهلَ البيت**»(٣).

فأهل البيت عليهم السلام هم الذراع الحصين لنيل السعادة الأبدية، والخلود السرمديّ في عالم الجنة ونعيمها، واكتساب هذه النعم لا يأتي إلا من خلال معرفة أهل البيت عليهم السلام وإعطائهم حقّهم ومرتبتهم التي رتّبهم اللّه تعالى لهم حيث ورد في زيارة عاشوراء الربانية: «... **فلعن اللّه أمّة دفعتكم عن مقامكم وأزالتكم عن مراتبكم التي رتبكم اللّه فيها**»(٤) ويستفاد منه أن مقام أهل البيت عليهم السلام مقام عظيم ولا بدّ من الاعتراف بهذا المقام المقدس ولا يمكن أن نتصورها لعدم الوصول إليها قال أمير المؤمنين عليه السلام لسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري: «**إنّه لا يستكمل أحدٌ الإيمانَ حتى يعرفني كنه معرفتي بالنورانية فإذا عرفني بهذه المعرفة فقد امتحن اللّه قلبه للإيمان وشرح صدره للإسلام وصار عارفاً مستبصراً. ومن قصر عن معرفة ذلك فهو شاكٌّ ومرتاب**»(٥).

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ١٥٧.
(٢) بصائر الدرجات، ص ١٩.
(٣) بصائر الدرجات، ص ٢٠.
(٤) مفاتيح الجنان، ص ٥٣٠.
(٥) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١ – ٢.

الغلبة الربانية

«وَغَلَبَ قَهرُكَ»

هذا الوجود مترامي الأطراف يعجُّ بملايين الآيات التي في كل منها تدل على خالق قادر حكيم مسيطر عليها، ليس لها القوة والحول من نفسها إلا من خالقها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١] وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[٢] وتهدف هذه الآيات الكريمة إلى إعطاء صورة أساسية قوامها أن بقاء هذا الوجود وبما يحويه من كواكب وذرات ونجوم وشموس عملاقة تكون السيطرة عليه بيَدَيْ حكيم وعالم، وفي ذات الوقت قاهر جبّار.

وحين التأمّل في الآيات، نرى أن التسخير من يتحكم فيه؟ من له الحق في إعطاء فلان الرزق، مثلاً فلان ليس له رزق في هذا اليوم؟ وهل تسخير هذه السموات والأرضين خاضعة لولاء فئة نخبوية أو سياسية أو ثقافية أو فكرية؟...نعم لم يجعل اللّه تبارك وتعالى رزق الناس على أحد من مخلوقاته، قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثما لي: «... **الحمد اللّه الذي وكلني إليه فأكرمني ولم يكلني إلى الناس فيهينوني**»[٣] ونلاحظ من هذا المقطع من هذا الدعاء المبارك كيف أن الإمام عليه السلام يُبيِّن فلسفة الرجوع إلى اللّه تعالى في كلِّ قضيَّةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ، وأنّ الرجوعَ إلى غير اللّه عز وجل يسبب الإهانة وعدم الكرامة، ولذلك نرى الآيات المتقدمة ترسم لنا عناوين عامة في أن كل هذه السموات التي يراها هذا الإنسان ليست موكلة إلى مخلوق، وإنما الذي يشرف عليها هو اللّه تعالى نفسه.

وترشدنا هذه التعاليم إلى أمر ينبغي أن نكون ملتفتين إليه، وهو أن هذه الدنيا وما

(١) سورة الحج، الآية: ٦٥.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٣) مفاتيح الجنان، ص ٢٣٩.

فيها من سطوة سلطان ظالم، أو متبختر في مشيته، أو متكبر على الناس، أو من يظن أنه يقهر الناس على رزق... كل هذه العناوين تكون لا شيء عند من هو خالقها حيث هو القاهر على عباده.

إنّ لتسخير هذه الموجودات السماوية والأرضية للإنسان معنىً واسعاً يشمل الأمور التي في قبضته واختياره، ويستخدمها برغبته وإرادته في طريق تحصيل منافعه ككثير من الموجودات الأرضية، كما تشمل الأمور التي ليست تحت تصرفه واختياره، لكنها تخدم الإنسان بأمر اللّه جل وعلا كالشمس والقمر. وبناءً على هذا فإنّ كلّ الموجوداتِ مسخّرةٌ بإذن اللّه لنفع البشر، سواء كانت مسخّرةٌ بأمر الإنسان أم لا[1].

المخلوقات تحت قدرة اللّه تعالى

«وَجَرَتْ قُدْرَتُكَ»

الجري: المرُّ السريع، وأصله كمرِّ الماء، ولما يجري بجريه. يقال: جرى يجري جِريةً وجرياناً[2].

والقدرة: إذا وُصِفَ بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما، وإذا وُصِفَ اللّه تعالى بها فهي نفي العجز عنه، ومحال أن يوصف غير اللّه بالقدرة المطلقة معنىً وان أطلق عليه لفظاً، بل حقه أن يقال: قادر على كذا، ومتى قيل: هو قادر، فعلى سبيل معنى التقييد، ولهذا لا أحد غير اللّه يوصف بالقدرة من وجهٍ إلّا ويصح أن يوصف بالعجز من وجهٍ، واللّه تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجهٍ[3].

فهم النص

جريان القدرة الربانية في هذا المقطع من الدعاء، بمعنى سريان النظام الرباني في كل موجود في هذا الكون الواسع والعظيم، والتحكم فيه، قال الإمام علي أمير

(١) تفسير الأمثل، ج ١٣، ص ٣٦.
(٢) مفردات الأصفهاني، ص ١٩٤ مادة «جرى».
(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٦٥٧ - ٦٥٨ مادة «قدر».

المؤمنين عليه السلام: «**أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً بلا روية أجالها ولا تجربة استفادها ولا حركة أحدثها ولا همامة نفس اضطرب فيها أحال الأشياء لأوقاتها ولاءم بين مختلفاتها وغرز غرائزها وألزمها أشباحها عالماً بها قبل ابتدائها محيطاً بحدودها وانتهائها عارفاً بقرائنها وأحنائها**»(١) يستفاد من كلام الإمام عليه السلام، أنَّ اللّه تعالى وضع لهذه الموجودات الكونية أنظمة تسير عليها ولا تتخلف عنها. ولو تخلّفت لحدثَ خللٌ في مسير ونظام هذا الكون الواسع، اذ حدوث هذا الخلل مناط لتعطيل المنظومة الكونية، حيث بيَّن الإمام عليه السلام أن اللّه تعالى أحال الأشياء لأوقاتها من قبيل دقة نظام شروق الشمس وغروبها، فلا يمكن أن تتخلف ليوم واحد، حيث يحدث تغيير في موازين المنظومة، إذ تكونُ الأرضُ حينئذٍ غارقةً في وحل الظلام، وستتعطل كلُّ الحياة على وجهها، حيث حياة البشر وجميع الموجودات الحية الأخرى بحاجة في الدرجة الأولى إلى الحرارة والنور، والحاجة إلى هذين الأمرين الحياتيين تؤمنها بشكل كامل متعادل هذه الكرة الأرضية العظيمة المتوهجة(٢). ومثلها كثير من هذه الموجودات الكونية المنتشرة في أصقاع وأطراف هذا الكون العظيم.

ولقد تضمنت عبارة أمير المؤمنين عليه السلام إشارةً لنقطة طالما ورد التأكيد عليها كراراً في القرآن: وهي أنَّ لكافة موجودات عالم الخلقة والمادة تصنيفاً زمانيّاً خاصّاً وفي نفس الوقت يحكمها التضادّ والاختلاف، إلّا أنّها منسجمة مع بعضها البعض (فيما بينها) ومكملة لها وأنها مهدية على الدوام طبق نظمها الذاتي الباطني والظاهري وأنها تنطلق كقافلة منتظمة ومنسجمة نحو هدفها النهائي دون أي تعثر وانحراف، بل تسير إليه على نحو الدقة دون أن تُخطئَهُ، فتفتُّحُ الزهور وتحمُّلُ أوراقِ الأشجارِ للفاكهة والثمار في فصلي الربيع، ذبولها وجفافها وتساقطها في فصلي الخريف والشتاء، حركة الشمس في الأبراج الاثني عشر، تعاقب الليل والنهار، دوران الأرض حول نفسها وحول

(١) شرح نهج البلاغة، لبن أبي الحديد ج ١، ص ٦٧ – ٦٨.

(٢) تفسير الأمثل، ج ٢٠، ص ١٤٨.

الشمس وما أودع الإنسان من قوى باطنية وظاهرية، كلُّها شواهدُ على الهداية التكوينية[١].

وقد وردت آيات في شأن النظام الكوني قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢] يُستفاد من هذه الآية: الكريمة أنّ جعلَ الماء أساساً لحياة جميع المخلوقات في هذه الحياة الدنيا، ما هو إلّا عنوان من عناوين المنظومة الكونية المتكاملة، التي تُوجدُ للحياة طعم التفكر في هذه الآيات الربانية، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٣] وهذه الآية: المباركة ترسم لنا مرتكزات ينبغي أن نكون أكثر إدراكاً لها، وهي أن قافلة المتناقضات لا يمكن أن تجتمع معاً أبداً، وذلك أن التركيبة الفسيولوجية لبعضهم تختلف عنها في البعض الآخر، فالليل الذي هو بطبعه يعجُّ بأمواج الظلام وتنكشف فيه زينة السموات من النجوم والكواكب، يختلف عن النهار الذي هو مبعث للأنوار، واشراقات الضياء الشمسي، وكذلك بالنسبة إلى الشمس والقمر.

فلا يُحتملُ أن يأتيَ الليلُ متواصلاً بظلامه الكثيف مقتحماً النهار من غير تنظيم، ولا يمكن أن يندفع القمر عبثاً منه على الشمس محاولاً احتلال مكانتها إلّا من خلال السير على النظام التكويني الذي وضعه اللّه تعالى، إذ كلٌّ في مسار واتجاه في هذا الفضاء السحيق يسيرون ويسبحون.

هذا في النظام الكوني وعالم الفضاء الواسع والسحيق. وأمّا النظام الاجتماعيّ، فإنّ القرآن الكريم لم يهمله، وإنما وضع له ضوابط وقوانين، عليها ينبغي أن تسلك البشرية، وأي اختلالٍ في هذه النظم والضوابط تكونُ البشرية بسببه معرَّضةً للضياع، إذ المجتمع يحكمه النظم القانونية التي لا مفرَّ منها، مع اعتبار الظرف التاريخيّ للمجتمع، إذ يسير وفق منظومات كلية مرتبطة بسلسلة تاريخية، وحيثية انقطاع هذه السلسلة تسبب كارثةً في المجتمع، على صعيد السلوك أو على الجنبات الفكرية،

(١) نفحات الولاية – شرح نهج البلاغة، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ١، ص ٧٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

وهذا الأخير من أكبر الانحرافات في مسيرة الإنسان. ولهذا جاء الإسلام ووضع ضوابط، يحاول أن يرشد المؤمن على السير وفق هذه الضوابط، قالت السيدة فاطمة الزهراء سلام اللّه عليها في خطبتها الكبرى: «... **فجعل اللّه الإيمان، تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحجَّ تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة؛ وإمامتنا أماناً من الفُرقة، والجهاد عزّاً للإسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأةً في العمر ومنماةً في العدد، والقصاص حقناً للدّماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخسة، والنهي عن الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفّة، وحرَّم اللّه الشرك إخلاصاً له بالربوبية (فاتقوا اللّه حق تقاته ولا تموتون إلا وانتم مسلمون وأطيعوا اللّه فيما أمركم ونهاكم عنه، فإنما يخشى اللّه من عباده العلماء)**»[1]. وتشير هذه الكلمات الربانية إلى الضابطة التشريعية في المجتمع الإنساني، وهو يتحرك لتنظيم وتسيير الإنسان وفق النظم التي وضعها اللّه تعالى في هذه المجتمعات الإنسانية بحيث لو خرج عن هذه الضوابط والقوانين لأحدثَ خللاً في مفاصل ومكوّنات المجتمع.

وبذلك يسعى القرآن إلى إرشاد المؤمن إلى نيل نصيبه من الثروات الاقتصادية ومنافعها، حيث يبيّن أن الحقوق في الأموال تكون للسائل والمحروم قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[2] اذ تنشط الأموال وتتحرك في مسار الحياة الاجتماعية، بحيث تُنعِشُ السوق من خلال إعطاء الفقير الحق الذي أوجبه اللّه تعالى له. وتخصيص حق السائل والمحروم بأنه في أموالهم ـ مع أنه لو ثبت فإنما يثبت في كل مال ـ دليل على أن المراد

(١) أعلام الهداية، ج ٣، ص ١٣٧ – ١٣٨.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ١٩.

أنهم يرون بصفاء فطرتهم أن في أموالهم حقاً لهما فيعملون بما يعملون نشراً للرحمة وإيثاراً للحسنة(١).

وإذا لم يعمل بهذه الآية: المباركة فإنّ هناك تحدّياً واختراقاً للنظام العام، وهذا بموجبه قلب للمعادلة القائمة لتنظيم المجتمع، وهو مدعاة لتسلط أصحاب النفوس المريضة، وذلك من خلال السيطرة على مكامن القوى، وهو السلاح الاقتصادي، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٢) وقد جاء هذا الخطاب على لسان موسى عليه السلام، يبين فيه أن الدولة قوتها العسكرية والسياسية في الموارد الاقتصادية، واذا وجدت هذه القوة ولم تُستخدم بحسب ما أمر اللّه تعالى، فإنها حينئذٍ تكون سبباً في الضياع الكثير من الحقوق والمطالب المشروعة من الحياة الكريمة والعيش المحترم، ومن ثمَّ تختلُّ الموازين الاجتماعية، وذلك بسبب السير في مقابل النظام الاجتماعي، ولذلك نرى النبي موسى عليه السلام يبيّن حيثيّة هذا الانغماس في وحول هذه الدنيا، وعاقبته الإغواء والتضليل عن سلوك طريق الحقّ تعالى، قال تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾(٣) وقال تعالى أيضاً: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾(٤) وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾(٥) فهذه الآيات تحاول أن تركز على العامل الاقتصادي، وذلك لما يمثّله من قوة وسيطرة على جميع البشر، وهنا يضرب لنا القرآنُ بعض النماذج التاريخية التي امتلكت هذه السيطرة على منابع القوة، إلّا أنّها لم تتصرّف بالأمانة وحسب النظم المرسومة في المجتمع، ونرى أن مجرّد حدوثِ انحرافٍ في مكامن القوة، يؤدّي إلى ضياع المفاهيم المجتمعية، وإحداث التخريب في التركيبة الاجتماعية، وهذا بحد ذاته انقلاب على النظام الذي أوجده اللّه تعالى في

(١) تفسير الميزان، ج١٨، ص ٣٧٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٩.

(٥) سورة القصص، الآية: ٧٦.

مفاصل المجتمع، قال تعالى: ﴿ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١] ونلاحظ أن هذه الآية: لم تستثنِ المجتمع الإسلاميّ، وإنّما تحدّثت بصورةٍ عامّة.

إذن المراد من الفقرة التي نحن بصدد البحث فيها: هو سريان القدرة الربانية في كل مفصل من مفاصل هذا الكون الواسع والعظيم، وتحت مرتكزات قانونية وضوابط تتحكم فيها، وتكون السيطرة بيدي اللّه تعالى.

ويبيّن لنا العبد في هذه الفقرة من الدعاء أن قدرته تعالى ليست هي صفة محضة له، بل قد أعملها في الممكنات؛ لأنّه أحيى، وأمات، ورَزَقَ، وشافى، وأتقن كل شيء خلقَهُ. فهذه الأرض بما تشتمل عليه من أجزاء، صغيرة، وكبيرة، وعناصر تسير بدقة مضبوطة بطبقاتها المتعددة، ومياهها، وسهولها، وجبالها، وهكذا السماوات بما فيها من أجرام، وكواكب كلها تخضع لنظم خاصة بها بحيث لا يتخلف شيء من ذلك عما رسم له، ولو شاء أن يحصل أيُّ خلل في هذه السماوات لحصلت كوارث لا يعلم تأثيرها إلا اللّه. كل ذلك متوقّفٌ على إعمال قدرته لا مجرّد ثبوت هذه الصفة له[٢].

لا مفر من حكومة اللّه تعالى

«وَلا يُمْكِنُ الْفِرارُ مِنْ حُكُومَتِك»

الفرار: فرر: الفر والفرار: الرّوغان والهرب. فرّ يفرّ فراراً: هرب. ورجل فرور وفرورة وفرار: غير كرار، وفرّ، وصف بالمصدر، فالواحد والجمع فيه سواء[٣].

وجاء في مفردات الراغب. فر: أصل الفَرّ: الكشف عن سِنّ الدّابة. يقال فررت فِراراً، ومنه فرَّ الدهر جذعاً، ومنه: الافترارُ، وهو ظهور السن من الضحك، وفرَّ عن الحرب فراراً[٤].

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) أضواء على دعاء كميل، ص ١٥٨ – ١٥٩.
(٣) لسان العرب، ج ٥، ص ٥٠ مادة «فر».
(٤) مفردات الأصفهاني، ص ٦٢٧ مادة «فر».

الحكومة: حكم: اللّه سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، وهو الحكيم له الحُكمُ، سبحانه وتعالى(١).

وحكم أصله: منع منعاً لإصلاح، ومنه سميت اللّجام: حكمة الدّابة، فقيل حكمته وحكمتُ الدّابة: منعتها بالحكمة، وأحكمها: جعلت لها حكمة، وكذلك: حَكمتُ السفيه وأحكمته(٢).

فهم النص

أدرك العبد إدراكا قاطعاً باليقين، أنَّ هذه الصفات التي مرَّ ذكرها سابقاً تدعو إلى التأمل والتدبر، حيث سلطان اللّه الذي عمَّ كل أرجاء الكون بأسره، وهذه المكانة العليّا، التي لا يرقى إليها أي مخلوق من هذه المخلوقات المعلومة والتي تُرى بالعين المجردة، وتلك التي لا نعلم عنها أيّ شيء، في تلك العوالم البعيدة عنا، والمخلوقات التي ليس في مقدورنا رؤيتها؛ لأنّها من عالم الملكوت وعالم الماورائيات ما وراء الدنيا. وهذا المكر الخفي الذي هو عنوان من العناوين التي يغفل عنها العبد في عالم الدنيا؛ وهذا الأمر الظاهر الذي يظهر من غير ترتيب المسبوقات المحذورة لكي يحترز العبد من عواقبه الوخيمة؛ وذلك القهر الغالب الذي لا يدع للآخرين الذين يتشدّقون بالجبروت وعظمة السلطان الدنيوي أي مجال لأن تكون لهم الغلبة والنصرة؛ وتلك القدرة التي جرت على كل مخلوق من هذه المخلوقات في عوالم الكون السحيق وعوالم تلك الدار الآخرة... كلُّ هذه الصفات موجودة في حكومة... هذه الحكومة نظامها العدل... ومن مميزاتها أن الذي يخالف أنظمتها، ليس في مقدوره التملُّصُ من القانون، أو محاولة التملق وتقديم الشفعاء، والرؤساء، والقريبين، وكل هذه الشعارات التي يراها العبد أمام عينيه في هذه الحياة الدنيا، لا مكان لها في ظل هذه الحكومة.

إنّها حكومة لم تتّخذِ الوزارةَ عضداً لها، و لم تستفدْ من العقول مستشيرةً لها.

---

(١) لسان العرب، ص ١٤٠ مادة «حكم».

(٢) مفردات الأصفهاني، ص ٢٤٨ مادة «حكم».

جاء عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء يستشير: «**الحمد اللّه الذي لا إله إلّا هو الملك المبين المدبر بلا وزير ولا خلق من عباده يستشير**»[١]، ومن كانت حكومته تتوفر فيها مثل هذه الصفات فإنها حكومة قوية حيث لا مثيل لها على الإطلاق، يقول الإمام المهدي المنتظر عليه السلام وعجل اللّه تعالى فرجه الشريف في دعاء الافتتاح في ليالي شهر رمضان المبارك: «...**الحمد اللّه الذي لا مضاد له في ملكه ولا منازع له في أمره... الحمد اللّه الذي ليس له منازع يعادله ولا شبيه يشاكله ولا ظهير يعاضده**»[٢] ويستفاد من هذا المقطع من الدعاء الشريف، أن هذه الحكومة الربانية لا يمكن أن تقاس بأي حكومة في هذه الدنيا، وهو قياس مع الفارق؛ لأن اللّه تعالى هو من يمدّ هذا الوجود برحمته ولطفه، فهذه المخلوقات الدنيويّة ليست بشيءٍ أمامَ جرمٍ من الأجرام الكونيّة المنتشرة في هذا الوجود العظيم.

وقد وردت آيات كثيرة يستفاد منها أن الحكم للّه تبارك وتعالى، لا يشاركه فيه أحد، قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[٣] وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٤]وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾[٦] وتشير هذه الآيات الشريفة إلى المفهوم الذي تجلّى لنا آنفاً من خلال سرد الأدعية الشريفة.

والعبدُ يلزمه أخذ الحيطة والحذر، فارتكاب الذنوب وجناية الآثام والمعاصي، سيتركان آثاراً لها تداعياتُها في الدنيا والآخرة، حيث ستؤدّي بصورتها التدريجية إلى الخسران، والعبد في هذه الحالة غافل عما تخبئه التراكمات التي حملها على ظهره، وهو بذلك نتيجة حتمية ستترتب حينها، بسبب التصرف المشين في الساحة

(١) مهج الدعوات، ص ١٥٨. مفاتيح الجنان، ص ١٢٢.
(٢) مفاتيح الجنان، ص ٢٣٢ – ٢٣٣.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٤.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٦٢ .

الإلهية... فبأيِّ حقٍّ يرتكبُ العبد تلك التجاوزات وهو في مكان غير ملكه وبأداة لا يملكها؟! (اليد والرجل واللسان وغيرها من الأدوات التي منحها له اللّه عز وجل).

وهذه رواية لها مدلولاتها الواقعية في هذا الوجود، وتركز لنا المدى البعيد للملكية الحقيقية والملكية الاعتبارية، حيث تحدد الواقع بما هو واقع، وتقيد العبد بالتعاليم الإسلامية والتطبيقات المتوافقة مع الدين الإسلامي المحمدي الأصيل.

روي عن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام: أنه جاء رجل، وقال: أنا رجلٌ عاصٍ ولا أصبر عن المعصية، فعِظني بموعظة، فقال عليه السلام: «**إفعل خمسة أشياء وأذنِب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل من رزق اللّه وأذنب ما شئت، والثاني: أخرج من ولاية اللّه وأذنب ما شئت، والثالث: أطلُبْ موضعاً لا يراك اللّه فيه وأذنب ما شئت، والرابع: إذا جاء ملك الموت لقبض روحك فادفعه عن نفسك وأذنب ما شئت، والخامس: إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل في النار، وأذنب ما شئت**»(١) ويستفاد من هذه الرواية ركيزتان أساسيّتان:

الركيزة الأولى: الدافع الأوّل والأخير للبقاء مصدره من اللّه تعالى، حيث اللطف الرباني والإمدادات الإلهية للعبد، الأوّل أمرٌ لا بُدَّ منه حتى يبقى على قيد الحياة.

الركيزة الثانية: عوامل التغذية ومقومات الاستقامة والحفاظ على المكانة الاجتماعية، والهيبة التي يكتسبها في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة، حالة أساسية في التأقلم مع مجريات الواقع، وكلها مقيدة عند اللّه تعالى.

ومعهما فإنَّ العبد يستلهم حياته من هذا الموجود الرباني الذي ليس في مقدوره الهروب منه والفرار، حيث كل الوسائل التي يتمتع بها العبد، من عند اللّه تعالى، ولا توجد نسمةُ هواءٍ ولا ذرّةٌ صغيرةٌ إلّا مصدرها من اللّه تعالى، وبالتالي مهما

(١) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١٢٦.

فعل من أجل أن يهرب ويفرّ فإنّ محاولته ستبوء بالفشل والخسران المبين...فهو الى أين يتجه؟ والى أين يتوجه؟ سيلقى اللّه تعالى، ولذلك فإنّ العبد (بعد أن يعجز من محاولات الهروب والفرار من ساحة الميدان الإلهية)، يقف بعد أن نَفِدَت كافة الوسائل المستخدمة في هذا المجال فيقول: «... **وأنا عائذ بفضلك هارب منك إليك...**»[(١)].

(١) مفاتيح الجنان، ص ٢٤٤ وهو مقطع من دعاء أبي حمزة المروي عن الإمام السجاد عليه السلام .

الفقرة الخامسة

اَللّهُمَّ لا اَجِدُ لِذُنُوبي غافِراً، وَلا لِقَبائِحي ساتِراً، وَلا لِشَيء مِنْ عَمَلِي الْقَبيح بِالْحَسَنِ مُبَدِّلاً غَيْرَكَ لا اِلـهَ إلاّ اَنْتَ سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ ظَلَمْتُ نَفْسي، وَتَجَرَّأْتُ بِجَهْلي وَسَكَنْتُ اِلى قَديم ذِكْرِكَ لي وَمَنِّكَ عَلَيَّ...

لا ملجأ من الذنوب إلّا إلى اللّه تعالى

«اَللّهُمَّ لا أَجِدُ لِذُنُوبي غافِراً، وَلا لِقَبائِحي ساتِراً، وَلا لِشَيءٍ مِنْ عَمَلِي الْقَبيحِ بِالْحَسَنِ مُبَدِّلاً غَيْرَكَ».

القبح: القبيح: ما ينبو عنه البصر من الأعيان، وما تنبو عنه النفس من الأعمال والأحوال، وقبُح قباحة فهو قبيح، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[1] أي: من الموسومين بحالة منكرة، وذلك إشارة إلى ما وصف اللّه تعالى به الكفار من الرجس والنجاسة إلى غير ذلك من الصفات، وما وصفهم به يوم القيامة من سواد الوجوه، وزرقة العيون، وسحبهم بالأغلال والسلاسل ونحو ذلك. يقال: قبَّحَهُ اللّه عن الخير، أي: نحّاه، ويقال لعظم الساعد، مما يلي النصف منه إلى المرفق: قبيح[2].

فهم النص

استخدم العبد سياسة التوجه الى الغير منذ آماد بعيدة، لكونه ضعيفاً في مواجهة الحوادث والكوارث؛ لكنَّ التاريخَ لم يكن لينحاز إلّا إلى الحق، حيث يظهرُ أنّ

(١) سورة القصص، الآية: ٤٢.

(٢) مفردات الأصفهاني، ٦٥١.

العبدَ في وقت التجأ لرفع هذه المشكلات إلى المخلوقين من مثله وغير ذلك، قال اللّه تعالى على لسان هذا العبد الذي يجهل حقائق الأمور: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[2] حيث تبين الآيات الشريفة أنّ العبد كان في وقت ما يلجأ إلى الأصنام أحياناً وفي أحايين كثيرة يناجي هذا الإنسان إنساناً آخرَ لكي يخلّصه من أهوال هذه الدنيا، وذلك بصور مختلفة، وأشكال متعددة، كما هو حاصل في عصرنا الحاضر، حيث يخضع لقرارات تخالف المبادئ والأصول الدينية، فمن خلال الأصنام أو من خلال الإنسان يحاول العبد أن يجد من يغفر له ذنوبه المتكاثرة على صحائفه السوداء، وأن يستر أعماله القبيحة؛ الا أن من التجأ اليهم لم يَنَلْ منهم مراده، حيث يحسبون عليه الذنب ويعاتبونه بارتكابه ذلك، وليتهم قد اكتفَوا بهذا... وإنّما استخدموا سلاح الفضيحة وعدم الستر... هذا في جانب، وعملية استبدال السيئة الى حسنة في جانب آخر، إذْ لم يجد في المخلوقين ما يلبّي هذه الرغبة، حيث يعمد الى مودتهم والتقرب اليهم بمدحهم أمام الناس بعدة وسائل من أجل أن يرغب فيه هذا المخلوق وأن ينال عنده المنصب الرفيع، والمنزلة القريبة منه، إلّا أنّ ذلك لا يكون أبداً لسببين:

السبب الأول: أن الصنم أو غيره من المخلوقات الموجودة في هذا الكون الواسعٍ، ما هي إلّا مخلوقات دنيا ليس في مقدورها الخروج عن قالبها الخَلْقي، فضلاً عن القساوة والشدة وعدم المبالاة بالآخرين كما هو عند طغاة البشرية الذين ليس في بالهم أي رحمة لمستضعفي العالم من الفقراء والمساكين.

السبب الثاني: أن هذه المخلوقات تحاول أن تجر إلى قرصها النار من غير أن تؤدّي أيَّ نوع من الحقوق للآخرين، حيث يعمد الظالمون إلى سلب الجهد المبذول من أموال وغيرها من الأشياء الثمينة، وإيداعها في خزانة العابد للأصنام في ذلك الوقت. وأمّا في عصرنا الحاضر فإنّ طغاةَ البشريّة يعمدون إلى فرض ضريبة مالية

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.

من غير وجه حق في ذلك، ومن غير تبين الفلسفة الحقيقيّة لهذا الفرض، وثمَّةَ الكثير من القوانين الظالمة المفروضة في كثير من دول الظلم والاستبداد.

وحينئذٍ لما أدرك العبد أن كل الذين التجأ إليهم لم يستفد منهم، حيث أصبحت لديه قناعةً مؤكدة، أن هؤلاء ما هم إلّا مخلوقون مثله، وليس لهم المقدرة على صنع أيِّ شيء، وذلك لكونهم ضعفاء أولاً، وليس لديهم صفاء القلب ثانياً، وأن الظلم استشرى بين الناس بسببهم ثالثاً... حينها توجه الى اللّه تعالى... بعد أن طرق الأبواب كلها، واذا بمن يطلب منه عاجز مثله لا يمكنه دفع الضرر عن نفسه، لذلك عاد، والخشوع يملأ جوانبه[1].

فوجد عند اللّه تعالى ما يحتاجه من تعاليم وإرشاد ومواعظ، ولكن هناك بعض الضوابط والقوانين، اذا أراد أن يلج الساحة الالهية المقدسة، وهي بمقدور العبد أن يتحرك عليها... وإذ تصبُّ في مصلحته العليا، فمن الضوابط:

الضابطة الأولى: التوبة.

الضابطة الثانية: العزم على عدم الرجوع إلى الذنب.

الضابطة الثالثة: الندم على ما فرّط في جنب اللّه تعالى.

الضابطة الرابعة: أن يعزم على أداء حقوق اللّه تعالى من صلاةٍ فاتَتْهُ أو صومٍ سوّف في أدائه.

الضابطة الخامسة: أن يبتعد عن الحرام نهائياً ولا يقترب منه مطلقاً مهما كانت الظروف والأسباب.

الضابطة السادسة: أن يُشعِرَ قلبه بأن اللّه تعالى يراه ومحيط به ويعلم أنه سوف يقبض روحه في نهاية الأمر.

الضابطة السابعة: أن يعمد الى كثرة العبادة والذكر للّه تعالى.

وبحسب هذه الضوابط التي أشرنا إليها، فإنّ العبد يمتلك رصيداً قوياً لنجاته من

(١) أضواء على دعاء كميل، ١٦١.

أهوال المُطَّلعَ وعذاب القبر الذي سنمرُّ به في باقي الدعاء في المستقبل بإذن اللّه تعالى.

وقد وردت قسم من الآيات والروايات ترشد إلى هذه الضوابط، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾(١) وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢) وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣) وقال جلّت عظمته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٤) وقال جل وعلا: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥) ونلاحظ أن هذه الآيات تركز على ضابطة التوبة والتي تستتبعها باقي الضوابط، وذلك لكونها هي الأساس، وتحاول الآيات الشريفة، أن ترسم هدفاً أساسياً لمن يريد التوبة وغفران الذنوب، هو استحكام البنية العملية بحالة من الأمل والرجاء، وعدم الاعتقاد بضياع الذات والخسران المبين، ولذلك نرى أن العبد في المقطع من الدعاء الذي نحن الآن بصدده يُصرُّ على المرور بالآخرين، ومحاولة استعراض أبرز مواقفهم، وهي عدم غفران الذنوب وعدم التستر على القبائح من الأعمال، فثبت عقلاً، أن اللجوء الى من هو أكملُ يكون واجباً، فهذه المحاولة لم تكن عبثاً في رسم خطى الحياة المستقبلية.

ومن جملة الروايات الواردة في ذلك، ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أولها الندم على الفعل والثاني العزم على الترك وأن لا يعود والثالث تأدية الحقوق ليلقى اللّه تعالى وليس عليه تَبِعَة والرابع أن يعمد إلى كلِّ فريضة فيؤدي حقها والخامس أن يذيب اللحم الذي نبت منه على السحت بالهموم والأحزان حتى يكتسي لحماً آخر من الحلال**

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ٢٣.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٣٩.

والسادس أن يُذيقه ألم الطاعة كما أذاقه لذة المعصية»[١] وقال صلوات اللّه عليه: «**ما كان اللّه ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة، ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح لعبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة**»[٢] أجل إن من يتوب إلى اللّه يتوب اللّه عليه فإذا تاب العبد واجتنب الكبائر ولم يُصرَّ على الصغائر وقضى ما عليه من صلاة وصيام ورَدَّ ما عليه من المظالم ووفى بحقوق الناس فإنَّ توبته هذه توبة حقيقية وإنّ اللّه عزّ وجلّ يقبلُ توبتَهُ[٣].

ولم يكن العبد ليقفَ عند هذا الحدّ، الذي ما هو إلّا غفران الذنوب وقبول التوبة، إلّا أن آثارها لا تزالُ موجودةً، وهي مؤثّرةٌ بحال، وأنها في عهدة الآخرين موضع شؤم في المدى البعيد، ويحتاج إلى من يغضُّ النظر عن هذه الآثار السيئة، التي لو اطلع عليها الناس لم يرحمه أحد، ولذلك ما كان منه إلّا أن يَجِدَّ في الطلب ويُلِحَّ، وينظرَ الى ما هو أعمق من ذلك، وهو التستر وعدم الفضيحة... وقد علم مسبقاً أن اللّه تعالى ستّار العيوب، فتحرك جاداً لذلك فقال «**ولا لقبائحي ساتراً**» حيث يدلّ هذا المقطع على أن العبد تحرك إلى عدّة جهات فيها القوّة والعُدّة والجاه، محاولاً بذلك، أن تتستر هذه الجهات على ذنوبه وخطاياه، إلا أنها لم تكن بالتي يرجى منها ذلك... فحينئذٍ توجَّهَ إلى اللّه تعالى، حيث الكرامة والتبجيل والاحترام، الأمر الذي يدعو إلى مزيد من التمسك بهذا المبدأ والثبات؛ وذلك لأنه يضع الحلول للعبد من غير إثارة أيّ نوع من الجدال، ومحاولة عرض العضلات، بداعي القوّة والغلبة... فإنّ اللّه تعالى لديه الوسيلة التي تحفظُ ماءَ وجهِ العبد من أن يُراق.

قال رسول اللّه ﷺ: «**من تاب تاب اللّه عليه وأُمِرَتْ جوارحُهُ أن تستر عليه وبقاعُ الأرض أن تكتم عليه وأُنسيت الحفظة ما كانت تكتب عليه**»[٤] وعن معاوية بن وهب

(١) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٦٨.
(٢) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢١٦.
(٣) رحلة في الآفاق والأعماق،، ص ٢١٦.
(٤) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٨.

قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «**إذا تاب العبد المؤمن توبةً نصوحاً أحبّه اللّه فستر عليه في الدنيا والآخرة. قلت: وكيف يستر عليه؟ قال: يُنسي مَلَكيه ما كتبا عليه من الذنوب وأوحى إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه وأوحى إلى بقاع الأرض اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب فيلقى اللّه حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب**»(١) وتشير هذه الروايات وغيرها الكثير، إلى أنّ نعمة الكتمان لم تخص ذوات العقول فحسب، التي تدرك الكليات الكبرى، وتحاول أن تطبق على الواقع الخارجي، بل توسعت بشكل مذهل للغاية، إذ تحركت الروايات أوّلاً الى الجوارح التي بين جنباته، حيث اليد التي يبطش بها ظلماً وعدواناً مثلاً، أو سرق بها، أو سعى بها الى إراقة الدم الحرام، وتلك الرّجل، وهذا الفم والأنف والعينين والأذنين، وهلُمَّ جرّا، ومن المعلوم جيّداً أنّ القرآن بيَّن لنا أن هذه المخلوقات سوف تنال من صاحبها، وتقف يوم القيامة، يوم الحساب ضدَّهُ، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٢) فهو من هذا المنطلق يُصِرُّ على أن تُستَرَ ذنوبُهُ وآثامُهُ، فاللّه عزَّ وجلَّ من خلال ولايته التكوينية على هذه المخلوقات يأمرها، بأن تتستر على هذا العبد، لماذا؟ لأنه أقدم على التوبة مخلصاً... وهذه الأرض أيضاً يأمرها بأن تستر عليه ما كان يعمل عليها من جرائم وقتل ودمار، ناهيك عن تلك الجماعة من الملائكة الكرام؛ فإنّها تكتم ذنوبه بأمر من اللّه تعالى، وسنتكلم عنها فيما سيأتي من الدعاء بإذن اللّه تعالى.

ويمكن القول بأنّه صارَ في حالة جيّدة من أول وهلة في قضية غفران الذنوب، ومحاولة سترها، وعدم معرفة المخلوقين من ملائكة وأناس، وكلّ ما بثَّهُ اللّه في هذا الكون العظيم... ولكن ماذا ستكون تلك السنين المنصرمة التي قضاها في محاربة اللّه تعالى، وركوب المعاصي، والآن هو في نهاية عمره إذا كان قد وصل إلى عمر متقدم من سنه... وأصبحت شعرات رأسه مائلةً إلى البياض، وقواه البدنية

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٩ – ٢١.

قد ضعفت، فحينئذٍ هو على الحافة من الدنيا وعلى وشك أن يسقط في عالم الآخرة، وحيث ينطق لسان حال هذا الرجل الهرم بلسان مولى الموحدين وعصمة المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إلهي كبُر سِنّي، ورَقّ جلدي، ودَقّ عظمي، ونال الدهر منّي، واقترب أجلي، ونفذت أيامي، وذهبت شهواتي، وبقيت تَبِعاتي**»[١]... وكذلك الشابّ الذي غرق في مياه هذه الدنيا، ونال نصيباً وافراً من ثرواتها عن طريق الحرام، وغشّي الآخرين، ومحاولة خداعهم عن طريق التمويه، بأنّه مؤمن، من خلال تواجده في المساجد والمآتم الحسينية، وأعماله الخيرية التي يلعب بها على عقل المجتمع. وكذلك الكثير والكثير من أمثال هذه النماذج المتكاثرة والتي طلقتهم الدنيا بعد أن أخذت كامل شهرتهم الاجتماعية، ووظفتها لخدمتها ومصلحتها... كلا المثالين المضروبين من كبير السن والشاب، استيقظا من الغفلة وتابا الى اللّه تعالى، وقد ستر اللّه عليهما... إلّا أنَّ العبد يبقى في نفسه طمع وتملّق إلى اللّه تعالى، لماذا هذا الطمع وعدم الحياء من اللّه تعالى في المطالب؟ وخصوصاً أنه للتو قد تاب من ذنوبه، وحصل على شهادة الستر ومنع اللّه مخلوقاته من أن تفضحَهُ وتُشهِّرَ به.

والآن هو يطلب تحويل الذنوب الى حسنات وثمار يستفيد منها في مشوار حياته القادمة، وعلى الخصوص أثبتَ أنَّ عنوان الإخلاص قد تجذر في جنبات قلبه، حيث أن اللّه تعالى يبدل السيئات الى حسنات فهذا العبد قد نبتت في قلبه شجرة الطمع التي فيها الخير والبركة، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢] وقال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٣] ظاهر هذه الآيات الشريفة أنّ قبولَ التوبة يرتكز على مقوّمات ثلاث حتى تتحول السيئات الى حسنات وهي:

(١) الصحيفة العلوية أدعية الإمام علي عليه السلام، ص ٧٤.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.
(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

المقوم الأول: التوبة.

المقوم الثاني: الإيمان.

المقوم الثالث: العمل الصالح.

وبهذه المقومات الثلاثة يستطيع العبد أن يتحرك للتغيير وتحويل الذنوب والسيئات الى حسنات ودرجات عليا عند اللّه تعالى، وبحسب الآيات فإنَّ اللّه تعالى سهَّل للعبد الوصول إلى تحقيق هذه المقوّمات، وذلك من خلال الصبر كما توضحها هذه الآية: - قول اللّه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[(١)] وبصفة الصبر يكون المكون الأساسي لعملية التحويل والتغيير، وبذلك ينال العبد وسام الإحسان، ومن هذا المنطلق فإنّ العبد قد ربح ورقة، لطالما كان يتمنّاها وهو في عالم هذه الدنيا بين الولهين بها، وهذه الورقة هي قبوله في زمرة التائبين، وتقريبه إلى ساحة القدس الربانية، وحصوله على شهادة الإحسان والكرامة والاحترام.

كلمة التوحيد

«لا إِلهَ إلاّ أنْتَ، سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ»

الإله: اللّه عزَّ وجلَّ، وكل ما اتخذ من دونه معبوداً إلهٌ عند متخذه، والجمع آلهة. والآلهة: الأصنام، سُمّوا بذلك لاعتقادهم انّ العبادة تحقُّ لهم. وأسماؤهم تتبع اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه، وهو بينُ الإلهة والالهانية[(٢)].

التسبيح: تنزيه اللّه تعالى. وأصله: المَرُّ السريع في عبادة اللّه تعالى، وجُعِلَ ذلك في فعل الخير كما جُعِلَ الإبعاد في الشرّ، فقيل: أبعده اللّه، وجُعِلَ التسبيح عامّاً في العبادات قولاً كان، أو فعلاً، أو نيّةً[(٣)].

التحميد: الحمد اللّه تعالى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخصُّ من المدح وأعمُّ

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٥.

(٢) لسان العرب، ج ١٣، ص ٤٦٧ مادة «أله».

(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٣٩٢ مادة «سبح».

من الشكر، فإنَّ المدحُ يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يُمدَحُ الإنسانُ بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدحُ ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمدُ يكون في الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلّا في مقابلة نعمة، فكل شكرٍ حمدٌ، وليس كل حَمدٍ شكراً، وكل حَمدٍ مدحٌ، وليس كل مَدحٍ حمداً، ويقال: فلانٌ محمود: إذا حُمِدَ، ومحمّد: إذا كثرت خصاله المحمودةً، ومُحمدٌ: إذا وُجِدَ محموداً[١].

فهم النص

في هذا المقطع من الدعاء يحاول العبد أن يُعزِّزَ وجوده المستقبليّ عند اللّه تعالى، وذلك لكون العبد قد مرّ بتجارب كثيرةٍ في هذه الدنيا (ولديهِ الالتجاء الذي ركزه في قلبه من ذي قبل في عبادةِ اللّه تعالى) في مقابل الذي جعل شريكاً مع الذات الإلهيّة، وهو ما شكّلَ بنية أرضيّةٍ سلبيّةٍ للتحدّي في مواجهة الحضرة المقدّسة للّه تعالى، ومن المعلوم أن اللّه تعالى لا يغفر أنْ يشرك به، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[٢] ولذلك فإنّ العبدَ يحاول أن يطهر قلبه من دنس العبودية لغير اللّه تعالى، حيث بالإقرار بوحدانية اللّه تعالى في كل شيء، دليل على أن العبد قد وصل إلى مكانةٍ لا بأس بها.

وهي كلمة التوحيد التي تتولد منها عدة مفاهيم توحيدية، وهي على النحو التالي:

١ ـ التوحيد في الذات: وهو أن اللّه تبارك وتعالى أحد بسيط وغير مركب... والمركب هو ما له جُزء، ويقابله البسيط وهو ما لا جزء له[٣].

٢ ـ التوحيد في الخالقية: ومعناه أنه لا خالق في الوجود إلّا اللّه. وبعبارةٍ

(١) مفردات الأصفهاني، ص ٢٥٦ مادة «حمد».
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.
(٣) بداية المعرفة، ص ١٦٦.

أدقّ: كل ما سوى اللّه إنّما يخلق ويفعل فعله بالاستناد إلى اللّه تعالى وبإقداره، لا بالاستقلال، وإنما المستقلُّ في الخَلق هو اللّهُ سبحانه لا غير(١).

٣ ـ التوحيد في الربوبية: وهو بمعنى الإدارة والتدبير يقال: ربّ الدار، وربّ القطيع، وربّ البستان: أي راعيها، ومدير أمورها، ومدبر شؤونها وحاجاتها بما يكفل بقاءها ويضمن نمّوها وإنتاجها وتكاملها، كلّاً بحسبها.

واللّه واحد في الربوبية، بمعنى أنه لا شريكَ له في تدبير الكون وتنظيم أموره وشؤونه، ورعاية الموجودات جميعها(٢).

٤ ـ التوحيد في العبادة: وهو من أبرز السمات التي تميز الموحد عن المشرك، فكل من يعبد غير اللّه أو يعبد شيئاً فهو مشرك. ولذلك ركز الإسلام عليه وجعله شعاراً للمسلمين يرددونه كلَّ يومٍ مرّاتٍ عديدةٍ في صلواتهم وهو قولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٣)(٤).

٥ ـ التوحيد في الصفات: وهي تُسمّى بصفات (الجمال والكمال)، كالعلم والقدرة والغنى والإرادة والحياة، هي كلُّها عين ذاته وليست هي صفاتٍ زائدةً عليها. وليس وجودها إلّا وجود الذات، فقدرته من حيث الوجود حياته، وحياته قدرته، بل هو قادر من حيث هو حيّ وهو حيٌّ من حيث هو قادر لا اثنينية في صفاته ووجودها(٥).

فالعبدُ استلهم هذا التوحيد، من خلال التوجّه المخلص للّه تبارك وتعالى، حيث لا معبود إلا هو.

والتوحيد هو التعظيم والتهليل، إذا هلَّلَ العبد بها من كل قلبه وعمل بها بإخلاص وخلوص نية وصدق وأبطل ما يُعبَدُ من دون اللّه يكون موحداً حقيقياً

(١) بداية المعرفة، ص ١٦٨.
(٢) بداية المعرفة، ص ١٦٩.
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٤) بداية المعرفة، ص ١٧٣.
(٥) عقائد الإمامية، ص ٦٢ – ٦٣.

وسيتفيأ ظلال الإيمان الوارفة في الدنيا والآخرة، يحبه اللّه وتحبه الملائكة ويُحشَرُ مع الأنبياء والصديقين والشهداء.

إنّ حقيقة التهليل لا تتجلّى في أعماق الإنسان إلّا من خلال المعارف القرآنية ومعرفة الأنبياء وبخاصة سيدنا محمد (صلّى اللّه عليه وآله وآل بيته الكرام عليهم السلام) فهم انعكاس لأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وهذا يتطلب تزكيةً للنفس وتطهيراً للروح من كلِّ أنواع الشرك والرجس؛ حيث يتألق القلب ويصبح كالمرآة؛ فيتلقى حينئذٍ الإشراق والنور الذي يشع من نور السموات والأرض[1].

في خضم هذا التوجه القلبي، انعطفَ العبد نحو التقديس والتسبيح، مُظهراً بذلك مدى الصفاء الذي وهبه اللّه تعالى إياه؛ والتسبيح هو علامة على التقدّم نحو الحضرة الالهية المقدسة.

فالعبد نزَّهَ ربّه بعد التشبيه، كأنه أشار الى طريقة الموحدين، وهي الجمع بين صفتي التشبيه والتنزيه، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2][3].

وكان العبد من ذي قبل قد ركز بعض المفاهيم التي هي منسوبة بالأساس الى اللّه تعالى، على الممكنات، ونسبها إليها؛ وهذا التسبيح هو تنزيه اللّه تعالى عن كل تلك الممكنات، ومحاولة ترتيب المبادئ والمفاهيم الاعتقادية، وذلك لغاية التطهير القلبي، والصفاء الروحي، حتى يصلَ إلى المقامات العليا عند اللّه تعالى.

وقد وردت جملة من الآيات التي تحدثت حول التسبيح؛ وقد أشارت إلى نقطة مهمة، وهي أن هذا الإنسان ليس وحده من يعبد اللّه تعالى، بل هذا الكون العظيم بأسره قال اللّه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[4] وذلك أن تعالى يسبحه وينزهه المخلوقات السماوية والأرضية بما عندهم من

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢٢٠ مع التصرف.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) شرح دعاء كميل، ص ١٠٢.
(٤) سورة الجمعة، الآية: ١.

النقص الذي هو مُتمِّمُهُ والحاجة التي هو قاضيها فما من نقيصة أو حاجة إلّا وهو المرجوُّ في تمامها وقضائها فهو المسبّح المنزّه عن كلِّ نقص وحاجة، فله أن يحكم في نظام التكوين بين خلقه بما شاء، وفي نظام التشريع في عباده بما أراد، كيف لا؟ وهو ملك له أن يحكم في أهل مملكته وعليهم أن يطيعوه[1].

ومن جملة الآيات الواردة في هذا الشأن قول اللّه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] وتشير هذه الآية: إلى أن نطاق العبادة اتسع بالمفهوم العام، حيث اشتمل صنف الناطق والجمادات من المخلوقات. ويبدأ ينخفض هذا التسبيح أو العبادة إلى الكائنات الحيوانية بمعنى الأعم، وبالأخص الطير، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[3] وقال اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[4] وهنا إشارة إلى أن هذه المخلوقات تعبد اللّه تعالى بحسب طبعها وكيفيتها بقرينة الآية: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾ حيث الكائنات كلها تمجد اللّه وتسبحه بالكيفية التي أوجدها اللّه تعالى على حالها وصنعها، وتسبيح الطير هنا يُقصَدُ به بسط الأجنحة في السماء كما ورد في التفسير[5].

فوائد علمية حول الطير

وهنا أنقل لكم من الأمور العجيبة التي يتمتع بها الطائر أثناء طيرانه، وهذا إنّما يدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، الذي سخَّرَ هذا الوجود الكونيّ تحت مقدرته وتصرفه.

تجدر الإشارة بادئ ذي بدءٍ إلى أنّ العلماء لم يفهموا بعض آليات الطيران عند

(١) تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢٧٤.
(٢) سورة الحديد، الآية: ١ - ٢.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.
(٤) سورة النور، الآية: ٤١.
(٥) راجع تفسير الأمثل، ج ١١، ص ١٨.

الطيور إلّا بعد تقدم علوم هندسة الطيران وديناميكا الموانع وصناعة الطائرات، والعجيب أن جناحي الطائرة الحديثة يقابلان جناحي الطائر مقابلة ظاهرية فقط، ولكنهما لا يكافئانهما تماماً، ذلك أن جناحي الطائرة وظيفتهما الرفع إلى الأعلى دون إحداث قوة الدفع إلى الأمام التي يؤديها المحركات الدوارة أو أجهزة الدفع النفاث، أمّا جناحا الطائر فإنهما يقومان بالوظيفتين معاً فالنصف الداخلي للجناح الذي يتحرك من مفصل الكتف، هو الذي يقوم أساساً بإنتاج قوة الرفع إلى أعلى، أي أنه يكاد هو وحده الذي يقابل جناح الطائر، والذي يقوم بوظيفة المحرك ودفع الطائر إلى الأمام هو نصف الجناح الخارجي عندما يضرب بقوة إلى أسفل والى أمام، ثم يرتفع إلى أعلى والى الخلف، ويتكرر هذا مع كل خفقة من خفقات الجناح، وفي أثناء الجناح تتغير أجزاؤه، وبخاصة ريشاته القوادم، أشكالها وأوضاعها وزواياها وسرعة حركتها في كل لحظة مع اختلاف الارتفاع وشدة الهواء واتجاهه ومتطلبات الطيران المتغيرة، وهذا يتمُّ بآليّةٍ وبسرعة مذهلة لا يستطيع العلماء إدراك بعضها إلا بأدق آلات التصوير السريع والعرض البطيء[١].

وحول مسألة هجرة الطير نورد هنا هذا المقطع الذي يحمل ما هو أعجب في هذه المخلوقات الطائرة، الأمر الذي يدعو إلى التدبُّر في هذه الآيات العجيبة.

هناك ما يزيد على أربعة ملايين طير وضعت في أرجلهم حلقات معدنية تبين هوية الطير وتحركاته، وهناك مجموعة أخرى من ثلاثة ملايين، وهناك مجموعة ثالثة من ثلاثة عشر مليون طير وضعت في أرجلها يوم كانت صغيرة في أعشاشها حلقات كي تتابع حركاتها من الشمال الى الجنوب، حيث كانت مراكز البحوث منتشرة بين شمال الكرة الأرضية وجنوبها، وتوصلوا إلى ما يلي:

- هناك نوع من الطيور يقطع في رحلته أربعة عشر ألف كيلو متر - هناك طيور قطعت ستة عشر ألف كيلو متر، وأطول رحلة قامت بها مجموعة من الطيور قطعت اثنين وعشرين ألف كيلو متر من منطقة المتجمد الشمالي الى منطقة جنوب إفريقيا،

---

(١) الموسوعة الكونية الكبرى، ج ١٢، ص ٩٦ - ٩٧.

حيث كانت سرعة هذه الطيور تتراوح بين أربعين كيلو متراً في الساعة الى مئة كيلو متر في الساعة، وأمّا سرعة الصقر في أثناء انقضاضه على فريسته فتصل الى ثلاثمائة وستين كيلو متراً في الساعة، وهناك ملاحظات سجلت على أنواع بعض الطيور التي تطير ما يزيد على ألفين وسبعمائة كيلو متر دون توقف تقطعها في عشرين ساعة، والطيور تحلق على ارتفاعات مختلفة، فمنها ما يحلق على ارتفاع يزيد على تسعمائة متر، وهو قريب من الكيلو متر وبعضها يحلق على ارتفاع ألف وخمسمائة متر، وبعضها على ارتفاع أربعة آلاف ومئتي متر، وبعضها ستة آلاف متر، أي: ستة كيلو مترات، والطائرات الحديثة ترتفع اثني عشر كيلو متراً.

ولا بدَّ أن يكون في رأس الطيور ساعة؛ لأن الطيور تهاجر في الوقت ذاته من كل عام، فما الذي يخبرها أنه قد آن الأوان؟ لابد من ساعة زمنية في رأس كل طير، قال بعض العلماء: للطيور قوة خارقة لقطع المسافات التي تقوم بها ولا يوجد مخلوق على وجه الأرض أقوى من الطير في قطع المسافات الشاسعة، لحكمة أرادها اللّه سبحانه وتعالى. ففي كل صفة مادية في الإنسان هناك حيوان يفوقه بها، الا أن الإنسان كرمه اللّه بالعقل وبالمعرفة والايمان، فبهاتين الصفتين يتفوق على بقية الحيوانات.

ومن أعجب العجب أن الطيور التي تستعد لقطع مسافات طويلة تزيد على عشرين ألف كيلو متر، تخزن الدهون في جسمها قبل أن تسافر، حيث يصبح وزن بعض الطيور مضاعفاً بسبب الدهن المخزون في جسمها، لتستعمله وقوداً لها في رحلتها الطويلة الشاقة.

لقد ظن بعضهم أن بعض الظواهر الجغرافية من أنهار، ومن بحار ومن سواحل، ومن جبال، تهتدي بها الطيور، ولكن هذه النظرية ثبت بطلانها، لأن الطيور تطير ساعات الليل كلها وفي الأيام المظلمة لا ترى شيئاً، ومع ذلك لا تحيد عن هدفها.

وقال بعضهم: لعل في الطيور رائحة شم نافذة، وقد أثبت العلم عكس ذلك.

وقالوا: تهتدي بالشمس، فأجريت تجارب، وعزلوا الطير عن أشعة الشمس فسار في الاتجاه الصحيح.

وقالوا: تساعده القبة السماوية، فعزلوه عن القبة السماوية، فسار في خطه المعتاد.

وقالوا: يسجل الطائر في أعماقه انعطافات الرحلة في الذهاب فوضعوه على قرص يدور كي تضيع هذه الانعطافات، فما أفلحوا.

وطرح بعضهم تفسيراً لهذه النظرية، ولكن العلماء المحدثين اكتشفوا أن في رأس الطائر نسيجاً لا يزيد حجمه على نصف ميليمتر مربع، مؤلفاً من مواد تتأثر بالمغناطيسية الأرضية، وحينما ركبوا بعض الوشائع، وعكسوا تيار الكهرباء فيها ارتدّ الطير الى الوراء، وعكس اتجاهه، فعلموا أن هذا النسيج الذي بين العين والمخ في الطائر، يتحسس بالساحة المغناطيسية الأرضية؟

وعرف العلماء نظرية أخرى، وهي أن الطائر يهتدي بنجوم السماء، وأنت أيها الإنسان الذكي، الذي درست وحصلت، ربما لا تستطيع أن تهتديَ بنجوم السماء.

إذ الطيور تهاجر وتهتدي الى طريقها برأي العلماء بنظريتين:

الأولى: الاهتداء بنجوم السماء ولكن كيف؟ لا ندري، وأي نجم هذا؟ لا ندري.

النظرية الثانية: أن في الطائر نسيجاً يتأثر بالساحة المغناطيسية الأرضية، حتى يقطع هذه المسافة الطويلة دون أن يحيد عن هدفه، فلو حاد عنه درجة واحدة لجاء في هدف بعيد عن هدفه ألف كيلو متر.

ولا يزال هذا السرُّ غامضاً حتى الآن، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾[١].

إنّها هداية من اللّه مباشرةً.

الشيء الذي يلفت النظر أن الطيور الصغيرة التي ولدت حديثاً وضعت حلقات في أرجلها، وسارت في رحلتها بالاتجاه الصحيح دون أن تتعلَّم من الطيور الكبيرة، فمن أودع في هذه الطيور الصغيرة هذه القدرة العجيبة كي

(١) سورة الملك، الآية: ١٩ .

تهتديَ إلى أهدافها؟ قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١).

إنّ الشيء العجيب أن خطوط الرحلة ليست مستقيمة، كيف أن الطائرة العادية في مسافة كذا كيلو متر يتغير اتجاهها كذا زاوية، هناك خطط، وهناك طيار، وهناك مساعد طيار، وهناك رادارات، وخرائط، وهناك توجيهات أرضية، واتصال مستمر مع الأرض كي تبقي الطائرة في خط سيرها، وأمّا خطوط الرحلات في الطيور فليست مستقيمة، إنّها خطوط فيها انحرافات، وفيها انعطافات؛ لأن هناك من رسم لها هذه الخطوط، وألهمها أن تسير فيها.

قال بعض العلماء: لو أن هذا الطير انحرف عن هدفه درجة واحدة لوصل الى هدف في نهاية المطاف بعيد عن هدفه، ما لا يقل عن ألف كيلو متر، فمن الذي يحدد هذا الهدف؟ لا يزال علماء الأرض في حيرة من هذه القوة، التي توجه الطيور في طيرانها.

طائر وضع في طائرة، وأبعد عن موطنه خمسة آلاف كيلو متر نحو الشرق، أو نحو الغرب، أو نحو الشمال، وقد كان في قفص محجوباً عن الرؤية، ومع ذلك لما خرجَ من قفصه وتُرِك يطيرُ بحريّة عاد الى موطنه بعد عشرة أيام(٢).

ظلم النفس

«ظَلَمْتُ نَفْسي»

ينظر العبد نحو الوراء وما خلفه في تلك السنين من الذنوب العظام، وما قد تؤثِّرُهُ من تداعيات على نفسه، ومن كون مصيبة الآثام لا تنزل عليه فحسب، بل ستنال من هذه النفس المسكينة التي لا تقوى على القذى، فكيف بنارٍ سجَّرها جبّارُها لمن عصاه.

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٩-٥٠.

(٢) الموسوعة الكونية الكبرى، ج ١٢، ص ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١.

وحيث أنه يستذكر تلك الأيام الخوالي، والتي شابتها الكثير من الأعمال السيئة، التي أتى بها، ومع اعترافه وإقراره بهذه الأعمال فيما مضى من الدعاء، فإنّه يصير ظالماً لهذه النفس، لماذا؟ لأن العبد لا يملك نفسه، ولا يجوز له بأي حال تعريضها للمخاطر المحدقة.

وعادة يقسم العلماء الظلم الى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ظلم بين الإنسان وربه، وأعظمه الشرك والكفر والنفاق ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[2] وهؤلاء لهم عذاب عظيم عند ربهم. قال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3].

النوع الثاني: ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وقد ذم اللّه سبحانه مرتكبيه قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4] وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾[5].

النوع الثالث: ظلم الإنسان لنفسه ومنه قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[6] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾[7] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾[8] وقال أيضاً عزَّت آلائه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[9] وقال عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[10].

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢١.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ٣١.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٤٢.
(٦) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٧) سورة الصافات، الآية: ١١٣.
(٨) سورة القصص، الآية: ١٦.
(٩) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(١٠) سورة النحل، الآية: ٣٣.

والظالمون الثلاثة ـ الظالم لربه والظالم لأخيه والظالم لنفسه ـ تربطهم صفة واحدة مشتركة هي الظلم، لكن الأول والثاني أقبح من الثالث، لأن الأوّلينَ ظالمان لنفسيهما مع ظلمهما للآخرين؛ لأن الإنسان عند تعدّيه على غيره بظلمٍ يكون قد ظلم نفسه[1].

ومن مصاديق ظلم النفس محاولة إهانتها، وكيف ذلك؟... حيث يعمد هذا العبد إلى تسليط بعض المفاهيم الأخلاقية السيئة على نفسه، من قبيل ارتكاب الآثام والذنوب كما تقدم ذكره. إنّ هذه المفاهيم ليس بمقدورها تغيير مجرى الحياة العامة، بما يقدره خالق الكون، بل يكون التغيير واقعاً على ذات الفرد؛ لأنّه هو من يتبنّى هذه المفاهيم السيئة...نعم تصيب الآثار من تبنّى وقبل هذه المفاهيم، وذلك لأنه موافق على الأعمال التي تصدر من هذا العبد ويشجع عليها، الا أن اللّه تعالى يمد مثل هؤلاء بالنعم والخيرات في هذه الدنيا ويرزقهم من الطيبات، ولكن يشير الى أنهم لم يسلطوا حمم الظلم على اللّه تعالى، وإنما يصيب الظلم من يجحد هذه النعم والخيرات، حيث يقول اللّه تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2] وهنا إشارة واضحة إلى أنّ الظلم الواقع على النفس له مسارات متعددة، ومن جملة المسارات الابتعاد عن ولاية أهل البيت عليهم السلام، وقد ورد في جملة ما ورد عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في تفسيره أنّه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**عباد اللّه عليكم باعتقاد ولايتنا أهل البيت وأن لا تفرقوا بيننا وانظروا كيف وسع عليكم حيث أوضح لكم الحجة ليسهل عليكم معرفة الحق ثم وسع لكم في التقية لتسلموا من شرور الخلق، ثم إن بدلتم وغيرتم عرض عليكم التوبة وقبلها منكم فكونوا لنعم اللّه شاكرين**»[3] ونلاحظ من خلال هذه الرواية أن بالتقرُّبِ إلى مودتهم سوف تتحقق عدة مميزات:

(١) الفوائد البهية في شرح العقائد الإمامية، ج ٢، ص ٤٣٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٧.
(٣) تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٢٤.

الميزة الأولى: الوضوح في رؤية الحق ومساراته.

الميزة الثانية: الحفاظ على المؤمن من الأذى الجسدي لكونه موالياً لأهل البيت عليهم السلام، وأيضاً الحفاظ على المكتسبات الدنيوية كما هو علي بن يقطين بأمر من الإمام الكاظم عليه السلام.

الميزة الثالثة: التوفيق للتوبة.

الجرأة على الله تعالى

«وَتَجَرَّأْتُ بِجَهْلي»

الجرأة: جرأ: الجرأة مثل الجرعة: الشجاعة، وقد يترك همزه فيقال: الجرة مثل الكرة، كما قالوا للمرأة مرةٌ. ورجل جَرِيءٌ: مقدم من قوم أجرئاء، بهمزتين، عن اللحياني، ويجوز حذف إحدى الهمزتين، وجمع الجرِي الوكيل: أجرياءُ، بالمدة فيها همزة، والجَرِيءُ: المقدام[١].

والجهل: جهل: الجهل: نقيض العلم، وقد جهله فلان جهلاً وجهالةً، وجهل عليه[٢].

فهم النص

لازال العبد يبدي عميق ندمه من التصرفات التي صدرت منه، وهو بعدُ في تلك الحقب من عمره، حيث صحيفة الأعمال مُلِئَتْ بالذنوب والآثام، وذلك بسبب الجرأة على اللّه تعالى جهلاً منه، بوضع حسابات أخرى في ملفات الحياة، وأن في هذه الدنيا هناك من سيحاسبونه على ما اقترفت يداه.

والجرأة هي عبارة عن سرعة الوقوع في الأمر من غير تدبّر ورويّة[٣]. وهذه السرعة تفضح الكثير من التصرفات غير المسؤولة، والتي وقعت عن غير علم، وهو بحد ذاته مذموم ومعيب عند أهلِ اللّه تعالى.

---

(١) لسان العرب، ج ١، ص ٤٤ مادة «جرأ».

(٢) لسان العرب، ج ١١، ص ١٢٩ مادة «جهل».

(٣) شرح دعاء كميل، ص ١٠٣.

ولهذا نرى العبد يبدي واقعه بحالة من الندم والتأسف على ما جنته يداه من الذنوب والآثام، فهو يقول أي رب: ولم يصدر مني عن علم ومعرفة، وسبق إصرار، بل كان ذلك عن جهل، وتقصير عفوي شأني في ذلك شأن كل من أمن العقوبة فأساء الأدب، فمن يتجرأ على من هو أقوى منه فان ذلك يكون ناشئاً عن جهله بقوته[١].

نعم هناك مواقف خرجت من العبد بقصد الاعتراف بأنّه ضعيف ومع ذلك نراه قد ركب أمواج المعاصي والذنوب، فمنها على سبيل المثال لا الحصر. يقول الإمام الحسين بن علي الشهيد عليه السلام، على لسان ذلك العبد المذنب: «**ثم أنا يا الهي المعترف بذنوبي؛ فاغفرها لي، أنا الذي أسأت، أنا الذي أخطأت، أنا الذي هممت، أنا الذي جهلت، أنا الذي غفلت، أنا الذي سهوت، أنا الذي اعتمدت، أنا الذي تعمّدت، أنا الذي وعدت، وأنا الذي أخلفت، أنا الذي نكثت، أنا الذي أقررت، أنا الذي اعترفت؛ بنعمتك عليّ...الهي أمرتني فعصيتك ونهيتني فارتكبت نهيك**»[٢].

ويقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، على لسان نفس هذا العبد الذي أقرّ بما اقترفت يداه من الجرائم الموبقة يقول: «**سيدي أنا الصغير الذي ربيته، وأنا الجاهل الذي علّمته، وأنا الضالُّ الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته، والجائع الذي أشبعته، والعطشان الذي أرويته، والعاري الذي كسوته، والفقير الذي أغنيته، والضعيف الذي قوّيته، والذليل الذي أعززته، والسقيم الذي شفيته، والسائل الذي أعطيته، والمذنب الذي سترته، والخاطئُ الذي أقلته، وأنا القليل الذي كثرته، والمستضعف الذي نصرته، وأنا الطريد الذي آويته، أنا يا رب الذي لم أستحيِك في الخلاء؛ ولم أراقبك في الملاء، أنا صاحب الدواهي العظمى، أنا الذي على سيده اجترى... إلى أن يقول... أنا الذي أعطيت على معاصي الجليل الرشا، أنا الذي حين بُشِّرتُ بها خرجتُ إليها أسعى**»[٣] إلى

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ١٩٠.
(٢) مفاتيح الجنان، ص ٣٣٤.
(٣) مفاتيح الجنان، ص ٢٤٥.

آخر الاعترافات والتي تبين لنا مدى الحالة التي يعيشها هذا العبد وهو في هذه الدنيا يغوص في أعماقها ويسبح في بحارها، ويتجرأ على الذات المقدسة جهلاً وعصياناً.

ويظهر من هذا السرد للأدعية المباركة من أن سبب التجرؤ على اللّه تعالى هو الجهل الذي هو صورة من الموقف اليومي عند هذا العبد، وقد وردة آيات كثيرة تذم الجهل، منها قول اللّه تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[١] ومن سياق هذه الآية: الشريفة يتّضح أنّ عرض الأمانة على مخلوقات ليس في مقدورها التفكّر، من قبيل السموات والأرضين والجبال، يدل على أن هذه الأمانة تكوينية، وأنها ذات مكانة عالية في تسيير هذا الكون العظيم، لكون السموات والأرض والجبال مخلوقاتٍ عظيمةً، ويبدو أن الرفض كان ناشئاً من عدم المقدرة على أداء هذه الأمانة، ومحاولة ترتيب كامل مستحقاتها ووظائفها، لماذا رفضت؟ ذلك يرجع إلى أن هذه الذوات المخلوقة لا تمتلك الوسيلة التي من خلالها تسيّر هذه الأمانة، وتؤدّيها بكامل خصوصياتها التي منحها رب العالمين، ولذلك فإنَّ الذي رحَّبَ بهذه الأمانة هو هذا الإنسان الذي منحه رب الكون الموهبة العالية في تأديتها وإعطائها كامل خصوصياتها ووظائفها، إلا أنّه لم ينظر إليها بالمدى البعيد والمستقبلي (الاستراتيجي)، حيث ضيّعها ولم يهتمّ بمكوناتها وخصوصياتها المشروعة، والتي قامت على بنية قوية تستمد طاقاتها التوعوية من الذات الإلهية المقدسة، فاستحق هذا الإنسان أن يكون ظالماً وجاهلاً، ولهذا نجد الكثير من الآيات تحاول أن تبين هذه الحالة التي يعيشها أكثر الناس، بأنّهم يتّصفون بالجهل وعدم التدقيق في الحالات الخطيرة، قال اللّه تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٢] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾[٣] وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة هود، الآية: ٢٩.

﴿أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[١] وقال تعالت آلاؤه: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢] وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣].

وقد وردت جملة من الروايات تذمُّ الجهلَ وعدم المعرفة والتدقيق في المسائل الخطيرة والتي يتوقف عليها مصير أمّة بأكملها، قال رسول اللّه ﷺ: «**ما استرذل اللّه تعالى عبداً إلا حظرَ عليه العلم والأدب**»[٤] وقال الإمام علي عليه السلام: «**الجاهل لا يرتدع وبالموعظة لا ينتفع**»[٥] وقال عليه السلام: «**الجاهل من أطاع هواه في معصية ربه**»[٦] وقال سلام اللّه عليه: «**الجاهل من انخدع لهواه وغروره**»[٧] حيث تُصوِّرُ الجاهل بأنّه طاقة فارغة ليس فيها أي منفعة يمكن أن يستفيدها المجتمع، وتركز بالذات على الحركة غير المسؤولة تجاه العمل، حيث البنية الفكرية قائمة على مرتكزات ودعائم مهمشة وغير قابلة للخوض في مشاريع تنموية، ولذلك فإنّ تقديم العالم العاقل له البعد المستقبلي (الاستراتيجي) في مفهوم التنمية وتشييد الفكر والمعرفة، وسيتضحُ لنا أكثر في مدرسة الدعاء مدى القابلية التي يركز عليها الدين الإسلامي للعالم العاقل العارف بحقائق الزمان.

الذكر القديم والمنّ من اللّه تعالى

«وَسَكَنْتُ إلى قَديمِ ذِكْرِكَ لي وَمَنِّكَ عَلَيَّ»

السكون: سكن: السكون: ضدُّ الحركة. سكن الشيء يسكن سكوناً إذا ذهبت حركته، وأسكنه هو وسكّنه غيره تسكيناً. وكل ما هدأ فقد سكن كالريح والحرّ والبرد ونحو ذلك[٨].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١١.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة يونس، الآية: ٤٢.
(٤) العقل والجهل في الكتاب والسنة، ص ١٨٢.
(٥) غرر الحكم، ص ٢٤.
(٦) غرر الحكم، ص ٢٤ .
(٧) غرر الحكم، ص ٢٤ .
(٨) لسان العرب، ج ١٣، ص ٢١١ مادة «سكن».

والسكون: ثبوت الشيء بعد تحركٍ، ويستعمل في الاستيطان نحو: سكن فلانٌ مكان كذا، أي: استوطنه، واسم المكان مسكن، والجمع مساكن، قال تعالى: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٢] و﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾[٣][٤].

القديم: قدم: في أسماء اللّه تعالى المقدم: هو الذي يقدّم الأشياء ويضعها في موضعها، فمن استحق التّقدم قدّمه. والقديم، على الإطلاق: اللّه عز وجل. والقِدم: العِتق مصدر القديم.

والقدم: نقيض الحدوث، قدم يقدم قدماً وقَدامةً وتقادم، وهو قديم، والجمع قدماءُ وقُدامى[٥].

المنّ: ما يوزَنُ به، يقال: مَنٌّ، ومَنّانِ، وأمنانٌ، وربما أبدل من إحدى النونين ألِفٌ فقيل: مناً وأمناءٌ، ويقال لما يُقَدَّرُ: ممنون كما يُقال: موزون، والمِنّةُ: النِّعمة الثقيلة[٦].

والمنُّ: منن: منّه يَمنه مناً: قَطَعَهُ. والمنينُ: الحبلُ الضعيفُ. وحبلٌ منينٌ: مقطوع[٧].

فهم النص

تمرُّ في ذهن العبد الكثير من المشاهد التي سوّدت صحيفة أعماله، وينظر الى هذه الحقب من الزمان ويراها، بصورة بشعة، مما يستدعي اليأس والقنوطَ، وعدم التوفيق في مجالات الحياة كافّةً، وحيث الذنوب قد وضعت حدّاً للتقدّم

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٥ .
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٦٧.
(٤) مفردات الأصفهاني، ص ٤١٧ مادة «سكن».
(٥) لسان العرب، ج ١٢، ص ٤٦٥ مادة «قدم».
(٦) مفردات الأصفهاني، ص ٧٧٧ مادة «منن».
(٧) لسان العرب، ج ١٣، ص ٤١٥ مادة «منن».

والعيش السوّي، فإنّ العبد بحاجة إلى من يدفعُهُ ويشدُّهُ نحو الأمام، وممارسة كامل الواجبات المطلوبة منه من قبل اللّه تعالى، وذلك لأنه مقدمة للنظر إلى المستقبل بعين التفاؤل والخير، وقد حثَّ الأئمة الأطهار ﮱ على هكذا طريق، حيث التوجيهات أخذت موقفاً لها من المميزات والثوابت الأخلاقية عند الكثير من الموالين، قال رسول اللّه ﷺ: «**قال اللّه تبارك وتعالى: يا بن آدم... لا تُقَنِّط الناس من رحمة اللّه تعالى عليهم وأنت ترجوها لنفسك**»(١) وقال ﷺ: «**يبعث اللّه المقنّطين يوم القيامة مغلَّبةً وجوههم -يعني غلبة السواد على البياض- فيقال لهم: هؤلاء المقنّطون من رحمة اللّه!**»(٢) فهذه الدنيا بما تحويه من بذخ مادي وترف فكري تكبت نفسية العبد عن التوجه الى اللّه تعالى بروح التفاؤل والخير، والإقدام نحو الرقيّ المعنوي والروحي عند اللّه تعالى.

وفي هذه الفقرة من الدعاء يتنبه العبد لهذه القضية، ويحاول أن يقتحم هذا السلوك عبثاً منه، آملاً وراجياً أن تنالَهُ عطايا ربّ العالمين، وينظر إليه نظرةَ رحمة وعطف؛ وهو للتوِّ لم يألُ جهداً في ارتكابه معاصي اللّه تعالى، حيث ظلمُهُ لنفسِهِ لم يجعل له نافذة يُطِلُّ منها على هذا الفضاء الواسع برحمة اللّه تعالى، وأعظم من ذلك التجرؤ على اللّه تعالى من غير حياءٍ وارتداع، بل كان يسير على هذا المنوال من غير علم، وإنّما بصفة الجهل.

وهو الآن يحِنُّ إلى تلك الحقبة الماضية، حين كان يتقلب على فُرُش نعم اللّه تعالى، حيث يُهدّئ من روع نفسه من خلال ذكر تلك السنين الماضية، التي كانت فيها نسائم العطف والرحمة تهبُّ عليه وتُحافِظُ على عوده الطريّ.

والآن يتحرّقُ العبد بعد تطاوله على مولاه، ولكنه يعود ليُهدّئ نفسه عندما يعود بذاكرته إلى الوراء، والى الماضي القديم ليتصفحَ من خلال ما مرّت عليه من مشاهد... ما يهدئ من فورته النفسية، فيحنُّ إلى قديم ذكر اللّه له، ويُسَكِّنُ النفس عندما يجدُ نعمَ اللّه عليه متواليةً، وعطاءَهُ متواصلاً من قبل أن يولد، وبعد ولادته

(١) ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٣٤٨٩.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٣٤٨٩.

وعندما يشبُّ ويترعرع. كل هذه آنات تمرُّ عليه، وهو فيها متنعِّمٌ بمنن اللّه، وألطافه. وهذه النعم، والألطاف هي التي مهدت الطريق له ليتجرأ بجهله على ربه، ولو كان المولى صارماً في جزائه لما أدّى بالعبد إلى هذا التهاون[1].

وما هو هذا القديم الذي يحنُّ إليه هذا العبد؟ وحيث أنه سكن نفسه فيه، وحالة من الندم على تضييع هذه النعم بادية عليه، ويتصور أنه يجهش بالبكاء على ما فرّط من تضييع لهذه المكتسبات المعنوية والمادية في آنٍ معاً، ولعلّها تُعتَبَرُ من الأمور الأساسية في الحياة، بحيث كونت له هذه التصورات من الحياة، وجعلته يمتلك عنوان القدرة والموهبة، في هذه الدنيا.

نعم... فإنّ أوّل ما يمكن أن يرجع ذهنه إليه هو تكوينه وخلقته، فهذه إحدى النعم التي يسكن الإنسان إليها لكونها تمتاز على الكثير من المميزات لا يحصل عليها هو في هذه الدنيا، حيث يبدأ التفكير في كيفية النشأة والحدوث، إذ يركز لنا القرآن الكريم على واحدة من أهمّ العوالم في حياة هذا الإنسان، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[2] ويستفاد من هذه الآية: المباركة، أنَّ حياة الإنسان تمرُّ على تسع مراحلَ يطوفُ من خلالها، على هذه العوالم الوجودية، وهي حسب ما ذكرته الآيةَ: الكريمة:

المرحلة الأولى: التراب.

المرحلة الثانية: النطفة وهي بدء تكوين الخليّة الأولى.

المرحلة الثالثة: العلقة.

المرحلة الرابعة: المضغة المخلّقة وغير المخلّقة.

---

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

المرحلة الخامسة: الإقرار في عالم الأرحام.

المرحلة السادسة: الدخول إلى عالم الدنيا.

المرحلة السابعة: الوصول إلى مهابة الشباب والقوّة والشدّة.

المرحلة الثامنة: الدخول إلى عالم الكهولة.

المرحلة التاسعة: الخروج من هذه الدنيا والرجوع الى التراب.

وتُعتبر هذه المراحل واحدةً من إحدى المراحل الأساسية في تكوين الشخصية الإنسانية، حيث أنها مستمدة من الذات الربانية، اذ كل ما تحتويه هذه الصور والمراحل تستمد قوتها من اللّه تعالى الذي يُفيض بركاته ورحماته على هذا الإنسان. وحيث أنه قد مارس بعض المحظورات، وخالف تلك القوانين والضوابط الشرعية، فإنّه يُعتبر إنساناً خارجاً عن المنظومة الملتزمة بالشرع، فهو بحاجة، إلى أن يُلمِّعَ الصورة المرتسمة في الذهن، من أنه مخالف للشرع الاسلامي، فاستخدم سلاح الماضي، الذي هو علامة قوية في هذا المجال، وهو العناية المصبوبة عليه من اللّه تعالى في حقبة من التاريخ، يوم أن كانت ورقته بعد لم تسقط، فهي ناصعة البياض، لا توجد بها ذنوب أو مخالفة.

وهنا معلومة علميّة تبين مدى العناية الإلهية، التي يوليها رب العالمين لهذا العبد، إلّا أنّ العبد لا يعيرها أيَّ اهتمام، فهو يستخدم هذه النعم الإلهية في معصية اللّه تعالى.

من أسرار الجسد.

في المعدة يوجد (٣٥) مليون غدة معقدة التركيب لأجل الإفراز. وأمّا الخلايا الجدارية التي تفرز حمض الكلور فتقدر بمليار خلية.

في العَفَج يوجد (٣٦٠٠) زغابة معوية في كل (١) سم مربع لامتصاص الأغذية المهضومة، وفي الدقائق (٢٥٠٠) زغابة مع العلم بأنّ طول الأمعاء ثمانية أمتار.

في مخاطية الفهم يوجد (٥٠٠,٠٠٠) خليّةٍ تُعوَّضُ فوراً وذلك كلّ خمسٍ دقائق.

يوجد في اللسان (٩٠٠٠) حَلَمة ذوقية لتمييز الطعم الحلو والحامض والمرّ والمالح.

لو وضعت الكرات الحمراء لجسم واحد بجانب بعضها في صف واحد، لأحاطت بالكرة الأرضية التي نعيش عليها (٥ـ ٦) مرّات. وأمّا مساحتها فتقدر بـ(٣٤٠٠) وعددها ٥ ملايين كرية حمراء في كل مليمتر مكعب من الدم.

وتجري كلّ كرية حمراء (١٥٠٠) دورة دموية بشكل وسطي كلّ يومٍ تقطع خلالها (١١٥٠) كم ألفاً ومئة وخمسين كيلو متراً في عروق البدن.

القلب: هو مضخة الحياة التي لا تكلُّ عن العمل. عدد ضرباته (٦٠ـ ٨٠) ضربة في الدقيقة الواحدة وينبض يومياً ما يزيدُ (مئةَ ألفِ) مرّةٍ يضخّ خلالها (٨٠٠٠) ليتراً من الدم وحوالي (٥٦) مليون جالون على مدى حياة إنسان في المتوسط... تُرى هل يستطيع محرك آخر القيام بمثل هذا العمل الشاقِّ لمثل تلك الفترة الطويلة دون حاجة لإصلاح؟!

تحت سطح الجلد يوجد (٥ـ ١٥) مليون مكيف لحرارة البدن، والمكيف هنا هو الغدة العرقية التي تخلص الجسم من حرارته الزائدة بواسطة التبخر والتعرق.

يستهلك الجسم من خلاياه (١٢٥) مليون خليّةٍ في الثانية الواحدة بمعدل (٧٥٠٠,٠٠٠٠٠٠) سبعة آلاف وخمس مئة مليون خليّة في الدقيقة الواحدة.

وبنفس الوقت يتشكل ويتركب نفس العدد من الخلايا تقريباً، ولو تعلم أيها القارئ بناء وهندسة وفيزيولوجية الخلية الواحدة لسقطت على الأرض ساجداً من إعجاب صنع اللّه تعالى. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[1].

في كل يوم يتنفس الإنسان (٢٥) ألف مرة يسحب فيها (١٨٠) متراً مكعباً من الهواء يتسرب منها (٦,٥) متر مكعب من الأوكسجين للدم[2].

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٢) الموسوعة الكونية الكبرى، ج ١٤، ص ١٥٦ـ ١٥٧.

الفقرة السادسة

اَللّهُمَّ مَوْلاي كَمْ مِنْ قَبيحٍ سَتَرْتَهُ وَكَمْ مِنْ فادِحٍ مِنَ الْبَلاءِ اَقَلْتَهُ (اَمَلْتَهُ) وَكَمْ مِنْ عِثارٍ وَقَيْتَهُ، وَكَمْ مِنْ مَكْرُوهٍ دَفَعْتَهُ، وَكَمْ مِنْ ثَناءٍ جَميلٍ لَسْتُ اَهْلاً لَهُ نَشَرْتَهُ، اَللّهُمَّ عَظُمَ بَلائي وَاَفْرَطَ بي سُوءُ حالي، وَقَصُرَتْ (قَصَّرَتْ) بي اَعْمالي وَقَعَدَتْ بي اَغْلالي، وَحَبَسَني عَنْ نَفْعي بُعْدُ اَمَلي (آمالي)، وَخَدَعَتْنِي الدُّنْيا بِغُرُورِها، وَنَفْسي بِجِنايَتِها (بِخيانَتِها) وَمِطالي يا سَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ اَنْ لا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعائي سُوءُ عَمَلي وَفِعالي، وَلا تَفْضَحْني بِخَفِيِّ مَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ سِرّي، وَلا تُعاجِلْني بِالْعُقُوبَةِ عَلى ما عَمِلْتُهُ في خَلَواتي مِنْ سُوءِ فِعْلي وَإساءَتي وَدَوامِ تَفْريطي وَجَهالَتي وَكَثْرَةِ شَهَواتي وَغَفْلَتي...

الاعتراف بنعم الله - ستر القبائح

«اَللّهُمَّ مَوْلاي كَمْ مِنْ قَبيحٍ سَتَرْتَهُ»

الكم: كم: عبارة عن العدد، ويستعمل في باب الاستفهام، وينصب بعده الاسم الذي يميز به نحو: كم رجلاً ضربت؟ ويستعمل في باب الخبر، ويجر بعده الاسم الذي يميز به. نحو: كم رجلٍ[1].

الستر: تغطية الشيء، والسّترُ والسُّترةُ: ما يستتر به، قال: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[3] والاستتار: الاختفاء، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾[4][5].

(١) مفردات الأصفهاني، ص ٧٢٦.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٢.

(٥) مفردات الأصفهاني، ص ٣٩٦.

فهم النص

بدأ العبد في هذه الفقرة يستعرض قسماً من النعم التي أغدقها اللّه عليه، ومن جملتها الستر على عمله القبيح، حيث يدرك العبد مدى سلبية العمل القبيح عليه، وحيث أنه في حقب ماضية، قد تناولت يداه الذنوب والآثام والمعاصي، التي تُعدُّ بأكثرَ مما يتوقع بقرينة الإقرارت السالفة التي صرَّحَ بها، وهو في مشواره من الدعاء.

وبطبيعة الحال يرى أن الكشف عن هذه الورقة يؤدّي به، إلى ضياع المكتسبات التي حصل عليها، وأنها ستجره الى عالم الفضيحة بين الخلق؛ لكن اللّه تعالى لطف به وستر عليه، وكان سبباً لترقّيه بين الناس، اذ لو اطلع عليه الآخرون ستكون المعاملة مختلفة وستؤدي به إلى ضياع قسم كبير من المنعطفات والمكاسب الجوهرية التي حصل عليها لدى الناس.

والتعبير بالكم يبرهن على أنّ هذا العبد قد وصلت يداه إلى أبعد الحدود من ارتكابه الجرائر والمعاصي القبيحة، التي تنمُّ عن مدى تجاهله وإعراضه عن الذات الإلهية؛ لكن اللّه تبارك وتعالى رؤوف حكيم في أحكامه وتصرفاته، حيث رحمته ما زالت تنزلُ على هذا العبد أملاً بهدايته وتوبته، واللّه تعالى وضعَ لباسَ الستر عليه، وذلك لكي يدرك العبد مدى فداحة الجرم الذي أتى به مع مرور الزمان، والذي سوف يستيقظ منه.

وقد وردت جملة من الروايات في شأن ذلك، حيث تتحرك وفق منظور البعد الزمني، وهو ينم عن أن العبد له القابلية الحتمية في استلام قيادة التوبة، من خلال التستر عليه وعدم فضحه، فمن جملة هذه الروايات: «**أن اللّه تعالى إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من يكشفها في الآخرة، وان كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها أخرى**»[١] وورد أيضاً: «**أنه يؤتى يوم القيامة بعبد يبكي، فيقول اللّه سبحانه له: لِمَ تبكي؟ فيقول: أبكي على ما سينكشف عني من عوراتي وعيوبي عند الناس والملائكة. فيقول اللّه: عبدي ما افتضحتك في الدنيا بكشف عيوبك**

(١) جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٧٢.

وفواحشك، وأنت تعصيني وتضحك! فكيف أفضحك اليوم بكشفها وأنت تعصيني وتبكي!»[1] وورد أيضاً: «**أن رسول اللّه ﷺ يطلب يوم القيامة من اللّه سبحانه ألا يحاسب أمته بحضرة من الملائكة والرسل وسائر الأمم، لئلا تظهر عيوبهم عندهم، بل يحاسبهم بحيث لا يطّلع على معاصيهم غيره سبحانه، وسواه ﷺ، فيقول اللّه سبحانه: يا حبيبي، أنا أرأف بعبادي منك، فإذا كرهت كشف عيوبهم عند غيرك، فأنا أكره كشفها عندك أيضاً، فأحاسبهم بحيث لا يطّلع على عثراتهم غيري**»[2].

ولعلّ دعاء الافتتاح للإمام المهدي المنتظر عليه السلام وعجّل اللّه تعالى فرجه الشريف، يدلنا على عمق الترابط الروحي والمعنوي بين العبد وربه، وهذا المقطع من الدعاء الشريف يشير إلى مفهوم هو أقرب منه إلى الواقع الذي يتحرك منه العبد، وهو أن العبد يتحرك وفق منظور التوازن الفكري والمعنوي الذي يعيشه وهو يلهج بهذه التمتمات من الكلمات. يقول الإمام عليه السلام: «**اللهم إن عفوك عن ذنبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وصفحك عن ظلمي، وسترك على قبيح عملي، وحلمك عن كثير جرمي عندما كان من خطأي وعمدي، أطمعني في أن أسالك مالا أستوجبه منك الذي رزقتني من رحمتك، وأريتني من قدرتك، وعرفتني من إجابتك، فصرت أدعوك آمناً، واسالك مستأنساً لا خائفاً ولا وجلاً!**»[3].

هنا تتجلّى الروعة، والعظمة، وهنا تكمن الرقة في الوقت ذاته. وهنا يلف الحنو الإلهي هذا العبد اللاهي المتمرد على ربه، فيسدل على قبائحه ستراً يُظَلِّلُ به ليُخفيَهُ عن أعين الناس. هذا هو حاله، فكيف بمن تاب، وعاد إلى رشده ليجد من برد رحمة اللّه وفيض عطفه ما يحقق له آماله في قبول التوبة، والتجاوز عن كل ما صدر منه[4].

فإذا كانت عناية اللّه سبحانه في ستر عيوب العباد بهذه المثابة، فأنّى لك أيها

---

(١) جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٧٢ .
(٢) جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٧٢ .
(٣) مفاتيح الجنان، ص ٢٣٢.
(٤) أضواء على دعاء كميل، ص ١٩٢ – ١٩٣.

المسكين المبتلى بأنواع العيوب والمعاصي، تسعى في كشف عيوب عباد اللّه، مع أنك مثلهم في الإنصاف بأنواع العيوب والعثرات! وتأمل أنه لو أظهر أحد بعض فواحشك عند الناس كيف يكون حالك، فقس عليه حال غيرك ممن تكشف أنت فواحشه. وقد ثبت ووضح من الأخبار والتجربة: أن من يفضح؛ يفتضح، فيا حبيبي ترحم على نفسك وتأسَّ بربك، فأسدِلِ الستر على عيوب غيرك[١].

وقد وردت في القرآن الكريم، هذه الآية: المباركة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢] ويمكن أن نستفيد من الآية: الكريمة من خلال وضع بعض التحذيرات العملية، وذلك من أن المجتمع بكل كتلته يحمل مفهوم التعاون والمحبة والشراكة المجتمعية، وحيث تنتشرُ الفاحشة، فإنَّ هذه المفاهيم الأخلاقية العريقة ستكون محطّ الفناء، وذلك بسبب إشاعة الفاحشة. ومعلوم ماهية الآثار المترتبة على المجتمع من جراء انتشار الفاحشة، والمفاهيم الأخلاقية سيّئةِ الصيت، وعليه فإنَّ الآية: الشريفة تحاول أن تُحذِّر هؤلاء الذين اتخذوا مثل هذه الأعمال مهنةً لهم، في حين أنها تركز من خلال التحذير على أن ترسمَ للمؤمنين طريقاً مسالماً ليس فيه عنوان الكراهية والبغض وعدم المحبة، بل توجدُ المحبة والتعاون والشراكة المجتمعية.

وقد وردت روايات تحثُّ المؤمنين على اجتناب عن هذه الصفة منها: قال رسول اللّه ﷺ: «**كان بالمدينة أقوام لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس فأسكت اللّه عن عيوبهم الناس فماتوا ولا عيوب لهم عند الناس، وكان بالمدينة أقوام لا عيوب لهم، فتكلموا في عيوب الناس، فأظهر اللّه لهم عيوباً لم يزالوا يُعرفونَ بها إلى أن ماتوا**»[٣].

ونلاحظ أن هذه الرواية تتحدث عن فئتين من الناس:

الفئة الأولى: وهي الفئة التي لها عيوب، وحيث أنها ركزت على عيوبها

---

(١) جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٧٢ .

(٢) سورة النور، الآية: ١٩.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١٣.

ومحاولة علاجها، ولم تلتفت إلى عيوب الآخرين، فإنّ اللّه عزَّ وجلَّ ستر على أفرادها كرامةً لهم، وذلك لكونهم لم يخوضوا مع الذين يُشيعون عيوب الآخرين، وقد رحلوا عن هذه الدنيا، ولم يعرف الناس أن هذه الفئة لديها عيوب، أو قبائح أو آثام.

الفئة الثانية: وهي الفئة التي تختلف عن سابقتا كيفاً وجوهراً، إذ أنها لا تحمل عيوباً، ولا ترتكب محرمات، ولا تحاول مخالفة المحظورات، وليس لديها ما يُشينُ ويُسوِّدُ صفحة أعمالها، فهي على خير من أوّل وهلةٍ؛ لكن من خلال التجرؤ على الآخرين من المؤمنين، ومحاولة إشاعة عيوبهم والتكلم عليهم، فإنّ اللّه تعالى يُظهر لأفرادها عيوباً ويفضحهم، ويمارس عليهم قانون التكتم على حسناتهم، ويبدأ في إشاعة سيئاتهم وعيوبهم، وذلك للتجرؤ الذي قاموا به من خلال إظهار عيوب الآخرين من الناس.

ومن الروايات أيضاً عن زيد الشحام عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**عورة المؤمن على المؤمن حرام**» قال: «**ليس هو أن ينكشف ويرى منه شيئاً، إنّما هو أنْ يرويَ عليه**»(١).

وعن حذيفة بن منصور قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: شيء يقوله الناس عورة المؤمن على المؤمن حرام قال: «**ليس حيث تذهب، إنّما عورة المؤمن أن يراه ويتكلم بكلام يعاب عليه فيحفظه عليه ليعيره به يوماً إذا غضب**»(٢).

وعن أبي بردة قال: صلّى بنا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ثم انصرف مسرعاً حتى وضع يده على باب المسجد ثم نادى بأعلى صوته: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه لا تتبعوا عورات المؤمنين فانه من تتبع عورات المؤمنين تتبع اللّه عورته ومن تتبع اللّه عورته فضحه ولو في جوف بيته**»(٣).

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١٤.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١٤ .

وعن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: قلت له: جُعلت فداكَ الرجل من إخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكره له فأسأله عنه فينكر ذلك وقد أخبرني عنه قوم ثقات فقال لي: «**يا محمد كذب سمعك وبصرك عن أخيك فان شهد عندك خمسون قسامة، وقال لك قولاً فصدقه وكذبهم ولا تذيعن عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروته فتكون من الذين قال الله عز وجل:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إن لله تبارك وتعالى على عبده المؤمن أربعين جُنَّةً فمن أذنب ذنباً كبيراً رفع عنه جُنَّةً فإذا عاب أخاه المؤمن بشيء يعلمه منه انكشفت تلك الجنن عنه ويبقى مهتك الستر فيفتضح في السماء على ألسنة الملائكة، وفي الأرض على ألسنة الناس، ولا يرتكب ذنباً إلا ذكروه ويقول الملائكة الموكلون به: يا ربنا قد بقي عبدك مهتك الستر وقد أمرتنا بحفظه فيقول عزَّ وجلَّ: ملائكتي لو أردت بهذا العبد خيراً ما فضحته فارفعوا أجنحتكم عنه فو عزتي لا يؤولُ إلى خير أبداً**»[2].

وهذه الصورِ تركِّزُ على أهميّةِ وحدةِ المجتمع الإسلامي؛ لأنّ إشاعة الفاحشة سبب أكيد لتفكُّكِ هذا الكيان.

الاعتراف بنعم الله - البلاء الثقيل

«وَكَمْ مِنْ فادِحٍ مِنَ الْبَلاءِ أَقَلْتَهُ»

الفدح: إثقالُ الأمرِ والحملِ صاحبَهُ. فدحه الأمر والحمل والدين يفدحه فدحاً: أثقله، فهو فادح؛ وحديث ابن جريج أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: وعلى المسلمين أن لا يتركوا مفدوحاً في فداء أو عقل؛ قال أبو عبيدة: هو الذي فدحه الدين أي: أثقله؛ وفي حديث غيره: مفدحاً. فأمّا قول بعضهم في المفعول مُفدح فلا وجه له؛ لأنا لا نعلم: أفدح. وفي حديث ابن ذي يزن: لكشفك الكرب الذي فدحنا أي: أثقَلَنا.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١٦ .

والفدحة: النازلة؛ تقول: نزل به أمر فادح إذا غاله وبهظه. ولم يُسمَعْ: أفدحه الدّين، ممن يوثق بعربيته[١].

الإقالة: قلل: القلة: خلاف الكثرة. والقُلُّ: خلاف الكُثر، وقيل: قل يقِل قِلة وقُلاً، فهو قليل وقُلال وقَلال، بالفتح؛ عن ابن جنّيّ. وقلله وأقَلّه: جعله قليلاً، وقيل: قلَّله جعله قليلاً[٢]. والإقالة: بمعنى العفو، والمسامحة[٣].

فهم النص

بمنظر يخلو من التصنع الاعتباري، يسرد العبد النعم التي أفاضها اللّه تعالى عليه، حيث للتوّ قد أقرَّ بتلك النعمة التي تحمل من المفاهيم المعنوية والفكرية الكثير، وهي الستر على الأعمال القبيحة، والتي لها مردودات سلبية (لو علم كافة المخلوقات عن هذا العبد حول الجرائم والذنوب التي قد أتى بها).

وهنا يتحرك العبد وفق منظومة، لها أبعادها المتعددة في مجال السلب، حيث تخضع لعنوان الحماية النفسية تارةً، وأخرى لمدركات الواقع في الحياة، وهذا بحال يستوجب الوقاية من كل هذه العناوين.

وفي خضم هذه التوجهات يظهر في الواجهة مدلول حماية من كل هذه المجالات السلبية، وهي الحماية الالهية، والتي هي تُترجَمُ باعتبارات تشريعية خاضعة لمفهوم القوانين السماوية، وبالالتزام بهذه المدلولات والعناوين والضوابط التشريعية.

وهنا العبد يحاول التملص عبثاً منه الى الواجهة الايمانية، حتى يدرك حلاوة التقوى والورع، ونشوة الالتزام الديني، وهذا يعبر عن تلك المدلولات الاعتبارية، التي كان العبد يتشدق بها وهو يموج في بحار هذه الدنيا، حيث التسلط الظالم على هذه العباد من مخلوقات اللّه تعالى.

وهنا يتجلى مدى الضعف الذي يظهر تباعاً على قسمات وجه العبد، في إشارة

---

(١) لسان العرب، ج ٢، ص ٥٤٠ مادة «فدح».

(٢) لسان العرب، ج ١١، ص ٥٦٣ مادة «قلل».

(٣) أضواء على دعاء كميل، ص ١٩٣ نقلاً عن النهاية لابن الأثير: مادة «قيل».

واضحة الى أنه لا يمتلك الوسيلة التي من خلالها يحمي نفسه، فضلاً عن نفوس الآخرين.

وقد دلت على ذلك آيات من القرآن الكريم، قال اللّه تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[2] وقال عز وجل: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[3] وتشير هذه الآيات بمجملها الى أن هذا الإنسان يتحرك وفق ما هو معمول أمامه، فالذي يراه حالة التزام، أخذ عنوان الالتزام مُلبِساً له وتذرع به أمام المجتمع، وإذا كانت حالُ المجتمعً تنتشر فيها مفاهيم العولمة والحداثة، عمل لأجل نشرها والإخلاص لها، حتّى لو كان بخلاف التعاليم الدينية.

ومن هنا وعى العبدُ وأدرك ضرورةَ عدم الخضوع لأيّة حركةٍ توجب الوقوعَ في الشبهات والخروج عن المسارات الإسلامية، إلّا أنّ ذلك لم يكن من استقامته فحسب، بل اللّه تعالى كان في طريق السداد والاستقامة، برفعه من المشكلات والبلاءات الثقيلة، والتي في مجملها بحقٍّ لو وقعت على هذا العبد، لكان ضعيفاً بدلالات الآيات المتقدمة، والتي تبين كيف أن العبد تمسك بقوة هي أقوى منه.

وقد صور لنا الإمام موسى الكاظم عليه السلام صورة العبد الذي تنهشُهُ، تلك البلاءات العظيمة، والتي بحقٍّ لو تأملها هذا الإنسان لرأى أنه في نعمةٍ وجنّةٍ عرضها السموات والأرض، فهو يقول في دعاء الجوشن الصغير: «**إلهي وكم من عبد أمسى وأصبح سقيماً موجعاً في أنّةٍ وعويل، يتقلب في غمه لا يجد محيصاً ولا يسيغ طعاماً ولا شراباً وأنا في صحة من البدن وسلامة من العيش كل ذلك**

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ١١٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٣.

منك فلك الحمد يا رب من مقتدر لا يغلب وذي أناة لا يعجل...الهي وسيدي وكم من عبد أمسى وأصبح مغلولاً مكبلاً في الحديد بأيدي العِداة لا يرحمونه، فقيداً من أهله وولده منقطعاً عن إخوانه وبلده، يتوقع كل ساعة بأيّ قِتلة يقتل، وبأيّ مُثلَةٍ يمثَّلُ به، وأنا في عافية من ذلك كله فلك الحمد من مقتدر لا يغلب وذي أناةٍ لا يعجل...الهي وكم عبد أمسى وأصبح يقاسي الحرب ومباشرة القتال بنفسه قد غشيته الأعداء من كل جانب بالسيوف والرماح وآلة الحرب، يتقعقع في الحديد قد بلغ مجهوده لا يعرف حيلة ولا يجد مهرباً قد أُدنف بالجراحات أو متشحطاً بدمه تحت السنابك والأرجل، يتمنى شربة من ماء أو نظرة إلى أهله وولده لا يقدر عليها وأنا في عافية من ذلك كله، فلك الحمد من مقتدر لا يغلب ومن ذي أناةٍ لا يعجل... إلهي وكم من عبد أمسى وأصبح في ظلمات البحار وعواصف الرياح والأهوال والأمواج، يتوقع الغرق والهلاك، لا يقدر على حيلة أو مبتلىً بصاعقة أو هدم أو حرق أو شَرقٍ أو خسف أو مسخ أو قذف، وأنا في عافية من ذلك كله، فلك الحمد يا رب من مقتدر لا يغلب وذي أناةٍ لا يعجل صل على محمد وآل محمد واجعلني لنعمائك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين»[1].

بلحاظ الاستشعار في هذه المواقف نستطيع أن نحس بأن العبد كان محقاً في قوله بأنّ «كثيراً من الفوادح أزيلت عن طريقي، وأنني الآن في خير وعافية»، فإنّه ليس بالهين بمكان، مواجهة الأمراض الفتاكة التي لها آثار وخيمة في الحياة الدنيا، وكلنا يعلم ما تأثير هذه الأمراض (عافانا اللّه وإياكم والمؤمنين والمؤمنات من هذه الأمراض)... وأتصوَّر نفسي كأنّي قابعٌ في سراديب السجون الحالكة، لا أحدَ يعلمُ بي إلّا اللّه تعالى، لا أرى أبي ولا أمي العزيزين، ولا أرى زوجتي ولا أولادي، ولا أرى إخواني ولا أخواتي، قد بقيت في هذه السجون المظلمة لسنين متمادية، ولا أعلم بأيّ أمر سوف أكون... وأتصوَّر نفسي تارةً أخرى كيف أنّني قد واجهتُ حرباً ضروساً، ولا ناصر لي، ولا معين، قد تكالبت عليّ الأعداء من كل جانب ليس لي مهرب منهم، وقد أثخنوني بالجراحات، وسالت مني الدماء الغزيرة، وأنا قابع تحت

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الجوشن الصغير، ص ١٤٧ – ١٤٨.

حوافر الخيول تطؤني بسنابكها وأرجلها، حيث لا شربة ماء ولا لذة طعام، وأنا أتمنى في ذلك قبل أنْ أن أُقتَلَ أن أرى أهلي وعشيرتي وأحبّائي؛ لكن لا مفرّ لي من ذلك وأنا في حرب ضروس... وتارةً ثالثةً أتصوَّرُ نفسي كأنّني في عرض البحار الشاسعة، وقد خيم عليها الظلام الحالك، وفي الأثناء قد هبّت رياح عاتية، وجاءت الأمواج والأهوال، إذ لا مفرّ من ذلك إلا إلى الموت المحتم... وأتصوَّر نفسي تارةً رابعةً كأنّني أمامَ حريقٍ هائجٍ لا مفرَّ منه أو أنني أشرب ماء، وقد شَرَقْتُ به في حلقي، أو خسف، أو مسخٍ، أو قذفٍ، وكل هذه الصور المهولة لم يَرَها العبد، ولذلك فهو يحمد اللّه على هذه النعمة التي خففت عنه مثل هذه البلاءات الثقيلة، والتي هي بحقّ ثقيلةٌ بمعنى الكلمة، نجّانا اللّه من هذه الرزايا المهولة والعظيمة بحق محمّد وآل محمّد.

الاعتراف بنعم اللّه - النجاة من السقوط في الهاوية

«وَكَمْ مِنْ عِثار وَقَيْتَهُ»

العثار: عثر: الرجل يعثر عثاراً وعُثُوراً: إذا سقط، ويُتجوز به فيمن يطلع على أمر غير طلبه. قال تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾[1] يقال: عثرت على كذا. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾[2] أي وقّفناهم عليهم من غير أن طلبوا[3].

والعثار: عثر: يعثُر عثراً وعثاراً وتعثراً: كبا؛ وأرى اللحياني حكى: عثر في ثوبه يعثر عثاراً وعثُر وأعثره وعثّره[4].

الوقاية: وقي: وقاه اللّه وقياً ووِقايةً وواقيةً: صانه[5].

والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. يقال: وقيت الشيء أقيه وقايةً ووقاءً[6].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢١.

(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٥٤٦ مادة «عثر».

(٤) لسان العرب، ج ٤، ص ٥٣٩ مادة «عثر».

(٥) لسان العرب، ج ١٥، ص ٤٠١ مادة «وقي».

(٦) مفردات الأصفهاني، ص ٨٨١ مادة «وقى».

فهم النص

في هذا المقطع من الدعاء المبارك يطرق العبدُ باباً من النعم الأخرى، بعد أن مرَّ على تلكم النعم الكثيرة التي ذكرها في السابق، وقد تناولناها بشيءٍ من الإيجاز في العناوين السابقة، وهذه التي بين الأيدي (محلّ البحث) هي النعمة التي يحتاج اليها العبد في حركته العملية في الواقع الخارجي.

حيث يمر العبد على كثير من التجارب الدنيوية، ووفق المنظورات الخلفية التي يحملها، فإنَّ العبدَ يصيب في النزر القليل من هذه التجارب، ويقع في متاهاتها في الكثير منها، بحيث يكون في قسم منها على شفا جُرُفٍ هارٍ.

وهو يعلم بأنَّ هذه التجارب قد وصلت الى طريق تكون فيه العثرات العميقة، التي لا مخرج منها بتاتاً، ولا يوجد ثمة ملجأ آخر يلتجأ اليه... إلّا أنّ العنايةَ الربانيّةَ لطالما كانت الساعد المحافظ على كيان العبد وصيانته من الوقوع في متاهات هذه الدنيا الزائفة.

نعم هناك أعمال مستوجبة للسقوط في الهاوية، حيث لا مجال للرجوع عنها، وذلك لأنها وصلت إلى حدٍّ لا يمكنه فيه التكفير عن هذه الزلّة أو الكبوة؛ لكن اللّه تعالى بفضله قد أنقذ هذا العبد من هذه الكبوات والاخطاء الفادحة، فهذا العبد يقول ـ وكم من مزال الأقدام ما تزل فيها قدمي وأكب على وجهي، وقيتني وأمسكتني عن الكبوة بفضلك ـ[1].

وجاء في صلاة جعفر الطيار هذا الدعاء الذي يبين الصفات الفاضلة التي يتحلى بها رب العالمين، حيث يشير الدعاء إلى أنّ قضية الستر على القبائح ومحاولة الإغضاء عن العثرات، هي من الأمور الجيدة، من أجل الحفاظ على نسيج هيبة الذات الشخصية، ومكانة المجتمع بين الناس، يقول الدعاء: «**يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من لم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر، يا عظيم العفو يا حسن التجاوز، يا واسع المغفرة يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كلِّ نجوى ومنتهى**

(١) شرح دعاء كميل، ص ١٠٨.

كلِّ شكوى، يا مقيل العثرات، يا كريم الصفح يا عظيم المنّ، يا مبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها»[١].

التعيير من العثرات

وترشد هذه الكلمات من الدعاء المبارك، الى قضية هي أقرب الينا من غيرها، وهي قضية التعيير التي أصبحت منتشرة في المجتمع بشكل مذهل، وهي تنمُّ عن أن الثقافة الدخيلة قد تجاوزت حد المفاهيم والنقاشات الجدلية عند المفكرين، لتصل النوبة الى ساحة عامة الناس، الذي لا حول لهم في جدليات ومعارك الثقافات، وهو يعبر لنا عن مدى الحال الذي وصل اليه المجتمع، من التردي في السلوك الأخلاقي.

وقد رفض الاسلام مثل هذا السلوك، وقد صنفه ضمن التمزيق للنسيج الاجتماعي، ومحاولة العثور على عثرات المؤمنين، والسعي لتفكيك الخلية الإيمانية، بواسطة بعض السلوكيات الدخيلة في هذه المجتمعات المؤمنة.

وقد جاءت الروايات تحث الفرد المؤمن، وتنصحه بالابتعاد عن مثل هذه السلوكيات السيئة، والتي هي تهدم كيان المجتمع، ضمن الركائز السلبية.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**من أنَّبَ مؤمناً أنَّبَهُ اللّه في الدنيا والآخرة**»[٢].

وقال الإمام عليه السلام أيضاً: «**أبعد ما يكون العبد من اللّه أن يكون الرجل يواخي الرجل وهو يحفظ عليه زلاته ليُعيِّرَهُ بها يوماً ما**»[٣].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُسلِمْ بقلبه لا تتّبعوا عثرات المسلمين، فإنّه من تتبَّعَ عثراتِ المسلمين تتبَّعَ اللّهُ عثرَتَهُ ومن تتبَّعَ اللّه عثرَتَه يفضحْهُ**»[٤].

---

(١) مفاتيح الجنان، ص ٧٨.
(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٦.
(٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٦ .
(٤) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٦.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: **«من عيّر مؤمناً بذنب لم يمت حتى يركبه»**[١] وقال الإمام الصادق عليه السلام: **«من لقي أخاه بما يؤنِّبُهُ أنَّبه اللّه في الدنيا والآخرة»**[٢].

عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قالا: **«أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يواخي الرّجل على الدّين فيحصي عليه عثراته وزلاّته ليُعنِّفَهُ بها يوماً ما»**[٣].

إن المراد بإحصاء العثرات كما قيل حفظها وضبطها في الخاطر أو الدفاتر ليعيّره بها يوماً من الأيام، ويفهم أن تمام قربه من الكفر بمجرد الإحصاء بهذا القصد، وإن لم يقع منه، وقيل: وجه قربه من الكفر أن ذلك منه باعتبار عدم استقرار إيمانه في قلبه، والمراد بالكفر كفر نعمة الأخوّة، فهو مع هذا القصد قريب من الكفر، ويتحقق الكفر بوقوع التعنيف، بل ينبغي للأخ في اللّه إذا عرف من أخيه عثرة أن ينظرَ أوّلاً إلى عثرات نفسه، ويطهّر نفسه منها، ثمّ ينصح أخاه بالرفق واللطف والشفقة ليترك تلك العثرات، وتكملَ الأخوّة والصداقة[٤].

الاعتراف بنعم الله - الكراهة المدفوعة عن العبد

«وَكَمْ مِنْ مَكْرُوه دَفَعْتَهُ»

الكراهة: كره: قيل: الكَرهُ والكُرهُ واحدٌ، نحو: الضَّعفُ والضُّعفُ، وقيل: الكَرهُ: المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه، والكُرهُ: ما يناله من ذاته وهو يعافُهُ، وذلك على ضربين: أحدهما: ما يُعافُ من حيث الطبع. والثاني: ما يعاف من حيث العقل أو الشرع، ولهذا يصحُّ أن يقول الإنسان في الشيء الواحد: إني أُريدهُ وأكرهه بمعنى أني أريده من حيث الطبع، وأكرهه من حيث العقل أو الشرع، أو أريده من حيث العقل أو الشرع، وأكرهه من حيث الطبع[٥].

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٧.
(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٧.
(٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٥.
(٤) أسرار العارفين، ص ٢١١.
(٥) مفردات الأصفهاني، ص ٧٠٧ مادة «كره».

والكراهة: كره- كَرهاً وكُرهاً وكراهة وكراهية ومكرهة ومكرُهة الشيء: ضد أحبه، فهو كاره والشيء مكروه، كَرُهَ - كَرَاهةً كراهية الأمر أو المنظر: قبُح، فهو كريه(١).

الدفع: الإزالة بقوة(٢).

والدفع: إذا عُدّيَ بـ(إلى) اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾(٣) وإذا عُدّيَ بعن اقتضى معنى الحماية، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾(٤) وقال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾(٥) وقوله: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾(٦) أي: حامٍ، والمدفّع: الذي يدفعه كل أحد، والدُفعة من المطر، والدُّفّاع من السيل(٧).

فهم النص

التقيّد بإرشادات وتعاليم الشريعة الإسلامية، يؤدّي بالعبد إلى الطريق المستقيم، والوصول به إلى سواء السبيل، وأمّا التزلّف نحو الطرق والسبل الشيطانية، فيؤدّي إلى طريق معوّج، والرؤية فيه غامضة، وغير سليم المسلك.

إنّ اتّخاذَ الطرقِ التي تؤدّي بالعبد إلى الضياع، يكون مُعرّضاً لعدة حوادث ماديّة ومعنويّة، فمشكلات أكلِ الموادِّ الغذائية على سبيل المثال، التي يغفل العبد عادةً عن وجه حلّها، لها مردود وخيم على حياة هذا العبد في المنظور البعيد، يقول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام لكميل بن زياد: «**يا كميل! القلب واللسان يقومان بالغذاء فإن لم يكن ذلك من وجهه وحِلّه لم يتقبل الله لك تسبيحاً**

(١) المنجد، ص ٦٨٢ مادة «كره».
(٢) لسان العرب، ج ٨، ص ٨٧ مادة «دفع».
(٣) سورة النساء، الآية: ٦ .
(٤) سورة الحج، الآية: ٣٨.
(٥) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٦) سورة المعارج، الآية: ٢- ٣.
(٧) مفردات الأصفهاني، ص ٣١٦ مادة «دفع».

ولا شكراً»(١) حيث الأثر الروحي قد تركز من خلال التعامل مع الخارج، وإذ لم تكن في أمر الحلال والحرام، أيُّ عنايةٍ تُذكَرُ، ستكون النتائج في الجانب الروحيّ للإنسان سلبيّة، ومن حيث عدم التقوى والورع ستكون المحصّلة أيضاً وخيمة، حتى على المستوى الماديّ، ولا يفهم أن التقوى والورع مطلوبة فقط في الحالات المعنوية فحسب، بل كذلك في الجنبات الماديّة، قال رسول اللّه ﷺ: «**يا أبا ذرّ! كن للعملِ بالتقوى أشدّ اهتماماً منك بالعمل، فإنّه لا يقلُّ عملٌ بالتقوى. وكيف يَقلُّ عملٌ يُتقبَّلُ؟! يقول اللّه عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾**(٢)**. يا أبا ذر! لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه أمن حلٍ ذلك أم من حرام؟ يا أبا ذر! من لم يُبالِ من أين اكتسب المال، لم يُبالِ اللّه عزَّ وجلَّ من أين أدخله النار**»(٣). وهذه إشارة واضحة إلى العقوبات التي سوف تكون وخيمة بقدر ما تكوّن العدد الكافي من المشكلات والمصائب الدنيوية، فالرواية تريد التحذير من الآثار السلبية التي سوف تؤثر على نفس الإنسان.

وفي هذا المقطع من الدعاء يتحرك العبد وفق أجندة قد تمَّ الكشف الجزئي عنها، وهي دفع المكروهات من خلال الإتيان بالأعمال التي صرّحت الشريعة الإسلامية بها.

ولعلّ المراد من دفع المكروه إيجاد الأسباب الدافعة له، والوسائل الموصلة إلى التحرّز منه كالأذكار الواردة في طلب الرزق، وأداء الدين، والأدعية الواردة لدفع الهم والكرب والخوف وسائر الرّقى والحروز والتعويذات لسائر العلل والأمراض، وخواصّ حمل القران وقراءته، خصوصاً بعض السور منه، وخواص حفظه، وخواص زيارة الأئمة عليهم السلام، خصوصاً سيد الشهداء أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، والاستشفاء بتربته المباركة، والتبرك بها، وتحنيك الأولاد بها، واستصحابها عند

(١) مفاسد الحرام في المال والطعام، ص ٢١٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٣) مفاسد الحرام في المال والطعام، ص ٢١٩- ٢٢٠.

الخوف، وعند المرض، حتى أنه ورد ثلاثة عشر حديثاً، وقد شوهد ذلك في جملة من المواقع، وجرّب في كثير من المهالك[١].

خواصّ تربة الإمام الحسين عليه السلام

رُوي أنّ امرأةً كانت تزني وتضع أولادها فتحرقهم بالنار خوفاً من أهلها ولم يعلم بها غير أمها، فلمّا ماتت دفنت فانكشف التراب عنها ولم تقبلها الأرض فنقلت من ذلك المكان إلى غيره فجرى لها ذلك فجاء أهلها إلى الصادق عليه السلام وحكوا له القصة فقال لأمها ما كانت تصنع هذه في حياتها من المعاصي فأخبرته بباطن أمرها فقال الصادق عليه السلام: «**إن الأرض لا تقبل هذه لأنها كانت تعذب خلق اللّه بعذاب اللّه، اجعلوا في قبرها من تربة الحسين** عليه السلام» ففعلوا ذلك بها فسترها اللّه تعالى[٢].

ويقول سماحة آية: اللّه الإمام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في تعليقته على كتاب سفينة النجاة لأخيه المرجع الأعظم في عصره الشيخ أحمد كاشف الغطاء:

ولعل السر في التزام الشيعة الامامية السجود على التربة الحسينية مضافاً إلى ما ورد في فضلها من الأخبار ومفادها أنها أسلم من حيث النظافة والنزاهة من السجود على سائر الأراضي وما يطرح عليها من الفرش والبواري والحصر الملوثة غالباً من الغبار والميكروبات الكامنة فيها، مضافاً إلى كل ذلك لعل من جملة الأغراض العالية والمقاصد السامية أن يتذكر المصلي حين يضع جبهته على تلك التربة تضحية ذلك الإمام نفسه وآل بيته والصفوة من أصحابه في سبيل العقيدة والمبدأ وتحطيم هياكل الجور والفساد والظلم والاستبداد، ولما كان السجود أعظم أركان الصلاة وفي الحديث (أقرب ما يكون العبد إلى ربه حال السجود) مناسب أن يتذكر بوضع جبهته على تلك التربة الزاكية أولئك الذين وضعوا أجسامهم عليها ضحايا للحق وارتفعت أرواحهم إلى الملأ الأعلى ليخشع ويخضع ويحتقر هذه الدنيا الزائفة وزخارفها

(١) أسرار العارفين، ص ٢١٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٤٥ ح ٣١.

الزائلة ولعل هذا هو المقصود من أن السجود عليها يخرق الحجب السبع كما في الخبر الآتي ذكره فيكون حينئذٍ في السجود سرُّ الصعود والعروج من التراب إلى رب الأرباب إلى غير ذلك من لطائف الحِكَم ودقائق الأسرار(١).

وعن معاوية بن عمار قال: كان لأبي عبد اللّه عليه السلام خريطة ديباج صفراء فيها تربة أبي عبد اللّه عليه السلام، فكان إذا حضرته الصلاة صبّه على سجادة وسجد عليه، ثم قال عليه السلام: «**إن السجود على تربة أبي عبد اللّه عليه السلام يخرق الحجب السبع**»(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**السجود على طين قبر الحسين عليه السلام ينوّر إلى الأرضين السبعة، ومن كانت معه سبحة من طين قبر الحسين عليه السلام كتب مسبّحاً وان لم يسبّح بها**»(٣).

وكان الإمام الصادق عليه السلام لا يسجد إلا على تراب من تربة الحسين عليه السلام تذللاً للّه واستكانة إليه(٤).

وعن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: «**إن فاطمة بنت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، كانت سبحتها من خيط صوف مفتل، معقود عليه عدد التكبيرات، وكانت عليها السلام تديرها بيدها تكبّر، وتسبّح، حتى قتل حمزة بن عبد المطلب فاستعملت تربته، وعملت التسابيح، فاستعملها الناس، فلما قتل الحسين عليه السلام، وعدل بالأمر إليه، فاستعملوا تربته، لما فيه من الفضل والمزية**»(٥).

الصدقة تدفع الكراهة

ومن جملة الموارد الدافعة للكراهة الصدقة، وقد وردت فيها أخبار كثيرة تحث فيها المؤمنين على مزاولة هذا العمل الصالح، حيث مردوداته إيجابية.

---

(١) مجلة الموسم العدد (١٣) المجلد الرابع سنة (١٩٩٢م – ١٤١٣هـ)، ص ٣٨ وهو موضوع لسماحة الشيخ قدس سره تحت عنوان «حقيقة التربة الحسينية».

(٢) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٣٦٦ باب ١٦ح ٣.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٣٦٥ – ٣٦٦ باب ١٦ح ١.

(٤) إرشاد القلوب، ج١، ص ١١٥.

(٥) مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ١٢– ١٣ باب ٩ أبواب ما يسجد عليه .

ومن جملة المكروهات المرض، حيث تشير الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى أنّ الصدقة أحدُ السبل لمعالجة الأمراض، عن معاذ بن مسلم بياع الهروي، قال: كنت عند أبي عبد اللّه عليه السلام فذكروا الوجع، فقال: «**داووا مرضاكم بالصدقة، وما على أحدكم أن يتصدّق بقوت يومه؟! إن ملك الموت يدفع إليه الصك بقبض روح العبد فيتصدق فيقال له: ردّ عليه الصك**»[١].

ومنها: أنّ المريض يتصدق بيده، بحيث لا يأمر غيره بإخراجها، وأنّ الصدقة تدفعُ البلاء.

فعن عبد اللّه بن سنان قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «**الصدقة باليد تقي ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعاً من أنواع البلاء، وتفك عن لِحيَي سبعين شيطاناً كلّهم يأمره: لا تفعل**»[٢].

ومنها فيما لو توقع، أنه سيقع في البلاء، من قبيل الأمراض، أو دخول السجون، أو أزمة مادية، أو ما شاكل ذلك من الحوادث التي تقع في اليوم والليلة.

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**مرّ يهودي- إلى أن قال: -فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن هذا اليهودي يعضّه أسود[٣] في قفاه فيقتله، قال: فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله، ثم لم يلبث أن انصرف، فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ضعه، فوضع الحطب فإذا أسود في جوف الحطب عاضّ على عود، فقال: يا يهودي، أيّ شيء عملت اليوم؟ فقال: ما عملت عملاً إلا حطبي هذا احتملته فجئت به كان معي كعكتان فأكلت واحدة وتصدّقت بواحدة على مسكين، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: بها دفع اللّه عنه، وقال: إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان**»[٤].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٣٧٥ باب ٣ استحباب الصدقة عن المريض.
(٢) وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٣٧٧ باب ٥ استحباب صدقة الإنسان بيده.
(٣) نوع من الحيات.
(٤) وسائل الشيعة، ج٩، ص ٣٨٧ باب ٩ استحباب الصدقة بعد توقع البلاء والخوف.

الاعتراف بنعم الله - الذكر الحسن بين الناس على العبد

«وَكَمْ مِنْ ثَناءٍ جَميلٍ لَسْتُ أَهْلاً لَهُ نَشَرْتَهُ»

الثناء: -بالمد-المدح والذكر الحسن، ويستعمل في الأغلب مع الجميل، وهو خلاف القبيح[١].

جميل: هو الشحم المذاب. قالت المرأة لابنتها: تجملي وتعففي أي: كلي الشحم واشربي العُفافَة وهي ما بقي في الضَّرع من اللبن[٢].

والجميل: الجمال: الحُسن الكثير، وذلك ضربان:

أحدهما: جمال يخص الإنسان في نفسه أو بدنه أو فعله.

والثاني: ما يوصل منه إلى غيره. وعلى هذا الوجه ما روي عنه ﷺ: «**إن اللّه جميل يحب الجمال**» تنبيهاً أنه منه تفيض الخيرات الكثيرة، فيحب من يختص بذلك[٣].

الأهل: أهل الرجل: مَن يجمعه وإياهم نسب أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعةٍ وبيت وبلد، وأهل الرجل في الأصل: مَن يجمعه وإياهم مسكن واحد، ثم تجوّز به فقيل: أهل الرّجل لمَن يجمعه وإياهم نسبٌ، وتُعورف في أسرة النبي عليه الصلاة والسلام مطلقاً إذا قيل: أهل البيت لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٤]، وعُبر بأهل الرجل عن امرأته[٥].

النشر: نَشَرَ الثوب، والصحيفة، والسحاب، والنعمة، والحديث: بسطها[٦].

---

(١) شرح دعاء كميل، ص ١٠٨.

(٢) مختار الصحاح، ص ٤٧ مادة «ج م ل».

(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٢٠٢ مادة «جمل».

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٥) مفردات الأصفهاني، ص ٩٦ مادة «أهل».

(٦) مفردات الأصفهاني، ص ٨٠٥ مادة «نشر».

فهم النص

استخدم القرآن الكريم مادة المدح والثناء، في عدة موارد من الآيات من الواقع العملي في الحياة، مشيراً بذلك إلى أهميّة هذا المورد، وداعياً إلى التحفيز على مثلها، في الجدّ والاجتهاد، من أجل الرقيّ والوصول الى مراتب عليا عند اللّه تعالى، فمن جملة الموارد:

المورد الأول: العلم، حيث أشار الكثير من الآيات في القرآن الكريم، إلى عظمة العلم والعالم، فمنها قول اللّه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] في هذه الآيات الكريمة إشارة إلى طلب العلم، ومن أنه مقدس، حيث تنكشف حقائق الأمور بالعلم، وليس من خلال الجهل، ومن هنا يصبح مقدساً.

وأما الإشارة إلى عظمة العالم، فقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3]وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[4] وقوله جل جلاله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5]وقوله عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[7].

المورد الثاني: الأنبياء: قال اللّه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن

(١) سورة اقرأ، الآية: ١ – ٥ .
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٤) سورة مريم، الآية: ١٢.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٩.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٧) سورة المجادلة، الآية: ١١.

ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[٢] وقال اللّه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] ويستفاد من هذه الآيات، أن اللّه تبارك وتعالى يشير إلى الامتيازات والخصائص التي تتمتع بها الأنبياء عليهم السلام، وذلك من خلال ذكر صفاتهم وحالاتهم والمواهب التي أعطاهم اللّه إيّاها[٤].

المورد الثالث: ذكر رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، حيث خلق النبي كان هو القدوة والأسوة في الاهتداء إلى المعاملة والخلق الحسن، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٥] هذا وقد أشارت آيات كثيرة إلى خُلُقِ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، منها قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٦] وقوله عز وجل: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[٧] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٨] وقال اللّه تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[٩] تلك الأخلاق التي لا نظير لها، ويحار العقل في سمّوها وعظمتها من صفاء لا يوصف، ولطف منقطع النظير، وصبر واستقامة وتحمّل لا مثيل لها، وتجسيد لمبادئ الخير حيث يبدأ بنفسه أولاً فيما يدعو إليه، ثم يطلب من الناس العمل بما دعا إليه والالتزام به. عندما دعوت-يا رسول اللّه-الناس لعبادة اللّه، فقد كنت أعبد الناس جميعاً، وإذ نهيتهم عن سوء أو منكر فانك الممتنع عنه قبل الجميع، تقابل الأذى بالنصح،

(١) سورة مريم، الآية: ٥٦– ٥٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٧٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٤) راجع تفسير الأمثل، ج ٩، ص ٣٠٤.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٦) سورة القلم، الآية: ٤.
(٧) سورة النمل، الآية: ٧٩.
(٨) سورة الزخرف، الآية: ٤٣.
(٩) سورة النجم، الآية: ١– ١٠.

والإساءة بالصفح، والتضرع إلى اللّه بهدايتهم، وهم يؤلمون بدنك الطاهر رمياً بالحجارة، واستهزاءً بالرسالة، وتقابل وضعهم للرماد الحارّ على رأسك الشريف بدعائك لهم بالرشد. نعم لقد كنت مركزاً للحب ومنبعاً للعطف ومنهلاً للرحمة، فما أعظم أخلاقك؟[١]

وبهذا استحق رسول اللّه ﷺ المدح والثناء من اللّه تعالى في كتابه المجيد، وذلك من أجل أن يكون مشعل هداية وقدوة وأسوة للآخرين الذين يستلهمون العذب الأخلاقي من هذه الدوحة النبوية المقدسة.

المورد الرابع: المتّقون، وتأتي التقوى في المرتبة الأولى عند اللّه تعالى، وهي علامة مؤكدة على الرضا الإلهيّ عنهم، وقد أفرد القرآن للمتقين قسماً عظيماً في بيان أهميّة هؤلاء النفر، الذين لهم المقام العالي والمرتبة الراقية عند اللّه تعالى، قال اللّه تعالى: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٢] يستفاد من هذه الآيات الشريفة، أن القرآن يجعل علامة الهداية للمتقين، ومن هم هؤلاء المتقين؟... يشير القرآن إلى أنّ المتقين هم من يؤمنون باللّه تعالى وبملائكته وأنبيائه، ويسعون إلى إقامة الصلاة، وأداء ما عليهم من النفقات من الزكاة والخمس، وكل مستحقات المؤمنين، وقال تعالى أيضاً: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[٣] تذكر الآية: الصفات التي يتحلّى بها المتقون، وقال تبارك وتعالى:

(١) تفسير الأمثل، ج ١٨، ص ٣٢٧- ٣٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١- ٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[3] وقال اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4] وقال عز وجل: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5] قال جلت عظمته: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[6].

هذه الموارد وغيرها الكثير مذكورٌ في القرآن الكريم، ويمجد اللّه تعالى عباده المكرمين. فالحصيلة، أن اللّه تعالى قد استخدم أسلوب المدح والثناء على قسم من عباده، ومكن بعضهم في أماكن اجتماعية عليا، وقد جاء في دعاء الندبة المروي عن صاحب العصر والزمان الحجة المنتظر عليه السلام وعجل اللّه تعالى فرجه الشريف: «... **اللهم لك الحمد على ما جرى به قضاؤُك في أوليائك الذين استخلصتهم لنفسك ودينك إذ اخترت لهم جزيل ما عندك من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها فشرطوا لك ذلك وعلمت منهم الوفاء به فقبلتهم وقربتهم وقدّمت لهم الذكر العليّ والثناء الجليّ**...»[7].

وحيث الثناء المنتشر في أوساط الناس والمجتمع على أن العبد، يمتلك رصيداً قوياً في السلوك والسير والأخلاق والوعي التربوي، فان العبد يبدي استفهامه حول هذا الثناء والمدح بين الأفراد والجماعات، على أنه إنسانٌ مؤمن ذو أخلاق طيبة، ناهيك عن المكانة الاجتماعية التي وفرها اللّه له، وفي كل الأحوال، فانه يرى نفسه مذنباً ومقصراً، ولا يستطيع أداء عُشر ما هو منتشر من النعم الجزيلة

(١) سورة الحشر، الآية: ٩ وسورة التغابن: الآية: ١٦.
(٢) سورة يونس، الآية: ٦٢– ٣٦.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٩.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٤.
(٦) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٧) مفاتيح الجنان، ص ٦٠٧– ٦٠٨.

في المجتمع وما بين الناس، حيث يتصور العبد نفسه، وقد تراكمت عليها سحب الذنوب وسودت وجهه الخطايا فلا يرى لها جميلاً بين الناس، وأينما حل تعتريه المضايقات النفسية، ويرى أن نتائج أعماله تستوجب أن يحتقره الناس لأعماله القبيحة. ولكن على العكس يمن اللّه عليه بأن يحببه في أعين الناس فتتناوله الألسن بالذكر الحسن، والثناء الجميل، والمدح مع أنه لا يرى لنفسه مثل هذا الجميل واللطف منه تعالى، ولكنها منة أخرى تضاف إلى بقية النعم التي وفرها الخالق لعباده لتكون الحجة البالغة للّه دائماً[١].

كراهة طلب التسلط

قال اللّه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] وتشير هذه الآية: إلى نقطة مهمة، وجديرة بالالتفات، وهي، أن القيادة والسلطة ينبغي أن تكون في يد من هو أهل لقيادتها، وذلك لكونه أعلم بحقائق سياستها، ومفاصل معرفتها، أما غير ذلك فيكون الفساد، وانتشار المفاهيم الباطلة (التي فيها مغالطة)، ومحاولة طمس الحقائق الدينية، لكي تخلوَ له الساحة، ويتصدى للمعارضين لدولته.

وفي الحقيقة إن ما يكون سبباً لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخرة، هو هذان الأمران: «الرغبة في العلو» أي: الاستكبار و«الفساد في الأرض» وهما الذنوب... لأن كل ما نهى اللّه عنه فهو على خلاف نظام خلق الإنسان وتكامل وجوده حتماً، فارتكاب ما نهى اللّه عنه يدمر نظام حياة الإنسان، لذا فهو أساس الفساد في الأرض! حتى مسألة الاستعلاء -نفسها- هي أيضاً واحدة من مصاديق الفساد في الأرض، إلا أن أهميته القصوى دعت إلى أن يذكر بالخصوص من بين جميع المصاديق في الأرض[٣].

وقد وردت روايات تحاول أن تحذر من السلطة، والتمسك بها، والجدير بالذكر

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ١٩٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٣) تفسير الأمثل، ج ١٢، ص ٢٠١.

أن الرئاسة والسلطة ليست فقط هي رئاسة الدولة أو بلاد ما؛ وإنّما تندرج تحتها رئاسات المآتم والهيئات التعليمية، والتوظيفية، ورئاسة الرّجل في بيته بحيث يأمر وينهي، ويعتبر نفسه متعالياً على زوجته، وبالذات من لديه شهادات عليا، أو لديه مكانة اجتماعية، طبعاً نحن نقصد ذاك الذين يتعالى على الناس بهذه المناصب، التي وهبها اللّه تعالى إيّاه. وأمّا ذلك الفرد الذي يتحلّى بالخُلق والسير والسلوك نحو اللّه تعالى، فإنّه يكون من اللائق أن يتقلَّد هذه المناصب العليّا؛ لأنّه سوف تنتشر المعرفة والمفاهيم التوعوية في عهده، فالتعبير بالرئاسة تندرج تحته كلُّ هذه التفاصيل المتقدمة، من الروايات الواردة في ذلك.

عن معمر بن خلاد، عن أبي الحسن عليه السلام أنه ذكر رجلاً فقال: إنّه يحب الرئاسة، فقال: «**ما ذئبان ضاريان في غنم قد تفرق رعاؤها بأضر في دين المسلم من الرئاسة**»[1].

وقال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**من طلب الرئاسة هلك**»[2].

وعن عبد اللّه بن مسكان قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «**إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فو اللّه ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك**»[3].

وعن جويرية بن مسهر قال: اشتددت خلف أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «**يا جويرية انه لم يهلك هؤلاء الحمقى إلّا بخفق النعال خلفهم**»[4].

وقال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**ملعون من ترأس، ملعون من هَمَّ بها، ملعون من حدّث نفسه بها**»[5].

وعن أبي مياح، عن أبيه قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام: يقول: «**من أرادَ الرئاسة هلك**»[6].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٥٠ باب ٥٠ من أبواب جهاد النفس.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٥٠ باب ٥٠ من أبواب جهاد النفس.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٥٠ - ٣٥١ باب ٥٠ من أبواب جهاد النفس.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٥١ باب ٥٠ من أبواب جهاد النفس.
(٥) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٥١ باب ٥٠ من أبواب جهاد النفس.
(٦) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٥١ باب ٥٠ من أبواب جهاد النفس.

وعن أبي الربيع الشامي، عن أبي جعفر عليه السلام قال لي: «**يا أبا الربيع لا تطلبن الرئاسة ولا تكن ذنباً، ولا تأكل الناس بنا فيُفقِرَكَ اللّه...**»[١].

وعن محمد بن مسام قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «**أترى لا أعرف خياركم من شراركم؟ بلى واللّه ان شراركم من أحب أن يوطأ عقبه انه لا بد من كذاب أو عاجز الرأي**»[٢].

عن أبي جعفر عليه السلام: «**أمّا قولك: إن قومي كان لهم عريف فهلك فأرادوا أن يعرفوني عليهم، فإنْ كنت تكره الجنة وتبغضها فتعرف عليهم، يأخذ سلطان جائر مسلماً فيسفك دمه فتشرك في دمه ولعلك لا تنال من دنياهم شيئاً**»[٣].

عظم الفاجعة وسوء الحال

«اَللّهُمَّ عَظُمَ بَلائي وَاَفْرَطَ بي سُوءُ حالي»

الفرط: الفارِطُ: المتقدم السابق، فرط يفرط فروطاً[٤].

والفرط: فَرَطَ: إذا تقدم تقدماً بالقصد يفرُطُ، ومنه: الفارط إلى الماء، أي: المتقدم لإصلاح الدلو، يقال: فارطٌ وفَرَطٌ، ومنه قوله عليه السلام: «**أنا فَرَطُكُمْ على الحوض**» وقيل في الولد الصغير إذا مات: «اللهم اجعله لنا فَرَطاً» وقوله: ﴿أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾[٥] أي: يتقدّمَ، وفَرَسٌ فُرُطٌ: يسبق الخيل، والإفراط: أن يسرف في التقدم، والتفريط أن يقصّر في الفَرَطِ، يقال: ما فرَّطْتُ في كذا. أي: ما قصَّرْتُ. قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٦] وقال: ﴿مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[٧] وقال: ﴿مَا

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٥١ باب ٥٠ من أبواب جهاد النفس.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٥١ - ٣٥٢باب ٥٠ من أبواب جهاد النفس.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٥٢ باب ٥٠ من أبواب جهاد النفس.

(٤) لسان العرب، ج ٧، ص ٣٦٦ مادة «فرط».

(٥) سورة طه، الآية: ٤٥.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٧) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾[١]. وأفرطْتُ القِربَة: ملأتها ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[٢] أي: إسرافاً وتضييعاً[٣].

السوء: كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية، والأخروية، ومن الأحوال النفسية، والبدنية، والخارجية، من فوات مالٍ وجاهٍ وفقد حميم، وقوله: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾[٤] أي: من غير آفة بها، وفُسِّرَ بالبرص، وذلكٌ بعض الآفات التي تعرض لليد[٥].

الحال: حول: أصل الحول تغيُّرُ الشيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التغيُّر قيل: حال الشيء يحول حؤولاً، واستحال: تهيّأ لأن يحول، وباعتبار الانفصال قيل: حال بيني وبينك كذا[٦].

فهم النص

أصبح العبد أكثرَ إدراكاً لفداحةِ الجريمةِ التي كان يرتكبها، وسوءِ المنهج الذي سار عليه، وهو يعوم في بحر الذنوب والمعاصي؛ ولذلك يصرح هنا في هذه الفقرة من الدعاء المبارك، بأنَّ البلاء أصبح عظيماً عليه، وأنّ الحالة المعنوية والمادية أصبحت متدهورة بسبب تلك الأعمال، والتي خلّفت ورائها الكثير من المآسي والفجائع العظيمة.

وفي هذا المقطع دلالات على وصول العبد إلى الإحساس بعمق الفاجعة التي يعيشها؛ فهو قد أصبح أسير ذنوبه وصريع خطيئته وقد أدرك أنه لا نجاة مما هو فيه إلا باللجوء إلى القادر الحكيم والعالم الطبيب الذي سيشفيه مما يعانيه من انشداد إلى الأرض ومن كل ما يثقله ويقعد به عن التسامي والسير إلى المحبوب[٧].

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٣) مفردات الأصفهاني، ص ٦٣١ - ٦٣٢ مادة «فرط».
(٤) سورة طه، الآية: ٢٢.
(٥) مفردات الأصفهاني، ص ٤٤١ مادة «سوأ».
(٦) مفردات الأصفهاني، ص ٢٦٦ مادة «حـول».
(٧) رحلة في الآفاق والأعماق، ص٢٣٤.

ولعل من الحالات التي أدركها وهو يدعو اللّه تعالى، أن هذه الذنوب قد أخرجته من ساحة اللّه تعالى، ووقع في حضيرة الشيطان، واكتسب سوء الخلق وفظاعة المعاملة مع الآخرين، الأمر الذي هيّأ مبرِّرَ الرفض من الساحة المقدسة الالهية، وتجنُّبَ الناس له بسبب سوء المعاملة.

وسوء الخلق من الأخلاق الرذيلة التي هي من أخطر الأمراض وأشدّ فتكّاً بروح الإنسان وهي من أشدّ الحجب الظلمانية كثافةً؛ لأن سوء الأخلاق يمنع من وصول أشعة الفيض وكسب السعادة وتحقيق رضا اللّه ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[١]. وهذا تأكيد إلهيّ على تزكية النفس من الصفات الرذيلة وتجميلها بالصفات الحسنة حيث يتوقف على ذلك مصير الإنسان[٢].

سوء الخلق

إن منشأ سوء الخلق، هو عدم وجود الغاية والهدف من منظور مستقبلي (استراتيجي)، بحيث يقع سوء الخلق نتيجة عدم التوازن في الحالات النفسية، وعدم السيطرة عليها في حالات كثيرة، ولذلك لا ترى لسيّئ الخُلُق من صديق يعاشره، حتى أقرب الناس إليه يحاول أن ينفر منه، وهو زوجته، لما يحمل من فظاعة الخلق.

ومن هنا يكون لزاماً، على الداعي والمبلغ، أن يتسلح بمنطق الهدوء، والخلق الحسن، وأن يتأقلم بالطباع الإسلامية، الأمر الذي سوف يمهد الطريق إلى هداية الآخرين-وعدم الابتعاد عن المبلّغ والداعي إلى الصراط المستقيم.

قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣] إن هذه الآية: إشارة صريحة إلى إحدى أهم الصفات التي يجب توفرها في أية قيادة، ألا وهي العفو واللين تجاه المتخلّفين (المخالفين) التائبين، والعصاة النادمين، والمتمردين

(١) سورة المطففين، الآية: ١٥.
(٢) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢٣٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

العائدين، ومن البديهي أن الذي يتصدى للقيادة لو تخلّى عن هذه الخصلة الهامّة، وافتقر إلى السماحة، وافتقد صفة اللين، وعامل من حوله بالخشونة والعنف والفظاظة فسرعان ما يواجه الهزيمة، وسرعان ما تصاب مشاريعه وبرامجه بنكسات ماحقة، وتبدد جهوده، وتذهب مساعيه أدراج الرياح، إذ يتفرق الناس من حوله، فلا يمكنه القيام بمهام القيادة ومسؤولياتها الجسيمة، ولهذا قال الإمام أمير المؤمنين مشيراً إلى هذه الخصلة القيادية الحساسة «**آلة الرياسة سعة الصدر**»[١].

ومن هذا المنطلق وضع الإسلام التحذيرات من العواقب الناتجة، من جرّاء سوء الخلق، والمعاملة، مع الآخرين، وذلك لأن التقوّم السلوكي خاضع لكيفية التعامل مع الأفراد من الناس؛ لأن قضية الدعوة إلى اللّه تعالى، تكون في أغلب بدئها مرتبطة بحسن المعاملة، والخلق الحسن، والذي في مجمله يحمل دلالاتٍ كبيرةً في قلب الطرف الآخر، ومن ثمَّ يركّزُ الإسلام على منطلق الإرشاد إلى التجنّب والابتعاد عن سوء الخلق؛ لأنه سيهدم الكيان الذي بني في لحظة، قال الإمام أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام: «**إن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل**»[٢] ونلاحظ أن الإمام اعتبر النتيجةَ حتميّةً في الواقع الخارجي، حيث بيَّن مدى المفسدة التي سوف تؤول إليها تلك المشاريع التي يقوم عليها أفراد يتّصفون بالأخلاق سيّئة الصيت، وهذا بالنتيجة سيقوم على تدمير كل الجهود المبذولة في رفعة أي مشروع التي تخدم المجتمعات البشرية، بكل طوائفها وتوجهاتها.

وصاحب الخلق السيئ لديه مشكلة عويصة، لا يمكنه التملص منها، وهي أنه لا مجال له في التوفيق إلى التوبة؛ لأنه كلما خرج من ذنب وقع في آخر.

قال الإمام أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أبى اللّه عز وجل لصاحب الخلق السيئ بالتوبة**، قيل: وكيف ذاك يا رسول اللّه؟ قال: **لأنه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه**»[٣].

---

(١) تفسير الأمثل، ج ٢، ص ٤٤٧- ٤٤٨.

(٢) أصول الكافي، ج٢ ص٣٢٤.

(٣) أصول الكافي، ج٢ ص٣٢٤ .

ونورد هنا قسماً من الروايات الدالة على سوء الخلق، منها:

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية: «**إيّاك والعجبَ وسوءَ الخُلُق وقلّةَ الصبر، فإنّه لا يستقيمُ لك على هذه الخصال الثلاثة صاحب، ولا يزال لك عليها من النَاس مجانب، وألزم نفسك التودد**»(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام لـ سفيان الثوري: «**يا سفيان لا مروةَ لكذوب، ولا أخَ لملول، ولا راحةَ لحسود، ولا سؤددَ لسيئِ الخُلُق**»(٢).

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أُتِيَ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقيل له: إن سعد بن معاذ قد مات، فقام رسول اللّه وأصحابه، فحمل فأمر بغسل سعد وهو قائم على عضادة الباب، فلما أن حنط وكفن وحمل على سريره، تبعه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، بلا حذاء، ولا رداء، ثم كان يأخذ يمنة السرير مرّةً، ويسرة السرير مرّةً، حتى انتهى به إلى القبر، فنزل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم حتى لحده وسوى عليه اللبن، وجعل يقول: «**ناولني حجراً، وناولني تراباً رطباً**»، يسد به بين اللبن. فلما فرغ، وحثا التراب عليه، وسوّى قبره، قال رسول للّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إني لأعلم أنه سيبلى ويصل إليه البلى، ولكن اللّه عزّ وجلّ يحب عبداً إذا عمل عملاً فأحكمه**»، فلما أن سوّى التربة عليه، قالت أم سعد من جانب: هنيئاً لك الجنة، فقال رسول اللّه يا أم سعد: «**مه لا تجزمي على ربك فإنّ سعداً قد أصابته ضمّة**». قال: فرجع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ورجع الناس، فقالوا: يا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لقد رأيناك صنعت على سعد ما لم تصنعه على أحد؛ إنّك تبعت جنازته بلا حذاء ولا رداء، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الملائكة، كانت بلا حذاء ولا رداء، فتأسيت بها**»، فقالوا: وكيف تأخذ يمنة السرير مرة ويسرة السرير مرة؟!، قال: «**كانت يدي في يد جبريل آخذ حيث ما أخذ**»، قالوا: أمرت بغسله وصليت على جنازته، ولحدته، ثم قلت: إن سعداً أصابته ضمة، فقال: «**نعم، إنّه كان في خُلُقِهِ مع أهله سوء**»(٣).

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٩٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٩٧ .

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٩٨- ٢٩٩ .

العمل المقيّد والقصير

«وَقَصُرَتْ (قَصَّرَتْ) بي أَعْمالي وَقَعَدَتْ بي أَغْلالي»

القِصَرُ: خلافُ الطول، وهما من الأسماء المتضايفة التي تُعتبرُ بغيرها، وقَصَرْتُ كذا: جعلتُهُ قصيراً، والتقصير: اسمٌ للتضجيع، وقَصَرْتُ كذا: ضَمَمْتُ بعضَهُ إلى بعض، ومنه سُمّيَ القَصْرُ، وجمعُهُ: قُصورٌ[1].

العمل: كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل، لأن الفعل ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعمل قلّما ينسب إلى ذلك... والعملُ يُستعمل في الأعمال الصالحة والسيئة[2].

القعود: يقابل به القيام، والقَعدة للمرّة، والقِعدة للحال التي يكون عليها القاعد، والقُعُودُ قد يكون جمع قاعِدٍ[3].

الأغلال: الغلل أصله: تذرع الشيء وتوسطه، ومنه الغلل للماء الجاري بين الشجر، وقد يقال له: الغيل، وانغلَّ فيما بين الشجر: دخل فيه، فالغُلُّ مختص بما يُقيَّدُ به فيجعل الأعضاء وسطه، وجمعه أغلال، وغُلَّ فلانٌ به: قُيِّدَ به[4].

والأغلال: جمع غُلّ وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه[5].

فهم النص

ينظر العبد نظرة إجمالية إلى طبيعة الأعمال السابقة، فيجد أنّها لا تؤهّلُهُ لأن يرتقي إلى مراتب عليا عند اللّه تعالى، ولذا فإنّه يقرّ بأنّ هذه الأعمال، غير مجدية، ولا موصلة إلى رضا اللّه تعالى، حيث العبد يجد من «نفسه التقصير إزاء شكر نعم

(١) مفردات الأصفهاني، ص ٦٧٢ - ٦٧٣.
(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٥٨٧.
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٧٨- ٦٧٩.
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦١٠ مادة «غل».
(٥) شرح دعاء كميل، ص ١٠٩.

اللّه تعالى، ولذلك لا يجد نفسه واصلاً إلى درك مرضاته تعالى ومحققاً للغاية المشهودة من امتثال أوامر اللّه، وترك ما هو منهيّ عنه»[١].

وهذه ركيزة ينبغي أن ترافق المؤمن طيلة أمد حياته، وذلك لأنه مهما كان اعتقاد المؤمن بأنّ عمله كان كاملاً، فإنّه يصاب بالغرور، ولا يُحضّر للأعمال اللاحقة الآتية، وكل هذا نتيجة لكماليّة العمل السابق بحسب اعتقاده، وهذا في غاية السلبية بمكان، ولن يكون للعمل أي إقبال، ولذا يحاول الإمام زين العابدين عليه السلام، أن يثبت فينا هذه المطالب الأخلاقية في مجال الإتيان بالأعمال الصالحة، والدعوة إلى الاعتراف بالتقصير في العمل، وأنه ليس للإنسان الإتيان بالأعمال الكمالية إلّا بتوفيق من اللّه، يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**اللهم إن أحداً لا يبلغ من شكرك غايةً إلّا حصل عليه من إحسانك ما يلزمه شكراً، ولا يبلغ مبلغاً من طاعتك وان اجتهد إلا كان مقصراً دون استحقاقك بفضلك، فأشكَرُ عبادِكَ عاجزٌ عن شكرك وأعبدُهُم مُقصِّرٌ عن طاعتك**»[٢] فالتوفيق للشكر نعمة طارئة تستدعي الشكر عليها، ومعنى هذا أنه يجب الشكر على كلِّ شكر إلى ما لا نهاية، وأيضاً معنى هذا أن من نطق بكلمة الشكر، ينبغي أن يكررها حتى الممات، وهنا يكمن سرُّ العجز عن شكره تعالى... فلو حاول العبد، واجتهد مدى الأعصار -إن عاشها- أن يؤدّيَ شكرَ نعمةٍ واحدةٍ من نِعَمِهِ تعالى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فكيف إذا تجاوزت النعم حد الإحصاء؟... حيث... بمقدور العبد أن يحسن لمن ابتدأه بالإحسان بقدر ما أحسن، وزيادةً، إن يكُ المحسِن هو المعبود، والخالق فمحال، لأنه تعالى المصدر لكل فضل، وإحسان، والغني بالذات عن كل شيء، وإليه يفتقر كل شيء[٣].

وينظر العبد إلى صورة أخرى من صور التقصير، وهو أنه لو كان في معصية اللّه تعالى غارقاً، وهو الآن يحاول أن يُكفِّرَ عن معاصيه فما هو العمل حينئذٍ؟ يأتي

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ١٩٨.

(٢) الصحيفة السجادية - دعاؤه في الشكر، (٣٧) ص١٦٢ .

(٣) في ظلال الصحيفة السجادية، ص ٤٣٥- ٤٣٦.

الإمام زين العابدين عليه السلام مرّة أخرى ويحاول أن يضع لنا هذا المشهد، الذي يحمل الدلالات التعبدية تجاه رب العالمين، ويصوغ هذا الخطاب الكاسر للقلوب من العبد.

يقول الإمام عليه السلام: «**يا إلهي لو بكيت إليك حتى تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتشر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياءً منك ما استوجبت بذلك محو سيئة من سيئاتي**»[1] وينبغي أن يرتكز هذا المفهوم لدينا بشكل تام، وهو أن العبد مهما كان عمله فيه صلاح وخير، فانه مع ذلك يبقى دون المطلوب، حيث لو كان من عمل العبد هو البكاء الشديد الذي يفقد البصر معه، وقد بالغ العبد في الانتحاب والانكسار، حتى بحَّ الصوت وخمدت الأنفاس، وقد اشتغل العبد بعد ذلك، بقيام الليل دون انقطاع ولا ملل، بحيث تورمت القدمان ونحل الجسد، وذاب لحم الجسم، من قيام الليل وأداء الحقوق الشرعية، من واجبات ومندوبات، ودأب في صلاته على أن يُحييها بكيفية تكون في غاية الرقيّ والمطلوب، وهو طول الركوع والسجود، حتى بان أثرهما على كيانه الروحي والجسدي، ليحصل على قسيمة الرضا والغفران، نجد الدعاء يرسم لنا من روائعه البلاغية مشهداً لذلك، وهو أكلُ تراب الأرض الذي يدل على أن العبد لا يحمل صفة التكبر والتبختر في الأرض وغير ذلك من الصفات البلاغية المذكورة في الدعاء المبارك للإمام زين العابدين عليه السلام، إلّا أنه، مع كل هذه الصور المفجعة والمهولة في الفعل، لم يتقدّم هذا العبدُ أنملةً واحدةً لأداءِ شكرِ نعمةٍ واحدةٍ قد أنعمها اللّه تعالى.

ولعلَّ ذلك هو نتيجة الذنوب التي يحملها على ظهره، حيث أنها كبلت يديه وقيّدته بالأغلال الحديدية، ولم تَدَعْ له مجالاً لأن ينطلق بهذه الروح في هذا الفضاء الواسع من رحمة اللّه تعالى، حيث هذه الأطواق الحديدية، والتي يُقيَّدُ بها المجرم

(١) الصحيفة السجادية دعاؤه في الاستقالة، (١٦)، ص ٨٦.

أو الأسير حيث تُجمَعُ يده إلى عنقه ويربطهما الطوق الحديدي. وهذه الفقرة من الدعاء تصور لنا حالة العبد، والذلة تُحيطُ به من جميع جهاته بعد تصويره لحالته بأنّ أعماله القبيحة قد قيّدته كما تقيد الأطواق الحديدية الأسير، وتُذلُّه، وعلى الأخص عند الوقوف بين يَدَي آسره. إن هذه الأغلال التي تحبس العبد، وتقعده إنما تقعده عن الالتفات إلى الأمور الخيرة، والأعمال الصالحة، والاتجاه إلى اللّه تعالى، وحينئذٍ فيبعد عن كل ذلك لسوء سريرته[(١)].

و... يقول أهل البصيرة في تفسير: وقعدت بي أغلالي: لعل المراد من الأغلال الذنوب وبخاصة الكبائر لأنها تشدّ الإنسان إلى الأرض وتقعد به عن القيام بالطاعات والعبادة وتقذف به في هاوية الحرمان من الفيض الإلهي. جاء في الأثر أن أحدهم شكا إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يؤدي الفريضة والنافلة ثم سُلِبَ التوفيق إلى ذلك منه! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنتَ رجلٌ قد قيدتك ذنوبك**» ولعل المراد من الأغلال تلك الروابط التي تشدّ الإنسان إلى الحياة بكل ما فيها من كثافة وطين وأدران؛ لأن كل ذلك يعيق من حركة الإنسان صوب الكمال المنشود. ولعل المراد من الأغلال هي الملاهي التي تستغفل الإنسان عن مهمته الحقيقية، فإذا هو مستغرق فيها منصرف إليها مُعرِضٌ عمّا أريد له من تحصيل الكمال. وقد جاء عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «**من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه**»[(٢)].

العمل الصالح.

يطرح القرآن الكريم العمل الصالح، على أنه من المفاهيم الواقعية والحقيقية، والتي لها تأثير على صاحب العمل، سواء أكان صالحاً أم ذا مفسدة، آنية أو مستقبلية، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[(٣)] حيث تشير هذه الآية: الى أن العمل، هو بمجمله يستوعب العمل الصالح، والعمل الفاسد، إلّا أنّ التأثير الواقعي يتمركز حول صاحب العمل، فحيثما كان

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ١٩٨- ١٩٩ .

(٢) رحلة الآفاق والأعماق شرح دعاء كميل، ص ٢٣٩- ٢٤٠.

(٣) سورة الزلزلة، الآية: ٧-٨.

العمل صالحاً، فان النتائج تكون ذات مفعول جيد، وله مردودات ايجابية على حياة الفرد من الإنسان، وحيثما كان العمل له مفاسد واقعية، فان المردودات تكون سلبية، ولها تأثير حتمي في الواقع العملي في الدنيا، والثمرة السلبيّة لا تظهرُ في الآخرةِ فحسب، وإنّما لها ركائز عملية في هذه الدنيا.

«وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة، فهناك من هو في نار جهنم وهو في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[١]. فبقرينة «إن» و«اللام الداخلة على الخبر» اللتين تفيدان التوكيد، نفهم أنّ القرآن الكريم يريد القول بأنّ نار جهنم موجودة ومحيطة بالكافرين الآن، لا أنّها سوف تحيط بهم، وإلا لقالت الآية: و«إن جهنم ستحيط بالكافرين».

ومثل ذاك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارًا﴾[٢]، أي: أنّهم يأكلون النار الآن، لا أنهم سيأكلونها فيما بعد، وذلك بقرينة استعمال «إنما» وعدم استعمال «السين» بدلها أيضاً.

ولرب قائل يقول: فلماذا لا نحس بهذه النار الآن؟ والجواب: أنّ الشواغل موجودةٌ في الحياة الدنيا عن الالتفات إلى هذه الحقيقة وأنّه سيفهم فيما بعد أنه كان في النار حقاً، لا أنه سوف يدخلها آنذاك. لذا نجد القرآن يقول: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٌ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٌ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[٣]. وفي الحياة الدنيوية أمثلة كثيرة لآلام لا نلتفت إليها إلّا بعد مدّة من حدوثها، وما ذلك إلّا لانشغالها عنها وعدم التفاتنا إليها في وقت تحققها»[٤].

ومن هنا كان لزاماً على المؤمن أن يحذر من عواقب الذنوب، التي لها مدخلية في تحديد الاستراتيجية للفرد، وعلى الخصوص الطعام الحرام فإنّ له آثاراً وخيمةً في المستقبل البعيد، والذي سوف يرسم الركائز البنيوية لحياة هذا الإنسان، ولذلك فإنّ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٤) التربية الروحية بحوث في جهاد النفس لسماحة السيد كمال الحيدري، ص ١٢٥ - ١٢٦.

تعاليم أهل البيت عليهم السلام، ترشدنا إلى التحذير من عواقب هذه الأعمال، قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**وأمّا حقّ بطنك فأن لا تجعلَهُ وعاءً لقليلٍ من الحرام ولا لكثير**»[١] وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ولا تدخلوا بطونكم لُعَقَ الحرام، فإنكم بعينٍ من حرّم عليكم المعصية وسهّل لكم سُبل الطاعة**»[٢] ونلاحظ جيداً أن هذه الروايات الشريفة تحثّ جماعة المؤمنين على التجنب عن الأكلات المحرمة التي لها مردودات سلبية على التحرك في هذه الحياة الدنيا.

وبيَّنَ لنا القرآن الكريم أنّ الولد منه ما هو صالح، لديه سمات وصفات الصالحين، ومنه ما هو مفسد، لديه صفات المفسدين، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[٣] ويستفاد من هذه الآية، أن الأبن هو عمل يقوم على صناعته الأب، حيث تبين الآيات أن نوحاً عليه السلام دعا اللّه تعالى: إنَّ ابني هو يستظل تحت رعايتي وفي كنفي، وهو من أهلي، فلا تهلكه... فقال له اللّه تعالى... إن ابنك هذا ذو عمل غيرُ صالح فليس من أهلك الذين وعدتهم أن أنجيهم[٤]... وتبيِّن الآية: الشريفة قضية مهمة نحن الآن بحاجة إلى معرفتها، وهي، أن الأبناء هم أعمالنا والذين سوف نسأل عنهم غداً يوم القيامة، فالابنُ الصالح، هو من سوف يرفع درجات الأبوين، بخلاف الابن الفاسد، فإنّه سيكون عالةً عليهم غداً يوم القيامة، وذلك نتيجة الصياغة التي رسمت للابن وهو في عالم الدنيا. وأمّا الصياغة الأخرى، وهو عنوان العمل الصالح للابن، فمثاله هو لقمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ...﴾[٥] يظهر من الآية: الشريفة أن هناك مراحل مرَّ بها ابن لقمان عليه السلام، حيث مكنته عملياً من التجاوب مع الأب، حيث الرعاية والمتابعة، وتطبيقات الأب للتعاليم الدينية، هي التي ساعدت الأب على صياغة الابن بهذه الصياغة الشريفة.

(١) تحف العقول، ص ١٨٤.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة (١٥١)، ص ٢٨٥.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٥- ٤٦.
(٤) تفسير الميزان، ج ١٠، ص ٢٢٥- ٢٢٦.
(٥) سورة لقمان، الآية: ١٣.

وقال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام حيث كتبها (بحاضرين) عند انصرافه من صفين: «... **أي بني، إنّي لما رأيتُني قد بلغت سناً، ورأيتُني أزداد وهناً، بادرت بوصيتي إليك، وأوردتُ خصالاً منها قبل أن يعجل بي أجلي دون أن أفضيَ إليك بما في نفسي، أو أن أُنْقَصَ في رأيي كما نُقِصْتُ في جسمي، أو يسبقني إليك بعض غَلَبات الهوى وفِتَنِ الدنيا، فتكون كالصعب النَّفور. وإنّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قَبِلَتْهُ. فبادرتُكَ بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشتغل لُبُّك، لتستقبل بجدّ رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بُغْيَتَهُ وتجربته، فتكون قد كُفِيتَ مؤونة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه...**»[1]. وهذه صياغة حريٌّ بأن ندرسها، ونحاول أن نكون من أول المبادرين الى هذه المهمة المقدسة، وهي التربية الدينية، وحسب المنهج الإسلامي، حيث الامام عليه السلام، أشار الى أن الإنسان، تحدث له بعض التقلبات الطبيعية التي لا مفرّ منها، وهي كبر السنّ، وضعف البنية الجسدية، حيث الارتباطات المادية، وتفاعلاتها مع التغييرات الطبيعية، إلّا أن احتمال الضعف الفكري والعقلي لدى الإنسان قد يكون وارداً، وهذا منوط بمقدمات يهيئها مسبقاً... وأشار إلى مضامين مهمة، من قبيل التركيز على الأطفال وهم في مقتبل العمر، حيث بيَّنَ أن قلبَ الحدثِ (لمّا كان خالياً من الانتقاش بالعقائد وغيرها مع كونه قابلاً لما يُلقى إليه من خير أو شرّ فينتقش به) أشبهُ بالأرض الخالية من النبات والزرع القابلة لما يُلقى فيها من البذر[2]... ونلاحظ أسلوب الإمام الجذاب في كيفية التخاطب مع الطفل، حيث عنوان التحرك نحو تحصيل الثمرة الايجابية يلزم أن يمرّ من خلال دهاليز الإبداع الفكري في كيفية التعامل مع الطفل، وهو باب من أبواب العمل الصالح الذي سيكون، سنداً لك أيها الأب.

(١) نهج البلاغة من وصية له عليه السلام للحسن بن علي عليه السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين (٣١)، ص ٥٦٤- ٥٦٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، لأبن ميثم البحراني ج ٥، ص ١٥.

فلذلك بادره بالأدب قبل أن يقسوَ قلبُهُ ويبتعد عن الانقياد للحق ويشتغل بالأمور الباطلة. ثم أشار إلى العلة الأخرى من العلل الغائية لمبادرته بالأدب وهي أن يستقبل بجد رأيه وقوة فكره ما قد كفاه أهل التجارب بغيته من العلوم وعوفي فيه من علاج التجربة ومعاناتها فأتاه من ذلك العلم التجربي ما كان أهل التجربة يأتونه ويطلبونه، واستبان له ما ربما أظلم عليهم منه، وفرّق بين من يأتيه العلم صفواً، ويلقى إليه بيّناً واضحاً، وقد كفى فيه مؤونة الاكتساب، وبين من سعى إليه وشقي في تحصيله وخاض إليه غمرات الشكوك وظلمات الشبهات. وكل ذلك من الأمور المقنعة له في قبول الوصية والعمل بما اشتملت عليه من الحِكَم والآداب؛ لأنّ أهل التجارب إذا كانوا قد جدّوا في تحصيله مع ما وجدوا فيه من المشقة، فلأَنْ يَجِدَّ هو ويَقبَلَهُ خالصاً من الكلفة أولى[١].

طول الأمل

«وَحَبَسَني عَنْ نَفْعي بُعْدُ آمالي»

الحبس: حبس: حبسه يحبسه حبساً، فهو محبوس وحبيسٌ، واحتبسه وحبسه: أمسكه عن وجهه. والحبسُ: ضدّ التخلية. واحتبسه واحتبس بنفسه، يتعدّى ولا يتعدّى. وتحبس على كذا أي: حبس نفسه على ذلك[٢].

والحبس: المنع من الانبعاث، قال عزّ وجلّ: «تحبسونها من بعد الصلاة»، والحبس: مصنع الماء الذي يحبسه، والأحباسُ جمعٌ، والتحبيس: جعلُ الشيء موقوفاً على التأبيد، يقال: هذا حبيس في سبيل اللّه[٣].

البُعد: خلاف القرب[٤].

(١) شرح نهج البلاغة، لابن ميثم البحراني، ج ٥، ص ١٥- ١٦.
(٢) لسان العرب، ج ٦، ص ٤٤ مادة «حبس».
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢١٦ مادة «حبس».
(٤) لسان العرب، ج ٣، ص ٨٩ مادة «بعد».

والبُعد: ضِدُّ القرب، وقد بَعُدَ بالضم بُعداً فهو بعيدٌ أي متباعد وأبعده غيره وباعده وبعّده تبعيداً[١].

والبُعد: بَعُدَ بُعداً بَعَداً ضدُّ قُرب[٢].

الأمل: أَمَلَ أَمَلاً وأَمَّلَهُ تأميلاً: رجاهُ. والجمع آمال، والأمل، الرجاء. الأَمَلَةُ: أعوانُ الرجل الذين يأملهم. الواحد آمِل[٣].

والأمل: الأَمَل والأمل و الامل: الرجاء؛ الأخيرة عن ابن جنّيّ، والجمع آمال[٤].

والأمل: الرجاء يقال أمل خيرَهُ يأمُلُ بالضم أَمَلاً بفتحتين وأَمَّلَهُ أيضاً تأميلاً وتأمَّلَ الشيء: نظر إليه مستبيناً له[٥].

فهم النص

في هذا المشهد من الدعاء المبارك، يضع العبد عناوين متعددة، تُثبتُ أنَّ ثمَّة قضية موجودة لدى العبد، وهي: الحبس... النفع... الأمل... عناوين أشبه ما تكون بالتباعد من التقارب، حيث عملية الحبس تمثل الخسار؛ لأنّه بمجرد المكوث في هذه الزنزانة المحاطة بالجدران الأربعة، ستضيع على هذا الإنسان الكثير من المعاملات المادية منها والمعنوية، وهذا وقف لأهم محطات الحياة في هذه الدنيا، وبالتالي يندرج حينئذٍ النفع كعملة خاسرة في هذا الصراع، حيث لا وجود له في هذه الصفقة، التي لم تربح من وجود هذا الإنسان داخل السجن أو الحبس، وبذلك تنبري قضية الآمال كعنوان داعم للبقاء على منظومة الحياة؛ لأنَّ مجرَّد فقدان الأمل سيقضي على حياته تماماً... وهذا من لطائف اللّه تعالى، أنْ جعل منفذاً ومخرجاً آخرَ للمحبوس، وهو أنّ الآمال تعطيه دفعاً للحياة وإصراراً على البقاء في هذه الدنيا، طبعاً معايشة الواقع أمر ضروري، والآمال ما هي إلّا قوة

(١) مختار الصحاح، ص ٢٣ مادة «ب ع د».

(٢) المنجد، ص ٤٣ مادة «بعد».

(٣) المنجد، ص ١٨ مادة «امل».

(٤) لسان العرب، ج ١١، ص ٢٧ مادة «أمل».

(٥) مختار الصحاح، ص ١٠ مادة «أ م ل»

دافعة للاستفادة من هذه الحياة، حيث الأمل نعمة كبرى أنعم اللّه بها على الإنسان، ولولاه لاستحالت الحياة إلى عبء لا يطاق. ولولا الأمل الذي تتوقد شعلته في النفس الإنسانية لأصبحت الحياة خامدة بعد حراك ورماداً تذروه الرياح... فلا عمل ولا نشاط ولا حركة ولا حيوية وإنما يأس وقنوط وظلمات من الخمول يتراكم بعضها فوق بعض(١).

وورد هذا الخبر... إذْ بينما عيسى بن مريم جالس وشيخ يعمل بمسحاة ويثير به الأرض، فقال عيسى عليه السلام: «**اللهمّ انزع منه الأمل**». فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى عليه السلام: «**اللهمّ اردُدْ إليه الأمل**». فقام فجعل يعمل(٢).

ولكون الأمل المقصود هو الأمل باللّه تعالى، فإنّه يكونُ نوراً على نور، وذلك، لأنّ القوة التي يُلجأُ إليها لا تعادلها قوّةٌ موجودةٌ في هذا الوجود العظيم، وأيضاً يكون الأمل محلَّ القضاءِ بإذنِ اللّه تعالى، حيث لا يخيب من التجأ إليه، وقد ورد عن لسان الإمام زين العابدين عليه السلام هذه الصلوات في ليلة النصف من شهر شعبان المعظم: «**اللهمّ صلِّ على محمد وآل محمد الكهف الحصين وغياث المضطر المستكين وملجأ الهاربين وعصمة المعتصمين**»(٣).

ويظهر من هذه الفقرة من الدعاء الشريف، أن العبد وقع في مأزق، ولم يستطع الخروج منه، فهو يتحسر على تلك الأوقات التي كان يقضيها في الآمال واللهو، والعبث في هذه الحياة الدنيا، من غير ترتيب أوضاع للسفر القادم والحتميّ، والذي لا مفرّ منه بتاتاً... وهذا السفر هو الخروج من عالم الدنيا الى عالم الآخرة، وهو الموت، حيث لا عذر لمن يعتذر، ولا رجاء لمن يرتجي، فهناك حساب بلا عمل... قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢٤١

(٢) ميزان الحكمة، ج ١، ص ١٣٠ مادة «الأمل «

(٣) مفاتيح الجنان، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ أعمال شهر شعبا.

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١] هذه الآية: الشريفة نستفيد منها أن الإنسان مهما قدَّم من اعتذار من أجل أن يربح لحظةً واحدةً من الحياة في هذه الدنيا، لا يُسمح له بذلك؛ لأنّه أعطيَ المجالَ الكافي للالتفات إلى نفسه، ولم يهتمَّ بتلك اللحظات، فكيف سيلتفت الى هذه اللحظة، التي سوف يرجع فيها الى عالم الدنيا؟ قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[٢] هذا هو حال العبد، حيث لا يصدق في أقواله، ولا في أفعاله.

هذا العبد المسجّى يواجه الموت، وهو منه قريب يلتفت إلى عمله فيراه قبيحاً، ويلتفت إلى أمواله فيراها مُكدَّسة ولم يكن قد استثمرها في طرق الخير، ولم يؤدِّ حقَّ اللّهِ منها. وها هي الأبواب تُغلَقُ في وجهه فلم يبقَ لديه إلّا طلبٌ واحدٌ ذلك هو الرجوع به الى سابق وضعه ليتداركَ ما فات، ويُصلِحَ ما أفسد نتيجةَ التسويف، وطول الأمل. ولكن، فات الأوان، وبعد الزورق عن الساحل، وقد لفته الأمواج العاتية، وانتهى كلُّ شيء، فقد جاء الجواب: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾. لقد تلاشت الآمال العريضة، وضاعت الفرصة، وخمد الضوء، فلفَّ الموت بردائِهِ الحالك هذا المسجّى، فماتت البسمات على شفتيه[٣].

طول الأمل... والموت القادم من عالم المجهول

قال اللّه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٤] يستفاد من الآية: الكريمة، بحسب سياقها، أنها توجه النبي الأعظم ﷺ، إلى أن يدع الكفار على ما هم عليه من الكفر، حيث جاءت الآية: باللسان اللاذع القاسي، بأنّهم قاموا بوظيفة الأكل والتمتّع في هذه الدنيا، وألْهَتْهُمُ أنفسهُمُ بطول الأمل، فقط وفقط، وهذا نوع من الصرف والاشتغال عن ما هو أهمّ في هذه الحياة وتلك الحياة الأخرى.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩٩- ١٠٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.
(٣) أضواء على دعاء كميل، ص ٢٠٠.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٣.

«وفي الآية تعريض لهم أنهم لا غاية لهم في حياتهم إلا الأكل والتمتع بلذات المادة والتلهي بالآمال فلا منطق لهم إلا منطق الأنعام والحيوان العجم فمن الحريّ أن يتركوا ما هم فيه، ولا يلقى إليهم الحجج الحقة المبنية على أساس العقل السليم الظاهر لا محالة»[١].

والملاحظ أن الآية: الكريمة، تحاول أن تقطع تلك الآمال المبنية على فراغ اعتباري غير حقيقي، والذي له تأثير على مجمل الحياة ككل، فحيث ما وُجِدَ الأملُ المُلهي، فإنّه يفرغ العزيمة والطموح نحو الرّقي والعلو الى مراتب ودرجات عليا، حيث أنّ مشروع الاسلام، هو أن يبني هذا الإنسان على مفاهيم واقعية، وذات تشخيص مُدرَك، من الناحية العقلية، وأمّا العيشُ في قافلة طول الأمل والبقاء، فإنّه يُخَلِّفُ وراءَهُ الدمار والضياع الم هالك.

ومن المعلوم، أن مجال البقاء في هذه الدنيا محدود، وغير قابل للعيش لمدة متمادية، فالموت هو نهاية هذه الحياة الدنيا، وتبدأ حياة أخرى، في عالم آخر غير هذا العالم الذي نعيش فيه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه الذي ألبسكم الرياش، وأسبغ عليكم المعاش، فلو أن أحداً يجد إلى البقاء سُلماً، أو لدفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داود** عليه السلام، **الذي سُخّر له ملك الجن والإنس، مع النبوة وعظيم الزلفى. فلما استوفى طُعمته، واستكمل مُدّته، رمته قِسِيّ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطلة، وورثها قوم آخرون، وان لكم في القرون السالفة لعبرة! أين العمالقة وأبناء العمالقة! أين الفراعنة وأبناء الفراعنة! أين أصحاب مدائن الرّسّ الذين قتلوا النبيين، وأطفؤوا سُنن المرسلين، وأحيَوْا سنن الجبّارين! أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن!**»[٢] فلو نظرنا إلى حياة سليمان بن داود على نبينا وآله وعليهما السلام، لو جدنا حياته مليئة بالعبر والمواعظ، من مِلكِه العظيم الذي حوى

(١) تفسير الميزان، ج ١٢، ص ٩٥.
(٢) نهج البلاغة، خطبة (١٨٢)، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

الأرض وما عليها وليس آخراً السيطرة على الكائنات الحية من جنّ وإنس وطير، وبساطه الطائر، الذي يتفقد عليه بلاده المسيطر عليها، فمثل هذا الرجل العظيم الذي تحت يديه هذه الإمكانات المادية والمعنوية، ألا يطمع في البقاء، وانقداح الآمال الواسعة في قلبه، بحيث أن موقفاً واحداً في القرآن يدلّنا على هذه العظمة التي كان يتمتع بها هذا الرجل القديس، حيث وقوف الجن تحت سيطرته، فقد اعتبرت أن الأعمال الشاقة التي كانت تأتي بها، ما هي إلا عذاب مهين، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[١] وهذه إشارة واضحة، إلى أنّ الحياة التي يعيشها هذا النبي عليه السلام، كانت تحمل الهيبة والمكانة الرفيعة عند هذه المخلوقات.

وقد ورد عن طول الأمل الذمُّ الشديدُ في الروايات، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**جاء الأجل دون رجاء الأمل**»[٢] وقال أنس: كنا عند رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: فوضع ثوبه تحت رأسه ونام فهبت ريح عاصف، وقام فزعاً وترك رداءه، فقلنا: يا رسول اللّه، مالك؟ قال: «**ظننت أن الساعة قد قامت**»[٣] هذه الرواية يستفاد منها، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لم يجعل لطول الأمل في البقاء في هذه الدنيا ولو لحظة، وهذا يدلُّ على أن هذه الدنيا ليس لها شأن يذكر في قاموس الدعوة المحمدية.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته: «**اتقوا اللّه فكم من مؤمل ما لا يبلغه، وجامع ما لا يأكله، ولعله من باطل جمعه، ومن حق منعه، أصابه حراماً، وورَّثه عدواً، فاحتمله إصره، وباء بوزره، ورد على ربه خاسراً، آسفاً، لاهفاً، قد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين**»[٤].

وروى ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**أكثروا ذكر هادم اللذات، فإنكم**

(١) سورة سبأ، الآية: ١٤.

(٢) إرشاد القلوب، ص ٣٩.

(٣) إرشاد القلوب، ص ٣٩.

(٤) إرشاد القلوب، ص ٣٩.

إن ذكرتموه في ضيق وسّعه عليكم فرضيتم به فأُجرتم، وان ذكرتموه في غنىً بَغَّضَهُ إليكم فجُدتُمْ به فأُثِبْتُم، فان المنايا قاطعات الآمال والليالي مدنيات الآجال، وان المرء بين يومين يوم قد مضى حصي فيه عمله فختم عليه، ويوم قد بقي فلا يدري لعله لا يصل إليه، إن العبد عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما أسلف وقلة غنى ما أخلف ولعله من باطل جمعه أو منه»(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ألا إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: إتّباع الهوى، وطول الأمل؛ أما إتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة. وهذه الدنيا مرتحلة ذاهبة، وهذه الآخرة مرتحلة قادمة، ولكل واحد منهما بنون فان استطعتم أن تكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فافعلوا فإنكم اليوم في دار العمل ولا حساب، وأنتم غداً في دار الحساب والآخرة**»(٢).

ولعلّ طول الأمل يتخذه العبد كمدرعة، في تحركاته في هذه الحياة، وهو نتيجة الغفلة عن ذكر اللّه تعالى، واشتعال لهيب نار الشهوة والحرص على هذه الدنيا الزائفة، وإنّه يُعَظِّمُ ما في هذه الدنيا من مال وجاه وأولاد بحالة خارجة عن المألوف الطبيعي للرعاية التي أوجبها اللّه تعالى، ولذلك فإنّ الإمام الصادق عليه السلام وضع العلاج الواقي من التهور نحو تلك الآمال والطموحات الرنانة التي يتشدَّق بها أصحاب الحداثة، حيث يقول الإمام عليه السلام: «**ذكر الموت يميت الشهوة في النفس، ويقطع منابت الغفلة، ويقوي النفس بمواعد اللّه، ويُرقُّ الطبعَ، ويكسر أعلام الهوى، ويُطفئ نار الحرص، ويُحقِّر الدنيا، وهو معنى ما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فكر ساعة خير من عبادة سنة، وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشدها في الآخرة، ولا تشكّ بنزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة، ومن لا يعتبر بالموت وقلة حيلته وكثرة عجزه وطول مقامه في القبر، وتحيره في القيامة فلا خير فيه**»(٣) ونلاحظ في هذه الرواية أنها تذكر قضية مهمة نرى لزاماً أن نلتفت إليها، حيث بيّنت الرواية، أنّ

(١) المواعظ العددية، ص ٧٨.

(٢) المواعظ العددية لآية اللّه المشكيني، ص ١٦٥ ح ٢٢٩٤.

(٣) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٥ أبواب الاحتضار وما يناسبه باب ١٧ استحباب كثرة ذكر الموت وما بعده.

الخير ساقط عن الشخص الذي لم يعتبر بالموت، ولا بالقضايا الحادثة فيما بعد الموت، حيث المقام الطويل في ذلك القبر الموحش، ولا بتلك الساحة المهولة، ساحة يوم القيامة، حيث يكون الناس متحيّرين فيها، وسوف نأتي لاحقاً على ذكرِ هذه التفاصيل في مستقبل الدعاء بإذن اللّه تعالى.

وقال النبي ﷺ: «**اذكروا هادم اللذات**، قيل: وما هو يا رسول اللّه؟ قال: **الموت. فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلا اتسعت عليه. والموت أول منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبى لمن أكرم عند النزول بأولها، وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها. والموت أقرب الأشياء من بني آدم ويعده أبعد، فما أجرأ الإنسان على نفسه، وما أضعفه من خلق، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين، ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت وكره من كره**»(١).

وعن أبي ذر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**يا أبا ذر، إياك والتسويف بأملك، فانك بيومك ولست بما بعده، فان يكن غده لك تكن في الغد كما كنت في اليوم، وان لم يكن غده لك لم تندم على ما فرَّطت في اليوم. يا أبا ذر، لو نظرت إلى الأجل ومسيره، لأبغضت الأمل وغروره. يا أبا ذر، إذا أصبحت فلا تُحدِّثْ نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تُحدِّثْ نفسك بالصباح**»(٢).

غير أن المطلوب ألّا يكون همّ الإنسان منصبّاً على الشؤون المادية فقط، بحيث ينسى حياته الروحية؛ لأن الاهتمام بالحياة المادية يجعل المرء يعيش جفافاً في الروح، مما يعرّضه لهزّات روحية وأزمات نفسية تنغص عليه حلاوة العيش.

من هنا يتوجب على الإنسان أن يعيش الأمل المشروع الذي يؤمّن سعادته في الدنيا والآخرة؛ وقد ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أنّه ينبغي على الإنسان

(١) مصباح الشريعة، ص ١٨٧- ١٨٨ ومستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٥- ١٠٦.

(٢) ومستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٧.

المؤمن التفكير في المستقبل فهناك أخطار جادّة من بعض الآمال الكاذبة والأوهام الخادعة[١].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الأمل كالسراب يَغرُّ من رآه ويُخْلِفُ من رجاه**»[٢].

ويقول سلام للّه عليه: «**الأمل أبداً في تكذيب وطول الحياة للمرء تعذيب**»[٣].

وقال عليه السلام: «**الأماني تخدعك وعند الحقائق تدعك**»[٤].

وقال الإمام علي عليه السلام: «**الأماني تخدع**»[٥].

ويقول صلوات اللّه عليه: «**الأماني تُعمي عيونَ البصائر**»[٦].

ويقول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: «**الأمل يقرب المنيّة ويباعد الأمنية**»[٧].

وقال عليه السلام: «**الآمال لا تنتهي**»[٨].

وقال سلام اللّه عليه: «**الأمل سلطان الشياطين على قلوب الغافلين**»[٩].

وحقّاً نجد أنَّ الآمال الكاذبة تغتال الإنسان لأنه يُضيعُ سنوات عمره في محاولة تحقيقها...إنها كالسراب يحسبه الظمآن ماءً وهو مجرد موجات خيال وخداع... وكم من الآمال التي تبدو من بعيد حياة ملونة وسعادة وهي مجرد سراب في سراب. وما أكثر الذين يتصوّرون سعادتهم في جمع المال ثم تراهم يلهثون وراء الثراء حتى إذا تكدست الأموال في أرصدتهم وبنوا القصور الفخمة وركبوا السيارات الفارهة وجدوا أنفسهم يشعرون بالكآبة والفقر الروحي والأمراض النفسية! أجل إنهم

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢٤٢.
(٢) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٧ ح ١٦٨.
(٣) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٧ ح ١٦٢.
(٤) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٧ ح ١٥٦.
(٥) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٧ ح ١٥٥.
(٦) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٧ ح ١٥٧.
(٧) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٧ ح ١٧٣.
(٨) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٧ ح ١٤٥.
(٩) غرر الحكم، ودرر الكلم، ص ١٧ ح ١٦٨.

اغتالوا أرواحهم وشطبوا على قلوبهم وضمائرهم وأصبحوا يعيشون حياة حيوانية خالية من كل القيم الإنسانية... إن على الإنسان أن ينتبه إلى نفسه قبل فوات الأوان وأن يبادر إلى الخلاص من نير الأهواء النفسية ومن شرنقة الغرائز الحيوانية. عليه أن يتأمل في مصير الغابرين وهذا القرآن الكريم فيه نبأ الذين سادوا ثمّ بادوا... وهذه كتب التاريخ تتحدث عن الماضين من أجيال البشر... وهذه المقابر تعكس قصة الإنسان وتهتف من خلال صمتها بالكثير من العظات والعبر(١).

خداعُ الدنيا بغرورها

«وَخَدَعَتْنِي الدُّنْيا بِغُرُورِها»

الخداع: إظهار خلاف ما يُخفيه(٢).

والخداع: إنزال الغير عمّا هو بصدده بأمر يُبديه على خلاف ما يخفيه، قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾(٣) أي: يخادعون رسوله وأولياءه، ونُسبَ ذلك إلى اللّه تعالى من حيث إن معاملة الرسول كمعاملته، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾(٤) وجعل ذلك خِداعاً تفظيعاً لفعلهم، وتنبيهاً على عِظَم الرسول وعِظَم أوليائه(٥).

الغرور: يقال: غَررتُ فُلاناً: أصبتُ غِرَّتَهُ ونلت منه ما أريده، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظة، والغِرارُ غفلةٌ مع غفوة، وأصل ذلك من الغُرِّ، وهو الأثر الظاهر من الشيء، ومنه: غُرَّةُ الفرس(٦).

والغرور: غَرَّهُ يغرُّهُ غرّاً وغروراً وغِرَّةً؛ الأخيرة عن اللحياني، فهو مغرور وغَرير: خَدَعَهُ وأطمعَهُ بالباطل(٧).

---

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢٤٤.
(٢) لسان العرب، ج ٨، ص ٦٢ مادة «خدع».
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩.
(٤) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٥) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢٧٦ مادة «خدع».
(٦) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٠٣ مادة «غرر».
(٧) لسان العرب، ج ٥، ص ١١ مادة «غرر».

فهم النص

في لقطة تدل على أنه بريء من الانحراف نرى العبدَ هنا يبرئ ساحته، ويسعى جاهداً الى قذف الدنيا، بأنّها خدعته وغرَّرَت به، حيث خدعته «بغرور الأمنيات وبريق الأوهام، هذه الدنيا تزخر بالحقائق والأباطيل... تموج بقطرات الندى وهي بحر يتلاطم بأمواج السراب البعيدة»[1].

وهذا المقطع من الدعاء المبارك، يحمل دلالاتٍ واضحةً على أن الخداع كان إيهاماً من الدنيا، حيث أبرزت كل مفاتنها وزينتها، أمام هذا العبد، وأظهرت له كامل التزامها حول المبادئ والقيم، بصورة شبيهة لذلك الملتزم بالمبادئ والقيم الدينية، الأمر الذي التبس على العبد، اذ أظهرت صفة الغرور بكل ما تعنيه هذه الكلمة، حيث زينة الدنيا الخداع والغرور، بالمكر وبالأباطيل، والتي توهم بأنّها حقائق وصواب.

إن هذا الانهماك في طلب الدنيا، والإقدام على هذه المخالفات لم يكن عن علم من العبد وتقصير، بل هو مخدوع؛ خدعته الدنيا. فيكمن الغرور فيما تشتمل عليه هذه الدنيا من لذائذ وقتية، وشهوات عارمة غير مشروعة تجر الإنسان إلى مهاوي الرذيلة وتبعده عن الواقع، وما يرفع النفس، ويصونها عن كل قبيح[2].

وقد عبَّرَ العبد عن الدنيا، بأنّها خدّاعة وغرّارة، إشارةً إلى، أنها تتصف بهذه الصفة السيئة، وقد تناول القرآن الدنيا بهذه الصفة، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[3] وتبين لنا الآية: الشريفة أنّ الدنيا، ما هي إلّا متاع، والمتاع هو الخداع، الذي يغترُّ به بنو البشر، حيث «إن هذه الحياة الدنيا مجرّد لهو ومتاع وتخدع الإنسان من بعيد، فإذا بلغ إليها الإنسان ونال منها ولمسها عن كثبٍ وجدها على الأغلب فراغاً وخواءً في خواء، وما متاع الغرور إلا هذا»[4]. وهنا يشير اللّه

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢٤٦.
(٢) أضواء على دعاء كميل، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٤) تفسير الأمثل، ج ٣، ص ٢٢.

في هذه الآية: الكريمة إلى أنّ ذلك العبد قضى عمره بالجدّ والاجتهاد من أجل أن ينالَ أرباح الدنيا ومكانةً عليا، ما بين تلك الأنفس التي أبحرت في عالم الدنيا وغاصت وغاصت في أعماقها السحيقة، ونالت منها مكانة عظمى ودرجة رفيعة، إلّا أن هؤلاء، لن يبقوا على ما هم عليه من الدرجات!!!، لماذا؟ لأنّ هذه المكانة العظمى والدرجات الرفيعة (وبكلّ بساطة) ما هي إلّا سراب يظنُّه القادم من بعيد ماءً، غير أنه في حقيقة الواقع سراب، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[١].

وهناك الكثير من الذين خدعتهم هذه الحياة الدنيا، بزينتها ومفاتنها، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[٢] وقد وضّحت الآية: أنّ المرأة[٣] والبنين والقنطار الذي هو الغنى من الذهب والفضة، وتلك الخيل التي هي «المعلّمة أي: ذات العلامة، فقد تُعلم الخيل لإبراز جمال هيكلها ورشاقتها، أو لمعرفة أنّها مدربة ومعدّة للركوب في ميادين القتال»[٤] والأنعام بشتّى أنواعها والعبيد الذين هم موظفون يعملون تحت يدي هذا الرجل الذي يملك كل هذه الثروة العظيمة، ناهيك عن الأراضي الزراعية التي تدُرُّ له الخيرات من كنوز هذه الأرض، كل هذه الأصناف المذكورة عدتها الآية: من متاع هذه الدنيا، وبظاهر ذيل الآية: الشريفة، أنها ليس لها قيمة تذكر في قاموس الساحة الربانية، وذلك من خلال التعبير الذي يدُلُّ على التصغير والتحقير لهذه الأصناف.

(١) سورة النور، الآية: ٣٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٣) جاء في شأن المرأة في تفسير الأمثل: «مما يثير الالتفات في الآية: أن الزوجة أو المرأة قد وردت أولاً، وهذا هو ما يقول به علماء النفس اليوم، بأن الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز في الإنسان، كما أن التاريخ المعاصر والقديم يؤيد أن كثيراً من الحوادث الاجتماعية ناشئة عن طغيان هذه الغريزة. وينبغي القول أيضاً: إن هذه الآية: والآيات المشابهة لا تذم العلائق المعتدلة مع المرأة والأولاد والمال، لأن التقدم نحو الأهداف المعنوية غير ممكن بدون الوسائل المادية، وهي لا تتعارض مع نواميس الخلق. إنما المذموم هو الإفراط في هذه العلائق، وبعبارة أخرى: المذموم هو عبادة هذه الأمور». ج ٢، ص ٢٥٦.

(٤) تفسير الأمثل، ج ٢، ص ٢٥٦.

ولا بأس في أن نورد هذه الحادثة التي فيها العبر والموعظة، والتي فيها الكثير من المفاهيم الدينية المغفول عنها في هذا العصر، مع شديد الأسف، الحادثة طويلة نوعاً ما، ارتأينا نقلها بالكامل لما فيها من الفائدة من كافة النواحي.

عاد الحسنُ[١] عبد اللّه بن أهتم في مرضه الذي مات فيه فأقبل عبد اللّه يضرب ببصره إلى صندوق في جنب البيت، ثم قال للحسن: يا أبا سعيد ما تقول في مائتي ألف في هذا الصندوق لم يؤدَّ منها زكاةٌ ولم يوصل بها رَحِم؟ فقال الحسن: ثكلتك أمك فلِمَ أعددتُها؟ قال: أعددتها لروعة الزمان ومكاشرة الإخوان وجفوة السلطان. ثم مات فحضر الحسن جنازته، فلما دفن ضرب بإحدى يديه على الأخرى، فقال: إن هذا أتاه شيطانه فحذره روعة زمانه وجفوة سلطانه ومكاشرة إخوانه مما استودعه اللّه إياه ثم خرج منها حزيناً سليباً لم يؤدّ منها زكاة ولم يصل بها رحماً. ثم التفت فقال: أيها الوارث كل هنيئاً فقد أتاك هذا المال فلا يكون عليك وبالاً آثاره، ممن كان له جموعاً منوعاً يلجّج فيه في لجج البحار ومفاوز القِفار. من باطل جمعه، ومن حق منعه، ولم ينتفع به في حياته، جمعه فأوعاه وشدّه. إن يوم القيامة ليوم ذو حسرات، وان أعظم الحسرات أن ترى مالك في ميزان غيرك، ذاك رجل آتاه اللّه مالاً حلالاً فبخل أن ينفقه في طاعة اللّه فورّثه اللّه غيره، فأنفقه في طاعة اللّه. فيا لها حسرة لا تُقال! ورحمة لا تنال! فانا للّه وإنا إليه راجعون. وقال: ماذا يغرّكم من دارٍ الفناءُ من صفاتها، والفناء من عاداتها. والفقر حلية من حُليِّها، والغرور سجية من سجاياها والآلام والأحزان من خِلالها، والشيب والموت من حالها، والبكاء حياة داخلها، والإبكاء زاد راحلها. تبكي المولود فيها مستهلاً إذا دخل، ويبكى على المتوفى منها ساعة ارتحل. شدائد لو أنها راعتنا بواحدة منها لكان حقاً أن نتبادر من قربها، ونتفادى من حبّها، فكيف وهو مجتمع فِرقها، وملتقى طرقها، ثم المبيت حيث الفراش التراب، وليس إلا الديدان أصحاب. فيا لها غمة مدهشة، ووحدة موحشة! ينادي مَلَكُ الأرزاق: نَفِدَ الزادُ وحان الفراق. ويقول ملك الموت: حق

(١) هو أبو سعيد الحسن البصري ابن يسار مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه خيرة مولاة أم سلمة أم المؤمنين، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، وكان فصيحاً جميلاً وسيماً، وله مع الحجاج مواقف هائلة. ولد سنة ٢١ وتوفي ١١٠ هـ. المصدر: في هامش كتاب آداب النفس، ص ٣٨.

الوعد والوعيد، وذلك ما كنت منه تحيد، أزف الرحيل، ووجب التحويل. وحالت الحال، وزال الجمال. وانطفأ المصباح، وركدت تلك الرياح. ويقول ملك العمل لشيطان الأمل: ثبّتت حبائل الزور، ونصبت أشراك الغرور. وشغلته بالباطل حتى جاءت سكرة الموت بالحق. وسأل سائل القبر بالصدق. فالآن يلقى المسكين ربه بصورة نكير أو صحيفة سوداء، لم يُعدّ ليوم المحتضر، ولم ينظر في الآجل المنتظر. جمع ما لم يأكل، ورجا ما لم ينل. فيا حسرتا على ظلٍّ انحسر وشملٍ افترق؛ أصابه إعصار فيه نار فاحترق. و يا أسفا على روح آخرُهُ عناء، وعذب حاصلُهُ عذاب، ووصلٍ عُقباه اجتنابُ، وسكونٍ مُنتهاهُ ارتيابٌ[1].

وينبغي أن ندرك، أن التوجيه المذكور في هذه الحادثة، ليس بالضرورة أن يكون توجيهاً، يصب في خانة السلب، وأن المذمة التي أشار إليها أعلاه، ما هي إلّا للفئة التي، تتخذ من الأسلوب المشار اليه، منهجاً ومساراً في حياتها.

وعلى العكس من ذلك، فقد أشار القران إلى إمكانية الدخول في عالم الدنيا، وسلوك مجالاتها، واتخاذ ثرواتها مسلكاً يؤدي بالنتيجة إلى إعزاز الفئة المؤمنة، والتقوية على أداء الفرائض والتكاليف الموجهة من الشريعة الى هذا الإنسان المؤمن، قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[2] ويستفاد من هذه الآية: المباركة، إمكانية الاستفادة من وسائل الدنيا، بكل ما فيها من أدوات وإمكانيات، بشرط أن تكون وفق ضوابط وحدود الشريعة المقدسة.

والمطالع لعلم الفقه، يجد أن السواد الأعظم من الأبواب يصبُّ في عالم التجارة؛ (والتجارة هي الخوض في عالم الدنيا بالمال) وفق وحدود بيّنتها الشريعة المقدسة، ووضعت لها ضوابط ومسالك، يتخذها المؤمن بوصلة له في التحرك في هذا العالم المليء بالمخالفات الشرعية.

(١) آداب النفس، ص ٤٤- ٤٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.

الدنيا المذمومة.

إن القرآن الكريم عند ما يصف الدنيا بأوصاف مذمومة ليس بالضرورة قاصداً ذات الدنيا، بقدر ما يوضح الطبيعة التي يرتكز عليها الإنسان الذي يتصف بهذه الأوصاف، ونحن نلاحظ أن الدنيا ليست مصداقاً واقعياً، له تشخيص في الخارج الواقعي، بحيث نلمسه، وإنّما طبيعة الذات الدنيوية عند الإنسان تتصف بأوصاف دنيئة، ولذلك سُمِّيت دنيا، حيث لا ترتقي الى أوج كمالها لكونها متّصفة بأوصاف دنيئة. قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] فهذه الآية: المباركة، تُبيِّن لنا مدى التصاق الإنسان بهذه الدنيا، بمقدار أنه ذاب في مفاتنها ومحاسنها، بحيث امتزجت أوصافها بأوصافه، وزينتها بزينته، وأصبح كامل اهتمامه، بكيفية ترتيب الشؤون الدنيوية، من سكن راقٍ، وملبس فاخر، وأداة مواصلات متطورة متناسبة مع مجريات الحضارة المتقدمة، وكافة شؤون الحياة المرفهة؛ وقد طغت هذه الدنيا على جذوة محبّيها المعنويّة الموجودة في قلوبهم، بحيث لم يجدوا وقتاً حتى لأداء الواجب الذي ألقاه اللّه تعالى على عاتقهم، فأصبحوا ليس لهم ظلٌّ في المسجد، بعد أن كانوا أسطوانة المسجد، ما من دعاء... ومن صلاة جماعة... ومن إحياء شعائر دينية إلّا وتراهم متواجدين في المقدمة، والآن بعد هذه المرحلة التي دخلوا فيها... وبعد هذا العالم الذي أولجوا أنفسهم فيه، لم يُرَ لهم وجه في مثل هذه المحافل الدينية، لماذا لا نراكم، يا إخوتي في الإيمان؟... قالوا: الآن نحن نعيش في زمن قد وصل فيه الإنسان الغربيّ إلى القمر، وأنت تدعونا الى إحياء الصلاة في المسجد!!!... الآن أخذت الدنيا الإنسان إلى عالم التطور التكنولوجي، وأنت تدعونا الى الحضور الى مآتم لإحياء الأمسيات الحسينية.

هم جسّموا هذه اللقطات أمام أعينهم تماماً: حديقة مليئة بالأشجار والخضرة

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

والنباتات دائمة الثمر، وصخب الحياة يَعُمُّ كلّ أرجائها... وفجأةً في ليلة مظلمة، أو يوم صحو تغطي السحبُ السوداءُ وجهَ السماء، وترعد وتبرق ثُمَّ تهبُّ الأعاصير العاتيةَ وتنهمر الأمطار الشديدة من كلّ جانب وتدمرها.

غداً نأتي لرؤية تلك الحديقة... الأشجار متكسرة... النباتات والأعشاب مبعثرة وميتة، وكل شيء أمامنا ملقىً على الأرض بصورة لا تصدق معها أن هذه هي تلك الحديقة الغنّاء الجميلة التي كانت تبتسم في وجوهنا بالأمس![1].

هذا حال الدنيا، حيث يصل الإنسان فيها إلى درجاتٍ عظيمةٍ، ومراتبَ راقيةٍ، ويحصل على أرقى الشهادات من جامعات تُعَدُّ من أفضل الجامعات في العالم، وأعلاها وأغلاها، إلّا أنّه ليس له شهادة في أموره الدينية... ليس له أدنى علم بالمسائل الشرعية، التي يُبتلى بها عادةً.

نحن نعلم ما هي المرتبة الدنيوية التي وصل اليها قارون، حيث كانت ثروته تفوق ميزانية كبرى الدول مجتمعةً، يقول اللّه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾[2] إن قارون كان ذا مالٍ وفيرٍ من الذهب والفضة، بحيث كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداءً[3]؛ وقارون هذا كان ذا قدرة على الأعمال الاجتماعية الكبيرة، لما يملكه من الثروة العظيمة، ومن الأموال الطائلة، وكان له الصوت السياسي في المجتمع الاسرائيلي آنذاك؛ حيث تُعتبر القوّة الاقتصادية هي المُغيِّرة، للمجرى السياسي، وهي المُبدِّلة للكثير من المفاهيم الباطلة، والتي انتشرت بشكل كبير بين أوساط الناس.

إلّا أنّ المال غير كافٍ للحياة، اذ ينضم معه التأقلم الديني، حيث السلوكيات مطلب أساسي في التحرك نحو التغيير الفكري والاجتماعي؛ وقارون ليس من هؤلاء الذين يحملون هذا النفس، إذ الغرور سرعان ما احتلَّ قلبه، حيث يرشدنا القرآن، إلى مجرى تصرف قارون السلوكي، قال اللّه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى

(١) تفسير الأمثل، ج ٦، ص ٢٠٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٦.
(٣) تفسير الأمثل، ج ١٢، ص ١٨٢.

زِينَتِهِۦ﴾[١] حيث الآية: تشير الى أن قارون لم يسلك التعاليم الدينية التي ترشده الى التقيّد، فهو عبّر عن أن هذه الثروة أتتني من جهدي وبتعبي، ولم يشاركني فيها أحد غيري، قال اللّه تعالى حكاية عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، وهذا التصريح من شخصية تحمل هذا الثقل في المجتمع إنّما ينمُّ عن عدم التوازن في الفكر الدينيّ، وبذلك خرج عن المنظومة الفكرية والعملية التي وضعها الدين الاسلامي، فهو يستحق العذاب، وإنّما خرج بجنونه المفتون، بحيث افتتن به من هو دونه في الثروة، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٢] وبذلك فهو سعى إلى السيطرة الاقتصادية على مفاصل المجتمع، فحينما تقوم مجاميع التجار، وأصحاب الثروة، بالنظر الى الأعلى، فإنّما يُدلُّ على أنّ ثمَّة منحدراً خطيراً يسلكونه، فهم بحاجة إلى الالتفات إلى هذا المنحدر، حتى يحافظوا التوازن الاجتماعي، قال تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾[٣] فنتيجةً للزهو المفرط، الذي خرج به عن حدود وطبيعة الكيان الاجتماعي، حدثت له هذه الكارثة العظيمة، ويبدو أن المجتمع، قد أدرك أنّ التعالي مذوم، وأنّ عملية التوازن مطلوبة حتى للحاكم فضلاً عن التاجر... نعم ثمَّة استحقاقات تواجه تلك الشخصية، حيث اللّه تعالى، يحب أن يجد نعمته على عبده، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾[٤] حيث يستفاد من هذه الآية: طلبُ إظهار النعمة، أمام الناس، (ولكن احذر أن تكون نقمة بحيث لا تستفيد منها وتقع في المحظور، كالغرور وعدم التفاعل مع آلام الناس، فتكون كقارون)، وليس بالضرورة هو الخسف، وإنّما هناك جنود اللّه تعالى الكثيرون.

ولهذا أدرك هؤلاء الذين تمَنّوا، أن يكونوا مرفّهين (كما هو قارون)، قبل أن يقتحموا هذا العالم الذي دخله قارون، حيث صرّحوا كما يحكي عنهم القرآن

(١) سورة القصص، الآية: ٧٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨١.
(٤) سورة الضحى، الآية: ١١.

الكريم، يقول اللّه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] يا سبحان اللّه... لقد تخلى عنه، كل الذين كانوا تحت يده، حتى النفر الذين عاشوا في نشوة التمني للوصول إلى ما وصل إليه هذا الرجل، إلّا أنّه في لحظة ما لم يُعيروهُ أي اهتمام، ولم يلتفتوا اليه، وتركوه يقاسي الضياع في أزقّة الموت، وحلكة الظلام الدامس.

فيا سبحان اللّه... عجيب أمر هذه الدنيا، أنظر كيف تتخلى عن رعاية من سايرها في طريقه، واتخذ أسلوب الصرامة في القرار من أجلها؟؟، ولم يُراع التعاليم الدينية في ذلك... فقد باعته بدم بارد، ولم تدافع عنه... وحريٌّ بمثل هذَا العبد أن يتّعِظَ بما جرى لهذا الرجل المسكين، فقد ذهب ضحيةَ شهوةِ الغرور، وحُبِّ النفس الأمّارة بالسوء.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام روحي وأرواح العالمين لتراب مضجعه الفداء، حيث يصف الدنيا، ذاماً لها، قال سلام اللّه عليه: «**أما، بعد، فاني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حُفت بالشهوات، وتحبّبت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور. لا تدوم حَبرتُها، ولا تؤمَنُ فجعتها. غرّارة ضرّارة، حائِلة زائلة، نافدة بائدة، أكّالة غوّالة. لا تعدو -إذا تناهت إلى أمنيةِ أهل الرغبة فيها والرضاء بها- أن تكون كما قال اللّه تعالى سبحانه: -كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان اللّه علَى كل شيء مقتدرا- لم يكن امرؤٌ منها في حِبرَة إلّا أعقبته بعدها عَبْرَةً، ولم يلقَ في سرّائها بطناً إلّا منحته من ضرّائها ظهراً. ولم تَطُلَّه فيها ديمة رخاء، إلا هتنت عليه مُزنة بلاء! وحريٌّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى، أمرّ منها جانب فأوبى! لا ينال امرؤٌ من غضارتها رَغَباً، إلا أرهقته من نوائبها تعباً! ولا يمسي منها في جناح أمن، إلا أصبح على قوادم خوف! غرّارةٌ، غرورٌ ما فيها، فانية، فانٍ من عليها، لا خيرَ في شيء من أزوادها إلّا التقوى. من أقلَّ منها استكثر ممّا يؤمنه! ومن**

(١) سورة القصص، الآية: ٨٢.

استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عمّا قليل عنه. كم من واثق بها قد فجعته، وذي طُمأنينةٍ إليها صرعته، وذي أبهة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردته ذليلاً! سلطانها دُوّلٌ، وعيشها رَنِقٌ، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سِمام، وأسبابها رِمام! حيُّها بعَرَضِ موتٍ، وصحيحها بعرض سقم! ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب! ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً، وأبقى آثاراً، وأبعد آمالاً، وأعدّ عديداً، وأكثف جنوداً! تعبّدوا للدنيا أيّ تعبّد، وآثروها أيّ إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ ولا ظهر قاطع. فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة! بل أرهقتهم بالقوادح، وأرهقتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفّرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ فقد رأيتم تنكّرها لمن دان لها، وآثرها وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد. وهل زوّدتهم إلا السّغب، أو أحلتهم إلا الضّنك، أو نوّرت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة! أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون؟ فبئست الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وجلٍ منها! فاعلموا ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ بأنكم تاركوها وظاعنون عنها، واتعظوا فيها بالذين قالوا: «من أشدُّ منا قوّة» حملوا إلى قبورهم فلا يُدْعَوْنَ ركباناً، وأُنزلوا الأجداث فلا يُدَعَوْنَ ضيفاناً»(١).

لقد أشار الامام أمير المؤمنين عليه السلام الى قسم من المضامين، التي تختزنها هذه الحياة الدنيا، فمن جملتها: أن الدنيا تمتلك سحر المنظر في قسمات وسمات منظرها، بحيث ينجذب المرء بكل سهولة إليها، من غير عناء ومشقة، وبذلك ينخدع هذه الكيان البشري بكل سهولة، إذا لم يعلم كنه حقيقتها، وجوهر مفاتنها.

ولذلك نجد الإمام عليه السلام، يقف هنيئةً، ويقول: إنّ هذه الصفات الجميلة التي تتصف بها هذه الحياة ليس في واقع جوهرها إلّا الخسارة والدمار، وضياع الهوية في عالمها المليء بالمشكلات العظيمة، والفجائع الدامية للقلوب، فإنّ من اتخذها جاراً ومسكناً له بدلاً من أن يتخذها وسيلة وغاية يصل بها الى مرضاة اللّه تعالى

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١١١، ص ٢١١و٢١٢و٢١٣و٢١٤و٢١٥.

والفوز في الآخرة، مصيره العذاب، فهي بادئ ذي بدء استطاعت أن تستقطب الى مفاتنها الكثير من الأفراد، حيث الخداع والغرور كان أحد وسائلها، وأمّا الرفاه الذي يصاحب من يعشقون الدنيا فما هو إلّا العذاب، إذ النعم تختلط بالآلام، والعافية والعيش الهنيء تختلط بالمرارة.

«واللافت للنظر هو أن جميع هذه المباحث والمضامين إنّما تتحرك في ظل آيات القرآن الكريم، فأحياناً تُشير صراحة الى تلك الآيات، وأخرى تكون العبارات مستقاة من الآيات القرانية، وهذا ما يسبغُ نوراً ولمسات روحية، وجذبات معنوية على كلمات الامام علي عليه السلام وبالتالي مضاعفة مدى تأثيرها.

يا ليت أهل الدنيا ممن اغتر بها وخدعوا بحطامها وزيفها وتزينها يلتفتون لأنفسهم ولو لحظةً واحدةً طيلة عمرهم فيطالعون هذه الخطبة الموقظة ويتدبرون عباراتها ومفاهيمها، بل ما أحرانا نحن أيضاً أن نتأمل هذه الخطبة وما شابهها من الخطب التي وردت في نهج البلاغة لتتعمق معرفتنا بخصوص الدنيا والوقوف على مدى ضحالتها وتفاهتها، فتتجدَّد فينا روح الطاعة والابتعاد عن الخطيئة والمعصية»[1].

الدنيا تتجسد أمام أمير المؤمنين عليه السلام.

من مكاشفات أمير المؤمنين عليه السلام: قال الإمام الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن الإمام عليّ عليه السلام، أنه قال: **إني كنت بفدك في بعض حيطانها وقد صارت لفاطمة عليها السلام إذا أنا بامرأة قد هجمت عليّ وفي يدي مسحاة وأنا أعمل بها فلما نظرت إليها طار قلبي مما تداخلني من جمالها فشبهتها ببثينة بنت عامر الجمحي، وكانت من أجمل نساء قريش،** فقالت لي: يا ابن أبي طالب، هل لك أن تتزوجني وأغنيك عن هذه المسحاة وأدلك على خزائن الأرض، ويكون لك الملك، ما بقيت .

فقلت لها: **من أنتِ حتى أخطبك من أهلك،** فقالت: أنا الدنيا فقلت لها: **ارجعي فاطلبي زوجاً غيري، فلستِ من شأني؛ وأقبلتُ على مِسحاتي وأنشأت** أقول:

(١) نفحات الولاية، ج٥، ص ٣١.

لقد خاب من غرته دنيا دنية ... وما هي إن غرت قروناً بطائل
أتتنا على زيّ العزيز بثينةٌ ... وزينتها في مثل تلك الشمائل
فقلت لها غري سواي فإنني ... عزوف عن الدنيا ولست بجاهل
وما أنا والدنيا فإنّ محمداً ... رهين بفقر بين تلك الجنادل
وَهَبْها أتتنا بالكنوز ودُرِّها ... وأموال قارون وملك القبائل
أليس جميعاً للفناء مصيرها ... ويطلب من خزانها بالطوائل
فغري سواي إنني غير راغب ... لما فيك من عز وملك ونائل
وقد قنعت نفسي بما قد رُزِقْتُهُ ... فشأنك يا دنيا وأهل الغوائل
فاني أخاف اللّه يوم لقائه ... وأخشى عتاباً دائماً غير زائل(١)

النفس الخائنة ـ تهذيب النفس

«وَنَفْسي بِخِيانَتِها»

النفس: الروح... قال أبو إسحاق: النفس في كلام العرب يجري على ضربين: أحدهما قولك خرجت نفسُ فلان أي: روحُهُ، وفي نفس فلان أن يفعل كذا وكذا أي: في رَوْعِهِ، والضّرب الآخر معنى النفس فيه معنى جملة الشيء وحقيقته، تقول: قتل فلانٌ نفسه وأهلك نفسه أي: أوقع الإهلاك بذاته كلها وحقيقته، والجمع من كل ذلك أنفس ونفوس(٢).

والنفس: الروح(٣).

الخيانة: المخانة: خون النصح وخون الود، والخون على محن شتى. وفي الحديث: «**المؤمن يُطبَعُ على كلِّ خُلُقٍ إلّا الخيانة والكذب**»(٤).

(١) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٨٤.
(٢) لسان العرب، ج ٦، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٨١٨.
(٤) لسان العرب، ج ١٣، ص ١٤٤ مادة «خون».

والخيانة: والنفاق واحد، الا أن الخيانة تقال في مورد الخلفِ بالعهد وعدم أداء الأمانة، والنفاق يقال في مورد التظاهر بالدّين، ثم يتداخلان، فالخيانة: مخالفة الحقّ بنقض العهد في السر. ونقيض الخيانة: الأمانة، يقال: خنت ُ فلاناً، وخنتُ أمانةَ فلان وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾[٢] وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾[٣] أي: على جماعة خائنة منهم[٤].

فهم النص

بلحاظ المقطع السابق من الدعاء المبارك، الذي يحمل الدلالات الواضحة حول رفض الاتهام للعبد في ارتكاب الذنوب، فهناك شريك أيضاً فينبغي حشره ومحاسبته، وهو الدنيا، بهذا اللحاظ يُعوِّل العبد على النفس، ويشير الى أن الاتهام ليس فقط للدنيا، بل النفس ساعدته على ارتكاب الجرائر والذنوب.

والملاحظ أن الدعاء أخذ يتدرج نحو تبرير العبد من خلال إلقاء اللوم، أولاً على الدنيا، وذلك أنها خدعته بغرورها، وبعد أن فرغ من الدنيا، أخذ يتجه ثانياً صوب هذه النفس، حيث أوردته المهالك، وقذفته نحو آبار الخيانة، من خلال التمنّي، ووضع العبد أمام الأمنيات الدنيوية، وبذلك نقض تلك العهود والمواثيق التي أبرمهاَ مع اللّه تعالى، على أنه لن يرجع الى اقتراف الذنوب والمعاصي والآثام، ويجدُ العبد نفسه الآن في أدنى سلم الرقيّ وأنه قد تشبثت نفسه بأدران المادة، وحلت عليه أصداء الآثام.

فإنّ العبد قد أقر بذاك العهد الذي أبرمه مع اللّه جلَّ ثناؤه، حيث لا يرجع الى اقتراف الذنب، ولا يتجاوز حدوده التي عرفها من ذي قبل، حيث يقول الإمام زين

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.
(٢) سورة التحريم، الآية: ١٠.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٣ .
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٣٠٥ مادة «خون» .

العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «**اللهم إني أتوب إليك في مقامي هذا من كبائر ذنوبي وصغائرها وبواطن سيئاتي وظواهرها وسوالف زلاتي وحوادثها توبة من لا يحدّث نفسه بمعصية ولا يضمر أن يعود في خطيئة وقد قلتَ يا الهي في محكم كتابك: إنّك تقبل التوبة عن عبادك وتعفو عن السيئات وتحب التوابين فاقبل توبتي كما وعدت واعف عن سيئاتي كما ضمنت وأوجب لي محبتك كما شرطتَ، ولك يا ربي شرطي ألّا أعود في مكروهك، وضماني ألا أرجع في مذمومك وعهدي أن أهجر جميع معاصيك**»[(١)] هذا الشرط المذكور والعهد، هو بمثابة إقرار، على نفس العبد، وهو بذلك يلزمه في كل مورد من الحياة، حيث لا مجال للاعتذار في أيّ معصية يجنيها هذا العبد، وذلك لأنّ العهد والشرط سيلازمانه طيلة حياته.

إلّا أن هذا العهد لا يدوم أمام هذه النفس الأمارة بالسوء، والتي تسوّف وتحوم حول المعصية، وذلك بسبب المغريات التي تبديها الدنيا، من عروض المفاتن والزينة، وجمال المعصية، والنفس بطبيعتها ميالة إلى اللهو واللعب، يقول الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام عند ذكر مناجاة الشاكرين في المناجاة الثانية: «**إلهي إليك أشكو نفساً بالسُوء أمّارة، والى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك كثيرة العلل طويلة الأمل، إن مسّها الشر تجزع، وان مسّها الخير تمنع، ميالة إلى اللعب واللهو مملوّةً بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوفني بالتوبة**»[(٢)] في هذا المقطع من المناجاة يحمل المفاهيم التي ينبغي أن نلتفت إليها وهي:

المفهوم الأول: إنّ هذه النفس تتصف بالأمّارة بالسوء، التي تأمر العبد باقتراف الأعمال السيئة، وهي ذات النفس التي ذكرت في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[(٣)].

المفهوم الثاني: إنّ هذه النفس متجرّئة على المولى عزَّت آلاؤه، فتتجرّأ بالخطايا،

(١) الصحيفة السجادية دعاء الإمام في ذكر التوبة وطلبها، (٣١)، ص ١٤١- ١٤٢.
(٢) الصحيفة السجادية المناجاة الثانية، ص ٢٩٦.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

وتبادر إلى اقترافها، من غير حياءٍ من اللّه تبارك وتعالى، وهي مولَعَة بالمعاصي، التي تتخذها وقوداً لنشوتها وغرورها.

المفهوم الثالث: وكثيراً ما تكون هذه النفس طريقاً سيئاً الى نزول الغضب الرباني، حيث ارتكاب الذنوب، يُعدُّ واحداً من أهم الموارد التي تزيل الكثير من النعم والبركات.

المفهوم الرابع: أنّ هذه النفس تأخذ العبد إلى طرق مؤدية إلى العثرات، إذ من ضمن المسالك التي يتيه العبد فيها هو دخوله نحو الطرق التي لا يستطيع الخروج منها، فهو يقع مصيدة هذه النفس، في كثير من المواقف.

المفهوم الخامس: أنّها التي تعبّد الطريق لارتكاز المفهوم السيئ للعبد تجاه اللّه تعالى، حيث أنّ هذا العبد ما هو إلا مخلوق تحتوي جنباته على الكثير من السيئات المختزلة في كيانه، وهي جارية في لحمه ودمه، فترضى النفس بحالة عبادية يقوم بها العبد، وتخاطبه، بأنّ الطريق لا يزال في المقدمة، وأنك لازلت في ريعان الشباب، وأمّا التوبة فهي سابقة لأوانها.

المفهوم السادس: أنّ النفس تفرح إذا رأت الشرَّ مرتسماً على الواقع، وتحزن إن رأت الخير، حيث لا تتجاوب مع الخير الذي هو أساس قيام التطور، وإشباع الكثير من النظريات القائمة على واقعنا، بقدر ما تُرسَمُ الفرحة على وجنتيها حين ترى الشر كأحد المرتكزات في الواقع، والذي هو أساس ضياع هذا العالم المليء بالحوادث والظواهر الاجتماعية الشريرة، وهو أساس خراب البيوت المطمئنة.

المفهوم السابع: أنّ هذه النفس لا تأخذ المفاهيم الدينية من باب الأخذ الجادّ، وإنّما إحدى أسباب التهديم والتخريب، فهي تميل إلى اللعب واللهو، ولا يوجد لديها في قاموس الحياة حالة جادّة، وأمر يستدعي الاهتمام إلّا الخراب والتدمير والتخريب، فتجدها مُجدّة في نشوب العداوة بين الآخرين، والتساهل في الفرائض والواجبات الدينية، بينما في موقع آخر هي مولعة في نشوب الحروب والمعاداة، وتحاول أن تتشبث بكل ما لديها من قوّة في القيام بالحوادث السيّئة.

المفهوم الثامن: أنّك لا تجد لها العزيمة نحو السرعة إلى التوبة، وإنّما هي تسوّف بالتوبة، وعجيب أمرها، أنها تلوم العبد على إقدامه على التوبة، حيث تزجره على هذا التصرف الصحيح، وتحاول أن تلوي يديه من قفاه، وتحاصره بارتكاب المعاصي، واقتراف الذنوب.

ولهذا كان العبد محقاً نوعاً ما، في هذه الفقرة من الدعاء الشريف، حينما صرح بأن هذه النفس كانت إحدى العوامل التي سعت الى خداعه وتضليله، والابتعاد عن عبادة اللّه تعالى، حقَّ عبادته.

إلّا أنّ هذا البيان لا يرتقي إلى حسِّ المسؤولية، ذلك أن اللّه تعالى أودع الإنسان موهبة لا توجد عند سائر الكائنات الحية المتواجدة على الأرض وهي العقل، قال تعالى: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[1] وقال اللّه تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[3] وقال اللّه عزَّت قدسياته: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[5] نلاحظ في هذه الآيات المباركة، أنّ الخطاب موجَّه إلى فئات البشر كافّةً، لا المؤمنين فقط. وذلك، لأنّ العقل موجود لدى الناس، في تحركاتهم الفردية، وهذا اللحاظ موجود في الآيات المذكورة، بدليل أن الأشخاص العاقلين هم من يكونون في مقدمة المهتدين والتائبين إلى اللّه تعالى، فنرى أن القرآن يقول ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وما إلى ذلك من آيات واضحة.

وقد ورد عن عبد اللّه بن سنان أنّه قال: سألت أبا عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت له: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين عليه السلام:

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩ ... سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٥) سورة غافر، الآية: ٥٤.

«إن اللّه عز وجل ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرٌّ من البهائم»[1] وهذا التركيب يستدعي قليلاً من التأمل، حيث نلاحظ أن الملائكة تحمل العقل المحض، فلا مجال لأنْ تأتيَ بالمخالفات التي تعلم بأنّها سيّئة. وأمّا الحيوان فإنّ فيه الشهوة فقط، بينما الكلام يختلف جوهريّاً عند الحديث عن الإنسان، فإنّه مركب من العقل، الذي لديه معرفة المصلحة من المفسدة، ومن الشهوة التي لا ربطَ لها بالمصلحة والمفسدة؛ فهو إذاً يحتاج الى أداة تكون السلاح في مواجهة هذه الشهوات التي لم تُراعِ الحياة من المنظور الديني، وهو عملية التفكير.

وهذا هو أول الدرجات التي يصعد بها نحو الرقيّ والسمو الروحي، وقد حثت عليه مرويات أهل البيت عليهم السلام. عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال عيسى بن مريم: **«طوبى لمن كان صمته فكراً، ونظره عبراً، وكلامه ذكراً، وبكى على خطيئته، وسلم الناس من يده ولسانه»**[2].

وعن الحسن الصقيل قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عمّا يروي الناس، (تفكّر ساعة خير من قيام ليلة)، فقال: «**نعم**»، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**تفكّر ساعة خير من قيام ليلة**»، قلت: كيف يتفكّر؟ قال: «**يمر بالخربة وبالدار فيتفكّر، يقول: أين ساكنوك، أين بانوك، ما لك لا تتكلمين**»[3].

وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: «**يا بن آدم! إن التفكّر يدعو إلى البر والعمل به، وان الندم على الشر يدعو إلى تركه، وليس ما يفنى وان كان كثيراً بأهلٍ أن يؤثر على ما يبقى وان كان طلبه عزيزاً**»[4].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**جمع الخير كله في ثلاث خصال: النظر، والسكوت،**

---

(١) علل الشرائع، ج ١، ص ١٥ باب ٦ .

(٢) مشكاة الأنوار، ص ٨١.

(٣) مشكاة الأنوار، ص ٨١.

(٤) مشكاة الأنوار، ص ٨٢.

والكلام، وكل نظر ليس فيه اعتبار فهو سهوٌ، وكل سكوت ليس فيه فكرٌ فهو غفلةٌ، وكل كلامٍ ليس فيهً ذكرٌ فهو لغوٌ»[١].

«إن الإنسان إذا فكّر لحظةً واحدةً، عرف أنّ الهدف من هذه النعم هو شيء آخر، وأن الغاية من هذا الخلق أسمى وأعظم، وأن هذه الحياة الحيوانية ليست هي الغاية بحدّ ذاته، وأن على الإنسان العاقل أن يفكر بنفسه، وأن يترحم على حاله ونفسه المسكينة؛ ويخاطبها: أيتها النفس الشقية التي قضيت سِنِيِّ عمرك الطويلة في الشهوات، ولم يكن نصيبك سوى الحسرة والندامة، ابحثي عن الرحمة، واستحيي من مالك الملوك، وسيري قليلاً في طريق الهدف الأساسي المؤدي إلى حياة الخلد والسعادة السرمدية، ولا تبيعي تلك السعادة بشهوات أيام قليلة فانية، التي لا تتحصل حتى مع الصعوبات المضنية الشاقة. فكّري قليلاً في أحوال أهل الدنيا، من السابقين واللاحقين وتأملي متاعبهم وآلامهم كم هي أكبر وأكثر بالنسبة الى هنائهم، في نفس الوقت الذي لا يوجد فيه هناء وراحة لأيّ شخص»[٢].

والإنسان لكي يصل إلى مقام التفكر الصحيح في ذات الكمال المطلق عليه أن يمر بهذا الطريق الإلهي وهو التقوى فالتقوى هي التي تجسد أصول الفكر الرباني؛ لأن التقوى وقاية النفس من عصيان أوامر اللّه نواهيه وما يمنع رضاه فإذا وقى الإنسان نفسه عن ارتكاب ما يخالف أوامر الباري عز وجل وسار وفق المنهج القرآني فحينها لا يفكر إلّا بما أمر اللّه به وعندها يكون تفكره تفكرا إلهياً قد استوطن فيه جنود الرحمن العظيم بالتقوى وخرج جنود الشيطان اللئيم[٣].

وبهذا ندرك جيّداً كيف أن اللّه تعالى في كثير من آياته في القرآن الكريم والأئمة المعصومين عليهم السلام، كيف أنهم يركزون على مفردة التقوى، وأنها شعار السالك نحو اللّه تعالى، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**عباد اللّه! أوصيكم بتقوى اللّه فإنها حق اللّه عليكم، والموجبة على اللّه حقكم، وأن تستعينوا عليها باللّه، وان**

---

(١) مشكاة الأنوار، ص ٨٢ .

(٢) الأربعون حديثاً، ص ٣٣.

(٣) جهاد النفس في مرحله الخمس، ص ١١٨ – ١١٩.

تستعينوا بها على اللّه: فان التقوى في اليوم الحرز والجنة، وفي غدٍ الطّريق إلى الجنة. مسلكها واضح، وسالكها رابح ومستودعها حافظ. لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين منكم والغابرين، لحاجتهم إليها غداً، إذا أعاد اللّه ما أبدى، وأخذ ما أعطى، وسأل عمّا أسدى»[١].

صفات النفس في القرآن الكريم.

لقد وصف اللّه تعالى في القرآن الكريم النفس، بثلاث صفات.

الصفة الأولى: النفس الأمّارة بالسوء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[٢] حيث هي التي تأمر بالرغبات والأمانيّ والهوى، وأمّارة صيغة مبالغة تشير إلى أن النفس تُلحُّ على الأمر كثيراً، وهي كناية عن عدم شبعها، فالفرد الذي اتّخذ إلهه شهوته الجنسية لا يتأتى له أن يشبع من الجنس ولو أُعطِيَ كلَّ نساء الدنيا، والفرد الذي اتخذ إلهه الشهرة لا يُروى غليله، حتى لو سُخِّرت له الكرة الأرضية بكلها، والذي اتخذ إلهه حُبَّ الرئاسة لا يشبع ولو تسلط على من في الأرض جميعاً؛ وأن هذه الشهوات لا تتزامن مع الأكل الكثير، ولا أكل الإنسان إلى حدّ الانفجار.

فالشهوات والرغبات لا تقف عند حدّ معين، لذا يقول علماء النفس: إن الرجل الشهوانيَّ أو المرأة الشهوانية يفضّلان إرضاء شهواتهما؛ التلذذ بالحرام دون الحلال؛ وإنّ النفس الأمّارة التي لا تُردَعُ تميل إلى استطعام الحرام دون الحلال. هذا إذا تسلّطت الغرائز والأمنيات على النفس البشرية؛ ولا ينتهي تسلط الشهوات على الإنسان إلا بعد أن يدخل نار جهنم الحامية، فالشهوات لا تترك الإنسان إلا بعد إدخاله في أسفل سافلين[٣].

الصفة الثانية: النفس اللوامة، قال اللّه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ

(١) نهج البلاغة، الخطبة (١٩١)، ص ٤٠١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٣) جهاد النفس للأستاذ مظاهري، ص ٤٣٤.

بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[١] حيث المراد من ذلك أنها تلوم الإنسان في هذه الدنيا على اقترافه المعاصي، وارتكاب الذنوب، لعلَّه يرتدعُ عن هذه المخالفات.

الصفة الثالثة: النفس المطمئنة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[٢] وُصِفت بالمطمئنّة؛ لأنّها قد أتت بما يوجب لها الرضا من اللّه تعالى عليها، وحيث أنها أخذت تسلك الطريق نحو تطبيق الضوابط والموازين الدينية في هذه الحياة الدنيوية، فإنّها تكون على حالة من الاطمئنان والراحة الأبدية عند اللّه تعالى.

فهي لم تتخذ المخالفات والمعاصي والذنوب منهجاً تسير عليه في هذه الحياة، بل سعت الى تركيز الفكر الاسلامي كمنهج تسير عليه وفق التعاليم التي نشرتها مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وورد عن سدير الصّيرفي أنّه قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: جعلت فدك يا بن رسول اللّه هل يكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: **لا واللّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك،** فيقول له ملك الموت: **يا وليّ اللّه لا تجزع فو الذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لأنا أبرُّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينك فانظر،** قال: ويمثّل له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين، والأئمّة من ذريتهم عليهم السلام فيقال له: **هذا رسول اللّه وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام رفقاؤك،** قال فيفتح عينه فينظر، فينادي روحه منادٍ من قبل رب العزة، فيقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ **(إلى محمد وأهل بيته)** ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ﴾ **(بالولاية)** ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ **(بالثواب)** ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ **(يعني محمداً وأهل بيته)** ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ **فما شيء أحبُّ إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي**[٣].

حديث جهاد النفس.

(١) سورة القيامة، الآية: ١- ٢ .
(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٧- ٣٠.
(٣) فروع الكافي، ج٣، ص ١٣٥، ح ٢، باب ١٢، أن المؤمن لا يكره على قبض روحه.

عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بعث سريّةً، فلما رجعوا، قال: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر**»، فقيل: يا رسول اللّه ما الجهاد الأكبر؟ قال: «**جهاد النفس**»[1].

تطرح هذه الرواية مفردتين من المفردات الإسلامية:

المفردة الأولى: في الجهاد الأصغر: أنّ التحرك العسكريّ أمرٌ لا بدَّ منه، وهو من أعظم المميزات التي امتاز بها الدين الاسلامي، وهو خاضع لضوابط وقوانين قد أرشد الفقه إليها.

المفردة الثانية: في الجهاد الاكبر: وتخضع الأولى للثانية، بقدر ما تستنتج الضوابط والقوانين الإسلامية، وهي تهذيب النفس على السلوكيات الدينية، وهي تنبع من خلال الالتزام بالأدبيات الأخلاقية، التي استُفيدت من الدين الإسلامي.

وقال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**احمل نفسك لنفسك فإنْ لم تفعل لم يحملك غيرك**»[2].

وقال أبو عبد اللّه عليه السلام لرجل: «**إنّك قد جُعلت طبيبَ نفسك، وبُيِّنَ لك الداء، وعرفت آية: الصحة، فانظر كيف قيامك على نفسك**»[3].

وقال أبو عبد اللّه عليه السلام لرجل: «**اجعلْ قلبك قريناً برّاً، وولداً واصلاً، واجعل علمك والداً تتبعه، واجعل نفسك عدواً تجاهده، واجعل مالك عارية تردُّها**»[4].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**من لم يكن له واعظ من قلبه، وزاجر من نفسه، ولم يكن له قرين مرشد، استمكن عدوه من عنقه**»[5].

(١) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١٦١، باب ١، من أبواب جهاد النفس وما يناسبه.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٥ص ١٦١ باب ١ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٥ص ١٦١ باب ١ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١٥ص ١٦٢ باب ١ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه .
(٥) وسائل الشيعة، ج ١٥ص ١٦٢ باب ١ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**من ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب، وإذا اشتهى، وإذا غضب، وإذا رضي، حرَّم اللّه جسده على النار**»[1].

كيفية تهذيب النفس.

يظن البعض، أن جهاد العدو الخارجي حسب المنظور الطبيعي، المرتكز في ذهنه، هو من أصعب المجاهدات، بالنظر إلى كثرة العدد من الجنود والتحالفات الدولية، ناهيك عن الصفوف المتراكمة من القوانين، التي انحازت الى كيانهم، أضف الى ذلك المخزون العسكري، الذي أصبح، من أقوى العتاد في المنظور البشري، وبالنظر الى قضية الاحتكار الذي تفرضه القوى الكبرى على من يبدي امتعاضه منها، في مسألة بيع الأسلحة والمواد المتفجرة، من صواريخ عابرة القارات وقنابل ذرية، ودبابات محصنة.

هذا غير تلك الحروب التي يشنّها العدو، من تصدير ثقافات وإيديولوجيات، ومفاهيم، يحاول من خلالها تغذية الجيل الناشئ، ومحاولة حرفه عن المسار الاسلامي، ومنهجه الفكري والثقافي، والذي بات الآن متشبّعاً بثقافة الاستعمار، بقدر ما كان السلوك الدخيل هو المسيطر والطابع الأبرز والعام لدى قطاعات واسعة من شبابنا العزيز.

كل هذه العناوين الخطيرة، لم يُبدِ الدين الاسلامي اهتمامه، ولم يركز عليها (كالتركيز على جهاد النفس)، على أنّها قضية مركزية، يلزم إقامة حمايات واقية ودفاعات حصينة من أجلها بقدر ما وضع لها حدوداً وضوابط، حيث ركز على أن تكون وفق منظومة مرسومة، فيكون ضغط الزرّ بيد الحاكم الشرعي، الذي عينه اللّه تعالى لخلقه، فهو من خلال التوفيقات الربانية يستطيع إخراج البلاد الإسلامية، من بلعوم الاحتلال إلى فضاءات اللّه الواسعة.

وبحسب الروايات آنفة الذكر، فإنّ مجاهدة العدو الخارجي، ومحاربته، هو ما سمته بالجهاد الأصغر؛ وبهذه التسمية تكون هذه الحروب، غير مهمّة لدى الدين

(١) وسائل الشيعة، ج ١٥ص ١٦٢ باب ١ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه.

الاسلامي، إلّا حسب الإطار والمنظور الشرعي الذي يقضي به الامام أو الفقيه، وأمّا غير هذه الضابطة، فإنّه يُعتبر خارجاً عن هذا المفهوم جملةً وتفصيلاً.

وعليه فإنّه لا يُعتبر من أصعب المجاهدات، بالمفهوم المرتكز في الذهن، وذلك لكون العدو حين تحاربه، وتسعى إلى الإجهاز عليه، إمّا من طريق قتله، فحينئذٍ قد تخلّصت منه، أو أسره؛ ففي ذلك مجال للهداية الواسعة، وعليه فأنت قد كسبتَ فرداً صالحاً وجديداً للمجتمع الإسلاميّ.

إلّا أنّ الإسلام، قد أولى لجهاد النفس اهتماماً أكبرَ... ووضع له حساباتٍ خاصّةً، في حين أنه قد مكّن كامل جهوزيته لرصد أي هجوم من قبل النفس، التي تمتازُ بأنّها ذات تأثير واسع في قطاعات كبيرة من العالم، على أن الحروب، والخلافات القائمة بين الدول والأفراد، كلها ناتجة عن عدم تهذيب النفس.

فالنفس مصدر أساسيّ، لنشوءِ نزاعات بين مختلف القطاعات في وسط البشر بشكل عام، وهذا يدل على أن هذه النفس أخطر كائن حيّ موجود على هذه الأرض إذا لم تُهذَّبْ وتُزَكَّ، في حين أنّنا نجد القرآن الكريم دائماً يركز على هذه المفردة وهي مفردة ينبغي التركيز عليها، وصبُّ العناية بها أكثر ومحاولة دراستها وفق المنهج الديني، حيث المنطلق الفكري السائد في العالم أصبح عاجزاً عن تهذيب هذه النفس بحسب المنهجية المتبعة والسائدة فيه.

قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا * قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1] إنّ هذا القَسَم الطويل، والذي يُعَدُّ من الأقسام الكبيرة في القَسَم القرآني، ينمُّ عن أمر له من الأهمية بمكان، حيث أنّ اللّه تعالى عندما يقسم، فهو لا يقسم إلّا بالشيء العظيم، فالشمس والقمر والنهار والليل والأرض، كلّ هذه المخلوقات عظيمة، ولها قيمة معنويّة، وماديّة لدى الكائنات الحيّة على وجه البسيطة... فهذه المخلوقات تُعدُّ المصدر الأساس لتنمية وبقاء الحياة في هذا الوجود.

(١) سورة الشمس، الآية: ١ – ١٠ .

و... «يظهر أن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لعباده: إنّي وفّرت لكم كل الوسائل المادية والمعنوية لسعادتكم، فبنور الشمس والقمر أضأت لكم الحياة وباركتها ونظمت لكم الليل والنهار والحركة والسكون، ومهّدت الأرض لحياتكم.

ومن جهة أخرى، خلقت أنفسكم بكل الكفاءات اللازمة، ووهبتكم الضمير اليقظ، والهمتكم معرفة حسن الأمور وقبحها، فلا ينقصكم شيء إذن لطيّ (لبلوغ) السعادة، لماذا إذن ـ مع كل هذا ـ لا تزكون أنفسكم وتستسلمون للدسائس الشيطانية؟»[1].

ولكي نحرز المطلب القرآني لا بدّ من السير والسلوك على منهجية معينة، من أجل المرور بسلاسةٍ وسهولةٍ ومن دون صعوبة تُذكَرُ، وذلك من خلال هذه الطرق الثلاث، التي ذكرها العلماء الأعلام في مجال الأخلاق، جعلنا اللّه في كنفهم، وتحت رايتهم البراقة، والخفاقة بالحق والتي تسير على وفق المنظومة التي رسمها أئمة أهل البيت عليهم السلام:

الطريقة الأولى: المشارطة، وهي أن يشارط العبد نفسه في أول اليوم على أن لا يرتكب فيه أيَّ عمل يخالف أوامر اللّه تعالى، ويتخذه كقرار ويَعزم عليه ويسعى إلى تطبيقه.

«فمن كان تاركاً لبعض الواجبات أو فاعلاً لبعض المحرمات، عليه أن يعزم على فعل كل الواجبات وترك كل المحرمات، ومن وصل إلى الحد الذي لا يترك واجباً ولا يفعل محرماً لا بد أن يعزم على الانتقال إلى المرحلة التي لا يترك فيها مستحباً ولا يفعل مكروهاً، ومن وصل إلى هذه المرحلة عليه أن يصمم على عدم فعل المباح بل يفعل كل أعماله بنية القربة، حتى إذا وصل إلى هذه الدرجة من التقوى عزم على الانتقال إلى باطنه من أجل أن يمرن نفسه على أن لا تفكر بمعصية أبداً لا أن تفعلها، وهكذا كلما صعد مرتبة من مراتب العبادة... تطلّع إلى المرتبة والدرجة الأعلى وعزم عليها»[2].

(١) تفسير الأمثل، ج ٢٠، ص ١٤٨.
(٢) التربية الروحية، ص ٢٤٠.

الطريقة الثانية: المراقبة، وهي أن ينتبه العبد طوال مدة المشارطة إلى عمله ووفقه، فيعتبر نفسه ملزماً بالعمل وفق ما شرط[١].

الطريقة الثالثة: المحاسبة، وهي أن يحاسب العبد نفسه ليرى، هل هو أدى ما شرط على نفسه مع اللّه تعالى، أم أنها خانته في هذه المعاملة الجزئية؟[٢].

تسويف النفس

«وَمِطالي»

المطال: المطل: التسويف والمدافعة بالعِدة والدَّين وَليّانِه، مطله حقّه وبه يمطله مطلاً وامتطله وماطله به مماطلة ومطالاً ورجل مَطُول ومَطّال. وفي الحديث: مطلُ الغنيِّ ظلم[٣].

فهم النص

إنّ عدم إقدام العبد على جعل التقيد بالتعاليم الدينية، والالتزام بها شعاراً، يسير على منهجها، ويتبع مفهومها، هو الذي مكّن الدنيا، لأن تقتحم وتفتح لها باباً ضخماً في القلب، يقول الامام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمرة الثمالي: «**... ولا تجعل ثوابي ثواب من عبد سواك فإنَّ قوماً آمنوا بألسنتهم ليحقنوا به دماءهم فأدركوا ما أمّلوا وإنا آمنا بك بألسنتنا وقلوبنا لتعفو عنّا فأدركْنا ما أمَّلْنا...**»[٤] فإنّ هؤلاء القوم اتّخذوا المكرَ وسيلةً وطريقاً إلى أهدافهم وغاياتهم، حيث لا إيمان في القلوب، فهم يستخدمون اللسان كلقلقة صورية لأغراضهم الدنيئة في الدنيا...وكل هذا التحرك مصدره الغرور الدنيوي، وثمَّة فاعلٌ آخرُ يُعدُّ أحدَ العناصر الاستراتيجية لضياع هذا العبد، وهذا العدوُّ له هو من الوسائل الفتاكة، التي تحرفه عن مساره المستقيم، وهو هذه النفس التي مرَّ للتوّ البحث

(١) راجع الأربعون حديثاً، ص ٣٦.

(٢) راجع الأربعون حديثاً، ص ٣٦ .

(٣) لسان العرب، ج ١١، ص ٦٢٤ مادة «مطل».

(٤) مفاتيح الجنان، ص ٢٤٦.

عنها، والتي كان من أمرها، أنها وضعت له حبل الخداع والمكر، وضلّلته، تحت سيوف الشهوات والملذات الفاتنة.

وبحكم هذه المغريات الدنيوية، والتشجيع الباعث من النفس، فإنّ العبد يلهو عن العمل وإمامه، وذلك لما يراه من أنه ثقيل عليه، حيث يتقاعس عن أدائه ويعتبره من الأعمال العَرَضيّة، والتي لا تحمل أيَّ نوع من الأهمية، ويستمر العبد على هذا المنوال، من التسويف في الواجبات الملقاةً عليه، في حين أنَّه تضيع عليه أثمن الأوقات لأداء العمل الملقى على عاتقه.

والتسويف، هو عامل من عوامل ضياع واحدة من أهم القوى التي يحتاج إليها العبد غداً يوم القيامة، وهي العمل الصالح، والذي كثيراً ما يقع التسويف أو التأخير في انجازه وإتمامه.

«إن أخطر شيء على النفس هو ما تمارسه من مطال وتسويف، فهناك لو أصغى الإنسان إلى ما يجري في أعماقه لوجدَ جدلاً حول الإصلاح الحقيقي... هناك وعي كامل لما يرتكبه من أخطاء، وكأن العقل باعتباره مركز المحاسبات المنطقية يقوم بمناقشة الأعمال والأفعال البشرية ويقوم بتطبيقها على معايير دقيقة؛ فيظهر خطؤها أو صوابها، وهنا يأتي دور الضمير الذي يقوم بإجراء الأحكام، فإن كانت الأعمال خاطئة تعرضت الروح للوم شديد وتقريع ما يدعى بعذاب الضمير، حيث يجد الإنسان نفسه متّهماً ومداناً علىً تصرفه الخاطئ. وإنْ كان صواباً وخيراً أصدرَ الضميرُ كقانون أخلاقي إشارات الارتياح التي تظهر على وجه الإنسان فتشرق البسمة فوق الشفاه والفرحة على الجبين فيما تتألّق أنوارٌ مشعّةٌ في العينين»(١).

وهذا الخطر، إن اقتحم منافذ القلب، وسيطر على مقاليده، يؤدي إلى نتائج وخيمةٍ، منها: أنّ الندمَ سيحلُّ بالعبد إذا هجم الموت عليه، وحينئذ سيدرك أنَّ الحياة الأولى كانت محطَّةً للتعبئة وزرع العمل، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢٥٥- ٢٥٦.

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١] ويستفاد من هذه الآية، أنها ترشد العبد إلى عملية الإنفاق وتقديم الصدقة إلى المحتاجين والفقراء، حتى يكون في صفِّ الصالحين، وقد بيّنت أنّ تفويت هذا العمل يؤدّي إلى الحسرة والندامة، يوم القيامة، وتمنّي الرجوع إلى هذه الدنيا، وتأدية عمل صالح يكون صدقةً ليربح منها؛ إلّا أنّ ذلك لن يكون، قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢] وهذا يدلُّ على أن ذلك قانون حتميّ لا داعيَ لأنْ يؤخَّرَ ولو لحظة واحدة.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾[٥] وهذه الآيات تشير الى أن عملية ضياع عمر الإنسان في أمور تافهة ولا قيمة لها، ستظهر بعد أن يخرج من هذا العالم الى عالم الآخرة، حيث سيرى أنه في تسافل منحدر ويحتاج إلى من يقوّمه، فحينئذٍ يتمنّى أن لو يرجع الى الدنيا لكي يمارس عملاً صالحاً يكون ذخيرةً له في ذلك اليوم الشديد.

وتُعتبر صحبةُ الكسالى المسوّفين، إحدى أسباب المماطلة، حيث تنتجُ عن التفاعل مع هؤلاء أصدقاء السوء، وغيرهم من أمثالهم، وأيضاً هناك من الأعمال ما يوجبُ المماطلةَ والتسوّيفَ، إذ لطالما كان العمل الجادّ هو آخر ما يوضع ضمن الأجندة في حساباتهم، ومن هنا فان الذي يجالسهم بقصد الصحبة والمفاكهة والتشجيع على ما هم عليه، فإنّه غير مجاب الدعاء، ومن هنا نجد العبد في مقطع

(١) سورة المنافقون، الآية: ١٠ .

(٢) سورة المنافقون، الآية: ١١ .

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٩– ١٠٠.

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢١ – ٢٤.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٥٥ – ٥٦.

من دعاء أبي حمزة الثمالي، يبين الحيثيات (التي من خلالها ليس له موضع ذكر عند اللّه تعالى)، وسلب التوفيق والرحمة الخاصة منه، يقول الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**اللهمّ إنّي كلّما قلتُ قد تهيأت وتعبأت وقمت للصلاة بين يدك وناجيتك ألقيت عليّ نُعاساً إذا أنا صليت وسلبتني مناجاتك. ما لي كلّما قلتُ: قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بلية أزلّتْ قدمي وحالت بيني وبين خدمتك سيدي لعلك عن بابك طردتني وعن خدمتك نحيتني أو لعلك رأيتني مستخفّاً بحقك فأقصيتني أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني أو لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني أو لعلك رأيتني آلَفُ مجالس البطّالين فبيني وبينهم خلّيتني أو لعلك لم تُحبَّ أن تسمع دعائي فباعدتني أو لعلك بجرمي وجريرتي كافيتني أو لعلك بقلة حيائي منك جازيتني**»[١].

الدعاء المحجوب بسبب العمل

«يا سَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ اَنْ لا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعائي سُوءُ عَمَلي وَفِعالي»

الحجاب: الستر. حجب الشيء يحجبه حجباً وحجاباً وحجّبه: ستره[٢].

الإساءة: ساءه يسوءه سَوْءًا وسُوءًا وسواءً وسواءَةً وسوايةً وسوائية ومساية ومساءةً ومساءً ومسائية: فعل به ما يكره، نقيض سره[٣].

الفعل: كناية عن كل عمل متعدٍّ أو غير متعدٍّ، فعل يفعلُ فَعلاً فِعلاً، فالاسم مكسور والمصدر مفتوح، وفعله وبه، والاسم الفعل، والجمع الفِعال مثل قدح وقِداح وبئر وبئار[٤].

---

(١) مفاتيح الجنان، ص ٢٤٤ .

(٢) لسان العرب، ج١، ص ٢٩٨ مادة «حجب».

(٣) لسان العرب، ج ١، ص ٩٥ مادة «سوأ».

(٤) لسان العرب، ج ١١، ص ٥٢٨ مادة «فعل».

فهم النص

في هذا المقطع نلاحظ سمت الخضوع والتخشع من العبد تجاه رب العزّة والجبروت، حيث يشير المقطع إلى أنّ العبد يسأل اللّه تعالى بتلك العزّة التي لا يقابلها عزّة في مستواها، فالعالم كله ذليل، أمامَ هذه العزّة، فلا وجود مضاد لها في هذا العالم، قال الإمام المهدي المنتظر عليه السلام وعجل اللّه تعالى فرجه الشريف في دعاء الافتتاح: «**الحمد اللّه الذي مضاد له في ملكه، ولا منازع له في أمره، ولا شريك له في خلقه، ولا شبيه له في عظمته**»[1] ويستفاد من هذا المقطع الشريف، أن الملك كله للّه تعالى قال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وأنه لا منازع له في كل أمر، ولا شريك له في الإبداع والخلقة والتسوية، وأن كلمة «**كن**» توجد بها كامل الأسرار الربانية، وهي مصدر لهذا الوجود اللامتناهي، وأن اللّه تعالى (في هذا الوجود السحيق والذي يمتد أطرافه إلى مسافاتٍ شاسعةٍ) لا يوجد شبيهٌ في العظمة والحكم والجبروت.

فهذا العبد يقسم على اللّه تعالى بهذه العزّة، من أجل أن لا تحجب دعاءه تلك الأعمال والأفعال التي تكون نتاج السلوكيات التي قام بها العبد من ذي قبل، وهذا ينمُّ عن أن العبد أخذ الاعترافُ منه مأخذاً إيجابياً، ليصل الى رضوان اللّه تعالى، فمن جانب خاض تلك الأمواج من الذنوب المتلاطمة، وأخذ يسرد للّه تعالى اعترافه بما اقترفت يداه، ومن جانب آخر يسعى إلى أن لا تكون هذه الذنوب، حجرَ عثرةٍ، أمام تقدمه الى اللّه تعالى، وأن لا تكون لها مفعول الحُجُبِ للأدعية.

والعبد يدرك تماماً تأثير حجاب الأدعية في علاقة العبد باللّه تعالى، حيث يُسبّب سلبَ التوفيق وعدم الاكتراث بما يصنع ويأتي من آثام وخطايا، وهو بذلك وجَّه لنفسه سهم الانتحار، فيما لو كانت الذنوب هي الحجاب الأكبر.

و«الذنوب والمعاصي حجاب يُضرَبُ على الإنسان ويحول بينه وبين ربّه

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح، ص ٢٣٢.

إذا لم يتدارك الأمر بالندم والتوبة والاستغفار، وإذا لم يفعل ذلك لا سمح اللّه، فإنّ الإنسان سيعيش حالة الحرمان من الفيض الإلهي. إن انسداد طريق الدعاء وحرمان العبد من الإجابة مؤشر على طرده من ساحة اللّه تعالى. وفي هذا المقطع من الدعاء يتضرّع (العبد) الداعي إلى ربّ العزّة لألّا تحولَ الذنوب والمعاصي دون وصول الدعاء إلى اللّه عز وجل. وجاء في الأثر أن أمير المؤمنين عليه السلام مرّ مع بعض أصحابه على شابٍّ قد أدار وجهه إلى الحائط وكان يقسم على اللّه عزّ وجلّ بعزته فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّه أقسم على اللّه بما يمن الإجابة. أجل إن اللّه الرحيم القدير قادر على إزالة الحجب التي يصنعها العبد بذنوبه ومعاصيه ويفتح عليه الطريق. إن اللّه الذي قال للنار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، ومنع السكين من ذبح إسماعيل، قادر على إبطال آثار الذنوب والمعاصي في قطع الطريق على دعاء الإنسان وقضاء حاجته**»[١].

العمل... الحجاب.

يعتبر العمل في الشريعة الإسلامية، من العوامل المترتبة على حياة الفرد من ايجاب أو سلب، حيث يرسم الإنسان معالم حياته بيده.

والعمل في المنظور الاسلامي يتفرع الى أمرين:

الأمر الأول: العمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٢] يستفاد من هذه السورة المباركة، أن الإنسان بمختلف عصوره السابقة والحاضرة واللاحقة واقعٌ تحت حبل الخُسران، فهو لا محالةَ واقعٌ تحت البلاء الذي يُحدِّد له توجهاته، وذلك من خلال العصر الذي قد أقسم اللّه به، والعصر بحسب التفسير: «هو عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعصر طلوع الإسلام على المجتمع البشري وظهور الحق على الباطل»[٣]، حيث يلزم على كل البشرية، الذين جاءوا بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، أن

(١) رحلة في الآفاق والأعماق، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٢) سورة العصر.

(٣) تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٤٠٩.

يتقيدوا بما جاء به الرسول ﷺ، وفق المنظور الذي أشارت إليه السورة المباركة، وهي على أربعة أبعاد:

البعد الأول: الإيمان.

البعد الثاني: العمل الصالح.

البعد الثالث: التواصي بالحق.

البعد الرابع: التواصي بالصبر.

فمن استكمل هذه الأبعاد الأربعة، فقد خرج من قالب الخسران الذي أشارت إليه السورة المباركة، ودخل في منظور الاستثناءات المبيّنة.

الأمر الثاني: العمل السيئ، وبحسب التعاليم الدينية، فإنّ الذي يأتي بالسيئ، يكون من الذين قد خسروا خسراناً مبيناً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[2] وهذا العذاب نتاج عمل سيء، حيث الأموال والأولاد هي عمل سيء، بحسب التعاليم التي يُغذّونَ بها أبناءهم، فالفكر المنحرف المبنيّ على قواعد هشّة، والتي ليس بمقدورها التوافق مع الواقع، هو عمل سيئ، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3] إنّ هذه الآية: يوجد فيها تخويف مبطن نوعاً ما، حيث لا يعلم الذي يكتب هذه القليل من دعاء كميل، أنّ أعماله تحملُ له حبل النجاة غداً يوم القيامة، إذ ما أكثرَ التمنيّاتِ والآمالَ التي يحملها؛ من أنها سوف تنجيه في ذلك اليوم؛ لكن فُجأةً يرى أنها مجرّد رمادٍ غير صالح للاستخدام، ولا هو بالذي يحتاجه ذلك المحتاج فضلاً عن المكتفي، فرجاؤنا

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤ - ١٢٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

ومصيرنا بيد اللّه عز وجل وليس بهذا العمل أو ذاك، وذلك لأن مقاليد الأمور بيده تباركت أسماؤه.

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[١] فهذه الآيات الشريفة تدل على أنّ العمل السيئ له تبعات تمتد جذروها الى الأعماق السحيقة من الحياة الدنيا والآخرة.

وبذلك تتكون غشاوة الحجب، حيث تمتنع الرؤية، وتكون غامضة، فلا مجال لرؤية الحقائق والتباحث في خصائص الأمور، فهي تمتزج مع الواقع الذي ركزه العبد من أعمال، وحيث أن أعماله أتت في جانب السلب، فإنّ الحجابَ يتركز على مواقعَ أكثر أهميّةً، من قبيل القلب.

يقول الإمام الخميني أعلى اللّه مقامه الشريف في مسألة الحجاب التي تمنع من التفكير والتدبر في القرآن الكريم، هذا الكتاب المقدس، الذي لم يفتأ أن يكون قد يرفع شكواه إلى ربّ الجلالة[٢]. أحد الحجب الأخرى حجاب الآراء الفاسدة والمسالك والمذاهب الباطلة وهي أحياناً من سوء قابلية الشخص نفسه وفي الأغلب من التبعية والتقليد. وهذه من الحجب التي تحجبنا خاصّةً عن معارف القرآن. فإن ترسّخت عقيدة باطلة في قلوبنا بمجرد استماعنا لها من الأهل أو بعض الجهلة من أهل المنابر فإنّ هذه العقيدة ستحجب ما بيننا والآيات الشريفة الإلهيّة وحتى لو وردت آلاف الآيات والروايات التي تُعارضها فإمّا أن نُعرِض عن ظاهرها أو لا نتفهّمها وهناك أمثلة عديدة عن العقائد والمعارف[٣].

ويقول قُدِّسَ سِرُّهُ أيضاً عن الحجاب: «أحد الحجب الأخرى التي تمنع الاستفادة من

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٩.

(٢) قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ (سورة الفرقان: الآية: ٣٠) وروى سعد الخفّاف، عن أبي عبد اللّه عَلَيْهِ السَّلَامُ انه قال: «... **إنّه سبحانه يخاطب القرآن الكريم، ويقول: يا حجتي في الأرض...كيف رأيت عبادي؟ فيقول: منهم من صانني وحافظ عليّ ولم يضيع شيئاً، ومنهم من ضيعني واستخفّ بحقي وكذب وأنا حجتك على جميع خلقك، فيقول اللّه تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبن عليك اليوم أحسن الثواب ولأعاقبن عليك اليوم أليم العقاب**». مفاهيم القرآن ج ٨، ص ٢٦٨.

(٣) القرآن باب معرفة اللّه، ص ٦١.

هذه الصحيفة النورانية[١] الاعتقاد بأنه لا يحق لأحد أن يستفيد من القرآن الكريم غير ما كتبه أو فهمه المفسرون.

وقد اشتبهوا بين التفكر والتدبر في الآيات الشريفة والتفسير بالرأي الممنوع. ولقد أفرغوا القرآن الكريم بواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة من جميع فنون الاستفادة وهجروه كليّاً، بينما لا ترتبط الاستفادات الأخلاقية والإيمانية والعرفانية مطلقاً بالتفسير لكي يكون تفسيراً بالرأي.

فمثلاً لو استفاد أحد من كيفيّة مذكرات النبي موسى عليه السلام مع الخضر وكيفية معاشرتهما وعن شدّ رحال موسى عليه السلام مع عظمة مقام النبوة ليحصل العلم الذي يفتقده وكيفية عرض حاجته على الخضر عليه السلام كما جاء في الآية: الكريمة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[٢] وكذلك لو استفاد من جواب الخضر واعذار النبي موسى عليه السلام. حيث تتعرف على عظمة مقام العلم وآداب سلوك المتعلم مع المعلم حيث يوجد عشرون نكتة عن الأدب فما علاقة هذه بالتفسير حتّى يُعدَّ تفسيراً بالرأي؟! وكثير من استفادات القرآن أيضاً من هذا القبيل.

فمثلاً إذا استفاد أحد من قول اللّه تعالى في الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] التي هي حصر لجميع المحامد وتخص جميع الأثنية للّه عزّ وجلّ استفاد منها لتوحيد الأفعال ولو قال إنّه يستفاد من هذه الآية: الشريفة أن كل كمال وجمال وعزة وجلال في العالم والعين والقلب المحجوب يُنسب إلى الموجودات هو من اللّه عز وجل ولا يملك أي موجود شيئاً من نفسه. ولذلك فإنّ المحمدة والثناء يخص اللّه عزّ وجلّ فقط ولا يشاركه أحد به، فما دخل التفسير؟. حتى يقال: إنّ هذا تفسير بالرأي أم ليس كذلك. إلى غير ذلك من الأمور التي تستفاد من لوازم الكلام التي لا ترتبط إطلاقاً بالتفسير»[٤].

---

(١) يقصد بذلك القرآن الكريم، حيث الكثير من الناس عند تلاوتهم القرآن لا يتدبرون آياته خوفاً من الوقوع في القول بالرأيّ.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٦.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٢.

(٤) القرآن باب معرفة اللّه، ص ٦٣ - ٦٤.

ويقول قدس اللّه نفسه الطاهرة أيضاً «وواحدة أخرى من الحجب التي تمنع فهم القرآن الكريم والاستفادة من معارف ومواعظ هذا الكتاب السماوي حجاب المعاصي والكدورات الناتجة عن الطغيان والعصيان على رب العالمين»[١].

السر المخفيّ... والفضيحة

«وَلا تَفْضَحْني بِخَفِي مَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ سِرّي»

الفضح: فعل مجاوز فاضح إلى المفضوح، والاسم الفضيحة، ويقال للمفتضح: يا فضوح؛ ويقال: افتضح الرجل يفتضح افتضاحاً إذا ركب أمراً سيئاً فاشتهر به[٢].

والفضح: فضحَهُ فضحاً: كشف مساوِئَه والمعمّى: كشفَ سرَّ لغزه وأظهره[٣].

طلع: طلعتِ الشمس والقمر والفجر والنجوم تطلع طلوعاً ومطلعاً ومطلِعاً، فهي مطالعة، وهو أحد ما جاء من مصادر فَعَلَ يَفعل على مفعِل، ومطلعاً، بالفتح، لغة، وهو القياس، والكسر الأشهر[٤].

السرّ: الإسرار: خلاف الإعلان، قال تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[٦] وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾[٧] ويستعمل في الأعيان والمعاني، والسرّ هو الحديث المكتوم في النفس[٨].

فهم النص

لقد أدرك العبد أن الجرائم التي اقترفها أمام اللّه تعالى، من غير مراقبة منه للّه سبحانه، ستكون محطة للكشف أمام سائر الخلق يوماً ما، فهو الآن يقسم على اللّه

(١) القرآن باب معرفة اللّه، ص ٦٥ .
(٢) لسان العرب، ج٢، ص ٥٤٥ مادة «فضح».
(٣) المنجد، ص ٥٨٦ مادة «فضح».
(٤) لسان العرب، ج٨، ص ٢٣٥ مادة «طلع».
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣١.
(٦) سورة التغابن، الآية: ٤.
(٧) سورة الملك، الآية: ١٣.
(٨) مفردات الراغب الأصفهاني، ض ٤٠٤ مادة «سرر».

تعالى، بتلك العزة التي سترفع عنه الحجب المانعة من وصول الدعاء إلى فضاء رحاب اللّه تعالت أسمائه؛ فهذه العزّة ستمنع أيضاً من انتشار الفضيحة بين سائر المخلوقات كافة، ويكون السرّ الذي يعلم به اللّه تعالى فقط منحصراً باللّه تعالى، وليس لأحد من الخلق أن يعلم به.

وقد مرّ علينا بعض الاعترافات من العبد حول الذنوب التي اقترفها وأتى بها، إذ من الذنوب التي صرَّح بها، الذنوب التي تهتك العصمة، ومنها ما تنزلُ النقمة، ومنها ما تغيّر النعمة، ومنها ما تحبس الدعاء، ومنها ما تنزل البلاء، ومنها ما تقطع الرجاء، وكثير من الذنوب والخطايا والمعاصي التي اقترفها، وقد تدرج بعدها العبد في ذكر الثناء على اللّه تعالى والتمجيد والتسبيح له، وذلك لغاية غفران هذه الذنوب، ومحاولة رفعه من مستنقع الخطايا والمعاصي الى رحاب التوبة والعفو والسماحة.

ويعلم العبد جيداً ما مدى تأثير هذه الأعمال السيئة، فلو انتشرت في أوساط المجتمع ما بين الناس لكان من المفضوحين بينهم، وخصوصاً اذا كان بين الناس معروفاً بالورع والتقوى، ومتابعة صلوات الجماعة، وحضور أمسيات الأدعية، ومحاضرات وندوات العلماء... ومعلوماً بأنه ذو أخلاق طيبة وسلوك لا بأس به أمامهم، ولكن عندما يختلي العبد بنفسه، حيث يأتي ويقترف من الذنوب والمعاصي، ما لو عَلِمَ الناس بها، لكانت كل هذه الكرامات والاحترامات تسقط من الاعتبار...أو حينما يتواجد بين أهله، ويكون شراً مستطيراً عليهم، ويتصف بسلوكيات، لو سمع بها ذلك الذي يعلم عنه جيداً بأنّه ذو أخلاق حسنة، لما صدّق هذه الأخبار، ولقال بأنها أكذوبةٌ ومكيدةٌ وحقدٌ عليه... وهذا موجود بين الناس، وفي أوساطهم، ولكنّ اللّه تعالى برحمته يستر على هذه البشرية، لتسير الحياة بشكل طبيعي.

ويسعى العبد من خلال هذا الخطاب إلى التحرك نحو مدركات المستقبل، حيث كشف الذنوب حاصل من عدّة جهات، فينبغي أن يكون واعياً، حتى لا يقع في متاهة الضياع.

والأرض، هذه التي يمشي عليها العبد، ويرتكب عليها شتى صنوف المعاصي والذنوب، ستكون واحدة من الشهود غداً يوم القيامة ضدّه، وستُنبئ بكلٍّ ما يحدث فوقها، في ذلك اليوم حين تُخرجُ الأرض أثقالها، حيث يكون الثقل ثقل الذنوب والمسؤولية وثقل استحقاق العقوبة. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾(١) أي: أصبحت أرضاً لم يذنب عليها إنسان(٢)، وحينها يقع التساؤل من نفس الإنسان، من الأرض: مالها؟، فيأتيه الجواب بأنها تحدّث عن ما جرى فوقها، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(٣) ويستفاد من هذه السورة المباركة، أن هذه الأرض التي نرتع ونلعب ونلهو عليها، ستكون من أول الشهود على هذا الإنسان المسكين، حيث في ذلك اليوم ستكشف الحقائق وسيفتضح كل من سوّلت له نفسه اقتراف الجرائر والمعاصي.

والجهة الثانية: التي ستكون من الشاهدين على هذا الإنسان، والتي ستعمل على فضح تلك الأسرار المستودعة، والتي لا يعلم بها أحد سوى اللّه تعالى، هي هذه الأعضاء؛ أعضاء الجسم، حيث لا يتوقع الإنسان أن أقرب الأشياء إليه سيكون ضده، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٤) تشير هذه الآيات إلى مشهد يُعدُّ واحداً من المفاصل المهمة لدى الإنسان وهو يقرأ ويشاهد هذا المقطع من الآيات المباركة، حيث يركز على المحاورة التي تدور بين الإنسان وبين سمعه وبصره وجلده، اذ يستفهم الإنسان من أعضاء جسمه قائلاً: كيف تشهدون عليّ؟ فأنا صاحبكم بالأمس فكيف تصدر منكم الخيانة؟ فتجيبُ قائلةً: إنّنا كنّا بالأمس

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.
(٢) منة المنان في الدفاع عن القرآن، ص ٣٢٠.
(٣) سورة الزلزلة.
(٤) سورة فصلت، الآية: ١٩- ٢١.

مُجبرين على اقتراف المعصية، وليس لدينا ما نستطيع به أن نمنعك من الذنوب: وأمّا في هذا اليوم فإنّ اللّه تعالى أوجد لنا ألسنةً نستطيع بها أن نخاطب الآخرين، فصاحبنا هو أوّل من نفضحه، ونخرج مستودع الأسرار التي لا يعلم بها الناس، أمام هذه المحكمة الكبرى، والتي لا يغيب عنها شيء.

هذا وقد ظن هذا الإنسان أن هذه الأعضاء من المحال أن تكون أحد الشهود عليه، وأنه لا يمكن أن تكشفَ وتُبرز عيوبه وآثامه أمام الناس، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١] حيث يستفاد من هذه الآية: المباركة، أن هذا الإنسان كان غافلاً عن وجود شهود أمام عينيه، وتحت تصرفه... هذه الشهود ستكون يوماً ما تابعة للقاضي الذي سيحكم في تلك المحكمة الكبرى والرهيبة التي ستكشف عما في الضمير، وستكشفُ كل أمر يُعمل في الخفاء، وتحت جنح الظلام السحيق.

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[٢] وهذه الآية: الشريفة، تشير الى أنّ في ذلك اليوم الكبير يوم القيامة، سيكون أولاً إسكاتُ صوت المجرم، وإرخاءُ العِنان لأعضائه للإدلاء بالشهادة، ومحاولة سرد ذاك التاريخ الذي قضاه هذا المجرم، في اقتراف المعاصي، وركوب الذنوب، في داخل هذه الحياة الدنيا. وقال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[٣] وهذا نوع آخر من تقديم الشهادة ضدّ هذا العبد الغافل.

ومن هنا كان، كان نظر العبد الى عدم فضحه، والتكتم على تلك الأسرار التي لا يعلم بها أحد غير اللّه تعالى، في مكانه، حيث اخراج تلك الكومة من الذنوب إلى الملأ من الناس يكون ثقيلاً على العبد، وخصوصاً حينما يملك المنزلة الكبيرة، في وسط المجتمع، وما بين الناس.

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٢.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

كتمان الأسرار فنّ.

يحتوي هذا الكون الواسع على الكثير من خزائن الأسرار، التي لا يعلمها إلّا اللّه تعالى، والمكتشَفُ الآن، ما هو إلّا القليل جدّاً في قبال الكمِّ الهائل الذي لا يزال منتشراً بين خفايا وجنبات هذا الكون البعيد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وتبيّن هذه الآية: المباركة، أنّ الإنسان يبقى محدود الطاقة والاستيعاب لمفاهيم ومضامين هذا الكون المجهول والكبير.

وهذا ليس تهميشاً لفكر ودور الإنسان، واستنقاصاً من دور عقله، وإمكانيّاته الفكرية والنظرية، بقدر ما يبيِّنُ جوهر الإنسان الطبيعي، بأنّه عبد مخلوق، ومحدود الطاقات والصفات، في قبال هذا الكون الذي يعيش في أعماقه.

وقد أحاطَ علمُ اللّه تعالى في هذا الكون الذي قصرت يد الإنسان عن الوصول إلى معالمه وحقائقه، بالكثير من الأسرار، حيث التسيير لهذه الكواكب، التي تُعَدُّ بالملايين، وهي أكبر سرّ في هذا الوجود اللامتناهي، إذ لا تصادم فيما بينها.

وهذا عنوان كبير يطرحه لنا اللّه عزّ وجلّ للتفكير والتأمل في هذا الكون، وأنه لماذا لا تحدث عملية تصادم بين الكواكب العملاقة، والتي هي أكبر بكثير من كوكب الأرض بعشرات الأضعاف.

فهل تساءلنا، لماذا لم يكشف اللّه تعالى للبشرية عن كل هذه الأسرار، والتي لا يزال علماء الفلك يُجرون الكثير من الأبحاث لمعرفتها من أجل الوصول إلى نتائجَ مثمرةٍ تخدم البشرية على المدى البعيد. إنها أسرار اللّه عزّ وجلّ وظّفها لحينها، فلا يُطلِعُها إلّا حين الضرورة، فهذا نوعٌ من كتمان السرّ.

إذن، هذا درس ينبغي أن تُستلهم معالمه ومفاهيمه، على أن نحافظ على أسرارنا، ولا نذيعها أمام الآخرين. إنّ اللّه تعالى حين وضع هذه القوانين مثل الجاذبية وغيرها، أراد للانسان، أن يُنقّب في خفايا هذا الكون من أجل الوصول إلى طريق ومنفذ يوصله إلى الحقائق العلمية، ولم يضعها أمام عينيه وبين يديه،

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

وإنّما أخفاها عن ناظِرَيْه من أجل يُحرِّك نفسه للسعي إلى الكشف عن تلك الخفايا.

فعملية كتمان السر والحفاظ عليه قضيّة تحتاج إلى التعوّدِ عليها، وهو نوع من الحفاظ على المكانة الاجتماعية بين المجتمع البشري.

عن الحارث بن الدلهاث مولى الرضا عليه السلام قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «**لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث خصال: سنة من ربه، وسنة من نبيه، وسنة من وليه، فالسنة من ربه كتمان السر، قال اللّه عز وجل:** ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[1] وتشير هذه الرواية إلى أنّ الاستثناء غير خاضع لموازين البشرية في إنسان معيَّن فحسب، وإنّما هو خاضعٌ لموازين وقوانين وضعها اللّه تعالى، فهو يعلم حيث يجعل هذا العلم والرسالة... والرواية توجد فيها نقطة مهمة، وهي في الآية: المباركة أيضاً، حيث بينت أن ظهور الغيب فقط لمن يقبلهم اللّه تعالى أن يكونوا رسلاً ومبلغين عن لسان اللّه تعالى.

ونود هنا سرد قسمٍ من الروايات حول كتمان السر.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أربعة يذهبن ضياعاً، مودة تمنحها من لا وفاء له، ومعروف عند من لا يشكر له، وعلم عند من لا استماع له، وسر تودعه عند من لا حصافة له**»[2].

وقال علي بن الحسين عليه السلام: «**وددت أني افتديت خصلتين في الشيعة ببعض (لحم) ساعدي: النزق، وقلة الكتمان**»[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**طوبى لعبد نؤمة، عرف الناس، فصاحبهم ببدنه، ولم يصاحبهم بأعمالهم بقلبه، فعرفوه في الظاهر، وعرفهم في الباطن**»[4] وفي هذه الرواية تحاول، أن تركز على نقطة مهمة، وهي أنّ القيام بالأعمال الصالحة لخدمة

---

(١) سورة الجن، الآية: ٢٦- ٢٧ مصدر الرواية كتاب الخصال للصدوق ج ١، ص ١٢٢ ح ٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٦٩ باب ٤٥.

(٣) الخصال ج ١، ص ٨٥ ح ٤٠.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٧٠ باب ٤٥.

المجتمع المؤمن، من الأمور الجيدة لدى الإسلام، ولكن ينبغي أن تكون مقيدة بسلاح الكتمان، إذ عملية إشاعة العمل فيها مضرّةٌ لكماله وتمامه، وحيث الكتمان توجد فيه فائدتان مهمّتان هما:

الأولى: أن العبد الكاتم لسره، يحيط بأعمال الناس، والناس لا يعلمون عنه، وعن أعماله الخيرة.

الثانية: أنه يستعين بالكتمان على الإخلاص في العمل، وذلك لأنّ إشاعة العمل لا يؤمَنُ في موردها من الغرور والرياء.

أحاديث حول كتمان السرّ والإذاعة.

قال الإمام أبو جعفر الثاني علي الهادي عليه السلام: «**إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له**»[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**كتمان سرِّنا جهادٌ في سبيل اللّه**»[٢].

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «**ثلاثة يستظلون بظل عرش اللّه يوم لا ظل إلا ظله: رجل زوج أخاه المسلم، أو خدمه، أو كتم له سراً**»[٣].

عن يحيى الحلبي قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «**سبعة يفسدون أعمالهم: الرجل الحليم، ذو العلم الكثير لا يُعرِّفُ بذلك ولا يُذكَرُ به، والحكيم الذي يدين ماله كل كاذب منكر لما يؤتى إليه، والرجل الذي يأمن ذا المكر والخيانة، والسيد الفظّ الذي لا رحمة له، والأمّ التي لا تكتم عن الولد السر وتفشي عليه، والسريع الى لائمة إخوانه، والذي لا يزال يجادل أخاه مخاصماً له**»[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**جُمِعَ خيرُ الدنيا والآخرة في كتمان السر ومصادقة الأخيار، وجُمع الشرّ في الإذاعة ومواخاة الأشرار**»[٥] يستفاد من هذه الرواية، أن

---

(١) تحف العقول، ص ٣٣٦.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٧٠ باب ٤٥.
(٣) الخصال، ج ١، ص ١٨٠ باب الثلاثة ح ١٦٢.
(٤) الخصال، ج ٢، ص ٣٧٢ باب السبعة ح ٢٢.
(٥) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٧١ باب ٤٥.

كتمان السر يتحصل منه المصالح الكثيرة الجمة، وأنّ إشاعته هي عين المفسدة، خصوصاً إذا كان فيه ما يُضرُّ الآخرين.

وقال الإمام الصادق عليه السلام لبعض أصحابه: «**لا تطلع صديقك من سرك، إلا على ما لم لو اطلع عليه عدوك لم يضرَّك، فإنّ الصديق قد يكون عدوك يوماً ما**»(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**سرّك من دمك فلا يجريَنَّ من غير أوداجك**»(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام: «**صدر العاقل صندوق سرّه**»(٣).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**طوبى لكلّ عبد نؤمة لا يؤبه له، يعرف الناس ولا يعرفه الناس، يعرفه اللّه منه برضوان، أولئك مصابيح الهدى، ينجلي عنهم كل فتنة مظلمة، ويفتح لهم كل رحمة، ليسوا بالبُذر المذاييع، ولا الجفاة المرائين**».

وقال: «**قولوا الخير تُعرَفوا به، واعملوا الخير تكونوا من أهله، ولا تكونوا عُجُلاً مذاييعَ، فإنّ خياركم الذين إذا نُظر إليهم، ذُكِرَ اللّه، وشراركم المشّاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبّة، المبتغون للبُراءِ المعايبَ**»(٤).

وممّا جاء على لسان أمير المؤمنين عليه السلام في وصف آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «**هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجَأُ أَمْرِه، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِه، بِهِمْ أَقَامَ انْحِناءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ**»(٥).

فاطمة الزهراء... مستودع الأسرار.

إنّ الدعاء المشهور يقول: «**اللهم بحقِّ الزهراء وأبيها وبعلها وبنيها والسرِّ المستودع فيها**».

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٧١ باب ٤٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٧١ باب ٤٥ .
(٣) نهج البلاغة، ص ٦٨٠ الحكمة رقم ٦.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٨١ باب ٤٥.
(٥) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج٥، ص ٤٤.

والصلاة عليها سلام اللّه عليها: «**اللهمّ صلِّ على فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسرِّ المستودع فيها بعدد ما أحاط علمك**».

«... وأمّا حقيقة السرّ المستودَع، فيظهر لنا فيها عدّة احتمالات:

١ - السرُّ المستودعُ هو المهديّ عليه السلام.

٢ - قد يكون السرُّ المستودعُ إشارةً إلى أن ولاية اللّه تعالى سوف تكون في وُلد فاطمة عليها السلام وأنّ الأئمة المعصومين منها سلام اللّه عليها.

٣ - السرُّ المستودعُ هو أمرهم كما في بصائر الدرجات عن الصادق عليه السلام: «**إنّ أمرنا، سرّ مستتر، وسرّ لا يفيده إلّا سرّ، وسرّ على سرّ، وسرّ مقنع بسرّ**»[1].

٤ - والسرّ المستودعُ هو العلوم الربانية المودعة في فاطمة عليها السلام.

٥ - قد يكون السرُّ هو ما أشارَ إليه الحديث القدسي المروي عن لسان جابر بن عبد اللّه الأنصاري عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن اللّه تبارك وتعالى: «**يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا عليٌّ لما خلقتك ولو لا فاطمة لما خلقتكما**».

٦ - السرّ المستودعُ هو اسمُ اللّه الأعظم»[2].

تعجيل العقوبة

«وَلا تُعاجِلْني بِالْعُقُوبَةِ عَلى ما عَمِلْتُهُ في خَلَواتي مِنْ سُوءِ فِعْلي وَإساءَتي وَدَوامِ تَفْريطي وَجَهالَتي وَكَثْرَةِ شَهَواتي وَغَفْلَتي»

العجلة: طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو من مقتضى الشهوة، فلذلك صارت مذمومة في عامّة القرآن حتى قيل: «العجلة من الشيطان»[3].

والعجلة: العجل والعجلة: السرعة خلاف البطء[4].

---

(١) بصائر الدرجات، ص ٤٤ الباب في أنّ عِلمَ آل محمّدٍ عليهم السلام سِرٌّ مستسرّ.

(٢) الأسرار الفاطمية للمسعودي، ص ٥٥ - ٦٠.

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٥٤٨ مادة «عجل».

(٤) لسان العرب، ج ١١، ص ٤٢٥ مادة «عجل».

والعقاب: مؤخر الرجل، وقيل: عقب، وجمعه: أعقاب، وروي: ويل للأعقاب من النار- واستُعير العقب للولد وولد الولد[١].

الخلوة: الخلاء: المكان الذي لا ساتر فيه من بناءٍ ومساكن وغيرهما، والخُلُوُّ يستعمل في الزمان والمكان[٢].

الدوام: أصل الدوام السكون، يقال: دام الماء، أي: سكن، «ونُهِي أن يبول الإنسان في الماء الدائم». وأدمتُ القِدر ودوَّمتُها: سكّنت غليانها بالماء، ومنه دام الشيء: إذا امتدَّ عليه الزمان[٣].

والدوام: دام الشيء يدوم ويُدام[٤].

التفريط: فَرَطَ: إذا تقدم تقدماً بالقصد يفرُطُ، ومنه: الفارط إلى الماء، أي: المتقدم لإصلاح الدّلو، يقال: فارطٌ وفَرَطٌ، ومنه قوله ﷺ: «أنا فَرَطُكُم على الحوض» وقيل في الولد الصغير إذا مات: «اللهم اجعله لنا فَرَطاً» وقوله: «أن يفرط علينا»[٥] أي: يتقدم، وفَرَسٌ فُرُطٌ: يسبق الخيل[٦].

والتفريط: الفارط: المتقدم السابق، فَرَطَ يفرُطُ فُروطاً[٧].

والجهلُ: على ثلاثة أضرب:

الأول: وهو خلوّ النفس من العلم، وهذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنىً مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام، كما جُعل العلم معنىً مقتضياً للأفعال الجارية على النظام.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما عليه.

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٥٧٥ مادة «عقب».

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢٩٧ مادة «خلا».

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٣٢٢مادة «دوم».

(٤) لسان العرب، ج١٢، ص ٢١٢ مادة «دوم».

(٥) سورة طه، الآية: ٤٥.

(٦) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٣١ مادة «فرط».

(٧) لسان العرب، ج ٧، ص ٣٦٦ مادة «فرط».

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حَقُّهُ أن يُفعَلَ، سواءٌ اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً، كمن يترك الصلاة متعمداً، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾(١) فجعل فعل الهزوِ جهلاً، وقال عز وجل: ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾(٢).

والجاهل تارةً يُذكَرُ على سبيل الذمّ، وهو الأكثر، وتارةً لا على سبيل الذم، نحو: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾(٣) أي: مَن لا يعرف حالهم، وليس يعني المتخصِّص بالجهل المذموم(٤).

والجهل: نقيض العلم، وقد جهله فلان جهلاً وجهالةً، وجهل عليه(٥).

الكثرة: كثر: الكثرة والكثرُ: نقيض القلة(٦).

الشهوة: أصل الشهوة: نزوع النفس إلى ما تريده، وذلك في الدنيا ضربان: صادقة، وكاذبة، فالصادقة: ما يختلُّ البدن من دونه كشهوة الطعام عند الجوع، والكاذبة: ما لا يختلُّ من دونه، وقد يسمى المشتهى شهوةً، وقد يقال للقوة التي تشتهي الشيء: شهوةٌ، وقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾(٧) يحتمل الشهوتين، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾(٨) فهذا من الشهوات الكاذبة، ومن المشتهيات المستغنى عنها، وقوله في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ ﴾(٩) وقوله: ﴿فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾(١٠) وقيل رجلٌ شهوانٌ، وشهوانيٌّ، وشيءٌ شهيٌّ(١١).

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢٠٩ مادة «جهل».
(٥) لسان العرب، ج ١١، ص ١٢٩ مادة «جهل».
(٦) لسان العرب، ج ٥، ص ١٣١ مادة «كثر».
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٤.
(٨) سورة مريم، الآية: ٥٩.
(٩) سورة فصلت، الآية: ٣١.
(١٠) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.
(١١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ مادة «شها».

الغفلة: غفل عنه يغفل غفولاً وغفلةً وأغفلهَ عنه غيره وأغفله: تركه وسها عنه[١].

والغفلة: سهوٌ يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ، يقال: غفل فهو غافل[٢].

فهم النص

بلحاظ الخطاب السابق، أقسم العبد فيه بعزة اللّه تعالى، على أن لا يحجب الدعاء عنه، وأن لا يُفتضحَ بين الناس، وأن تكون أعماله مخفيَّةً؛ وكذلك في هذا المقام فإنّه يطلب بنفس النَفَسِ السابق المذكور، حيث يقول العبد: وبتلك العزة التي رفعت الحجب، وأوقفتَ الفضيحة بين الناس، أيضاً لا تعجّل بالعقوبة عليّ هنا في دار الدنيا بسبب العمل بالمعاصي في الخلوة، وركوب الفعل السيئ، ودوام التفريط والوقوع في كثير من الجهل الذي لا أعلم به، والقوة القويّة والطاغية من الشهوة والغفلة.

وفي كل عمل نتائج يجنيها العبد من إقدامه عليه، سواءٌ أكان هذا العمل صالحاً أم طالحاً، فإنّه يقطف الثمار في نهاية العمل في الدنيا وعند الآخرة، حيث العلّة التي نتج عنها عمل صالح، فان خير هذه العلة سوف تتولد منها نتائج محسوسة ومعنوية في هذه الدنيا والآخرة، تقوم على المباني التي أسّسها العبد من عمله هذا.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٣] ومقتضى هذه الآية: المباركة، أنّها تحاولُ أنْ تزرعَ المفهوم التوعويَّ الذي يقوم على إدراك المضامين الدينية بحقائقها، لا بما يفهمه عامّةُ الأفراد من الناس، حيث يتبيَّنُ أنّ نتائج العمل الصالح منقسمةٌ إلى فئتين أساسيتين لا ثالثة لهما.

الفئة الأولى: النتائج المثمرة التي يحصلُ العبد عليها من هذه الحياة الدنيا، وهي الحياة الرغيدة والطيبة، وهي (بحسب الموروث الروائي) القناعة، إذ حين

(١) لسان العرب، ج ١١، ص ٤٩٧ مادة «غفل».

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٠٩ مادة «غفل».

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٧.

سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية، قال: «**هي القناعة**»[١] ومن المعلوم جيداً أن مفهوم القناعة لا مكان له في عالم الآخرة، فنتيجة العمل الصالح هي نيل الحياة الرغيدة والطيبة.

«وينبغي أن لا نعطي لهذه المفاهيم صفة تخديريّةً أبداً، وإنّما الهدف الواقعي من بيان الرضا والقناعة هو القضاء على الحرص والطمع وإتباع الهوى في نفس الإنسان، التي تعتبر من العوامل المؤثرة في إيجاد الاعتداءات والاستغلال والحروب وإراقة الدماء، والمسببة للذل والأسر»[٢].

ويتجلّى هذا المفهوم بشكل واضح من خلال هذه الآيات المباركة، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾[٣] يستفاد من هذه الآية، أنّ الفلاحَ كان نتيجةَ التوبةِ الخالصةِ، والإيمان والعمل الصالح في هذه الحياة الدنيا، وبحسب الموروث الروائي، فإنّ التوبة والعمل الصالح والإيمان، مختصَّةٌ فقط بهذه الدنيا.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**اليوم عمل بلا حساب وغداً حساب بلا عمل**» وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٤] وبمقتضى الآية: الشريفة فإنّ الرحمة تعمّ الدنيا أيضاً، حيث الهدوء والجلوس أمام القرآن بشكل مؤدَّب، له نتائج وعواقب صالحة يجني ثمارها الإنسان في هذه الدنيا وفي الآخرة.

والفئة الثانية: وهي النتائج التي تثمر سلباً على العبد، بسبب العمل الذي يقدم عليه، حيث العمل السيئ له مردودات وآثار سلبية على الإنسان، كأكل الحرام، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «من أكلَ لقمة حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ولم تستجب له دعوة أربعين صباحاً، وكل لحم ينبته الحرام فالنار أولى به، وإنّ اللقمة الواحدة

(١) نهج البلاغة، ص ٧٤٢ الكلمات القصار رقم ٢٢٩ .
(٢) تفسير الأمثل، ج ٨، ص ٢١٢.
(٣) سورة القصص، الآية: ٦٧.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

تنبت اللحم»[١] ونلاحظ الأثر السلبي قد ظهر بشكل واضح، حيث تناول اللقمة الحرام، سواءٌ من خلال سرقة مال أو النصب والاحتيال، أو الاستثمار الغير مشروع، أو الاحتكار الظالم، فإنّ مردودات وعائدات هذه العناصر التجارية كلّها تصب في خانة الحرام، وبالتالي، فإنّ العقوبة تتمثل من خلال عدم قبول الصلاة لمدة أربعين ليلة، وحجب الدعاء لغاية أربعين يوماً، ومن المعلوم أن سلب اللطف الإلهي عن العبد ولو يوماً واحداً، سوف يخلف المصاعب والأزمات، التي تبقى آثارها إلى آمادٍ طويلة.

وقال رسول ﷺ: «**من مشى إلى طعام لم يُدْعَ إليه فقد دخل سارقاً وخرج مغيّراً**»[٢] ويستفاد من هذا النص المبارك، أن الذاهب إلى مأدبة ما من غير دعوة، يُعدُّ سارقاً، حيث دخل مكاناً لم يسمح له بدخوله، وبعدها يقول النص المقدس «**وخرج مغيراً**» فإنّ هذه العبارة، تحاول أن تركز على نقطة التأثير والعقوبة، التي تنال العبد من خلال التغيير الذي يطرأ عليه، سواءُ في ماله، أو في جسده، أو في نفسه، أو صحته، أو في أيّ شيء لا يتوقعه، كل ذلك كان بسبب الجلوس على مائدة طعام لم يُدْعَ إليها، ولا ينبغي التهاون في مثل هذه الأمور، وذلك لأنّ العاقبة تمتدُّ إلى بطون متعاقبة، وهذا مجرب بالحس والواقع، والكتاب الذي نقلنا منه هذه الأحاديث توجد فيه الكثير من الشواهد والمصاديق التي تحكي عن مثل هذه الفئات، حيث التجريء كان عنوان الموقف.

ولهذا كان العبد يحترز في مثل هذه المواقف من المعاصي كما يقول الإمام سيد العابدين عليه السلام: «... **أي رب جللني بسترك واعف عن توبيخي بكرم وجهك فلو اطّلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته ولو خفتُ تعجيل العقوبة لاجتنبته لا لأنك أهون الناظرين إليّ وأخفُّ المطلعين عليّ بل لأنك يا رب خير الساترين وأحكم الحاكمين وأكرم الأكرمين ستّار العيوب غفّار الذنوب علاّم الغيوب تستر الذنب**

(١) مفاسد الحرام في المال والطعام ج١، ص ٢٩.
(٢) مفاسد الحرام في المال والطعام ج١، ص ٣٢ .

بكرمك وتؤخر العقوبة بحلمك»[١] يشير هذا المقطع الى أن العبد يحاول أن يتجنب اقتراف الذنب، فيما لو كان المُطّلعُ غير اللّه تعالى، وكان أحدَ المخلوقين من بني البشر، فإنّه حينئذٍ يبتعد عن الاقتراف، وذلك يعلم مسبقاً بالسجية، أن نشر العقوبة التي وصلت الى آذان الناس ليست بالهينة.

ومن الاحترازات التي يتسلح العبد بها لدفع العقوبات الدنيوية هذا الدعاء الذي يداوم عليه طوال ليالي شهر رمضان المبارك، حيث يقول الداعي: «**أعوذ بجلال وجهك الكريم أن ينقضي عني شهر رمضان أو يطلع الفجر من ليلتي هذه ولك قبلي تبعة أو ذنب تعذبني عليه**»[٢] إذ يركّز العبد على اللجوء الى رب العالمين، من أجل الوصول الى فضاء التوبة والغفران، حيث يتعوذ العبد بجلال وجه اللّه الكريم، وبنور اللّه الذي أضاء ضياؤه وشملت ألطافه أرجاء هذا الوجود الواسع العظيم، من أن ينصرم عنه شهر رمضان، هذا الشهر الذي تنزل رحمات وألطاف اللّه تعالى فيه، هذا الشهر الذي تجمعت فيه البركات والغفران، هذا الشهر الذي قال رسول اللّه ﷺ فيه: «**إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فسلوا ربكم أن لا يغلقها عليكم وأبواب النيران مغلقة فسلوا ربكم أن لا يفتحها عليكم والشياطين مغلقة فسلوا ربكم أن لا يسلطها عليكم**»[٣] فقبل أن ينصرم هذا الشهر الشريف، للعبد ذنوب وتبعات قد أتى بها من ذي قبل ولم يلتفت إليها، فهو يخشى أن يعذبه اللّه تعالى على هذه الذنوب والتبعات، والآن يدعوه ويسأله أن يغفرها اللّه له.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[٤] وتبين لنا هذه الآية: المباركة، أن نتيجة المخالفة الشرعية تؤدي الى هذه الكارثة المشؤومة، حيث كان سبب نزول هذه الآية: «أن اللّه سبحانه أمر اليهود أن يسبتوا – أي أن يقطعوا أعمالهم – يوم السبت، وهذا الأمر شمل طبعاً

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي، ص ٢٤١.

(٢) مفاتيح الجنان، ص ٢٣٦.

(٣) مفاتيح الجنان، ص ٢٢٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٦٥ .

أولئك القاطنين قرب البحر الذين يعيشون على صيد الأسماك، وشاء اللّه أن يخبر هؤلاء، فكثرت الأسماك يوم السبت قرب الساحل بينما ندرت بقية الأيام. وطفقَ هؤلاء يتحايلون لصيد الأسماك يوم السبت، فعاقبهم اللّه على عصيانهم ومسخهم على هيئة حيوان»[١] فهذا نوع من العقوبات الدنيوية التي ينزلها اللّه تعالى على المخالفين، الذين لم ينصاعوا للضوابط الشرعية، وإنّما مالوا إلى مشتهياتهم ولذائذهم السفيهة.

روايات في هذا الشأن.

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إن اللّه عز وجل إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وله ذنب ابتلاه بالسقم، فان لم يفعل ذلك له ابتلاه بالحاجة، فإن لم يفعل به ذلك شدّد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب، قال: وإذا كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحّح بدنه، فان لم يفعل به ذلك وسع عليه في رزقه، فإن هو لم يفعل ذلك به هوّن عليه الموتَ ليكافِيَهُ بتلك الحسنة**»[٢].

وقال الإمام أبو عبد اللّه الصادق عليه السلام: «**إن العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يُكفّرها، ابتلاه بالحزن ليُكفّرها**»[٣].

حيث العبد الذي التزم بالمبادئ وأخذ بالمفاهيم والقيم كعنوان له، في المسير في هذه الدنيا؛ لكنه انحرف عن مسيره في محطة من محطات حياته، حيث اقترف بعض الذنوب، بشتى أنواعها، من قبيل، شتم عرض مؤمن، أو اعتداء على إنسان بالظلم، أو إشاعة فاحشة تسيءُ إلى فردٍ من المؤمنين ظلماً وعدواناً، ومن غير ذنب، فإنّ الرواية يستفاد منها، أن هذا العبد اذا كان اللّه يُحبُّهُ، يبتليه ببلاء من قبيل المرض، أو فقد عزيز عليه، أو خسارة اقتصادية، قبل أن يقبضَ روحَهُ، حيث يكفّرُ ذنوبه من خلال الأذى والهمّ والغمّ والمرض وشتى المصائب، في هذه الدنيا، وقبل أن يخرج منها، حيث يخرج العبد من الدنيا حينئذٍ وهو مصفى من أدران

(١) تفسير الأمثل، ج١، ص ١٧٦.
(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥.
(٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥.

الذنوب والمعاصي، فإن لم تُستكمل الطهارة من الذنوب في هذه الدنيا يأتي الباقي من خلال قبض الروح، حيث تنتزع الروح بشدَّة ألم قاسية جدّاً، حتى يصل إلى اللّه تعالى وهو طاهر من الذنوب، وتلك الذنوب التي اقترفها قد أخذ كامل جزائه في عالم الدنيا، لتكفيرها من خلال صنوف البلاء.

وإن كان العبد لا يُحبّه اللّه تعالى، فإنْ كان لديه عمل صالح، فإنّه يزيد من النعم عليه، ولا يخرج من هذه الدنيا حتى يستكمل كلَّ ما يحمل من الحسنات، حتى أنّ طريقة قبض الروح سهلة، فإنّ ملَكَ الموت يقبضها منه بكلّ راحة وسلاسة، حتّى يصل إلى اللّه تعالى، وهو لا يوجد لديه حسنة في صحيفته، إذ استنزفها في عالم الدنيا، في حين أنّه ليس له أيّ حجة أمام اللّه تعالى بشأن الحسنات التي يعلمها في دار الدنيا، فقد استكملها من خلال النعم التي أفاضها عليه في هذا العالم، من قبيل العيش المرفه، والحياة الرغيدة، والسكن في القصور، وفيما بين الحدائق الجميلة، وتلك الأرضي الزراعية الضخمة، التي لا يستطيع أن يحصل عليها الفقير والعامل الذي يكون أجرُهُ لا بأس به.

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: قال اللّه عز وجل: «**وعزتي وجلالي لا أُخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها، إمّا بسقم في جسده وإمّا بضيق في رزقه وإمّا بخوف في دنياه فإنْ بقيت شَدَّدْتُ عليه عند الموت؛ وعزّتي وجلالي لا أُخرج عبداً من الدنيا وأنا أُريد أن أعذّبه حتى أوفيَهُ كلَّ حسنة عملها إمّا بسعة في رزقه وإمّا بصحة في جسمه وإمّا بأمن في دنياه فإن بقيت عليه بقية هوّنت عليه بها الموت**»[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ المؤمنَ لَيهوِّلُ عليه في نومه فيُغفَرُ له ذنوبه وإنه ليُمتهَنُ في بدنه فيُغفَرُ له ذنوبه**»[٢].

وقال الإمام أبو عبد اللّه عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام في قول اللّه عز وجل:

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥ .
(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٥ – ٤٣٦.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[١]، **«ليس من التواء عرق، ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم، ولا خدش عود إلا بذنب ولما يعفو اللّه أكثر فمن عجل اللّه عقوبة ذنبه في الدنيا فإنّ اللّه عزّ وجلّ أجلُّ وأكرم وأعظم من أن يعود في عقوبته في الآخرة»**[٢].

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: **«لا يزال الهمُّ والغمُّ بالمؤمن حتّى ما يَدَعَ له من ذنب»**[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: **«مرّ نبيّ من أنبياء بني إسرائيل برجل بعضه تحت حائط وبعضه خارج منه شعثته الطير ومزقته الكلاب، ثم مضى فرفعت له مدينة فدخلها فإذا هو بعظيم من عظمائها ميت على سرير مسجى بالديباج حوله المجمر فقال: يا رب أشهَدُ أنَّك حَكَمٌ، عدلٌ، لا تجور، هذا عبدك لم يشرك بك طرفة عين أَمَتَّهُ بتلك الميتة وهذا عبدك لم يؤمن بك طرفة عين أمتّه بهذه الميتة؟! فقال: عبدي أنا كما قلت حكم عدل لا أجور، ذلك عبدي كانت له عندي سيئة أو ذنب أمتّه بتلك الميتة لكي يلقاني ولم يبقَ عليه شيء وهذا كانت له عندي حسنة فأمتّه بهذه الميتة لكي يلقاني وليس له عندي حسنة»**[٤].

وعن أبي الصّباح الكناني قال: كنت عند أبي عبد اللّه عليه السلام فدخل عليه شيخ فقال: يا أبا عبد اللّه أشكو إليك وُلدي وعقوقهم وإخواني وجفاءهم عند كِبَر سنّي، فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: **«يا هذا إن للحق دولة وللباطلِ دولة وكل واحد منهما في دولة صاحبه ذليل وان أدنى ما يصيب المؤمن في دولة الباطل العقوق من ولده والجفاء من إخوانه وما من مؤمن يصيبه شيئاً من الرفاهية في دولة الباطل إلا ابتُلِي قبل موته، إما في بدنه وإما في ولده وإما في ماله حتى يخلصه**

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٦.
(٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٧.
(٤) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٧.

اللّه مما اكتسب في دولة الباطل ويوفّر له حظّه في دولة الحق. فاصبرْ وأبشِرْ»[١].

نماذج من العقوبات في الدنيا لأعداء وقتلة الإمام الحسين عليه السلام:

١ - عن يعقوب بن سليمان قال: سمرت أنا ونفر ذات ليلة فتذاكرنا قتل الحسين عليه السلام فقال رجل من القوم: ما تلبَّس أحدٌ بقتله إلّا أصابه بلاء في أهله وماله ونفسه، فقال شيخ من القوم: فهو واللّه ممن شهد قتله وأعان عليه فما أصابه إلى الآن أمر يكرهه، فمقته القوم وتغير السراج وكان دهنه نفطاً، فقام إليه ليصلحه فأخذت النار بأصبعه فنفخها، فأخذت بلحيته، فخرج يبادر إلى الماء فألقى نفسه في النهر وجعلت النار ترفرفُ على رأسه فإذا أخرجه أحرقته حتى مات ـ لعنه اللّه[٢].

٢ ـ وعن القاسم بن الأصبغ بن نباتة قال: قدم علينا رجل من بني دارم ممن شهد قتل الحسين عليه السلام مُسوَدَّ الوجهِ وكان رجلاً جميلاً شديدَ البياض، فقلت له: ما كدت أعرفك لتغيّر لونك، فقال: **قتلت رجلاً من أصحاب الحسين أبيض بين عينيه أثر السجود وجئت برأسه، فقال القاسم: لقد رأيته على فرس له مرحاً، وقد علق الرأس بلبابها وهو يصيب ركبتيها، فقلت لأبي: إرفع الرأس قليلاً أما ترى ما تصنع به الفرس بيديها؟ فقال لي: يا بني ما يُصنَعُ به أشدّ، لقد حدّثني فقال: ما نمت ليلةً منذ قتلتُهُ إلّا أتاني في منامي حتى يأخذ بكتفي فيقودني ويقول: انطلق فينطلق بي إلى جهنم فيقذف بي فيها حتى أُصبِحَ، قال: فسمعت بذلك جارة له فقالت: ما يَدَعُنا ننام شيئاً من الليل من صياحه قال: فقمت في شباب من الحي فأتينا امرأته فسألناها، فقالت: قد أبدى على نفسه قد صدقكم**[٣].

٣ ـ وعن المنهال بن عمرو قال: دخلت على علي بن الحسين عليهما السلام ـ عند منصرَفي من مكة ـ فقال عليه السلام لي: « **يا منهال ـ ما صنع حرملة بن كاهلة الأسدي**»؟ فقلت: تركته ـ حياً ـ بالكوفة. قال: فرفع يديه ـ جميعاً ـ.

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٢) عقاب الأعمال، ٢٥٩.

(٣) عقاب الأعمال، ٢٥٩ - ٢٦٠.

فقال: «**اللهمَّ أذقْهُ حَرَّ الحديد. اللهمَّ أذِقْهُ حرَّ الحديد. اللهمَّ أذِقْهُ حرَّ النار**».

قال المنهال: فقدمت الكوفة ـ وقد ظهر المختار ـ وقد كان أُخبِرَ بمكان حرملة بن كاهلة ـ فوجّه في طلبه.

فما لبثنا أن جئ به.

فلما نظر إليه المختار قال لحرملة: الحمد اللّه الذي مكنّني منك.

ثم قال: الجزّارَ الجزّارَ. فأُتِيَ بجزّار.

فقال له: اقطع يديه. فقُطِعتا.

ثمّ قال له: اقطع رجليه. فقُطِعتا.

ثم قال: النّارَ النّارَ. فأُتِيَ بنارٍ وقَصَبٍ. فأُلقِيَ عليه. واشتعلت فيه النار...[١].

٤ ـ وجد شمر بن ذي الجوشن في ثقل الحسين عليه السلام ذهباً. فدفع بعضه إلى ابنته، **ودفعته إلى صايغ، يصوغ لها منه حلياً، فلمّا أدخَلَهُ النارَ صار هباءً، فأخبرت شمراً بذلك، فدعا بالصائغ، فدفع إليه باقي الذهب. وقال: (أدخِلْهُ النارَ بحضرتي). ففعل الصائغ، فعاد الذهب هباءً**[٢].

٥ ـ من جملة ما جرى في اليوم الذي أقبلوا برأس سيد الشهداء عليه السلام الى عبيد اللّه بن زياد ـ عليه اللعنة ـ في قصره: قال بعضهم: حدّثني بعض من حضر ذلك اليوم، قال: رأيت ناراً قد خرجت من القصر... فولّى عبيد اللّه بن زياد ـ هارباً ـ من مجلسه إلى بعض البيوت... وارتفعت النار، وتكلّمَ الرأسُ بصوت فصيح ولسان طلق، حتى سمعه عبيد اللّه بن زياد وجميع من في القصر، وهو يقول: إلى أين تهرب ـ يا لعين ـ إن عجزت عنك النار ـ في الدنيا ـ فما تعجز عنك ـ في الآخرة ـ. قال: هي مثواك يوم القيامة. قال: فوقع كل من كان حاضراً ـ على ركبهم ـ سجداً... من تلك النار وكلام الرأس... فلطموا على رؤوسهم لأجل

(١) جزاء أعداء وقتلة سيد الشهداء عليه السلام في دار الدنيا / حرملة بن كاهل الاسدي، ص ١٢٣ - ١٢٤.
(٢) جزاء أعداء وقتلة سيد الشهداء عليه السلام في دار الدنيا / شمر بن ذي الجو شن، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

ذلك. فلما ارتفعت، وسكت الرأس، رجع عبيد اللّه بن زياد وجلس في مجلسه، ودعا بالرأس، فأُحضِرَ بين يديه - وهو في طست من ذهب - وجعل - عليه اللعنة - يضرب بقضيب في يده على ثناياه وينكتها ويقول: قد أسرع الشيب إليك - يا أبا عبد اللّه[1] .

(١) جزاء أعداء وقتلة سيد الشهداء عليه السلام في دار الدنيا / عبيد اللّه بن زياد، ص ٣١٣ - ٣١٤.

الفقرة السابعة

«... وَكُن اللّهُمَّ بعِزَّتِكَ لي في كُلِّ الاَحْوالِ (فِي الاَحْوالِ كُلِّها) رَؤوفاً وَعَلَي في جَميعِ الاُمُورِ عَطُوفاً اِلـهي وَرَبّي مَنْ لي غَيْرُكَ أَسْأَلُهُ كَشْفَ ضُرّي وَالنَّظَرَ في اَمْري، اِلهي وَمَوْلاي اَجْرَيْتَ عَلَي حُكْماً اِتَّبَعْتُ فيهِ هَوى نَفْسي وَلَمْ اَحْتَرِسْ فيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوّي، فَغَرَّني بما اَهْوى وَاَسْعَدَهُ عَلى ذلِكَ الْقَضاءُ فَتَجاوَزْتُ بما جَرى عَلَي مِنْ ذلكَ بَعْضَ حُدُودِكَ، وَخالَفْتُ بَعْضَ اَوامِركَ فَلَكَ الْحَمْدُ (اَلْحُجَّةُ) عَلي في جَميعِ ذلِكَ وَلا حُجَّةَ لي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُكَ وَاَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ...».

الرأفة والعطف

«وَكُنِ اللّهُمَّ بِعِزَتِكَ لي في كُلِّ الأحوالِ رَؤوفاً، وَعَلَي في جَميعِ الاُمُورِ عَطُوفا»

الدلالة اللغوية.

كن: ما يحفظ فيه الشيء. يقال كننت الشيء كنّا: جعلته في كِنٍّ، وخُصّ كننت ببيت أو ثوب، وغير ذلك من الأجسام[1].

الأحوال: أصل الحول تغيّرُ الشيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التغيّر قيل: حال الشيء يحول حؤولاً، واستحال: تهيّأ لأن يحول، وباعتبار الانفصال قيل: حال بيني وبينك كذا[2].

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٧٢٦ مادة«كـن».

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢٦٦ مادة «حول» أو «حال».

الرأفة: الرحمة، وقد رؤف فهو رئف ورؤوف، نحو يقظ، وحذرٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١)(٢).

العطوف: العطف يقال في الشيء إذا ثُنِيَ أحدُ طرفيه إلى الآخر، كعطف الغصن والوسادة والحبل، ومنه قيل للرداء المثنيّ: عطاف، وعطفا الإنسان: جانباه من لدن رأسه إلى وركه، وهو الذي يمكنه من بدنه. ويقال: ثنى عطفه: اذا أعرض وجفا، نحو: ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾(٣)وصعَّرَ بخدِّه، ونحو ذلك من الألفاظ، ويستعار للميل والشفقة إذا عُدّى بعلى، يقال: عطف عليه وثناه، عاطفة رحم، وظبية عاطفة على ولدها، وناقة عطوفة على بوّها، وإذا عدّى بعن يكون على الضدّ، نحو عطفت عن فلان(٤).

فهم النص

من الملاحظ أن العبد استخدم مؤخراً مفردة العزّة، في الفقرات القليلة الماضية من الدعاء المبارك، وهذا الاستخدام له دلالاته ومبرراته، حيث في المواقف الماضية نستقرئ، أنّ العبد كان في حضرة الآخرين، غير اللّه تعالى، يستعين بهمٍ في قضاء حاجاته، ورغباته، ومشتهياته، ومثل هذا الموقف يكون من العبد وبالاً على نفسه.

والعزّة إذا لم يكن مصدرها من اللّه تعالى، فإنها سوف تؤول إلى الذلة، وذلك من كون أن اللّه تعالى مالك العزة جميعاً، قال اللّه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٥)، وبهذا يتحرك العبد وفق المنظور القرآني، الذي يعتبر العزّة مختصَّةً باللّه تعالى فحسب، حيث ولاية المؤمنين سند وثيق في هذه الأرض، وإنّ قوة العزة بسبب السير والسلوك

(١) سورة النور، الآية ٢.
(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٣٧٣ مادة «رأف».
(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٣ .
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٥٧٢ مادة «عطف».
(٥) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

وراء المؤمنين الذين بصّرهم اللّه تعالى بحقائق الأمور، والآية تحمل المذمة لأولئك الذين جعلوا تلك الفئة الضالة سنداً لهم في تحركاتهم الفكرية، والسياسية، والدينية، ولذلك تشير الى أن كمال العزة متواجدٌ لدى اللّه تعالى.

وهذه الرواية تحاول أن تركز على هذه النقطة التي تقول، بأنّ الخروج عن قانون الإيمان، وعن زمرة المؤمنين، سيُنتِجُ الذلَّةَ وفق المنهجية الإسلامية، عن سفيان الثوري قال: قال الإمام الصادق عليه السلام لي: «**يا سفيان من أراد عِزّاً بلا عشيرة وغنىً بلا مال وهيبةً بلا سلطان فلينتقلْ من ذلِّ معصية اللّه إلى عزِّ طاعته**»(١).

وهكذا اتخذ العبد مساره ومنهجيته الواضحة، على طول تحركاته في هذه الحياة الدنيا، وذلك من حيث اللجوء الى اللّه تعالى، في حين تجتمع تلك الأماني والغرور والخداع الدنيوي والخيانة، وكل تلك المصطلحات الأخلاقية، التي مرّت علينا في الدروس المنصرمة، تجتمع وتصطدم مع الجبهة الربانيّة التي لها منطلقات ومنظومات مترتبة، خاضعة لموازين الثابت الديني.

فبهذه المنظومة ينظِّم العبد حياته على قواعدها، حيث بالعزّةِ يعود العبد إلى استخدام القَسَم كوسيلة له للخلاص من واقعه المزريّ، فهو من خلال هذه العزّة التي يعتزّ بها، يطلب من اللّه تعالى، أن يهبَهُ نسائم رحماته في كل هيئة من الهيئات التي يكون عليها، حيث اللطائف الرحمانية التي تنزل من عند اللّه تعالى، لها عامل البقاء والدوام في الحياة، والعناية الربانية على العبد تسكب عليه أمطار العفو والغفران، والرحمة والرضوان.

فهيئة التذّكر والتفكير، والطاعة والمعصية، والأكل والشرب، والنوم واليقظة وغيرها، تحتاج الى من يمدها بطاقة الوجود والبقاء، من أجل أن تعطيَ كامل نتاجاتها ووظائفها في الحياة، فمن دون الدعم الالهي لها وهبوب النسائم في كل لحظة من تحركاتها لن تستمر في الحياة للحظة.

فالإنسان حال تذكره، بحاجة الى رحمة اللّه تعالى، وتلك اللطائف والنسمات

---

(١) الخصال، ج ١، ص ٢٠٣ ح ٢٢٢.

التي ينزلها رب العالمين على هذا الإنسان حتى يستوعب التذكر بشكل متقن، وهي التي تُنعشُ فكرَ الإنسان في حال تذكره أمراً ما.

واللّه تعالى ومن خلال رحمته ورأفته وعطفه على هذا الإنسان، أوجد له مناخاً وجوّاً يعيش فيه، وذلك من خلال التغيّر المحدَث من الليل والنهار وغياب وشروق الشمس والقمر، فلو أن اللّه تعالى جعل على هذا الإنسان الليل سرمداً لم يُمكنْه أن يعيش، وذلك لطبيعة تكوين جسد الإنسان وحاجته للضوء، حتى يتكيّفَ مع مجريات الحياة قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾(١) حيث تشير هذه الآية: المباركة، الى أن استمرارية الليل الى يوم القيامة توجد فيه مضرة للكائنات الحية الموجودة على الأرض، والآية تحاول أن تطرح تساؤلاً مشروعاً، هو كيف سوف تصنع يا أيها الإنسان، إذا جعل اللّه تعالى الليل سرمداً... جعله مظلماً الى يوم القيامة، حيث لا تشرق الشمس فيه... فتصور أنك اليوم تنام على سريرك وغداً حين تستيقظ لا ترى ضياءً، فالشمس غير مشرقة، وقد علمت أن هذه الحالة ستبقى الى يوم القيامة، فماذا سيكون برنامج حياتك، في هذا اليوم والأيام القادمة... حيث أغلب الأعمال تحتاج الى ضياء ونور، والآلات المبتكرة لا ترتقي الى مصافِّ نور الشمس التي تُعطي الحيوية والنشاط، والجدّ والمثابرة، بخلاف ذلك المصباح الضخم فإنّه لا تتولد منه الحيوية والنشاط.

ومن هنا فان اللّه تعالى برحمته ورأفته وعطفه، جعل اختلافَ الليل والنهارِ رحمةً للعالمين، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾(٢)... الليل ليس ثابتاً وكذلك النهار فكما أن هناك ليلاً طويلاً ونهاراً قصيراً، هناك نهار طويل وليل قصير، وهناك تساوٍ بين الليل والنهار ففي ٢١/ ١٢/ من كل عام يكون فيه الليل أطول ليل في السنة، وكذلك في ٢١/ ٦/ من كل عامّ يكون فيه النهار أطول نهار في السنة، وفي ٢١/ ٣ و ٢١/ ٩ من كل

(١) سورة القصص، الآية ٧١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

عام يتساوى الليل والنهار... وعلى هذا فإنّ في ٢١/ ٣ يتساوى الليل والنهار ليوم واحد ثم يبدأ العد بالارتفاع حيث يزيد النهار شيئاً فشيئاً في كل يوم دقيقة أو دقيقتين حتى يصبح النهار أطول يوم في السنة ٢١/ ٦... إذاً كل يوم يتم فيه اختلاف الليل والنهار، وبحركة دائمة لا تتوقف، وهذا الحال منذ أن خلق اللّه سبحانه الشمس والأرض، وسيبقى هذا الحال الى يوم القيامة وهذا من آيات اللّه سبحانه(١).

فاللّه سبحانه خلق الإنسان وهو أعلم بما يحتاج اليه... فجسد الإنسان يحتاج بالشتاء لتدني الحرارة الى ليل طويل ينام فيه ويهدأ وإلى نهار قصير؛ لأن الحرارة المتدنية لا تساعد على العمل(٢).

اللجوء إلى الأول والآخر

«اِلـهي وَرَبّي مَنْ لي غَيْرُكَ أَسْأَلُهُ كَشْفَ ضُرّي، وَالنَّظَرَ في اَمْري»

الدلالة اللغوية

مَنْ: تكون اسمَ شرط جازماً كما في القرآن ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾(٣). واسمَ استفهام نحو «مَن أتى». واسماً موصولاً مشتركاً أكثر استعماله للعاقل كما في القرآن ﴿يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(٤). ونكرة موصوفة نحو مررت «بمَن معجبٍ لك» كما لو قلت «برجُلٍ»(٥).

ومَنْ: عبارة عن الناطقين، ولايعبر به عن غير الناطقين إلّا إذا جُمِعَ بينهم وبين غيرهم، كقولك: رأيت من في الدار من الناس والبهائم، أو يكونُ تفصيلاً لجملة يدخل فيهم الناطقون، كقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي﴾(٦). ولا يُعبَّرُ به عن غير

(١) الموسوعة الكونية الكبرى، ج ٦، ص ٢٥١.
(٢) الموسوعة الكونية الكبرى، ج ٦، ص ٢٥٢.
(٣) سورة النساء،:الآية ١٢٣ .
(٤) سورة الحج، الآية ١٨ .
(٥) المنجد، ص ٧٧٥ مادة«من».
(٦) سورة النور، الآية ٤٥.

الناطقين إذا انفرد، ولهذا قال بعض المحدثين في صفة أغنام نفي عنهم الإنسانية: تخطِئ إذا جئت في استفهامها بمَن تنبيهاً أنهم حيوان أو دون الحيوان. ويعبر به عن الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ﴾[١] وفي أخرى: ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[٢] وقال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[٣][٤].

الغير: التهذيب: غير من حروف المعاني، تكون نعتاً وتكون بمعنى لا، وله باب على حدة. وقوله: مالكم لا تناصرون؛ المعنى مالكم غير متناصرين[٥].

الغير: تكون بمعنى سوى، والجمعُ أغيار. نحو «جاء غيرهم» أي: سواهم. و«جاء القوم غيرَ فلان» فغير مستثنى بها منصوبة وفلان مضاف إليه[٦].

الغير: غير: يُقال على أوجهٍ:

الأول: أن تكون للنفي المجرد من غير إثباتِ معنىً به، نحو: مررت برجل غير قائم.

الثاني: بمعنى (إلّا) فيستثنى به، وتوصف به النكرة، نحو: مررت بقومٍ غيرِ زيدٍ. أي: إلّا زيد.

الثالث: لنفي صورة من غير مادّتها، نحو: الماءُ إذا كان حارّاً غيرُهُ إذا كان بارداً، قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[٧].

الرابع: أن يكون ذلك متناولاً لذاتٍ نحو: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[٨]، أي: الباطل[٩].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٢٥.
(٢) سورة يونس، الآية ٤٢.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣١.
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٧٧٨ مادة«مَنْ».
(٥) لسان العرب، ج٥، ص ٣٩ مادة«غـير».
(٦) المنـجد، ص ٥٦٣ مادة «غـير».
(٧) سورة النساء، الآية ٥٦.
(٨) سورة الأنعام، الآية ٩٣.
(٩) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦١٨ مادة «غـير».

الكشف: رفعك الشيء عما يواريه ويغطيه، وكشفه يكشفه كشفاً وكشفه فانكشف وتكشف[١].

والكشف: كشفت الثوب عن الوجه وغيره، ويقال: كَشَفَ غمَّه. قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[٦] قيل: أصلُه مِن: قامت الحرب على ساق، أي: ظهرت الشدّة، وقال بعضهم: أصلُهُ من تذمير الناقة، وهو أنه إذا أخرج رجلُ الفصيلَ من بطنِ أُمِّه، فيقال: كُشِفَ عن السّاقِ[٧].

الضرّ: في أسماء اللّه تعالى: النافع الضارّ، وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرُّهُ حيث هو خالق الأشياء كُلّها: خيرها وشرّها ونفعها وضرّها. والضَّرُّ والضُرُّ لغتان: ضِدُّ النفع[٨].

النظر: حِسّ العين، نظره ينظره نظراً ومنظراً ومنظرةً ونظر إليه[٩].

النظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمّل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الرويَّةُ. يقال: نظرتَ فلم تنظُرْ. أي: لم تتأمّل ولم تتروَّ، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[١٠] أي: تأمّلوا[١١].

---

(١) لسان العرب، ج ٩، ص ٣٠٠ مادة «كشف».
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤١.
(٤) سورة ق، الآية ٢٢.
(٥) سورة النمل، الآية ٦٢.
(٦) سورة القلم، الآية: ٤٢.
(٧) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٧١٢ مادة «كشف».
(٨) لسان العرب، ج ٤، ص ٤٨٢ مادة «ضرر».
(٩) لسان العرب، ج ٥، ص ٢١٥ مادة «نظر».
(١٠) سورة يونس، الآية: ١٠١.
(١١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٨١٢ مادة «نظر».

الأمر: الشأن، وجمعه أمور، ومصدر أمرته: إذا كلّفته أن يفعل شيئاً، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلّها[١].

فهم النص

أنّ سطوة الذنوب التي يتكبدها العبد من جراء تكالبه على ملذات الدنيا وشهوات النفس، هي التي أوعزت اليه باللجوء الى غير اللّه تعالى، لأن القلب قد أظلم من الذنوب، كما في الحديث: أنَّ في القلب نكتةً بيضاءَ في القلب، فاذا أذنب العبد ظهرت نكتة سوداء، حيث قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فاذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب تلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد، حتى يُغطّي البياض فإذا غطّى البياض، لم يرجع صاحبه إلى خيرٍ أبداً، وهو قول اللّه عز وجل:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[٢][٣].

هذه الذنوب التي كوّنت حجاباً سميكاً على القلب، هي التي سوف تخلق أضراراً على مستوى التفكير الصحيح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٤] ويستفاد من هذه الآية: المباركة، أن القلب هو واحد من العناصر المهمة في تكوين مسار الحياة الجيدة والقائمة على دعائم الفكر وتصحيحه، وفي حال اختلال هذا العنصر المهمّ، فانه بالتالي تختل الموازين القائمة على ترجمة الواقع بأسلوب صحيح.

ومن هنا كان العبد يتحرك ـ سابقاً ـ وفق منظومة منحرفة نتيجة اختلال أحد العناصر المهمة في كيانه وهو اسوداد القلب، وكما بينت الرواية المتقدمة، فمع اقتراف ذنب واحد، وتمادي العبد في جنايته، فإنّ القلب يبقى مذنباً ومظلماً،

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٨٨ مادة«أمر».
(٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٣٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

وبذلك يتخبّط في طريقه، ولا يهتدي الى السير والسلوك نحو اللّه تعالى، فهو يتشبث بقشور هذه الدنيا، وذلك من خلال الرجوع الى من هو في رتبة العبد من الممكنات، لقضاء حاجاته.

ويلحظ من خلال هذا النص من الدعاء المبارك، ومن خلال قراءة تلك النصوص التي مرّت علينا، أن العبد مرّ على عدة محطات تناول فيها المساعدة من أطراف ممكنة، ليست بيدها المقدرة على حماية نفسها فضلاً عن من دونها، وهو في هذا المقطع الذي بين أيدينا يستشعر الوحدة في غفران ذنوبه، ولا يجد من يرفع عنه هذه الأزمة سوى اللّه تبارك وتعالى، فهو يقول: لا يوجد من أذهب اليه غيرك في رفع الضرِّ والمشكلات التي تصيبني في هذه الحياة الدنيا، وفي القضايا الدينية والدنيوية، ناهيك عن تلك المشكلات التي تصيبني من أذى نفسي، والأضرار التي تتشبث بي. وأنا عندما ألتفت إلى هذه الدنيا وما يحلّ فيها من جرائم وقضايا لا أتحملها، فأنا استعينك في حلِّ هذه المشكلات التي لا أستسيغ حملها، فلا يوجد مَنْ يرفع عنّي كلّ هذه الأعباء الشديدة والمتكاثرة عليَّ غيرك يا اللّه تباركت وتعاليت.

فالعبد لا يوجد أحدٌ يَفِرُّ إليه غير اللّه تعالى، يشكو له مشكلاته وهمومه، ومهما كان الابتعاد عن اللّه تعالى بعيداً، فإنّ العبد بحاجة الى اللّه تعالى، قال اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[1] وقال الإمام زين العابدين وسيد الساجدين عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «... **وأنا يا سيدي عائذ بفضلك هارب منك إليك متنجز ما وعدت من الصفح عمن أحسن بك ظنا**..»[2] فالعبد لا بُدَّ له أن يرجع إلى اللّه تعالى في قضاء حاجاته ومتطلباته في هذه الحياة الدنيا... واللّه عز وجل برحمته وفضله يستقبله ويرحب به مهما كانت جريرته وإثمه وذنبه.

(١) سورة فاطر، الآية ١٥.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثما لي، ص ٢٤٠.

تزيين المعصية

«اِلهي وَمَوْلاي اَجْرَيْتَ عَلَي حُكْماً اتَّبَعْتُ فيهِ هَوى نَفْسي وَلَمْ اَحْتَرِسْ فيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوّي»

الدلالة اللغوية

جرى: المَرُّ السريع، وأصله كمرّ الماء، ولما يجري بجريه. يقال: جرى يجري جِريةً وجَرياناً[١].

عليّ: إشارة إلى المتكلم نفسه.

الحكم: وهو الحكم الشرعي[٢]: وهو العلم والفقه والقضاء بالعدل. وهو مصدر حكم يحكم[٣].

الاتّباع: تَبِعَ الشيء تبعاً.

فهم النص

أنزل اللّه تعالى على لسان رسوله الكريم ﷺ، ضوابطه وأحكامه التشريعية، وجعلها دستوراً للبشريّة ونظاماً يطبقونه على معاملاتهم العبادية والتجارية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٤] في هذه الآية: المباركة تتبيّن ثلاثة أهداف أساسية ومهمة في مجال التربية والسلوك وهي:

١ - تلاوة آيات اللّه تعالى.

٢ - تزكية وتهذيب النفس.

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ١٩٤ مادة «جرى».

(٢) شرح دعاء كميل، ص ١٢٦.

(٣) معجم مجمع البحرين، ص ٣١٦ مادة «حكم».

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٢.

٣ - تعليم الكتاب والحكمة، وهي تبيين المعارف الحقيقية في القرآن الكريم[١].

ومن خلال هذه الأهداف الثلاثة، وغيرها المبثوثة في مطاوي الآيات المباركة الأخرى، أخذ الإسلامُ يشُقُّ طريقَهُ بين صفوف الناس بكلِّ سلاسة، وذلك بفضل السماحة، والأدلة العقلية، التي يكتنز ها ويحملها ويدعو إليها، وأخذت مجاميع البشرية تستجيب للأوامر والنواهي التي تخرج من ينابيعه الأصيلة، من أحكام شرعيّة... وإرشادات أخلاقية وسلوكية.

وقد حذَّر اللّه تعالى، من وجود السلوكيات السيئة، التي، ينبغي على الفرد المؤمن تجاوزها وعدم الاقتراب منها، ويساعد على ذلك، اتّباع الحكم الشرعي الذي أمر به اللّه تعالى وعلى المؤمنين، أن يتقيّدوا به.

وفي هذا المقطع من الدعاء المبارك نرى العبد في مشهد من المشاهد، التي يعترف فيها بخطاياه، على المنوال الذي سار عليه منذ انطلاقته في الدعاء المبارك، حيث يتناول العبد اعترافه بالتجاوز ومحاولة اللف والدوران بالحكم الشرعي وإخضاعه لمبررات تقع في مصلحته. هذا أولاً، وثانياً: وهذا التجاوز مبنيّ على اعتبارات مادية تقع مصلحتها في ساحة النفس، خاضعة لهوى النفس. ولا يوجد شيء يسمى اعتباراتٍ مُقْنِعةً عند ما يكون التجاوز هو تجاوز الحكم الشرعي.

وحسب ما يفيد الشطر الثاني من الدعاء في هذه الفقرة، فإنّ العبد لم يتّخذ الدّرع الحاميَ للصدّ لمحاولة الهجوم على مملكة النفس، وانما مكّن للأغيار من الدخول إلى ساحة النفس من دون مقاومتها، وإنّ النفس ميّالةٌ للّعب واللهو فهي تنجرُّ بكلِّ بساطة نحو الليونة والميوعة في ساحات الشهوة والدلع إذا لم توجد الأهداف التي بينتها الآية: سابقة الذكر.

ونجد أنّ مخالفة العبد للتكاليف الربانية التي كُلِّف بها من قبل اللّه تعالى، إنّما كانت نتيجة تركه الجانب العقلي، حيث لم يدع مجالاً للعقل، في أنْ يوضح له، أن

(١) راجع تفسير الميزان، ج١٩، ص ٢٧٦.

مخالفته لأوامر اللّه، ونواهيه تسبب العقاب الأخروي والبعد عن الساحة الربانية المقدسة، وسلب التوفيق في الدنيا.

وحيث أنه لم يضع الحارس ـ الذي هو تطبيق المفاهيم والقواعد والضوابط الإسلامية على أرض الواقع، وبصورة واعية لمتطلبات الزمن وتحت بلورة المفهوم المستمد من الشريعة ـ الحامي من اختراق وانتهاك تلك المحطة الإيمانية، وحيث أن العبد لم يحفظ هذه المفاهيم والعناوين البارزة، أخذت المخالفات الشرعية، تبرز بصورة واضحة ومتجلية في أعماله، اذ الخداع الذي لعبه الشيطان سلك مساراً متطوراً في الجذب وللانضمام إلى حزبه، حيث استخدام الأساليب الفتّاكة، مكّن على أساسها من اختراق حصون رصينة ومتماسكة، إلّا أنّها غير مسلحة ومحروسة بالورع والتقوى، فاستطاع الشيطانُ أن يجعل له طريقاً واسعاً، وأن يحتل مكانةً مرموقةً في قلب العبد.

وقد استخدم الشيطان أسلوب الزينة بحسب اعتراف العبد حيث أشار، إذ «أنني لم أتحفظ في المخالفات مما زيَّنَهُ لي عدوي، وهو الشيطان حيث حبَّبَ لي الفواحش، وارتكاب المحرمات، فهو قد حَسَّنَ ذلك في نظري، فأقدمت عليه منقاداً لشهواتي النفسية فكانت الشهوات هي: النافذة التي أطل منها العدو عليّ فكنت مخدوعاً من قبله»[١].

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٢] وقال اللّه تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٣] ترشدنا هذه الآيات الكريمة الى الحذر من تخطيط الشيطان للوقوع في المزالق، حيث تشير الآيتان إلى «مسألة تربوية دقيقة ومهمة، وهي أنّ الانحرافات تدخل ساحة الإنسان بشكل تدريجيّ، لا دفعيّ فوريّ. فتلوّث شابٍّ بالقمار، أو شربِ الخمر، أو بالمخدّراتِ مثلاً يتمُّ على مراحل:

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨ .

يشترك أوّلاً متفرجاً في جلسة من جلسات الخمارين أو المقامرين، ظانّاً أنّه عمل اعتياديّ لا ضيرَ فيه.

ثم يشترك في القمار للترويح عن النفس (دون ربح أو خسارة)، أو يتناول شيئاً من المخدّرات بحجة رفع التعب أو المعالجة أو أمثالها من الحجج.

وفي الخطوة الأخرى يمارس العملَ المحرَّم قاصداً أنه يمارسه مؤقتاً.

وهكذا تتوالى الخطوات واحدةُ بعد أخرى ويصبح الفردُ مقامِراً محترفاً أو مدمناً خطراً.

وساوس الشيطان تدفع بالفرد على هذه الصورة التدريجية نحو هاوية السقوط، وليست هذه طريقة الشيطان الأصلي فحسب، بل كلُّ الأجهزة الشيطانية تنفذ خططها المشؤومة على شكل «خطوات» لذلك يحذّر القران كثيراً من اتخاذ الخطوة الأولى على طريق الانزلاق»[١].

تغريرُ الشيطان

«فَغَرَّني بِما اَهْوى»

الدلالة اللغوية

الهوى: ميل النفس الى الشهوة. ويقال ذلك للنفس المائلة الى الشهوة، وقيل سُمِّيَ بذلك؛ لأنّه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كلِّ داهية، وفي الآخرة الى الهاوية[٢].

فهم النص

لطالما كانت ساحة العبد مرتعاً[٣] للعابثين فيها، حيث أنهم يرسمون السياسات

(١) تفسير الأمثل، ج١، ص ٣٠٩.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٨٤٩ مادة«هوى».

(٣) ومن هنا نجد الإمام زين العابدين عليه السلام، كيف أنه يركز على هذه النقطة من خلال دعائه «مكارم الأخلاق» حيث يقول سلام الله عليه: «**وعمّرني ما كان عمري بذْلةً في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعًا للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ**». فهذه إشارة إلى أنّ قسطاً كبيراً من الجماعات البشرية، كانت ساحاتهم الميدانية محلّاً ومرتعاً وميداناً للشيطان، والإمام عليه السلام وضع علامة =

الرئيسية التي يتوقف عليها مصيره، وذلك من خلال تركيز أساليب الخدع والمكر والتضليل المُعمّي، والذي يحجب الأبعاد المستقبلية «الاستراتيجية»، عن مسار العبد في مشروعه التعبدي للّه تبارك وتعالى.

هنا في هذا المقام يحاول العبد أن يبرر انغماسه في بركة العصيان للّه تعالى، من حيث التجاوز للحكم الشرعي المقدس، بأنّ أباطيلَ الشيطان قد خدعتني، إذ سعى بشتى الوسائل التضليلية والانحرافية، الى أن يجعل من المعصية والميل إلى الشهوات والغوص في بحار الذنوب، محطّاتٍ جماليّةً وإبداعيّةً، بحيث كنت مُغفّلاً ومخدوعاً في كل الأشواط والاندفاعات نحو تلك الساحات العفنة.

لقد استخدم الشيطان لهذا العبد أساليب متعدّدة، ومن جملتها الغرور، الذي أخذ يحتالُ من خلاله في كيفية سحب البساط من تحت العبد، وقد استطاع ذلك من خلال الاستدراج، وميله نحو الهدف المرسوم اليه، وهو غافل عن ذلك ،وهناك طرق مختلفة يُبيّنها هذا القول للإمام قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**كم من مستدرَجٍ بالإحسان إليه، ومغرورٍ بالستر عليه، ومفتونٍ بحسن القول فيه! وما ابتلى اللّه أحداً بمثل الإملاء له**»[1].

في هذا القول المبارك ثلاثة أمور مهمة وعملية:

١ - الإحسان إلى العبد بضروب النعم.

٢ - ستر المعصية عليه.

٣ - حسن القول فيه وثناء الخلق عليه[2].

فهذا المأثور من قول الامام عليه السلام، يدل على أن هذا العبد غافل عمّا يخطَّطُ

= فارقة لعمر الإنسان الذي هو مرهون بهذه الدنيا، بين أن يكون البذل في سبيل اللّه تعالى من خلال المجاهدة والعبادة والخوض في العمل الإسلامي، وبين أن يكون ثكنة من ثكنات الشياطين... فالإمام عليه السلام يرى الموت أهونَ عليه من البقاء في ظلّ سلطة الشيطان الطاغي.

(١) نهج البلاغة، ص ٧١١ الحكمة ١١٦.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن ميثم البحراني ج٥، ص ٢٨٢.

له من وراء ظهره، حيث يُغدَقُ عليه بالنعم والمراتب والدرجات الشريفة، إلّا أنّه في حقيقة الأمر هو استدراج نحو الهاويةَ والتضليل، فكأنّ هذا الاحسان مجرَّدُ إيهام من أجل اكتساب خدمته وطاقته، فلذلك هو سرعان ما سيقع في مصيدة القضًاء على نفسه، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**طوبى لمن لم تقتله قاتلات الغرور**»(١)، وهذا يعني أن الغرور قاتل معنوي، قد استُخدِمَ كوسيلة لاكتساب جماعات مغفّلة من أمثال هذا العبد، الذي أهمل تحصين نفسه وحراستها، فكان سهلاً اقتحامها والعبثُ في ممتلكاتها وتخريبُ وسرقةُ أغلى جوهرة فيها وهي الحالة المعنوية.

وعلى الخصوص اذا كانت النفس هي الساعد الأيمن في مساعدة العدو الخارجي على الاقتحام، فإنّها الطامة الكبرى، ونحن قد رأينا في الدرس السابق كيف أن هوى النفس مثّل رقماً أساسياً في مخالفة التشريع الإسلامي، وقد أشار الإمام زين العابدين عليه السلام إلى قوّة النفس ومدى هوادتها في التمسك بالمبادئ والقيّم الدينية، والرخاوة والليونة التي تظهرها عند ما تكون في بحار المعصية والذنوب، وقد أشار في مناجاته إلى أنّ ثمَّة عدوّاً، قد رسم خططاً إستراتيجيّةً لنيل محطة العبد الثمينة، حيث يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**الهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمّـارة، وإلى الخطيئة مبادرةً، وبمعاصيك مولعةً، ولسخطك متعرّضةً، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل طويلة الأمل، إن مسّها الشر تجزع، وإن مسّها الخير تمنع، ميّالة إلى اللعب واللهو، مملوءةً بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوِّفني بالتوبة. إلهي أشكو إليك عدوّاً يُضلّني، وشيطاناً يُغويني، قد ملأ بالوسواس صدري، وأحاطت هواجسه بقلبي يعاضِدُ لي الهوى، ويُزيِّن لي حبّ الدنيا، ويحول بيني وبين الطاعة والزلفى**»(٢).

(١) غرر الحكم، ص ٢٤٧ ح٤٧.
(٢) الصحيفة السجادية مناجاة الشاكرين المناجاة الثانية، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

إعانة الشيطان والقضاء والقدر

«وَاَسْعَدَهُ عَلى ذلِكَ الْقَضاء»

الدلالة اللغوية.

السَّعد والسَّعادةُ: معاونة الأُمورِ الإلهيّة للإنسان على نيلِ الخيرِ، ويُضادُّه الشقاوة[١].

القضاء: فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً، وكلٌّ واحدٍ منهما على وجهين: إلهيّ، وبشريّ[٢].

فهم النص

لا يزال العبد يموجُ في بحر الاعتراف بالذنوب والخطايا التي صدرت منه، وقد وصلت اعترافاته بحسب المقاطع الأخيرة إلى المكانة التي تؤهله الى الشجاعة في الاعتراف بكلِّ الخطايا بكيفية تدلُّ على الخضوع والخشوع والندم على ما فرّط من عمره، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[٣] تشير الآية: المباركة الى مضمون تربوي خاضع لموازين ضبط النفس والحياة الاجتماعية، وهو أن فعل الفاحشة على مستوى وحدود المجتمع يُسبِّب الدمار والخراب لجماعات وأفراد كثيرين، ومعه تكون العقوبة أشدّ وأقسى، ومع ذلك يكون الاعتراف والاقرار سيد الموقف مع الاستغفار والندم، وهو علامة على أن مثل هذا العبد لا يمتلك روح الإصرار على الذنب، وإنّما سرعانَ ما ترجع إليه روحيّة الإيمان فيبدأ بالاستغفار والتوبة الى اللّه عز وجل، ولم تغفل الآية: عن أن ضبط النفس أيضاً يحتاج إلى الاستغفار إلى اللّه تعالى، وذلك لأنّها تميلُ إلى روح الدعابة واللعب واللهو كما أشارت المقاطع من المناجاة للامام زين العابدين عليه السلام، المشار إليها سابقاً.

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٤١٠ مادة «سعد».

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٧٤ مادة «قضى».

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

ومعه، هنا في المقطع من الدعاء المبارك، يسعى العبد الى وضع ركيزة أساسية في حركته الطويلة، والتي أخذت منه جهداً وافراً من عمره، وهو يعترف، في هذه المرحلة، وهذه الركيزة، بأنَّ لكلِّ معلولٍ علّةً، وأنّ لكلِّ مسبَّبٍ سبباً.

وهذا بمعنى أنَّ العبد بمجرد أنه سلك وسارَ في السبل المتعددة ولم يلزم سمت سبيل الصراط المستقيم، فإنّه سيكون معرَّضاً لانتكاسات معنويّة وماديّة كثيرة، قال اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[١] حيث تصرح هذه الآية: الكريمة بأنَّ سبيلَ اللّه تبارك وتعالى، واحدٌ، وهو الصراط المستقيم، وقد أوصى باتّباعه، حيث تكفل برصانة المسلك والطريق وقوته، بينما يتحمل العبد أو المكلف تبعات تخلفه عن هذا السبيل، فيما لو سلك تلك السبل المتكاثرة، وهي كثيرة جداً، في مشوار هذه الحياة الدنيا، والتي تملأ العالم في هذا الزمن بشتى أصنافه، ومعالمه الفكرية والثقافية، والاستعمارية، والتي تسعى الى بث الإيديولوجيات المختلفة ومتعددة الاتجاهات.

فلو أنّ الإنسان أخطأ الطريق فإنّه سيتّجه نحو تلك الطرق والسبل المتعددة، وذلك بسبب مقدمات، أو أفكار، أو البيئة التربوية التي كان يعيشها، التي تمكنه بكل يسر وسهولة من أن يتجرّأ على الحكم الشرعي؛ فحينئذٍ سيكون من الطبيعي أنه يصلُ إلى هذه المرحلة من الضياع والخسران، حيث لم يأخذ بيده من تقع على عاتقه التربية والتعليم نحو السبيل الذي دلّت الآية: عليه.

ومن هذا المنطلق فإنّه يكتبُ مصيرَهُ بيده، حيث يدلنا المقطع من الدعاء المبار على أنَّ ثمَّةَ قضاءً وقدراً ينتظره، حيث يُصرِّحُ العبد بلسانه، إذ يقول: «أعان نفسي أو عدوّي في اغتراري وافتناني في سوق الشهوات وصدور المعاصي القضاءُ، أي: وجوداتها العقلانيّة التي كانت علّةً مؤدّيةً لوجود ما صدر عنّي في هذا العالم من الحسنات والسيئات»[٢].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) شرح دعاء كميل، ص ١٣٢.

فالشيطان وهوى النفس، كانا عاملين وأداتين مساعدتين على مخالفة الحكم الشرعيّ، و«إنّ القضاء كان له الدخل في الاشتراك مع بقية العوامل التي كانت السبب في صدور هذه الذنوب»[1].

القضاء والقدر

أُريد من هذين المصطلحين العقائديين، أن يكونا موظّفين في الساحة السياسية، أكثر منهما في ميدان البحوث والتقارير العقائدية والفكرية، حيث لعبت الحكومات الظالمة على هذا الوتر الديني، وفرضته في التوترات السياسية بكل أنواع المكر والخداع على عقول المغفّلين من الناس.

إذ تُبيّنُ الأحداث التاريخية، بعض الأشخاص ممّن أتيح له أن يتقلَّد منصب الخلافة بالغصب والعناد والعجرفة الظالمة، حيث عبد اللّه بن عمر قد اعترض على معاوية بن أبي سفيان عند ما نصّب ولده يزيد خليفة من بعده قال له: «إني أحذّرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملئهم وأن تسفك دماءهم وإنّ أمرَ يزيد قد كان قضاءً من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم»[2].

«ومن مظاهر هذه الفكرة الخاطئة (مساوقة التقدير للجبر) تبرير عمر بن سعد بن أبي وقّاص قاتل الإمام الطاهر الحسين بن علي سلام اللّه عليه مبرراً جنايته بأنها تقدير إلهيّ. وعند ما اعترض عليه عبد اللّه بن مطيع العدوي بقوله: اخترت همدان والري على قتل ابن عمك. قال عمر بن سعد: كانت أموراً قضيت من السماء وقد أعذرت إلى ابن عمي قبل الواقعة فأبى إلّا ما أبى»[3].

وروى ابن قتيبة أن عطاء بن يسار كان قاضياً للأمويين ويرى رأي معبد الجهني، فدخل على الحسن البصري وقال له: يا أبا سعيد إنّ هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم ويقولون: إنّما تجري أعمالنا على قضاء اللّه وقدره،

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ٢٢٦.
(٢) الفوائد البهية، ج١، ص ٢٩٥.
(٣) الإلهيات، ج١، ص ٥١١.

فقال له الحسن البصري: كذب أعداء اللّه. ونقل المقريزي أن عطاء بن يسار ومعبد الجهني دخلا على الحسن البصري فقالا له: إن هؤلاء يسفكون الدماء ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر اللّه، فقال: كذب أعداء اللّه، فطُعِنَ عليه بهذا»[١].

وحين يكون قطب الدولة الإسلامية، مولعاً بمثل هذه الأفكار المنحرفة، والتي ستبرر كل عمل صادر من الدولة، من أنه ليس لديها اختيار، فإنّ جميع الانحرافات الأخلاقية ستكون محط اهتمام المنحرفين وأصحاب الهوى المضلّلين، سيعمدون الى تحريك كل ما لديهم من إمكانية لنشر أهوائهم وأفكارهم الضلالية.

وقد تولدت من رحم هذا الاتجاه عدة تيارات فكرية، قسم منهما يقول بالجبر[٢]، والآخر يقول بالتفويض[٣]، وليس محلها في المناقشة هنا، ويطلب في المجاميع الكلامية.

الأمر بين الأمرين

حين هبت هذه الزوبعة الظلامية قادمةً من قصور الظالمين، والتي تحاول أن تخلق أجواءً معتمة حول ما يجري في أروقة النظام الحكومي، الذي يتظاهرُ بأنّه يمثل الدين الإسلامي بورعه وتقواه وتجنبه علناً الجرائم وسفك الدماء الطاهرة من المؤمنين الموالين لأهل البيت عليهم السلام، حين كان ذلك انبرى أئمّة أهل البيت عليهم السلام، ليبينوا ويقولوا الحق، ويقطعوا الطريق على كل من تُسوِّلُ له نفسه أن يعبث في المفاهيم الدينية، ويستخدمها لمآربه التسلطية والشيطانية.

حيث روى الصدوق عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما السلام قالا: «**إن اللّه عز وجل أرحمُ بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب، ثم يعذبهم عليها واللّه أعز من أن يريد**

---

(١) الإلهيات، ج١، ص ٥١٢.

(٢) الجبر: هو نفي الفعل حقيقةً عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى. المصدر: الفوائد البهية ج١، ص ٣١٧ وقد قال بهذا المذهب الأشاعرة، وهو مذهب أغلب المسلمين في زماننا هذا.

(٣) التفويض: ويعرفون بالمفوّضة: «قوم قالوا: إنّ اللّه خلق محمداً وفوَّض إليه خلق الدنيا فهو الخلاّق لما فيها، وقيل: فوَّض ذلك إلى عليّ عليه السلام. وفي الحديث من قال بالتفويض فقد أخرج اللّه من سلطانه... وممن قال بالتفويض المعتزلة، بمعنى أنَّ اللّه فوَّض أفعال العباد إليهم... مجمع البحرين، ص ١٠١٨ مادة «فوض».

أمراً فلا يكون» قال فسئلا عليه السلام: هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة؟ قالا: «**نعم أوسع مما بين السماء والأرض**»[١].

وروى الصدوق عن سليمان بن جعفر الجعفري عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «ذُكر عنده الجبر والتفويض» فقال: «**ألا أعطيكم في هذا فصلاً لا تختلفون فيه ولا تُخاصمون عليه أحداً إلاّ كسرتموه**»، قلنا: «إن رأيت ذلك». فقال: «**إن اللّه عز وجل لم يُطَع بإكراه، ولم يُعصَ بِغَلَبة، ولم يُهمِل العباد في ملكه. وهو المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فان ائتمر العباد بطاعته، لم يكن اللّه عنها صادّاً وان ائتمروا بمعصيته فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعلَ، وان لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه**» ثم قال عليه السلام: «**من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه**»[٢].

وعن بريد بن عمير بن معاوية الشامي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو، فقلت له: يا بن رسول اللّه روي لنا عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: «**إنّه لا جبر ولا تفويض بل أمرٌ بين أمرين**»، فما معناه؟ قال: «**من زعم أن اللّه يفعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها، فقد قال بالجبر، ومن زعم أن اللّه عز وجل فوض أمر الخلق والرزق إلى حججه عليهم السلام، فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك**» فقلت له: يا بنَ رسول اللّه فما أمر بين أمرين؟ فقال: «**وجود السبيل إلى إتيان ما أُمِروا به، وترك ما نُهُوا عنه**»، فقلت له: فهل للّه عز وجل مشيّةٌ وإرادةٌ في ذلك؟ فقال: «**فأما الطاعات فإرادة اللّه ومشيته فيها الأمر بها والرضا لها والمعاونة عليها، وإرادته ومشيته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والخذلان عليها**» قلت: فهل للّه فيها القضاء؟ قال: «**نعم، ما من فعل يفعله العباد من خير أو شر إلا وللّه فيه قضاء**» قلت: ما معنى هذا القضاء؟ قال: «**الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة**»[٣].

---

(١) الإلهيات، ج١، ص ٧٠١.

(٢) الإلهيات، ج١، ص ٧٠١.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص ١١٤.

ويقول السيد الإمام روح اللّه الخميني قُدّس سرّه الشريف:

«لا بـدَّ مـن معرفة أنه لا فرق أبداً في التفويض المستحيل المستلزم لمغلولية يـد اللّه وفاعلية قدرة العبد وإرادته بصورة مستقلة بين الأمور العظيمة أو الحقيرة. كما أن أمر الإحياء والإماتة والإيجاد والإعدام، وتحويل عنصر إلى آخر لا يمكن أن يفوّض لمـوجود، حتى أن تحريك قشةٍ أيضاً لم يمكن أن يفوّض لا إلى ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا إلى كائن ابتداءً من العقول المجرّدة القاطنة في الجبروت الأعلى إلى المادة: الهيولى الأولى، وإنّ ذرّات الكائنات بأسرها مسخّرة تحت إرادة الحق سبحانه الكاملة ولا استقلالية لها في أيّ عمل أبـداً، وإنّ جميع الكائنات في وجودها وكمالها وحركاتها وسكناتها وإرادتها وقدرتها وجميع شؤونها محتاجة وفقيرة، بـل هي فقر خالص وخالص فقر، كما أنه لا فرق أبـداً في قيّومية الحقّ وعدم استقلال العباد، وظهور إرادة اللّه ونًفوذها وتغلغلها في كلِّ شيء بين الأمور الكبيرة والصغيرة، وكما أننا (العبادَ الضعافَ) قادرون على الأعمال البسيطة مثل الحركة والسكون وأفعال أخرى صغيرة، فإنّ العباد المخلصين للّه سبحانه والملائكة المجردين قادرون على أعمال عظيمةٍ من الإحياء والإماتة والرزق والإيجاد والإعدام، وكما أنّ مَلَك الموت يقوم بالإماتة، وعمله هذا لا يكون من قبيل استجابة الدعاء وأنّ اسرافيل موكّل بالإحياء، وإحياءَه لا يكون من قبيل استجابة الدعاء أو التفويض الباطل، فكذلك الوليّ الكامل والنفوس الزكية القوية، مثل نفوس الأنبياء والأولياء قادرة على الإعدام والإيجاد والإماتة والإحياء بقدرة الحق المتعال، وليس هذا من التفويض المحال، ويجب أن لا نعتبرَهُ باطلاً، ولا مانع من تفويض أمر العباد إلى روحانية كاملة تكون مشيئته فانية في مشيئة الحق، وإرادته ظلال لإرادة الحق، ولا يروم إلّا ما يريده الحق، ولا يتحرك إلا إذا كان موافقاً للنظام الأصلح سواءٌ كان في الخلق والتكوين أم التشريع والتربية.

وملخص الكلام أن التفويض بالمعنى الأول لا يكون جائزاً في أي مجال من المجالات وأنه مخالف للبراهين القاطعة، وأما التفويض بالمعنى الثاني فجائز في

كل الأمور بل إن النظام العام للعالم لا يقوم إلا على أساس الأسباب والمسببات - أبى اللّه أن يجري الأمور إلا بأسبابها- ...»[١].

حدود الله

«فَتَجاوَزْتُ بِما جَرى عَلَي مِنْ ذلِكَ بعْضَ حُدُودِكَ، وَخالَفْتُ بَعْضَ اَوامِرِكَ»

التجاوز: جوز: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ﴾[٢] أي: تجاوزَ جوْزَهُ، وقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٣]، وجَوْزُ الطريقِ: وَسَطُهُ، وجازَ الشيءُ كأنه لزِمَ جوزَ الطريقِ، وذلك عبارة عمّا يسوغ[٤].

البعض: بعض الشيء: جزء منه، ويقال ذلك بمراعاة كُلٍّ، ولذلك يقابَلُ به كُلٌّ، فيقال: بعضه وكُلُّهُ، وجمعُهُ أبعاض[٥].

الحدود: حدد: الحَدِّ: الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر أو لألّا يتعدّى على الآخر، وجمعه حدود. وفصل ما بين كل الشيئين: حَدَّ بينهما. ومنتهى كلِّ شيءٍ: حَدُّه؛ ومنه: أحد حدود الأرضين وحدود الحرم؛ وفي الحديث في صفة القران: لكل حرف حَدّ ولكل حدٍّ مطلع؛ قيل أراد لكلِّ منتهىً نهاية. ومنتهى كلِّ شيءٍ: حَدُّه[٦].

والحدّ: الحاجز بين الشيئين[٧].

والحد: الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، يقال: حددتُ كذا: جعلت له حدّاً يُميِّزُ، وحدُّ الدار ما تتميز به عن غيرها، وحدُّ الشيء: الوصف

(١) الفوائد البهية، ج١، ص ٣٤١ - ٣٤٢ نقلاً عن الأربعون حديثاً.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢١١ مادة«جوز».
(٥) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ١٣٤ مادة«بعض».
(٦) لسان العرب، ج٣، ص ١٤٠ مادة«حدد».
(٧) معجم مجمع البحرين، ص ٢٦٩ مادة«حدد».

المحيط بمعناه المميّز له عن غيره، وحد الزنا والخمر سُمِّيَ به لكونه مانعاً لمتعاطيه من معاودة مثله، ومانعاً لغيره أن يسلك مسلَكَهُ[١].

الخلاف: خلف: الليث: الخلف ضدّ قُدّام[٢].

الخلاف: خَلف: ضِـدُّ القُدَّام[٣].

الأمر: الشأن، وجمعه أمور، ومصدرُ أمرته: إذا كلّفته أن يفعل شيئاً، وهو لفظ عام للأفعل والأقوال كلها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٤]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[٥][٦].

الأمر: معروف، نقيض النّهي. أمَرَه بـه وأمَـرَهُ؛ الأخيرة عـن كـراع؛ وأمره إياه، على حذف الحرف، ويأمُرُه أمـراً وإماراً فأتَمَرَ أي: قَبلَ أمرَه؛ وقـوله: ورَبرَب خِماص يـَأمُرنَ باقتناص... إنما أراد أنهن يشوّفنَ مـن رآهن إلى تصيدها واقتناصها، وإلا فلَيس لهـنَّ أمر[٧].

فهم النص

لقد خلق اللّه تعالى، هذا الوجود تحت منظومة متكاملة في كـل النـواحي والمجالات، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٨] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢٢١ مادة«حد».
(٢) لسان العرب، ج٩، ص ٨٢ مادة«خلـف».
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢٩٣ مادة«خلف».
(٤) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٦) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٨٨ مادة«أمـر».
(٧) لسان العرب، ج ٤، ص ٢٦- ٢٧ مادة«أمر».
(٨) سورة يس، الآية: ٣٨ - ٤٠.

﴿خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾[١] هذه الآيات الشريفة ترسم لنا نموذجين على مستوى الوجود بأكمله من الناحية التنظيمية والترتيبية، في تسيير الكون.

وبحسب النظام العام لكل مخلوق، فإنّه ليس له التعدي على غيره مهما كانت منزلة ورتبة ذلك الغير، حيث النظام العام يدلنا على أن الشمس ليس لها الحق التعدي على القمر، على الرغم من أنها الأكبر، ولا الليل أن يسبق النهار، بالرغم من أنّ فيه الضياء والنـور، والليل تتجلى فيه الزينة والجماليات البراقة، والروعة في المنظر.

فكل هذه العناوين قوانين وأنظمة تتحرك من خلالها هذه المخلوقات، ولا يحق لها التعدي على بعضها البعض، وقال أمام علي بن الحسين عليه السلام في دعائه في الصباح والمساء: «**الْحَمْدُ للّه الَّذي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ بِقُوَّتِهِ وَ مَيَّزَ بَيْنَهُما بِقُدْرَتِهِ وَ جَعَلَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما حَدَّاً مَحْدُوداً، وَأَمَداً مَمْدُوداً**»[٢] وقال عليه السلام في دعائه: إذا ابتدأ بالدعاء - بدأ بالتحميد للّه عزّ وجلّ والثناء عليه: «... **وَجَعَلَ لِكُلِّ رُوحٍ مِنْهُمْ قُوتاً مَعْلُوماً مَقْسُوماً مِنْ رِزْقِهِ، لا يَنْقُصُ مَنْ زادَهُ ناقِصٌ، وَ لا يَزِيدُ مَنْ نَقَصَ مِنْهُمْ زائِدٌ. ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ فِي الْحَياةِ أَجَلا مَوْقُوتاً، وَ نَصَبَ لَهُ أَمَداً مَحْدُوداً، يَتَخَطَّى إِلَيْهِ بِأَيَّامِ عُمُرِهِ، وَ يَرْهَقُهُ بِأَعْوامِ دَهْرِهِ، حَتَّى إِذا بَلَغَ أَقْصَى أَثَرِهِ، وَ اسْتَوْعَبَ حِسابَ عُمُرِهِ، قَبَضَهُ إِلَى ما نَدَبَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَوْفُورِ ثَوابِهِ، أَوْ مَحْذُورِ عِقابِهِ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساءُوا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى، عَدْلًا مِنْهُ، تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُهُ، وَ تَظاهَرَتْ آلاؤُهُ، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ**»[٣].

بيَّن الإمام زين العابدين عليه السلام، أن اللّه تعالى جعل من هذه المخلوق البشري منظومة متكاملة في هذه الحياة الدنيا، بحيث أن هذا الإنسان لا يحتاج الى قـانون ودستور آخر يُنظِّم حياته من خلاله، ومن جملة هذا التكامل، الـرزق، الذي يدخل في كلِّ حيثيّة من حيثيّات هذه الحياة.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

(٢) الصحيفة السجادية، ص ٥٤ دعائه عليه السلام عند الصباح والمساء.

(٣) الصحيفة السجادية، ص ٣٣- ٣٤ دعاؤه إذا ابتدأ بالدعاء بدأ بالتحميد للّه عز وجل والثناء عليه.

ويشير الامام عليه السلام، إلى أن رزق اللّه تعالى لا ينقص عن الأفراد من البشر ومن غيرهم بضع أنملة، وأنّ الرزق خاضع لاعتبارات حكيمة وذات مدلولات موضوعية، مناسبة بالأساس لمدى وحاجة هذا الإنسان أو ذاك، وبحسب استيعابه وقوته في تحمل العبء، قال الإمام الباقر عليه السلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: قال اللّه عزّ وجلّ: «**إن من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالغنى والسعة والصحة في البدن فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن، فيصلح عليهم أمر دينهم، وإنّ من عبادي المؤمنين لَعباداً لا يصلحُ أمرُ دينهم إلّا بالفاقة والمسكنة والسُقم، فيصلح عليهم أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين**»(١).

إلّا أنّ العبد عند ما يمتلك كل تلكم النعم، لا يجعل لها ولا ولمنعمها أيَ اعتبار، ولا يجيد التصرف المناسب لها، فمسارُهُ الذي حُدِّدَ له لم يمش فيه، وإنما أخذ مساراً مغايراً تماماً، كما يشير هذا المقطع الشريف من الدعاء، بأَنّ هذه العبد قد أولج نفسه في الأماكن المحظورة، والتي لا يجوز له أن يفكر فيها فضلاً عن الوصول الى داخلها.

«والحدود التي ذكرت في المقطع هي الأحكام الشرعية من الأوامر والنواهي...

---

(١) مشكاة الأنوار، ص ٢٢٧... توجد رواية أحببت نقلها لما فيها من الفوائد العملية، والتي تعطينا معطيات أخلاقية وسلوكية على مستوى حياتنا الأسرية والعائلية والاجتماعية، الرواية من نفس المصدر، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ وهي... قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ترك نسيج العنكبوت في البيت يورث الفقر، والبولُ في الحمام يورث الفقر** (المقصود من الحمام هنا هو حمام السباحة ،وهو عادة يدخله الرجال دون النساء، والذي كان رائجاً الى وقت قريب في جملة من البلاد الإسلامية)، **والأكل على الجنابة يورث الفقر، والتخلل بالطرفاء يورث الفقر، والتمشّط من قيام يورث الفقر، وترك القمامة في البيت يورث الفقر، واليمين الفاجرة تورث الفقر، والنوم بين العشاءين يورث الفقر، والنوم قبل طلوع الشمس يورث الفقر، واعتياد الكذب يورث الفقر، وكثرة الاستماع الى الغناء يورث الفقر، ورد السائل الذاكر بالليل يورث الفقر، وترك التقدير في المعيشة يورث الفقر، وقطيعة الرحم تورث الفقر**». ثم قال علي عليه السلام: «**ألا أنبئكم بعد ذلك بما يزيد في الرزق؟**» قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: «**الجمع بين الصلاتين يزيد في الرزق، والتعقيب بعد الغَداة يزيد في الرزق، وصلة الرحم تزيد في الرزق، وكَسح الفناء يزيد في الرزق، ومواساة الأخ في اللّه يزيد في الرزق والبُكورُ في طلب الرزق يزيد في الرزق، والاستغفار يزيد في الرزق، واستعمال الأمانة يزيد في الرزق، وقول الحق يزيد في الرزق، وإجابة المؤذّن تزيد في الرزق، وتَركُ الكلام في الخلاء يزيد في الرزق، وترك الحِرص يزيد في الرزق، وشُكرُ المنعم يزيد في الرزق، واجتناب اليمين الكاذبة يزيد في الرزق، والوضوء قبل الطعام يزيد في الرزق، وأكل ما يسقط من الخوان يزيد في الرزق، ومن سبّح اللّه في كل يوم ثلاثين مرّة دفع اللّه (عزّ وجلّ) عنه سبعين نوعاً من البلاء أيسرها الفقر**».

وهي كل حكم شرعيّ من الأحكام الخمسة، والتي هي الأوامر، والنواهي، والمستحبات، والمكروهات، والمباحات. ويُسمّى الجميع حـدّاً؛ لأنّ الأحكام الشرعية كالحدود، والحواجز المضروبة للمكلفين أُخِذ عليهم أن لا يتعدَّوها، ويتجاوزوها»[١].

ومن اللافت للنظر أنّ العبد عبّر عن مقدار المخالفات والتجاوزات بالبعضية، حيث يسعى إلى طلب العفو والمغفرة، وهو بذلك يكون جاهلاً يضع مفهوم الجهل، في هذا البعض الذي تجاوزه وخالفه، ومن اللائق به أن يتتبع فقهيّاً[٢] للتعاليم.

ومعنى المقطع من الدعاء الشريف، أنّ اتّباع هوى النفس، وعدم الأخذ بالتعاليم الدينية كسلاح وحام، من شباك وشراك زينة العدو، من الشيطان، وأن المشتهيات التي تتشبث بها النَفس وتنقاد اليها، قد غرني بها ذلك العدو، حيث ساعدني عليها، وبهذه الأسباب والمسبّبات تجاوزت بعض الحدود، وتخلّفْتُ عن بعض الأوامر.

حجّـة الله - الصيغة الأولى

«فَلَكَ الْحَمْدُ (اَلْحُجَّةُ) عَلي في جَميعِ ذلِكَ وَلا حُجَّةَ لي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُكَ وَاَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ»

الدلالة اللغوية

الحمد: نقيض الذمّ؛ ويقال: حمدته على فعله، ومنه المحمدة خلاف المذمّة[٣].

والحمد: هو الثناء بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل للممدوح سواء النعمة وغيرها، والشكر فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعماً سواء كان باللسان أو

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ٢٤٠.

(٢) هناك جملة من الشباب المؤمن الذي يعمل جاهداً لأن يتقرّب الى اللّه تعالى، لكنه لا يأتي بالعبادات بالشكل المطلوب وذلك بسبب الجهل الذي لم يعمل جاهداً لمحوه.

(٣) لسان العرب، ج ٣، ص ١٥٥ مادة «حمد».

بالجنان أو بالأركان، فالحمد أعم من جهة المتعلق وأخص من جهة المورد، والشكر بالعكس(١).

والحمد: الحمد للّه تعالى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخصُّ من المدح وأعمُّ من الشكر، فإنّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصَباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلّا في مقابلة نعمة، فكلُّ شكرٍ حمدٌ، وليس كلُّ حَمدٍ شكراً، وكلُّ حمدٍ مدحٌ وليس كلُّ مدحٍ حمداً، ويقال فلانٌ محمودٌ: إذا حُمِد، ومُحمَّدٌ: إذا كثُرتْ خصاله المحمودة، ومُحمَدٌ: إذا وُجِدَ محموداً، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾(٢)، يصح أن يكون في معنى المحمود، وأن يكون في معنى الحامد، وحُمادَاكَ أن تفعل كذا، أي: غايتك المحمودة، وقوله عز وجل: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾(٣)، فأحمدُ إشارةٌ إلى النبيّ ﷺ باسمِه وفعله، تنبيهاً أنّه كما وُجِد اسمه أحمد يوجد وهو محمود في أخلاقه وأحواله، وخصّ لفظة أحمد فيما بشَّرَ به عيسى عليه السلام تنبيهاً أنه أحمدُ منه ومن الذين قبله، وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾(٤)، فمحمد هنا ـ وإن كان من وجهٍ اسماً له عَلَماً ـ ففيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه كما مضى ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾(٥)، أنّه على معنى الحياة(٦).

والحُجّة: ـ بضم الحاء ـ الاسم من الاحتجاج، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ

(١) معجم مجمع البحرين، ص ٣٢٥ مادة «حمد».
(٢) سورة هود، الآية: : ٧٣
(٣) سورة الصف، الآية: ٦
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٩
(٥) سورة مريم، الآية: ٧.
(٦) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢٥٦ مادة «حمد».

عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾[١] وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾[٢] بأوامره ونواهيه ولا حجة لهم عليه[٣].

والحجّة: الدلالة المُبَيِّنة للمَحَجّة أي: المقصد المستقيم والذي يقتضي صحّة أحد النقيضين[٤].

الالتزام: اللزوم: معروف. والفعل لَزم يلزم، والفاعل لازمُ والمفعول به ملزومٌ، لزمَ الشيء يَلزمه لَزماً ولُزوماً ولازمه مُلازمةً ولِزاماً والتزمه وألزمه إياه فالتزمه. ورجل لُزَمَةٌ: يلزم الشيء فلا يفارقه[٥].

والالتزام: في الحديث «خرج إلى دبر الكعبة إلى الملتزم فالتزم البيت» الملتزَم بفتح الزاي دبر الكعبة سمي به لأنّ الناس يعتنقونه أي: يضمونه إلى صدورهم. والالتزام: الاعتناق. ولزمت الشيء ألزمه لزوماً ومنه «أيلتزم الرجل أخاه؟ قال: نعم») ولزم الشيء يلزم لُزوماً: ثبت ودام[٦].

والالتزام: لزومُ الشيء: طُولُ مُكثِه، ومنه يقالُ: لَزِمَه يَلزَمُهُ لزُوماً، والإلزامُ ضربان: إلزامٌ بالتسخير من اللّه تعالى، أو من الإنسان، وإلزامٌ بالحُكم والأمر. نحو قوله: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[٧] وقوله: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾[٨] وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾[٩] أي: لازِماً. وقوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾[١٠][١١].

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٣) معجم مجمع البحرين، ص ٢٦٢ مادة «حجج».
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٢١٨ مادة «حجَّ».
(٥) لسان العرب، ج١٢، ص ٥٤١ مادة «لزم».
(٦) معجم مجمع البحرين، ص ١١٦١ مادة «لزم».
(٧) سورة هود، الآية: ٢٨.
(٨) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
(٩) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.
(١٠) سورة طه، الآية: ١٢٩.
(١١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٧٣٩- ٧٤٠ مادة «لزم».

فهم النص

وردت هذه الفقرة من الدعاء المبارك بصيغتين في جملة من كتب الأدعية المباركة، حيث اختلاف الصيغة في كلمة واحدة فقط، وهي «**فَلَكَ الْحَمْدُ**» والصيغة الثانية «**فَلَكَ اَلْحُجَّةُ**» وللعلم فان قراءة الجملة بمجملها يعطي معنىً مغايراً لكل من الصيغتين. وبدورنا لا نريد أن نحدد أيهما الأصح، وإنما نريد توضيح المعنى المراد لكلتيهما للإفادة ومن أراد فليرجع إلى كتب[1] العلماء الأفاضل الذين تناولوا دعاء كميل المبارك بالشرح والتوضيح.

الصيغة الأولى: فانه بعد أن أخذ العبد في سرد ما اقترفت يداه من الذنوب والآثام، وأنه مال صوب مشتهيات نفسه وهواها، حيث لم يحترز من الانفلات نحو العـدوّ الخارجي، ولـم يعين الحارس الضامن من دخول الأغيار، وحفظ النفس من التشتت والضياع... صدرت منه تلك المخالفات الفظيعة والشنيعة، وإذْ تمادى في الغوص في ملوثات الذنوب والمعاصي، وهو يتلذذ بنعم اللّه تعالى، أخذ يفكِّرُ برهةً فيما مضى من أعماله السلبية، وأنه لم ينكشف منها شيء أمام هذا الخلق المنتشر في أصقاع الأرض، حيث لم تنكشف الأعمال السلبية التي تهتك المستور، وتفضح ما لم يخطر على بال الناس الذين يعتقدون بأنّه رجل طاهر، لم يتدنّس بالخطايا والذنوب، ولم تنكشف تلك الذنوب التي تسلب النعمة، حيث لم يتغير شيء من رزقه ومقامه المادي والمعنوي أمام الناس، وغيرها من الذنوب التي أخذ العبد في الاعتراف بها أمام اللّه تعالى، في هذه المسيرة الطويلة.

وبعـد أن سـرد وغاص في ملفاته التاريخية من سيرة حياته اليومية التي كانت مملوءةً بالمواقف السلبية، التي لا تخدم نفسه ولا تخدم المجتمعات المؤمنة، بقدر ما تسبِّبُ له الكثير من المشكلات المستعصية في كثير من المواقف التي تحتاج الى كلمة لها مردود إيجابي أمام الرأي العام.

وبعـد كل هذه المواقف السلبية، وجد نفسه، من أنه لا زال يعتاش، على نعمة

(١) راجع كتاب أضواء على دعاء كميل، للسيد عز الدين بحر العـلوم.

الستر عليه، وأن النعم لا تزال باقية لم تندثر من جراء الذنوب الموجب لضياع كل المكتسبات ذات المكانة العالية أمام الناس من الجاه والمنصب والرئاسة التي يكفي ذنب واحد فقط من العيار الثقيل لسلب كل هذه المكتسبات ذات الأهمية العظمى أمام الناس.

ولكن العبد يتدارك معترفاً بأنّ الحوادث التي أَلَمَّت به، (من تزيين العدو، والإغراء الذي استخدمه الشيطان للغواية والميل نحو مشتهيات هذه النفس)، كلّها كانت نتيجة الغفلة عن العدوّ الذي يتربص به الحيل، وكانت نتيجة الميل المفرط نحو الملذات التي تميل اليها النفس، ومن جراء هذه الظلمات التي أغشت بصيرته وأعمتها عن النظر الى الأمام نحو المستقبل الذي هو منطلق استراتيجي هدفه الوصول الى المقام السامي عند اللّه تعالى، فالعبد ترك هذا الطريق، واتّخذ سبيلاً آخر، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1] فالطريق والسبيل واحد وواضح لا مجال للريب فيه، فالعبد، بحسب المقاطع من الدعاء المبارك السابق، أخطأ في سلوك الطريق، واتّبعَ تلك السبل، من التيارات السياسية والاتجاهات الفكرية، والإيديولوجيات متعدّدة المسارات ذات الصبغة العلمانية، والتي تنبع كامل أجنداتها من الحضارة الغربية، حيث المادّة مدارُها وقوتّها.

وذلك في حين أن أبواب الإسلام المحمدي الأصيل مفتّحة لمن يوازن منهجيته موازنة الاعتدال، فلا مكان للتطرف والتعصب الا للّه عزّ وجلّ ولأمره تبارك وتعالى، إلّا أنّ العبد أخطأ في تشخيص المسار والباب المناسب، ومال نحو تلك المذاهب والاتجاهات والإيديولوجيّات والسبل المتعددة، حين وقع في مستنقع الوحول الدنيوية، والأفكار التي تنادي بتطبيق الفكر المادي، وتنأى عن الروح وعالم الماورائيات.

وفي خضم هذا الاختيار، وقع العبد في أزمات متعددة لا يستطيع الخروج

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

منها إلّا عن طريق التحصّن والتحرز بالفكر الإسلامي المحمدي الأصيل، كما بيّنّا سابقاً في الدروس المنصرمة.

والآن يعترف العبـد بآثار هذا الاختيار الخاطئ، وبكلّ تبعاته من أحكام مأساوية، تكون وبالاً عليه، وهي نتيجةٌ يُقرُّ بها العبد على نفسه ويتحمَّل أعباءها وأتعابها النفسيّة والجسديّة، وذلك نتيجة الخطأ الصادر منه، فلا مجال لأن يتّهمَ غيره، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[1].

ويستفاد من هذه الآية: المباركة بُعدان:

البعد الأول: أن مجال الاختيار موكول إلى الإنسان نفسه، فهو الذي يُرجِّح كُفّة الخير والشر، بموازنة تفكيره ونضوج عقله.

البعد الثاني: أنّه ليس للإنسان أن يلوم غيره، إن كان اختياره غير مناسب، في ظلّ الارشادات والتعاليم الموجودة في بنود وقوانين القرآن الكريم.

ومن الملاحظ أن العبـد أخذ، في تعداد ما صدر منه، وأن صدور تلك المخالفات كان تبعاً لهوى نفسه، وعدم تحفظه من تزيين عدوه له، حيث أكمل دعاءه بالاعتراف[2]: فيرى من الواجب الأخلاقيّ والدينيّ، عليه أن يُبديَ لربّه الحمد والشكر الجزيل، ولو تأملنا قليلاً هنا سنجد أن العبد قدم الثناء والمدح والإجلال للّه تعالى، وهبَّ في سرد كامل اعترافاته، التي الآن يحمد اللّه تعالى، على أنها لم تنكشف، ولم يطلع عليها أيُّ مخلوقٍ من بني جِلدَتِه وجنسِه.

ومجملُ القولِ، أنَّ العبـد يُقرُّ بأنّ الأدلّة والبراهين التي تخدِمُهُ غير موجودة، وهي معدومة، ولا يمتلك العبد، الحجة الدامغة لتحميه عند الحساب غداً أمام اللّه تعالى.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢ .

(٢) بتصرف راجع أضواء من دعاء كميل، ص ٢٤١.

وقد جرت العادة (من العبد في مواطن كثيـرة، حين تتجدد لـه النعمـة) على أن يرفعَ يديه حامـداً ربّـه عليها، ومن جملتها، ما قاله الإمام السجاد عليه السلام في دعائه لأبي حمزة الثمالي الذي علّمه إيّاه:

«**اَلْحَمْدُ للّه الَّذي اَدْعوُهُ فَيُجيبُني وَاِنْ كُنْتَ بَطيئاً حينَ يَدْعوُني، وَاَلْحَمْدُ للّه الَّذي اَسْأَلُهُ فَيُعْطيني وَاِنْ كُنْتُ بَخيلاً حينَ يَسْتَقْرِضُني، وَالْحَمْدُ للّه الَّذي اُناديهِ كُلَّما شِئْتُ لِحاجَتي، وَاَخْلُو بِه حَيْثُ شِئْتُ، لِسِرِّي بِغَيْرِ شَفيع فَيَقْضي لي حاجَتي، اَلْحَمْدُ للّه الَّذي لا اَدْعُو غَيْرَهُ وَلَوْ دَعَوْتُ غَيْرَهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لي دُعائي، وَالْحَمْدُ للّه الَّذي لا اَرْجُو غَيْرَهُ وَلَوْ رَجَوْتُ غَيْرَهُ لأَخْلَفَ رَجائي، وَالْحَمْدُ للّه الَّذي وَكَلَني اِلَيْهِ فَاَكْرَمَني وَلَمْ يَكِلْني اِلَى النّاسِ فَيُهينُوني، وَالْحَمْدُ للّه الَّذي تَحَبَّبَ اِلَيَّ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنّي، وَالْحَمْدُ للّه الَّذي يَحْلُمُ عَنّي حَتّى كَاَنّي لا ذَنْبَ لي، فَرَبّي اَحْمَدُ شَيء عِنْدي، وَاَحَقُّ بِحَمْدي**»[1]، في هذا المقطع نرى العبد يتلهّف محتاجاً إلى شكر المولى تبارك وتعالى، على النعم الجزيلة والوافرة، التي وجدها العبد أمام ناظريه، فهو يعترف بأنّ وراء كلّ نعمة وجِدَت لديه من عند اللّه تعالى، وأنّه يعمل بخلاف ارادة اللّه تعالى، والعبد يطلب من اللّه تعالى أن يقضيَ حوائجه، فيجيبَهُ بقضائها، على الرغم من أنه عاصٍ ولا يتّبع التعاليم الدينيّة التي تنجيه من كل التبعات الماديّة والمعنويّة.

ومن جملة الأدعية التي ورد فيها الحمد والثناء على اللّه تعالى، قول الامام علي بن الحسن السجاد عليه السلام: «**وَ الْحَمْدُ للَّه الَّذي رَكَّبَ فِينَا آلَاتِ الْبَسْطِ، وَ جَعَلَ لَنَا أَدوَاتِ الْقَبْضِ، وَ مَتَّعَنَا بِأَرْوَاحِ الْحَيَاةِ، وَ أَثْبَتَ فِينَا جَوَارِحَ الْأَعْمَالِ، وَ غَذَّانَا بِطَيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَ أَغْنَانَا بِفَضْلِهِ، وَ أَقْنَانَا بِمَنِّهِ. ثُمَّ أَمَرَنَا لِيَخْتَبِرَ طَاعَتَنَا، وَ نَهَانَا لِيَبْتَلِيَ شُكْرَنَا، فَخَالَفْنَا عَنْ طَرِيقِ أَمْرِهِ، وَ رَكِبْنَا مُتُونَ زَجْرِهِ، فَلَمْ يَبْتَدِرْنَا بِعُقُوبَتِهِ، وَ لَمْ يُعَاجِلْنَا بِنِقْمَتِهِ، بَلْ تَأَنَّانَا بِرَحْمَتِهِ تَكَرُّماً، وَ انْتَظَرَ مُرَاجَعَتَنَا بِرَأْفَتِهِ حِلْماً ،وَ الْحَمْدُ للَّه الَّذِي دَلَّنَا عَلَى التَّوْبَةِ الَّتِي لَمْ نُفِدْهَا إِلَّا مِنْ فَضْلِهِ، فَلَوْ لَمْ نَعْتَدِدْ مِنْ فَضْلِهِ إِلَّا بِهَا لَقَدْ حَسُنَ بَلَاؤُهُ عِنْدَنَا، وَ جَلَّ إِحْسَانُهُ إِلَيْنَا وَ جَسُمَ فَضْلُهُ عَلَيْنَا فَمَا هَكَذَا كَانَتْ سُنَّتُهُ فِي التَّوْبَةِ**

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

لِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا، لَقَدْ وَضَعَ عَنَّا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَ لَمْ يُكَلِّفْنَا إِلَّا وُسْعاً، وَ لَمْ يُجَشِّمْنَا إِلَّا يُسْراً، وَ لَمْ يَدَعْ لِأَحَدٍ مِنَّا حُجَّةً وَ لَا عُذْراً. فَالْهَالِكُ مِنَّا مَنْ هَلَكَ عَلَيْهِ، وَ السَّعِيدُ مِنَّا مَنْ رَغِبَ إِلَيْهِ»[1].

يحاول العبد في هذا المقطع المبارك، أن يُبيّن قسماً من النعم الماديّة، التي يتنعم بها في هذه الحياة الدنيا، وأن الغاية من وجود هذه النعم، هي توظيفها في عبادة اللّه تعالى، وقد بيّن العبـد في هذا المقطع الشريف، أن اللّه تعالى جعل للانسان كل الإمكانيات التي تمكّنه من أن يعيش في راحة وطمأنينة، حيث سخّر له الموجودات، وأوجد له الآلات التي من خلالها يرسم مرتكزاته الأساسية التي يبني عليها مشوار حياته على طول خطّ عمره، فخلق اللّه تبارك وتعالى للانسان، اليدين والرجلين والعينين والأذنين، وكلَّ الأعضاء الجسدية، حتى يتمكَّنَ أن يرسم البنية الهيكلية، لمنطلقه الاستراتيجي في الجنبات المادية، انطلاقاً من الأعضاء الجسدية، ثُمَّ مال صوب نعمة أخرى، وهي التـوبة، حيث يقدم العبد الثناء والشكر الجزيل على هذه النعمة، الى آخر تلك النعم التي لا تُحصى ولا تُعدُّ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2].

حجة اللّه -الصيغة الثانية

«فَلَكَ الْحَمْدُ (اَلْحُجَّةُ) عَلي في جَميعِ ذٰلِكَ وَلا حُجَّةَ لي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُكَ وَاَلْزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ»

فهم النص

فإنّه بعـد أن قدَّم العبدُ قسماً من اعترافاته (حيث يشيرمن خلال المقاطـع السالفة من الدعاء المبارك إلى أنّه قـد اقترف الذنوب الكبيرة التي تهتك المستور، وتفضح المخفيّ عن الناس، وهناك من الذنوب التي صرَّح بها العبد، هو ما يهيئ الظروف والمواقف التي تمكن من نزول النقم، وتغيير النعم، وحبس الدعاء، وعدم

(١) الصحيفة السجادية دعاء (١)، ص ٣٦ -٣٧.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

التوفيق في العمل الصالح، وهذا ما يساعد على ارتكاب الذنوب التي تنزل البلاء، وغيرها من الذنوب التي بيّنها بكل خجل وحياء أمام اللّه تعالى، وفي خضم هذه الاعترافات التي سردها) فإنّـه يُقِرُّ بأنّه لا يملك الدليل والبرهان، حيث بيّن أن البنية الفكرية والسلوكية التي يعتمد عليها، غير خاضعة لميزان الدليل والحجة القوية، وإنّما نتيجة الأهواء النفسيّة، والأفكار المبنيّة على هيكلية غير منطقية.

قال اللّه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1] وتبيّن هذه الآية، المنهج الذي يتخذه صاحب هذه الفلسفة، من خلال القائد الذي يتخذه، حيث يضع نفسه على خطّه السلوكي والأخلاقي، في حين أنّ سلطة العقل مطرودة من ساحة العبد الميدانية، حيث طاعة الهوى قلّصت من حضور العقل والأخذ بالدور المنوط به، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**طاعة الهوى تُردي**»[2] وقال سلام اللّه عليه: «**طاعة الهوى تُفسد العقل**»[3].

فيُشير الامام عليه السلام الى مسألة جوهرية، وهي مدى فظاعة وسلبية التوازن الفكري، المبني على مشتهيات الهوى والنفس التي لم تتخذ العقل قائداً لها، في توضيح المسار الصحيح في عالم الدنيا وبقية العوالم التي يسلكها، في حين أن العقل هو ميزان الاعتدال والخروج من عنق الأزمات والمشكلات على كلّ الأصعدة والمستويات.

وواضح من الفقرة من الدعاء المبارك التي نحن بصددها، كيف أن العبد يُقرُّ بأنّه ليست لديه حجّة ولا دليل على كل التصرفات السلبية التي كان يرتكبها؟ وبهذه الفقرة من الدعاء يتحرك العبد، الى رسم مرتكز أساس في الانطلاق نحو هدف أعمق وأوسع في التأصيل والتثبيت، وهذا الهدف هو ترسيخ المفهوم العقائدي لدى العبد، وذلك لكي يُفرِّق بين حاله، وهو في غمرة الجهل والعنجهية والتعصب

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) غرر الحكم، ص ٢٤٨.
(٣) غرر الحكم، ص ٢٤٨.

الأعمى، وبين حاله وهو في قمّة الوعي الحضاري المبنيّ، على قواعد إستراتيجية منطلقة من قراءة الواقع بصورة حقيقية، لا تحوطها الشبهات والخداع الفكري، في حين أن تبعات وآثار مثل هذه الأعمال السلبية، ستكون مُلقاة على عاتق من أصدر ونفَّذَ مثل هذه القرارات والقوانين.

ومن جانب آخر يدرك العبد جيداً، أن قانون (ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم)، سار عليه مهما حاول أن يتنصل من أيّ فعل أو قول، حيث يبين المقطع من الدعاء، أنَّ العبد أقرّ بحكم وقضاء اللّه تعالى، في حين أن هذا الإقرار لم يكن من فراغ، وإنّما العبدُ استمدَّهَ من خلفيّة عقائديّة، كان قد شهد على وقوعها في عالم الذرّ، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

فهذه الآية: تُركِّز على حصول مفهوم الإقرار بالمواثيق والعهود التي حضرها هذا الإنسان في ذلك اليوم وهو يوقّعُ على وثيقة شهادة العبوديّة الكاملة للّه تبارك وتعالى، وهذه إشارة واضحة، إلى أنّ العبودية الكاملة للّه سبحانه، إنّما هي التسليم والخضوع له تبارك وتعالى.

فحينئذٍ ليس هناك من منفعة يمكن القبول بها، من تقديم المبررات غير المعقولة، والتي لا تنطبق على الموازين المنطقية والواقعية، فالقول بأنّ بني جلدتي كان يقولون ما أقول، لن تكون له نتائج إيجابيّة حين يقف المرء غداً أمام اللّه تعالى يوم القيامة.

وهذه الرواية تحمل معطيات جمّةً وكثيرةً من هذه الآية: المباركة، قال الامام أبو جعفر عليه السلام: «**إنّ اللّه تبارك وتعالى حيث خلَق الخَلْقَ خلَقَ ماءً عَذْباً وماءً مالحاً أُجاجاً، فامتَزَج الماءان، فأخذ طيناً من أديم الأرضِ فعَرَكَهُ عَرْكاً شديداً، فقال**

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢-١٧٣-١٧٤ .

لأصحاب اليمين وهم كالذرِّ يَدِبّون إلى الجنة بسلام. وقال لأصحاب الشمال: الى النار ولا أُبالي. ثم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾. ثم أخذ الميثاق على النبيين، فقال: ألست بربكم، وأن محمداً رسولي وأن هذا علياً أمير المؤمنين؟ قالوا بلى. فثبتت لهم النبوة، وأخذ الميثاق على أُولي العزم أنني ربكم، ومحمداً رسولي، وعلياً أمير المؤمنين، وأوصياءَه من بعده ولاةُ أمري وخُزّانُ علمي، وأنِ المهدي أنتصرُ به لديني، وأُطهِّرُ به أرضي، وأُظهِرُ به دولتي، وأنتقم به من أعدائي، وأُعبَدُ به طوعاً وكرهاً. قالوا: أقررنا - يا رب - وشَهدنا. ولم يجحدْ آدم ولم يُقِرّ، فثبتت العزيمة لهؤلاء الخمسة في المهدي، ولم يكن لآدَمَ عَزمٌ على الإقرار به، وهو قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[1] قال: إنّما يعني: (فتَرَكَ) ثم أمر ناراً فتأجّجت، فقال لأصحاب الشمال: أُدخلوها، فهابوها. وقال لأصحاب اليمين: ادخلوها، فدخلوها، فكانت عليهم برداً وسلاماً، فقال أصحاب الشمال: يا رب أقِلنا. فقال: قد أقلتكم اذهبوا فادخلوها، فهابوها. فثم ثبتت الطاعة والمعصية والولاية»[2]. والمستفاد من هذه الرواية، أنّها تُركِّزُ على مبدأ السلوكيات والأفكار التي تكونُ محلَّ الاختيار هنا في عالم الدنيا، حيث النسيان والغفلة سيتجسد بكامل سلبياته في المتبنيات الإيديولوجية لدى فريق[3] من أحد الفريقين المذكورين في الرواية. ويتمثَّلُ عامل النسيان في رفض

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٢) تفسير البرهان، ج٣، ص ٢٣٧.

(٣) قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ سورة البقرة، (الآية ١٦٦-١٦٧) المعادلة العملية في هذه الدنيا قائمة على قانون الحرب والقوة، والسيطرة الفكرية أو العسكرية أو حتى الثقافية لدى الكثير من أصناف الناس الذين صنف منهم، أخذ المبنى الفكري أو الثقافي، من أجل مصالح ذاتية على حساب الآخرين، حتى وإن كان هذا الآخر يواجه آلة الموت، من غير النظر الى العواقب المترتبة وراء هذا التبني، والذي في كثير من الأحيان يكون عبداً مخلصاً لهذه المصلحة التي ستزول بمجرد زوال المصلحة الآنية.

هذا في المفهوم الدنيوي القائم على المعادلات المصلحية والمادية، لكن عندما يُنظر الى عالم الآخرة فإن القانون والمعادلة تنقلب وتميل نحو مفهوم العدالة والتسوية الإلهية الحقة، فهناك في ذلك العالم، لن تجد الفكر والقوة والثقافة والسيطرة العسكرية، القائمة على بنية وتشكيلة باطلة، حيث القويُّ يستضعفُ الضعيفَ ويهضمُهُ، وينتصر لأصحاب التجارة القوية، التي تدخل على قائمة الولاء وتقديم القربات والعطاءات، وهنالك سيكون الحساب العادل آخذاً مجراه من غير تقديم أوراق تحت الطاولة، وهذه الآية: =

كل المباني القائمة على معادلات عقلية ومنطقية، تحتم على كل إنسان نظيف ذي عقلية نظيفة أن يتبنى كل معادلة يقبلها العقل وبحسب فطرته، ووفق الحسابات المنطقية، والتي لا تقبل النقض، كما هي الزوجية، وأن النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان.

وفي الآيـات المباركـة نقطة جديرة بالالتفات إليها، وهي أن الخطاب، يوجد فيه تحذير مسبق، لهذا الإنسان، حيث يقول له: أنت الآن تشهدُ وقد شهدتَ بالتوحيد الفطري والتكويني، وكل ما تحمل هذه الشهادة من آثار ايجابية، فلا ترجع يوم القيامة وتتذرع ـ بعد أن ينحرف الفكر وينطبق العمل وفق المفاهيم الإيديولوجية في عالم الدنيا ـ بالغفلة، بأنّه لم يكن الفكر الإيجابيّ موجوداً لتَتبّعه؛ أو تقول بأن الآباء والأجداد والبيئة الاجتماعية، هي التي تسير خلف المفاهيم السلبية، وأنا لستُ بالمستوى الذي يؤهلني لأن أواجِهَ باتجاه هذا التيار السلبي، بحيث أعارضه وأسير عكس ما يتجه، وهذه الأفكار السلبية جاءت من الأجيال المنصرمة، فهي التي وضعت القوانين والقرارات غير السليمة، وغير السلميّة للواقع العملي، وعليه فلا مجال لأن أخرج عن هذه التعاليم والتقاليد الاجتماعية.

القرآن في هذه النقطة ينصحُهُ ويُحذّرُهُ، من بداية الطريق، بأنّه لا تحاول أن تقفز على المطالب التي اتفقنا عليها، وتقول: لقد أصابتني الغفلة، أو أن آبائي وأجدادي كانوا يأتون بمثل هكذا عمل، فأنا ركبتُ الموجة من دون التدبر والتأمل في عواقب هذا الركوب.

ولذا من الأمور المهمّة التي ينبغي على الإنسان المؤمن الإطّلاع عليها والتدقيق

= المباركة تُبيّن جزءاً من كيفية الحياة في عالم الآخرة، في حين أنّ هذه الآية: تُشير إلى أنّ عمق التباعد يبلغ مسافات متمادية في التعامل عند فريقين كانا في الحياة الدنيا متقاربين، الأول يعبد الآخر بصورة ساذجة، أقرب ما تكون إلى أنّ الأول قد جمّد العقل ورفض التفكير والتدبّر في العواقب الدنيوية قبل الأخروية، وكل هذه الأمور الضرورية والبديهية في القانون البشري، قد أحالها الى مختبر آخرَ يفكّر و يدبّر عنه، كما هي الآلة التي يعمل عليها. ولكنّ هذا الإخلاص سيكون لا شيء في ذلك اليوم، حينما يكون المدافع والمساعد في الدنيا، بحاجة أكثر بكثير إليهم وهو في عالم الآخرة، حيث يبدي التحسر والندامة على قضاء زهرة العمر في خدمة مثل هذه الكائنات البشرية، التي تحكّمت برقابِ الناس بعد الوصول إلى السلطة بالظلم والقهر وسلب الحقوق.

فيها، هي المفاهيم العقائدية، إذ لا ينبغي أن يأخذ الأصول الدينية من والديه أخذ المسلمات، من غير التتبع والبحث والمتابعة فيها، في حين تختلف المسائل الشرعية عن تلك، فهي توجب الإتباع والتقليد لفقيه ومرجع دين حاملٍ للشرائط الفقهية التي توجب تقليده، كما هي مشار اليها في المتون الفقهيةً والرسائل العملية، بخلاف أصول الدين، فإنها لا تَدَعُ للتقليد مجالاً أو منفذاً إليها، حيث أقرت الاجتهاد فيها، كما هو مُبيَّن في باب الاجتهاد والتقليد، من الرسالة العملية.

الحجّة عند اللّه عزّ وجلّ

للّه سبحانه وتعالى، حججٌ جمّة على وجـه الأرض، وفي سائر أنحاء هذا الكون العظيم ،بما في ذلك النفس الإنسانية، فقد أودع اللّه تعالى الكثير من الآيات والدلالات فيها، التي تشير الى وجود ووحدانية اللّه عزّ وجلّ، ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه أزكى الصلاة والسلام في البيت المأثور عنه: **أتزعم أنك جرمٌ صغيرٌ... وفيك انطوى العالَمُ الأكبرُ.**

وذلك لكي يهتدي هذا الكائن البشري نحو العبودية الكاملة للّه عز وجل، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] «آيات الآفاق» تشمل خلق الشمس والقمر والنجوم والنظام الدقيق الذي يحكمها، وخلق أنواع الأحياء والنباتات والجبال والبحار وما فيها من عجائب وأسرار لا تُعدُّ ولا تُحصى، وما في عالم الأحياء من عجائب لا تنتهي، إنّ كلَّ هذه الآيات هي دليل على وجود اللّه وتوحيده.

وأمّا «الآيات الأنفسية» مثل خلق أجهزة جسم الإنسان، والنظام المحيّر الذي يتحكم بالمخ وحركات القلب المنتظمة والشرايين والعظام والخلايا، وانعقاد النطفة ونمو الجنين في ظلمات الرحم، ثمّ أسرار الروح العجيبة، فكلُّ ذلك هو كتاب مفتوح لمعرفة الإله الخالق العظيم.

صحيح أن هذه الآيات قد بُيِّنَتْ سابقاً بمقدار كافٍ من قبل اللّه تعالى، إلاّ أن

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

هذه العملية و الإراءة مستمرة، لأن (سنريهم) فعل مضارع يدل على الاستمرار، وإذا عاش الإنسان مئات الآلاف من السنين، فسوف تنكشف له في كل زمان علامات وآيات إلهية جديدة؛ لأنّ أسرار العالم لا تنتهي.

إن كافة كتب وبحوث العلوم الطبيعية وما يتصل بمعرفة الإنسان في أبعاده المختلفة (التشريح، فسلجة الأعضاء، علم النفس، والتحليل النفسي) وكذلك العلوم التي تختص بمعرفة النباتات والحيوانات والهيئة والطبيعة وغير ذلك، تعتبر في الواقع كتباً وبحوثاً في التوحيد ومعرفة الخالق (جلَّ وعلا) لأنها عادة ما ترفع الحجب عن الأسرار العجيبة لتبين قدراً من حكمة الخالق العظيم، وقدرته الأزلية، وعلمه الذي أحاط بكلّ شيء[1].

وتندرج كل هذه الآيات التكوينية والنفسية، في تبيانها ومعرفتها، من خلال وسيلتين يتمتع بأحدهما الإنسان ذاتيّاً، والأخرى تكون عرضيّة، ولا وسيلةَ أخرى لوصول الإنسان إلى معرفة اللّه تعالى غير هاتين الوسيلتين، وهما:

الوسيلة الأولى: العقل، أو الرسول الداخلي.

الوسيلة الثانية: الرسل المبعوثون من اللّه تعالى، أو الرسول الخارجي.

إلّا أنّ الوسيلة الأولى، هي الذات التي جعلها اللّه تعالى ركناً أساسياً في معالجة القضايا المصيرية، حيث تُثبت وجودَ اللّه تعالى، بالأدلّة القطعية والدامغة والتي منبعها العقل، ومن هذه النقطة، مَيَّز العقل كلَّ خيارٍ يُحدِّدُ مصير الإنسان، فالخيارُ الأوّل يؤدّي بالإنسان، إلى مصير مليءٍ بنِعَم الحياة الهنيئة وبالسعادة الأبدية، والخيار الثاني يهوي به إلى مصافّ الهالكينَ، في حين تقع الوسيلة الثانية، في المرتبة التي تدعم القوانين العقلية، بحيث ترفع الصدأ المتكدس، على العقول، والتي كانت محلَّ العبودية الصرفة لغير اللّه تعالى، والروايات في ذلك كثيرة وجمّة.

منها عن الأصبع بن نباتة، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**هبط جبرائيل إلى آدم** عليه السلام **فقال: يا آدم إني أُمرتُ أن أخيّرك بين أمور ثلاثة، فاختر واحداً ودع اثنين،**

---

(١) تفسير الأمثل، ج١٥ ص٢٨٧-٢٨٨.

فقال له آدم: يا جبرائيل وما الثلاثة؟ ـ فقال: العقل والحياء والدين، فقال آدم: فإنّي قد اخترت العقل، فقال جبرائيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه، فقالا: يا جبرائيل إنّا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما ذلك»[1].

وعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما السلام قالا: «**لمّا خلق اللّه العقل قال له:** «أدبر» فأدبر ثمّ قال له: «أقبل» فأقبل، فقال: «**وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك، إياك آمر وإياك أنهى، وإياك أثيب وإياك أعاقب**»[2].

وعن عبيد اللّه بن الوليد الوصافي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**كان يرى موسى بن عمران** عليه السلام **رجلاً من بني إسرائيل يطول سجوده ويطول سكوته فلا يكاد يذهب الى موضع إلا وهو معه، فبينما هو يوماً من الأيام في بعض حوائجه إذ مرّ على أرض معشبة تزهو وتهتز قال: فتأوه الرجل فقال له موسى: على ماذا تأوهت؟ - قال: تمنيت أن يكون لربي حمار أرعاه ههنا، قال: فأكب موسى** عليه السلام **طويلاً ببصره على الأرض اغتماماً بما سمع منه قال: فانحط عليه الوحي، فقال له: ما الذي أكبرت من مقالة عبدي؟ أنا أؤاخذ عبادي على قدر ما أعطيتهم من العقل**»[3].

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما قسم اللّه للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث اللّه رسولاً ولا نبياً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من عقول جميع أمته، وما يضمر النبيّ في نفسه أفضل من اجتهاد جميع المجهدين، وما أدّى العاقل فرائض اللّه حتى عقل منه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، إن العقلاء هم أُلوا الألباب الذين قال اللّه عز وجل:** ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾»[4].

والوسيلة الثانية ما هي دعامة قوية للأولى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَاصْطَفى**

---

(١) كتاب المحاسن،، ج١ ص١٢٧.

(٢) كتاب المحاسن، ج١ ص١٢٧.

(٣) كتاب المحاسن، ج١، ص ١٢٨.

(٤) كتاب المحاسن، ج١، ص ١٢٨ سورة الرعد، الآية: ١٩.

سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِه أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِه عَهْدَ اللّه إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ، واتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِه، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِه، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِه، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يُخْلِ اللّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لاَزِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ؛ رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ، مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ»(١).

من الملاحظ، أن الأنبياء مهمتهم -بحسب هذه الخطبة- هي محاولة إرجاع الإنسان إلى بعض المفاهيم التي لا تقبل النقاش من ناحية عقلي، إذ يشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض النقاط:

١ - هناك تبديل على أعلى المستويات الفكرية، والمتبنيات الإيديولوجية، والتي تخدم الوقائع السلبية، والتي تثير في الأرض الفساد والخرب، وإشاعة الإرهاب، والفوضى الخلاقة، ناهيك عن العمليات المنظمة، وكلُّ هذه الموارد تحتاج إلى مصلح يرتب الأوضاع الداخليّة لدى الإنسان.

٢ - إضافةً إلى هذه الموارد، ثمَّةَ أحزابٌ أخذت على عاتقها بثَّ الأفكار المبطنة بالسم القاتل، حيث تكوّنت وانضوَتْ تحت عنوان «حزب الشيطان»، حيث تمَّ وضع ورسم إحدى أهم الإستراتيجيات، التي تضمن مسيرة مليئة بالإنجازات والمكاسب الفكرية أكثر من المكسب المادي. وقد جُرَّ الكثير من الحشود البشرية الضخمة، إلى عناوين وشعارات براقة جذّابة، هدفها هو انحراف الكائن البشري الذي له القدرة العقلية، عن المفاهيم الدينية والعقائدية، التي التزم بها الإنسان في ذلك اليوم أمام اللّه تعالى.

(١) شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ٩٢.

٣ ـ ومع كلِّ هذه العناوين (التي أخذت تزحف نحو المكتسبات السلبية، والتي كان واحداً من أهدافها، هو الخنوع والخضوع أمام طغمة، تسعى محاولةً إلى سلب كلّ ما يتمتع به الإنسان من حرية الفكر والمعتقد، وما يمتلك من الاختيار الممنهج، والمبني على مرتكزات فكرية وناضجة)، حاول قسم من أصحاب الأجندات الفئوية، التي تتمتع بروح نتنة تحمل العداء والحرب للنسيج ومكوّناته ساعيةً إلى القتال لصالح الفرد المتسلّط على رقاب الآخرين بالسيف والرعب والقهر، من دون الالتفات، إلى الحشود المتكاثرة، والساعية إلى نيل حصادها المتبقي من الفتات الذي ترميه هذه العصابة الظالمة.

٤ ـ ولكي يرجع بنو البشر إلى المربّع الطبيعي، وهو مربع الإرشاد إلى باب الحرية، والتقيّد بالتعاليم الربانية، كان لزاماً، إيجاد كيانات تملك الوعي الكامل والروح الحيوية التي لا تخشى لومة لائم، وتقف أمام الطغاة لترفع صوت العدالة الثائرة، في كل الميادين التي أخذ الشيطان وحزبه، يلعب ويرتع ويلهو فيها على جراح الناس، وهذا الصوت لا بدّ أن يخرج من قلب القصور الظالمة، حتى تعي وتسترشد الحقيقة التي غابت منذ أمد من السنين المتمادية، قال تعالى مخاطباً النبي موسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ * إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[1].

٥ ـ ومن الملاحظ، أنه (حتى يستيقظ البشر من السبات الطويل، ومن رقدتهم من النوم)، كان لا بدّ من إثارة الغبار المحمّل بالأفكار المغلوطة من العقول، ومحاولة إزاحة تلك الإيديولوجيات المبنية على أساس مادي، الخاضعة لغرائز ومشتهيات القوة النفسية الأمارة بالسوء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

(١) سورة طه، الآية: ٤٣-٥٢.

بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

فهذه الآية: تشير إلى ثلاثة أهداف سعى الأنبياء، من خلالها إلى تحقيق التكامل البشري وسُمُوّ الرقيّ والرفعة الإنسانية، وهي:

الهدف الأول: التلاوة المبنية على التدبر والتفكر.

الهدف الثاني: تزكية النفس من مفاتن وملذّات هذه الدنيا، والحفاظ عليها من الارتماء في أحضان الحرام والمشتهيات.

الهدف الثالث: تعليم الحكمة القائمة على القواعد العقلية، والتي تتبنى كل ما هو متعيِّن في الواقع من مجريات تتوافق مع هذه الحكمة المنطقية.

لقد تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبته عن قضية بعث الأنبياء، وهي المرحلة التي أعقبت مرحلة خلق آدم وممارسته للحياة على الأرض، وقد تطرق الإمام عليه السلام بادئ ذي بدء إلى بعث الأنبياء وإرسال الرسل، ثم أشار إلى ماهية مضمون دعوات الأنبياء ورسالاتهم، إلى جانب استعراض الخطوط الرئيسية لتعاليمهم وإرشاداتهم، وأخيراً خصائص الأنبياء وصمودهم أمام الصعاب والمشكلات والإطار العام الذي كان يحكم علاقاتهم فيما بينهم وكيفية ارتباط بعضهم مع البعض الآخر.(٢)

ومن هنا نجد أن العبد في هذه الفقرة من الدعاء المبارك، يقول: إنّي مُصرٌّ على أنّه لا دليل أو برهان يصمد في يديَّ لأقدِّمَهُ أمام اللّه تعالى، تبريراً للأعمال السلبية التي قمتُ بها، في ظل هذه النِّعَم الكثيرة، التي توفّرت لديَّ، في حين أنَّ أبرزَ النِّعَم هو العقل الذي هو دليلٌ جليٌّ وواضحٌ بجانب كلِّ الأدلّة الثابتة.

(١) سورة الجمعة: الآية: ٢.

(٢) نفحات الولايـة شرح نهج البلاغة، ج١، ص ١٣٩-١٤٠.

الفقرة الثامنة

«...وَقَدْ اَتَيْتُكَ يا الـهي بَعْدَ تَقْصيري وَاِسْرافي عَلى نَفْسي مُعْتَذِراً نادِماً مُنْكَسِراً مُسْتَقيلاً مُسْتَغْفِراً مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِناً مُعْتَرِفاً لا اَجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنّي وَلا مَفْزَعاً اَتَوَجَّهُ اِلَيْهِ في اَمْري غَيْرَ قَبُولِكَ عُذْري وَاِدْخالِكَ اِيّايَ في سَعَة (مِن) رَحْمَتِكَ اَللّـهُمَّ (اِلـهي) فَاقْبَلْ عُذْري وَارْحَمْ شِدَّةَ ضُرّي وَفُكَّني مِنْ شَدِّ وَثاقي...».

حالة انكسار وخضوع العبد أمام الله تعالى

«وَقَدْ اَتَيْتُكَ يا الـهي بَعْدَ تَقْصيري وَاِسْرافي عَلى نَفْسي مُعْتَذِراً نادِماً مُنْكَسِراً مُسْتَقيلاً مُسْتَغْفِراً مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِناً مُعْتَرِفاً لا اَجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنّي وَلا مَفْزَعاً اَتَوَجَّهُ اِلَيْهِ في اَمْري غَيْرَ قَبُولِكَ عُذْري وَاِدْخالِكَ اِيّايَ في سَعَة (مِن) رَحْمَتِكَ»

أتى: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسيل المارّ على وجهه: أَتِيٌّ وأتاوِيٌّ، وبه شُبّه الغريبُ فقيل: أَتاوِيٌّ[1].

التقصير: قصر: القَصْرُ والقِصَرُ في كلِّ شيءٍ: خلافُ الطُول؛ أنشد ابن الأعرابي: عادتْ محورَته إلى قصر قال: معناه إلى قِصَر، وهما لغتان. وقَصُرَ الشيء، بالضم، يقصُرُ قِصراً: خلاف طَال. وقَصَرْتُ من الصلاة أقْصرُ قَصراً. والقصير: خلاف الطويل. وفي حديث سُبَيْعَةَ: نزلت سورة النساء، القصرى بعد الطُولى؛ القصرى تأنيث الأقصر، يريد سورة الطلاق، والطُولى سورة البقرة؛ لأن عِدَّةَ الوفاة في البقرة أربعة أشهر وعشر، وفي سورة الطلاق وضع الحمل، وهو قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٠ مادة«أتى».

﴿ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾(١). وفي الحديث: أن أعرابيّاً جاءه فقال: عَلِّمْني عملاً يُدخلني الجنة، فقال: **لإنْ كنتَ أقصرتَ الخطبْة لقد أعرضت المسألة**؛ أي: جئتَ بالخِطبْةِ قصيرةً وبالمسألة عريضةً يعني: قَلَّلتَ الخِطبة وأعظمتَ المسألة. وفي حديث علقمة: كان إذا خطب في نكاح قصّر دون أهله أي خَطَبَ إلى من هو دونه وأمسك عمّن هو فوقه؛ وقد قصُرَ قِصَراً وقَصارةً، فهو قصير، والجمع قُصراء وقِصارٌ، والأنثى قصيرة، والجمع قصارٌ. وقصَّرته تقصيراً إذا صيّرته قصيراً. وقالوا: لا وفائِتِ نفسي القصير؛ يعنون النفس لقصر وقته، الفائت هنا هو اللّه عز وجل(٢).

التقصير: القِصَرُ: خلافُ الطُّول، وهما من الأسماء المتضايفة التي تعتبر بغيرها، وقَصَرْتُ كذا: جعلته قصيراً، والتقصير: اسم للتضجيع، وقَصَرْتُ كذا: ضممت بعضه إلى بعض ومنه سُمِّيَ القصر، وجمعه قُصُور(٣).

الإسراف: السرف: تجاوُزُ الحدِّ في كل فعلٍ يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر. قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾(٤) ويقال تارةً اعتباراً بالقَدْر، وتارةً بالكيفية، ولهذا قال سفيانُ: (وما أنفقتَ في غير طاعة اللّه فهو سرف، وإن كان قليلاً) قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾(٥)، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾(٦)، أي: المتجاوزين الحدَّ في أمورهم، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾(٧)، وسُمِّيَ قومُ لوطٍ مسرفين(٨)، من حيث إنهم تَعَدَّوْا في وضع البذر في الحرث المخصوص له المعنيّ بقوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ

(١) سورة الطلاق، الآية: ٤.
(٢) لسان العرب، ج ٥، ص ٩٥-٩٦ مادة «قصر».
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٧٢-٦٧٣ مادة«قصر».
(٤) سورة النساء، الآية: ٦.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٦) سورة غافر، الآية: ٤٣ .
(٧) سورة غافر، الآية: ٢٨.
(٨) ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ سورة الأعراف، ٨٠-٨١ .

حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾[١] وقوله: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[٢]، فتناولَ الإسرافَ في المال، وفي غيره[٣].

الاعتذار: العُذْر، الحجّة التي يُعْتَذر بها والجمع أَعذارٌ، يُقالُ: اعْتَذَر فلانٌ اعْتذاراً وعِذْرةً ومَعْذرةً من دِيْنِه فعَذَرْتهُ وعذَرَ يَعْذرُهُ فيما صنع عُذْراً وعِذْرةً وعُذْرَى ومَعْذَرَة والاسم المعذَرة... ولي في هذا الأمر عُذْرٌ وعُذْرَى ومَعْذرةٌ أَي: خروجٌ من الذنب قال الجَمُوح الظفري قالت أُمامةٌ لما جئْتُ زائرَها هلاَّ رَمَيْتَ ببَعْض الأَسْهُم السُّودِ؟ للّه دَرُّكِ إِني قد رَمَيْتُهُمُ لولا حُدِدْتُ ولا عُذْرَى لِمَحْدودِ[٤].

الاعتذار: العذرُ: تحرّي الإنسان ما يمحو به ذنوبه. ويقال: عُذْرٌ وعُذُرٌ، وذلك على ثلاثة أضرب: إمّا أن يقول: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنبا، أو يقول: فعلتُ ولا أعود، ونحو ذلك من المقال. وهذا الثالث هو التوبة، فكلُّ توبةٍ عذرٌ وليس كلُّ عذرٍ توبةً، واعتذرتُ إليه أتيتُ بِعُذرٍ، وعذَرتُهُ: قبِلْتُ عذرَه[٥].

الاعتذار: اعتذر من الذنب واعتذر أيضاً بمعنى أعذر: أي صار ذا عذر والاعتذار: أيضاً الاقتضاض والعذرة: بوزن العسرة البكارة. والعذراء: بالمد البكر والجمع العذارى بفتح الراء وكسرها[٦].

الندم: نَدِمَ على الشيء ونَدِمَ على ما فعل نَدَماً ونَدامةً وتَنَدَّمَ أَسِفَ. ورجل نادمٌ سادِمٌ ونَدْمانُ سَدْمانُ أَي نادِمٌ مُهْتمٌّ. وفي الحديث: «النَّدَمُ تَوْبةٌ»، وقوم نُدَّامٌ سُدَّامٌ ونِدامٌ سِدامٌ ونَدامى سَدامى. والنَّدِيمُ: الشَّرِيبُ الذي يُنادِمه، وهو نَدْمانُهُ أَيضاً. ونادَمَني فلانٌ على الشراب، فهو نَدِيمي ونَدْماني[٧].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٤٠٧-٤٠٨.
(٤) لسان العرب، ج٤، ص ٥٤٥ مادة «عذر».
(٥) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٥٥٥مادة «عذر».
(٦) مختار الصحاح، ص ١٧٧ مادة «ع ذ ر».
(٧) لسان العرب، ج ١٢ص ٥٧٢-٥٧٣مادة «ندم».

الندم: نَدِمَ نَدَماً وندامةً وتندّمَ على ما فعل: حزن وأسف وتاب وتحسّر، أندمَهُ: جعله يندم. النادم نادمون وندّام. والندمان: ندامى وندمان كالمفرد ندمانة وندمى: من يندم. المنْدم؛ الندامة. المندمة: ما يحمل على الندامة(١).

الندم: التحسر من تغيُّر رأي في أمر فائت. قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾(٢) وقال: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ﴾(٣) وأَصله من منادمة الحزن له. والنديم والندمان والمنادم يتقارب. قال بعضهم: المندامة والمداومة يتقاربان. وقال بعضهم: الشريبان سميا نديمين لما يتعقب أحوالهما من الندامة على فعليهما(٤).

الانكسار: كَسَرَ الشيء يَكْسِرُه كَسْراً فانْكَسَرَ وتَكَسَّرَ شُدِّد للكثرة، وكَسَّرَه فتَكَسَّر؛ قال سيبويه: كَسَرْتُه انكساراً وانْكَسَر كَسْراً، وضعوا كل واحد من المصدرين موضع صاحبه لاتفاقهما في المعنى لا بحسب التَّعَدِّي وعدم التَّعدِّي. ورجل كاسرٌ من قوم كُسَّر، وامرأَة كاسِرَة من نسوة كَواسِرَ؛ وفي حديث العجين: قد انْكَسَر، أَي لانَ واخْتَمر. وكل شيء فَتَر، فقد انْكَسَر؛ يريد أَنه صَلَح لأَنْ يُخْبَزَ. ومنه الحديث: بسَوْطٍ مَكْسور أَي لَيِّن ضعيف. وكَسَرَ الشِّعْرَ يَكْسِرُه كَسْراً فانْكسر: لم يُقِمْ وَزْنَه، والجمع مَكاسِيرُ؛ عن سيبويه(٥).

الانكسار : كَسَرَ كسراً العود: فصله من غير نفوذ جسم قاطع فيه(٦).

الإقالة: طلب الإقالة والعفو(٧).

الإنابة: الرجوع(٨).

---

(١) المنجد، ص٧٩٩ مادة «ندم».
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣١.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٤٠.
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٧٩٦مادة «ندم».
(٥) لسان العرب، ج٥، ص ١٣٩ مادة «كسر».
(٦) المنجد، ص ٦٨٤ مادة «كسر».
(٧) شرح دعاء كميل، ص ١٣٦.
(٨) شرح دعاء كميل، ص ١٣٦.

المُقِرُّ: المَقَرُّ، القرارُ المستقرُّ من الأرض ويومُ ـ القَرّ ـ بالفتح اليومُ الذي بعد يوم النحر؛ لأنّ الناس يَقِرّون في منازلهم[١].

المقر: قَرَّ في مكانه يَقِرُّ قراراً، إذا ثبت ثبوتاً جامداً، وأصله من القُرِّ، وهو البَرْدُ، وهو يقتضي السكون، والحَرُّ يقتضي الحَرَكَة، وقرئ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[٢]: أصلُهُ اقررْنَ فحذف إحدى الراءين تخفيفاً نحو: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[٣] أي: ظللتم[٤].

المقر: القُرُّ البَرْدُ عامةً بالضم وقال بعضهم القُرُّ في الشتاء والبرد في الشتاء والصيف يقال هذا يومٌ ذو قُرٍّ أي ذو بَرْدٍ والقِرَّةُ ما أَصاب الإنسانَ وغيره من القُرِّ.[٥]

الإذعان: ﴿مُذْعِنِينَ﴾[٦] أي: منقادين، يقال: ناقةٌ مِذعانٌ، أي: منقادة.[٧]

الإذعان: قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾[٨] قال ابن الأَعرابي مُذْعِنين مقرّين خاضعين وقال أَبو إِسحق جاء في التفسير (مسرعين) قال: والإِذعان في اللغة الإِسراع مع الطاعة تقول: أَذعَن لي بحقي معناه طاوَعَني لما كنت أَلتمسه منه وصار يُسْرع إِليه وقال الفراء: مُذْعنين مطيعين غير مستكرهين وقيل: مذعنين منقادين وأَذْعَنَ لي بحقي أَقرّ وكذلك أَمْعَنَ به أَي أَقرّ طائعاً غير مستكره والإِذعان الانقياد وأَذعَنَ الرجلُ انقاد وسَلِس وبناؤه ذَعِن يَذْعَن ذَعَناً وأَذْعَن له أَي خضع وذل وناقة مِذْعان سَلِسةُ الرأْس منقادة لقائدها[٩].

الاعتراف: المعرفة والعرفان: إدراك الشيء بتفكّر وتدبّر لأثره، وهو أخصّ من العلم، ويُضادُّهُ الإنكار، ويقال: فلان يعرف اللّه ولا يقال: يعلم اللّه متعدّياً إلى

---

(١) مختار الصحاح، ص ٢٢١ مادة «ق ر ر».

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٦٥.

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٦٢ مادة «قر».

(٥) لسان العرب، ج٥، ص ٨٢ مادة«قرر».

(٦) ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ - سورة النور، الآية: ٤٩.

(٧) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٣٢٨ مادة «ذعن».

(٨) سورة النور، الآية: ٤٩.

(٩) لسان العرب، ج١٣، ص ١٧٢ مادة «ذعن».

مفعول واحد، لمّا كان معرفة البشر للّه هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته، ويقال: اللّه يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا، لمّا كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوَصَّل به بتَفَكُّر، وأصله مِنْ: عَرَفْتُ. أي: أصبت عَرْفَهُ. أي: رائحتَهُ، أو من أصبتُ عَرْفَهُ. أي: خَدَّهُ، يُقال عرفْتُ كذا[١].

الاعتراف: العرفان: العلم[٢].

المفرّ: أصلُ الفَرِّ: الكشف عن سِنِّ الدابّة. يقال: فَرَرْتُ فِراراً، ومنه: فَرَّ الدهرُ جَدعاً، ومنه: الافترار، وهو ظهور السّنِّ من الضحك، وفرَّ عن الحرب فراراً. قال تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾[٣] وقال: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[٤] ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[٥] ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم﴾[٦] ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٧] وأفررته: جعلته فارّاً، ورجل فَرٌّ وفَارٌّ، والمفرُّ: موضع الفِرارِ، ووقتُهُ، والفِرارُ نفسُهُ، وقوله: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[٨]، يحتمل ثلاثتها[٩].

المفرّ: الفَرّ والفِرارُ: الرَّوَغان والهرب[١٠].

المفزع: الفَزَعُ الفَرَقُ والذُّعْرُ من الشيء وهو في الأَصل مصدرٌ فَزِعَ منه وفَزَعَ فَزَعاً وفَزْعاً وفِزْعاً وأَفْزَعه وفَزَّعَه أَخافَه ورَوَّعَه فهو فَزِعٌ قال سلامة:

كُنَّا إِذا ما أَتانا صارِخٌ فَزِعٌ، كانَ الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنابِيبِ[١١].

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني ص٥٦٠ مادة «عرف».

(٢) لسان العرب، ج ٩، ص ٢٣٦ مادة «عرف».

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١.

(٤) سورة المدثر، الآية: ٥١.

(٥) سورة نوح، الآية: ٦.

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ١٦.

(٧) سورة الذاريات، الآية: ٥٠.

(٨) سورة القيامة، الآية: ١٠.

(٩) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٢٧-٦٢٨ مادة «فر».

(١٠) لسان العرب، ج٥، ص ٥٠ مادة «فرر».

(١١) لسان العرب، ج٨، ص ٥١ مادة «فزع».

المفزع: الفزع: انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع، ولا يقال: فزعتُ من اللّه، كما يقال: خفتُ منه. وقوله تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾[١] فهو الفزع من دخول النار. ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٢] ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾[٤] أي: أزيلَ عنها الفَزَعُ، ويقال: فزع إليه: إذا استغاث به عند الفزع، وفزع له: أغاثه[٥].

الوجه: الوَجْهُ معروف والجمع الوُجُوه[٦].

فهم النص

يمثل الاستكبار طريقاً ومنهجاً وسلوكاً، ارتكزت عليه تلك الفئة، التي تشعر بأنّها فاقدة للموازين والمبادئ الإنسانية والدينية، وقد لجأت إليه هذه الطغمة الظالمة، حين ينادي صوت العدالة الحقة، بتطبيق تلك المبادئ والقوانين الربانية، في حين أنّنا نرى أن الظالم قد أخذ ينحو نحو التسافل والإنحطاط الخلقي، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[٧] هذه الآية: تبيّنُ لنا طبيعة وتكوين من يتصف بحالة وسياسة الاستكبار، إذ تصرح الآية: الكريمة، بأنّ المستكبرَ، حين تتجلّى له البراهين الواضحة، والأدلة الدامغة، لا يميل إليها، وأن المعادلة الإستراتيجية التي يمشي عليها هذا الظالم، هي القوة الضاربة لقواعد الدين، والفكر المعتدل الذين يوازن الحياة بطريقة طبيعية.

والآية المباركة تدلّنا على عدة صفات للمستكبر:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.
(٣) سورة النمل، الآية: ٨٩ .
(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٣.
(٥) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٣٥ مادة «فـزع».
(٦) لسان العرب، ص ٥٥٥ مادة «وجه».
(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

الصفة الأولى: التحرك نحو حرف مسار الناس وتضليلُهم وتمييع القضايا ذات الطابع السياسي، ورسم هذا الطريق، على أنه يحمل صبغة الخداع والكذب، ومحاولة رمي الآخرين جزافاً بالخيانة، حيث يقوم على هذه المبادئ بإصرار، حتى لا تنجرف بوصلة المصلحة والقوة عنه.

الصفة الثانية: عند عرض الآيات والدلائل والبراهين القوية، لهذا المستكبر، لا يخضع وينيب إليها، وإنّما هو عن سبق إصرار وترصد يحرّف المسارات، ذات الطابع العام، إلى عناوين شخصية منحرفة، في إشارة إلى جرفِ القضايا ووضعها في زاوية النسيان، واستخدام رسالة الحرب والقوة العسكرية.

الصفة الثالثة: وتدلنا الآية: المباركة، على أن المستكبرين، يمتازون بصفة غريبة عن الطبع الإنساني، هي التزلّف إلى المصالح الشخصية والفئوية، ذات الطابع النفسي، أكثر منه في البعد العقلي أو الاجتماعي، من حيث أن الأدلة تكون واضحة ومتجلية للعَيانِ مثل وضوح الشمس في رابعة النهار، لكن المستكبرين، ينحازون نحو ملذاتهم ومشتهياتهم؛ حيث يرون أن المطالب التي عرضها الرسل والأنبياء كانت محقة، وأنها تلامس الواقع، ولكن أدركوا أن بساط السلطة سيُسحَبُ من تحت أرجلهم، وأن المصالح من ثروات وحكم وتجارات اقتصادية ستؤولُ من يديهم الى أيدٍ أخرى بكل سهولة و من غير عناء، ويعلمون علم اليقين أن هذه المطالب التي يطلبها الناس هي مطالب مشروعة وحقّة، لكنهم يميلون نحو تثبيت دعائمهم الإستراتيجية والفئوية، التي - بحسب وجهة نظرهم - ستخلدهم وترفع قيمتهم المعنوية في نفوس الناس المظلومين.

الصفة الرابعة: اعتبار الجهلِ والغيِّ، عنوانَ الطريق الذي يسير عليه الطاغوت والمستكبر. ويرجع السبب الأساس للميل نحو هذا الطريق، هو السير غير الطبيعي في الحياة مع بني الإنسان، في حين أنّ العملَ الفاسدَ، والعواملَ الأخرى، أدَّت إلى تراكم الصدأ على القلب، قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(١).

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.

إذن، فالإنسان بحسب كيانه الخلقي، عليه أن يتدرج في التكامل من صغره الى كبره، حيث لا يمكنه أن يقفز إلى العتبة أو الدرجة العاشرة، وهو للتوّ لم يتجاوز الأولى، هذا الإنسان الطبيعي الذي يحاول أن يتكاملَ درجةً درجةً، وخطوةً خطوةً، بخلاف المستكبرين ونظرتهم إلى الحياة الدنيا، فإنهم وضعوا لهم أطروحة ونظرية، تقول: خالف القوانين الطبيعية والتكوينية الخاصة في المجتمعات والجماعات من بني الإنسان، فإنك ستحصل على ما تريده من متطلبات، وحيث أن القوانين التكوينية الخاصة بالكون ليس بمقدورك أن تسخرها لنفسك، يؤول الحال إلى تسخير القوانين الاجتماعية بالدهاء والسياسة والخداع تارةً والكذب والفبركة الإعلامية وتمييع الأفكار تارةً أخرى، وخصوصاً إذا كان هذا الإنسان يمتلك مكانة عليا في المجتمع، وله الكلمة الأولى في التشريع والتنفيذ الوضعيين، فإنه قادر على محو المعالم المادية بطغيانه وجبروته وتكبره، بحيث يسير خارج السير البشري، ويكون نموُّهُ غير طبيعيّ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[1].

وأمّا الإنسان الذي يمتلك صفة العبودية الكاملة للّه تعالى، فإنه ينطلق من الأطروحة السماوية التي تقول: عليك أن تُقِرَّ بالعبودية المطلقة للّه تعالى، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] إذ لا وجود لإلهٍ يُعبَدُ غير اللّه تعالى، و أن صفة الآلهة التي ألصقت، بصخور أو بني البشر أو بني الحيوان، ما هي إلا أسماء حاول ذوو النفوذ السلطوي، والمصالح أن يشيعوها بين االناس، لكي ينفتح لهم الطريق، لتنفيذ مآربهم الشخصية، وأن الاستعانة لا تجوز إلا باللّه تعالى، في حين أن كلَّ استعانةٍ بغير اللّه تعالى[3]، يكون مآلها الى الفشل والضياع.

و في هذه الفقرة من الدعاء المبارك تبيّن الاتجاه المعاكس لهذه الأطروحة التي تقدَّمَ بيانها بمقدار ١٨٠ درجة، من حيث أن العبد في هذه الفقرات، يعبر فيها عن حالة

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) التوسل بالأئمة المعصومين عليهم السلام، هو عنوان العبودية للّه تعالى الكاملة والاستعانةُ بهم هو كمال العبودية للّه عز وجل بحسب نصوص القرآن الكريم.

من حالات الانكسار والخضوع، بعد أن كان خلف جدار سميك جداً من الذنوب وكثرة المعاصي، وبعد أن كان في غمرة من الانحطاط الخُلقي، والاجتماعي والفكري، في حين أنّه كان في عهدٍ غير بعيد، قد امتطى سفينة الاستكبار والظلم، وقهر الآخرين، بسلطته ونفوذه السياسي مستخدماً القوة القاهرة ضدَّ من يخالفه في المنهج والسلوك، مسترشداً بعصابة ادعت أنها تخرجت من أعماق الإيمان باللّه عز وجل، جاعلةً إياه سلاحاً وسيفاً مشهوراً على من يخالفهم، في الدين والمذهب والفكر متبنين أطروحة، من (لا يدخل معي فهو عدوّ). وهذه الأطروحة، أدّت إلى أن يعيش العالم أزمة على كل المستويات، وقد خلقت المضاعفات السلبية، في النظام العام لدى الإنسان في حياته، مما شكل منظومة إرهابية تسير و ترتكز على أُطر فكرية معادية للدين الإسلامي أكثر من دعوتها إليه، وخصوصاً إذا كانت هذه المنظمات تدّعي لنفسها أنها تمثل الإسلام.

لكن ذلك لن يطول، ولن يبقى العبد في غفلة ورقادٍ وسباتٍ طويل، ويخضع لقرارات النفس وسياساتها المدّمرة، مع غواية الشيطان الجنيّ والإنسيّ، وتُلقي تلك المعطيات ذات المشاريع الإستراتيجية السلبية على المدى البعيد الإنسان في الهاوية، في حين أنّ نتائجها ستُخلفُ قرناً طويلاً من الخراب في الأرض، وسيلاً هائلاً من المصائب والمشكلات في البُعد الإيديولوجي والواقعي، التي يتطلَّبُ علاجها جهداً وفيراً وجدياّ، لكي ينتشل هذا العالم المليء، بهكذا من الأفكار، قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ * وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١] هذا الشيطان الذي تمرّس بالخداع والتضليل للناس، وبأساليب متعددة نجد أنّه يسلخ إيمان الناس من عقائدهم الحقيقية، هذا الإنسان تتجلّى له الحقائق، من خلال الأدلة والبراهين القاطعة والتي لا تقبل الريب والشك، نراه ينسلُّ من حظيرةِ الإيمان بكل سهولة، وذلك

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥-١٧٦.

لكونه لم يجعل هذا الإيمان، إيماناً صادقاً، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**اللهم إني أسألك إيماناً تباشر به قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبتَ لي ورضّني من العيش بما قسمت لي يا أرحم الرحمين**»[١] الإيمان تصديق بالقلب يظهر على الجوارح بالعمل ويبدأ الإيمان بشهادة لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ثم يرتقي المؤمن بالإيمان حيث للإيمان عشر درجات مثل درجات السُّلَّم وهناك خصال تستكمل فيها حقيقة الإيمان[٢]، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه خصال ثلاث: الفقه في الدين، وحسن التقدير في المعيشة، والصبر على الرزايا، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم**»[٣].

ومن هذا المنطلق يدرك العبد، أنه قد أضاع هدفاً مستقبليّاً قوامُهُ الإيمان، وذلك من خلال صفتين، وهما التقصير والإسراف، فبالتقصير في العبادات والطقوس والمفاهيم الدينية، أخذ العبد مجالاً واسعاً لانحرافه السلوكي والعملي، ومن جانب آخر يحتلّ الإسراف الموضع الأشمل، لتوافقه مع مشتهيات النفس، ولكونه مقدمة لبلورة بعض المفاهيم الحداثية، من قبيل الحرية التي لا تتوافق في جزءٍ منها مع مبادئ الدين والعقيدة، أو السيطرة والمحاسبة على مخارج ومداخل الثروة الاقتصادية، ناهيك عن أن هذه الثروة لها بُعُدٌ اجتماعي، من قبيل المساعدة، بحسب الآية: القرآنية التي تقول: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٤] فالآيتان المباركتان تُثبتان الحقَّ[٥] في هذه الثروة، للإنسان الذي يحتاج إلى المساعدة، والمسكين والفقير.

وثـمّة نقطة جوهرية في المقطع المبارك من الدعاء، وهي أنّ العبد يوجِّهُ خطابه

(١) مفاتيح الجنان، ص ٢٥٢ دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) في رحاب دعاء أبي حمزة الثمالي، ص ١٩٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٣٩.

(٤) سورة المعارج، الآية: ٢٤-٢٥.

(٥) من اللازم أن ندرك جيداً أن ثبوت هذا الحق من الثروة للإنسان الآخر المحتاج قائم على موازين واعتبارات هدفها أن يعيش الإنسان بكرامة، لا أن يكون عالةً على من يملك هذه الثروة.

إلى اللّه تعالى بأنّه قد توجه إليه، في إشارة واضحة، إلى أنّ لا ملجأ إلّا الى اللّه تعالى في هذا الوجود، حيث الضاجّون والعاجّون الذين يقفون في تلك الساحة المقدّسة، ساحة اللّه تعالى، صافّين أقدامهم داعين اللّه عزّ وجلّ، في حين أنَّ أصوات الحشود والمجاميع المتكاثرة تتجه نحو باب المغفرة، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الثناء والمناجاة: «**إلهي كل مكروب إليك يلتجيء، وكل محزون إياك يرتجي. إلهي سَمِعَ العابدون بجزيل ثوابك فخشعوا، وسمع الزاهدون بسعة رحمتك فقنعوا، وسمع المولّون عن القصد بجودك فرجعوا، وسمع المجرمون بسعة غفرانك فطمعوا، وسمع المؤمنون بكرم عفوك، وفضل عوارفك فرغبوا، حتى ازدحمت مولاي، ببابك عصائب العُصاة من عبادك وعجّ إليك منهم عجيج الضجيج بالدعاء في بلادك، ولكلّ أملٍ قد ساق صاحبه إليكَ محتاجاً ولكلٍّ قلبٌ تركه وجيب خوف المنع منك مهتاجاً، وأنت المسؤول الذي لا تَسْوَدُّ لديه وجوه المطالب**»[1] حين تقف هذه الأصوات بقلوبها ناحية باب اللّه تعالى طالبة المغفرة والرحمة، يقف العبد بهذا الخطاب راجياً العفو منه والرضوان له.

بعدها حينئذٍ يأتي معترفاً ومقرّاً بالتقصير والإسراف، وهو إعترافٌ من العبد يُحسب له لا عليه، وذلك، لكون الإعترافِ بالذنب فضيلةً، وقد وردت روايات في هذا الشأن، منها ما وردَ عن الإمام الباقر عليه السلام: «**لاَ واللّه ما أراد اللّه تعالى من الناس إلا خصلتين: أن يُقرّوا له بالنعم فيزيدهم وبالذنوب فيغفرها لهم**»[2] وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن اللّه يحبُّ العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم ويبغض العبد أن يستخفّ بالجرم اليسير**»[3] وعن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: قال لبعض ولده: «**يا بني عليك بالجدّ، لا تخرجن نفسك من حدّ التقصير في عبادة اللّه عز وجل وطاعته، فإن اللّه لا يُعبد حقَّ عبادته**»[4] هذا الحديث يدعو الإنسان، إلى أن يُشعر نفسه آناً واستمراراً بالتقصير وعدم التكامل في كل شيء، وذلك لأنّ مجرَّد الشعور

---

(١) أدعية الإمام علي عليه السلام، ص ٧٩.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص ٤٢٠ ح٢ باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها من كتاب الإيمان والكفر.

(٣) أصول الكافي، ج٢، ص ٤٢٠ ح٦ باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها من كتاب الإيمان والكفر.

(٤) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج١، ص ١١٤.

بالكمال، يخلف النتائج السلبية على ذات الإنسان في الإستراتيجية ما بين نفسه، وبينه وبين الناس، وعن جابر قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «**يا جابر لا أخرجك اللّه من حدّ النقص ولا التقصير**»[١] هذا الحديث، يخاطب فيه، الإمام الباقر عليه السلام جابراً داعياً اللّه تعالى بأن لا يخرج جابر عن حدود النقص والتقصير، على حين أنّه كثيراً ما يكون الشعور بالنقص والتقصير في العمل موجوداً في نفس جابر، وأن الكمال للّه عزّ وجلّ.

وكتب الإمام الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله: «**إن علّة الصلاة أنها إقرارٌ بالربوبية للّه عز وجل وخلع الأنداد وقيامٌ ما بين يدي الجبار جل جلاله بالذلّ والمسكنة والخضوع والإعتراف والطلب للإقالة من سالف الذنوب، ووضع الوجه على الأرض كل يوم إعظاماً للّه جل جلاله، وأن يكون ذاكراً غير ناس ولا بطر، ويكون خاشعاً متذللاً راغباً طالباً للزيادة في الدين والدنيا مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر اللّه عز وجل بالليل والنهار لئلا ينسى العبد سيده و مدبره وخالقه فيبطر ويطغى، ويكون ذلك في ذكره لربه جلّ وعزّ، وقيامُهُ بين يديه زاجراً له عن المعاصي ومانعاً له من أنواع الفساد**»[٢].

وحينما يشعر العبد بأنّه يتصف بالكمال وعدم النقص في أعماله وخطاباته، فإنه كنتيجة حتمية يبدأ التخبط في كل شيء في حياته، من حيث أنه يُخّطئ الآخرين، ويسعى إلى إشاعة الفساد والخراب في محيطه البيئي والاجتماعي، وهو مؤشر على أن العامل الفكري والثقافي قد وصل به إلى أدنى مقام من الإنحطاط ما بين الناس والمجتمعات البشرية، وهذا العبد غارق في ملذاته الدنيوية ومفاتنها، وهو من الموارد التي تنطوي تحت الإستكبار المتقدم بيانه، وكلُّ هذه الموارد تكون من مصاديق الإسراف، حيث قد ذمته الشريعة الإسلامية، قال اللّه تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٣] حيث ذمّت الآية: الذين يسرفون في الأكل

(١) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، ج١، ص ١١٤ .

(٢) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، ج١، ص ١١٤- ١١٥ .

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

والشرب، في حين أنَّ الآية: المباركة تدعو إلى التوازن في الموادِّ الموجودة على مائدة الطعام، إذ كثُرَ في السنوات القليلة الماضية، وخصوصاً في شهر رمضان المبارك، وضعُ الكثير من الأطعمة من كل صنف ونوع على مائـدة الإفطار، بحيث تصل في بعض البيوتات إلى درجة البذخ والترف الذي ذمّه القرآن الكريم، في حين أن الفاضل الذي يتبقى من هذه المائدة يُرمى به إلى القمامة مع شديد الأسف، في الوقت الذي يبيتُ ليلتها الملايين من الأسر العفيفة، التي لم تحصل على لقمة تسدّ الرمق. قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾(١) إن هذه الآية: تشير إلى الترف الذي يؤدي إلى الفسق، على أن هذه التجاوزات تخضع للواقع العملي، من حيث توجيه الثروات الاقتصادية إلى مصرفها المطلوب من وجهة النظر الإسلامية، وصرفها في مواردها غير الشرعيّة، وإذ نرى ونسمع عن الكثير من أصحاب هذه الثروات الضخمة، كيف أنه يقضي على قدرته الاقتصادية، من خلال اللعب واللهو بها، في أُمسيات لا ترجع عليه بالفائدة، في حين يكون الضياع المحتم على أبوابه، وهذا يكون كنتيجة واقعية لمن لا يدرك كيفية إدارة مثل هذه الثروات الاقتصادية.

في حين أن الثقافة الإسلامية وضعت التعاليم الناجعة، في الحفاظ على هذه الثروات، أو كيفية إدارتها من الناحية العملية، قال اللّه تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾(٢) هذه الآية: تحث المؤمنين على التعاون والالتفات إلى الأقارب والمساكين والفقراء منهم، وأن لا يكون ثمَّة إسرافٌ وتبذيرٌ في هذا الشأن، بحيث لا يكون من مصاديق الإعالة المقرِّبة إلى اللّه تعالى، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**من أنفق شيئاً في غير طاعة اللّه فهو مبذر ومن أنفق في سبيل اللّه فهو مقتصد**»(٣) هذا من ناحية اقتصادية، وهي العصب الماديّ في حياة الناس، ولكن الاسراف، ليس بالضرورة محصوراً بهذا المنوال من العناوين، وقد صار هذا

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.
(٣) تفسير الأمثل، ج٨، ص ٣٠١.

العنوانُ بارزاً ومتجلّياً في هذا العصر، والإسراف يأخذ مجالاً أوسع وأشمل، لتصل الحالة، إلى ارتكاب شتّى أنـواع الذنوب والجرائم، الذي يؤدي إلى فقدان البصيرة والهداية بنور اللّه تعالى، وهو بحدّ ذاته إسراف، ومن أجل ذلك، يقول العبـد موجهاً خطابه الصادر من القلب بحرقة وألم وحسرة على ما فرَّط في جنب اللّه تعالى: توجّهتُ إلى اللّه، وقد حملتُ على ظهري عبءَ الإسراف، وعدم التورع عن محارم اللّه، بل، قد سِرْتُ، حثيثاً في هذا المنطلق، حتى رأيت نفسي، قد تجاوزت حدودك، في عدم الإعتـدال، في القول والفعل، ولذلك جئتك وقد اعترفتُ بخطئي، وبعـد أن عرضت الإعتراف لك بالتقصير والإسراف[1] على نفسي جئتك:

---

(١) هناك جملة من الروايات الواردة في شأن الإسراف لا بأس بإيراد قسماً منها للإفادة، منها: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**أترى اللّه أعطى من أعطى من كرامته عليه ومنع من منع من هوانٍ به عليه؟ لا، ولكن المال مال اللّه يضعه عند الرجل ودايع، وجوّز لهم أن يأكلوا ويشربوا قصداً ويلبسوا قصداً وينكحوا قصداً ويركبوا قصداً ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلمّوا به شعثهم، فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً ويركب وينكح حلالاً ومن عدا ذلك كان عليه حراماً، ثم قال: لا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، أترى اللّه ائتمن رجلاً على مالٍ خوّل له أن يشري فرساً بعشرة آلاف درهم ويجزيه بعشرين درهماً ويشتري جارية بألف دينار ويجزيه بعشرين ديناراً؟ قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾**» سورة الإسراء الآية: ٣٦ - موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج١، ص ٨٣.

هذه الرواية بمجملها، ترسم لنا الطريق الأساس، لإعداد توازنات اقتصادية، تعود بالمصلحة على صاحبها بقدر ما تخلق معادلة التلاحم المجتمعي بين التكوينات الاجتماعية، في حين أنّها تُركِّزُ على موارد الصرف، على أن يكون وفق معادلة المكانة الاجتماعية، التي لا تقبل أن يكون الغني يعيش أدنى حدود الحياة، كما أنّها تضع له حدوداً معيّنةً ليتمكّن أن يتكيَّف مع محيطه الاجتماعي، لا أن يكون الزهو والترف هو عنوان الحياة لدى الغني، الذي سُنتجُ له قسماً كبيراً من السلوكيات والأخلاقيات السلبية البعيدة عن روح السماحة والإيمان، (فتنفذ إلى كيانه الطبائع المادية) بكل ما تعنيه هذه السلوكيات والأخلاقيات من معنى، فيما إذا تصرف بهذه الثروة بمعنى الإسراف والتبذير، والتغافل عن الفقراء والمساكين من الناس المؤمنين. ومن الروايات.

قول الإمام علي أمـير المؤمنين عليه السلام: «**الاقتصاد نصف المؤنـة**».

وقال سلام اللّه عليه: «**الاقتصاد ينمّي القليل**».

وقال عليه أزكى التحية والإكرام: «**الاقتصاد ينمّي اليسير**» غرر الحكم، ص ١٦-١٧ ح ١٣٤- ١٣٦.

عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: قال سليمان بن داود عليه السلام: «**أوتينا ما أوتيَ الناس وما لم يُؤْتَوْا، وعلمنا ما علم الناس وما لم يعلموا، فلم نجد شيئاً أفضل من خشية اللّه في المغيب والمشهد، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة الحق في الرضـا والغضـب، والتضـرع إلى اللّه عز وجل على كل حـال**» بحار الأنوار، ج٦٩، ص ٣٧٦ ح ٢٦

لنرجع إلى هذا الحديث في الفقرة منه «والقصد في الغنى والفقر» حيث ترسم لنا لوحة حول كيفية إدارة الحياة المعيشية، إذ، ترشد المؤمنين إلى الاقتصاد (في حالة الفقر، وفي حالة الغنى)، الذي يُرشدنا إلى نبذ الإسراف، وعدم التعامل معه أنّ العيشَ حافل بالرفاهية، والتمتع بشتى أنواع الحياة الرغيدة، على أن الإسراف له ضوابط ونتائجه السلبيّة، ترجع على الإنسان بالخسارة، سواءٌ أكان غنيّاً أم فقيّراً.

وقال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**ترك التقدير في المعيشة يورث الفقر**» الخصال ج ٢، ص ٥٣٢ ح٢. =

معتذراً:

من منطلق أن العبد في تلك الأيام الخوالي، كان في قمة النشوة بالملذات، وإحياء تلك الليالي الحمراء، التي يذكر أنها كانت تشتمل على شتى أنواع وأصناف أعمال أهل الدنيا، وأهل اللهو واللعب، حيث الذنوب والمعاصي كانت هي اللاعب الأساس في كل تحركاته وسكناته، ناهيك عن تلك الأخلاق، التي يتمتّعُ بها مثل هؤلاء العبيد للدنيا، من ظلم للنفس وللإنسان، وسفك الدماء التي حرمها اللّه تعالى إلا بالحقّ، أضف إلى ذلك ،المجاهرة بالمعاصي في وضح النهار، وأمام خلق اللّه تعالى، ومن غير حياء وخوف من اللّه تعالى، فمن هذا المنطلق وغيره، يقف العبد موجِّهاً خطابَهُ إلى جبّار السموات والأرض، إذ يقول: جئتك وأتيتك يا سيدي ومولاي بعد أن ركبت موجة بحر هذه الدنيا، ودخلتُ في أعماقها، ورحتُ أحفر نفق التقصير والإسراف على هذه النفس، من غير مسؤوليّة ولا إحساس بالمصير الذي سينبثق من الغوص في أعماق التقصير والإسراف، وارتكاب الذنوب، وإتيان المعاصي والآثام، معتذراً، من كل هذه الأعمال السلبية، والتي آملُ أن يكون الاعتذارُ منها مقبولاً عندك.

وإذا كان الشاعر يقول: «والعذر عند كرام الناس مقبول».

فكيف بالرب الكريم العطوف على عباده، فهل يتركهم يصدرون عنه، وهم يجرّون أذيال الخيبة، والحرمان؟!

كلّا، وألف كلّا؛ لأنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حدث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إن اللّه كريم بيده الخيرات يستحيي أن يكون عبدُهُ المؤمن قد أحسَنَ الظنَّ به، ثم يُخلِفَ ظنَّهُ، ورجاءَهُ**»(١).

وقد حثَّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام، قاعدتهم الشعبية، على تجنُّبِ العمل الذي يؤدي إلى الإعتذار.

= وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا أراد اللّه بعبد خيراً ألهمه الاقتصاد وحسن التدبير وجنَّبَهُ سوءَ التبذير والإسراف**» غرر الحكم، ص ١٥٦ ح ٣٠، ولكن لا يخلو الاقتصاد من سلبية، حيث بيَّنها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «**آفة الاقتصاد البخل**» غرر الحكم، ص ١٥٣ ح٣.

(١) أضواء على دعاء كميل، ص ٢٤٤– ٢٤٥.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب وجَّهه إلى الحارث الهمداني: «**وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِه، وَيَكْرَهُهُ لِعَامَّةِ الْـمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَيُسْتَحَيى مِنْهُ فِي الْعَلاَنِيَةِ، واحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ أَوِ اعتَذَرَ مِنْهُ**»[(١)].

وقال أيضاً سلام اللّه عليه في كتاب وجهه إلى قُثم بن العباس عامله في مكة: «**وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً، وَلا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلاً، وَالسَّلاَمُ**»[(٢)].

هنـا عدّة إرشادات وضعها الإمام عليه السلام، حول هذا المفهوم، في محاولـة لتربية النخبة من أصحابه في التعامل مع بني البشر كافّةً، إذ يدعوهم، إلى أن يأخذوا الحذر من تلك الأعمال التي توجب الرضا في نفس الإنسان، وهو في نفس الوقت يكره أن يقوم بهذه الأعمال، الآخرون، في حين أنّه واقعٌ في هذا الفـخ، ولنأخذ مثالاً على ذلك، كأن يأتي بالغيبة أو النميمة. وأمّا الآخرون فحين يغتابون، تبدأُ النصائح منه، مظهراً عدم الرضـا، حيث يسرد الآيات والأحاديث التي تذمّ الغيبة والنميمة، في إشارة واضـحة إلى عـدم ارتياحه من هذه الأعمال السلبية والسيئة، ثُمّ إنّ الإمام عليه السلام، يوجه الحـذر من الأعمال التي يقوم بها العبد، في حلكة الليل الدامس والمليء بالظلمة الكثيفة، وعند بزوغ الفجر وشروق الشمس، وفي وضح النهار، تختفي عنده تلك الأعمال. وهنا إشارة الى تلك الأعمال التي يقوم بها الإنسان في السر كالسرقة مثلاً، أو تلك الأعمال المنافية للآداب الاجتماعية والأخلاقية، كالزنا والعياذ باللّه، وغيرها الكثير، حيث يخجل القلم من ذكرها وسردها كرامةً للقارئ العزيز، ناهيك عن المعاملات التجارية بين الناس، من الخداع والنصب والاحتيال، كلّ هذه الأمور، يحاولُ العبدُ أن يقدم عليها في الخفاء وتحت جنـح الظلام، لكنه لا يقدم على ارتكابها في العلن! لمـاذا؟ لأنه وبكل بساطة تحلُّ عليه حالة الحياء من الناس، حيث يستحيي أن يقوم بهذه الأعمال أمام الناس، في حين

(١) شرح نهج البلاغة، ج١٨ ص٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ج١٦ ص١٠٦ .

أنّه لم يستحيِ[١] من اللّه الذي يراه في حلكة الليل المظلم، كما هو في وضح النهار.

بعد ذلك يبدأ الإمام عليه السلام في ضع العبد أمامَ مادّة الإعتذار حيث البحث الذي نحن فيه، ويشير إلى أن يبتعد عن تلك الأعمال التي توجب لصاحبها الإنكارَ والتهرّبَ، أو الاعتذار منها، وفي الوقت نفسه يحاول الإمام عليه السلام أن يؤطِّرَ عمل العبد المؤمن بأعمال توجب العزة له والكرامة، لا أن يضعه في خانة الكذب والعياذ باللّه، أو على كرسيِّ المذلة أبعدنا اللّه عنه. وهذه التربية

(١) يقدم القرآن الكريم الحياء على أنه واجهة للمرأة المؤمنة في حياتها، قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ سورة القصص الآية: ٢٥ حيث تشير هذه الآية: المباركة إلى قضية النبي موسى عليه السلام حين وروده ماء مدين، والفتاتين اللتين كانتا على أطرافه، إذ لا تستطيعان أن تسقيا الدوابَّ التي معهما، وقد ساعدهما النبي عليه السلام في ذلك، بعد ذلك تقدمت إحدى الفتاتان إليه تدعوه إلى منزلهما، حيث النبيّ شعيب عليه السلام يريد أن يقدم له الشكر على ما أبداه من مساعدة له، إذ جاءته تخطو بخطوات ملؤها الحياء والعفة ويظهر منها أنها تستحيي من الكلام مع شاب غريب. (تفسير الأمثل، ج١٢، ص ١٣٦). ونستفيد من هذه الحادثة، أن المرأة يلزم عليها أن تتسلح بسلاح الحياء، من خفض الصوت حين تتحدث مع الأجنبي، وكيفية جلوسها معه، لا أن يكونَ الحديثُ بصوت عالٍ ومرتفع. وفي بيت المرأة ثمة تعليمات وآدابٍ يلزمها أن تتّبعها، وذلك لأنها لا تعيش بمعزلٍ عن العالم والناس، فلا ينبغي لها حين تنادي زوجها مثلاً أو أحد أولادَها، أن يكون صوتها واصلاً إلى مسامع الرجل وهو يمشي في جوار البيت، ويا للأسف، هناك البعض من النساء اللّاتي لا يتقيّدْنَ بهذه التعليمات، بحيث يخرج صوتها إلى الخارج، إذ الأجنبي يسمع الصوت بكل وضوح. وأيضاً من الفوائد التي من الممكن أن نستفيدها من الآية: المباركة، هو أنَّ الملابس والثياب التي تستر بدنها يلزم أن تكون محتشمة ،لا أن تلبس ما يُبرزُ كل مفاتنها كاللباس الذي يُبيِّن حجم وكيفية حركة جسدها بكلّ تفاصيلها، وهو ما نراه لدى قسم كبير من شابّاتنا، بحيث يصل لدى بعضهن إلى فَقد الحياء منه. في حين أنّه في المقابل ركَّز أئمّة أهل البيت عليهم السلام على هذا البند، ووضعوه في قوالب ثمينة، ترغب المؤمن في الإقتداء به، والعمل بمقتضاه، لما يراه من براقة في لمعانِ الجانب الأخلاقي، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**الحياءُ نورٌ جوهرُهُ صدرُ الإيمان، وتفسيرُهُ التثبُتُ عند كلِّ شيءٍ يُنكِرُهُ التوحيدُ والمعرفة**» مصباح الشريعة، ص ٢٠٧ وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الحياءُ سببٌ إلى كلِّ جميل**» وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحياء لا يأتي إلّا بخير**» وقال الإمام علي عليه السلام: «**أحسن ملابس الدين الحياء**» وقال سلام اللّه عليه: «**الحياء تمام الكرم، وأحسن الشِّيَم**» ميزان الحكمة، ج٢، ص ٩٥٢ وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما كان الفُحشُ في شيء إلّا شانه، وما كان الحياء في شيء قَطُّ إلّا زانه**» وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «**لو كان الحياءُ رجلاً لكان صالحاً**» وقال الإمام علي عليه السلام: «**أعقلُ الناس أحْياهم**».
وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ خِصالَ المكارم بعضَها مقيّدٌ ببعض، يُقسِّمُها اللّه حيثُ يشاء، تكون في الرجل ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيّده: صدق الحديث، وصِدقُ الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصّنائع، وأداءُ الأمانة، وصِلة الرحم والتودّد إلى الجار والصاحب، وقِرَى الضّيف، ورأسهن الحياءُ**» ميزان الحكمة، ج٢، ص ٩٥٣ نلاحظ أن الأئمة عليهم السلام يضعون إطاراً عامّاً للمفاهيم الدينية والإنسانية، ومفتاح بابها هو الحياء.

تخلق لنا جيلاً واعياً ومجدّاً ومحاسباً لأعماله وأقواله.

وقال الإمام أبو عبد اللّه الحسين عليه السلام: «**إيّاك وما تعتذر منه، فإنّ المؤمن لا يُسيءُ ولا يعتذر، والمنافق كلَّ يومٍ يُسيء ويعتذر**»(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إيّاك وما تعتذرُ منه؛ فإنه لا يُعتذرُ من خير**»(٢).

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إيّاك وما يُعتذرُ منه**»(٣).

وتجدرُ الإشارةُ إلى أن الأعمال الخيّرة، ليست داخلةً في خانة الإعتذار، وأن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، يحثّون على زرع العملِ الصالح في نفس المؤمن، بحيث أنه يتكيّف مع حركة العبد المؤمن على طَول خطِّهِ نحو العمل الصالح، وما التحذير الذي يطلقه أهل البيت عليهم السلام للقاعدة الشعبية لهم، إلّا لتجنيبِ المؤمنين الإتيانَ بالعمل الذي يوجب الحرج لهم.

وفي المقابل يبثُّ الأئمّةُ المعصومون عليهم السلام، الروح التسامحيّة وقبولَ الآخر، ومحاولة إيجاد العذر حتّى لو كان كاذباً! كما يدل على ذلك الروايات.

قال أمير المؤمنين عليه السلام، في وصية له لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «**احْملْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِه عَلَى الصِّلَة، وَعِنْدَ صُدُوده عَلَى اللَّطَف وَالْـمُقَارَبَة، وَعِنْدَ جُمُوده عَلَى الْبَذْل، وَعِنْدَ تَبَاعُده عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شدَّته عَلَى اللِّين، وَعِنْدَ جُرْمِه عَلَى الْعُذْر، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ**»(٤) وقال الإمام علي عليه السلام: «**لا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنّه ليس لك بأخ من ضيّعتَ حقه، ولا يكنْ أهلُكَ أشقى الناس بك، إقبَلْ عذر أخيك، وإن لم يكنٌ له عذرٌ فالتمس له عُذراً**»(٥).

(١) تحف العقول، ص ١٧٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٧١، ص ٣٦٩ ح ١٩.
(٣) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٢٤٥٢ .
(٤) شرح نهج البلاغة، ج١٥، ص ٨٢ .
(٥) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٦٦ ح٢٩.

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «**لا يعتذر إليك أحـدٌ إلّا قبلتَ عذره؛ وإنْ علِمْتَ أنّه كاذِبٌ**»(١).

ويلزم أن ندركَ جيّداً، أن هذه الثقافة التي يتحرك الأئـمّة الأطهار عليهم السلام في بثها وتغلغلها في نفوس القاعدة الموالية لهم، هي من أجل خلق مجتمع متحابّ ومتعاون، يترفع عن كل ما هو دنيء متشبث بالدنيا. ولكن ذلك لا يدعو لأن يكون المؤمن ساذجاً، بكونه يقبل العذر الكاذب الذي سيخلف من ورائه أزماتٍ كبيرةٍ جدّاً، كما إذا كان معروفاً بالخيانة والمراوغة والتلاعب بالناس، وعدم وضـع حرمة المؤمنين نصب الاعتبار. إذا تداخلت هذه الاعتبارات فيما بينها يجب أن يقف متأمّلاً في الموقف، وأن لا يُقدِمَ على تصرُّفٍ تكون تبعاته عليه أشدّ من ذي قبل.

يقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في وصية له إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «**يا علي من لم تنتفع بدينه ودنياه فلا خير لك في مجالسته، ومن لم يوجب لك فلا توجب له ولا كرامة**»(٢).

نعـم هناك تحذير من عدم قبول العذر، حيث يوجب لنفسه تبعات رفضه العذر، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك منه، محقاً كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لـم يردْ عليَّ الحوض**»(٣).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في وصية له إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «**يا علي مَـن لم يقبل العذر من متنصّلٍ، صادقاً أو كاذِباً، لم ينـل شفاعتي**»(٤).

و الأمر الآخـر الذي سعـى العبـد من أجـله، وأخـذ يحثُ الخطى من أجلِهِ هو تقديم صكوك الطاعة والولاء للّه عز وجل، حيث يقول في الدعاء المبارك: قد جئتك وأتيتك بعـد كل ما أسلفتُ من عمري وحياتي، معتذراً.

(١) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٢٤٥٣.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٤٧.
(٣) ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٢٤٥٣-٢٤٥٤ .
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٤٧ ح ٣ .

نــادماً

لـم يكن ذلك الاعتذار كافياً، في ظل هذه الدنيا (التي يموج فيها أنـواع وأصنـاف الإنحرافات كافّة على كل المستويات)، حيث اللقلقة اللسانية، غير مساعدة للعبد في أن يرتقي نحو الكمال والسموّ الروحي، ما لم يكن هناك عامل مساعد للجم هذه النفس بطريقة لا تدع مجالاً للهوى، في أن يدفعَ العبدَ نحو الضلال، والميلِ إلى ذلك الطريق الذي اعتذر منه، حيث ما لم يكن هذا العامل موجوداً، فانه كلماَ خرج من ذنبٍ وقع في آخر، وذلك لعدم الانصهار والذوبان في حقيقة الاعتذار.

من هنا كان لا بـدّ من إعلان التوبـة والندم والتحسر على ما فاته من عمر، قضاه في المعاصي واكتساب الذنوب والآثام، ومن أجل ذلك، أدرك العبد، أن الاًعتذار، لا يرتقي به إلى مصاف التوابين الحقيقيين، في حين أنه، في وقتٍ سابق، قضى شطراً مديـداً من عمره، في الابتعاد عن ساحـة اللّه سبحانه وتعالى، حيث التقصير والإسراف كان لهما الدور الأبـرزُ، في ضياع القسم الأعظم من عمر العبد.

ولهذا وضع مفردة الندم في هذا المقطع من الدعاء المبارك، من أجـل أن يُفصِحَ الاعتذار عن التقصير والإسراف، وارتكاب الذنوب عن حقيقته الجوهرية، ناهيك عن بقية المفردات القليلة المتبقية في هذه الفقرة، والتي ستأتي تباعاً، حيث يقول العبد هنا: جئتك وأتيتك، يا إلهي وسيدي، بعـد أن كان قانون التقصير والإسـراف، هو السائـد في حياتي التي قضيتها باللعب والمرح في ساحـات هذه الدنيا المليئة، بالمغريات والمشتَهَيات (التي تجذب كل من لم يكن مسلحاً بالورع والتقوى)، معتذراً، من كل هذه التحركات المخالفة للشريعـة. وحيث أن هذا الاعتذار، إذا لم يكن عن واقع وحقيقة، فإنه سيكون عبـارة عن بهرجات إعلامية، تصب في خانة رفـع الأرصـدة في نفسي ليس إلّا!، وحيث أنني يا إلهي وسيدي أدركت ذلك مبكراً، لهذا اتجهت بكلِّ كياني نحو التوبة والندم والتحسّر، على هذا العمر الذي قضيته في هذه الدنيا باللعب واللهو ومسابقة الصبيان، ونشر الفساد والفاحشة، بدلاً من أن أكون مشيّداً هذه الأرض بالورع والتقوى، وبانياً لها على أقوى الأركـان والثوابت.

والندم، هو نتيجة العمل السلبيّ، الذي يخلف آثاراً وخيمةً، على الواقع النفسيّ، أو الواقع الخارجيّ، وليس بعيداً عنّا حادثةُ ابنَيْ آدم عليه السلام، قال اللّه تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ * فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾[1].

هذه الآيات الشريفة تشير إلى عـدة مسائل، من شأنها أن تُربّي أفكارنا، وترشدَنا نحو وضع لمسات اجتماعية حقيقية، وتركز لنا على التربية الأسرية، وعملية التوافق بين الأولاد فيما بينهم، وهذا كفيل بتنشئةِ جيل له أبعاده ومفاهيمه العميقة تجاه الإسلام، والأمـّة الإسلامية.

ونجدُ في مجملِ هذه الآيات المباركـة، أن ابنَي النبي آدم عليه السلام قدما قرباناً إلى اللّه تعالى، حيث قُبِلَ القربان الذي لدى هابيل، ولم يُقبل الذي لدى قابيل، فقال الأخير: سأقتلك، فقتله، لكنه حين رأى الغراب يبحثُ في الأرض، ندم، لأنّه لم يكن مثلَ هذا الغراب، فيدفن جثّة أخيهِ. والقصّة يذكرها صاحب مجمع البيان، حيث يقول:

روت العامة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قتل قابيل هابيل، وتركه بالعراء، لا يدري ما يصنع به، فقصده السباع، فحمله في جراب على ظهره، حتى أروح**[2]**، وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله، فبعث اللّه غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره وبرجله، ثم ألقاه في الحفيرة، وواراه، وقابيل ينظر إليه، فدفن أخاه**»[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧-٣١.

(٢) أي: نتن.

(٣) مجمع البيان ج٣، ص ٢٨٧

وقد جاء ندم قابيل، نتيجة عدم الالتفات إلى فداحة العمل، حيث أقدم على العمل من غير تفكير وتدبير لما سيؤول إليه هذا الفعل، حيث سيقابله غضبٌ من جانب الأسرة، إذ سيعمد والده[١]، إلى لعنه، فضلاً عن طردِهِ من رحمة اللّه تعالى، وأنه سيكون منبوذاً في الأرض، وسيرثُ بعد ذلك ذريّتُهُ هذا النبذ، حيث سيكونون هم أيضاً منبوذين في الأرض. هذا على المستوى الدنيوي. وأمّا الأخروي، فهناك بعض الروايات، تشير إلى أن قابيل سيلاقي عذاباً أليماً.

إذ جاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «**أن قابيل بن آدم معلق بقرونه في عين الشمس تدور به حيث دارت في زمهريرِها وحميمها إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة صيره إلى النار**»[٢] وفي رواية أخرى، في الاحتجاج قال طاووس اليماني لأبي جعفر عليه السلام: هل تعلم أي يوم مات ثلث الناس؟ فقال: «**يا عبد اللّه لم يمت ثلث الناس قط إنما أردت ربع الناس**» قال: وكيف ذلك؟ قال: «**كان آدم وحواء، وقابيل وهابيل؛ فذلك ربع**»، قال: صدقت، قال أبو جعفر عليه السلام: «**هل تدري ما صُنع بقابيل؟**» قال: لا، قال: «**عُلِّقَ بالشمسِ ينضَحُ بالماءِ الحارِّ إلى أن تقومَ الساعة**»[٣].

---

(١) عن أبي حمزة الثمالي، عن ثوير بن أبي فاختة، قال: سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يحدث رجلا من قريش، قال: «**لما قرب ابنا آدم القربان، قرب أحدهما أسمن كبش كان في ضأنه، و قرب الآخر ضغثا من سنبل، فتقبل من صاحب الكبش، و هو هابيل، و لم يتقبل من الآخر، فغضب قابيل، فقال لهابيل: و اللّه لأقتلنك. فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فلم يدر كيف يقتله، حتى جاء إبليس فعلمه، فقال: ضع رأسه بين حجرين، ثم اشدخه. فلما قتله لم يدر ما يصنع به، فجاء غرابان، فأقبلا يتضاربان حتى اقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر الذي بقي الأرض بمخالبه، و دفن فيها صاحبه، قال قابيل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ فحفر له حفيرة، و دفنه فيها، فصارت سنّة يدفنون الموتى. فرجع قابيل إلى أبيه، فلم ير معه هابيل، فقال له آدم عليه السلام: أين تركت ابني؟ قال له قابيل: أرسلتني عليه راعيا؟! فقال له آدم عليه السلام: انطلق معي إلى مكان القربان و أوجس قلب آدم عليه السلام بالذي فعل قابيل، فلما بلغ مكان القربان استبان قتله، فلعن آدم عليه السلام الأرض التي قبلت دم هابيل، و أمر آدم عليه السلام أن يلعن قابيل، و نودي قابيل من السماء: تعست كما قتلت أخاك. و لذلك لا تشرب الأرض الدم. فانصرف آدم عليه السلام يبكي على هابيل أربعين يوماً و ليلة، فلما جزع عليه شكا ذلك إلى اللّه، فأوحى اللّه إليه: أني واهب لك ذكرا يكون خلفا من هابيل. فولدت حواء غلاما زكيا مباركا، فلما كان اليوم السابع أوحى اللّه إليه: يا آدم، إن هذا الغلام هبة مني لك، فسمِّه هبة اللّه. فسماه آدم هبة اللّه**». تفسير البرهان، للبحراني ج٢، ص ٤٢٨-٤٢٩.

(٢) تفسير الصافي، ج٢، ص ١٩.

(٣) تفسير الصافي، ج٢، ص ١٩ .

إذن، هذه نتيجة العمل، الذي جاء، على غير تدبير وتفكير، في نتائج هذا العمل، فالأئـمّـة المعصومون عليهم السلام يحثّون قواعدهم الشعبية، على التأمّل والتفكّر في كلِّ عمل يقوم به المؤمنُ، تلافياً لحدوث الندم والتحسر، إذا لم يكن العمل، بالمستوى الإيجابي. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**التدبير قبل العمل يؤمن الندم**»[1].

وقال سلام اللّه عليه: «**التدبير قبل الفعل يؤمن العثار**»[2].

وقال عليه السلام: «**التدبير نصف المعونة**»[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**قِف عند كل أمرٍ حتى تعرف مدخله من مخرجه، قبل أن تقع فيه فتندم**»[4].

لكن الأئمّـة الأطهار عليهم السلام لم يدعوا مسألة الندم تمُرُّ، على أتباعهم من غير تبيين السبب الحقيقي وراءَ بروز الندم على صفحة قلب العبد المؤمن، حيث الإرشادات لقيت اهتماماً وقبولاً لدى شريحة كبيرة من القواعد الشعبية التابعة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام.

وتشير النصوص الروائية الصادرة، إلى أن هناك خمسة أسباب وهناك الكثير منها ونكتفي بذكر هذه الخمسة.

السبب الأول: قانون العمل الحتمي، حيث إذا كانت صفاتُهُ خيراً، وفيه صلاح ومنفعة في هذه الدنيا والآخرة، فإنه سيستعين به على قضاء مساعيه الإيجابية، وإذا كان غير ذلك، كانت سلبياته وخيمة عليه، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[5].

وقال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن المرء على ما قدّم قادِمٌ، وعلى ما خلّف نادِمٌ**»[6].

---

(١) غرر الحكم، ص٢١ ح ٣٢٣.
(٢) غرر الحكم، ص٢١ ح ٣٢٤.
(٣) غرر الحكم، ص٢١ ح ٣٢٥.
(٤) ميزان الحكمة، ج١٠، ص ٤٣١٢.
(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٧-٨.
(٦) غرر الحكم، ص ١٣١ ح ٢٥٦.

حيث يبيّن الإمام عليه السلام، أن الإنسان سوف يحصد الثمار الحسنة، إذا قام بالعمل الناجح، والمبنيّ على قواعد، ذات أرضية صلبة، مدعومة بالمباني العلمية، فإن هذا العمل ستكون نتائجه مقبولة حتماً، وإنّ صاحب العمل سوف يقدْم على النتيجة الإيجابية التي تساعده على رقيّ سُلَّم التطور في كل المستويات الفكرية والثقافية. وأمّا إذا كان الإنسان قد أقدم على عمل سيئ، يخالف الواقع في النظرية والمفهوم الواقعي، فإنه سيجابه مصيره بكثير من الخسائر في كلّ المستويات، وهذه نتيجة حتمية لا يمكن أن يتهرب الإنسان منها بعد وقوع العمل في الخارج.

وقال الإمام العسكري عليه السلام: «**إنكم في آجالٍ منقوصة، وأيام معدودة، والموت يأتي بغتةً، مَن يزرعْ خيراً يحصدْ غبطةً، ومَن يزرعْ شراً يحصدْ نَدامةً، لكلِّ زارعٍ ما زرع، لا يسبق بطيء بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له، مَن أُعطيَ خيراً فاَللّه أعطاه، ومَن وُقِيَ شراً فاللّه وقاه**»(١).

ويمكن أن نستفيد من هذا الحديث من جانب تربية الأبناء٢، حيث يلاحظ أن التغذية الفكرية والسلوكية التي يتربّى عليها الطفل ويتكيّفُ من خلالها في هذا العصر، تسلك منعطفاً خطيراً جداً، وبالنتيجة فإنّ الآباء هم يرفعون راية الندامة والخيبة التي تبدو واضحةً عليهم، وفي الحقيقة، إنّ وصول المرء إلى مستوى السلوك السلبي، هو نتيجة البذور الأولى، التي زرعها المحيط الذي يعيش فيه هذا المرء، إنْ كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.

السبب الثاني: ترك العمل، الذي يشتمل على الكثير من الإيجابيات، وعدم الأخذ بالنصائح، لكون التكبر أخذ مجاله الواسع في نفس هذا المرء، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَن لم يرغب في المعروف ابتُليَ بالندامة**» هذا الحديث يُبيِّنُ أنَّ من لا يهتدي إلى الصواب والإيجابية في الأفكار، فإنّه سيؤول مصيره إلى

(١) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٣٧٣ ح ١٩.

(٢) فالكثير من الآباء يتباكى على مستوى الأبناء العلمي والفكري، إلا أن هذا يرجع إلى أن التربية لم تخضع للضوابط التي حددها المشرع الإسلامي في كثير من الأحيان، حيث مخالفة هذه التعاليم تؤدي إلى نتائج سلبية، يحصدها الآباء مؤخراً من العمر، في وقت لا تنفع فيه الندامة والحسرة، على أسلوب التربية، والبناء الفكري والثقافي.

الندامة، وهناك الكثير من الناس الذين وقعوا في هذا الفخ الدقيق، وبالخصوص على المستوى الاقتصادي، حيث يرشد أحدهم، إلى أن هذا المسلك في التجارة خاطئ، وأن هذه السلعة غيرُ رائجةٍ في السوق في هذه الأوقات من السنة، إلّا أن الرجل بسبب وهم وقع فيه يصرّ على مخالفة هذه التوجيهات، فحينئذٍ يقع في الندامة، وقس على ذلك، في الكثير من المجالات كالسياسة.

السبب الثالث: الاختيار الخاطئ، حيث التبنيّ المبني على أساس، من الدوافع النفسية أو المشتهيات الآنية، التي تقود نحو متطلبات وركائز الندامة، على أن الدافع الأساس محاربة الأفكار الصائبة، وهو نتيجة التحريف الذي تقوم به جماعات، لها المصلحة الإستراتيجية، سواءٌ أكانت في الجانب الاجتماعي أم في الجانب السياسي، إذ في نهاية الخط سيكون في صفّ الخسران، وذلك؛ لأنّه بنى أفكاره، من منطلق خاطئ.

ومثالٌ من التاريخ، هو قضية التحكيم، إذ كان اختيار أمير المؤمنين عليه السلام، شخصية عارفة بمداخل ومخارج السياسة، وخصوصاً كان الطرف المقابل هو معاوية بن أبي سفيان، الذي رشح من طرفه عمرو بن العاص ابن النابغة، وحيث الإمام عليه السلام يدرك جيداً مدى ما يتمتع به معاوية من لعب وخبث في المسائل المصيرية.

حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَاللّه مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلكنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدْرَة فُجْرَةٌ، وَكُلُّ فُجْرَة كُفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ**».

لكن الناس، وبسبب الجهل الذي يعيشونَهُ عيّنوا أبا موسى الأشعريّ، في مقابل عمرو بن العاص، الذي بسبب دهائِهِ وحقدِهِ عزَلَ الأوّل، أميرَ المؤمنين عليه السلام، وكذلك انفتح لابن العاص البابُ ليُعيّنَ معاوية مكانه، وقلبَ الموازين رأساً على عقب، حيث شقّ الناس إلى فئتين في صفوف جيش الإمام، على أن هذا الانقسام، سيخلف بعد برهة من الزمن الندم والحسرة على الكثير من الناس الذين سببوا هذا الانقلاب، بسبب المخالفة الصريحة لأمير المؤمنين عليه السلام، حيث يبين لهم في خطبة

التحكيم عواقب معصية الناصح العالم، بمكائد وحوادث الزمان يقول عليه السلام: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْـمُجَرِّبِ تُورِثُ الْـحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْـحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ**[١]، **فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ المخَالِفِينَ الْـجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ**»[٢] والإمام عليه السلام، يبين أربع صفات، من خلالها يبني قواعده ومرتكزاته العملية في الدنيا الإنسان المؤمن، وهي: أنَّ من لديه النصيحة، وأن يكون شفيقاً على مصالح الناس دنيوياً وأخروياً، وعالماً بظروف الزمان، وأن يكون مُجرّباً، والإمام عليه السلام يؤكد على أن مخالفة هذا الاختيار، تؤدّي إلى بوادر الحسرة والندامة، في وقتٍ يكونُ المرء محتاجاً إلى مثل هذه النصائح.

السبب الرابع: تضييع الوقت، حيث تبين النصوص الواردة عن لسان الأئمّة المعصومين عليهم السلام، أن الإنسان سَيُحاسَبُ ويُسأَلُ عن العمر في هذه الدنيا، فيما قضاه، هل كان في طاعة اللّه تعالى، أو معصيته.

فعن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: شبابه فيما أبلاه، وعمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حُبِّنا أهلَ البيت**»[٣].

ولكن المرء يشتغل بالأمور التي لا يوجد بها منفعة، أو أنه يقضي عمره في خدمة الطغاة والظلمة، أو أنه يشتغل بالأمور الفائتة التي ليست ذات قيمة جوهرية، تصبُّ مصلحتها في نفع المرء.

(١) مثلٌ. وقصير هذا هو قصير بن سعد اللخمي مولى جذيمة الأبرش بعض ملوك العرب. وأصل المثل أن جذيمة كان قد قتل أبا الزباء ملكة الجزيرة فبعثت إليه عن حين ليتزوجّ بها خدعة وسألته القدوم فأجابها إلى ذلك، وخرج في ألف فارس وخلّف باقي جنوده مع ابن عمرو بن عديّ، وكان قصير أشار إلى جذيمة أن لا يتوجه إليها فلم يقبل رأيه فلمّا قرب جذيمة من الجزيرة استقبله جنود الزباء بالعدّة ولم يرَ منهم إكراماً له فأشار عليه قصير بالرجوع عنها، وقال: امرأة ومن شأن النساء الغدر. فلم يقبل. فلمّا دخل إليها غدرت به وقتلته. فعندها قال قصير: لا يطاع لقصير أمر. فذهبت مثلاً لكل ناصح عُصِيَ وهو مصيب في رأيه. شرح نهج البلاغة، للبحراني ج٢، ص ٨٦- ٨٧ .

(٢) شرح نهج البلاغة، ج٢، ص ١٥٤ .

(٣) الخصال، ج٢، ص ٢٨٠ ح١٢٥.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الاشتغال بالفائت يُضيعُ الوقت**»(١).

فمن خلال هذا الحديث ينبغي أن ندرك مفردة الفائت(٢)، إذ ليس كلُّ فائتٍ هو تضييع للوقت، فقراءة حوادث التاريخ، هي التي تخلف الموعظة والاعتبار، إذ المقصود ـ واللّه أعلم ـ هو الأمور التي ليس بمقدور المرء أن يصل إليها، أو تلك الأمور التي ضاعت من بين يديه، بعد أن كانت تحت تصرّفه، والتي يجمعها مخلّفاتُ الدنيا، هذه المخلّفاتُ ينبغي أن لا يشغل المرء نفسه بها، في حين أنّ النظر إليها من غير مكاسب مقربة إلى اللّه تعالى، سيعقبه التحسر والندامة، على ما ضيعه من وقت، على حساب المكتسبات التي تدرُّ عليه الكنوز الوفيرة من لدن اللّه سبحانه وتعالى.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**اشتغالك بإصلاح المعاد ينجيك من النار**»(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**اشتغالك بمعايب نفسك يكفيك العار**»(٤).

وقال سلام اللّه عليه: «**من اشتغل بذكر اللّه طيّب اللّه ذكره**»(٥).

ومن الأحاديث التي تنبّه المرء على عدم تضييعِ الوقت، في مسائلَ لا تمُتُّ له بيومِ معادِهِ بصلة، هذا القول:

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**اشتغال النفس بما لا يصلحها بعد الموت يوجب الوهن**»(٦).

---

(١) غرر الحكم، ص ١٦ ح ٩٣.

(٢) الفوت: بعدُ الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه، قال: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة/ ١١]، وقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد/ ٢٣]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ/ ٥١]، أي: لا يَفوتُونَ ما فزعوا منه، ويقال: هو منّي فوتَ الرمح (انظر: المجمل ٣/ ٧٠٧)، أي: حيث لا يدركه الرمح، وجعل اللّه رزقه فوت فمه. أي: حيث يراه ولا يصل إليه فمه، والافتيات: افتعال منه، وهو أن يفعل الإنسان الشيء من دون ائتمار مَنْ حَقُّهُ أن يؤتمَر فيه، والتفاوت: الاختلاف في الأوصاف، كأنه يُفَوِّتُ وصفُ أحدهما الآخرَ، أو وصفُ كلّ واحدٍ منهما الآخر. قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك/ ٣]، أي: ليس فيها ما يخرج عن مقتضى الحكمة. مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٤٦ مادة«فوت».

(٣) غرر الحكم، ص ٧٣ ح ٣١ .

(٤) غرر الحكم، ص٧٣ ح٣٢ .

(٥) غرر الحكم، ص٣٢٩ ح ١٩٩ .

(٦) غرر الحكم، ص٧٣ ح٣٠ .

وقال سلام اللّه عليه: «**شر ما شغل به المرء وقته، الفضـول**»[١].

وقال عليه السلام أيضاً: «**من اشتغل بالفضـول فاته من مُهِمِّهِ المأمـول**»[٢].

وقال عليه السلام أيضـاً: «**من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه**»[٣].

وقال عليه السلام: «**من اشتغـل بذكر الناس قطعه اللّه سبحانه عن ذكره**»[٤].

السبب الخامس: العجلة في اتخاذ القرارات، حيث لا يقوم بدراسة الواقع المحيط به دراسةً متأنِّيَةً، وقائمةً على أُسُس أكثرَ إيجابيّةً له في المستقبل، والمنظور الإستراتيجي، وإنما بسبب عدم تفكير الإنسان يقدم على وضع مسارات خاطئة، سيتضح سلبيتها ولو بعد حين، حينما يرجع إلى ميزان عقله، وقواعد التفكير الإيجابي؛ ولكن بعدَ تدميره كلَّ المكتسبات التي عكف على تشييدها وعمارتها، هذا الإنسان سيهجم عليه الندم، وسيكون أشدّ الناسِ سلبيّة من غيره، وذلك، بسبب الطيش، واتخاذ القرارات الخاطئة، وهو في نشوة فقدان ميّزة التفكير.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أشدُّ الناسِ ندامةً، وأكثرُهم ملامـةً، العَجِلُ النَزِق، الذي لا يدركه عقله إلا بعد فوتِ أمره**»[٥].

هذه الأسباب التي أوردناها أعلاه خاضعة لاعتبارات هذه الدنيا، حيث يكون الندم بحسب المصالح والإيجابيات الحاصلة للإنسان في الدنيا، فيبقى الندم محدود الأطراف، نعم، قد يكون له آثارٌ وخيمةٌ جدّاً، وذلك، بسبب عدم التنبه للعواقب المترتبة خلال الإقدام على هذا العمل، بحيث لا يدرك أن كل العوامل التي تجلت وظهرت من عواقب وآثار، سوف تكون خاضعة لعوامل هذه الدنيا، إذا كان العمل ليست له حدود خارجة عن هذه الدار الدنيا. وأمّا إذا كانت خارجة عن حدود الدنيا كما إذا وصلت إلى الآخرة، فإنها سوف تختلف، حيث تشير النصوص

(١) غرر الحكم، ص٢٣٣ ح ٥٤.

(٢) غرر الحكم، ص ٣٢٩ ح ١٩٨.

(٣) غرر الحكم، ص ٣٢٩ ح ٢٠٣.

(٤) غرر الحكم، ص ٣٢٩ ح ٢٠٠.

(٥) غرر الحكم، ص ١٠٨ ح ١٧١ .

الواردة من المشرع الإسلامي، إلى أنّ الندامة لا يستطيع صاحبها إخراجها الى العلن.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(١).

فالآية الكريمة تضع لنا جوّاً من أجواء يوم القيامة، حيث تبين أن الإنسان الظالم، الذي صحائف أعماله ممتلئة بالذنوب والأعمال السوداء، هذا الإنسان يحاول هناك وفي ذلك العالم من يوم القيامة، أن يقدم رشوته للآخرين، كما كان في هذه الدنيا، حيث كان يتبع هذا المنهج، إلا أن هذا السلوك لن ينجح في ذلك العالم، حيث قانون الرشوة والواسطة سيؤول إلى التوقف يوم القيامة، ولن يستفيد حينئذٍ من أبرز المقربين والمدافعين عنه بالمال والقلم، في ظل هذا العالم، عالم الدنيا (التي كان فيها بإمكانه أن يتهرّب من أعقدِ المسائل ويخرج منها بكامل قوته، بسبب السلطة الدنيوية التي كان يتمتع بها، لكن كل هذه الخصوصيات، سوف يتجرد منها نهائياً هناك في يوم القيامة)، إلّا أن الظالم سيحاول أن يتشبث عبثاً منه، بهذه الخصوصيات الدنيوية، وذلك بسبب العلقة التي امتزجت بينه وبين تلك السلطات الدنيوية، التي ظلَّ يمارسها لسنين مديدة، وهناك في عالم الآخرة، سيفقدها تماماً، وقد ودعها، عند تجرده من تلك الملابس، ثمَّ يكفَّن الكفن. وسيشكِّلُ طلبه الشفاعة ممن كانوا تحت يده في الدنيا، ومن ثمَّ إخفاقه في طلبها، نوعاً من الإحراج والفضيحة أمام الحشود البشرية في عرصة المحشر، لكونه فاقداً كلَّ الإمتيازات التي كان يتمتع بها وهو في عالم الدنيا.

وقد وردت الروايات الجمّـة التي تحدثت حول هذه المواقف:

قال رسول اللّه ﷺ في موعظة وجهها إلى ابن مسعود: «**يا ابن مسعودٍ، أكثر من الصّالحات والبر؛ فإن المحسن والمسيءُ يندمان، يقول المحسن: يا ليتني ازددتُ**

(١) سورة يونس، الآية: ٥٤.

من الحسنات! ويقول المسيءُ: قَصّرتُ، وتصديق ذلك قوله تعالى: «وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ»(١).

وقال ﷺ: «**ما من أحدٍ يموت إلّا وندمَ، إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندِم أن لا يكون نَـزعَ**»(٢).

وقال ﷺ: «**شرُّ الندامـةِ ندامـةُ يـومِ القيامة**»(٣).

وقال الإمام علي عليه السلام: «**عند معاينة أهوال يوم القيامة تكثر من المفرطين الندامة**»(٤). و«يروى أن أكثر المحشورين شعوراً بالحسرة والندم في يوم القيامة، عدة طوائف، **أولها**: الذين كسبوا مالاً وإن كان حلالاً إلّا أنّهم أبَوْا بذل حتى الزهيد منه في الشؤون الخيرية ثم ورثها من أنفقها في هذه الشؤون فيأسف أصحابها وهم يشاهدون أموالهم التي جهدوا في جمعها ينال غيرهم أجرها وثوابها.

الطائفـة الثانية: تشملُ دعاة الغير إلى الخير وإحجامهم عن سلوك درب السعادة.. إنهم يشاهدون المتأثرين بمواعظهم ونصائحهم العاملين بها يقصدون الجنة بينما تورَّطوا هم في متاهات آلاف الرزايا فينالهم لذلك أقصى ما يمكن من الحسرة والألم.

و**الثالثة**: هم الأبوان المتعسران في يوم القيامة يعثران في صحراء القيامة على ابنهما بشق الأنفس فيسألانه إن كان يعرفهما فيجيب: بلى، لقد كنتما أبويّ. فيستفسران هل يذكر المتاعب التي تحمّلاها في الدنيا من أجله وأنهما كانا يفضلانه على نفسيهما ولم يتثاقلا عن تأدية أية خدمة له؟ فجيب: بلى، أذكر. ثم يقولان: فهلّا تُدخلُ السرورَ على قلبينا بمنحنا حسنةً من حسناتك؟ فسِجلُّ حسناتنا حاوٍ، وقد تُصبح حسنَتُكَ وسيلةَ إنقاذنا وتخلّصِنا من البلايا. فيردّ عليهما بالقول: يا أبتّاه ويا أمّاه! كيف يمكنني أن أغض النظر عن إحدى حسناتي في مثل

(١) سورة القيامة، الآية: ٢. مكارم الأخلاق ٤٨٣.

(٢) ميزان الحكمة، ج١٠، ص ٤٣١٣.

(٣) ميزان الحكمة، ج١٠، ص ٤٣١٤.

(٤) ميزان الحكمة، ج١٠، ص ٤٣١٤.

هذا اليوم العسير في حسابه والشديد في ملمّاته، وأخشى أن يتوقف أمري عليها، فيخذلهما فيعودان أدراجهما وأعينهما تفيضان دمعاً وهما يعضان على أيديهما لشعورهما بالحسرة والندم ولا يلتفتان إليه لشدة حزنهما وألمهما ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾[١].

الطائفة الرابعة: هم الذين يلقونَ نظرةً على مُدَّةِ ماضيهم وقد قُضِيَتْ في المعصية وبعضها في الغفلة والبطالة علماً بأنَّ كلَّ ساعةٍ من حياة الإنسان يتعلَّقُ بها في يوم القيامة بيتٌ زاخرٌ بالحُليِّ والمجوهرات إزاء ما أُدِّي فيها من العبادة، أو مليء بالثعابين والعقارب لما شُغِلَ منها في المعصية، أو مقفرةٌ خاوية لما انقضى منها في الغفلة والبطالة، والإنسان يشعر بالحسرة وهو يتطلع إلى البيوت المفروشة المليئة بالمجوهرات[٢].

في النهاية يتدارك العبد نفسه في الطريق، وقبل أن يصل إلى القبر، حيث البوابة المطلة على ذاك العالم الرهيب، فيقدم توبته وندمه، على ما فرّط وقصّر وأسرف في مراحل هذه الدنيا، إذ يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعائه في التوبة: «**اللَّهُمَّ إِنْ يَكُنِ النَّدَمُ تَوْبَةً إِلَيْكَ فَأَنَا أَنْدَمُ النَّادِمِينَ**»[٣] وهل التوبة ندم على ما كان، أو ترك المعصية إلى غير رجعة، أو مجرد الإستغفار، أو كل ذلك مطلوب حتماً، وجزماً؟ وأيّاً كان معنى التوبة فإني تارك، ونادم، ومستغفرٌ، وعـازمٌ، وأنت يا إلهي قلت؛ وقولك الحق، ووعدك الصدق: «**أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**» وقد تبنا بكل معنى تنصرف كلمة التوبة إليه، وتدل عليهِ، فنقبلها، ولا تردنا خائبين بمحمدٍ وآله الطاهرين، صلواتك عليهم أجمعين[٤].

يقف العبد مرّةً أُخرى ويضعُ مُفْرَدَةً أُخرى تدُلُّ على أنه لا يملكُ من أمره شيئاً سوى الخضوع، حيث يُصرِّحُ قائلاً: جئتُكَ معتذراً نادماً.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٧.

(٢) مفاسد الحرام في المال والطعام، ص ١٦٥ – ١٦٦.

(٣) الصحيفة السجادية، ص ١٤٤ في ذكر التوبة وطلبها.

(٤) في ظِلال الصحيفة السجادية، ص ٣٩٩–٤٠٠.

منكسراً

إلّا أنَّ العبدَ لم يصل إلى الحـدّ الذي يضعه على تلك السفينة لتُبحِرَ به نحو الفضاءات الروحية والمعنوية، وذلك، لأنه لا يزالُ مُثقَلاً بمخلّفات تلك الحقبة السوداء، التي كان العامل الأساس فيها هو التطرف والعمل غير المشروع، في الشريعة المقدسة. ومن هنا يبدأ العبدَ مرّةً أُخرى في طرح مفردة أخرى، والتي تُعدُّ واحدةً من أهمِّ الأركان الأساسية في صوغ الشخصية المؤمنة.

فبعـد تناول العبد مُفردَتَي الاعتذار والندم، اللتين كانتا منطلقاً أساسيّاً للانضمام إلى قافلة الرحمة والرضوان والعفو الربّاني، كان لا بُدَّ منه أن يضـع أطروحةَ الإنكسارِ والذلِّ أمام اللّه تعالى، وذلك لأنّ عدم رعاية الموازين المنظّمة (لتسيير الحياة، بشكلٍ مناسب للحالات الاجتماعية) الذي سوف يؤدّي إلى تراكم آثار وخيمة في مستقبل العمل، تؤدّي بشكل مباشر إلى خلق توازنات غير ملائمة لمتطلّبات الحياة، التي خلفت وراءها بسبب الإسـراف والتقصير، حيث النفس أخـذت الدور الفاعل والقيادي، في ظل غياب القوة العقلية.

ومن جراء هذا الإفلات، اتّجه العبد نحو الإفساد والتخريب في هذه الأرض، ورفع راية النصر للإستكبار، والجماعات المناضلة من أجله، كالفئات الضالّة، التي تقرأ القرآن بشكل منكوس ومعكوس، حيث التطبيق يكون مغايراً لما يريده القران، وإنما كان موافقاً لرؤية منهج الاستكبار.

وقد خلّفت هذه الرؤية الكثير من المآسي، على المستوى الاجتماعي، والثقافي، على أن هذا الاتجاه سيكون تيّاراً قويّاً مضاداً لتلك الجماعات الصالحة التابعة للدين الإسلامي الأصيل، وسيخلق إيديولوجيا متخلّفة على مستوى العالم. وستزول الرأفة والحنان والعاطفة من قلب العبد، في حين ستحلُّ القسوة والاستكبار في قلبه.

ومعه، سيأخذ الإسـراف والتقصير مجالهما، في عدّة مسارات من حياة العبد، حيث العبادة سيكون لها نصيب من التقصير، واللهو واللعب في هذه الدنيا سيكبُر

نسيجهما، في حياته، الأمر الذي يجعل التأثير أكثر منصّباً على الحياة المادية، وسيأخذ الإسراف طريقه للنفوذ في شرايين حياته، مما يكوّن حالةَ عدم اتّخاذ مسارِ الحق منهاجاً لتنظيم مسيره العلمي والعملي، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾(١) حيث هذه الآية: تشير إلى حالةِ العبد في يوم القيامة، إذ يتبين من خلالها، أن العبد سيفقد خصلتين تُعدّان من الركائز في ذلك الموقف من أجل اجتياز هذا الاختبار الذي سوف يواجهه (وهما الحياة الرغيدة والبصيرة)، ممّا سيترتب عليه حرمانه من النظر إلى جمال اللّه تعالى ونعمه الكثيرة في أصقاع وأنحاء ذلك العالم، حيث سيكون أكثر سعةً من هذا العالَم عالَمِ الدنيا.

ولكي يتجاوز هذه العثرات المؤلمة، كان لا بدَّ له من أن يتدارك الأسباب المؤدّية إلى مثل هذه الحياة في ذاك العالم، وعليه أن يتخلّى عن تلك الصفات السلبية التي تجُرُّ إلى هذه المطبات الكبيرة.

ومن هنا يقف العبد مخاطباً اللّه تعالى باللسان الذي شغله بالآثام والذنوب، أملاً منه أن يُنجِيَ نفسه من مشكلة النسيان، والإنتقال من الحياة الرغيدة في عالم الدنيا إلى الحياة البائسة والفقر هناك حين ينتقل إلى ذلك العالم عالم الآخرة، وأيضاً فقدان البصيرة التي تُعدُّ من المقومات الأساسية في التعامل مع الطبيعة الأخروية في ذاك العالم، فلا بدّ منه أن يطردَ من قلبه تلك العزّة القائمة على حُبِّ الدنيا، والتي ترتب عليها الإسراف والتقصير، ومخاطبة الناس بروح التكبر والتعالي على الآخرين، وإظهارهم على أنهم عبيد له، من خلال المناصب العليا التي يتقلدها هنا في هذه الدنيا، مما سبب إحلال القسوة والإستكبار على هذه المجاميع من الناس في قلبه بدلاً من الرأفة والرحمة لهم، ومن هنا يقف العبد أمام ربّه جلّ جلاله قائلاً:

جئتك وأتيتك يا إلهي بعد أن أفقدَني بصيرةَ قلبي الإسرافُ والتقصيرُ في

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤-١٢٧.

الأعمال المقرِّبة إليك في هذه الدنيا، أُقدِّمُ الاعتذار والندم على هذا التوجه الخاطئ، وها أنا أكسر كبريائي وشموخي المتطاول عليك سيدي، وعلى الآخرين من عبادك المؤمنين، وأقف بين يدك منكسرَ القلب، ضعيفاً ليس لي قوّة ولا حول إلّا بك يا سيّدي، وهذا كلامك في حديثك القدسي، حيث قلتَ: «أنا عند القلوب المنكسرة»، تلك القلوب التي اطمأنّت فخرج ما فيها من خُيلاء وكِبر، لذلك شعرت بأنها ضعيفة أمام خالقها، فجاءت إليه منكسرةً؛ لأنّها سمعت نداء اللّه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١][٢].

منتهى العظمة

وقد لجأ العبد في كثير من مقاطع الأدعية، إلى الإعتراف بالذلِّ والخضوع والإنكسار، أمام عظمة اللّه تعالى، حيث جاء في دعاء الافتتاح (في مطلع الدعاء المبارك)، المنسوب للإمام محمد بن الحسن المهدي صلوات اللّه وسلامه عليه وعجّل اللّه تعالى فرجه الشريف، أنّه يقول: «**اَللّـهُمَّ اِنّي اَفْتَتِحُ الثَّناءَ بِحَمْدِكَ، واَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوابِ بِمَنِّكَ، وَاَيْقَنْتُ اَنَّكَ اَنْتَ اَرْحَمُ الرّاحِمينَ في مَوْضِعِ الْعَفْوِ والرَّحْمَةِ، واَشَدُّ الْمُعاقِبينَ في مَوْضِعِ النَّكالِ والنَّقِمَةِ، واَعْظَمُ الْمُتَجَبِّرينَ في مَوْضِعِ الْكِبْرياءِ والْعَظَمَةِ**»[٣].

هذا المقطع من الدعاء يحمل الكثير من الدلالات ذات المفاهيم العالية، والعلامات المتجلية لهذا الكائن البشري، حيث يتبيّن من خلاله أن جبروت العبد في هذه الدنيا، فقط حين يكون في حدودها وعلى أطرافها، ولكنّه في وقت لاحق سيخضع لعوامل التقلب في هذا الوجود المترامي الأطراف، وأنّ القوّة والعزّة هي للّه تعالى، إذ يتيقَّنُ العبد بأنَّ مصدرَ الرحمة ومبعثها نابعٌ من جهة واحدة، وأن استخدام العقاب الشديد يصدرُ من نفس هذه الجهة، وهي الجهة التي تملك العظمة والجبروت حيث الكبرياء والعظمة تتجلّى أمام هذا العبد الضعيف، الذي ليس له

(١) سورة لقمان، الآية: ١٨.

(٢) أضواء على دعاء كميل، ص ٢٤٥.

(٣) مفاتيح الجنان، ص ٢٣١ دعاء الافتتاح.

اختيار في دخوله وخروجه من هذه الدنيا المملوءة بالبلاء والمحن، والتي تطحن عبيدها وتعجنهم ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً، ومالكُ القرارِ هو اللّه تعالى، ولذلك فإن العبد من خلال هذا الدعاء يسعى إلى أن يكسر عزة قلبه من خلال الخوف من صاحب هذه التوصيفات التي تنمُّ عن وقوع أشدِّ العذاب والعقاب على الخارجين عن حدود وضوابط الشريعة والمنهاج القويم الذي وضعه اللّه جلّ وعلا، ومن جانب آخر يضع الرجاء نصب عينه، لكي لا يفقدَ الأملَ، وليكمِلَ مسيرة حياته من خلال وضع أساليبَ وأهدافٍ منها يصل إلى رضوانٍ وعفوٍ إلهيّ.

الهيبة الإيمانية وأساليب الخضوع:

وفي مقطع ثانٍ من دعاءٍ آخر وهو دعاء السيف الصغير المعروف بدعاء القاموس، يقول العبد في الدعاء المبارك: «**وارْزُقْني مِنْ نُور اسْمِكَ هَيْبَةً وَسَطْوَةً تَنْقادُ لِيَ الْقُلُوبُ وَالاَرْواحُ، وَتَخْضَعُ لَدَيَّ النُّفُوسُ وَالاَشْباحُ، يا مَنْ ذَلَّتْ لَهُ رِقابُ الْجَبابِرَةِ وَخَضَعَتْ لَدَيْه اَعْناقُ الاْكاسِرَةِ لا مَلْجَاَ وَلا مَنْجىً مِنْكَ إلاّ اِلَيْكَ، وَلا اِعانَةَ إلاّ بِكَ وَلاَ اتِّكاءَ إلاّ عَلَيْكَ، ادْفَعْ عَنّي كَيْدَ الْحاسِدينَ وَظُلُماتِ شَرِّ الْمُعانِدينَ وأرْحَمْني تَحْتَ سُرادِقاتِ عَرْشِكَ يا اَكْرَمَ الاَكْرَمينَ اَيِّدْ ظاهِري في تَحْصيلِ مَراضيكَ، وَنَوِّرْ قَلْبي وَسِرّي بالاِطِّلاعِ عَلى مَناهِجِ مَساعيكَ**»[1].

هنا ينحو العبدُ منحىً آخرَ، وبأسلوب جذّاب من خلال طرح مفاهيمَ أكثرَ وعياً وتقبّلاً للواقع الخارجي، حيث من خلال الانسجام والألفة ونشر المحبة التي يحاول العبد أن يتحرك إلى المكتسبات الإيمانية من خلالها، فهو في بداية هذا المقطع، من هذا الدعاء المبارك يطلب من اللّه تعالى، أن يرزقه نوراً وهيبة منه تؤدي به إلى الارتباط الوثيق بالمؤمنين، حيث المبنى القائم على مرتكزات ذات البُعد العقائدي، الذي يستحيل أن يتفكّك، مهما تداعت عليه قوى الشر والفتن والتفنن في وضع الحواجز والعراقيل، من أجل إحداث شرخ كبير فيما بين المؤمنين، فالعبدُ يطلب من اللّه سبحانه وتعالى أن يُمدَّه بالنورِ المعنويّ

(١) مفاتيح الجنان، ص ١٥٢ دعاء السيف الصغير المعروف بدعاء القاموس.

النابع من اسم اللّه تعالى، والذي من خلاله تتآلف القلوب والأرواح المؤمنة فيما بينها، ويحدث ذلك الانسجام الوثيق، والرابط القويّ والمناسب لطبيعة الرابط الإيمانيّ، وليس من باب الانقياد والولاء المبنيّ على حالات المجاملة، القشرية الظاهرية، والتي ليس لها طعم النشوة المعنوية التي ترتاح منها القلوب والأرواح، فالعبد يطلب من اللّه تعالى أن يغذي قلبه بذاك الغذاء الذي تلتقي قلوب المؤمنين لتناوله من خلال الإيمان العميق، الذي ينفذ في القلب من غير إذن، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1] ومن جانب آخر يطلب من اللّه تعالى، أن يمكّنه من تلك النفوس (بشتى أنواعها من البشر) التي خضعت للسيطرة المادية، أو تلك التي أحاطت بها هواجس الإنقياد لمستنقعات الدنيا وخرابها، فالعبد يطلب من اللّه سبحانه وتعالى، أن يهبه التوفيق لجعل هذه الجماعات تنضم إلى الحرية وفكاك القيود من أسر الشيطان وأغلال المادة، من حيث إنها تنقادُ طائعةً نحو نور الإيمان والتوحيد الخالص.

بعد ذلك ينتقل العبد إلى المطلب الذي نحن بصدده، وهو الذلة والخنوع والخضوع للّه تعالى، على أن تعبير العبد بذلة رقبة الجبار، الذي يحكم الأرض بالحديد والنار، كان في غاية الروعة في سبك الكلمة، في إشارةٍ إلى مكانة الحكّام الطغاة في هذه الأرض عندما يُعبَّرُ عنهم بقبضة اليد القوية، في حين أنهم يكابرون وتأخذهم العزة بالإثم، فلا يعترفون بالسيئات التي ارتكبوها، حيث أنهم لا يرون أنفسهم على جادة السلب والخطأ، لكن ذلك لا يكون عند حضرة اللّه تبارك وتعالى، حيث هذه الرقاب التي كانت تعتبر السجودَ للّه تعالى مذلّةً في محضر الناس، وتلك الأعناق (التي لم تنحنِ للفقير والمسكين تعطفاً ورحمة له، كل هذه الشخصيات صاحبة الكراسي الفاخرة، والعروش المرصعة بالكنوز التي لا تقدر بأيّ ثمن) سوف تُنزَلُ من العلوّ مرغمةً، وسوف تُخدَشُ تلك الأنوف التي كانت

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

تُقبَّلُ، وسوف تجبر تلك الرقاب التي طالما كانت شامخة لا يرتفع لها الطير من علوها على الانحناء، حيث توضع هذه المخلوقات التي لعبت بمصائر الناس، وسفكت دماء البشرية بالظلم والقهر، منكسرةَ القلبِ خاضعةً وذليلةً ليس لها حولٌ ولا قوّةٌ، وحيث يفتقد ذلك الإعلامي المميز في تلميع صورة هذا الكسرويّ والطاغوتيّ مركزَهُ وصيتَهُ وجاهَهُ. وسوف تذهب عنه تلك الصحف الصفراء التي وضعت له ألف لقب وألف، حين يوضَعُ في ذلك القبر الذي لا يتجاوز على أكثر التقادير المترين، وفيه لن تنفعه تلك الأضواء المزيّفة، ولا تلك القصور الفخمة، التي يبلغ سورها الخارجيّ ثلاثة طوابق، ولا تلك الأقلام والصحف الصفراء التي قامت على تمجيده ليلاً ونهاراً.

الكل تحت قبضة اللّه تعالى

وفي مقطع آخر من الصحيفة السجادية من دعاء عرفة يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**سُبْحَانَكَ خَضَعَ لَكَ مَنْ جَرَى فِي عِلْمِكَ، وَ خَشَعَ لِعَظَمَتِكَ مَا دُونَ عَرْشِكَ، وَ انْقَادَ لِلتَّسْلِيمِ لَكَ كُلُّ خَلْقِكَ**»[(١)].

توصيف من قبل الإمام عليه السلام للخلق بما يحملون من وسائلَ وموادَّ توحي بالعجز والضعف أمام القدرة الإلهية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[(٢)] هذا الانقياد الذي حدث للسماء والأرض إنما يدلل على ضعفهما أمام الجبروت ومالك السلطان والوجود، وعلى الرغم من عظمة السماء والأرض قياساً لطبيعة الإنسان فيها، إلّا أنها أذعنت ولم تستعصِ - طوعاً وكرهاً - وسلمتا له تسليماً، «لأن الكل مقهور تحت ظل سلطانه لا يطيقَ أحدٌ خلاف أمره وإرادته ومشيئته»[٣] فكيف بهذا الإنسان الضعيف - الذي يعيش في هذه البقعة من الكون العظيم، والذي انقاد للّه تعالى مذعناً- والذي لا يملك حيلةً ولا قوّةً.

---

(١) الصحيفة السجادية، ص ٢١٠ دعاء عرفة ٤٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) راجع لوامع الأنوار العرشية في شرح الصحيفة السجادية، ج ٥، ص ٢٣١.

الإنسان الصغير أمام الكون الكبير

وفي مقطع آخر أيضاً من دعاء السمات، جاء فيه: «**وَبعلْمكَ وَجَلالكَ وَكبْريآئكَ وَ عزَّتكَ وَجَبرُوتكَ الَّتى لَمْ تَسْتَقلَّهَا الاَرْضُ وَانْخَفَضَتْ لَهَا السَّماواتُ وَانْزَجَرَ لَهَا الْعُمْقُ الاَكْبَرُ، وَرَكَدَتْ لَهَا الْبحارُ وَالاَنْهارُ، وَخَضَعَتْ لَهَا الْجبالُ وَسَكَنَتْ لَهَا الأَرْضُ بمَناكبها، وَاسْتَسْلَمَتْ لَهَا الْخَلائقُ كُلُّها، وَ خَفقَتْ لَهَا الرِّياحُ فى جَرَيانها، وَخَمَدَتْ لَهَا النّيرانُ فى اَوْطانِها، وَبسُلْطانكَ الَّذى عُرِفَتْ لَكَ بِه الْغَلَبَةُ دَهْرَ الدُّهُورِ وَحُمِدْتَ بِهِ فِى السَّماواتِ وَالاَرَضينَ**»[1].

في هذا المقطع من الدعاء تتجلى عظمة اللّه تعالى أمام هذا الإنسان في هذا الكون الكبير، حيث خضوع تلك الجبال الراسيات، وسكون هذه الأرض، واستسلام هؤلاء الخلق لإرادة اللّه تعالى، وتلك النيران المستعرة بلهيبها قد خمدتْ وانطفأت، كلُّ هذه الدلائل ألا تستدعي أن يقف العبد أمام من هو أعظم منه في الوجود منكسر القلب، على أن هذه الموجودات من البحار والأنهار والجبال، ناهيك عن السموات والأرضيين، وذلك الدهر وهذه السنين الممتدة في أعماق التاريخ السحيق، يكون الإنسان أمامها كائناً صغيراً جدّاً جدّاً.

الإنسان المحتاج

وجاء في مقطع آخر من دعاء الجو شن الصغير المرويّ عن لسان الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «**الـهي وَكَمْ مِنْ عَبْد اَمْسى وَاَصْبَحَ في كَرْبِ الْمَوْتِ وَحَشْرَجَةِ الصَّدْرِ وَالنَّظَرِ اِلى ما تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الجُلُودُ وَتَفْزَعُ لَهُ الْقُلُوبُ وانَا في عافِيَة مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ فَلَكَ الْحَمْدُ يا رَبِّ مِنْ مُقْتَدِر لا يُغْلَبُ وَذي أَناة لا يَعْجَلُ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد وَاجْعَلْني لِنَعمائكَ مِنَ الشّاكِرينَ وَلآلائِكَ مِنَ الذّاكِرينَ، اِلـهي وَكَمْ مِنْ عَبْد اَمْسى وَاَصْبَحَ سَقِيماً مُوجَعاً في اَنَّة وَعَويل يَتَقَلَّبُ في غَمِّهِ لا يَجِدُ مَحيصاً وَلا يُسيغُ طَعاماً وَلا شَراباً وَاَنَا في صِحَّة مِنَ الْبَدَنِ وَسَلامَة مِنَ الْعَيْشِ كُلُّ ذلِكَ مِنْكَ فَلَكَ الْحَمْدُ يا رَبِّ مِنْ مُقْتَدِر لا يُغْلَبُ وَذي اَناة لا يَعْجَلُ صَلِّ عَلى مُحَمَّد**

(١) مفاتيح الجنان، ص ١١١ دعاء السمات.

وَآلِ مُحَمَّد واجْعَلْني لِنَعْمائِكَ مِنْ الشّاكِرِينَ وَلآلائِكَ مِنَ الذّاكِرِينَ، اِلـهي وَكَمْ مِنْ عَبْد أَمْسى وَأَصْبَحَ خائِفاً مَرْعُوباً مُشْفِقاً وَجِلاً هارِباً طَرِيداً مُنْجَحِراً في مَضِيق وَمَخْبَأَة مِنَ الْمَخابِئِ، قَدْ ضاقَتْ عَلَيْهِ الاْرْضُ بِرَحْبِها لا يَجِدُ حِيلَةً وَلا مَنْجىً وَلا مَأْوىً وَاَنَا في اَمْن وَطُمَأْنِينَة وَعافِيَة مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ فَلَكَ الْحَمْدُ يا رَبِّ مِنْ مُقْتَدِر لا يُغْلَبُ وَذي أَناة لا يَعْجَلُ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد وَاجْعَلْنى لِنَعْمائِكَ مِنَ الشّاكِرِينَ وَلآلائِكَ مِنَ الذّاكِرِينَ اِلـهي وَسَيِّدي وَكَمْ مِنْ عَبْد اَمْسى وَاَصْبَحَ مَغْلُولاً مُكَبَّلاً فِي الْحَدِيدِ بِاَيْدِي الْعُداةِ لا يَرْحَمُونَهُ، فَقِيداً مِنْ اَهْلِهِ وَوَلَدِهِ مُنْقَطِعاً عَنْ اِخْوانِهِ وَبَلَدِهِ، يَتَوَقَّعُ كُلَّ ساعَة بِاَيِّ قِتْلَة يُقْتَلُ وَبِاَيِّ مُثْلَة يُمَثَّلُ بِهِ وَاَنَا في عافِيَة مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ فَلَكَ الْحَمْدُ يا رَبِّ مِنْ مُقْتَدِر لا يُغْلَبُ وَذي اَناة لا يَعْجَلُ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد وَاجْعَلْني لِنَعْمائِكَ مِنَ الشّاكِرِينَ وَلآلائِكَ مِنَ الذّاكِرِينَ، اِلـهي وَكَمْ مِنْ عَبْد اَمْسى وَاَصْبَحَ يُقاسِي الْحَرْبَ وَمُباشَرَةَ الْقِتالِ بِنَفْسِهِ قَدْ غَشِيَتْهُ الاْعْداءُ مِنْ كُلِّ جانِب بِالسُّيُوفِ وَالرِّماحِ وَآلَةِ الْحَرْبِ يَتَقَعْقَعُ فِي الْحَدِيدِ قَدْ بَلَغَ مَجْهُودَهُ لا يَعْرِفُ حِيلَةً وَلا يَجِدُ مَهْرَباً قَدْ اُدْنِفَ بِالْجِراحاتِ اَوْ مُتَشَحِّطاً بِدَمِهِ تَحْتَ السَّنابِكِ وَالاَرْجُلِ يَتَمَنّى شَرْبَةً مِنْ ماء اَوْ نَظْرَةً اِلى اَهْلِهِ وَوَلَدِهِ لا يَقْدِرُ عَلَيْها وَاَنَا في عافِيَة مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ فَلَكَ الْحَمْدُ يا رَبِّ مِنْ مُقْتَدِر لا يُغْلَبُ وَذي اَناة لا يَعْجَلُ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد وَاْجعَلْني لِنَعْمائِكَ مِنَ الشّاكِرِينَ وَلالائِكَ مِنَ الذّاكِرِينَ، اِلـهي وكم مِنْ عَبْد اَمْسى وَاَصْبَحَ في ظُلُماتِ الْبِحارِ وَعَواصِفِ الرِّياحِ وَالاَهْوالِ وَالاْمْواجِ يَتَوقَّعُ الغَرَقَ وَالْهَلاكَ لا يَقْدِرُ عَلى حِيلَة اَوْ مُبْتَلىً بِصاعِقَة اَوْ هَدْم اَوْ حَرْق اَوْ شَرْق اَوْ خَسْف اَوْ مَسْخ اَوْ قَذْف وَاَنَا فى عافِيَة مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ فَلَكَ الْحَمْدُ يا رَبِّ مِنْ مُقْتَدِر لا يُغْلَبُ وَذي اَناة لا يَعْجَلُ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد وَاجْعَلني لِنَعْمائِكَ مِنَ الشّاكِرِينَ وَلآلائِكَ مِنَ الذّاكِرِينَ، اِلـهي وكَمْ مِنْ عَبْد اَمْسى واَصْبَحَ مُسافِراً شاخِصاً عَنْ اَهْلِهِ وَوَلَدِهِ مُتَحَيِّراً فِي الْمَفاوِزِ تائِهاً مَعَ الْوُحُوشِ وَالْبَهائِمِ وَالْهَوامِّ وَحِيداً فَرِيداً لا يَعْرِفُ حِيلَةً وَلا يَهْتَدي سَبِيلاً، اَوْ مُتَاَذِّياً بِبَرْد اَوْ حَرٍّ اَوْ جُوع اَوْ عُرْي اَوْ غَيْرِهِ مِنَ الشَّدائِدِ مِمّا اَنَا مِنْهُ خِلْوٌ في عافِيَة مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ فَلَكَ الْحَمْدُ يا رَبِّ مِنْ مُقْتَدِر لا يُغْلَبُ وَذي اَناة لا يَعْجَلُ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد واجْعَلْني لِنعمائِكَ مِنَ الشّاكِرِينَ ولالائِكَ مِنَ الذّاكِرِينَ، اِلـهي وَسَيِّدي وكَمْ مِنْ عَبْد اَمْسى وَاَصْبَحَ فَقِيراً عائِلاً عارِياً مُمْلِقاً مُخْفِقاً مَهْجُوراً (خائِفاً) جائِعاً ظَمآنَ يَنْتَظِرُ مَنْ

يَعُودُ عَلَيْهِ بِفَضْل، اَوْ عَبْد وَجيه عِنْدَكَ هُوَ اَوْجَهُ مِنّي عِنْدَكَ وَاَشَدُّ عِبادَةً لَكَ مَغْلُولاً مَقْهُوراً قَدْ حُمِّلَ ثِقْلاً مِنْ تَعَبِ الْعَناء وَشِدَّةِ الْعُبُودِيَّةِ وَكُلْفَةِ الرِّقِّ وَثِقْلِ الضَّريبَةِ اَوْ مُبْتلىً بِبَلاء شَديد لا قِبَلَ لَهُ (بِهِ) إلاّ بِمَنِّكَ عَلَيْهِ وانَا الْمخْدُومُ الْمُنَعَّمُ الْمُعافَى الْمُكَرَّمُ فى عافِيَة مِمّا هُوَ فيهِ فَلَكَ الْحَمْدُ عَلى ذلِكَ كُلِّهِ مِنْ مُقْتَدر لا يُغْلَبُ وَذي اَناة لا يَعْجَلُ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد وَاْجَعْلني لِنَعْمائِكَ مِنَ الشّاكِرينَ وَلآلائِكَ مِنَ الذّاكِرينَ، اِلـهي وَسَيِّدي وَكَمْ مِنْ عَبْد اَمْسى واَصْبَحَ شَريداً طَريداً حيرانَ مُتَحَيِّراً جائِعاً خائِفاً خاسِراً فِي الصَّحاري وَالْبَراري قَدْ اَحْرَقَهُ الْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَهُوَ فى ضُرٍّ مِنَ الْعَيْشِ وَضَنْك مِنَ الْحَياةِ وَذُلٍّ مِنَ الْمَقام يَنْظُرُ اِلى نَفْسِهِ حَسْرَةً لا يَقْدِرُ لَها عَلى ضَرٍّ وَلا نَفْع وَاَنَا خِلْوٌ مِنْ ذلِكَ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ فَلا اِلـهَ إلاّ اَنْتَ سُبْحانَكَ مِنْ مُقْتَدر لا يُغْلَبُ وَذى اَناة لا يَعْجَلُ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد واْجعَلْني لنعمائِكَ مِنَ الشّاكِرينَ ولآلائِكَ مِنَ الذّاكِرينَ وارْحَمْني بِرَحْمَتِكَ يا اَرْحَمَ الرّاحِمينَ»[1].

حقاً إنّ هذه الأحوال التي يمرُّ بها قسمٌ كبير من البشرية، من المحن والبلاء، هي مدعاة للاعتبار والموعظة، والتي يقف العبد أمامها منكسر القلب ومسلماً لحوادثها، على أن ذلك يكون من خلال الإذعان والتسليم للّه تبارك وتعالى، فهذه المقاطع تدلُّنا على أن الإنسان (مهما كانت قوته وجبروته، وتسلطه الظالم على رقاب الناس)، هو ضعيف أمام هذه الحوادث، ولا يقوى حتى على شَرقة الماء التي يغص بها. والإنسان الذي يقف أمام هذه الحوادث التي تدمي القلب حتماً سينهار ويخضع لإرادة اللّه تعالى، نعم هناك قسمٌ من البشريّة قلبه أقسى من الحجر كما بيّن القرآن، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[2] الآية: المباركة تقول: إنّ من الحجارة ما يفيد البشر، ويحافظ على المكون البيئي من خلال تفجّر الينابيع المائية منه، على أن هذه المادة صلبة، حيث لا قلب ولا ضمير ولا إحساس بالمسؤولية لديها؛

---

(١) مفاتيح الجنان، ص ١٤٥- ١٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

لأنّها فاقدة لهذه التوصيفات، وهذا ليس عجزاً ونقصاً فيها، وإنما عدم ذلك هو كمالٌ لها، وذلك لطبيعتها التكوينية، في حين أن هذا الكائن البشري هو من يحمل هذه الأوصاف الخيّرة من اللين والرأفة والرحمة للآخرين. ولكنّ المعادلات دائما تنقلب في زمن الإنحطاط الخلقي، والتخلف الفكري، والابتعاد عن القيّم والمفاهيم الجوهرية للدين، والتي تربي الناس، على الآداب والمعاشرة المحترمة فيما بينهم. ونجد قسماً من البشرية يخرج عن حدِّ المعادلة الطبيعية له إلى حدّ تغليف القلب بجلد خشن مطعم بتعاليم الغاب وقانون الغدر وسفك الدماء البريئة.

وقد تناول القرآن الكريم الرأفة والرحمة، وحث عليهما الجماعات الصالحة التي تتخذ من الدين المحمدي الأصيل شرعةً و منهاجاً، قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾[١] إن الآية: المباركة تخاطب النبي الأكرم ﷺ، بما يحمل من مثل هذه المزايا والصفات الأخلاقية الحسنة، من اللين والرأفة والرحمة في قلبه الشريف، ومن حيث نشر صفة العفو والمغفرة والسماحة التي يتمتع بها الرسول ﷺ؛ لكن الآية: تخاطب المؤمنين من باب (إياكِ أعني واسمعي يا جارة) حيث إنّ سلسلة التعاليم الأخلاقية، تحثّ على تحلي الفئة المؤمنة بمثل هذه التعاليم الأخلاقية فيما بينهم، وفي مجتمعاتهم ومجالسهم.

وهذا ما ذكره الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، في كتاب إلى بعض عماله، يدعوه إلى تجنب هذا الخُلق السيئ، والتحلي بالرأفة والرحمة، حيث قال: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ**[٢] **أَهلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلا أَنْ يُقْصَوا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَف مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالإِدْنَاءِ، وَالإِبْعَادِ وَالإِقْصَاءِ، إِنْ شَاءَ اللّهُ**»[٣] الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) الدهاقين: الزعماء أرباب الأملاك بالسّواد، واحدُهُم دهقان بكسر الدال، ولفظه معرب. راجع شرح نهج البلاغة، ج١٥، ص ٩٤.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج١٥، ص ٩٤ الكتاب ١٩.

يضع من خلال هذا الكتاب أطروحة أخلاقية، ترتكز منهجيتها على الدعوة نحو التوازن المعتدل، في التعامل على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع والقيادة المجتمعية، وخصوصاً إذا كانت هذه الجهة تمثل قيادة على مستوى الأمة، إذ ينبغي أن تتصف باللين والعطف تارةً، والحزم والشدّة تارةً أخرى، على أن يكون مبنى كليهما قائماً على موازين الرضا والغضب الإلهي. فالإمام عليه السلام يقول لهذا العامل في حكومته - والذي يمثل في هذا العصر مسؤولاً كبيراً بمثابة وزير يحكم إقليماً من الأقاليم المنتشرة في البلاد الإسلامية آنذاك-: إنّ جماعة من التجار أو الشخصيات ذات النفوذ في المجتمع المجوسي[1]، قد جاؤوا يشكونك إليَّ، بأنك صاحب غلظة وقسوة[2] في التعامل معهم، وأنك تحتقرهم، ولا تزورهم، ولا

(١) راجع شرح نهج البلاغة، للشيخ ميثم البحراني ج٤، ص ٣٥٠.

(٢) القسوة خُلق سيء من اللائق والواجب على المؤمنين، أن يتعوذوا باللّه منه، وذلك لكونه يُفقدُ القلب رونقه وصفاءه الإيماني، وقد صرَّح القرآن في غير مكان، بأنّ اللجوء إلى هكذا خلق ينفر الناس من المعاشرة، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ هذه الآية: تركز على ثلاث نقاط جوهرية ينبغي أن تكون في طبع الإنسان المؤمن في معاملته للناس:

النقطة الأولى: نيل الرحمة من اللّه تعالى عامل رئيس في تكوين وصياغة الأخلاق لدى العبد المؤمن، وذلك لكونها عامّةً شاملةً للوجود بأسره، ولأنّ العبد يظلّ تحت عناية اللّه تعالى في كل لحظة من حياته، بخلاف تلك الرحمات المزيفة، والتي ينبع منها التسلط والقهر والخداع.

النقطة الثانية: أنّ قسوة القلب مرضٌ معنوي، يؤدّي بصاحبه إلى فقدان كل المكتسبات التي قام ببنائها وتشييدها السلفُ قبل الخلَفِ، وسيعمد هذا المرض القلبيّ إلى صنع الضحالة الفكرية والثقافية، مما يخلق أجواء سوداوية، وهذه بدورها سترسم المنطلقات الإستراتيجية بناءً على إيحاءات سلبية ولو تطلب سفك الدماء الطاهرة للمؤمنين، وذلك لكون متبنياته الفكرية هشّة وضعيفة، ولكونه منغلق العقل، فإنه لا ينظر إلى الآخرين بمنظار التعاضد والتعاون معهم، وسيخلق لنفسه تياراً استبدادياً على هذا المنوال.

النقطة الثالثة: تطلب الآية: الكريمة من العبد المؤمن، أن يترفع عن هذا الخلق السيئ، وينظر إلى الحياة على أنها معبر من خلالها يصل إلى الهدف الأساس وهو نيل رضا اللّه تعالى، على أن هذه النقاط يشترك فيها ذلك الغنيُّ المتسلط بثروته على رقاب الناس والمحتكر لكافة المنتجات الإقتصادية (بقدر ما يكون الفقير له جزءٌ في الشراك) حيث تعامله مع أهله وأبنائه بقوة القسوة القلبية، حيث يجره إلى رميهم وهم صغار السن في معترك الحياة من أجل نيل المكتسبات الاقتصادية وصرفها على العائلة، في الوقت الذي باستطاعته القدرة على تنفيذ هذه الأعمال من غير زجّ الأولاد في هذه الساحات. وقد وردت الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، داعية القاعدة الشعبية الموالية لهم سلام اللّه عليهم، إلى الابتعاد عن مثل هذه الأخلاق السيئة، والتي تنمُّ عن أن مصدرها الشيطان.

قال الإمام أبو عبد اللّه عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَمَّتان: لَمَّة من الشيطان ولَمَّة من الملك فَلَمّة الملك: الرقة والفهم ولمة الشيطان: السهو والقسوة**»موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج ٩، ص ٥٨.

هذا الحديث الشريف يضع بين أيدينا طريقين: أحدهما موصلٌ إلى الحالات المعنوية المطلوبة والصحيحة:

الطريق الأول: هو طريق يؤدّي إلى معرفة اللّه تعالى، من خلال المفاهيم التوعوية التي تُزرَعُ في القلوب =

تلبي احتياجاتهم وتعاملهم بجفوة، ثم يقول الإمام عليه السلام: إنّني نظرتُ، أي: تتبعتُ وتأمّلتُ في أحوالهم ومنهجيتهم في حياتهم ودينهم، فاتّضح أنهم ليسوا أهلاً لأن يقرّبوا، وذلك لأنهم مشركون ويدينون بغير الدين الإسلامي، ولكن لكونك في مركز تصريف الأمور في بلادهم، وتمثل الواسطة بينهم وبين الحكومة المركزية، وأنهم أصحاب حوائج ومعاملات تحتاج إلى تنفيذ من خلال هذه الحكومة، ولا يمكن أن تنفَّذ هذه المعاملات إلّا من خلال الوسيط لكونك الوزير المنصَّبَ من تلك الحكومة المركزية، فحينئذٍ عليك أن تتعامل معهم بكيفيّة المدّ والجزر، وذلك للعهد المتفق عليه بينهم وبين الدولة الإسلامية، على أن يحترموا قوانين الشريعة وأحكامها، وأن يدفعوا الجزية المترتبة عليهم، فعليك أن تدير الإقليم (حين معاملِتهم) بين القسوة تارةً، واللينِ تارةً أُخرى، وأن تُدنِيهم بحسب وحدود حوائجهم، فإن تقريبهم فيه ضعفاً للدينَ الحقّ، وإبعادهم كلّ البعد عن مراكز

= بأساليب متحضرة وذات قيمة عالية بحيث تحمل الوجوه المنطقية لكونها موافقةً لها، وهو الطريق الصحيح الذي سيخلق الرأفـة والمحبة وفهم الحياة بين الناس جميعاً.

الطريق الثاني: هو على العكس من الأول، حيث يؤدي إلى خلق أزمات نفسية محبطة، ستنعكس بصورة وأخرى على الواقع الخارجي بقوالب السهو والحقد والقسوة القلبية، ناهيك على أن النتائج السلبيّة سترسم حدّاً سيئاً لا يمكن تجازوه، وذلك لكونه واقعاً تحت تأثير الشيطان إبليس الرجيم.

ومنها ما قاله الإمام أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**ألا أخبركم بأبعدكم مني شبها؟**» قالوا: بلى يا رسول اللّه قال: «**الفاحش المتفحش البذيء البخيل المختال الحقود الحسود القاسي القلب، البعيد من كل خير يرجى، غير المأمون من كل شر يتقى**». موسوعـة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج ٩، ص ٥٨.

وفي ما ناجى اللّه عز وجل به موسى عليه السلام: «**يا موسى لا تُطوّل في الدنيا أملك فيقسُوَ قلبك والقاسي القلب مني بعيد**». موسوعـة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج ٩، ص ٥٨.

عن عبيد بن زرارة قال: مات لبعض أصحاب أبي عبد اللّه عليه السلام ولد فحضر أبو عبد اللّه عليه السلام فلما ألحد تقدم أبوه فطرح عليه التراب فأخذ أبو عبد اللّه عليه السلام بكفيه وقال: «**لا تطرح عليه التراب ومن كان منه ذا رحم فلا يطرح عليه التراب فإن رسول اللّه صلى الله عليه وآله نهى أن يطرح الوالد أو ذو رحم على ميته التراب**»، فقلنا: يا ابن رسول اللّه أتنهانا عن هذا وحده فقال: «**أنهاكم من أن تطرحوا التراب على ذوي أرحامكم فإن ذلك يورث القسوة في القلب ومن قسا قلبه بَعُدَ من ربه**». موسوعـة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج ٩، ص ٥٨.

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما جفّت الدموع إلا لقسوة القلوب وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب**». موسوعـة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج ٩، ص ٥٩.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّه فإن كثرة الكلام بغير ذكر اللّه قسوة القلب، ان أبعد الناس من اللّه القلب القاسي**». موسوعـة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج ٩، ص ٥٩.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام انه كتب في وصيته لنجله الإمام الحسن عليه السلام: «... **وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقِيَ فيها من شيء قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك، الوصية**». موسوعـة أحاديث أهل البيت عليهم السلام ج ٩، ص ٥٩.

الدولة فيه تعدٍّ على إنسانيتهم[١]، وذلك لكونهم أصحاب حوائج. فالإمام عليه السلام يحدد ضوابط تدبير سياسة الدولة بين مختلف أطياف المجتمع من مذاهب وأديان وملل ونحل يتعبد بها الناس، فهو سلام اللّه عليه لم يضع الغضب سيفاً مسلطاً عليهم لكونهم غير مسلمين، ولم يدعُ مَن يأتمر بأمره إلى مجانبتهم وعزلهم عن الحياة الاجتماعية بتاتاً، وإنما وضع عليه الصلاة والسلام حدودَ وضوابطَ التعامل وِفْقَ الطبيعة الإنسانية.

ويقول الإمام أبو عبد اللّه عليه السلام: إن اللّه أوحى إلى داود عليه السلام: «**يا داوُدُ كما أنّ أقرب الناس من اللّه المتواضعون كذلك أبعد الناس من اللّه المتكبرون**» كلٌّ هذا، وغيره حدا بالداعي أن يترك غروره، ويأتي ذليلاً ليجد ربه عنده شأنه في ذلك شأن كل قلب منكسر يكون اللّه عنده ومع الانكسار يردد الداعي: يا رب جئتك[٢]:

مستقيلاً

شيءٌ جيّدٌ أن يكون العبد خاضعاً ذليلاً للّه تعالى، يقدم الاعتذار، والندم، والانكسار، على ما جناه وضيَّعه في جنب اللّه تعالى، حيث يتجلّى مقتضى الاعتذار بحسب شدّةِ الجناية المرتكبة، والندم إنّما هو الصدمة التي تحدثها محكمة الضمير الصغرى لكي ينجو من تلك المحكمة الإلهية الكبرى غداً أمام اللّه تبارك وتعالى، ولكي لا تحصلَ الفضيحة أمام الحشود الميلياراتية من الناس يوم القيامة وقت الحساب، فهو يستبق الموسم بتذويب تلك الجروح العميقة، من خلال معصرة الندم، وإذاقة القلب والنفس طعم مرارة الانكسار والخضوع، حيث تلك الهامات العالية التي لا يطالها الطير، بسبب العناد والغرور بالنفس، الآن هي

(١) قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في كتابه للأشتر النخعي حين ولّاه على مصر: «**وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ للرَّعِيَّة، وَالْـمَحَبَّةَ لَـهُمْ، وَاللُّطفَ بهِمْ، وَلا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْـخَلْق، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَـهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْـخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَ وَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللّهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلاَكَ بِهِمْ**». شرح نهج البلاغة، ج١٧ ص٢٥.

(٢) أضواء على دعاء كميل، ص ٢٤٦.

ذليلة(١) قد أنزلت من علوٍّ شاهقٍ إلى الأرض، حالها حال ذلك العبد المسكين والفقير... لكن ذلك لا ليس بكافٍ إذ الاعتذار والندم والانكسار مطلوب لأنه سيخلق من نفسه الصدّ والامتناع عن أيّ مخالفة يقوم بها ولا يكون ذلك إلّا بعدَ محوِ الآثار والترسبات العالقة من السنين الماضية، والتي كانت بمثابة العمر

(١) من الجيد أن نذكر هذه الرواية التي تحمل الكثير من المفاهيم الغائبة عنا اليوم، عن محمد بن علي الصوفي قال: استأذن إبراهيم الجمّال ـ رضي اللّه عنه ـ على أبي الحسن علي بن يقطين الوزير فحجبه. فحجّ علي بن يقطين في تلك السنة فاستأذن بالمدينة على مولانا موسى ابن جعفر عليه السلام فحجبه. فرآه ثانيَ يومه فقال علي بن يقطين: يا سيدي ما ذنبي؟ فقال عليه السلام: «**حجبتُكَ؛ لأنك حجبت أخاك إبراهيم الجمّال وقد أبى اللّه أن يشكرَ سعيَكَ أو يغفرَ لَكَ إبراهيم الجمّال**». فقلت: سيدي ومولاي من لي بإبراهيم الجمّال في هذا الوقت وأنا بالمدينة وهو بالكوفة؟ فقال عليه السلام: «**اذا كان الليل فامض الى البقيع وحدك من غير أن يعلم بك أحد من أصحابك وغلمانك واركب نجيباً هناك مسرّجاً**». قال: فوافى البقيع وركب النجيب ولم يلبث أن أناخه على باب إبراهيم الجمّال بالكوفة. فقرع الباب وقال: أنا علي بن يقطين فقال إبراهيم الجمّال من داخل الدار: وما يعمل علي بن يقطين الوزير ببابي؟! فقال علي بن يقطين: يا هذا إنّ أمري عظيم. وآلى عليه أن يأذن له، فلمّا دخل قال: يا إبراهيم إنّ المولى عليه السلام أبى أن يقبلني أو تغفر لي، فقال: يغفر اللّه لك. فآلى علي بن يقطين على إبراهيم الجمّال أن يطأ خدّه فامتنع إبراهيم من ذلك فآلى عليه ثانياً ففعل. فلم يزل إبراهيم يطأ خده وعلي بن يقطين يقول: اللّهم اشهد، ثم انصرف وركب النجيب، وأناخه في ليلته بباب المولى موسى بن جعفر عليه السلام بالمدينة فأذن له ودخل عليه فقبله الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام. أعلام الهداية ج٩ص١٤٧-١٤٨.

فعليّ بن يقطين (الذي يعدّ أحد المؤمنين الخلص للإمام موسى الكاظم عليه السلام)، والذي يعتبر مُمسكاً برئاسة الوزراء لدى السلطة العباسية في عهد هارون الرشيد، والذي لديه هذا المنصب هو مخول للصلاحيات المطلقة من قبيل إمساك وزارة الداخلية أو وزارة الدفاع، أو أيّ وزارة أخرى فهو على العموم له جميع الصلاحيات المتاحة أمامه، وقد قبل هذا المنصب بعد أن أخذ الموافقة من الإمام عليه السلام، على أن يُبدي كامل الليونة للقاعدة الشعبية الموالية للإمام عليه السلام من تقديم المساعدة وتخليص المعاملات التجارية والاقتصادية.

في هذه الرواية ذهب إبراهيم الجمّال إلى علي بن يقطين طالباً الإذن له بالدخول عليه لقضاء حوائجه، إلا أن الأخير رفض مقابلته. وفي ذات العام حج بن يقطين إلى مكة والمدينة، فقصد الإمام الكاظم عليه السلام كعادة الموالين، فلم يأذن له، فقفل راجعاً من حيث أتى، ساعياً إلى ذلك في اليوم الثاني، وحينما رآه سأله عن سبب رفضه مقابلته، ثمّ بدأ الإمام عليه السلام يسرد له السبب، فعلم بن يقطين بأنّه مذنب، وعليه تقديم العذر لمنعه إبراهيم من الدخول عليه، وقال: إنّه بالمدينة وإبراهيم بالكوفة، فليس بالمقدور الآن التوجه إليها، إلا أن الإمام عليه السلام لم يمهله في الجواب حيث الولاية التكوينية، إذ النجيب (الذي هو الإبل بحسب مختار الصحاح، ص ٢٦٩مادة ن ج ب) كان هو الوسيلة التي تنقله من المدينة المنورة إلى الكوفة، حيث وقف على باب إبراهيم طارقاً له، إلا أن إبراهيم يعلم منصب بن يقطين في الدولة وما يحمل من مكانة سياسية فخافه واكتفى بقبول العذر؛ لكن بن يقطين أدرك أن ذلك ليس بمقبول، فأصرَّ على أن يطأ إبراهيم بقدمه على خدّ بن يقطين، فارتجف إبراهيم من ذلك؛ لأنه ليس بالأمر الهين أن مواطناً عادياً ليس لديه صلاحية في الدولة يقوم بوضع قدمه على خدّ من تأتمر الجيوش بأمره، لكن بن يقطين لم يفوت هذه اللحظات قبل أن يقفل عائداً المدينة فيأذن له الإمام عليه السلام في الدخول عليه. ولكم أن تتصوروا كيف أن هذا الرجل الذي له المكانة العليا في رأس الدولة، أن ينزل الكبرياء والجبروت، إلى الأرض والتراب؟ فكيف بنا نحن الذين لا نملك القرار؟!

المفعم بالقوة والنشاط والحيوية في الحياة، وأمّا هو الآن فيُشرف على حافتها؛ ولذلك فهو يحتاج إلى أن يزيل كل هذه المخلفات التي ترجعه إلى ذلك التاريخ السيئ، فكان لا بدّ من أن يخضع لعملية تنظيف واسعة، تكون مطهرة من درن الآثار السيئة والكريهة.

ومن هنا يقف العبد من جديد، ويعلن براءته من تلك التبعات التي هوت به في وادٍ سحيق، فهو يقول: جئتك يا سيدي وإلهي بعد أن قضيتُ شطراً كثيفاً من تلك السنوات الماضية وتلك الأيام السوداء، في الإسراف والتقصير أُقدِّمُ لك الاعتذار من الإساءات الكثيرة، وأضع بين يديك سيدي الندم والتحسر على ذاك العمر الذي ذهب بين يديّ وعلى سوء اختياري، حيث لم أركز على استراتيجية الخلاص من السقوط في مهاوي تلك البحار المظلمة وبعيدة الغور، وأنا الآن أقف بين يديك سيدي منكسر القلب لا أمتلك الكبرياء والغرور والعزة بالجاه والثروة، حيث كان تحت يديّ توزيع المسؤوليات والقرارات، وسبّبت لي هذه المناصب الدنيوية انزلاقاً عظيماً، أدى بي إلى الوقوع في بئر الظلام، وها أنا ذا يا سيدي وإلهي أقدم الإستقالات تلوَ الإستقالات من كل ذنب ارتكبتُهُ، محاولاً أن أرفع كُلّي وكامل بدني عن كل ما يمُتُّ بارتكاب الذنب بصلةٍ، مستعيناً بقوتك وحولك. وسوف نأتي على ذكر ذلك مفصّلاً حين تناول الفقرة التي تتحدث عن العثرات في مستقبل الدعاء بإذن اللّه تعالى.

ويا رب مع طلب الاستقالة أتيتك[1]:

مستغفراً

يلملم العبد أطرافه كلّما انتهى من إيراد مفهوم من المفاهيم التي تحمل طابع الذل والخضوع للّه تبارك وتعالى، في حين يُلوِّحُ بطرح مصطلح جديد شاعراً بفقدان ميزة هذا المصطلح، وهو إشارة ضمنية إلى أن العبد مهما ارتقى في مدارج الكمال والعفة فهو يشعر بالنقص وعدم الإكتمال محتاجاً إلى من يملك الكمال المطلق، وهو اللّه تبارك وتعالى.

---

(١) راجع أضواء على دعاء كميل، ص ٢٤٦.

لقد تحرك العبد متدرجاً في هذه الفقرة من الدعاء المبارك إلى الرقيّ والصعود نحو الكمالات المعنوية، هادفاً من ذلك إلى وضع منهجية واضحة، تتركز أبجديتها على الأول فالأول، على أن هذا الطريق والمنهج السليم، سوف يساعده على طيّ تلك المراحل الصّعاب والكؤود، والتي تحتاج إلى بذل مشقة عالية، في حين أن الثمار والنتائج ستأخذ بيده إلى الطريق الصحيح، والمسار السليم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1] وهذه الآية: المباركة تركز على هذه المنهجية بشكل واضح، وهو أن من يقوم بوضع هدف مستقبلي (استراتيجيّ) سوف يصل إلى سبيل اللّه تعالى، وهو عنوان يسمو بالنفس والروح، وذلك بفعل حيويته المركّزة بالمحتوى والمضمون، حيث مساراته المعتدلة تقوم على تتبع الأفكار والنظريات، التي يقبلها العقل، وتندرج تحت مظلة القضايا المنطقية، بشكل متسلسل، وتحت مفهوم القبول بالنقدّ البناء، فالعبد حينئذٍ يمتلك العلم الذي من خلاله يمحصها، ويدرجها في خاناتها، وهذا هو من أقسام الجهاد، فالعبد حين يتحرك يأتيه المدد واللطف الإلهي ويغمره بالحنان والعطف، فتصله الهداية من اللّه تعالى إلى سبيله.

في هذه الفقرة من الدعاء المبارك، يضع الإسراف والتقصير كمنطلق أساسيٍّ في تدرجه لتطبيق المفاهيم التي تنمُّ وتحكي الذل والخضوع للّه تعالى، ذلك لأن العبد أدرك أن جميع الأزمات التي وقع فيها كان مبدؤها التقصير في العمل الصالح الذي يتولد منه الورع والتقوى، حيث مهدَّ لتحقيق تلك الآثار التي بقيت خالدة في ذاكرة العبد من جرّاء الزجّ بنفسه في مواقع التهمة والشبهات، على أنّ الإسراف كان مرتكزاً أساسيّاً أيضاً للتعلّق بحبل الضياع والسقوط في مهاوي الفتن والظلال. ومن هنا كان لا بدَّ من العبد أن يقدم على عمل صالح له مردوداته الإيجابية، من أجل أن يدخل في ساحة اللّه الطاهرة، وبما أنه قد عصى في تلك السنوات الماضية التي قضاها في الإنفلات واللامبالاة وارتكاب شتى صنوف المعاصي والذنوب، فلا بدَّ حينئذٍ من أن يُقدِّم كامل الاعتذار والأسف والتحسر والندامة على ما جناه من

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

أعمال كانت بمثابة الإصرار والتحدّي منه للّه تعالى، ولا يكتفي بذلك من غير أن يُتبعَهُ بانكسار القلب وإظهار الخضوع والذلّ، في إشارة واضحة، إلى التمحيص والتنظيف القلبي من تلك الأوساخ والروائح النتنة، في حين أنّه يلزمه أن يقدم استقالته من الشركات والمؤسسات التي تنبع منها المفاسد والانحرافات، والتي تسبب اكتساب الذنوب والآثام، وحسبك أن ذلك ليس بكافٍ، من غير إبراز الإستغفار كعلامة لها خلفياتها العملية في الإنتاج الايجابي للعمل الصالح ولها تلك الثمرة التي يستفيد العبد منها غداً حين وقوفه أمام اللّه تعالى يوم القيامة، ومن هنا يعبر العبد عن هذا الاستغفار عند هذه المحطة فيقول: أتيتك يا سيدي وإلهي بعد ما كان منّي من التقصير والإسراف معتذراً ونادماً من ضياع العمر وأتحسَّر عليه؛ لأنّه لن يعود، ومنكسرَ القلب خاضعاً وذليلاً لك سيّدي ومولاي، وأتيتك رافعاً صكَّ استقالتي من تلك الأعمال التي حصلت في مؤسسات سنوات الضياع والخسران، فأنا أقدم الاستقالات تلو الأخرى من أعمال خلّفت من وراء ظهري الكثير من الذنوب والآثام، وفي هذه الساعة أحصد نتاجها الوخيم، وها أنا ذا اليوم أقف أمامك سيدي وإلهي أرفع شعار الاستغفار وطلب العفو منك على ما ارتكبته من فضائع وجرائم، راجياً منك سيدي قبول استغفاري وغفران ذنوبي وآثامي.

والاستغفار له ضوابطه والتزاماته كما يبيّنها أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله كميل بن زياد.

قال كميل بن زياد: سألت أمير المؤمنين عليه السلام عن قواعد الإسلام ما هي؟ فقال: «**قواعد الإسلام سبعة:**

فأوّلها: العقلُ وعليه بُنِيَ الصبر.

والثاني: صونُ العرضِ وصِدقُ اللهجة.

والثالثة: تلاوة القرآن على جهته.

والرابعة: الحب في اللّه والبغض في اللّه.

والخامسة: حقّ آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفة ولايتهم.

والسادسة: حقّ الإخوان والمحاماة عليهم.

والسابعة: مجاورة الناس بالحسنى».

قلت: يا أمير المؤمنين العبد يصيب الذنب فيستغفر اللّه منه، فما حدُّ الاستغفار؟ قال: «**يا ابن زياد التوبة**». قلت: بس؟ قال: «**لا**». قلت: فكيف؟ قال: «**إنّ العبد إذا أصاب ذنباً يقول: أستغفر اللّه بالتحريك**». قلت: وما التحريك؟ قال: «**الشفتان واللسان، يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة**»، قلت: وما الحقيقة؟ قال: «**تصديق في القلب وإضمار أن لا يعود إلى الذنب الذي استغفر منه**». قال كميل: فإذا فعلت ذلك فأنا من المستغفرين؟ قال: «**لا**». قال كميل: فكيف ذاك؟ قال: «**لأنّك لم تبلغْ إلى الأصل بعدُ**». قال كميل: فأصل الاستغفار ما هو؟ قال: «**الرجوع إلى التوبة من الذنب الذي استغفرت منه وهي أوّل درجة العابدين وترك الذنب والاستغفار اسم واقع لمعانٍ ستّ:**

أوّلها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود أبداً.

والثالث: أن تؤدّي حقوق المخلوقين التي بينك وبينهم.

والرابع: أن تؤدّي حقَّ اللّه في كلِّ فرض.

والخامس: أنْ تذيبَ اللحم الذي نبت على السحت والحرام حتى يرجع الجلد إلى عظمه ثم تُنشئ فيما بينهما لحماً جديداً.

والسادس: أن تذيق البدن ألم الطاعات كما أذَقْتَهُ لذّات المعاصي»(١).

حيث بينت هذه الرواية أنّ أوّل إلزام وضابطٍ للاستغفار هو التوبة ،كطريق ومنطلق إلى الصراط المستقيم، وذلك لأنّه من دونها، يقع العبد في مسارات التيه والضياع، والانفلات ومشكلة الارتماء في أحضان الدنيا ومغرياتها؛ فالتوبة تمثل السدَّ المنيع من أيّ اختراق من جانب أعوان الدنيا، الذين يدبّرون كل

---

(١) تحف العقول، ص ١٣٧-١٣٨ وقد أوردنا الرواية كاملةً للإفادة فحسب.

الخطط لنيل أيّ صيدٍ ثمين وذي قيمة معنوية كبيرة؛ لكن كميلاً لم يشبع ولم يكتفِ بهذا الجواب، وأدرك أن مجرد التوبة وحدَها غيرُ مُجديةٍ في ظلّ هذه الدنيا المملوءة بالمغريات والمضلّات من الفتن، ولهذا، راح يبحر في بحر أمير المؤمنين عليه السلام، محاولاً إخراج تلك الجواهر التي لا تقدّر بثمن، في إشارة إلى أنه يسعى إلى المزيد من أن ينهل من هذا الينبوع العظيم، والذي يحمل من الكنوز الثمينة، حيث لا وجود بمنزلته على وجه الأرض بعد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يقول الإمام عليه السلام: «**علّمني رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ألف باب من العلم، واستنبطتُ من كل باب ألفَ باب**»(١).

ومن هنا إنّ وجود الإمام عليه السلام من دون الاستفادة منه، يُعدُّ خسارةً للمجتمعات الإسلامية، وإنّ الموجودين من حوله لم يدركوا مدى عظمة الإمام وقيمته الفذّة، إلّا القليل من هؤلاء الناسالذين يُعدُّونَ من شيعته الخلّص، وكان كميلٌ من هؤلاء الأفذاذ، الذين أدركوا القيمة الجوهرية التي يحملها الإمام عليه السلام ماديّاً ومعنويّاً، ومن هذا المنطلق استغل كميل وجود الإمام عليه السلام المبارك، في طرحه السؤال تلوَ الآخر مستفيداً من الأجواء والفيوضات التي تنبعث وتتفجر من الإمام عليه السلام، حيث بادره، على أنه فقط التوبة، من حيث الرضا والمغفرة من اللّه تعالى، فردَّ عليه الإمام عليه السلام بمبادرة العبد إلى الاستغفار حين ركوبه الذنب، وذلك من خلال تحريك اللسان، على أن تكون على الوجه الحقيقي من الاستغفار، وهو التصديق بالقلب، وأن يُضمِرَ أن لا يعود إلى نفس المستنقع الذي خرج منه من حيث وضع تلك التعهدات والمواثيق موضعَ التطبيق وعدم الرجوع إلى الوراء، قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في دعاء التوبة: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ فِي مَقَامِي هَذَا مِنْ كَبَائِرِ ذُنُوبِي وَ صَغَائِرِهَا، وَ بَوَاطِنِ سَيِّئَاتِي وَ ظَوَاهِرِهَا، وَ سَوَالِفِ زَلَّاتِي وَ حَوَادِثِهَا، تَوْبَةَ مَنْ لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِمَعْصِيَةٍ، وَ لَا يُضْمِرُ أَنْ يَعُودَ فِي خَطِيئَةٍ وَ قَدْ قُلْتَ يَا إِلَهِي فِي مُحْكَمِ كِتَابِكَ إِنَّكَ تَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِكَ، وَ تَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَ تُحِبُّ التَّوَّابِينَ، فَاقْبَلْ تَوْبَتِي كَمَا وَعَدْتَ، وَ اعْفُ عَنْ سَيِّئَاتِي كَمَا ضَمِنْتَ، وَ أَوْجِبْ لِي**

(١) عليٌ إمام البررة، ج٣ص ٢٧٥.

مَحَبَّتَكَ كَمَا شَرَطْتَ وَ لَكَ يَا رَبِّ شَرْطِي أَلَّا أَعُودَ فِي مَكْرُوهِكَ، وَ ضَمَانِي أَنْ لَا أَرْجِعَ فِي مَذْمُومِكَ، وَ عَهْدِي أَنْ أَهْجُرَ جَمِيعَ مَعَاصِيكَ»(١).

وإذا خرج العبد من هذا التعهّد والشرط، فلا يحدّث نفسه بأنّه قد فرغ من هذه المسألة، وإنما وراءه مشوارٌ وطريق، فيه من الواجبات التي أهملها ما يلزمه أن يبادر إلى إصلاحها وتسويتها، ومن هنا يبدأ أمير المؤمنين عليه السلام، في وضـع التائب على الطريق السليم والصحيح، وذلك من خلال العلامات التي وضَّحها، فبدأ، حيث على العبد أن يُشعِرَ نفسه بالندامـة والتحسّر على ما فات من سنيّ العمر، وضياعه في المتاهات واللعب واللهو، على أن هذه السنوات التي ذهبت لن تعود مثلما كانت فقد انصرمتفي اكتساب الآثام وجنيِ الذنوب، وقد تطرقنا لمبحث الندم في السابق، حيث لا مجال لبحثه من جديد.

ثم بعد ذلك يبدأ الإمام عليه السلام في طرح بقية الشروط والضوابط حيث إنّه سوف يحصل على تلك النعم الدنيوية والأخروية فيما إذا التزم العبد بتلك المفاهيم التوعوية.

قال تعالى على لسان النبي نوح عليه السلام، حين دعوته لقومه إلى عبادة اللّه تعالى ،إذ أمرهم بالاستغفار والتوبة وطلب المغفرة من اللّه تعالى، ووعدهم بالنعم الوفيرة: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾(٢).

وقد يعتقد البعض من الشباب الذين انزلقوا في مستنقع الدنيا ومفاتنها، أن غفران الذنوب محال في ظل التقيّد بهكذا شروط !، فمن الصعب تنفيذ ها، والعمل بمقتضاها، وهذا الاعتقاد مبنيٌّ على مشكلةالنفس التي تنقاد إلى الراحة والترفيه، حيث تشير بعض النصوص الواردة عن لسان الأئمّة عليهم السلام، إلى أن هذا الطبع موجود في كيان النفس.

(١) الصحيفة السجادية، ص ١٤١-١٤٢ في ذكر التوبة وطلبها ٣١.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٠-١٤.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة الشاكين: «**الـهي الَيْكَ اَشْكُو نَفْساً بِالسُّوءِ اَمّارَةً، وَاِلَى الْخَطيئَةِ مُبادِرَةً، وَبِمَعاصيكَ مُولَعَةً، وَلِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً، تَسْلُكُ بي مَسالِكَ الْمَهالِكِ، وَتَجْعَلُني عِنْدَكَ اَهْوَنَ هالِك، كَثيرَةَ الْعِلَلِ، طَويلَةَ الْاَمَلِ، اِنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجْزَعُ، وَاِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْنَعُ، مَيّالَةً اِلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ مَمْلُوَّةً بِالْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ، تُسْرِعُ بي اِلَى الْحَوْبَةِ وَتُسَوِّفُني بِالتَّوْبَةِ**»[(١)].

إلّا أنّ الشاب ينبغي أن يكون أكثرَ قوةً وصلابة في مواجهة الكيان المتجذر في الأعماق، نتيجة الإهمال الذي أحدثته سنوات الانزلاق في الهاوية السحيقة، ومن هنا فإن هذه الآية: الكريمة، تعطي الاندفاع والعزيمة، والترحيب عند اللّه تعالى بالضيافة والإكرام، حيث الغض عن تلك الذنوب والمعاصي والصفحات السوداء هي السمات البارزة، وذلك، بدلالة اللغة التي استخدمت، وهي لغة المبالغة، حيث تقول: إنّ اللّه تعالى كثير المغفرة[(٢)]، على أن تكون الإرادة معقودة بالاستغفار، والعزيمة على عدم الرجوع والنظر إلى تلك الخلفيات المظلمة. وإذا وجدت كل تلك المقدمات، التي بيّنها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فإن النتيجة التي سوف يحصل عليها العبد، هي تلك الكنوز الوفيرة من النعم الدنيوية، حيث الثروات الهائلة من الأموال والأولاد، ناهيك عن تلك التي تنتظره عند ذلك العالم الأخروي.

«وبهذا فإنه وعدهم بنعمة معنوية كبيرة، وبخمس نعم أخرى مادية كبيرة، والنعمة المعنوية الكبيرة هي غفران الذنوب والتطهير من درن الكفر والعصيان، وأمّا النعم المادية فهي هطول الأمطار المفيدة والمباركة في حينها: كثرة الأموال، كثرة الأولاد (الثروات الإنسانية)، الحدائق المباركة والأنهار الجارية. نعم، إن الإيمان والتقوى يبعثان على عمران الدنيا والآخرة بشهادة القرآن المجيد، وورد في بعض الروايات ان قوم نوح المعاندين لما امتنعوا من قبول دعوته حل عليهم القحط وهلك كثير من أولادهم، وتلفت أموالهم، وأصاب نساءهم العقم، وقل عندهن الإنجاب،

---

(١) الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكين، ص٢٩٦.

(٢) راجع تفسير الميزان، ج٢٠، ص ٣٣.

فقال لهم: نوح عليه السلام: إن تؤمنوا فسيدفع عنكم كل هذه البلايا والمصائب، ولكنهم ما اتعظوا بذلك واستمروا في غيهم وطغيانهم حتى حل العذاب النهائي»[1].

ويدرك العبد جيداً أن البقاع المقدسة لها الحظوة عند اللّه تعالى[2] قال تعالى:

---

(١) تفسير الأمثل، ج ١٩، ص ٣٣-٣٤.

(٢) من الجيد أن ندرج هنا أن من الأماكن التي لها القداسة والإحترام عند اللّه تعالي هي كربلاء المقدسة، حيث الجسد الطاهر والمثوى المقدس للإمام الحسين عليه السلام، إذ ما فتئت تلك الأجسام والأرواح التي حلّت وضحت من أجل الدين وحفاظاً عليه وكرامةً للإمام الحسين عليه السلام، أن تبعث من ينابيع أنوارها وفيوضات معنوياتها إلى المجاورين لتلك البقاع المقدسة النسمات الروحية والألطاف العذبة إلى تلك الأرواح التي هامت بحُبِّ الحسين، مشبَعَةً بالولاء الإلهي، وهنيئاً لتلك الجموع التي يمَّمت وجهها شطرَ كعبة الثوار وأبيّ الضيم وكنز الأحرار أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام. وهذه الرواية تحمل الكثير من الدلالات ذات المفاهيم العالية في توعية الأجيال في بيان أهميّة الزيارة للإمام الحسين عليه السلام.

عن أبي هاشم الجعفري قال: دخلت على أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام وهو محموم عليل فقال لي: «**يا أبا هاشم، ابعث رجلا من موالينا إلى الحير يدعو اللّه لي**»، فخرجت من عنده فاستقبلني علي بن بلال، فأعلمته ما قال لي وسألته أن يكون الرجل الذي يخرج، فقال: السمع والطاعة، ولكنني أقول: إنه أفضل من الحير(وهو الحائر الحسيني) إذا كان بمنزلة من في الحير، ودعاؤه لنفسه أفضل من دعائي له بالحير، فأعلمته صلوات اللّه عليه ما قال، فقال لي: «**قل له: كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله أفضل من البيت والحجر، وكان يطوف بالبيت ويستلم الحجر، وإن للّه تبارك وتعالى بقاعاً يحبّ أن يدعى فيها فيستجيب لمن دعاه، والحير منها**». بحار الأنوار،ج١٠١ص١١٣ح٣٤.

وفي رواية قال عليه السلام: «**ألا قلت له: إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله كان يطوف بالبيت ويقبّل الحجر، وحرمة النبي صلى الله عليه وآله والمؤمن أعظم من حرمة البيت، وأمره اللّه أن يقف بعرفة، إنما هي مواطن يحبّ اللّه أن يُذكر فيها، فأنا أحبّ أن يُدعى لي حيث يُحبّ اللّه أن يُدعى فيها، والحير من تلك المواضع**». بحار الأنوار،ج١٠١ص١١٢ح٣٢.

وفي لفظ ثالث عن أبي هاشم الجعفري قال: دخلت أنا ومحمد بن حمزة عليه نعوده وهو عليل، فقال لنا: «وجّهوا قوماً إلى الحير من مالي»، فلمّا خرجنا من عنده قال لي محمد بن حمزة: المشير يوجّهنا إلى الحير وهو بمنزلة من في الحير، قال: فعدت إليه فأخبرته، فقال لي: «**ليس هو هكذا، إن للّه مواضع يحب أن يعبد فيها، وحائر الحسين عليه السلام من تلك المواضع**». بحار الأنوار،ج١٠١ص١١٣ح٣٤.

والشيء اللافت للنظر من هذه الرواية هو تأكيد الخصوصية لبعض الأماكن من الأرض، والتي منها الدعاء تحت قبة الإمام الحسين عليه السلام، في حين أنّ علياً بن بلال يُبدي كامل الطاعة، لكنه يسأل: لماذا لا يدعو هو لنفسه وذلك لكونه يحتلّ نفس المرتبة والدرجة التي يشغلها صاحب الحائر، وفي ذات الوقت يملك الإمام ذلك النفس والروح القدسية، التي لست بمقدوره الوصول لها، فيجيب الإمام، بأنّ ثمّة بقاعاً لها مكانة ودرجة عند اللّه تعالى وأنا أحبُّ أن يدعوَ لي في مثل هذه البقاع التي منها كربلاء المقدسة، وهو إشارة واضحة من الإمام علي الهادي عليه السلام إلى الاهتمام بهذه الشعيرة المقدسة، والتي فيها إحياء للدين الإسلامي. وهنا مقطع من زيارة الناحية المقدسة للإمام المهدي المنتظر عليه السلام وعجل اللّه تعالى فرجه الشريف، حيث يقول فيها: «**السلام على محمد حبيب اللّه وصفوته، السلام على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المخصوص بإخوته، السلام على فاطمة الزهراء ابنته، السلام على أبي محمد الحسن وصي أبيه وخليفته، السلام على الحسين الذي سمحت نفسه بمهجته، السلام على من أطاع اللّه في سره وعلانيته، السلام على من جعل اللّه الشفاء في تربته، السلام على من الإجابة تحت قبته، السلام على من الأئمة من ذريته**» بحار الأنوار، ج١٠١ص٢٣٥ح٣٨.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[1] فمن خلال هذه الآية: المباركة

«وعلى هذا النحو يقدس ما يقدس من الأمكنة و الأزمنة كالكعبة المشرفة و المسجد الحرام و سائر المساجد و المشاهد المحترمة في الإسلام و الأعياد و الأيام المتبركة فإنما ذلك قدس و شرف اكتسبته بالانتساب إلى واقعة شريفة وقعت فيها أو نسك و عبادة مقدسة شرعت فيها و إلا فلا تفاضل بين أجزاء المكان و لا بين أجزاء الزمان»[2] في حين أن تلك المشاهد المشرفة تمتلك المكانة العالية، لكونها تضمّ أجسام الأئمّة المقدسة عليهم السلام، فهو لا يألوا جهداً في البذل والإقدام نحو طلب المغفرة.

فقد ورد شطرٌ من دعاءٍ بعد أن يأتي بركعتيّ الزيارة للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام هذا المقطع: **«رَبِّ انّي اَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ حَياء، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ رَجاء، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ انابَة، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ رَغْبَة، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ رَهْبَة، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ طاعَة، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ ايمان، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ اقْرار، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ اخْلاص، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ تَقْوى، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ تَوَكُّل، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ ذِلَّة، وَاَسْتَغْفِرُكَ اسْتغْفارَ عامِل لَكَ هارِب مِنْكَ اِلَيْكَ، فَصَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَتُبْ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ بِما تُبْتَ وَتَتُوبُ عَلى جَميعِ خَلْقِكَ، يا اَرْحَمَ الرّاحِمينَ، يا مَنْ يُسَمّى بِالْغَفُورِ الرَّحيمِ، يا مَنْ يُسَمّى بِالْغَفُورِ الرَّحيمِ، يا مَنْ يُسَمّى بِالْغَفُورِ الرَّحيمِ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَاقْبَلْ تَوْبَتي، وَزَكِّ عَمَلي، وَاشْكُرْ سَعْيي، وَارْحَمْ ضَراعَتي، وَلا تَحْجُبْ صَوْتي، وَلا تُخَيِّبْ مَسْأَلَتي يا غَوْثَ الْمُسْتَغيثينَ، وَاَبْلِغْ اَئِمَّتي سَلامي وَدُعائي وَشَفِّعْهُمْ في جَميعِ ما سَأَلْتُكَ، وَاَوْصِلْ هَدِيَّتي اِلَيْهِم كَما يَنْبَغي لَهُمْ، وزِدْهُمْ مِنْ ذلِكَ ما يَنْبَغي لَكَ بِاَضْعاف لا يُحْصيها غَيْرُكَ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ اِلاّ بِاللّهِ الْعَلِيِّ الْعَظيمِ، وَصَلَّى اللّهُ عَلى اَطْيَبِ الْمُرْسَلينَ مُحَمَّد وَآلِهِ الطّاهِرينَ»**[3].

---

(١) سورة طه، الآية: ١١-١٢.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٤، ص ١٣٧.

(٣) مفاتيح الجنان، ص ٦٢٢.

فالعبد يستغلّ ويطرح كل حوائجه في مثل هذه الأمكنة، حيث يُنزِلُ استغفاره منزلةَ الحياء والرجاء والإنابة والرغبة إلى آخر تلكم المطالب التي يتذلل بها العبد أمام اللّه تعالى من خلال الاستغفار.

هذا وجاءنا الكثير من الأحاديث التي تحدّثت عن الاستغفار، نورد جملة منها:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن مِن أجمَعِ الدعاء أن يقول العبدُ الاستغفار**»[١].

هذا الحديث يشير إلى أن من كماليات الدعاء أن يطلب العبد من اللّه تعالى المغفرة، إذ ما لم يوجد من جملة الدعاء الاستغفار وطلب المغفرة، فإنه يكون ناقصاً، وهو إشارة إلى أهمية الاستغفار وطلب العفو والمغفرة، من اللّه تعالى ومن غير واسطة رجل الدين، في منهجية الدين الإسلامي.

وقال الإمام علي عليه السلام: «**الاستغفار أعظم أجراً وأسرع مثوبة**»[٢].

وقال سلام اللّه عليه: «**الاستغفار دواء الذنوب**»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**الاستغفار عن العذر أعز من الصدق**»[٤].

وقال عليه السلام: «**الاستغفار يمحو الأوزار**»[٥].

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الذنوب لتشوب أهلها، لتحرقنهم، لا يطفئها شيء إلا الاستغفار**»[٦].

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «**من ظلم أحداً فعابه، فليستغفر اللّه كما ذكره، فإنه كفارة له**»[٧].

---

(١) ميزان الحكمة، ج٧ص٣٠١٦.
(٢) غرر الحكم، ص١٥ص٨١.
(٣) غرر الحكم، ص١٥ص٨٢.
(٤) غرر الحكم، ص١٥ص٨٣.
(٥) غرر الحكم، ص١٥ص٨٤.
(٦) مستدرك الوسائل، ج٥ص٣١٦ ح٢ باب استحباب الإكثار من الاستغفار .
(٧) مستدرك الوسائل، ج٥ص٣١٦ ح٣ باب استحباب الإكثار من الاستغفار.

وقال ﷺ: «**من أكثر الاستغفار، جعل اللّه له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب**»(١).

وقال ﷺ: «**تعلموا سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وعلى عهدك، أبوء بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»(٢).

وقال رسول اللّه ﷺ: «**ادفعوا أبواب البلايا بالاستغفار**»(٣).

وعن إسحاق بن عمار، قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: الدعاء ينفع الميت؟ قال: «**نعم، حتى أنه ليكون في ضيق فيوسع عليه، ويكون مسخوطاً عليه فيرضى عنه**» قال: قلت: فيعلم من دعا له؟ قال: «**نعم**»، قال: قلت: فإن كانا ناصبيين؟ قال: فقال: «**ينفعهما واللّه ذاك، يخفف عنهما**»(٤).

هذا الحديث يحمل الكثير من الدلالات ذات المؤشرات التربوية، التي تبعث على التواصل المعنوي بين الإنسان المؤمن في هذه الدنيا، وبين والديه وهما في الآخرة.

وقال رسول اللّه ﷺ: «**أكثروا من الاستغفار، في بيوتكم، وفي مجالسكم، وعلى موائدكم وفي أسواقكم، وفي طرقكم وأينما كنتم، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة**»(٥).

وورد أنّ أعرابيّاً شكا إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام شدَّةَ فقره، وضيقاً في المال وكثرةً من العيال، فقال له: «**عليك بالاستغفار، فإن اللّه عز وجل يقول:** ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ الآيات فعاد إليه، فقال: يا أمير المؤمنين إني قد استغفرت اللّه كثيرا وما أرى فرجا مما أنا فيه، فقال: «**لعلك لا تحسن أن تستغفر**»، قال: علّمني،

(١) مستدرك الوسائل، ج٥ص٣١٧ ح٤ باب استحباب الإكثار من الاستغفار.
(٢) مستدرك الوسائل، ج٥ص٣١٧ ح٥ باب استحباب الإكثار من الاستغفار.
(٣) مستدرك الوسائل، ج٥ص٣١٨ ح٩ باب استحباب الإكثار من الاستغفار.
(٤) مستدرك الوسائل، ج٥ص٣٢١-٣٢٢ ح١ باب حكم الاستغفار للأبوين والدعاء لهما، وللكافرين.
(٥) مستدرك الوسائل، ج٥ص٣١٩ ح١٣ باب استحباب الإكثار من الاستغفار.

قال: «**أخلص نيتك، وأطع ربك، وقل: اللهم إني أستغفرك من كل ذنب قوي عليه بدني بعافيتك، أو نالته قدرتي بفضل نعمتك، أو بسطت إليه يدي بسابغ رزقك، أو اتكلت فيه عند خوفي منك على أناتك، أو وثقت بحلمك أو عولت فيه على كرم عفوك، اللهم إني أستغفرك من كل ذنب خنت فيه أمانتي، أو بخست فيه نفسي، أو قدمت فيه لذاتي، أو آثرت فيه شهواتي، أو سعيت فيه لغيري، أو استغويت فيه من تبعني أو غلبت فيه بفضل حيلتي إذا حلت[1] فيه عليك مولاي فلم تغلبني[2] على فعلي إذ كنت سبحانك كارهاً لمعصيتي، لكن سبقك علمك في اختياري واستعمالي مرادي، وإيثاري فحلمت عني فلم تدخلني فيه جبرا ولم تحملني عليه قهرا، ولم تظلمني شيئا، يا أرحم الراحمين، يا صاحبي عند شدتي، يا مؤنسي في وحدتي، يا حافظي في نعمتي، يا وليّي في نفسي يا كاشف كربتي، يا مستمع دعوتي، يا راحم عبرتي، يا مقيل عثرتي يا إلهي بالتحقيق، يا ركني الوثيق، يا جاري اللصيق يا مولاي الشفيق يا رب البيت العتيق، أخرجني من حلق المضيق إلى سعة الطريق وفرج من عندك قريب وثيق، واكشف عني كل شدة وضيق واكفني ما أطيق وما لا أطيق، اللهم فرج عني كل هم وغم وأخرجني من كل حزن وكرب يا فارج الهم وكاشف الغم ويا منزل القطر ويا مجيب دعوة المضطرين يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، صل على خيرتك من خلقك محمد النبي صلى اللّه عليه وسلم وآله الطيبين الطاهرين، وفرج عني ما قد ضاق به صدري وعيل منه صبري وقلت فيه حيلتي وضعفت له قوتي، يا كاشف كل ضر وبلية ويا عالم كل سر وخفية يا أرحم الراحمين أفوض أمري إلى اللّه، إن اللّه بصير بالعباد، وما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**». قال الأعرابي: فاستغفرت بذلك مراراً فكشف اللّه عنّي الغمَّ والضيق ووسَّعَ عليَّ في الرزق وأزال المحنة[3].

والعبد لا يكتفي بذلك، وإنّما ينتقل إلى مفردة أخرى من تلك المفردات التي من

(١) إذا حلت أي احتيلت، كأنه ينزل نفسه بوقوعه في المعصية منزلة المحتال على إنسان بالباطل
(٢) فلم تغلبني أي لم تنتقم مني مع أنك تبغض معصيتي وقادر على الانتقام مني.
(٣) كنز العمّال٣٩٦٦ وهي نسخة إلكترونية.

خلالها يصل إلى رضا اللّه تعالى، إذ يقف العبد ويقول: لقد جئتك بعد الإسراف والتقصير معتذراً ناماً منكسراً مستقيلاً مستغفراً.

منيباً

لقد أحدثت مسيرة الدعاء، التي أخذت من العبد الوقت الطويل، والجهد الوفير، للوصول إلى مرتبة يستطيع من خلالها أن يبصر بعين قلبه، وأن يدرك مدى الخسائر المعنوية في تلك السنوات المنصرمة، في اللهو واللعب، في هذه الدنيا، الذي من خلالها أفقده السمات المعنوية والروحية، ولقد حدَثَتْ انطلاقة فكرية وثقافية، كونت الأساس للعبور على الطريق المملوء بالشوك، وساعدته في امتلاك الوعي والبصيرة في ظلّ التخبط الفكري والثقافي، وفقدان التوصيف والسمة المعنوية، التي هي أحد أهم المنجزات التي يتحرك العبد لاكتسابها ونيل الحظوة عند اللّه تعالى من طريقها، في حين أن هناك جماعاتٍ وخلقاً كثيراً من البشر يفقد هذه السمة في الأساس، وذلك لكونه بعيداً عن تلكم المراكز التي يستطيع أن ينالها من خلال هذه المواقع، حيث الأجواء والأمكنة مهيّأة لمثل هذه التوصيفات.

وهدفُ العبد من هذا التحرك، هو امتلاك الدرجة العليا عند اللّه تعالى، ونيل المكانة المرموقة، إلى جنب تلك القامات التي وصلت إلى مقامات عليا جدّاً، على أن لا يكون نظر العبد مقصوراً ضمن حدود وأطراف لها بُعدها القصير، وإنّما يمتدُّ نحو منظور له أهداف استراتيجيّة بعيدة المدى تصل إلى رتبة ومقام محمودٍ عند اللّه تعالى. وفي هذه المفردة من الفقرة من الدعاء المبارك، يتحرك العبد في نطاق التوافق في المفاهيم التي يطرحها، في حين أن الإقدام على تقديم الاعتذار وسيلة للوصول إلى الباب الذي من خلاله يعبرُ إلى امتلاك الحالة المعنوية، على أن الندم كان الساعد الأيمن للاجتياز الصعب عند مرحلة تعد من أهم الطرق لنيل الحظوة عند اللّه تعالى، على أن تكون تلك المفردات السلسلة المتصلة فيما بينها، ومثلت الترابط الوثيق في التقرب نحو البارئ عز وجل، حيث الانكسار والاستقالة والاستغفار.

وهذا يدلُّ على أن العبد ليس تحت يده أيَّةُ قوة يلجأ إليها، حيث يفقدُ كلّ شيء،

وإنّما العطاء هو من عند اللّه تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا ﴾[1] والآية الكريمة تبيّن الطبيعة التي يتمتع بها الإنسان من إمكانية في هذه الوجود، من حيث أنه لا يملك تلك المقدرة التي من خلالها أن يزيح الذبابة عن طريقه إذا حطّت على وجهه، وهو عنوان يبيّن مدى الضعف الذي يسكن في نفس هذا الكائن البشري، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾[2] فهذه الآية: المباركة تتحرك جنباً إلى جنب مع الإيديولوجية التي تنطلق منها تلك الآية: المباركة التي تصرح بضعف التعاطي بحرية من دون الإنابة إلى اللّه تعالى، بأنّ الملكية التي يتمتع بها الإنسان ما هي إلّا ملكية اعتباريّة وليست حقيقيّة[3].

ومن هنا يدرك العبد أهميّةَ وضع الإنابة والرجوع إلى اللّه تعالى ضمن السلسلة المترابطة فيما بينها حيث أن فقدان هذه الحلقة، سيسبب الكثير من المتاعب، ولن تجدي له تلك الفائدة والثمرة، التي من المأمول أن تحظى بالقبول والوصول إلى حضرة اللّه سبحانه وتعالى، فالاعتذار والندم والانكسار والاستقالة والاستغفار من دون العزم على الرجوع إلى اللّه تعالى ما هو إلا ضربٌ من العبث واللعب، وهو حالة يسلكها الكثير من البشر، الذي يريدون أن يخلقوا لأنفسهم مكانة اجتماعية مزيفة، فهم قرَّروا تسلُّقَ الجاهلية المخزونةِ في كيانهم، في حين أن العبد في هذه

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٣) فالرب هو المالك الذي يدبر أمر مملوكه، ففيه معنى الملك، و معنى الملك الذي عندنا في ظرف الاجتماع هو نوع خاص من الاختصاص و هو نوع قيام شيء بشيء يوجب صحة التصرفات فيه، فقولنا: العين الفلانية ملكنا معناه: أن لها نوعا من القيام و الاختصاص بنا يصح معه تصرفاتنا فيها و لو لا ذلك لم تصح تلك التصرفات و هذا في الاجتماع معنى وضعي اعتباري غير حقيقي و هو مأخوذ من معنى آخر حقيقي نسميه أيضا ملكاً، وهو نحو قيام أجزاء وجودنا و قوانا بنا فإن لنا بصراً وسمعاً ويداً ورجلاً، ومعنى هذا الملك أنها في وجودها قائمة بوجودنا غير مستقلة دوننا بل مستقلة باستقلالنا و لنا أن نتصرف فيها كيف شئنا و هذا هو الملك الحقيقي. و الذي يمكن انتسابه إليه تعالى بحسب الحقيقة هو حقيقة الملك دون الملك الاعتباري الذي يبطل ببطلان الاعتبار و الوضع، و من المعلوم أن الملك الحقيقي لا ينفك عن التدبير فإن الشيء إذا افتقر في وجوده إلى شيء فلم يستقل عنه في وجوده لم يستقل عنه في آثار وجوده، فهو تعالى رب لما سواه؛ لأن الرب هو المالك المدبر و هو تعالى كذلك. تفسير الميزان، ج١ ص٢٤.

المفردة من الدعاء المبارك يتحرك من منظور أنه محتاج وصادق في دعواه بقرينة الكثير من المشكلات التي ألمّت به وسعى جاهداً أن يبثّها ويخاطب بها اللّه جل جلاله، وسيأتي الإقرار بعد برهة من الزمن، عندما يكوّن له قاعدةً إيمانيّةً، مبنيّةً على مفاهيم وأفكار نابعة من الدين المحمديّ الأصيل، يتحرك من خلالها نحو رضا اللّه تعالى.

فالعبد يخاطب اللّه تعالى قائلاً: إلهي جئتك بعد أن ذهب بيَ الإسراف والتقصير إلى مكان عميق وسحيق من الضياع، أقدم لك سيديّ العذر والندم وحالة الانكسار في القلب، الذي تولد منه الذل والخضوع لك مولايَ، على أن الإكتفاء بهذه المفردات، لا يمكن أن تُلبّي طموحاتي من دون الرجوع لك سيدي، حيث سيحقّقُ لديّ مفهومُ العودة، إنطلاقةً معنويةً تصنع التوجّهَ الفكريّ والثقافيّ، وتُشكِّلُ الهيكل الأرضي لكيان متأمل في الوقوف على الصراط المستقيم، وهذه العودةُ لك يا إلهي وسيدي منطلقة من موقع الإخلاص والصدق في نفسي، حيث لم أكن من الذين يتسلقون أكتاف الآخرين من أجل الحصول على امتيازات تقربني إليك من باب عدم العمل، ولا أريد أكون كالقوم الذين يتزلفون إلى السلطان العادل من أجل عطاء، وعند ما يعثرونَ على ما يريدون لا يتوجّهون إلى ذاك الباب المعطاء، «**فَانَّ قَوْماً آمَنُوا بِاَلْسِنَتِهِمْ لِيَحْقِنُوا بِهِ دِماءَهُمْ فَاَدْرَكُوا ما اَمَّلُوا، وَإنّا آمَنّا بِكَ بِاَلْسِنَتِنا وَقُلُوبِنا لِتَعْفُوَ عَنّا، فَاَدْرِكْنا ما اَمَّلْنا، وَثَبِّتْ رَجاءَكَ في صُدُورِنا، وَلا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ اِذْ هَدَيْتَنا، وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً اِنَّكَ اَنْتَ الْوَهّابُ**»(١).

مكانة مفهوم الانابة لدى الشارع المقدس

شكّلت الإنابة في القرآن مفردةً ضمن الكثير من المفردات التي خلقت الجيل المتصاعد نحو بناء الذات والكيان الإيماني، في حين أنها تتفوق رتبة على التوبة، على أن الأخيرة تمتلك الدرجة السامية في حضرة اللّه تعالى، إلّا أنها ليس لديها المقدرة في التجاوز والخروج عن موقع حدودها، في حين أن الإنابة تنظر من منظور

(١) مقطع من دعاء أبي حمزة الثما لي مفاتيح الجنان، ص ٢٦٩.

واسع جداً، بحيث يتعدّى المباحات، التي يجوز ارتكابها وفق ضابطٍ شرعيٍّ؛ لكن عند ما نتعمق في معنى المفهوم، نرى أنه يفرض الاجتناب حتّى عن المباح، وهي رتبة لم يصل إليها عنوان التوبة، ومن أجل ذلك يتجلّى لنا القرآن بصورة واضحة في وصفه مَنْ يتمتع بهذه الصفة الشريفة، حيث تأتيه البشارة من اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

تبيّن الآية: الكريمة الأساس الذي ينطلق منه العبد نحو الضفة الأخرى لنيل وجني الورع وثمار التقوى، وصناعة الإيمان، والتركيبة المناسبة للزهد في هذه الحياةَ الدنيا، ويشير صدر الآية: إلى مفهومين أساسيّين للتحرّك نحو البناء الفكري المبنيّ على أسس ومعادلات نابعة من المفاهيم التي أخذ الدين الإسلامي في نشرها وتبيّن مضامينها:

المفهوم الأول: التوبة، التي هي عنوان سام، وطريق للدخول في الكثير من مدركات الحياة بوجهها الحقيقي والصحيح، وتمثلت الآية: بوصفِ الابتعاد عن عبادة الطاغوت بشكل مطلق، والطاغوتُ هو مسمّىً له بُعده السلبي على مستوى البنية المعيشية لدى الفرد. وإنّ من مصاديقه طاغوت النفس الذي هو أبرز التكوينات على الإطلاق في صناعة الطواغيت، وجاءت التوبة عن هذه التوصيفات السلبية على مستوى الفكر والعمل، وهي (أيّ التوبة) مرتبة من ضمن الرتب الصاعدة إلى التكوين الإيماني.

المفهوم الثاني: الإنابة، وهي مرحلة تفوق التوبة، بمراتب عالية جدّاً، بقرينة الآية: الكريمة التي ذكرتها مباشرةً بعد الفراغ من جهد التوبة بشكل مناسب، وتطبيق كل التوصيات التي جاءت تحثُّ على الوصول إلى التوبة.

معنى الإنابة

ولكون العبد غير مُهيّأ للدخول إلى مرحلة ينعدم فيها الانحراف والانجراف

(١) سورة الزمر، الآية: ١٧-١٨.

عن المسار السليم، فهو يرتكب الذنب، ويعود بعد أن يدرك الجرم والعمل السلبي الذي أقدم عليه، وهكذا يسير به المطاف شيئاً فشيئاً، إلى أن تصل به النوبة إلى أن ينعدم عنده التفكير في الذنب (على مستوى الفكر) والذي سينعدم بعده بالنتيجة العمل في الواقع، على أن هذا التطور سيخلق له التوازن المعتدل في الحياة، الذي من خلاله سينعدم المباح من أمامه، من حيث العمل به، حيث سيجد من غير المصلحة الإقدام على المباح والعمل به، وهذا التوجه كما هو واضح يشير إلى العمق الإيماني الذي يتحلى به العبد المؤمن، وهو يقوم بالطاعة التي لطالما يشير إليها القرآن، ويصدح يرتلها الإنسان داعياً الفئات المؤمنة من القوافل الصاعدة إلى تلك المراتب والدرجات العالية، قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[١] بعد ذلك تصرح الآية: المباركة بالنتائج التي تترتَّب على هذين المفهومين من خلال البشارة لهذه الفئة من الأشخاص الذين كنتهم الآية: بعبادي؛ وهو توصيفٌ راقٍ جدّاً في الخطابات القرآنية، في حين أنّ الآية: الكريمة تُشيدُ بعدة مميزات وصفات تتمتع بها هذه الفئة المؤمنة، من حيث الاستماع إلى الخطابات التي تفوح منها المصلحة التي تنجيهم غداً من تلك الحسابات القاسية يوم القيامة، على أن التميّز والخصوصية هو عنوان متواجد في توصيف المتكلم[٢]، الذي يخضع لمنهجية متزنة ومعتدلة، قائمة على أسس

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٤.

(٢) قال الإمام الجواد عليه السلام: «**من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن اللّه فقد عبد اللّه، وإن كان الناطق ينطق عن لسان إبليس فقد عبد إبليس**» راجع تحف العقول، ص ٣٣٦. ينبغي أن نفهم وندرك هذا الحديث جيداً، ولا نتسرع في إصدار الأحكام جزافاً من غير تدبّر وتفكير، على أن هذا الحديث يدعو إلى الحذر من تلك الخطابات التي لديها أجندات ذات صبغة شيطانية، تهدف في الأساس إلى خلق كيان متجذّر مبنيّ على قواعد تصدير الشعارات التي تزرع البذور النتنة، والتي في جعبتها تلك الإيديولوجيات الداعية إلى التفرقة بين الأفراد والمجتمعات الإسلامية، في حين أن الإصغاء إلى مثل هذه الخطابات أو قراءة الكتب التي تحمل هذه المنهجية، مذمومان بلسان الحديث، بقدر ما ينبغي أن ندرك، أن الإنسان الذي لديه المقدرة على إصلاح الواقع والمجتمع، هو من يشير إليه عنوان الخطاب بالعبودية الحقة للّه تعالى، بخلاف المنظور الأول، فإنه خاضع لعبودية الشيطان، الذي يتمثل مصداقه في إبليس والإنسان الجائر على الآخرين وهذه النفس الإنسانية، وفي الواقع فإن الإصغاء إلى الناطق له من المصاديق الجمة، التي منها تلك الخطابات الخارجة من فوق المنابر الدينية، والتي تزرع الأفكار الهادمة، والتي في حقيقة الواقع هي خالية من أيّ خلفية علمية وفكرية، على أنها تُستعمل كورقة بيد طواغيت العصر، حتّى يتسنّى لهم تثبيت كراسيهم ومناصب السلطة على رقاب الناس.

الدعوة نحو بناء وتكوين الذات الإيمانية في نفس العبد المؤمن. والآية المباركة تفتح الباب للمؤمنين للولوج بقلوبهم عبر باب الخشية والورع والتقوى والتحلي بالزهد، وهي تحثهم على الارتقاء والترفع عن الكماليات في الدنيا بالقدر الذي يوضح عدم الاهتمام بها، وجعلها من الأشياء العارضة لا الذاتية.

وراثة الانابة المعنوية

من جانب آخر توفِّرُ الإنابةُ، المعرفة، التي ستورث النفس باباً ضخماً من السمات المعنوية، حيث سيتوجه العبد المؤمن من خلال الإنابة نحو الصراط المستقيم، وهو عنوانٌ سيخلق له الكثير من التبعات الإيجابية والحسنة في الأيام القادمة من عمره الوجودي في هذه الدنيا وفي تلك الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

الحفاظ على الكيان الأسري.

نلاحظ في صدر الآية: الكريمة أنّها تبيّن سلبيّة الخضوع لطاعة الوالدين، إذا كان المبنى العقائدي لهما قائماً على أرضية الكفر؛ ولكن في جانب آخر تحثُّ الآية: على تشييد كيان إيماني من خلال التوصية التي دعت العبد المؤمن، إلى ممارسة أبرز أعمال الإحسان والتوقير للأبوين في هذه الحياة الدنيا، في إشارة إلى الخلق والسماحة التي يتمتع بها المنهج الإسلامي القويم والتربية التي يذوبها في المعتنقين لهذا المنهج الشريف، ثم تأمره الآية: الكريمة بالأخذ بالإيجابية والسير خلف من اتخذ الصراط المستقيم، طريقاً وهدفاً يصل من خلاله إلى رضوان اللّه تعالى، على أن يكون السالك المؤمن مالكاً لأدوات الوعي ووسائل المعرفة، ليغلّب على كل المعوقات التي سوف تقف في طريقه نحو الوصول إلى الصراط المستقيم.

على أن الوصول إلى مثل هذه المراتب العليا يلزم أن يمرَّ على عدة تنقيات،

(١) سورة لقمان، الآية: ١٥.

تكون بمثابة المصفاة التي تُصَفّي الكدورات والشوائب الجاثمة على القلب، التي تمنع من التحرك نحو تلك الفضاءات المعنوية، والتي من ضمنها اجتناب المعاصي والاستغفار من الذنوب والآثام، وتجنّب كلّ ما يبعد العبد الصالح عن الساحة الإلهية، والعزم على تأدية الفرائض والواجبات التي فرضها اللّه تعالى عليه، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾[(١)].

الآية: المباركة تقول: ليس بالضرورة أن يكونَ العيبُ صادراً من المبلّغ والداعية بقدر ما يحمل الطرف الآخر من الجهل والعناد والتعصب والغشاوة على قلبه، وهو العنوان والسبب الرئيس لعدم وصول الهداية إلى قلبه، وإلا فإن المبلّغ يبدل الجهد الذي يبلغ أسلوبه وكيفيته مدارج المهديّين؛ لكن العبد لا يؤثر فيه، لماذا؟ لأن الأرضية القلبية غير مهيأة لاستقبال الهداية، وذلك لوجود تلك الشوائب المهيمنة على تلك الأرضية، وعدم الامتثال لأداء الفرائض والواجبات الموجّهة إليه من قبل اللّه تعالى بالضابط الشرعي.

أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الهداية

بينما يستخدم القرآن الكريم أسلوباً لطيفاً في الدعوة إلى عدم اعتبار القنوط كأحد المحفزات التي تبعثُ على اليأس والتخاذل، حيث يرفع الوتيرة إلى التمسك بالإنابة إلى اللّه تعالى كأحد النقاط الإستراتيجية، والتي ستخلق للعبد المؤمن معادلاتٍ متوازنةً في تعامله مع الحياة الدنيا، وتحثه إلى التكيُّف مع مقتضيات الرحمة الإلهية، وعدم النظر إلى الدنيا كفاعل سلبي محبط يركز على النقاط الضعيفة، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٢)] هذه الآية: المباركة طرحت الكثير من المواد ذات الأهمية والتي تحمل الفوائد الجمّة، بينما تسعى إلى بث الثقة في نفوس العباد المؤمنة، وأن يبتعدوا عن مضمار القنوط من رحمة اللّه عزَّ وجلَّ،

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٧

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣

على أن الحث على الإنابة هو الطريق المستقيم، والجدار الصلب أمام تلك الصفة السلبية، ومن هنا نرى أن أسلوب الأئمّة المعصومين عليهم السلام يسير على هذا المنهج القرآني بكل حذافيره.

أهل البيت عليهم السلام نموذجاً في أسلوب الهداية

حيث كان الزهري عاملاً لبني امية فعاقب رجلا فمات الرجل في العقوبة، فخرج هائما وتوحّش ودخل إلى غار، فطال مقامه تسع سنين، قال: وحج علي بن الحسين عليه السلام فأتاه الزهريُّ فقال له علي بن الحسين عليه السلام: «**إني أخاف عليك من قنوطك ما لا أخاف عليك من ذنبك، فابعث بدية مسلمة إلى أهله، واخرج إلى أهلك ومعالم دينك**»، فقال له: فرجت عني يا سيدي! اللّه أعلم حيث يجعل رسالاته ورجع إلى بيته، ولزم علي بن الحسين، وكان يُعدُّ من أصحابه، ولذلك قال له بعض بني مروان: يا زهري ما فعل نبيك؟ يعني علي بن الحسين عليه السلام[١].

هذا الزهري[٢] كان عالماً لبلاط بني أمية، فهو يلبي ما تشتهي أنفسهم، ويصدر الأحكام التي ترتاح به نفوسهم، وقد وجه الإمام زين العابدين عليه السلام كتاباً[٣] يحذره فيه من الولوغ في قبضة الظالمين، مع ما يحمل من المكانة الاجتماعية والدينية عند أتباعه، إلا أنه لم يحمل هذه المواعظ والإرشادات التي كان يبثها الإمام السجاد عليه السلام، على محمل الجدّ، وكان من أثرها هذه الحادثة المأساوية، التي أودت بحياة نفس من

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦ ص ١٣٢ باب٨ ح٢٢.

(٢) محمد بن مسلم بن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن شهاب الزهري على ما يظهر من كتب التراجم من المنحرفين عن أمير المؤمنين وأبنائه عليهم السلام كان أبوه مسلم مع مصعب بن الزبير وجده عبيد اللّه مع المشركين يوم بدر وهو لم يزل عاملا لبني مروان ويتقلّب في دنياهم، جعله هشام بن عبد الملك معلم أولاده وأمره أن يُملي على أولاده أحاديث فأملى عليهم أربعمائة حديث. وأنت خبير بأن الذى خدم بنى أميّة منذ خمسين سنة ما مبلغ علمه وماذا حديثه ومعلوم أن كل ما أملى من هذه الاحاديث هو ما يروق القومَ ولا يكون فيه شئ من فضل عليٍّ عليه السلام وولده ومن هنا أطراه علماؤهم ورفعوه فوق منزلته بحيث تعجب ابن حجر من كثرة ما نشره من العلم. صاحب تنقيح المقال (ره) – عن جرير بن عبد الحميد عن محمد بن شيبة قال: شهدت الزهرى و عروة بن الزبير في مسجد النبي صلى الله عليه وآله جالسين يذكران علياً عليه السلام ونالا منه فبلغ ذلك عليّ بن الحسين عليه السلام فجاء حتى وقف عليهما فقال: «**أمّا أنت يا عروة فإنّ أبي حاكم أباك إلى اللّه فحكم لأبي على أبيك وأمّا أنت يا زهري فلو كنت بمكة لأريتك كرامتك**».

(٣) راجع تحف العقول، ص ١٩٦.

المسلمين، حيث تعمقت هذه الحادثة الدموية ووصلت إلى شرايين الضمير، فجعلته خائفاً من العمل الذي أقدم عليه وهام في الصحراء، حيث لم يطب له مكانٌ إلّا في الغار، وظلّ بعيدا عن أنظار الناس، إلى أن جاء عليّ بن الحسين السجاد عليه السلام حاجّاً، حيث الزهريّ عزم على القصد إلى الإمام، فوجَّهه الإمام عليه السلام، قائلاً ما معناه: إني أخاف عليك من أن تفقد الوسيلة التي تكفل بها الدين لإخراجك من الورطة التي وقعت فيها، وأن يأخذ القنوط المكان المناسب في قلبك، فلا تدع الاستغفار والتوبة إلى اللّه تعالى منيباً إليه، وأما بشأن القتيل الذي مات تحت يديك، فإن الدية أبرز مكامن الحل لها، وارجع إلى أهلك وأولادك، واشتغل بالمعالم التي أوجبها الدين عليك من فرائض وواجبات، وتجنب المحرمات والمكروهات.

وقد استفاق الرجل من الورطة التي عزم على الوقوع فيها بسبب الجهل الذي كان يعيش في داخله، ورجع إلى حيث توجيه الإمام عليه السلام. وبحسب هذه الرواية (والعهدة عليها) فإنه أصبح من المقربين إليه ومن الملازمين لمجلسه الشريف.

والهدف من سرد الرواية هو توضيح الأساليب التي كان يبثها الأئمّة عليهم السلام لرفع الناس من مستنقعات الذنوب إلى أوج التقرب والإنابة إلى اللّه تعالى.

وهذه رواية أُخرى تدنينا أكثر إلى حضرة اللّه تعالى وتقربنا إليه على كل الأحوال فعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما واللّه إنها ليست إلا لأهل الإيمان**». قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟ فقال: «**يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر اللّه تعالى منه ويتوب ثم لا يقبل اللّه توبته؟**» قلت: فإنه فعل ذلك مراراً يذنب ثمّ يتوب ويستغفر، فقال: «**كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد اللّه عليه بالمغفرة وإن اللّه غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تُقنطَ المؤمنين من رحمة اللّه**»(١).

(١) بحار الأنوار، ج٦ ص٤٠ باب ٢٠ ح٧١.

وقال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام في وصية له إلى الإمام الحسن عليه السلام: «وَاعْلَمْ، أَنَّ الَّذي بيَده خَزَائنُ السَّموَات وَالأَرْض قَدْ أَذنَ لَكَ في الدُّعَاء، وَتكَفَّلَ لَكَ بالإجَابَة، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ ليُعْطيَكَ، وَتَسْترْحمَهُ ليَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجئْكَ إلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إلَيْه، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إنْ أَسَأْتَ منَ التَّوْبَة، وَلَمْ يُعَاجلْكَ بالنِّقْمَة، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بالإنَابَة، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضيحَةُ بكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشدِّدْ عَلَيْكَ في قَبُول الإنَابَة، وَلَمْ يُنَاقشْكَ بالْـجَريمَة، وَلَمْ يُؤْيسْكَ منَ الرَّحْمَة، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَن الذَّنْب حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عشْراً، وَفَتحَ لَكَ بَابَ الْـمَتَاب، فَإذَا نَادَيْتَهُ سَمعَ ندَاكَ، وَإذَا نَاجَيْتَهُ علمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إلَيْه بحَاجَتكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسكَ، وَشَكَوْتَ إلَيْه هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُوركَ، وَسَأَلْتَهُ منْ خَزَائن رَحْمَته مَا لا يَقْدرُ عَلَى إعْطَائه غَيْرُهُ، منْ زيَادَة الأَعْمَار، وَصحَّة الأَبْدَان، وَسَعَة الأَرْزَاق. ثُمَّ جَعَلَ في يَدَيْكَ مَفَاتيحَ خَزَائنه بمَا أَذنَ لَكَ فيه منْ مَسْأَلته، فَمَتَى شئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بالدُّعَاء أَبْوَابَ نعَمه، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبيبَ رَحْمَته، فَلا يُقَنِّطَنَّكَ إبْطَاءُ إجَابَته، فَإنَّ الْعَطيَّةَ عَلَى قَدْر النِّيَّة، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإجَابَةُ، ليَكُونَ ذلكَ أَعْظَمَ لأَجْر السَّائل، وَأَجْزَلَ لعَطَاء الآمل، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلا تُؤْتَاهُ، وَأُوتيتَ خَيْراً منْهُ عَاجلاً أَوْ آجلاً، أَوْ صُرفَ عَنْكَ لمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْر قَدْ طَلَبْتَهُ فيه هَلاَكُ دينكَ لَوْ أُوتيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالْـمَالُ لا يَبْقَى لَكَ وَلا تَبْقَى لَهُ»(١).

هذه الفقرة من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام تحمل الكثير من المفاهيم التي نحن بحاجة إليها في هذا الوقت أكثر من غيره، فهي ستصنعُ لنا الجيل الواعيَ والمدرك لمتطلبات الحياة الدنيا، في حين أنّه سيتكمل نسيجُ العُلقةِ الإيمانيّة بين الإخوان في الدين الواحد.

ويتحرك العبد من جديد سالكاً الطريق الصحيح، حيث يطرق باباً آخر محاولاً من خلال ذلك إبراء ذمته، حيث يقول: جئتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي معتذراً نادماً منكسراً مستغفراً منيباً.

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج ١٦ ص ٦٩-٧٠.

مقراً مذعناً معترفاً:

بهذه العناوين يغلق العبد السلسلة، التي يمكن أن نطلق عليها، السلسلة التي روّضَت نفس العبد للالتزام بمسار أكثرَ تصلّباً في اتّباع المنهج الإسلامي، حيث فتحت له أبواباً واسعةً من الَحرية الًمعتدلة، والتي مكّنته من أن يخلق كياناً مستقلاً في تناول الأطروحات ورفضها، من غير أن يجبروه على قبول أيّ أحد، ومن خلال هذه السلسلة الترويضية، سينطلق العبد لأن يوجدها على أرض الواقع، حيث المعاشرة مع الناس، إذ لا استكبار ولا تعالي على الآخرين من خلال المناصب السيادية، ناهيك عن التكيُّف الذي حدث مع الذات، على أن يكون الفارق هو التصغير في النفس، عند ما يوجد مكانة عالية بين الناس.

قال الإمام السجاد زين العابدين عليه السلام: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَ لَا تَرْفَعْنِي فِي النَّاسِ دَرَجَةً إِلَّا حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَ لَا تُحْدِثْ لِي عِزّاً ظَاهِراً إِلَّا أَحْدَثْتَ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهَا**»(١).

التعامل مع الآخرين.

هذا المقطع من الدعاء يركز على مبدأ التوازن في التعاطي مع الآخرين من المؤمنين، على أن الانحطاط مفهوم لا ينبغي أن يَصُبَّ في المفاهيم المتداولة في أجنداتنا في هذا اليوم، حيث السلوكيات الأخلاقية؛ وإنما هو التمازج المترابط بين حلقات تلك السلسلة التي تناولنا مفاهيمها واحدة تلو الأخرى، والتي تدعو إلى عدم إظهار عنوان الاستكبار في الواقع الداخلي، حيث القلب، لئلا تتكتل بصورة سلوكية في الواقع الخارجي، ولذا فهو ترويضٌ متقوّم باعتبار أن الناس متساوون فيما بينهم، لا يوجد فرق في التعامل بينهم، فهم مثل المشط، وهذا هو ديدن أهل البيت عليهم السلام في تربية القواعد الشعبية الموالية لهم سلام اللّه عليهم.

فقد رُوي عن محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: دخل محمد بن مسلم بن شهاب الزهري على علي بن الحسين عليه السلام، وهو كئيب حزين فقال له زين العابدين عليه السلام.

(١) الصحيفة السجادية، ص٨٦ دعاء مكارم الأخلاق (٢٠).

«**ما بالك مغموما؟**» قال: يا بن رسول اللّه غموم وهموم تتوالى علي لما امتحنت به من جهة حُسّاد نعمي، والطامعين فيَّ، وممن أرجو، وممن أحسنت إليه، فيخلف ظني. فقال له علي بن الحسين ﷺ: «**إحفظ عليك لسانك تملك به إخوانك**». قال الزهري: يا بن رسول اللّه إني أحسن إليهم بما يبدر من كلامي. قال علي بن الحسين ﷺ: «**هيهات هيهات! إياك أن تعجب من نفسك بذلك وإياك أن تتكلم بما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره، فليس كل من تسمعه شرا يمكنك أن توسعه عذرا**». ثم قال: «**يا زهري من لم يكن عقله من أكمل ما فيه كان هلاكه من أيسر ما فيه**». ثم قال: «**يا زهري أما عليك أن تجعل المسلمين منك بمنزلة أهل بيتك فتجعل كبيرهم بمنزلة والدك، وتجعل صغيرهم بمنزلة ولدك، وتجعل تربك منهم بمنزلة أخيك، فأيَّ هؤلاء تُحبُّ أن تظلم، وأيّ هؤلاء تحب أن تدعو عليه، وأيّ هؤلاء تحب أن تهتك ستره، وإن عرض لك إبليس لعنه اللّه بأن لك فضلا على أحد من أهل القبلة، فانظر إن كان أكبر منك فقل: قد سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإن كان أصغر منك فقل: قد سبقته بالمعاصي والذنوب فهو خير مني، وإن كان تربك فقل: أنا على يقين من ذنبي في شك من أمره فما لي أدع يقيني لشكي، وإن رأيت المسلمين يعظمونك ويوقرونك ويبجلونك فقل: هذا أفضل أخذوا به، وإن رأيت منهم جفاءً وانقباضاً فقل: هذا الذنب أحدثته، فإنك إذا فعلت ذلك سهل اللّه عليك عيشك، وكثر أصدقائك، وفرحت بما يكون من برّهم، ولم تأسف على ما يكون من جفائهم. واعلم أن أكرم الناس على الناس من كان خيره عليهم فايضاً، وكان عنهم مستغنياً متعففاً، وأكرم الناس بعده عليهم من كان مستعففاً، وإن كان إليهم محتاجاً، فإنما أهل الدنيا يتعقبون الأموال، فمن لم يزدحمهم فيما يتبقونه كرم عليهم، ومن لم يزاحمهم فيها ومكنَّهم من بعضها كان أعز وأكرم**»[١].

إن التعاليم التي تحاول هذه الرواية، أن تنشئها في قلوب القاعدة الشعبية التابعة لأهل البيت ﷺ، سوف تكون النموذج والمثل العليا، في تمثيل الشريعة المحمدية

(١) الاحتجاج ج ٢، ص ٤٥-٤٦.

الأصيلة، والتي ستتجاوز حدود القاعدة الشعبية الموالية لأهل البيت عليهم السلام، لتصل إلى التعامل مع المخالفين من إخوانهم في الدين الواحد، لتخلق التيار الذي يقف في وجه أعداء الإسلام. نلاحظ من خلال الرواية، أنها تدعو إلى المحبة والمودة من خلال الإبتعاد عن أماكن الخلل الذي يمكن أن يحدثه التعالي على الآخرين، والنظر إليهم على أنهم عبيد، فالرواية تركز على توصيف العلاقة بين الإنسان وبين الأفراد الآخرين، في حين اعتبرت أن من يكبره يكون بمثابة الوالد، ومن يصغره بمنزلة الولد الذي خرج منه، ومن يساويه في العمر بمثابة الأخ، وهذه التوصيفات مخالفةٌ لحركةِ الظلم والتعسف بحسب الحياة الطبيعية(١).

لكن الإنسان يظنُّ أن هذا التقسيم لا يمكن أن يُقبَل بسبب الحياة المعقّدة داخلِ البيت العائلي، فهو لن يستوعب هذه التعاليم، من هنا يُفصّل الإمام عليه السلام محاولاً توجيه العبد نحو البوابة الأكثر تقبلاً وملامسةً للإحساس والشعور القلبي، من خلال مخاطبة الروح التي تمكّنه من أن يتواضع أخلاقياً وتربويّاً مع الآخرين، ناهيك عن التكيّف الذاتيّ الذي سوف يتشكل من خلال أسلوب وكيفية المخاطبة، حيث أرشده إلى أن من يكبرك من الناس بشكل عام، هو بمثابة والدك، حيث أنّه تقدم عليك بخطوات كثيرة في نيل الحسنات والدرجات العالية عند اللّه تعالى، وهو منذ زمنٍ بعيد أتى بما يؤهله للوصول إلى تلك المقامات والرتب عند اللّه تعالى، حيث العملٍ الصالح كان دأبه في الحياة، ولذلك فهو خيرٌ منك، بينما الإنسان الذي يصغرك سناً، فهو لا يزالُ في طراوة عمره غير مهيّأ لاكتساب المعاصي، وقل: (وأنا الذي أكبره في العمر، والذي أمتلك الوعي الكافي في الحياة، قد دخلتُ مستنقعات الذنوب والمعاصي من أوسع أبوابها) على أن من يساويك في العمر إذا رأيته، فلا تحدثك نفسك أنك أفضل منه، فإنك على يقين من ذنوبك ومعاصيك، وعلى شك منه مما أنت فيه من المعاصي والذنوب، فبأيّ فضلٍ تتكلم عن نفسك؟!

إلا أن هذه المرحلة لن يصل إليها العبد إلا بعد أن يرمم الخراب الذي أحدثته

(١) أما الذين يخرجون عن هذه المعادلة، كأن يظلموا هذه الفئات، فهم خارجون عن الحالة الطبيعية، وداخلون في كهف الظلام في نفوسهم، حيث من دخله وجدناهُ ممقوتاً من قبل الناس.

تلك الحقب المليئة بالذنوب والمعاصي والآثام، وكونت الجدار بينه وبين اللّه تعالى.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللّه أَصْلَحَ اللّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس، وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللّهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللّهِ حَافِظٌ**»(١).

فالذي يضع برنامجاً للإصلاح، لغاية تلميع صورته المشوهة بين الناس، لا بدّ من أن يضع نصب عينيه الإصلاح بينه وبين اللّه تعالى، ذلك، لأن الإصلاح الحقيقي، لا يقوم على أرضية رخوة ومتهرئة، قد مضت على فسادها الحقب والسنوات، وتعمّقت في مفاصلها الضيقة تلك الآثار من الذنوب والمعاصي، والتي تحتاج إلى أن يُبدِيَ العبد كامل رغبته في البراءة منها من خلال العزم والحزم.

وقد تقدم من العبد، كيف أنه من خلال التقصير والإسراف، قد جُرَّ إلى أماكن لا ينبغي التوجه إليها، الأمر الذي أحدث شرخاً سحيق العمق بينه وبين اللّه تعالى، وحتى يعدم العبد هذا الشرخ الهائل، كان لا بدّ له من أن يتحرَّك إلى تلك العوامل والأدوات، التي تساعده على ترميم ما هدمته السنوات المنفلتة، والأيام التي خرجت عن حدّ المسؤولية، وحتى يكون التوجه إلى اللّه تعالى خالصاً لا يشوبه الريب والشك، كان لا بدّ له من أن يقدم الاعتذار والندم والانكسار والاستقالة من الذنوب، والاستغفار الذي يمهدّ للدخول إلى مرحلة أكثر نشاطاً وحيويّةً، والإنابة التي هي مفتاح أساسيٌّ للولوج إلى ساحة اللّه المقدسة. وبعد ذلك، لا يقترب العبد من تلك الساحة، إلّا من خلال تقديم وثائق الإقرار والإذعان للّه تعالى والاعتراف بتلك الذنوب المرتكبة، فهو يقف أمام اللّه تعالى بقلب وجل مخاطباً إياه قائلاً: وقد توجهت إليك يا إلهي بعد جريمة التقصير في أعمالي، والإسراف السلبي الذي رجعت مصائبه عليّ فيما بعد، معتذراً نادماً منكسراً مستقيلاً مستغفراً منيباً، مقراً بتلك الأعمال التي جرَّتْ عليّ الويلات ومكّنت هذه النفس من السيطرة عليّ،

(١) نهج البلاغة الحكمة، (٨٩)، ص ٧٠١.

ومذعناً، لأيّ توجيه توجّهني فيه لأنك منبع الصلاح والخير، ومعترفاً بكل دورٍ قمتُ به بكامل إرادتي ورغبتي، حيث خلّفت هذه الإرادة والرغبة الكمَّ الهائل من الذنوب والجبال الشامخة من الآثام والمعاصي، وبهذه تكتمل الحلقات المفقودة من السلسلة، التي أردتُ أن أقدمها لك سيدي بكاملها خالصة من القلب لا يشوبها الريب والشك، وأنت أعلم بحقائق الأمور لأنك علّام الغيوب.

والملاحظ أنّ العبد يُقدِّم كامل التنازلات، التي تحمل طابع الذلِّ والخضوع، ولا يتجلّى في الواقع أيّ نوع من أنواع وأساليب الضغط المتولد من الإكراه بالإقرار والإعترافات، الجارة للإنقياد والإذعان، على أن الإقدام على الإقرار تحت الضغط والإكراه، لا يُعتدّ به بحسب المشرّع الإسلامي و معظم القوانين الدولية.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**من أقرّ بحدٍّ على تخويف أو حبسٍ أو ضرب، لم يجز ذلك عليه، ولا يحدّ**»(١).

وهنا العبد لم يتعرض لمثل هذه الأساليب وإنما يتمُّ ذلك منه، وهو يحمل كافة الصلاحيات والوسائل، من الإختيار والحرية، وهو مفكوك اليدين غير مقيدتين، في حين يجيء هذا الإقرار من لسانه، عند حاكم عادل، كعلامة افتخار يتغنّى بها أمام اللّه تعالى غداً يوم القيامة.

وذلك كم يُبيِّن أمير المؤمنين عليه السلام عند ما سئل عن الإيمان فأجاب: «**الإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ**»(٢).

يضع الإمام عليه السلام الأسس الصاعدة لبناء الشخصية المؤمنة، والتي تستند على دعائم وركائز من المفاهيم مثبتةٍ في القرآن، في حين أن الإقرار بتلك الأسس، يتبعه العمل بالركن الذي هو روح الدين، وهو منبع الإيمان، الذي سيكون ناتجاً عن معرفة بالقلب، في حين أن هذه المعادلة تركز لنا مدى التوافق المترابط بين الإيمان بالقلب والإقرار والعمل على الوجه الواقعي.

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١٦، ص ٣٢ باب ٣ من كتاب الإقرار ح١ تسلسل ١٩٠٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ج ١٩ ص٣١ رقم الحكمة (٢٢٣).

على أن المؤمن له الخصوصية من الكرامة والعزة عند الإسلام، على حين أنه لا يخضع لقوالب الكذب، حتى لو تجمعت عليه سبعين من الألسن المؤمنة، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**المؤمن أصدق على نفسه من سبعين مؤمناً عليه**»(١).

ولكنّ العبد لم يخلص إلى باب أكثر أماناً من ذلك الباب الذي سيعمد إلى بثِّ روح الإطمئنان والراحة في نفسه عنده فهو يقول:

لا أجد مفراً ممّا كان مني:

لم يكن العبد في وارد العبث واللهو، عند ما أورد تلك الحلقات التسع، التي كونت نسيجاً مترابطاً بشكل تراتبي، حيث قدم الاعتذار وبعد ذلك مال نحو الندم، وعززه بالانكسار، الذي مثّل الباب الواسع المفتوح أمام العبد ليلج في فضاء المعنوية والروح، ومن ثمّ أخذ يسرد تلك السلسلة الترويضية، التي هيّأت له المسار والصراط المستقيم، الذي ينبغي أن يتخذه طريقاً ومعلماً ينهل منه التعاليم، وأن يكيِّف هذه النفس مع طبيعة هذه التعاليم، في حين أن هذه الإنطلاقة شكلت الدافع الأساس لأنْ يُصرِّح العبد بما يختزنه من قناعات لا يستطيع أن يتهرب منها، مهما كانت المحفزات التي تجعله ينحرف عن هذا المسار أو يتخذ منعطفات تهدف إلى دفن ما لا يمكن أن يدفن برمال العصبية أو وضعه في مخازن النسيان، أو استخدام قانون استغفال الآخرين، برفع راية المظلومية، في حين أن يديه شاهدتان على كل الجرائم في تلك الفترة الماضية من السنين، في وقت كان هو العمود الأساس الذي يحمي الخيمة من السقوط، والذي كان بمقدوره أن يؤسس فيه تلك المنظمات ذات الأهداف التوعوية التي تركز على تربية الشباب والفئات المتنامية من الناشئة.

الاتصال مع اللّه تعالى

ولذا فإن التحرك عكس اتجاه التيار الطبيعي الذي أراده اللّه تعالى يؤدي في نهاية الأمر إلى تحصيل نتائج ترجعُ سلبيّتُها وخيمة على العبد نفسه، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ

(١) ميزان الحكمة، ج٨ ص٣٣٦٨.

قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] تشير الآية: المباركة إلى أن الارتكاز على مبادئ من صنع الإنسان قائمة على بنية هشة سيؤدي إلى تدمير تلك البنية بكل سهولة، في حين أن الاعتماد على قوة خارجة عن حدود بني البشر سيؤدّي إلى تحصيل نتائج ترجع إيجابياتها على الإنسان وقومه، فالآية تحاول أن تسرد لنا نموذجاً من صنع الإنسان، وهو فرعون الذي حكم بالنار والحديد، وقد أسس جيشاً قويّاً بكلّ معدّاته الحربية والعسكرية (وكذلك جيوش اليوم المزوّدة بالعُدد والقطع من الدبابات والصواريخ والقنابل التي تحرق الأرض أضعافاً مضاعفة) إلّا أن هذه القوة ستدمّر لأوّل هجمة من الطرف الآخر، لأن الأخير لديه قوة أيضاً، لكنها ليست بالجيوش والجنود المدججين بالأسلحة والمعدات العسكرية، وإنّما هو مزود بقوة خارجة عن حدود وسيطرة الإنسان، فهو متمسك بالجبروت والعظمة الإلهية، على أن فرعون سوف تشكل هذه القوة له منعطفاً سلبياً يهدد أهدافه الإستراتيجية التي رسمها منذ زمن بعيد، وسيجد نفسه محاطاً بهذه القوة، حيث لا حيلة له ولا قوة، عند وقوعه في دوامة الضغط، وستتمكن أجندات التنازل من أن تحل مكان تلك القوة والبهرجة العسكرية، حيث ستذهب كل تلك التي كان يعتمد عليها في السابق إلى رفوف التاريخ وبطون الكتب، حيث ليس في وارد المصلحة لا من قريب ولا من بعيد، الحال الذي سوف يصور له كل هذه المنجزات التي أخذ يؤسس لها منذ أمدٍ بعيد، فإذا هي على أنها خسارة وخيمة في المنظور المستقبلي، بحيث تجره إلى الاستسلام للقوة الربانية بعد أن نفذت كلُّ الوسائل المتاحة أمامه، وبعد أن عجز عن إيجاد الجهة التي تنقذه من هذه الورطة التي وقع فيها، حيث المياه تكاد تطبق على أنفاسه، كل هذه الأسباب جعلت هذا الرجل الفرعوني، يقرّ مذعناً بجبار السموات والأرض وخالق الوجود اللّه تعالى إلهاً واحداً، ويكون تابعاً ومرغماً لنبي اللّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلّا أن هذا الإقرار والتوبة لم يكن مقبولاً في المنظور القرآني، لكونه جاء متأخراً وفي وقت ليس فيه قناعة، وإنما لكي يحمي نفسه، وبعد أن استنفد كلّ الوسائل التي كانت تحت يديه، فما

(١) سورة يونس، الآية: ٩٠.

كانت هذه التوبة مقبولةً عند القران، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

فالآية تشير إلى أن المعيار في قبول التوبة، هو أن المرء الذي يقدم على العمل السيئ بجهالة، حيث لا تتوفر لديه وسائل الهداية، وأماكن الإرشاد والتعليم، فمثل هذا المرء تقبل التوبة منه، على أن تكون التوبة من قريب قبل أن تتجلّى علامات الموت، الذي سوف يكون مانعاً من قبول التوبة حينئذ، كما هو الآن فرعون عندما رأى علامات الموت قد دنت منه، فأقرّ بالتوبة والتبعيةً للنبي عليه السلام إلّا أنّ اللّه تعالى لم يقبل منه تلك التوبة قال تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[2] فالتوبة لها شروط وضوابط يسير عليها الإنسان عند ما يعزم على الدخول إليها، وقد أشارت إلى ذلك الآيتان المتقدمتان.

استدراك العبد

يستدرك العبد عند ذيل هذه الفقرة من الدعاء المبارك، وقبل أن تدركه تلك المؤشرات التي تُنبئ عن اقتراب علامات الموت، وخصوصاً أنه لا يزال يمتلك تلك القدرة الجسدية والعقلية والنفسية، ليعبّر عما يدور في داخله الضميري، حيث يبيِّنُ على أنّه وقع في بئرٍ عميق من المعاصي وكثرة الذنوب، حيث لا يمتلك المقدرة على الفرار من هذه العوائق والمطبات السحيقة التي أوقع نفسه بيديه فيها، حيث يصور نفسه بأنّه محاطٌ بكمٍّ هائلٍ من الذنوب، وأنه الآن تطوقه وتلتفُّ عليه من كلِّ مكان، فلا ملجأ يلجأ إليه منَ هذه الورطة الكبيرة، إلا من خلال لطف ورحمة اللّه تعالى المتمثل في قبول كل هذه السلسلة الترويضية التي تقدم بعرضها أمام اللّه تعالى، والتي في مقدمتها الاعتذار، وحيث يصور أنه لا

(١) سورة النساء، الآية: ١٧-١٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩١-٩٢.

مجال لأن يفرّ من كل ما قام به، فإنه من جانبٍ آخـر لا توجد تلك الجهة التي تقبله كرجلٍ هرب من مصيره الحتمي، ولا توجد تلك الجهة التي تساعده عند الفزع إليهاً، وتحاول أن ترفع عن كاهله تلك الذنوب والآثام، فإنها سوف تكون مشتغلة عنه حينئذٍ بنفسها غداً يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾(١) فالعبد يطلب من اللّه تعالى في ذيل الفقرة أن يسامحه ويصب عليه من شآبيب الرحمة والمغفرة والرضوان، وأن يمطر عليه من لطائف رحمته التي وسعت كل شيء.

التأكيد على الاعتذار، والاعتراف بالنعم

«اَللّـهُمَّ (اِلـهي) فَاقْبَلْ عُذْري وَارْحَمْ شِدَّةَ ضُرّي وَفُكَّني مِنْ شَدِّ وَثاقي»

القَبْلُ: الجوهري: قَبْلُ نقيض بَعْد.(٢)

القَبْلُ: قبل يستعمل في التقدم المتصل والمنفصل، ويضاده بعد، وقيل: يستعملان في التقدم المتصل، ويضادهما دُبْرٌ ودُبُرٌ. هذا في الأصل وإن كان قد يتجوز في كل واحد منهما. (فقبلُ) يستعمل على أوجه:

الأول: في المكان بحسب الإضافة، فيقول الخارج من أصبهان إلى مكة: بغداد قبل الكوفة، ويقول الخارج من مكة إلى أصبهان: الكوفة قبل بغداد. الثاني: في الزمان نحو: زمان عبد الملك قبل المنصور، قال: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾(٣). الثالث: في المنزلة نحو: عبد الملك قبل الحجاج. الرابع: في الترتيب الصناعي. نحو تعلُّمُ الهجاء قبل تعلُّمِ الخطّ، وقوله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾(٤)

(١) سورة المعارج، الآية: ١٠-١٤.
(٢) لسان العرب، ج ١١ ص٥٣٦ مادة «قبـل».
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩١.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٦.

وقوله: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾[١]، ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[٢]، ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾[٣]، فكلٌّ إشارةٌ إلى التقدم الزماني[٤].

الضُّرُّ: في أَسماء اللّه تعالى النَّافعُ الضَّارُّ وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأَشياء كلِّها خيرها وشرّها ونفعها وضرّها. الضَّرُّ والضُّرُّ لغتان ضدُّ النفع والضَّرُّ المصدر والضُّرّ الاسم وقيل هما لغتان كالشَّهْد والشُّهْد فإِذا جمعت بين الضَّرّ والنفع فتحت الضاد وإِذا أَفردت الضُّرّ ضَمَمْت الضاد إِذا لم تَجعله مصدراً كقولك ضَرَرْتُ ضَرّاً هكذا تستعمله العرب.[٥]

الضُّرُّ: سوء الحال؛ إمّا في نفسه لقلة العلم والفضل والعفّة؛ وإمّا في بدنه لعدم جارحة ونقص؛ وإمّا في حالة ظاهرة من قلّة مال وجاه، وقوله: ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾[٦]، فهو محتمل لثلاثتها، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾[٧]، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[٨]، يقال: ضَرَّهُ ضُرّاً: جلب إليه ضُرّاً، وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذًى﴾[٩] ينبّههم على قلّة ما ينالهم من جهتهم، ويؤمّنهم من ضرر يلحقهم نحو: ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾[١٠]، ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا﴾[١١]، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[١٢] وقال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾[١٣]، وقال: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ

(١) سورة طه، الآية: ١٣٠.
(٢) سورة النمل، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الحديد، الآية: ١٦.
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٥٣ مادة «قبل».
(٥) لسان العرب، ج٤ ص٤٨٢ مادة «ضرر».
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٨٤.
(٧) سورة يونس، الآية: ١٢.
(٨) سورة يونس، الآية: ١٢.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ١١١.
(١٠) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(١١) سورة المجادلة، الآية: ١٠.
(١٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(١٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾[١]، وقوله: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾[٢]. فالأول يُعنى به الضُّرُّ والنفعُ، اللذان بالقصد والإرادة، تنبيهاً أنه لا يقصد في ذلك ضرّاً ولا نفعاً لكونه جماداً. وفي الثاني يريد ما يتولَّد من الاستعانة به ومن عبادته، لا ما يكون منه بقصده، والضرّاء يقابل بالسرّاء والنعماء، والضرُّ بالنفع[٣].

الفكك: التفريج، وفكُّ الرهن: تخليصه، وفكُّ الرقبة: عتقها. وقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[٤]، قيل: هو عتق المملوك، وقيل: بل هو عتق الإنسان نفسه من عذاب اللّه بالكلم الطيب والعمل الصالح، وفكُّ غيره بما يفيده من ذلك، والثاني يحصل للإنسان بعد حصول الأول، والفكك: انفراج المنكب عن مفصله ضعفاً، والفكان: ملتقى الشدقين. وقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾[٥] أي: لم يكونوا متفرقين بل كانوا كلهم على الضلال، كقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...﴾[٦] و(ما انفك) يفعل كذا، نحو: ما زال يفعل كذا[٧].

الفكك: الليث، يقال فَكَكْتُ الشيء فانْفَكَّ بمنزلة الكتاب المختوم تَفُكُّ خاتَمه كما تَفُكُّ الحَنَكيْن تَفْصِل بينهما وفَكَكْتُ الشيء خَلَّصْته وكل مشتبكين فصلتهما فقد فَكَكْتَهما وكذلك التَّفْكِيك[٨].

وثق: الثِّقَةُ مصدر قولك وَثِقَ به يَثِقُ بالكسر فيهما وثاقةً وثِقَةً ائتمنه وأنا واثِقٌ به وهو موثوق به وهي مَوثوق بها وهم موثوق بهم فأَما قوله: إلى غير مَوْثوقٍ من الأَرض تَذْهَب فإنه أَراد إلى غير مَوثوقٍ به فحذف حرف الجرّ فارتفع الضمير فاستتر في اسم المفعول ورجل ثِقةٌ وكذلك الاثنان والجمع وقد يجمع على

(١) سورة الحج، الآية: ١٢.
(٢) سورة الحج، الآية: ١٣.
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٥٠٣- ٥٠٤ مادة«ضر».
(٤) سورة البلد، الآية: ١٣.
(٥) سورة البينة، الآية: ١.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٧) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٦٤٣ مادة«فكك».
(٨) لسان العرب، ج١٠، ص ٤٧٥ مادة«فكك».

ثِقاتٍ ويقال فلان ثِقةٌ وهي ثِقةٌ وهم ثِقةٌ ويجمع على ثِقاتٍ في جماعة الرجال والنساء[١].

وثق: وثقتُ به أثِقُ ثقةً: سكنت إليه واعتمدت عليه، وأوثقته: شددته، والوَثاقُ والوِثاقُ: اسمان لما يُوثَقُ به الشيء، والوثقى: تأنيث الأوثق[٢].

فهم النص

لم تشفع للعبد تلك السلسلة الترويضية ما لم يتخلص من تلك القيود والأغلال، التي أُحكِمَ وثاقها بقوة وقسوة شديدة، وقد أشار في المقاطع السابقة إلى الحال المزرية التي وصل إليها العبد، حيث المسار الذي اتخذه منطلقاً ومنهاجاً، في رسم السياسات السلوكية للحياة الاجتماعية، كفيلٌ بوضع العبد على حافّة الخطر، وبما أنّه لم يكن على دراية تامّة بطبيعة الحياة، وما تَحمل من سلوكيات وأفكار خاضعة لاعتبارات المنهج الشيطاني، فإنه وقع في فخ ومصيدة النفس، التي بدورها جعلته خاتماً في إصبعها تحركه كيفما تشاء، وقد مثّلت هذه السياسة أزمة حقيقية لن يستطيع العبد التحرر من أغلالها وقيودها إلّا من خلال نزول الرحمة واللطف الإلهي، إذ العبد معتمدٌ على المدد الربانيّ في كل لحظة من لحظات حياته، وبمجرد الحرمان من هذه الرعاية الربانية، فإن العبد يكون في عداد الهالكين الذين ينتظرهم الغضب الإلهي.

والعبد في هذا المقطع من الدعاء يرسم لنا كيفية معاناته وعذاباته النفسية، وأنه وقع تحت رحمة تلك السياسات العنجهية التي أوقعته في شتى أنواع التيه والضياع في هذه الدنيا، حيث يبيّن العبد أنّه مقيّد اليدين بحال شديد، وأنه واقع في قبضة تلك السلوكيات التي تسترقُّهُ وتحوِّلُهُ من كونه حراً يمتلك القرار والإرشاد الشخصي، من غير وصايةٍ، إلى كونه عبداً للشهوات والممارسات السيئة والسلبية، والتي ستكون ارتداداتها سلبية وثقيلة في المنظور الإستراتيجي، وعلى

(١) لسان العرب، ج١٠، ص ٣٧١ مادة «وثق».

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٨٥٣ مادة «وثق».

المدى البعيد، في حين أن المقدرة المتاحة له على الفرار من هذه الورطة منعدمة؛ لأنّ الوثاق الذي أحكَمَهُ وقيّده كان شديداً للغاية، في حين أنّه يحاولُ عبثاً أن ينتصرَ على تلك القيود والأغلال التي وضعها هو بنفسه في يديه، ظانّاً أن ذلك متاح له في ظل تلك العثرات والحواجز التي شيّدها، سادّاً بذلك الطريق الذي سوف يهرب منه ما لو وقع أمرٌ طارئ، إلا أنه وصل إلى مرحلة أغلق معها التفكير والسيطرة على القوة العقلية، ممّا حالَ دون الاستفادة من هذه الطاقة التي وهب اللّه تعالى إيّاها.

فالعبد في هذه الفقرة يطلب من اللّه تعالى أن يرفعه من هذا المستنقع الذي زجّ نفسه فيه، حيث لا مخرج منه؛ وحتى يكون العبد على أتمِّ الاستعداد للنجاة من تلك القيود والوثاق الغليظة، كان لا بدّ له من أن يحرز قبول ذلك الاعتذار الذي تقدم بيانه في الدرس السابق ضمن السلسلة الترويضية، ومن دون القبول لن يخرج العبد من هذا المأزق الشديد، من ثَم لن يكون القبول كافياً في ظل التراكم الذي سببه الانحراف السلوكي والطيش الفكري، وإنما سيكون الطلب الآخر هو إنزال الرحمة والمغفرة عليه، وبحسب تعبيره أنه قسطاً من الضرر المعتدّ به، والضرر هنا لا يقتصر على حالته الفردية بقدر ما سوف يكون شاملاً للحياة الدينية والاجتماعية والعلمية؛ لأنّ الظروف الموضوعية المحيطة بالعبد غير مهيّأة الجو للعيش بطريقة طبيعية، وإنما ستكون ضمن الأثر الذي سيوجد على السطح من حياته، على حين أن المدد الإلهي سيكون سبباً للفكاك والعتق من تلك القيود الغليظة.

إن مثل هذه الأزمات الضيقة والغليظة، لا يمكن الخروج منها من دون اللجوء إلى التقوى، حيث سيكون الأخذ بها منهاجاً عملياً وسبباً للخلاص من العواقب الوخيمة والسيئة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾[1] تخلق هذه الآيات المباركة الأمل في نفس العبد، الذي أنهكته كثرة الذنوب والآثام التي احتطبها على ظهره، وقد تعب من مشقة الأضرار التي خلّفتها هذه السيئات، حيث لا منفذ يخلّصه من هذه الورطة. هذه الآيات تضع أطروحة التقوى طريقاً ومخرجاً

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢-٣.

من تلك الأزمات المتعاقبة، وقد وضعت الآيات منفذين من خلالهما ينجو العبد من هذه المشكلات المتفاقمة، كلٌّ منهما يكمل الآخر، ويدر على العبد الخير الكثير، المنفذ الأول: التقوى، التي كثرت الإشارة إليها في غير موضع من القرآن، وعلى لسان رسول اللّه ﷺ والأئـمّة المعصومين عليهم السلام، والمنفذ الثاني: التوكل على اللّه تعالى، في حين أنّ اتّباع هذين المنهجين سوف يكون سبباً لكثير من المحفزات والمشجعات على الالتزام بتلك التعاليم الربانية، المادية منها والمعنوية، وعلى كل المستويات الفردية والاجتماعية والفكرية والعلمية، وهو نظام لو اتخذه العبد مسلكاً ومنهاجاً في حياته لوجدت الكثير من الحلول للمشكلات التي يعيشها إنسان هذا العصر.

ورغم أنّ هذه الآيات نزلت بشأن الطلاق والأحكام المتعلّقة به، لكنّها تحتوي على مفاهيم واسعة ومعاني عظيمة تشمل جميع المجالات التي يعاهد اللّه بها المتّقين، ويبعث في نفوسهم الأمل بأنّه سيشملهم بلطفه ورعايته، فينجيهم من المآزق، ويرشدهم إلى الصواب، ويفتح أمامهم الآفاق الرحبة، ويرفع عنهم مشكلات الحياة وصعوباتها، ويبدّد الغيوم السوداء التي تلبّد سماء سعادتهم. وفي إشارة لطيفة إلى النظام العامّ الذي يحكم التكوين والتشريع، يقول تعالى: (قد جعل اللّه لكلّ شيء قدراً) فكلّ هذه الأحكام والأوامر التي فرضها اللّه في شأن الطلاق، إنّما كانت ضمن حساب دقيق ومقاييس عامّة شاملة لا يغيب عنها شيء. وهكذا يجب أن يلتزم الناس في جميع المشكلات التي تنتاب حياتهم ـ وليس فقط في مسألة الطلاق ـ بالموازين والأحكام الشرعية، وأن يواجهوا تلك الأُمور بالتقوى والصبر وطلب التوفيق من اللّه، لا أن يطلقوا ألسنتهم بالشكوى وارتكاب الذنوب، وما إلى ذلك ويتوسّلون بالطرق غير المشروعة لحلّ مشكلاتهم[١].

(١) تفسير الأمثل، ج ١٨، ص ٢٦٣.

الفقرة التاسعة

«... يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَني وَرِقَّةَ جِلْدي وَدِقَّةَ عَظْمي، يا مَنْ بَدَأَ خَلْقي وَذِكْري وَتَرْبِيَتي وَبِرّى وَتَغْذِيَتي هَبْني لاِبْتِداءِ كَرَمِكَ وَسالِفِ بِرِّكَ بي يا اِلـهي وَسَيِّدي وَرَبّي...».

الهيكل الجسدي للإنسان وإمداد الرحمة الإلهية له

«يا رَبِّ ارْحَمْ ضَعْفَ بَدَني وَرِقَّةَ جِلْدي وَدِقَّةَ عَظْمي»

الضعف: الضَّعْفُ والضُّعْفُ خِلافُ القُوّةِ وقيل الضُّعْفُ بالضم في الجسد والضَّعف بالفتح في الرَّأْي والعَقْلِ وقيل هما معاً جائزان في كل وجه[1]

الضَّعفُ: خلافُ القوّة، وقد ضَعُفَ فهو ضعيفٌ. قال عزَّ وجلَّ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[2]، والضّعفُ قد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال، وقيل: الضَّعفُ والضُّعفُ لغتان. قال تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[3]، قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾[4]، قال الخليل رحمه اللّه: الضعف (بالضمّ) في البدن، والضعف في العقل والرأي، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾[5]، وجمع الضعيف: ضعاف، وضعفاء. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾[6]، واستضعفته:

---

(١) لسان العرب، ج٩، ص ٢٠٣ مادة«ضعف».

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية٦٦ .

(٤) سورة القصص، الآية: ٥.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٩١.

وجدته ضعيفا، قال: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾[١]، ﴿قَالُوٓا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢]، ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾[٣]، وقوبل بالاستكبار في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾[٤]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾[٥]. والثاني غير الأول، وكذا الثالث فإن قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾[٦]، أي: من نطفة، أو من تراب، والثاني هو الضعف الموجود في الجنين والطفل. والثالث: الذي بعد الشيخوخة، وهو المشار إليه بأرذل العمر. والقوتان الأولى هي التي تجعل للطفل من التحرك، وهدايته واستدعاء اللبن، ودفع الأذى عن نفسه بالبكاء، والقوة الثانية هي التي بعد البلوغ، ويدل على أن كل واحد من قوله: (ضَعْف) إشارة إلى حالة غير الحالة الأولى ذكرُهُ منكَّراً، والمُنكَّرُ متى أعيد ذكره وأريد به ما تقدم عُرِّفَ، كقولك: رأيتُ رجلاً، فقال لي الرجل: كذا. ومتى ذُكِر ثانياً مُنكَّراً أريد به غير الأول، ولذلك قال ابن عباس في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[٧]، لن يغلب عسرٌ يُسرين وقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٨] فضعفه: كثرة حاجاته التي يستغني عنها الملأ الأعلى، وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[٩] فضعف كيده إنما هو مع من صار من عباد اللّه المذكورين في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[١٠][١١].

البدن: بدن: الإنسان جسده وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[١٢] قيل: معناه

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٣٣.
(٥) سورة الروم، الآية: ٥٤.
(٦) سورة الروم، الآية: ٥٤.
(٧) سورة الإنشراح، الآية: ٥-٦.
(٨) سورة النساء، الآية: ٢٨.
(٩) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(١٠) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.
(١١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٥٠٦-٥٠٨.
(١٢) سورة يونس، الآية: ٩٢.

بجسد لا روح فيه، قال الأخفش وأمّا قول من قال بدرعك فليس بشيء و ـ البدن ـ أيضاً الدرع القصيرة و ـ البدنة ـ ناقة أو بقرة تنحر بمكة سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها والجمع ـ بدن ـ بالضم و ـ بدن ـ الرجل من باب ظرف و ـ بدنا ـ أيضا بوزن قفل أي سمن وضخم فهو ـ بادن ـ و ـ البُدُن ـ بضمتين مثل البدن وهو السمن و ـ بدن تبدينا ـ أسن وفي الحديث «**إني قد بَدَّنْتُ فلا تبادلوني بالركوع والسجود**»(١).

البدن: الجسد، لكن البدنُ يقال اعتباراً بعِظَم الجثّة، والجسدُ يُقالُ اعتباراً باللون، ومنه قيل: ثوبٌ مجسَّدٌ، ومنه قيل: امرأة بادن وَبدين: عظيمة البدن، وسميت البدنةُ بذلك لسمنها يقال: بَدَنَ إذا سَمِنَ، وبَدَّنَ كذلك، وقيل: بل بَدَّنَ إذا أَسَنَّ، وأنشد: وكنتُ خِلْتُ الشيبَ والتبدينا.

وعلى ذلك ما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام: (لا تبادروني بالركوع والسجود فإني قد بَدَّنْتُ) أي: كَبِرْتُ وأسنَنْتُ، وقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾(٢) أي: بجسدك، وقيل يعني بدرعك، فقد يُسمّى الدرع بدنةً لكونها على البدن، كما يسمى موضع اليد من القميص يداً، وموضعُ الظهر والبطن ظهراً وبطناً، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾(٣) هو جمع البدنةِ التي تُهدى(٤).

البدن: بَدَنُ الإنسان جسدُه والبدنُ من الجسدِ ما سِوَى الرأْس والشَّوَى وقيل هو العضوُ عن كراع وخص مَرّةً به أَعضاءَ الجَزور والجمع أَبْدانٌ(٥).

الرّقة: الرَّقِيقُ نقيض الغَلِيظ والثَّخِين والرِّقَّةُ ضدُّ الغِلَظ رَقَّ يَرِقُّ رِقَّة فهو رَقِيقٌ ورُقاقٌ وأَرَقَّه ورَقَّقه والأُنثى رَقِيقةٌ ورُقاقَةٌ قال:

(١) مختـار الصحاح، ص ١٨ مادة«ب د ن».
(٢) سورة يونس، الآية: ٩٢.
(٣) سورة الحج، الآية: ٣٦.
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ١١٢ – ١١٣ مادة «بدن».
(٥) لسان العرب، ج١٣ ص٤٧ مادة«بَدَنَ».

من ناقةٍ خَوَّارةٍ رَقِيقهْ تَرْمِيهِمُ ببَكَراتٍ رُوقَهْ

معنى قوله رقيقة أنها لا تَغْزُر الناقةُ حتى تَهنَ أَنقاؤها وتَضْعُف وتَرِقَّ ويتسع مَجرى مُخِّها ويَطِيب لحمها ويكر مُخُّها، كلُّ ذلك عن ابن الأَعرابي والجمع رِقاق ورَقائق(١).

الرّقّة: كالدِّقّة، لكن الدقّةُ تُقال اعتباراً بمراعاة جوانبه، والرّقةُ اعتباراً بعمقه. فمتى كانت الرّقّةُ في جسم تُضادُّها الصفاقةُ، نحو: ثوب رقيق وصفيق، ومتى كانت في نفس تُضادُّها الجفوةُ والقسوةُ، يقال: فلانٌ رقيقُ القَلب، وقاسي القَلب، والرَّقُّ: ما يُكتَبُ فيه، شبه الكاغِدِ، قال تعالى: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾(٢) وقيل لذَكَرِ السلاحف: رقٌّ، والرِّق: مِلْكُ العبيدِ. والرقيق: المملوك منهم، وجمعه أرقّاء، واسترقَّ فلان فلاناً: جعله رقيقاً. والرّقراقُ: ترقرُقُ الشراب، والرّقراقةُ: الصافيةُ اللونِ. والرِّقَّةُ: كلُّ أرض إلى جانبها ماءٌ، لما فيها من الرِّقَّة بالرطوبة الواصلة إليها. وقولهم: أعن صبوح تُرَقّقُ؟ أي: تلين القول(٣).

الجلد: قشر البدن، وجمعه جلود. قال اللّه تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَبًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾(٥).

والجلودُ عبارةٌ عن الأبدانِ، والقلوبُ عن النفوس.

وقوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٦)، ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾(٧)، فقد قيل: الجلود ههنا كناية عن

(١) لسان العرب، ج١٠، ص ١٢١ مادة «رقـق».
(٢) سورة الطور، الآية: ٣.
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٣٦١ مادة «رق».
(٤) سورة النساء، الآية: ٥٦.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٦) سورة فصلت، الآية: ٢٠.
(٧) سورة فصلت، الآية: ٢١.

الفروج، وجلَدَهُ: ضربَ جِلْدَه، نحو: بَطَنَهُ وظَهَرَهُ، وضَرَبَهُ بالجلد، نحو عصاه إذا ضربه بالعصا، وقال تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾[١].

والجَلَدُ: الجِلْدُ المنزوع عن الحُوار، وقد جَلُدَ جَلَداً فهو جَلْدٌ وجَليدٌ، أي: قويٌّ، وأصلُهُ لاكتسابِ الجلدِ قُوَّةً، ويقال: ما له معقولٌ ولا مجلودٌ، أي: عَقْلٌ وجَلْدٌ. وأرضٌ جَلَدَةٌ تشبيهاً بذلك، وكذا ناقةٌ جَلَدَةٌ، وجَلّدْتُ كذا، أي: جعلت له جَلْداً. وفَرَسٌ مُجَلَّدٌ: لا يَفزَعُ من الضرب، وإنّما هو تشبيهٌ بالمجَلَّدِ الذي لا يلحقُهُ من الضربِ ألمٌ، والجليد: الصقيع، تشبيهاً بالجِلْدِ في الصلابة[٢].

الجلد: الجِلْدُ والجَلَد المَسْكُ من جميع الحيوان مثل شِبْه وشَبَه الأَخيرة عن ابن الأَعرابي حكاها ابن السكيت عنه قال: وليست بالمشهورة والجمع أَجلاد وجُلود والجِلْدَة أَخص من الجلد[٣].

الدّقّةُ: الدَّقُّ: مصدر قولك دَقَقْت الدَّواءَ أَدُقُّه دقّاً وهو الرَّضُّ والدَّقُّ الكَسر والرَّضُّ في كل وجه، وقيل: هو أَن تضرب الشيءَ بالشيء حتى تَهْشِمَه دَقَّة يَدُقُّه دَقّاً ودَقَقْتُه فانْدَقَّ والتَّدْقيقُ إنعامُ الدَّقّ[٤].

الدقّةُ: الدقيق: ضدّ الغليظ وكذا ـ الدقاق ـ بالضم و ـ الدق ـ بالكسر ومنه حمى الدق وقولهم: أخذ جُلَّهُ ودقَّهُ أي كثيره وقليله، ـ دق ـ الشيء يدق بالكسر ـ دقة ـ صار ـ دقيقا ـ و ـ أدقه ـ غيره و ـ دققه تدقيقا ـ و ـ المداقة ـ في الأمر التداق و ـ استدق ـ الشيء صار دقيقا و ـ دق ـ الشيء ـ فاندق ـ وبابه رد و ـ التدقيق ـ إنعام الدق و ـ الدقيق ـ الطحين و ـ المدق ـ و ـ المدقة ـ ما يدق به وكذا ـ المدق ـ بضمتين وهو أحد ما جاء من الأدوات التي يعمل بها على مفعل بالضم[٥].

---

(١) سورة النور، الآية: ٤.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني ص١٩٩ مادة«جلـد».

(٣) لسان العرب، ج٣، ص ١٢٤ مادة«جلـد».

(٤) لسان العرب، ج١٠، ص ١٠٠ مادة«دقق».

(٥) مختار الصحاح، ص ٨٧ مادة «دق ق».

العظم: مِنْ صِفاتِ اللّه عزَّ وجلَّ العليُّ العَظِيمُ ويُسبِّح العبدُ رَبَّه فيقول: سبحان رَبِّي العظيم. العَظِيمُ: الذي جاوَزَ قدْرُهُ وجلَّ عن حدودِ العُقول حتى لا تُتَصَوَّر الإحاطةُ بِكُنْهِه وحَقِيقته والعِظَمُ في صِفاتِ الأَجْسام كِبَرُ الطُّولِ والعرض والعمْق واللّه تعالى جَلَّ عن ذلك قال النبي ﷺ: «**أَمَّا الرُّكوعُ فعظِّمُوا فيه الربَّ**» أَي اجْعلُوه في أَنْفُسِكم ذا عَظمة وعَظمةُ اللّهِ سبحانه لا تُكَيَّفُ ولا تُحدُّ ولا تُمثَّل بشيء ويجبُ على العبادِ أن يَعْلَمُوا أنه عظيمٌ كما وصَفَ نفْسه وفَوْقَ ذلك بلا كَيفِيَّة ولا تَحْديد. قال الليث: العَظمةُ التَّعَظُّمُ والنَّخْوةُ والزَّهْوُ قال الأزهري: ولا تُوصَفُ عظمةُ اللَّه بما وصَفَها به الليثُ وإذا وُصِفَ العبدُ بالعَظمة فهو ذَمٌّ لأن العظمة في الحقيقة للّه عزَّ وجلَّ، وأما عَظَمَةُ العبدِ فكِبْرُه المذمومُ وتَجبُّره. وفي الحديث مَنْ تَعَظَّمَ في نفسه لَقِيَ اللّه تَبارَك وتعالى غَضْبانَ. التَّعَظُّمُ في النفس هو الكِبْرُ والزَّهْوُ والنَّخْوةُ والعَظَمَةُ والعَظَمُوتُ: الكبرُ. وعَظَمَةُ اللسان: ما عَظُمَ منه وغَلُظَ فوقَ العَكَدَةِ وعَكَدَتُه أَصْلُه[1].

العظم: العظم جمعه: عظام. قال تعالى: ﴿عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾[2]، وقرئ: «**عَظْماً**» فيهما، ومنه قيل: عَظْمَةُ الذراع لمُسْتَغْلَظِها، وعَظْمُ الرحل: خشبةٌ بلا أنساع، وعَظُمَ الشيء أصله: كَبُرَ عَظْمُهُ، ثمّ استعير لكلِّ كبير، فأُجريَ مجراه محسوساً كان أو معقولاً، عيناً كان أو معنىً. قال: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3]، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾[4]، ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[5]، ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[6].

والعظيم إذا استُعمِلَ في الأعيان فأصلُهُ: أن يقالَ في الأجزاء المتّصلة، والكثيرُ يُقال في المنفصلة، ثم قد يقال في المنفصل عظيمٌ، نحو: جيش عظيم، ومال عظيم،

(١) لسان العرب، ج ١٢، ص ٤٠٩- ٤١٠ مادة«عظم».
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٣.
(٤) سورة، ص، الآية: ٦٧.
(٥) سورة عم، الآية: ١-٢.
(٦) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

وذلك في معنى الكثير، والعظيمةُ: النازلةُ، والإعظامةُ والعِظامةُ: شبه وسادةٍ تُعظِّم بها المرأة عجيزتها[١].

فهم النص

ينطلق العبد في هذه الفقرة من الدعاء المبارك من كونه قد وضع اللبنات الأساسيّة في رسم المنهجية الإستراتيجية، حيث بـدا واضـحاً، أن الطرح في الفقرات السابقة، كان يركز على الارتدادات السيئة التي انطبعت في كيان وطبيعة الروح، وقد سبَّب حدوث شرخٍ واضـحٍ في مفاصل الروح المعنوية، إذ كثرة الذنوب والآثام والإتيان بشتى المَعاصي كَان سبباً لانطفاء الجذوة المعنوية للعبد، وهو ما سوف تبرز آثاره في الكثير من الأعمال العباديّة والتكاليف الإلهيّة. وفي نفس الوقت يسعى العبد جاهداً لمعالجة كافـة الآثار التي أحدثتها تلك الأعمال السلبية، على أن يكون الدافع الأساس هو الخروج بنتائـجَ أكثرَ ملاءمة لطبيعة التحرك نحو الطريق السالكة إلى اللّه تعالى.

على أن استخدام أسلوب جديد في بث الخطاب إلى اللّه تعالى، كان هو العنصر المهم للترقي المعنوي، حيث يلاحظ أن العبد أخذ يمزج بين المادة والروح، وهو أسلوب لم يعدمه الخطاب الإلهي في القرآن الكريم، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٢] فنلاحظ أن الآية: الكريمة لم تغفل عن ذكر الدنيا مع الآخرة، فقد مزجت بينهما، على أن لا تكونَ الدنيا طاغيةً على الآخرة، وأن يكون همُّ الآخرة هو المسيطر على كيان العبد في حياته، في حين أنّ بعض الروايات الواردة عن لسان الأئمّـة المعصومين تبيّن أن الإهتمام بتلك الدنيا التي أشارت إليها الآية: الكريمة، ما هو إلّا جزءٌ من عالم الآخرة!.

(١) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٥٧٣ مادة «عظم».

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.

بيان المفهوم الصحيح

عن ابن أبي يعفور قال: قلت لابي عبد اللّه عليه السلام: إنا لنحب الدنيا، فقال لي: **تصنع بها ماذا؟** قلت: أتزوج منها وأحج وأنفقُ على عيالي وأُنيلُ إخواني وأتصدق. قال لي: «**ليس هذا من الدنيا هذا من الاخرة**»[١].

فالإمام عليه السلام وضع له المفهوم الصائب لتلك الأعمال الدنيوية، بأنّها موصلة إلى النجاة غداً في عالم الآخرة، فلا تكون هذه الأعمال دنيويَّة إذا قرنَها بالقربة إلى اللّه تعالى، ويكون الهمُّ الأخرويُّ هو الطابَعُ السائد في حياته.

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**من اصبح وأمسى والاخرة أكبر همه، جعل اللّه الغنى في قلبه، وجمع له أمره، ولم يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، ومن أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه جعل اللّه الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره، ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم له**»[٢].

وسوف نأتي لاحقاً على تفاصيل الدنيا حين يكون ظرف الدعاء المبارك دالّاً عليها، فلا نستبق تلك المحطة، وهذا مجرد توضيح بحسب المقتضى من الدعاء عند هذه الفقرة منه.

لذا يدرك العبد مدى أهمية هذا الهيكل الجسدي في هذا العالم، كيف أنه المعتمد الأساس في التحرك والسعي لطلب الحاجة الدنيوية، فالجسد عنصر أساس في تنمية الروح والنفس، على أنه يبقى أداةً تتحكم فيه النفس إذا لم يروضها صاحبها، في حين أنّ العبد يتحرك وفق المعطيات والإرشادات التي تأتيه من جانب الدنيا وما تختزله من أبعاد سلبية تصب عواقبها في خانة المفسدة، ومن هنا فإن أمير المؤمنين علي عليه السلام يصرح في هذا الجانب حول الحذر من النفس، وأن علاجها من خلال الترويض والمجاهدة، يقول الإمام عليه الصلاة والسلام: «**وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ**

(١) بحار الأنوار، ج٧٣، ص ١٠٦ باب ١٢٢ ح ١٠٥.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٣، ص ١٠٤ باب ١٢٢ ح ٩٧.

الْـخَوْفِ الأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْـمَزْلَقِ»[١] وقد تقدم الكلام في هذا المجال مسبقاً.

وإنّما عواقب عدم الترويض والتهذيب للنفس وخيمةٌ جدّاً على هذا الكائن الحيّ، فمن خلال هذه الفقرة يركز العبد على عوامل ثلاثة تَمُتُّ بتكوين وتقوية الجوانب الجسدية والنفسية والعقلية بصلة، في حين أنّ العبدَ يعلمُ مدى الحاجة إلى العوامل الثلاثة التي يستعيد بها حيويته الدنيوية والأخروية، إذ التكوين الطبيعي لأيّ إنسان يحتاج إليها وهي:

١ ـ قوة البدن.

٢ ـ شدّة الجلد الموجود على البدن، لكي يتحمّل قسوة المناخات الرطبة.

٣ـ وتحمل العظام على الشدائد.

وبما أن الإنسان مخلوق ضعيف ليس بمقدوره تحمل الصّعاب الدنيوية وبلاءاتها، فإن من الأولى أنّه سوف يكون بلاء وصعاب الآخرة شيئاً كبيراً وشديداً عليه، ومن هنا فإن العبد يطلب من اللّه تعالى أن ينزل عليه الألطاف والرحمات الرحمانية عليه، فهو يقول: يا رب أعلم أني قد تجاوزت الحدود والضوابط الشرعية وأنني وصلت إلى منطقة من المحال الخروج منها بسبب عدم إتباع الضوابط والمبادئ التي أمرت بها، لكني أتوجه إليك من باب الرحمة التي وسعتْ كلّ شيء، ومن هذه الجنبة، فإن هذا البدن البشري وما يحتوي من ضعف لا يقوى على آلام العذاب، وإنّ هذا الجلدَ الواقيَ، الذي يقي من الأذى في هذه الدنيا (حيث يحول دون وصول جميع المكروبات والجراثيم إلى أعماق وفضاءات الجسد) يظلُّ رقيقاً جدّاً، بحيث يخترقه ما هو أقوى منه، وإنّ هذه العظام البالغ عددها أكثرَ من ٢٠٠ عظم في الهيكل البشري، هي ضعيفة ودقيقة، ولا يوجد بها ثمة قوة وسوف تنهزم أمام أيّة قوة غير متحمَّلة، ومن كانت أوصاف هيكله الجسدي هكذا، فإنّه لا يتحمّلُ جزءاً من العذاب الأخرويّ، ومن هنا فإن

(١) شرح نهج البلاغة، لأبن أبي الحديد ج ١٦، ص ١٥٣.

طلب العفو والرحمة منك يا إلهي هو من المسلمات والأولويات حتّى أنجوَ من ذلك العقاب.

البدن البشري واللطف الإلهي

يولد الإنسان على وجه الأرض - وهو من ناحية طبيعية - يكون متجهاً نحو نهايته، حيث كل دقيقة تمرّ من عمره تجرّه نحو القبر المحتّم، ولا يمكنه أن ينحرف قيدَ أنملة عن هذه الحقيقة، وأنفاسه وتحركاته وطموحاته معدودة، كلّها تؤدي نحو ذاك المصير المحتوم، فإذا ما وصلت أنفاسه إلى نهايتها، فإنّـه يُسدَلُ الستار بعد حياته ووجوده في عالم الدنيا، ليكمل طريقه عبر الموت إلى هناك في ذلك العالم الأخروي.

يقول لقمان الحكيم عليه السلام موصيّاً ابنه وهو يعظُهُ: «**يا بنيّ: من حين سقطت من بطن أمّك استدبرت الدنيا واستقبلت الآخرة، وأنت في كلّ يوم إلى ما استقبلت أقرب منك إلى ما استدبرت، فتزوّد لدار أنت مستقبلها، وعليك بالتقوى فإنّه أربح التجارات، وإذا أحدثت ذنباً فاتبعه بالاستغفار والندم والعزم على ترك العود لمثله. واجعل الموت نصب عينيك والوقوف بين يدي خالقك، وتمثّل شهادة جوارحك عليك بعملك، والملائكة الموكلين بك؛ تستحي منهم ومن ربّك الذي هو مشاهدك. وعليك بالموعظة فاعمل بها فإنّها عند العاقل أحلى من العسل الشهد، وهي على السفيه أشقّ من صعود الدرجة على الشيخ الكبير، ولا تسمع الملاهي فإنّها تُنسيك الآخرة، ولكن احضر الجنائز. وزر المقابر وتذكّر الموت وما بعده من الأهوال فتأخذ حذرك**»[(١)].

خلق اللّه تعالى الإنسان من تراب، ومن عناصر الأرض... من الحديد والكالسيوم والماغنسيوم والكربون، وغيرها من العناصر التي تحتويها الأرض، وبحكمة اللّه تعالى اختار لهذا الكائن البشري أجمل الصور، وبثّ فيه الحياة، وزوده بمواهب وطاقات تساعده على إعمار الأرض واستخراج كنوزها ومكنوناتها، وأعطاه العقل ووهب له كيفية استخدامه، وزوده بالسمع والبصر.

---

(١) إرشاد القلوب، الباب الثامن عشر وصايا وحكم بليغة، ص ٧٢.

ووضع اللّه تعالى لـه الضوابط والقوانين الشرعية، التي تنظم حياته، ورسم له المنهج الذي تستقيم به حياته وأمـره بالسير الحثيث نحو تطبيق هذه التعاليم وتحت المنظار العقلي والضابطة الشرعية، وحذره من إغراءات الشيطان، وأعلمه بأنـه عـدوٌّ لـه، وأن يتجنب نزعات وعبث النفس الأمارّة بالسوء.

وحتى تنضبط هذه التعاليم الربانية كان لا بدّ من وجود مُعين يكون فيه رضاً للّه تعالى، حيث خلق اللّه تعالى حواء لتكون أُنساً لأدم؛ ومن خلالهما يكون كلٌّ منهما مكملاً للآخر، كلٌ يحنُّ إلى الآخر، فلا يستقرّان إلّا إذا كانا معاً، وكلٌّ منهما شديد الشوق والحنين إلى صاحبه، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] فالإنسان يتميز بأنّه مخلوق على هذه الصورة الجميلة السويّة المعتدلة، كاملة الشكل والوظيفة، فاللّه تعالى كان قادر على أن يركبّه في أيّ صورة أخرى يريدها ويشاؤها؛ لكنه سبحانه وتعالى خلقه على هذه الشاكلة الجميلة السويّة، فهو جميل التكوين، سويّ الخلقة، معتدل التصميم. ويتعدى الجمال ذلك ليشمل التكوين العقلي، والتكوين الجسدي والتكوين الروحي، على أنها تتناسق في الكيان الجمالي والاستوائي. وقد أوضح الإمام الحسين عليه السلام ذلك في دعاء عرفـة، حيث بيّن العوالم التي يسلكها الإنسان، من حين بدء نشوئه من التراب الذي خلقه اللّه منه، ومروره بعالم الأصلاب، سالكاً من صلبٍ إلى صلب.

إذ يقول الإمام عليه السلام في ذلك: «**اِبْتَدَأْتَني بِنعْمَتِكَ قَبْلَ اَنْ اَكُونَ شَيْئاً مَذكوراً، وَخَلَقْتَني مِنَ التُّراب، ثُمَّ اَسْكَنْتَني الاَصْلابَ، آمِناً لِرَيْبِ الْمَنُون، وَاخْتِلافِ الدُّهُور والسِّنينَ، فَلَمْ اَزَلْ ظاعِناً مِنْ صُلْبٍ الِى رَحِم، في تَقادُمٍ مِنَ الاَْيّامِ الْماضِيَة، وَالْقُرُونِ الْخالِيَة، لَمْ تُخْرِجْني لِرَأْفَتِكَ بي، وَلُطْفِكَ لي، وَاِحْسانِكَ اِلَيَّ، في دَوْلَةِ اَئِمَّةِ الْكُفْرِ الَّذينَ نَقَضُوا عَهْدَكَ، وَكَذَّبُوا رُسُلَكَ، لكِنَّكَ اَخْرَجْتَني لِلَّذي سَبَقَ لي مِنَ الْهُدى، الَّذي لَهُ يَسَّرْتَني، وَفيهِ اَنْشَأْتَني، وَمِنْ قَبْلِ ذلك رَؤُفْتَ بي بِجَميلِ صُنْعِكَ، وَسَوابِغِ نِعَمِكَ، فَابْتَدَعْتَ خَلْقي مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى، وَاَسْكَنْتَني في ظُلُماتٍ ثَلاث، بَيْنَ لَحْمٍ وَدَمٍ**

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

وَجلْد، لَمْ تُشْهدْني خَلْقى، وَلَمْ تَجْعَلْ اِلَيَّ شَيْئاً مِنْ اَمْرى، ثُمَّ اَخْرَجْتَني لِلَّذي سَبَقَ لي مِنَ الْهُدى اِلَى الدُّنْيا تامّاً سَوِيّاً»[١].

في هذا المقطع من الدعاء المبارك يضع الإمام المنظومة الأساسية التي سلكها الإنسان أثناء بدء نشوئه، وكيف أن اللّه تعالى وهب الإنسان نعمة الوجود، التي هي بحدّ ذاتها نعمة ينبغي الشكر عليها، على أن هذا الوجود احتاج إلى تراب من عناصر الأرض ومكوناتها الأساسية المتقدم بيانها، في حين أنه بحاجة إلى العبور من خلال الأصلاب، إذ سيبقى على هذا المنوال شادّاً الرحال من صلب إلى صلب، إلى أن يدخل فضاء الأرحام، حيث الرحم الذي يهيئ له الولوج إلى عالم الدنيا، على أنه قد شهد مراحل تكوينه من البويضة، إلى العظام، ثم مرحلة الجلد الذي سيكون من الذين سيشهدون على هذا الإنسان في المستقبل حين يرجع ماثلاً أمام اللّه تعالى، وعند اكتمال كل هذه الأمور الأساسية والتي تقوم الحياة عليها، فإنه يخرج إلى هذا الفضاء الواسع عالم الدنيا، بعد أن كان في مكان مظلم لا يوجد به بُعد أفق وهو عالم الأرحام، ويولد الإنسان تاماً سويّاً غير ناقص، حيث لا تنقصه الأعضاء الجسدية، فالرأس وكل أجهزته الأساسية موجودة غير مفقودة من العين والأذن والأنف مروراً بالفم، نزولاً إلى باقي أعضاء الجسم البشري من اليدين والبطن والرجلين، حيث خلق اللّه تعالى الإنسان تامّاً سويّاً من الجانب الروحي والعقلي. بعدها يسرد الإمام الحسين عليه السلام في مقطع آخر كل هذه الأعضاء حيث:

يقول عليه السلام: **«وَاَنَا اَشْهَدُ يا اِلهي بِحَقيقَةِ ايماني، وَعَقْدِ عَزَماتِ يَقيني، وَخالِصِ صَريحِ تَوْحيدي، وَباطِنِ مَكْنُونِ ضَميري، وَعَلائِقِ مَجاري نُورِ بَصَري، وَاَساريرِ صَفْحَةِ جَبيني، وَخُرْقِ مَسارِبِ نَفْسي، وَخَذاريفِ مارِنِ عِرْنَيني، وَمَسارِبِ سِماخِ سَمْعي، وَما ضُمَّتْ وَاَطْبَقَتْ عَلَيْهِ شَفَتايَ، وَحركاتِ لَفْظِ لِساني، وَمَغْرَزِ حَنَكِ فَمي وَفَكّي، وَمَنابِتِ اَضْراسي، وَمَساغِ مَطْعَمي وَمَشْرَبي، وَحِمالَةِ اُمِّ رَأْسي، وَبُلُوغِ فارِغِ حبائِلِ عُنُقي، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ تامُورُ صَدري، وَحمائِلِ حَبْلِ وَتيني، وَنِياطِ حِجابِ قَلْبي، وَأَفْلاذِ حَواشي كَبِدي، وَما حَوَتْهُ شَراسيفُ اَضْلاعي، وَحِقاقُ مَفاصِلي،**

(١) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة، ص ٣٦٠- ٣٦١.

وَقَبضُ عَواملي، وَاَطرافُ اَناملي وَلَحْمي وَدَمي، وَشَعْري وَبَشَري، وَعَصَبي وَقَصَبي، وَعظامي وَمُخّي وَعُرُوقي، وَجَميعُ جَوارحي، وَمَا انْتَسَجَ عَلى ذلِكَ اَيّامَ رَضاعي، وَما اَقلَّت الاَرْضُ منّي، وَنَوْمي وَيقَظَتي وَسُكوني وَحرَكات رُكُوعي وَسُجُودي، اَنْ لَوْ حاوَلْتُ وَاجْتَهَدْتُ مَدَى الاَعصار وَالاَحْقاب لَوْ عُمِّرْتُها اَنْ أُؤَدِّيَ شُكْرَ واحدَةٍ منْ أَنْعُمكَ مَا اسْتَطَعْتُ ذلكَ الاّ بمَنِّكَ الْمُوجَب عَلَيَّ به شُكْرُكَ اَبَداً جَديداً، وَثَناءً طارفاً عَتيداً، اَجَلْ وَلوْ حَرَصْتُ اَنَا وَالْعآدُّونَ منْ اَنامكَ، أَنْ نُحْصِيَ مَدى اِنْعامِكَ، سالِفِهِ وَآنِفِهِ ما حَصَرْناهُ عَدَداً، وَلا اَحْصَيناهُ اَمَداً»[1].

وقد أشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته الأولى من النهج إلى المعنى من قبل حيث:

يقول سلام اللّه عليه: «**ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بالـمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاَطَهَا بالبَلَّةِ حَتَّى لَزُبَتْ، فَجَبَلَ منْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ وَوُصُولٍ، وَأَعْضَاءٍ وَفُصُولٍ، أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ. ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِه فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، والأَذْوَاقِ والمَشَامِّ، وَالأَلْوَانِ وَالأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَالأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالأَخْلاَطِ الْمُـتَبَايِنَةِ، مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ، وَالبَلَّةِ وَالْـجُمُودِ، وَالـمَساءَةِ وَالسُّرُورِ. وَاسْتَأْدَى اللّهُ سُبْحَانَهُ المَلاَئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ عزَّ من قائلٍ: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ وَقَبِيلَهُ، اعْتَرَتْهُمُ الحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزُوا بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَوْهَنُوا خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللّهُ تَعالَى النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾. ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشَهُ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْـمُقَامِ، وَمُرَافَقَةِ الأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَالعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْـجَذَلِ وَجَلاً،**

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة، ص ٣٦٢ - ٣٦٣.

وَبالإغْترَار نَدَماً. ثُمَّ بَسَطَ اللّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ في تَوْبَتِه، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِه، وَوَعَدَهُ المَرَدَّ إِلَى جَنَّتِه، فَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ»(١).

إلا أن هذه الرشاقة والحيوية سوف لن تدوم، ولن تستمرَّ طوال عمر الإنسان من حين ولادته إلى أن يغادر عالم الدنيا، وإنما سوف يمرُّ على الإنسان مراحل ينبغي أن يسلكها وهو في هذه الدنيا شاء أم أبى، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة حيث يقول اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾(٢).

«كنتم في البداية ضعافاً إلى درجة أنّكم لم تكن لكم القدرة على طرد الذباب عنكم، أو أن تحافظوا على لعاب أفواهكم أن يسيل، هذا من الناحية الجسمية، أمّا من الناحية الفكرية فمصداقه قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ بحيث لم تعرفوا حتى أبويكم المشفقين عليكم. لكن ـ قليلا قليلا ـ صرتم ذوي رشد وقوّة، وصار لكم جسم قوي، وفكر جيد، وعقل مقتدر ذو إدراك واسع! ومع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هذه القوّة، فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته، ثمّ يبدأ بالإنحدار من القمة إلى قعر الوادي، الذي يمثل «مرحلة ضعف الجسم والروح».

هذا التغير والصعود والنّزول خير دليل على هذه الحقيقة، وهي أنّه لم تكن القوّة من عندكم ولا الضعف، فكل منهما كان من جهة أُخرى، وهذا بنفسه دليل على أن وراءكم من يدبّر اُموركم ويسيّر حياتكم وما عندكم فهو أمر عارض! وهذا هو ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه النيّر إذ قال: «**عرفت اللّه بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم**»(٣).

لقد عرفت من هذا الإختلاف والتغير أن القوة الأصلية ليست بأيدينا، فهي بيد اللّه، وليس لدينا بنحو مستقل أيُّ شيء سوى ما وهبنا إيّاه! ومن الطريف أنّ القرآن يضيف ـ عند بيان الضعف الثّاني للإنسان ـ كلمة «**وشيبة**» غير أنّه لم

(١) شرح نهج البلاغة، الخطبة ١ ج ١، ص ٨٠- ٨١ و ٨٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ٥٤.
(٣) شرح نهج البلاغة، ج ٢٠، ص ٥١ الحكمة ٢٤٧

يذكر «الطفولة» في الضعف الأول... وهذا التعبير ربّما كان إشارةً إلى أن ضعف الشيخوخة والشيب أشدّ ألماً، لأنّه على العكس من ضعف الطفولة، إذ يتجه نحو الفناء والموت... هذا أوّلاً. وثانياً: فإن ما يتوقع من الشيبة والمسنين مع ما لهم تجارب ليس كما يتوقع من الأطفال، على حين أن ضعف كل منهما مشابه للآخر، وهذا الموضوع يدعو إلى الإعتبار كثيراً. فهذه المرحلة هي التي تدفع الأقوياء والطغاة إلى الانحناء، وتجرهم إلى الضعف والذلة!»[١].

ولكن هذا الإنسان عندئذٍ يدرك أنـه في المرحلة الأخيرة من عمره، وأنه وصل إلى درجة الهرم والضعف العقلي والجسدي، حيث أصبح مترهلاً لا يقوى على رفع أخف الأشياء، في حين أن الدهر قد أجرى قوانينه التكوينية عليه من كبر السن ورقة الجلد وهشاشة العظم، وقد تغيرت معالم الجسم من قوة ونضارة وحيوية روحية في الإقدام، وأصبح الآن مودَعاً في طرف من زاوية إحدى غرف البيت الذي جدّ في تشييده، وهو في هذه اللحظات يطلب المغفرة من اللّه تعالى حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن لسان حال هذا الإنسان: «**إلهي صل على محمد وآل محمد، وارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري، وامتحى من المخلوقين ذكري، وصِرت في المنسيّين كمن قد نُسي. إلهي كبُر سنّي، ورقّ جلدي، ودقّ عظمي، ونال الدهر مني، واقترب أجلي، ونفدت أيامي، وذهبت شهواتي، وبقِيت تبعاتي. إلهي ارحمني إذا تغيرت صورتي، وامتحت محاسني، وبَلِيَ جسمي، وتقطّعت أوصالي، وتفرّقت أعضائي، فلا حُجّة لي ولا عذر، فأنا المُقرّ بجُرمي، المعترف بإساءتي، الأسير بذنبي، المُرتهن بعملي، المُتهوّر في بُحور خطيئتي، المتحيّر عن قصدي المُنقطع بي، فصل على محمد وآل محمد، وارحمني برحمتك، وتجاوز عني يا كريم بفضلك**»[٢].

ضوابط المحافظة على البدن

ولكي يحافظ الإنسان على هذه المنظومة الإبداعية، من جمال جسده وروحه

(١) تفسير الأمثل، ج ١٢، ص ٣٦٨ – ٣٦٩

(٢) الصحيفة العلويـة في الثناء والمناجاة، ص ٧٤ – ٧٥

وعقله، كان لزاماً عليه اتّباع الإرشادات والتعاليم الإلهية، التي أنزلها اللّه تعالى على أوليائه من الأنبياء والأئـمة المعصومين ﴿عليهم السلام﴾. فقد وضـع اللّه تعالى ضوابط إيجابية أمر الناس باتّباعها ومراعاتها والالتزام بها:

الضابطة الأولى: مراعاة الاتزان والاعتدال في الأكل والشرب[1].

---

(١) الماء أساس الحياة... لا يعتقد الكثير من الناس بوجود علاقة بين الماء والتغذية الجيدة رغم أنه يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد الأوكسجين كمواد ضرورية للحفاظ على حياة الإنسان.
فوائده:
- أكثر المشروبات المطفئة للعطش وفرةً، وأقلها تكلفةً.
- يحتاجه الجسم للقيام بكل الوظائف بما فيها العمليات الكيميائية.
- تنتقل المغذيات الضرورية إلى خلايا الجسم بواسطة المركبات المائية في الدم.
- يعمل كوسط واقٍ لخلايا الجسم.
- يساعد التعرق على الحفاظ على درجة حرارة الجسم الطبيعية خاصّةً في الجو الحار، والرطب.
- مادة مزيتة ضرورية للجسم.
- شرب الكثير منه يقي من حصى الكلى.

سلبياته: يمكن أن يتلوث بسهولة بالكائنات الحية الدقيقة، والملوثات الأخرى. الماء- المكون من جزأين من الهيدروجين وجزء واحد من الأوكسجين «H20 هو أكثر الموادّ وفرةً في جسم الإنسان؛ حيث يشكل حوالي ٥٠ إلى ٦٥٪ من وزن الشخص البالغ معتدل الجسم، وبالرغم من أنه لا يحتوي على أيّ سعرات حرارية، أو مغذّيات أخرى؛ إلّا أنّ الجسم البشريّ لا يعيش دون ماء لمدة تزيد عن أيام قلائل، (في حين أنّه يستطيع الإنسان السليم أن يعيش لمدة ٦ إلى ٨ أسابيع دون طعام)، إن فقدان ٥ إلى ١٠ ٪ من الماء يؤدّي إلى جفاف خطير، وحدوث الوفاة في الغالب عندما تصل النسبة إلى ١٥ أو ٢٠ ٪.

يحتوي جسم الشخص البالغ على حوالي ٤٥ لتراً من الماء ٣٠ لتراً منها تدور ضمن خلايا الجسم، وتسمى: بالسائل الضمنخلويّ (واقع ضمن خليّة بروتوبلازمية)، وتشكل ثلاثة لترات من الخمسة عشر لتراً الباقية بلازما الدم الذي ينقل البروتين، والمغذيات الأخرى التي تستطيع أن تخترق جدران الأوعية الشعرية، أمّا الإثنا عشر لتراً المتبقية فتؤلف السائل البينفرجي (الواقع بين الفُرَج)، والذي يحيط بالخلايا التي تصنع اللمف، والإفرازات الأخرى، ويوجد تبادل مستمر بين سوائل الخلايا الداخلية، والخارجية من خلال الأغشية الخلوية باستثناء نسيج العظام الذي يتشبث بالماء الموجود داخله بقوة.

وظائف حيوية:
يُعدُّ الماء ضرورياً لكل وظائف الجسم؛ حيث يُستخدم لعملية الهضم، والامتصاص، ونقل المغذيات، ويعمل كوسيط للعلميات الكيميائية، ومذيب لفضلات الجسم، ومخفف لها أيضاً يُقلّل سُمّيّتَها، ويساعد في عملية طردها من الجسم، كما يساعد في تنظيم درجة حرارته، بالإضافة إلى ذلك فإنّه يوفر وسادة واقية لخلاياه ويقي الجنين النامي في شكل سائل السَّلي، وهو لازم لبناء كل أنسجة الجسم، والمادة الأساسية في تكوين الدم، والإفرازات السائلة(الدموع، واللعاب، وعصائر المعدة، والسائل المزلّق، وسوائل أخرى عديدة) التي تزيت الأعضاء والمفاصل الأخرى كما يحافظ على نعومة الجلد.

تقل كمية السوائل في الجسم إلى حد ما كلّما تقدمنا في العمر، فعلى سبيل المثال يشكل الماء ٧٥ إلى ٨٠٪ من جسم الرضيع حديث الولادة مقارنة ب ٥٠٪ بعد سن الخامسة والستين، أو السبعين، وينعكس هذا الجفاف في تجاعيد الجلد، وانخفاض في إفراز اللعاب، وتصلب المفاصل الذي يظهر بشكل طبيعي مع التقدم في العمر.

الاحتياجات اليومية: =

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1] الآية: المباركة أباحت الأكل والشرب، ولكن من خلال منظومة الاعتدال وعدم الإكثار من تناول الأطعمة والأشربـة من شتّى صنوفها وأنواعها، وإنّ الإقدام على تناول الأكلات يؤدي كحالة طبيعية، إلى سيطرة الأمراض على البدن البشري، الذي

= إن متوسط احتياج الشخص البالغ للماء يتراوح ما بين ٦ إلى ٨ كؤوس يومياً، ومصدر معظم هذه الكمية هي المشروبات(مثل: الماء العادي، والقهوة، والشاي، والعصائر، والمشروبات الغازية)، وتوجد كمية كبيرة منه في الأطعمة، فمثلاً يشكل الماء حوالي ٧٠ إلى ٩٥٪ من محتوى الفواكه، والخضروات مقارنة بـ ٧٥٪ في البيض، ٤٠ إلى ٦٠٪ في اللحوم، والطيور، والأسماك و٣٥٪ في الخبز، كما أن عملية تأييض الكربوهيدرات، والبروتينات، والدهون تُنتج كميّةً صغيرةً من الماء.

تختلف الاحتياجات اليومية إلى الماء بشكل كبير من يوم لآخر: حيث نحتاج إلى كمية إضافية منه عندما يكون الجوُّ حارّاً، أو عند ممارسة الرياضة، أو عند الإصابة بحُمى ،أو زكام، أو أمراض أخرى، والكميات الإضافية من الماء ضرورية أيضاً خلال فترة الحمل لتكوين السائل السَّلي، ولزيادة حجم الدم إلى مستوى تغطية احتياجات الجنين النامي، وتحتاج المرضعات إلى زيادة المأخوذ من الماء لإنتاج الحليب، الذي يشكل الماء ٨٧٪ منه.

ينبغي أن يكون كمية المياه المستهلكة معادلة للكمية المفرزة في البول، أو البراز، والبخار الخارج من الرئتين، أو التعرق من الجلد، تزيد المركبات الغذائية الحاجة إلى الماء للحفاظ على التوازن، وتناول العقاقير المدرة للبول، والتي تزيد إفرازه، وتستلزم شرب كميات إضافية من السوائل، كما أن لشرب كميات كبيرة من القهوة، والشاي تأثيراً مُدِرّاً للبول، أيضاً مما يمنعنا من الاستفادة من شرب الشاي، والقهوة، كما تزيد المأكولات المالحة حاجة الجسم إلى المزيد من الماء للحفاظ على التوازن الصحيح للسوائل.

يؤدي انخفاض الماء في الجسم إلى انخفاض حجم الدم، وازدياد طفيف في محتوى الملح، وانخفاض إفراز اللعاب، تُحدثُ هذه التغيّراتُ عملياتٍ هرمونيّةً، وكيميائيّةً تؤدّي إلى إحساس بالعطش يمكن إطفاؤه بسرعة بشرب الماء، أو أي سائل آخر، وحتى يتم ذلك تقوم الكليتان بالحفاظ على الماء عن طريق إرجاع المزيد منه إلى مجرى الدم مما يؤدي إلى تركيز البول، (من الجدير بالذكر أن الامتناع عن شرب الماء لفترات طويلة قد يزيد خطر الإصـابة بحصى الكليتين، والمثانة).

يخف الشعور بالعطش تدريجياً عند التقدم في العمر؛ ولذا يجب على كبار السن أن يشربوا الماء بشكل مستمر حتى وإن لم يشعروا بالعطش، ويتأخر الإحساس به عند احتياج الجسم الفعلي للماء خلال ممارسة الرياضة الشديدة، أو عند ما يكون الجو حاراً، ورطباً جداً، ففي الوقت الذي تشعر فيه بالعطش يكون جسمك قد أُصيب بالجفاف سلفاً، وللوقاية من الجفاف في مثل هذه الظروف اشرب الماء، والسوائل الأخرى بانتظام.

عندما تشرب كميات من السوائل تفوق احتياج جسمك فإن الكليتين تتخلصان من الفائض بزيادة إدرار البول. وأمّا عند شرب كميات كبيرة جداً من السوائل تفوق ما يمكن للكلى أن تتحمَّله، فيقع الفائض على عاتق الخلايا، ويمكن أن يؤدي ذلك في الحالات الشديدة إلى التسمم بالماء، واختلال خطير في التوازن الكيميائي في الجسم، الذي قد يؤدّي إلى تشنجات، أو الإغماء والموت. وغالباً ما يحدث مثل هذا الاستهلاك المفرط للماء بسبب الإصابة بمرض نفسي، وهو السهاف النفسي المنشأ Psyehogenic Poldupsia، ولكنه يظهر أيضاً عند الأشخاص الذين يعانون من إصابات شديدة في الرأس، أو المصابين بأورام في الرئة كما يصيب متبعي الحميات السريعة الخاصة بإنقاص الوزن والتي تحتاج إلى شرب كميات كبيرة من السوائل. النظام الصحي عند الإمام الصادق عليه السلام للدكتور إبراهيم كسروان، ص ٦٨٥ – ٦٨٨ .

(١) سورة الأعراف الآية: ٣١.

سيكون علامة على رخاوته وضعفه، وبالتالي سيكون الإنتاج والإعمار للأرض رخواً وضعيفاً.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام للحسن ابنه عليه السلام: «**يا بني ألا أعلمك أربع خصال تستغني بها عن الطبّ**»، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، قال: «**لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقم عن الطعام إلا وأنت تشتهيه، وجود المضغ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء. فإذا استعملت هذا استغنيت عن الطب**»(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تطلب الحياة لتأكل، بل اطلب الأكل لتحيى**»(٢).

وقال أيضاً عليه السلام: «**من أكل الطعام على النقاء، وأجاد الطعام تمضغاً، وترك الطعام وهو يشتهيه، ولم يحبس الغائط إذا أتى، لم يمرض إلا مرض الموت**»(٣).

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تأكل ما قد عرفت مضرته، ولا تؤثر هواك على راحة بدنك، والحمية هي الاقتصاد في كل شيء، وأصل الطب الأزم وهو ضبط الشفتين والرفق باليدين. والداء الدوي إدخال الطعام على الطعام. واجتنب الدواء ما لزمتك الصحة، فإذا أحسست بحركة الداء فأحرقه بما يردعه قبل استعجاله**»(٤).

وقال الإمام علي عليه السلام: «**من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات: يلقى الغطاء على قلبه، والنعاس في عينه، والكسل على بدنه**»(٥).

عن عمرو بن إبراهيم، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «**لو أن الناس قصدوا في الطعام لاستقامت أبدانهم**»(٦).

---

(١) الخصال، ج١، ص ٢٥٧ ح ٦٧.
(٢) شرح نهج البلاغة، ج ٢٠، ص ٢٢٨ الحكمة ٨٢٤.
(٣) مكارم الأخلاق، ص ١٥٠.
(٤) بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ٢٦٩ ح ٦٠.
(٥) شرح نهج البلاغة، ج ٢٠، ص ٢١٩ الحكمة ٦٧٤.
(٦) المحاسن باب الاقتصاد في الأكل ومقداره، ج٢، ص ٣١٢.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**ليس بدّ لابن آدم من أكلة يقيم بها صلبه، فإذا أكل أحدكم طعاماً، فليجعل ثلث بطنه للطعام وثلث بطنه للشراب، وثلث بطنه للنفَس. ولا تسمنوا تسمّن الخنازير للذبح**»[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**لو اقتصد الناس في المطعم، لاستقامت أبدانهم**»[٢].

وقال الإمام الرضا عليه السلام للمأمون في الرسالة المذهبة المعروفة بالذهبية: «**ومن أخذ من الطعام زيادة لم يُغذِّه، ومن أخذ بقدر لا زيادة عليه ولا نقص في غذائه، نفعه. وكذلك الماء فسبيله أن تأخذ من الطعام كفايتك في أيامه، وارفع يديك منه وبك إليه بعض القَرَم** [أي شهوة الطعام]**، وعندك إليه ميل، فإنه أصلح لمعدتك وبدنك، وأزكى لعقلك، وأخفُّ لجسمك**»[٣] ومن المناسب الرجوع إلى الملمين في هذا الخصوص من ناحية علمية.

الغذاء المطلوب

يجب أن يكون متعدد النوع والشكل والطعم، وملائماً لحاجات وفعالية جسم الإنسان وذوقه، علماً بأن جسم الإنسان المتوسط بحاجة يومياً إلى (٣٠٠٠) سعرة حرارية للرجال و(٢٢٠٠) سعرة حرارية للنساء، علماً بأن الغذاء الصالح والمطلوب يجب أن تتوفر فيه المتطلبات الضرورية لنمو وبناء الجسم وإدامة الفعالية اليومية على أحسن وجه، مضافاً إليها توفر الشروط الصحية والنوعية والنفسية في الغذاء الذي يُقدَّمُ، كي يتناوله الإنسان بشوق ورغبة وإقبال.

الغذاء المتناول يتطلب أن تُراعى فيه جوانب عديدة: كالعمر، والوزن، وشروط العمل، وسلامة الإنسان، والأجواء التي يعيش فيها مضافاً إليها نوع الجنس وحالة الحمل عند النساء.

---

(١) المحاسن باب الاقتصاد في الأكل ومقداره، ج٢، ص ٣١٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ٢٦٦ ح ٣٧.

(٣) بحار الأنوار، ج٦٢، ص ٣١١ باب ٩٠ .

إنّ الوراثـة تعتبر من العوامل المؤثرة في تناول وهضم وتمثيل المواد الغذائية، وأمّا حالة الإنسان الصحية وتعرضـه للمرض أثناء تناول الغذاء، فهي عامل آخر يدخل في عملية التمثيل والتصريف.

والإسلامُ وإدراكاً منه لخطورة الموضوع حذّر على لسان القرآن الكريم: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾(١) و﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(٢).

وعن الرسول الكريم ﷺ: «**ما ملأ آدميّ وعاءً شرّاً من بطنه**».

«**نحن قـوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع**».

وعلى لسان وصي رسول اللّه علي عليه السلام: «**كثرة الطعام تميت القلب كما تميت كثرة الماء الزرع**».

والإمام الصادق عليه السلام: «**الأكل على الشبع يورث البرص**».

كثرة الطعام:

قال أمير المؤمنين عليه السلام علي عليه السلام: «**إياكم والبطنة، فإنها مقساة للقلب، مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسد**».

و«**إذا مُلىء البطن من المباح عُميَ القلب عن الصلاح**».

و«**قلة الأكل تمنع كثيراً من أعلال الجسد**».

و«**من قـلّ أكله صفي فكره**».

الأعـراض التي تحدث بسبب كثرة الطعام (السمنة):

١- أعراض نفسية تصيب الإنسان بسبب الحسد وزيادة الوزن، وعدم القدرة على مجاراة الأخرين وإنجاز الأعمال الخاصة والعامة.

---

(١) سورة عبس، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

٢- أعراض عملية وفيزيولوجية: المصاب بالسمنة لا يمكنه القيام بالأعمال العادية كبقية الناس؛ لأنّـه بطيء الحركة، سريع التنفس، ترهقه الأعمال البسيطة ويتعثر بأبسط الأشياء أثناء العمل.

٣- كثرة التعرض للإصابة بالأمراض الجلدية.

٤- الاستعداد للإصابـة بالأمراض التنفسية.

٥- الإصـابة بارتفاع ضغط الدم.

٦- الإصابة بمرض تصلب الشرايين.

٧- الإصابة بمرض تخثر الأوردة الدموية.

٨- الاستعداد للإصابة بالجلطة القلبية والدماغية.

٩- ازدياد الإصـابة بمرض السكر.

١٠-الاستعداد للإصابة بالأمراض الكلوية المختلفة.

١١- الاستعداد للإصـابة بالتهاب المرارة وتكلس الإفرازات داخلها.

١٢-التهاب المفاصل وضعف العظام.

١٣- التعرض للإصابة بداء النقرس.

١٤- التعرض للخطورة أثناء إجراء العمليات الجراحية.

١٥-قصر العمر والتعرض للمضاعفات.

بعد هذا الاستعراض الموجز لمضارِّ الإسراف في تناول الطعام والمضاعفات الناتجة عنه ندقق بإمعان كثير بقول الإمام علي عليه السلام: «**كم من أكلت منعت أكلات**» الذي يحذرنا من خطورة الإسراف في تناول المواد الغذائية وعدم الالتزام بالتعليمات الصحية والدينية التي ينتج عنها أنـواع الأمراض جرّاء الإهمال المتعمد أو غير المتعمد.

إن الأبحاث والدراسات أكّدت أنَّ الناس الذين ينسون أنفسهم في كثير من

الحالات، ويقدمون على تناول وجبة غذائية كبيرة ودسمة، أو مسمومة أو حارة الطعم والمذاق لا تتحملها المعدة والبدن، يتعرضون إلى صدمات نفسية وطبية آنية وسريعة أو بعد ساعات، بحيث تصبح تلك الأكلات سبباً مباشراً أو غير مباشر لإضعاف وتحطيم قابلية الإنسان لتناول الطعام لمدة قصيرة أو طويلة طبقاً للمسبّب الذي أدى إلى حدوث الأعراض الناتجة من جراء تناول الوجبة المؤذية. ومن المناسب أن نستعرض بعض الأعراض والأمراض التي تحدث نتيجة ذلك الخطأ الغذائي:

الأعراض والأمراض:

١- الحسد وما يتبع من أمراض نفسية وجسدية.

٢- أضرار روحية وجسدية نتيجة تناول الطعام الحرام.

٣- العقوبة أو دخول السجن في حالة تناول الطعام المغصوب والمسروق.

٤- حدوث حروق وجروح موضعية في جدار الفم نتيجة تناول الغذاء الحار.

٥- حدوث الشرقة أثناء تناول الطعام قد يؤدّي إلى مضاعفات خطيرة أو الموت.

٦- تناول وجبة غذائية كبيرة تحتوي على الدهون بالخصوص ليلاً قد يؤدّي إلى حدوث سكتة قلبية قاتلة.

٧- تناول وجبة غذائية كبيرة قد يقود إلى التهابٍ حادٍّ للمعدة.

٨- حدوث قرحة في المعدة والمريء في حالة تناول غذاء يحتوي على توابل وحوامض.

٩- تناول الأغذية الخادشة (كالتوابل التي تحتوي على مركبات كيميائية) قد ينتج عنها نزف في المعدة والاثني عشري.

١٠-قد يؤدي الغذاء الملوث إلى حالة تقيُّؤ شديدة يصاحبها نزف دمويّ.

١١-الغذاء الملوث أو المسموم قد ينتج عنه حالـة إسهال شديدة كالتلوث بضمّات الكوليرا وغيرها.

١٢-يصاب الإنسان بضعف عام وجفاف شديد في البدن، نتيجةً لفقد الكثير من السوائل وعدم تناول الغذاء.

١٣-الإغماء في حالات التسمم الشديد بالمواد الكيميائية.

١٤-الإصابة بأنـواع الدزنتري الحاد والمزمن.

١٥-بروز الحساسية الغذائية، الحادة والمزمنة.

١٦-إضطراب والتهاب الكلى والمجاري البولية.

١٧-التهاب فتحة المخرج والبواسير الشرجية.

١٨-حدوث توسع حادّ في المعدة وما يصاحبها من مضاعفات قد تؤدي إلى الموت.

١٩-إنفتال المعدة أو الأمعاء.

٢٠-الإصـابة بالجلطة الرئوية نتيجة حدوث تخثرات في القلب أو القدمين.

٢١-الإصـابة بالجلطة الدماغية نتيجة حدوث تخثرات أو ارتفاع ضغط الدم.

٢٢-إلتهاب الكبد الحاد أو المزمن.

٢٣-الإصـابة بحالة إنهيار عصبي.

٢٤-إلتهاب اللثـة والأسنان.

٢٥-إلتهاب البنكرياس الحاد.

٢٦-إلتهاب المرارة الحاد.

٢٧-حدوث انفجار معوي حاد.

٢٨-إلتهاب الزائدة الدودية.

٢٩-إصـابة الأمعاء بمرض السل في حال تلوث الغذاء بميكروب السل.

٣٠-حدوث فتوق مختلفة في الجسم السروي والمغبني.

من كل ما تقدم نستخلص أن تناول الطعام بنهم وإسراف يؤدي إلى مشكلات كثيرة قد تعرّض حياة الإنسان للخطر؛ ولو تمعنّا في الحكمة الدينية والنصيحة الطبيّة التي أوصى بها الإمام عليه السلام: «**لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقم عنه إلا وأنت تشتهيه، وجوّد المضغ، واعرض نفسك على الخلاء إذا نمت، فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب**» لما وقعنا في خطأ أو مشكلات، ولما احتجنا إلى مراجعة طبيب وتضييع الوقت، وخسران الصحة والمال.

إنها بحق نصيحة طبية خالدة، نافعة، شاملة، هدفها الأساسي سلامة الإنسان والحفاظ على حياته وصحته وتفكيره؛ علماً بأن الذين يتناولون الطعام بكميات كبيرة تنتابهم حالات مرضية عديدة:

أولاً: ضعف القدرة على التفكير والكتابة والأعمال الحسابية التي تحتاج إلى الذكاء والتفكير، لأن كميات كبيرة من الدم يقوم الجسم بسحبها من الدماغ والرئة والقلب والعضلات إلى المعدة والأمعاء، للمساعدة على هضم تلك الكمية من الغذاء الداخل إلى الجهاز الهضمي.

ثانياً: أن نقص كميات الدم التي تزود الدماغ تؤدي إلى الشعور بالنعاس وحب النوم، والرغبة في تأجيل الأعمال الملقاة على عاتق الإنسان؛ لكون الخلايا الدماغية أصبحت غير قادرة على القيام بوظائفها بصورة صحيحة.

ثالثاً: إن إتخام المعدة بكميات كبيرة من الطعام يقود الإنسان إلى الخمول والكسل بسبب ما ذكرناه، لذلك نلاحظ أن الإنسان المتخم يميل إلى التراخي والإهمال بدل النشاط والعزيمة[١].

(١) النظام الصحي عند الإمام الصادق عليه السلام للدكتور إبراهيم كسروان أخصائي في الطب المخبري السريري شهادة جامعية بأمراض الجلد دبلوم في طب الأعشاب ط دار المحجة البيضاء الأولى ٢٠٠٦، ص ٦٦٤ - ٦٦٨.

الضابطة الثانية: الحمية والوقاية

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[1] تمثل هذه الآية: الكريمة القانون في الاعتدال والتوازن في مسألة تناول المواد الغذائية، حيث تساعده على اتباع منهج معتدل في الحمية الغذائية، وسلوك الوقاية الصحية من الأمراض المزمنة، والتي باتت تنتشر مثل النار في الهشيم في زماننا المعاصر، وذلك من الوجبات السريعة، والتي تحتوي على الكثير من الدهون.

والآية المباركة تعرض جملة من المواضيع المهمة والأساسية في حياة الإنسان، حيث بيّنت أن اللّه تعالى خلق أنـواعاً كثيرة من المزارع والبساتين الطبيعية، والتي تحتوي على كميات هائلة من الأشجار والنباتات، والتي تحمل ما لذّ وطاب من الفواكه والثمار، وتخلب بمنظرها الساحر العيون والألباب، ثم بعد ذلك تسرد الآية: المباركة جملة من الثمار التي يحتاجها البدن البشري، إذ بيّن من جملتها النخيل والزرع والزيتون والرمّان وسائر النعم المبثوثة في أرجاء الأرض، وإشارةً إلى أن هذه النعم تختلف في الجوهر من حيث الطعم واللون والرائحة، وكلٌّ منها لها نكهة خاصة، تميزها عن غيرها على الرغم من أن جميعها ينبت من أرضٍ واحدة، ويسقى من نفس الماء، إلا أن الاختلاف هو سمة الإبـداع والجمال الإلهي، بعدها تحاول الآية: المباركة وضع مرتكز أساس للإنسان، هو بحاجة إليه في شتى صنوف حياته، وهو وضع منهج ونظام غذائي وفق منظومة الاعتدال والاتزان، في حين أن الآية: الكريمة أعطت تصريحاً عاماً في تناول ما لذّ وطاب من هذه النعم الإلهية، بشرط عدم الإسراف في تناول هذه الأغذية، لكون كثرتها تؤدي إلى مضاعفات وعلل في البدن البشري، ومن هذا المنطلق ومن خلال الآية: الكريمة يجب علينا أن نضع منهجية لنظام غذائي، ينظم الأوقات والكميات التي يجب أن نتناولها من المواد الغذائية، وهذا السلوك يقطع علينا تلك الطرق التي تؤدي إلى الأمراض والعلل لدى الإنسان.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

والآية المباركة ترشدنا إلى اتباع الحمية الغذائية، من خلال وضع النظام الغذائي الذي يركز على برمجة تناول الطعَام وعدم الإكثار منه.

فالآية الكريمة وصفت هذه المأكولات بأنّها مختلفة الشكل والرائحة والطعم، وأنّ حركة شهوة الإنسان في تناولها، والإكثار منها سوف تؤدي إلى نتائج سلبية، سيحصدها في المستقبل. ومن هنا تسعى الآية: الأخرى من سورة الأعراف، إلى ضرورة الاتزان والاعتدال في الأكل والشرب لما له من نتائجَ إيجابيّةٍ، إذ يقول اللّه تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(١).

ومن التوصيات والإرشادات التي أصدرها الأئمّة المعصومون عليهم السلام في هذا المجال، حيث ما قاله الإمام الرضا عليه السلام: «**لو أن الناس قصروا في الطعام لاستقامت أبدانهم**»(٢).

إنّ قضية سلامة البدن البشري مبنية على أنواع وكميات الطعام الذي يتناوله الفرد، على أن الاقتصاد في ذلك يوفّر على الإنسان الكثير من المعاناة التي تصيبه، والإمام الرضا عليه السلام، يقول، بأنّ الإنسان إذا اقتصد في طعامه وشرابه فإنه لن يحتاج الذهاب إلى المستشفيات أو العيادات الخاصة لكي يُعالج، ويدفع ذلك المبلغ الضخم من الدنانير، على أن العلاج موجود لو أنه اتبع أسلوب الرعاية الوقائية، وذلك من خلال الابتعاد عن كثرة تناول المواد الغذائية، وأن يُراعي المادَّةَ المناسبة له صحيّاً.

وعن الإمام أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام قال: «**ليست الحمية من الشيء تركه، إنّما الحمية من الشيء الإقلال منه**»(٣).

هنا الإمام عليه السلام يضع قاعدة عامة وتربوية خاضعة لموازين الدرجة تلو الدرجة، إذ من يريد أن يضع تخطيطاً متكاملاً يخضع لضوابط ومدى الانسجام

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) مكارم الأخلاق، ص ٣٨٠.

(٣) مكارم الأخلاق، ص ٣٨٠.

البدني، عليه أن لا يفكر في مسألة ترك الأطعمة كلياً، وذلك لأنه يريد أن يعالج قضية ميسورة في اليد، علاجها خاضع للتنظيم الغذائي، في حين أنه من خلال تركه الطعام كلياً يقع في قضية أكبر من الأولى، فالإمام عليه السلام يقول: ليست الحمية الغذائية هي ترك تناول المادة الغذائية، وإنّما هي مسألة تقنين وتنظيم الغذاء، على أن تكون وفق منظومة متكاملة يضعها الإنسان يحدد فيها أوقات تناول الأطعمة، في حين أنها ليست خاضعة للتعقيد ولا هي منطوية تحت عباءة اللامبالاة، وإنما هي تسعى إلى التوازن والاعتدال في تناول الأطعمة الغذائية، وهناك حديث يؤكد على أن الغاية من الحمية هي الحفاظ على رشاقة وحيوية البدن.

يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**رأس الحمية الرفق بالبدن**»[١].

إلّا أنّ ثمةَ تحذيراً ينبغي الاهتمام به، وهو أنّه ليس كل إنسان يرغب في تطبيق الحمية الغذائية يمكن أن يقدم عليها بحسب رغبته، وليس كل إنسان لا يرغب في ذلك، لا يقبل تنفيذها؛ وإنما هناك ضوابط وقوانين من اللائق معرفتها والإحاطة بكنهها، إذ، ليس على الإنسان الذي لا يعاني من أي معاناة جسدية أن يطبق الحمية الغذائية، بنفس الأسلوب الذي ينبغي على شخص مريض يتبع برنامجاً معيّناً ومحدَّداً له، وليس على ذلك الذي ينبغي له التقيّد ببرنامج غذائي، أن يمتنع عن الحمية الغذائية.

يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**إثنان عليلان أبداً، صحيحٌ محتمٍ، وعليلٌ مُخلّط**»[٢].

الإمام عليه السلام يطلق على هذين الشخصين بالمريضين، إذ يبيّن أن ذلك الإنسان الصحيح من كل آفة بدنية يتبع الحمية؛ هذا الإنسان يقول الإمام عنه بأنه مريض، لأنه يسعى من هذا العمل إلى تخريب النظام الذي يتبعه من خلال تطبيق البرنامج بأسلوب خاطئ، بينما الشخص الثاني أقرب إلى اللامبالاة في صحته، من خلال

(١) بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ١٤١ باب ٥٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ١٤١ باب ٥٥.

التهور في تناول شتى المأكولات المختلفة، وبكل أنواعها الدسمة وذات الدهون، التي تزيد من كثرة الشحوم وتضاعف من حجم المعدة.

حضر أبو عبد اللّه عليه السلام مجلس المنصور يوما وعنده رجل من الهند يقرأ كتب الطب فجعل أبو عبد اللّه عليه السلام ينصتُ لقراءته فلما فرغ الهندي قال له: يا أبا عبد اللّه أتريد مما معي شيئاً؟ قال: «**لا فإنّ معي ما هو خير مما معك**» قال: وما هو؟ قال: «**أداوي الحار بالبارد والبارد بالحار والرطب باليابس واليابس بالرطب، وأرد الأمر كله إلى اللّه عز وجل وأستعمل ما قاله رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم واعلم أن المعدة بيت الداء والحمية هي الدواء وأعوَدُ البدن ما اعتاد**»، فقال الهندي: وهل الطبُّ إلّا هذا، فقال الصادق عليه السلام: «**أفتراني من كتب الطبّ أخذت؟**» قال: نعم قال: «**لا واللّه ما أخذت إلّا عن اللّه سبحانه**»[١] قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تُنال الصحة إلّا بالحمية**»[٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**صلاح البدن الحمية**»[٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من لم يصبر على مضض الحمية طال سقمه**»[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا وقايةَ أمنع من السلامة**»[٥].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا حِميَة لمن لا أنَفَةَ له**»[٦][٧].

---

(١) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام الحمية، ج٣، ص ١٠٢.

(٢) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام الحمية، ج٣، ص ١٠٢.

(٣) غرر الحكم، ص ٢٣٧ ح ٤.

(٤) غرر الحكم، ص ٣٦٤ ح ١٤٣٣.

(٥) غرر الحكم، ص ٤٣٢ ح ٣٣٨.

(٦) غرر الحكم، ص ٤٢٧ ح٩٦.

(٧) الحمية الطبية... كلمة الحمية كلمة عامة واسعة المعنى تتناسب وحالة كل فرد. ففي أمراض الغنى يكون هدف الحمية تجويع المريض وإبعاده عن طعامه المشبع والمثقل بالدسم واللحوم والأغذية البروتينية، إلى طعام نباتي خفيف وحمية نباتية صافية. وأما في أمرض الفقر فيكون الهدف من الحمية إغناء الطعام بما ينقصه من البروتينات والدسم والسكريات والعناصر الحيوية. وفي الفئة المتوسطة بين الغنى والفقر فهدف الحمية هو تنقية الدم من حين لآخر.
قد تكون الحمية وقائية أو تكون علاجية، وفي كلتا الحالتين تعرف الحمية بالبعد عن التفريط. وكما وجد علماء الأحياء فالمواد العضوية لا تحوي سوى (٣٦) عنصراً من مجموعة مندليف الـ (٩٦) المعروفة.
وتختلف نسبة هذه العناصر كمية حسب الجدول التالي: =

=
- الأكسجين،٨١، ٦٢ ٪ من المادة الحية.
- الفحم٣٧، ١٩ ٪ من المادة الحية.
- الهيدروجين ٣١، ٩ ٪ من المادة الحية.
- الآزوت ١٤، ٥ ٪ من المادة الحية.
- الكالسيوم ٣٨، ١ ٪ من المادة الحية.

ثم يلي الكبريت، الفوسفور، الصوديوم، البوتاسيوم، وقد صنَّف علماء الأحياء هذه العناصر إلى صنفين:

العناصر المهيكلة: وهي التي تكون هيكل المادة العضوية الحية وتشكل البروتينات والسكاكر والدسم.

العناصر الوسطية: وهي التي توجد بمقادير قليلة، ولها شأن كبير وخطير في الوظائف العضوية مثل الفيتامينات والهرمونات. وإن التوازن بين هذين النوعين من المواد المؤلفة للعضوية، هو الذي يحدد الحمية المطلوبة. ولذلك اختلفت الحميات حسب حالة المريض.

النظام الغذائي:

يحتاج الكائن الحي إلى مواد قابلة للتمثل كي تولد عنه الحركة والحرارة... وهما دليل الحياة، فإذا تناول الإنسان أو الحيوان غذاءً ما، يتعرض هذا الغذاء إلى سلسلة من التفاعلات الكيميائية الحيوية يقصد منها تهيئته للتمثل، أي تحويل تركيبه المعقد بانفلاق ذراته إلى العناصر الأساسية التي تتكون منها الخلية. وهذه العناصر هي الفحم (الكربون)، الأوكسجين، الهيدروجين، والآزوت.

وإن تحطيم ذرات الغذاء يكسب الجسم قوة وحرارة، فتنبعث في ذراته الحياة ويتولد فيها الحركة والنشاط.

... يتكون الجسم الإنساني من ٦٣٪ ماء، و٢٢٪ بروتين، ١٣٪ دهون، ٢٪معادن وفيتامين، وقد تكونت كل خلية من خلاياه من الغذاء الذي يتناوله والماء الذي يشربه، ويساعد أكل الغذاء عالي النوعية وبالكميات المناسبة على تحقيق الصحة العالية والعافية والحيوية والتخلص من الأمراض.

لقد ابتعدَ نظامنا الغذائي الحالي كثيراً عن التوازن المثالي، وابتدأنا منذ عقدين من الزمن نأكل كثيراً من الدهون المشبعة والسكريات وقليلاً من النشا (الكربوهيدرات المعقدة) والدهون متعددة اللاتشبع، والدعاية جزء من المشكلة فقد قادتنا للإعتقاد بأننا طالما تناولنا غذاءً متوازناً فسنحصل على كل ما نحتاجه من المغذيات، ولكن الأبحاث والدراسات أظهرت أنه حتى الناس الذين يعتقدون بأنهم يمارسون حمية غذائية متوازنة يفشلون في الحصول على حصيلة مناسبة من الفيتامينات، المعادن والدهون الأساسية والكربوهيدرات المعقدة.

إن تكرير الغذاء يجعله مفتقراً للمغذيات الأساسية، وقد عودتنا مصانع الغذاء على تناول الغذاء المحلي، فالسكر سهل البيع وكلما أكثرنا منه لم نترك مجالاً لكاربوهيدرات أقل حلاوة، وقد تقاعسنا وصرفنا القليل من الوقت لتحضير الغذاء الطازج، وكثر الإعتماد على الوجبات الجاهزة من شركات همُّها جني الأرباح أكثر من صحتنا.

الكربوهيدرات:

المواد السكرية تسمى ماءات الفحم أو المواد الهيدروكاربونية: وتشمل السكاكر والنشويات الموجودة في القمح والبطاطا والأرز والحبوب. وهي الوقود الأساسي للجسم، وتأتي الكربوهيدرات عادة بشكلين: سريعة الإطلاق (Fast – Releasing) كما في السكر، والعسل، والحلويات ومعظم الأغذية المكررة، وبطيئة الإطلاق (Slow Releasing) كما في الحبوب، والخضار والفاكهة الطازجة. وتحتوي الفاكهة على كثرة من الكربوهيدرات المعقدة والألياف اللتين تعملان على إبطاء إطلاق السكر.

هذا وتعطي الكربوهيدرات سريعة الإطلاق ومضة سريعة من الطاقة ثم تتوقف بينما تعطي الكربوهيدرات بطيئة الإطلاق دفعات متصلة، ومستمرة من الطاقة وعليه تكون أفضل.

وأمّا الغذاء المكرر (Refined) كالسكر والطحين الأبيض فإنه يخلو من الفيتامينات والمعادن التي يحتاجها الجسم ويفضل لذلك الإبتعاد عنه، كما أن الإستخدام المستمر للكربوهيدرات سريعة الإطلاق يمكن أن يؤدّي إلى عوارض معقدة ومشكلات صحية، وتحتوي بعض الفاكهة كالموز والتمر كربوهيدرات سريعة =

= الإطلاق لذا يفضل أن تؤخذ بالحد الأدنى لا سيما من قبل من يشكو من مشكلات صحية متصلة بالسكر، بينما يتوجب تضمين ثلثي ما تأكله يومياً، أو ما يعادل ٧٠٪ من وحدات الطاقة اليومية، من كربوهيدرات بطيئة الإطلاق كالفاكهة والخضار الطازجة والحبوب.

البروتين:

المواد البروتينية أو الآزوتية وتسمى بالزلالية: وهي موجودة في اللحم والبيض والجبن والبقول والحبوب. تعتبر الأحماض الأمينية الخمس والعشرون(المكونة للبروتينات المختلفة) مادة بناء الجسم، وهي إضافة لكونها حيوية لنمو وإصلاح أنسجة الجسم فهي تستخدم في تكوين الهرمونات والأنزيمات والأجسام المضادة والموصلات العصبية، وتساعد في نقل المواد داخل الجسم، ويحتل كل نوعية من هذه البروتينات (المحدودة بتوازن الأحماض الأمينية) وكمية المتناول منها أهمية كبيرة في تحقيق التغذية الصحية المناسبة.

يتلقى الرضيع من حليب أمه ١٪ فقط من مجمل وحدات الطاقة من البروتين ومع ذلك يتمكن من مضاعفة وزنه خلال ستة أشهر من الولادة، وذلك لأن بروتين حليب الأم ذو نوعية جيدة ويسهل إمتصاصه.

وبإفتراض تناول بروتين جيد. فإن ١٥٪ من محصول وحدات الطاقة (أو ٣٥غـم بروتين في اليوم) تعتبر مناسبة لمعظم البالغين، إلا إذا كانوا حوامل أو بدور النقاهة بعد عملية جراحية أو ممن يمارسون التمارين الرياضية الشديدة أو أعمالاً مرهقة.

تشمل مصادر البروتين الغذائي ذي النوعية الجيدة، من حيث توازن الأحماض الأمينية فيه، كلّاً من البيض، فول الصويا، اللحوم، الأسماك، البقول والعدس، وتحتوي مصادر البروتين عادةً على كمية كبيرة من الدهون المشبعة غير المرغوب بها. وأمّا مصادر البروتين في الخضار فهي تحوي على كمية مضافة من الكربوهيدرات المعقدة المفيدة وهي مقلة في استحداث الحموضة مقارنةً باللحوم، ومن الصعوبة أن لا تأخذ كمية مناسبة من البروتين في أيِّ حمية غذائية مهما كان مصدرها. وتحتوي معظم الخضار ولا سيّما (الحبوب) كالفاصوليا والبازيلا والذرة، على نسبة جيدة من البروتينات وتساعد في معادلة الحموضة الزائدة التي تؤدي إلى فقدان المعادن ومنها الكالسيوم. لذا نجد أن معظم المصابين بترقق العظام هم من الذين يعتمدون في غذائهم على اللحوم.

الدهون:

المواد الدهنية وتسمى بالشحمية: وتشمل الزيوت الحيوانية والنباتية والأدهان. هناك نوعان أساسيان من الدهون: المشبعة (الصلبة)، وغير المشبعة. وإن تناول الدهون المشبعة غير ضروري والإكثار منها غير ملائم، ومصادرها الأساسية هي اللحوم ومشتقات الألبان، وهنالك نوعان من الدهون غير المشبعة: أحادية اللاتشبع ومصدرها الغني زيت الزيتون والدهون متعددة اللاتشبع الموجودة في اللوزيات وزيوت الحبوب والسمك.

وهناك نوع خاص من الدهون متعددة اللاتشبع تسمى (Linolenie Acid) و(Linolenie (Acid,) أو (6,3 Omega) وروية جداً للدماغ والجهاز العصبي، وجهاز المناعة، الجهاز القلبي الوعائي والجلد. ومن العوارض المشتركة لنقص هذه المواد جفاف الجلد، ويوفر الغذاء المناسب توازناً بين هذين الدهنين الأساسيين، ويزخر اليقطين وحبوب الكتان بمادّة Linolenie Acid أو Omega 3 بينما تمتلئ حبوب السمسم وزهرة الشمس بال Linolenie Acid أو Omega 6ويتحول Linolenie Acid داخل الجسم إلى EPA,DHA اللذين يتواجدان أيضاً في سمك التونة والسلمون والرنكة والأسقمري. وتتلف هذه الدهون الأساسية بسرعة عند التعرض للحرارة أو الأوكسجين.

يحتوي الغذاء المصنع (PROCESSED) غالباً على دهون متعددة اللاتشبع صلبة أو مهدرجة وهذه أسوء من الدهون المشبعة ويستحسن تجنبها.

الألياف:

الإستهلاك النموذجي للألياف يجب أن لا يقل عن ٣٥ غم يومياً. ومن السهل أخذ هذه الكمية من الألياف – =

= لكي تمتص الماء في القناة الهضمية فتجعل الغذاء متجمعاً مما يسهل إخراجه خارج الجسم – وذلك بتناول الحبوب الكاملة، الخضار، الفاكهة، البندق، البذور، العدس، الفاصوليا، على أساس يومي، وتعمل ألياف الفاكهة والخضار على تخفيض معدل امتصاص السكر في الدم، وبهذا تساعد في إدامة مستوى جيد من الطاقة في الجسم. وتعتبر ألياف الحبوب جيدة بشكل خاص في منع الإمساك وتجمع الغذاء اللذين يسببان عدداً من المشكلات المعدية. وتخلو الأغذية المكررة والمحضرة مع اللحوم، البيض، السمك، أو منتجات الألبان، من الألياف عادة.

الماء:

يتألف ثلثا الجسم من الماء وعليه فهو مغذ، ويخسر الجسم ١،٥ليتر من الماء يومياً عبر الجلد، والرئتين والأمعاء، وعبر الكليتين بشكل بول، لضمان تخلص الجسم من المواد السامة، كما تصنع أجسامنا ثلث لتر من الماء يومياً عند ما يُحرق الغلوكوز أثناء التنفس وعليه يتوجب أن لا يقل الحد الأدنى للماء الذي نأخذه من الغذاء والشراب عن لتر في اليوم. والكمية المثالية لما يفترض أخذه من الماء يومياً هي ليتران (٨-١٢) كوباً).

تتكون الفاكهة والخضار من ٩٥٪ من الماء الذي ينتقل إلى أجسامنا بطريقة يسهل فيها استخدامه، وفي الوقت نفسه يُزوِّد الجسم من خلال هذه الأطعمة بالفيتامينات والمعادن. ويمكن لأربع حبات من الفاكهة وأربع وجبات خفيفة من الخضار أن تزوِّد الجسم بلتر من الماء ويتم التزود باللیتر الآخر عن طريق شرب الماء أو العصائر المخففة، ويسبب كل من الشاي والقهوة فقدان الماء، فعليه لا ينصح بهما كمصدران للماء ناهيك عن كونهما يسلبان الجسم معادنه الحيوية.

لست في حاجة لأن تحسب مقادير ما تشربه من الماء وليس هناك في العادة ضرر من الزيادة في تقدير المتطلبات والحاجة العامة للإنسان تتلخص في الإيعازات التالية:

- اشرب الماء قبل ممارستك الرياضة وأثناءها وبعدها.
- احرص على شرب الماء أو السوائل قبل تناولك للطعام بنصف ساعة وبعد تناولك الطعام بساعتين.
- إذا أحسست بالعطش فاشرب على الفور.
- إذا احتسيت قهوة أو شاياً أو مشروباً آخر محتوياً على الكافيين، فاشرب معها مقداراً زائداً من السوائل.
- إذا مال بولك إلى الدكونة في اللون، فإنك ربما كنت بحاجة إلى الماء.
- أكثر من أكل الخضار والفواكه يومياً.

الفيتامينات:

الفيتامينات تفعّل الأنزيمات التي تجعل فعاليات الجسم ممكنة، كما أنها مهمة في موازنة فعل الهرمونات وإنتاج الطاقة، وتنشيط جهاز المناعة، وتحافظ على صحة الجلد والشرايين، كما أن للفيتامينات دوراً مهماً في عمل الدماغ والجهاز العصبي. ويمكن القول بأن للفيتامينات دوراً فاعلاً في جميع فعاليات الجسم، تعمل الفيتامينات E,A,C كمضادات أكسدة (ANTI OXIDANTS) فهي بذلك تعمل على إبطاء الشيخوخة والمحافظة على الجسم من الإصابة بالسرطان وأمراض القلب والتلوث، وتعمل الفيتامينات B و C على تحويل الغذاء إلى طاقة فكرية وجسدية، وأمّا فيتامين D (الموجود في الحليب والبيض والسمك واللحوم) فهو يساعد في السيطرة على توازن الكالسيوم ويمكن أن يصنع هذا الفيتامين في الجلد بوجود ضوء الشمس. وتزخر الأغذية الحية، كالفاكهة والخضار الطازجة، بالفيتامين B و C.

من ناحية أخرى يأتي الفيتامين A بشكلين: الريتنول (RETINOL) وهو الشكل الحيواني الموجود في اللحم، الأسماك، البيض، ومنتجات الألبان. والبيتاكاروتين (BETA CAROTENE) النباتي الموجود في الفاكهة والخضار الحمراء والصفراء، ويتوفر الفيتامين E في البذور والبندق وزيوتهما. ويعمل هذا الفيتامين على المحافظة على الدهون الأساسية لدى النساء.

المعادن:

المعادن مهمة للقيام بكافة فعاليات الجسم تقريباً، فالكالسيوم والمنغنيزيوم والفوسفور تساعد في تكوين =

فوائد علمية

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةً يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾(١).

أولاً: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ...﴾.

يخلق اللّه تعالى جنين الإنسان بإخصاب نطفة مختارة من بين مئات نطف

= العظام والأسنان وتعتمد الإشارات العصبية الحيوية للدماغ والأعصاب على الكالسيوم والمنغنيزيوم والصوديوم والبوتاسيوم، وينقل الأوكسجين في عموم الجسم من قبل المركبات الحديدية، كما يساعد الكروم في السيطرة على عمل مستوى السكر في الدم، وللزنك أهمية بالغة في تصليح وتجديد أنسجة الجسم كما أنه ينشط النظام المناعي.

وتعتمد فاعلية الدماغ على وجود كميات مناسبة من المنغنيزيوم والمانغنيز والزنك مع عدد آخر من المعادن الحيوية. وهناك حاجة يومية لكميات كبيرة من الكالسيوم والمنغنيزيوم الموجودين في الخضار كما في الملفوف والخضار الجذرية كما أنها تكثر في البنادق والبذور.

ويوجد الكالسيوم بكميات كبيرة في منتجات الألبان. وتزودنا الفاكهة والخضار بكميات كبيرة من البوتاسيوم والقليل من الصوديوم وفي حالة توازن ملائم. وتشكل جميع الأغذية من الحبوب (المشتملة على البندق، العدس الفاصوليا اليابسة، البازيلا، والفول وغيرها)، مصادر للحديد والزنك والمانغنيز والكروم.

كما يتوفر السلينيوم في البندق والغذاء البحري (sea food) وأعشاب البحر (sea weed) والحبوب وبخاصة السمسم.

الغذاء النقي:

خلال العصور الماضية المختلفة كان الغذاء الكامل العضوي غير الفاسد هو أساس النظام الغذائي للإنسان، إلا أننا تعرضنا خلال القرن العشرين ولا نزال نتعرض إلى كم هائل من الكيميائيات المصنعة التي دخلت غذاءنا ومحيطنا.

من الأسس التي تقوم عليها الصحة أن نأكل من الغذاء ما يجهزنا بما نحتاجه من الطاقة ليبقى الجسم في توازن تام. غير أن كميات كبيرة من هذه الطاقة تهدر في محاربة هذه المواد الطارئة والسامة في الأغلب، كما أن الجسم يعجز أحياناً عن التخلص من بعضها، فتتراكم في أنسجته. واليوم أصبح من المستحيل تجنب كل هذه المواد حيث يندُرُ أن نجد مكاناً على الأرض دون أن يكون مُلوَّثاً بشكل ما بهذه المواد الضارّة.

إن تناول الغذاء العضوي النيّء هو الطريقة الطبيعية والأكثر فائدة لأجسامنا. إذ تحتوي هذه الأغذية على الإنزيمات المساعدة على هضمها عند المضغ كما أن هذا الغذاء العضوي النيّء يحتوي على الكميات النباتية (phytochmicals) التي تضاهي في أهميتها الفيتامينات والمعادن.

وإن عملية الطبخ تدمر الإنزيمات وتختزل فاعلية الكيميائيات النباتية ولذلك:

- تناول العضويات بقدر ما تستطيع وتأكّد أن يحتوي نصف غذائك على الفاكهة الطازجة النيئة والخضار والحبوب الكاملة.
- تجنب الغذاء المصنع ومضافاته، واطبخ الغذاء طبخاً معتدلاً قدر الإمكان.

النظام الصحي عند الإمام الصادق عليه السلام، ص ١٣٩- ١٤٠ و ١٤٣-٤٩.

(١) سورة الروم، الآية: ٥٤.

الزوجة بواسطة نطفة مختارة كذلك من بين بلايين نطف الزوج ليخرج إلى الوجود كائناً بصفات محددة في علم اللّه.

ومن الثابت علمياً أن الحميلَ لا يمكنه أن يعيش خارج الرحم إلّا بعد تمام شهره القمري السادس، ولذلك قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[١] وقال عزّ من قائل: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[٢] وفي الرضيع تكون أغلب العظام طرية، ولذلك تكون قابلة للكسر والتشوه إذا لم تعامل بحرص شديد، ثم يبدأ تكلسها بالتدريج حتى تقوى، وتنبت الأسنان الأولى (وهي عادة الأمامية السفلية) عند تمام الشهر السابع من عمر الوليد، وبعد إتمام عامه الأول يصل عدد الأسنان النابتة إلى حوالي الست.

ويولد المولود بعضلات كاملة ولكنها صغيرة بالنسبة إلى حجمه، وبحواس منتبهة وأولها السمع، والبصر، واللمس، وقدرة القبض على الأشياء، وإن تأخرت حاسة الذوق قليلاً، وتستكمل قشرة المخ نشاطها بالتدريج، فيستطيع الوليد بعد ثمانية أسابيع من الميلاد إدراك ما حوله، والتمييز بين الأصوات ذات النبرات المختلفة، وبين الروائح المتباينة، وتزداد قدرته بالتدريج، بعد ذلك تكتمل حاسة الإبصار في شهره السادس، كما تزداد قدراته على إصدار الأصوات والانفعال بالأحداث من حوله في شهره السابع.

وفي الفترة بين عامه الأول والثاني (من الشهر الثاني عشر إلى الثامن عشر) يبدأ الرضيع الطبيعي بالحركة ومحاولة المشي، وفي فهم دلالة بعض الكلمات، وفي تمام الشهر السادس عشر يبدأ في الوقوف على قدميه والمشي مستقلاً، وفي تمام السنتين يكون قد وصل إلى مرحلة الكلام بجمل قصيرة مفهومة، وقد تم فطامه.

ويبدأ الطفل بالتدريج في إدراك ما حوله وفي تحصيل وحدات المعرفة

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

ووسائلها، ثم في تعلم اللغة، وفي تنمية الذاكرة والقدرة على التعبير، وعلى التفكير والاستنتاج، ثم تتطور دوافعه ورغباته، ثم أخلاقه وقيمه حتى يدخل في طور المراهقة وتبدأ في الأولاد في سنّ ١٣ سنة وفي البنات سنّ ٨-١١ سنة في المتوسط، وتستمر فترة المراهقة إلى سن العشرين حين يكتمل نمو العظام وتقوى وتزداد كثافتها، ويتم نمو العضلات وتشتد، وتكتمل الغضاريف، فتتغير الأبعاد والأشكال والتصورات والمفاهيم.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ...﴾.

يتميز طور المراهقة بالنمو البدني السريع، فيزداد الطول والوزن بشكل ملحوظ بزيادة حجم العضلات في الذكور، وزيادة سمك الطبقة الذهنية في الإناث بصفة عامة. ويصاحب النمو الجسدي بالبلوغ الجنسي، وزيادة إفراز الهرمونات، وتصل القوة البدنية إلى أعلى مستوياتها، وإن عانى المراهقون من الحساسية الشديدة، والحرج، والميل إلى العزلة عن المجتمع، والخوف من النقد الشخصي.

وتمتاز هذه الفترة أيضاً بظهور عدد من القدرات الخاصة التي توظف في محاولة تحقيق الذات بانتهاج نوع من الاستقلالية الفكرية حتى يتم تشكيل الهوية، بالنمو العقلي والعاطفي والوجداني، والتعطش إلى محبة الآخرين، والرغبة في الاستحواذ على إعجابهم.

وتعتبر فترة المراهقة هي طور الشباب، وهي طور الانتقال من الطفولة إلى الرجولة، فتزداد القدرات البدنية، والعقلية، والنفسية بالتدريج حتى تصل إلى قمتها في سن الخامسة والعشرين، وتستمر بهذا الزخم إلى سن الخامسة والأربعين (وهي مرحلة الرجولة الكاملة) ثم يبدأ وضعُ الجسد في التدهور ليدخل في دور الكهولة ثم الشيخوخة. ويُسمّي القرآن الكريم مرحلة الرجولة باسم مرحلة بلوغ المرء أشُدَّه فيقول: ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ ولذلك عبر القرآن الكريم عن الانتقال من مراحل الجنين، والحميل، والرضيع، والطفل - وما فيها من ضعف - إلى مراحل الشباب والرجولة - وما

فيها من قوة وشدة - يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ... ﴾ وهي قوة تشهد للّه الخالق بأنه هو وحده واهبها، ومنظمها حسب علمه وحكمته وقدرته.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿... ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ... ﴾.

بعد وصول الإنسان إلى أقصى مراحل نموه الجسدي في طور الرجولة وثباته عند هذه القمة من سن ٢٥إلى ٤٥سنة يتوقف النمو الجسدي، وتأخذ القدرات البدنية في التناقص التدريجي حتى سن الخامسة والستين، ثم بالتناقص الحاد من سن الخامسة والستين إلى نهاية العمر، وتسمى هذه الفترة باسم طور الشيخوخة (Senescence) وهي حالة من التدهور التدريجي في بنية كل حي يشمل جميع خلاياه، وأنسجته، وأعضائه، وأجهزته، مما يضعف كفاءتها وقدرتها على القيام بوظائفها بالأجهزة التي كانت تقوم بها في طوري الشباب والرجولة.

وهذا التدهور الصحي هو نوع من التدمير الذاتي المبرمج (Phenoptosis) في الشفرة الوراثية للخلية الحية. فيبدأ الخلل في التراكم على مستوى الخلايا لينعكس على الأنسجة، والأعضاء، والأنظمة، ويبدأ في الظهور في أشكال متعددة، من التغير في تركيب الأحماض النووية التي تكتب بها الشفرة الوراثية إلى شيب الرأس، وتجاعيد الجلد، وضعف الحواس.

ومن المعروف أن أبسط تغير في الأحماض النووية يؤدي إلى عجز الخلية عن القيام بدورها المنوط بها، فتتراجع فعاليتها وتظهر أعراض الشيخوخة المختلفة عليها. وقيل: إنّ من أسباب ذلك كثرة الجذور الحرّة للعناصر (Free Radicals) في الجسم. والشيخوخة بذاتها ليست حالة مرضية، ولكن إذا صاحبها الكثير من الأمراض تحولت إلى شيخوخة مرضية (Senility) يُعتنى بها في فرع خاصٍّ من فروع العلم يُعرَفُ باسم علم الشيخوخة (Gerontology)، وفي أحد تخصصات التطبيب يعرف باسم طب الشيخوخة (Geriatice).

وأعراض الشيخوخة لا يمكن إيقافها، ولا التخلص منها، وذلك لأنها ناتجة

عن ضعف خلايا الجسم على الانقسام كلما تقادم بها العمر. وقد اكتشف وجود غطاءين طرفيين عند نهايتي كل جسيم من الجسيمات الصبغية الحاملة للمورثات، وأن هذين الغطاءين يتناقص طول كل منهما عقب كل عملية انقسام، فإذا وصل طولهما إلى حد معين فإن عملية انقسام الخلية تتوقف حتى تموت، وتسمى فترة عجز الخلية عن الانقسام باسم شيخوخة الخلية. ومن مظاهر ذلك ما يلي:

١ - شيب شعر الرأس:

والشيب هو ابيضاض الشعر بفقدانه مادته الملونة الموجودة بخلايا التلوين (Melanocytes) في عمق البصيلة الشعرية، ويتناقص عدد خلايا التلوين بمعدل ١٪ في كل سنة تقريباً، ويخضع نشاطها لمفعول هرمون خاص، وبنقص إفرازه تدريجياً مع تقدم العمر يضعف نشاط خلاياتلوين الشعر فيبيض لونه بالتدريج.

كذلك ثبت أن من أسباب التعجيل بظهور الشيب تكرار حالات الفزع، والأزمات النفسية، والشدائد التي يمر بها الإنسان، وذلك لما يصاحب تلك الحالات من إفراز مادة الأدرينالين وهي من المواد القاتلة لخلايا التلوين. وقد يصاحب ابيضاض الشعر بقلة كثافته أو تساقطه، نظراً لموت الأوعية الدموية والخيوط العصبية المغذية للبصيلات المسئولة عن إنتاجه.

٢ - انكماش الجلد وتجعده:

ويحدث ذلك نتيجةً لتناقص نشاط كل من الغدد العرقية والدهنية، مما يؤدي إلى رقة وجفاف الجلد وضعف أنسجته الضامة مع تقدم العمر، وقد يتغطى الجلد بعدد من البقع الداكنة في أجزائه المعرضة لأشعة الشمس ،كما قد يظهر الشعر في أماكن الشارب والذقن عند بعض النساء الطاعنات في السن. وكذلك يعاني الكثيرون ممن جاوزوا سن الخامسة والستين من مشكلات جلدية عديدة من مثل الإصابة بالفطريات، والالتهابات، والحساسية الشديدة لأشعة الشمس، وبعض السرطانات الجلدية (عافانا اللّه منها).

٣ - ضعف الحواس:

مع تقدم الإنسان في العمر تأخذُ حواسُّه في الضعف التدريجي، وذلك من مثل قدرات السمع، والبصر، والذوق، الشم، واللمس، ولذلك كان من الأدعية المحبّبة إلى قلب المصطفى ﷺ قوله الشريف: «**اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا اللّه...**» ولتعويض النقص في قدرات حواسهم يستعين كبار السن بوسائل معينة كالسمّاعات، والنظّارات، والعدسات وغيرها، كما تزداد حاجتهم إلى الإضاءة الشديدة، ويصعب تكيُّفهم عند الانتقال إلى الأماكن المظلمة، وقد يقل عدد خلايا التذوق في اللسان فتقلّ قدرتهم على الاستمتاع بالطعام.

٤- وهن هشاشة العظام:

يمثل الهيكل العظمي للإنسان جزءاً مهماً من تكوينه الحيوي تتعاقب فيه عمليتا الهدم والبناء منذ تكامله وحتى لحظة الوفاة، ومع تقدم العمر، وتزايد معدلات الهدم على معدلات البناء فإن الهيكل العظمي يدخل في مرحلة الوهن، نظراً لامتلائه بالفراغات الناتجة عن تناقص مادة الكالسيوم، وبذلك تزداد هشاشته (Osteoporosis) ويسهل كسر أي جزء منه في الوقت الذي تتباطأ سرعة التئامه، ومن أكثر العظام المعرضة للكسر عند كبر السن عظام الورك والمعصم والعمود الفقري، ويحصل الكسر عند أقل صدمة. وعادة ما تتضاغط فقرات العمود الفقري مؤدية إلى قصر القامة، أو حدوث تحدب في الظهر نتيجة لضعف العضلات وتآكل الغضاريف، مما يحدث آلاماً شديدة، ويؤدي إلى التهاب المفاصل. ويرجع وهن العظم عند كبر السن إلى توقف إفراز أعداد من الهرمونات المهمة، وإلى نقص واضح في أعداد من الفيتامينات أهمها فيتامين (D)، مما يؤدي إلى نقص معدلات امتصاص الكالسيوم من الدم، كذلك يتسبب في هذا المرض أية زيادة إفراز هرمون جار الدرقية المعروف باسم (Para Thormone) والذي يعمل على نخر العظام، أو الزيادة في إفراز أو تعاطي الكوزنيزون الذي يؤدي إلى تثبيط عمل الخلايا البانية للعظام.

٥- ضعف العضلات:

بعد سن الخامسة والأربعين لاحظ العلماء تناقص كتلة كل من الأنسجة العضلية، والوصلات العصبية العضلية، وزيادة كتلة الأنسجة الدهنية والليفية بالتدريج مع تقدم العمر، خاصة مع قلة ممارسة الرياضة، وقلة الحركة.

٦- ضعف كل من القلب والجهاز الدوري:

ومع تقدّم السن تبدأ بعض الخلايا العضلية للقلب في التلف، ويبدأ كل من الأنسجة الليفية والدهون في التراكم على الجدر الداخلية للأوعية الدموية، وفي عضلات القلب، وبذلك تقل كفاءة القلب تدريجياً في ضخ الدم، وتقل سرعة انقباضه، وتزداد نسب الإصابة بتصلب الشرايين، فيرتفع ضغط الدم، وقد يؤدي كل ذلك إلى حدوث الجلطات الدموية التي تفضي إلى الموت.

٧ - التدهور التدريجي للجهاز العصبي:

تتجدد خلايا جسم الإنسان كلها لعدة دورات طيلة حياته، باستثناء الخلايا العصبية، التي إن ماتت لا يحل محلها بديل، ولذلك يقل عددها باستمرار مع تقدم العمر، خاصة بعد تجاوز الخامسة والأربعين فتضعف الذاكرة قصيرة الأمد، ويضعف معها العديد من الحواس كالسمع والبصر، والعديد من المهارات كالقدرة على الإمساك بالأشياء، وعلى الاستجابة للمؤثرات، وقد يصاب الطاعن في السن بشيء من النسيان، والخرف، والذهول عن كل من المكان والزمان، وقد تتعرض شخصيته إلى شيء من التغيير مع تراكم العديد من المواد بين الخلايا والألياف العصبية الحية تعرف باسم لطع الشيخوخة (Senile Plaques) والتي تكثر عادة في منطقة الناصية - وهي منطقة اتخاذ القرار في المخ- ولذلك فإن الطاعنين في السن قد يصابون بالعديد من أمراض الشيخوخة، من مثل مرض الذهان (Alzhimer)، والاكتئاب، والوسوسة، والخوف، وقد يتطور ذلك إلى الهوس والهيجان والجنون.

٨ - ضعف الجهاز التنفسي:

حيث تتناقص كفاءته بالتدريج مع الزمن فيصاب الطاعنون في السن عادة

بالعديد من أمراض التهاب الرئتين، والغشاء البريتوني المغلف لهما، والتهابات الشعب الهوائية، وحساسية الأجزاء المتصلة بها، وغير ذلك من أمراض الجهاز التنفسي.

٩ - ضعف الجهاز الهضمي:

نظراً لتناقص إفراز كل من العصارات والإنزيمات المساعدة في عملية هضم الطعام، فإن قدرات الجهاز الهضمي تبدأ في التناقص مع التقدم في السن، فبالإضافة إلى ضعف قدرات الأسنان على القضم، - إن لم تكن قد تساقطت بعد - فإن ضعف المعدة على الهضم قد يؤدي إلى تكون القرح والنزيف، وإلى زيادة المعاناة من الإمساك نتيجة لقلّة النشاط البدني.

١٠ - ضعف الجهاز البولي / التناسلي:

نظراً للنقص التدريجي في إفراز العديد من الإنزيمات الخلوية في الكلى فإنّها تفقد بعض وحداتها (Nephrons)، مما يؤدي إلى إنقاص كفاءتها أو فشلها بالكامل، وبالمثل يؤدي النقص الفجائي في إفراز العديد من الهرمونات عند الإناث بمجرد الدخول في سن اليأس، والنقص التدريجي عند الذكور في مراحل الشيخوخة إلى ضعف الجهاز التناسلي بالتدريج حتى يتوقف مع مرور الزمن.

١١ - ضعف جهاز المناعة:

يضعف جهاز المناعة في جسم الإنسان تدريجياً مع التقدم في العمر، ولذلك تتناقص القدرة على مقاومة الأمراض.

ومن أخطر أعراض ذلك هو عجز جهاز المناعة عن تمييز خلايا الجسم السليمة من الأجسام الغريبة الغازية له، فيبدأ بمهاجمة الجسد الذي صمم أصلاً للدفاع عنه فيصاب بسلسلة من الأمراض المعروفة باسم أمراض فقد التمييز المناعي، والتي ينتج عنها إضعاف العديد من الخلايا والأنسجة والعمليات الحيوية في الجسم مع تقدم العمر. ولهذا الضعف المتراكم في جميع أجهزة الجسم من الزمن قال تعالى: ﴿... ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾.

وميز القرآن الكريم ضعف التعمير والانتكاس عن الضعف الأول وهو ضعف الخلق والتسوية والتعديل والنشأة والابتداء والنماء، بأن قرن النصف الأخير بالشيب.

ولو أن هذه مظاهر يعيشها الإنسان، إلا أن وصف القرآن الكريم لها بهذه الدقة العلمية والترتيب المنطقي الرشيد، لَما يشهَدُ لهذا الكتاب الخالد بالربانية الخاتمة، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة[1].

جلد الجسد

يحتوي جلد الإنسان على خمسة ملايين جهاز حساس للألم و٢٠٠ ألف جهاز حساس للحر و٥٠٠ ألف جهاز حساس للحس والضغط.

١ - يحفظ الجسم من العوامل الخارجية و الضارة مثل الجراثيم.

٢ - يمنع ماء الجسم والذي تكون نسبته ٧٠٪ من الجسم من أن ينفذ إلى الخارج وبذلك يمنع حدوث الجفاف.

٣ - يحافظ على درجة حرارة الجسم الداخلية، إذ يوجد تحت الجلد ١٥ مليون مكيف لحرارة الجسم وهي الغدد العرقية التي تخلص الجسم من الحرارة بواسطة التبخر والعرق.

٤ - إنه وسيلة لنقل الألم والإحساس من الخارج.

يتفاوت الجلد في سماكته حسب حاجة الجسد فهو رقيق جداً في جفون العين سميك جداً في راحة اليد وباطن القدم، وتظهر فيه قدرة اللّه سبحانه وتعالى، فجلد الوجه أرق من جلد باطن القدم ومع ذلك فإنه يتحمل الحرارة والبرودة أكثر من باطن القدم لأن الوجه مكشوف دائماً ومعرض لكل عوامل الطبيعة، فسماكة الجلد في الوجه تُشوِّه حسن الإنسان واللّه سبحانه وتعالى خلقه في أحسن تقويم فجعله رقيقاً وجعله بقدرته الأقدر على تحمل البرودة والحرارة... والجلد في الجسد يتكون من ثلاث طبقات:

(١) تفسير الآيـات الكونية في القرآن الكريم، ج٢، ص ٤٧١-٤٧٨.

١ - السطحية وتسمى البشرة وهي خلايا ميتة تتآكل باستمرار.

٢ - الباطنية وتسمى باطن البشرة وهي خلايا حية تموت باستمرار لتحل محل الخلايا التي تتآكل باستمرار في سطح الجلد. وتحت الطبقتين.

٣ - طبقة تسمى (الأدمـة) وهي خلايا حية مع أوعية دموية وبها نهايات الأعصاب. والشعرُ ينمو على سطح الجلد وجذوره في (الأدمة).

وأول مهمّات الجلد:

أنه يهيئ للجسم غلافاً لا ينفذ منه الهواء والماء ويحميه من البكتيريا الضارّة ويحمي الجسد من أشعة الشمس ويساعد في تنظيم حرارة الجسد ويغلف العظام والأعصاب والأحشاء، والجلد عضو حساس لأن به العديد من نهايات الأعصاب... والعرقُ الذي يرشُحُ منه من الغدد العرقية يساعد على توازن حرارة الجسد.

وفي الجلد تظهر قدرة اللّه سبحانه وتعالى تبينها هذه التصورات:

١ - تصور أن الجسد شفاف وترى منه أعضاء الجسد الداخلية فهل يكون الإنسان ساعتها في أحسن تقويم؟ قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[1].

٢ - تصور أنك تستطيع أن ترى موت خلايا الجلد السطحي كل يوم ونمو خلايا جديدة... ولكن اللّه سبحانه وتعالى لا يريك. وما علم الإنسان عنها شيئاً إلّا بعد اختراع المجهر الذي يكبر آلاف المرات.

٣ - تصور أن خلايا الجلد الخارجي فيها فجوات تسمح بدخول الماء والأشعة والبكتيريا وتخرب أعضاء الجسد الداخلي.

٤ - تصور أن خلايا الجلد الداخلي لا تسمح بخروج العرق والنفايات مثلما لا تسمح بدخول الأشياء إلى داخل الجسد... فالجلد له باب واحد يسمح

(١) سورة التين، الآية: ٤.

بالخروج ولا يسمح بالدخول. ولو سمح بالدخول لمات الإنسان فتبارك اللّه أحسن الخالقين.

٥ - تصور أن الخلايا في الجلد لا تنمو بعد الجروح أو التقطيع أو التشقق فماذا يحدث للإنسان؟[1].

---

(١) الجلد: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ سورة النساء، الآية: ٥٦ تصف الآية: حالة جلود الكافرين في جهنم بأنها دائمة العذاب، كلما احترقت بدّلهم اللّه جلوداً جديدة، ليستمر الألم والعذاب عليهم. إسلام عالم تايلندي من سماع هذه الآية: عُقدت عدة مؤتمرات عن إعجاز القرآن الكريم في عدة دول إسلامية، حضرها العديد من علماء العالم المسلمين وغير المسلمين. وفي أحد المؤتمرات أعلن إسلامه أحد العلماء غير المسلمين، وهو عالم التشريح التايلندي تاجاثات جاسن. فقد كان المحاضر يتحدث عن الأعصاب، وكيف أنها موجودة تحت الجلد مباشرة، بحيث إذا احترق الجلد انتهى الإحساس بالألم تماماً... واللّه سبحانه يقول عن أهل النار وعن عذابهم المستمر: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ ذلك أن الحق سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن عذاب الكافرين دائم ومستمر لا يخفف ولا يتوقف، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ سورة الزخرف ٧٤ – ٧٥. ولما كان في علمه سبحانه وهو الخالق، أن الجلود إذا احترقت انتهى إحساس الإنسان بالألم، نبهنا إلى أن جلود أهل النار، كلما احترقت بدّلهم اللّه جلوداً غيرها، ليستمر شعورهم بالعذاب. وعندما عُرض معنى الآيـات على البروفسور التايلندي، قال: أهذا الكلام قيل منذ أربعة عشر قرناً؟ !. قالوا: نعم. قال: إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلّا حديثاً، ولا يمكن أن يكون قائلها بشراً، بل هي من عند اللّه سبحانه، ولقد حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه. يقول الشيخ محمد متولي شعراوي معلقاً: وإذا كان هذا دفع عالماً من أكبر علماء التشريع وهو العارف بأسرار هذا العلم إلى أن يعلن إسلامه أمام الناس في مؤتمر عام، وقد بهره الإعجاز الإلهي، ووجد بين يديه الدليل المادي على وجود اللّه فنطق بالشهادتين.. ألا يكفي هذا ليؤمن العالم كله، ويؤمن أهل الأرض جميعاً؟ !. وهذا يدعونا إلى الكلام في الجلد ووظائفه. وظائف الجلد: عبأ اللّه سبحانه في النسيج تحت الجلد عـدة وظائف هامة للإحساس؛ منها حاسة اللمس، والحس بالبرودة والحرارة، والحس بالضغط، والحس بالألم. وتقع هذه الإحساسات في طبقات تحت الجلد، أقربها من السطح مستقبِلات اللمس، ثم مستقبلات البرودة، ثم مستقبلات الحرارة، ثم مستقبلات الضغط.

أمّا الإحساسَ بالألم فيقع في نهايات الأعصاب المنتشرة في الجلد. وسنأخذ فيما يلي فكرة عن هذه الإحساسات:

١ – الإحساس باللمس: وتقع مستقبلاته قريباً من سطح الجلد، وتقع تحت طبقة الإنبات الموجودة في طبقة الجلد مباشرة. وتعتبر حاسة اللمس من أهم المستقبلات، لأنها تقدّم قدراً كبيراً من المعلومات حول الجو المحيط بالجسم. ذلك أن ملامسة أي شيء لسطح الجسم، يصبح عندها واضحاً في الحال، وإذا تبيّن أن هذا اللمس ضار، فإن فعلاً ما يمكن اتخاذه لتلافي ذلك. وبهذه الحاسة يمكن للأعمى أن يعوّض عن حاسة الرؤية.

٢– الإحساس بالبرودة: يوجد الكثير من مستقبلات البرودة على الشفتين واللسان، وتكون نسبتها أكبر من مستقبلات الحرارة، وهي أقرب إلى سطح الجلد منها.

٣– الإحساس بالحرارة: تقع مستقبلات الحرارة في مناطق عميقة من الجلد، وتوجد هذه المستقبلات بوفرة على السطح العلوي للكف وفي جلد الخدّين. وتكون نسبتها أقل من مستقبلات البرودة بأربـع مرات.

٤– الإحساس بالضغط: ولـه نوعان من المستقبلات، العميقة بشكل بُصيلات كبيرة، والقريبة من السطح =

عظام الجسد

العظام في الجسد الواحد لها عدد كبير من الفوائد:

١- هي التي تُكسِبُ الجسد شكله العام.

٢- الجمجمة خزانة صلبة تحوي الدماغ (المخ والمخيخ).

٣- الجوفان الحجابيان يحميان العينين.

٤- العمود الفقري أنبوبٌ عظيمٌ يحمي النخاع الشوكي.

٥- الأضلاع تكوّن قفصاً صلباً ومرناً لحماية القلب والرئتين.

٦- العظام دعائم لتثبيت العضلات وروافع لحركة العضلات.

٧- الأجزاء الداخلية لبعض العظام مصنع كبير يصنع خلايا الدم.

٨- العظام هي المخزن الرئيس في الجسد للكالسيوم.

٩- عدد عظام الجسد (٢٠٦) عظام وتتركب الجمجمة من (٢٩) عظماً والوجه من (١٤) عظماً وفي الحلْق عظم واحد (ويسمى العظم اللامي) والعمود الفقري يتكون من ستة وعشرين (٢٦) عظماً يسمى (الفقرة) والصدر يتكون من (٢٥) عظماً إلخ.

١٠-تتلاقى هذه العظام فيما بينها في مواضع تسمى (المفاصل).

= بشكل بُصيلات صغيرة.

٥- الإحساس بالألم: يختلف الإحساس بالألم عن الإحساسات السابقة، بأنه قد يكون مزعجاً، لأنه بشكل عام تحذير بأن أحد أجزاء الجسم في خطر. ومن هذا الإحساس ما يحدث عند وخز الجلد بإبرة، أو عند لسعة نحلـة، أو عند الحروق. والألم إضافةً إلى أنـه يصدر عن الجلد، فقد يصدر أيضاً عن الأنسجة الأعمق مثل العضلات والعظام، والأعضاء الموجودة داخل الصدر والبطن. والمسؤول عن الألم بأنواعه المختلفة، هو النهايات العصبية للألياف العصبية العارية المنتشرة في الجلد والأنسجة المختلفة. وهذا الألم هو من نِعم اللّه علينا، فعندما يتعرض الجلد للحرارة العالية ويكاد يحترق، تتحسس نهايات الأعصاب بالحرارة، وينتقل الألم عبر الأعصاب الجلدية، إلى الحبل الشوكي ومنه إلى الدماغ، فيأتي الأمر بإبعاد الجلد عن مصدر الحرق. وقد يحدث ذلك بالفعل المنعكس التلقائي عن طريق الحبل الشوكي فقط، وذلك عندما ما يستدعي الخطر السرعة في التصرف وإبعاد الجزء المصاب عن مصدر الضرر. الموسوعة العلمية القرآنية ج ١، ص ٣٣١ - ٣٣٣.

١١-ويمسك هذه العظام فيما بينها نسيج مرن يسمى (الغضروف) وهي التي تمسك العمود الفقري.

١٢-الحلقات الغضروفية بين كل فقرتين هي التي تمتصُّ كل حركات الإنسان ولولاها لارتجَّ المخّ في كل خطوة يخطوها.

١٣-تتماسك مفاصل العظام فيما بينها بالأربطة المفصلية والعضلات المحيطة ويسهل حركة المفصل سائل خاص يقع ضمن الجوف ووسادة مرنة تدعى الغضروف.

١٤-في تجاوُرِ أيّ عظمين (التقاء) عند المفاصل تجويف صغير يحتوي على سائل للتشحيم يحفظ الحركة المستمرة.

من هذه المعلومات نفهم أن العظام لا تعمل إلا بهذا التنسيق الرائع ولو نقص بند واحد مما ذكرت لاختل الجسد وعاش آلاماً كثيرة وفقد التوازن والحركة... ولنقل: مثلاً لولا وجود السائل بين المفاصل لزحف الإنسان على بطنه بدل أن يسير ولصرخ متألماً في كل حركة(١).

تركيب العظام:

تعمل العظام في الهيكل البشري كإطار، وفي بعض الأماكن هي مثل الدرع الواقي لأنسجة الجسم الأكثر رقة ورخاوة. ولكي تؤدي العظام وظيفتها جيداً؛ فإن العديد منها يجب أن يكون في غاية القوة. وتتكون هذه المتانة بطريقة تدعو إلى الاهتمام الكبير؛ فالعظام تتكون من خلايا مرتّبة فيما بينها في هيئة مِلاط بيولوجي (حيوي).

وأمّا الخلايا العاملة: فهي قليلة في العظام، وتوجد تحت طبقة السمحاق التي تغطي العظام. وهذه الخلايا تسمى خلايا التعظم، أي: الخلايا التي تكوّن العظام، ومهمتها أن تجمع الكلسيوم من الدم، وترسّبه حولها على هيئة فوسفات الكالسيوم

(١) الموسوعة الكونية الكبرى، (آيات اللّه) ج١٤، ص ٩١-٩٤.

وفحمات الكالسيوم، وهي أملاح غير قابلة للذوبان في الماء. ويمد الخليط المتكون من هذين الملحين العظام بصلابتها الملحوظة ومتانتها الكبيرة.

العظام ومخ العظام:

تحتوي العظام الطويلة في جسم الإنسان على تجويف يمتلئ بمادة طرية دهنيّة حمراء اللون أو تميل إلى الصفرة، وتسمى (مخّ العظام). وهذا المخُّ عبارة عن شبكة من النسيج الضام، يتميّز بخلايا خاصة هي التي تنتج كريات الدم الحمراء، وأنواعاً من الكريات البيضاء تُسمّى (خلايا بلازما النخاع).

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا هذا المخُّ داخل العظام؟ .

الجواب: أنّ العظام لو كانت صماء لكانت أثقل، وفي نفس الوقت إن كونها مجوفة يعمل على تقويتها؛ مثل الأنبوب المجوف والأنبوب المصمت؛ فلقد ثبت لدى المهندسين أن الأنبوب المجوف يستطيع تحمّل الضغوط دون أن ينكسر أكثر من الأنبوب المصمت من نفس الحجم. وهذا يفسر السبب في أن اللّه خلق العظام التي لها مهمة تحمُّل الضغوط بشكل مجوف. ولكن كان يصبح عديم الفائدة إذا لم يستخدم كمصنع لكريات الدم، التي هي أساس حيوية الجسم وقدرته على التصدي للأمراض.

وتكمن القوة الفائقة والمقاومة الكبيرة التي تتحملها العظام في التكوين شديد الصلابة للعظام نفسها، إلا أن هناك عاملاً أخر لا يقلّ تأثيراً، وهو الإبداع الرائع الذي تم تكوينها به. ولنأخـذ مثلاً لذلك عظمة الفخذ، التي يستند عليها ثقل كل جسمنا، والتي تعمل كعمود يستند عليه البناء، فلو طُلب من مهندس أن يصمم عموداً مماثلاً لعظم الفخذ ليؤدي نفس الوظائف، لكان عليه أن يرسم خطوط الإحتمال. وبمقارنة عظمة الفخذ بهذا التمرين الرياضي فإننا نرى أن أجزاء العظام مرتّبة وفقاً لنفس النظام السابق تماماً.

قوة العظام:

هذا ويوجد في جسم الإنسان من عنصر الكالسيوم كمية كبيرة، تتركز في العظام

والأسنان، وتكون نسبتها عالية في العظام إذ تبلغ ٩٥٪، وهي بشكل فوسفات الكالسيوم ٨٥٪ وفحمات الكالسيوم ١٠٪. والمركب الأخير هو الذي يشكل الرخام. وبفضل هذا التركيب تكتسب عظامنا هذه القوة الهائلة والمتانة الشديدة. فمثلاً تستطيع عظمة الساق أن تتحمل وزناً قدره طن ونصف الطن.

والكالسيوم ضروري جدّاً للنمو وللمحافظة على الصحة. ويحتاج الجسم إلى غرام واحد من الكلسيوم كل يوم يحصل عليه بتناول الأطعمة الحاوية على الكلسيوم، مثل اللبن ومح البيض (الصّفار) والبازلاء والبطاطا والأرز. وأمّا قشرة البيضة فهي فحمات كالسيوم صرفة، ويمكن تناولها بعد سحقها ضمن برشام.

ومع تقدم العمر يقلّ ترسّب الكلس في العظام، فتقل قساوتها وتصبح هشّة وسريعة الكسر. وهو ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾[1].

لكني أستشف من الآية: معنىً آخرَ أعمقَ من هذا المعنى، وهو أن العظم له وظيفة أُخرى، وهي أنـه يحتوي في لبّه على معمل مهمّ لحياة الجسم ونشاطه كما أسلفنا، هو (مخ العظم) الذي يقوم بتوليد الكريات الحمر، التي تعوّض الكريات الحمر التالفة، والتي تتجمع في الطحال. كما يقوم بتوليد أنـواع من الكريات البيضاء.

ومع تقدم العمر فإن هذا المركز الحيوي الهام يبدأ عملُه بالتباطؤ، مما يعمل على تحديد نشاطه الوظيفي، فيشعر الإنسان بالوهن والكلل لأقل عمل يقوم به. فقوله تعالى: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي: وهنت وظيفة العظم في إعطاء الحيوية التي كانت في الشباب، فلم يعد العظم قادراً على إعطاء تلك الحيوية، مما يسبب الوهن العام لكل الجسم.

يقول العالم (راتكليف): لقد عمّ انتشار الأبحاث الطبية في عصرنا الحاضر، فأزاح الستار للباحثين عن أسرار حيوية العظام، بعد أن كانت تُعدُّ أشياءَ جامدةً غيرَ حيّة.

(١) سورة مريم، الآية: ٤.

وقد قرر العلم أخيـراً أن للعظام وظائف مهمة تتوقف عليها حياة الإنسان. فهي تحتوي على كل ما يحتاج إليه الجسم من الفسفور والكلسيوم، وتنظّم عملية توزيعه تنظيماً يحفظ ضربات القلب وحركة العضلات. وكذلك فإن العظام تنتج كريات الدم الحمراء والبيضاء طوال الحياة بلا انقطاع، ويكفي أن نعرف أنّه في كلّ دقيقة يموت ما يقرب ١٨٠ مليوناً من كريات الدم الحمراء، وعلى العظام تعويض ذلك فوراً، حتى نعرف العبء الملقى على العظام. وتعتبر العظام مخزناً يحفظ فيه الجسم المواد الغذائية الزائـدة عن استهلاكه إلى وقت الحاجة.

كما قرر العلم حديثاً أن حالة العظام تؤثر تأثيراً مباشراً على الجهاز العصبي، وأنها لذلك تتدخل تدخّلاً مباشراً في قدرة الإنسان على التوليد وإنجاب الأطفال. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم حين دعا زكريا ربّـه أن يهبه غلاماً، ثم ذكر أنه ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾[١].

المحكمة الإلهية الكبرى وشهادة أعضاء الجسد.

كل محكمة لتكونَ ذات مواصفات متكاملة لا بدّ من وجود شهود قد عاينوا الواقعـة المراد شهادتهـم عليها، وحين تستكمل المحكمة تمام مراحل الواقعة تصدر حكمها وفقاً لتمامية الإجراءات، المتبعة في تلك المحكمة. وغالباً ما تكون هذه الإجراءات تخدم حقوق الإنسان، في حدودها وطابعها النظري، إلّا أنّه على المستوى العملي والخارجي[٢]، تكون الأحكام مسيّسة، وتدعو إلى حماية الحاكم السياسي الدكتاتوري؛ الذي يُغدق على قضاة المحكمة ومساعديهم وشهود الزور بالمال والجاه والثروة الاقتصادية، وهذا بطبيعة الحال يغيب مفهوم العدالة والحكم العادل، حينها تنتهك الكرامة وتضيع الحقوق.

لكن؛ توجد ثمـة محكمة سوف تتكامل فيها ذات المواصفات المطلوبة؛ حيث تتواجد فيها الضوابط والقوانين الخاصة بها؛ وإنّها لا توجد بها اختلافات عما هي

(١) الموسوعة العلمية القرآنيـة، ج٢، ص ٥١٢ – ٥١٥، سورة مريم الآية: ٤.
(٢) فيما إذا كان الحديث عن عالمنا الحاضر، الذي أخذ القضاء منحىً مغايراً عن مفهوم العدالة الإلهية.

عليه المحاكم هنا، لكنها محكمة تثير الرعب والخوف من القوانين والضوابط المتبعة فيها؛ إنّها المحكمة الإلهية الكبرى، حيث لا يتخلف عنها الجاني ولا المجنيّ عليه، ولا يوجد بها وسائط تدفع عن الظالمين والعاصين- الذين أذاقوا المؤمنين مرارة العيش الضّنك؛ والحياة المزرية في عالم الدنيا- حتف العذاب، والقانون العادل.

هذه المحكمة سيكون الشاهد فيها هو الجزاء العملي الذي كان يأتي به الإنسان حين كان في عالم الدنيا، حينها لم يكن يدرك أن كل عمل يأتي به سوف يكون متمثلاً له في يوم الحساب الأكبر قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1] الآية: المباركة تأخذنا نحو أجواء يوم القيامة حيث الحساب، وكيفية الحال التي يكون عليها وضع العاصين والمذنبين، الذين ملؤوا الدنيا ظلماً وأغرقوها بسفك الدماء بغير حق؛ حينئذٍ يطلعون على محتوى ما تناوله الكتاب الذي مُلئَ بالأعمال التي توجب الظلمة وسواد الوجوه، حيث سوف تظهر آثار الخوف والوحشة المهولة على صفحات وجوههم. حينها يكون صراخهم على قدر ألمهم، وعلى قدر وعظم فضيحتهم التي سيكون لها الوقع المؤثر في ذلك الجمع الرهيب... إذ يظنُّ هؤلاء المجرمين أن الأعمال التي عملوها، ونسوا بعضها (لبعدها الزمني وهم في عالم الدنيا) قد مضت وأصبحت من مخلفات كتاب النسيان، ولم يدركوا أنّها يوماً سوف تحضر عندهم؛ وأنهم يرونَها رأي العين، حيث لا يوجد ثمّة عملٌ يُغادر في تلك الساحة، فيوضع في ميزان العدالة والحساب، صغيراً كان العمل أو كبيراً، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2].

فهاتان الآيتان المباركتان تستوعبان كلّ معالم التربية والسلوك؛ حيث التأثير له قيمته العملية على المستوى الاجتماعي والفردي، بمعنى أن هذه الآيتين الكريمتين حاولتا أن

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الزلزلة، الآية: ٧-٨.

تضعا الإنسان على واقعية تحركاته وأعماله وأقواله في حدود عالم الدنيا؛ وأن تحذره من أن تسيطر عليه مرحلة النسيان والغفلة عن ذاك اليوم الموحش، وذلك بسبب التلهّي بمشتهيات الدنيا وما تحتويه من متقلبات تجرّ الإنسان نحو بحارها النتنة.

وبما أن المحكمة دقيقة في إجراءاتها وقوانينها، فإنها؛ لن تكتفي بسرد الشهادات المتعارفة بيننا كمجموعات بشرية؛ وإنما سوف تستدعي شهوداً غير متوقَّعةٍ من الإنسان، وسيكون المنظر مرعباً ومخيفاً له، لأن الشهود هم نفس أعضاء الجسد، الذين هم أقرب الخلق إليه، ومن أمّه وأبيه وابنه، ولن يستطيع أن ينكر ويتهرب من أعماله وأفعاله أو أقواله، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1]. فهذه الآيات المباركة تصور لنا مشهداً متكاملاً من مشاهد يوم القيامة، وتضعنا أمام حوار تدور محاوره بين الإنسان وأعضاء جسمه؛ حيث تُقدِّم الأعضاء مصلحة العدالة على مصالحها؛ على الرغم من أن الأذية ستقع عليها!، وهذا يدلل على أن هذه المحكمة الإلهية سوف لن تضيع منها الحقوق كما صرّحت بذلك الآيتان من سورة الزلزلة. وسنحاول أن نتدبر قليلاً في هذه الآيات المباركة؛ لنعلم كيف أن الإنسان استنكر هذا التصرّفَ من أعضاء جسده؛ وذلك من خلال تناول الآيتين ٢٢-٢٣ وسيتجلّى لنا كيف أن هذا الإنسان غرق في بحار الدنيا، وأخذته الغفلة وأَسَرَتْهُ وأَوْقَعَتْهُ في شِراكها.

ويمكن ملاحظة عدة نقاط:

النقطة الأولى: أنّ الجاهل يظن باللّه تعالى غير الحق.

من المعلوم جيداً أن رُقيَّ الإنسان ووصوله إلى درجة الكمال؛ يكون بالتحلّي بطلب العلم؛ ومباشرة العمل به، وأمّا ما دون ذلك فسيؤدّي إلى خلق كارثة مأساوية

(١) سورة فصلت، الآية: ١٩- ٢٣.

على مستوى الفكر والتطبيق العملي، وسيصلُ به الحال إلى نقطة الصفر التي انطلق منها، وسيترتب على ذلك أخطاء ومشكلات فكريّة نابعة من جهل[١] أعمى كان أساس تكوينه هو عدم العمل بالعلم الذي تعلمه. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**العلم مقرونٌ بالعمل، فمن عَلِم عَمِل، ومن عَمِلَ عَلِمَ، والعلم يهتف بالعمل، فأجابه وإلا ارتحل**».

فهؤلاء يعلمون أن اللّه يعلم[٢]، لكنهم ظنوا أنه جلّ جلاله لا يعلم الأسرار الخفية التي تخفى على الآخرين من البشر، من هنا فوجئوا بهذا الكمّ الهائل من الشهود عليهم يوم القيامة.

النقطة الثانية: سوء الظنّ باللّه والعياذ باللّه

لقد ظنّ هؤلاء المجرمون أن أحداً لن يشهد عليهم، وأن المراصد المثبتة في كل أنحاء هذا العالم سوف لن تكشف ما يعملون؛ لكونهم قد شيّدوا تلك القصور التي لا يخترقها أقوى الرادارات الحديثة والمتطورة على مستوى العالم، من هنا قاموا بارتكاب أبشع الجرائم والإتيان بأعظم الذنوب. وهذا نتيجة الخطأ في الحسابات لديهم، أو أن من يوصل إليهم الأخبار يوصلها مكذوبةً ومشوّهةً، فهم يعتمدون على مصدر واحد وتحت سيطرة الهوى النفسي، الذي يخلق بالنتيجة سوء الظّن[٣] بأن لا مراقب يرصد كل تحركاتهم ومساعيهم المشبوهة، وهذا الاستنتاج سيكلفهم

(١) قال الأمام علي عليه السلام: «**لا تجعلوا علمكم جهلاً، ويقينكم شكاً، إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فأقدموا**»، وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**إن من البيان لسحراً، ومن العلم جهلاً**». ميزان الحكمة، باب العلم قسم جهل العالم ج ٧، ص ٢٧٧٤.

(٢) يروي المفسّرون أنّ الآية: أعلاه نزلت في ثلاثة نفر من كفار قريش وطائفة من بني ثقيف ذوي بطون كبيرة و رؤوس صغيرة اجتمعوا بجوار الكعبة وهم يتسارّون، فقال أحدهم: أتظنون أن اللّه يسمع كلامنا وحديثنا هذا؟ فأجاب آخر: تكلّم بهدوء وأخفض صوتك، فإذا تحدثنا بصوت عال فهو (أي اللّه جلّ جلاله) يسمعه، وإذا خفضنا أصواتنا فلا يسمعنا. فقال الثّالث: إذا كان اللّه يسمع الكلام العالي فهو حتماً يسمع الصوت الضعيف أيضاً. وهنا نزلت الآية: الكريمة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن ...﴾. تفسير الأمثل، ج١٥ ص٢٤٧- ٢٤٨.

(٣) قال الإمام علي عليه السلام: «**مُجالَسَةُ الأَشرار تورثُ سوءَ الظَّنِّ بالأَخيار، و مُجالَسَةُ الأَخيار تُلحقُ الأَشرارَ بالأَخيار، و مُجالَسَةُ الفُجّارِ للأَبرار تُلحقُ الفُجّارَ بالأَبرار، فَمَن اشتَبَهَ عَلَيكُم أمرُهُ و لَم تَعرِفوا دينَهُ فَانظُروا إلى خُلَطائِهِ؛ فَإن كانوا أهلَ دينِ اللّهِ فَهُوَ عَلى دينِ اللّهِ، و إن كانوا عَلى غَيرِ دينِ اللّهِ فَلا حَظَّ لَهُ مِن دينِ اللّهِ**». بحار الأنوار، ج٧٤، ص ١٩٧.

الشيء الكثير هناك في يوم القيامة في وقت الحساب، فاللّه تعالى هو المراقب، ولن تنفعهم تلك القصور التي شُيِّدت جدرانها بالفولاذ والحديد الصّلب، لأن اللّه جلّ جلاله يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(١) وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٢) وهذه الآية: تدل وبكل وضوح على أنّه لا توجد نفسٌ في هذا الكون المترامي الأطراف غيرُ مسيطَر عليها؛ حيث يجري عليها قانون الرقابة، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾(٣).

النقطة الثالثة: الفساد العقائدي

يظهر من خلال أجواء الآيات التي تتحدث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة، وهو مشهد شهادة أعضاء الجسم البشري، أن هؤلاء القوم العاصين والمجرمين يتبنون العقيدة الفاسدة٤، وذلك من خلال الجهل باللّه تعالى والذي يتولد منه سوء الظّن باللّه سبحانه وتعالى، وهذا بطبيعة الحال يترتب على كثير من السلوكيات العملية في الواقع الخارجي؛ ويُفهم هذا من الآيات الأخيرة - يقول اللّه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٥) هذا الظّن قام أساسه على مبتنيات عقائدية فاسدة؛ في حين أنّ فكرهم قام على أساس عدم علم اللّه تعالى بأعمالهم، الأمر الذي تجلّى بكامل وضوحه حين أبدوا تعجبهم عن هذهَ الشهادة الغريبة.

إذن يتجلّى لنا كيف كان الاستغراب حين قدّم السمع والبصر والجلد الشهادة

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٣.

(٣) سورة الفجر، الآية: ١٤.

(٤) علينا أن ندرك جيداً أن المسائل العقائدية ينبغي دركها من خلال القلب قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «**اَللّـهُمَّ اِنّي اَسْاَلُكَ ايماناً تُباشِرُ بِهِ قَلْبي وَيَقيناً حَتّى اَعْلَمُ اَنَّهُ لَنْ يُصيبَني إلا ما كَتَبْتَ لي وَرَضِّني مِنَ الْعَيْش بما قَسَمْتَ لي**» دعاء أبي حمزة الثما لي راجع مفاتيح الجنان، ص ٢٧٦ على أن هذا الإيمان القلبي يلزم أن يكون صلب ثابت لا يتزلزل بسبب الانحرافات الأخرى. في حين أن الدليل العقلي؛ هو برهانٌ داعم للثوابت القلبية، والتي يلزم أن تكون من خلال الاجتهاد والبحث في مخلوقات اللّه تعالى للوصول الى القول الحق، لا أن يكون هذا الإيمان من خلال التقليد الأعمى، قال اللّه تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ سورة الزخرف الآية: ٢٢.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

أمام اللّه تعالى؛ فهذا الإنسان لم يكن واضـعاً في حساباته أن هناك تسجيلاً كاملاً يرصد كافـة تحركاته وأقـواله، وأنّه يوم القيامة سيُفضَح أمام الناس. ومن خلال الجوّ السائـد في الآيات المباركـة المتقدمة، تكون الشهادة المذكـورة على مشارف وأطراف نار جهنم والعياذ باللّه منها، حيث يحشر اللّه تعالى أعداءه من المجرمين والعاصين، وبحسب الآية: الأولى؛ فإنّ الشهادة لا تقع في معزلٍ عن الناس، أو عند قوم وقوم؛ بـل إنّ القوم السابقين ينتظرون الآخرين ليلتحقوا بهم بدلالة كلمة يوزعون فإنها من «الوزع وهو حبس أول القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا»[1] وحينئذٍ تقع الشهادة، التي لا تخلو من غاية وهدف يُراد بيانه وإيصاله إلى هؤلاء المجرمين والعاصين من أن كل تحركاتكم وأقوالكم وسكناتكم مرصودة ومراقبة، وبأدوات لا يمكن أن تتوقعوها؛ وهي أقرب إليكم من الزوجة والابن، وهي السمع والبصر والجلد.

بعدها ينقلنا القرآن الكريم إلى جوٍّ آخر من اجواء عالم الآخرة؛ حيث في قعر نار جهنم المستجار باللّه منها، ومع أكبر عضو من أعضاء الجسم البشري؛ وهو الجلد، حيث يقول اللّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾[2] هذه الآية: المباركـة تحدد طبيعة الحياة التي سوف يكون عليها هؤلاء الناس في ذلك العالم، عالم الآخرة، الذين كفروا بالبراهين والأدلة التي تثبت أحقيـة وجوديـة اللّه تعالى و خالقيته ووحدانيته، وأولئك الذين تجاهـلوا الأدلة الثابتـة لولاية أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهؤلاء الذين أصروا على تجاهل الأوامر الإلهيـة؛ وذهبوا إلى مخالفة العدالـة والحقيقة، والإعـراض عن الالتزام بالضوابط الشرعية، كـلّ هؤلاء سوف يقع عليهم العذاب الحسيّ، ولن يكون في هذا العقاب فترة راحة أو تخفيف، وإنما يخضـع لعملية تبديل؛ بحيث كلما نضجت تلك

(١) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٣٧٨ بتصرف.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٦.

الجلود ستخضـع لهذه العملية، وغايته الإحساس بالألـم إحساساً كاملاً[١]، إذ لو بقيت تلك الجلود على حالها؛ فإن الخلايا تفقد حيويتها، ومع فقدان الحيوية؛ فإنه يفقد الإدراك والإحساس بالألم.

المدد والإفاضة الإلهية

«يا مَنْ بَدَأَ خَلْقي وَذِكْري وَتَرْبِيَتي وَبِرّي وَتَغْذِيَتي هَبْني لابْتِداءِ كَرَمِكَ وَسالِفِ بِرِّكَ بي يا اِلـهي وَسَيِّدي وَرَبّي».

البداية: الْبَاءُ وَالدَّالُ وَالْهَمْزَةُ مِن افْتِتَاح الشَّيْءِ، يُقَالُ: بَدَأْتُ بِالْأَمْرِ وَابْتَدَأْتُ، مِنَ الابْتِدَاءِ. وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُبْدِئُ وَالْبَادِئُ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾[٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[٣]. وَيُقَالُ: لِلْأَمْرِ الْعَجَبِ بَدِيٌّ، كَأَنَّهُ مِنْ عَجَبِهِ يُبْدَأُ بِهِ. وَتَقُولُ: أَبَدَأْتُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أُخْرَى أُبْدِئُ إِبْدَاءً: إِذَا خَرَجْتَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا. وَالْبُدْأَةُ النَّصِيبُ، وَهُوَ مِنْ هَذَا أَيْضًا، لِأَنَّ كُلَّ ذِي نَصِيبٍ فَهُوَ يُبْدَأُ بِذِكْرِهِ دُونَ غَيْرِهِ، وَهُوَ أَهَمُّهَا إِلَيْهِ. وَالْبُدُوءُ مَفَاصِلُ الْأَصَابِعِ، وَاحِدُهَا بَدْءٌ، مِثْلَ بَدْعٍ. وَأَظُنُّهُ مِمَّا هُمِزَ وَلَيْسَ أَصْلَهُ الْهَمْزُ. وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بُدُوءًا لِبُرُوزِهَا وَظُهُورِهَا، فَهِيَ إِذًا مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ. وَمِمَّا شَذَّ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ وَلَا أَدْرِي مِمَّ اشْتِقَاقُهُ قَوْلُهُمْ: بُدِئَ فَهُوَ مَبْدُوءٌ: إِذَا جُدِرَ أَوْ حُصِبَ[٤].

خلق: الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر مَلاسَة الشيء. فأمّا الأوّل فقولهم: خَلَقْت الأديم للسِّقاء، إذا قَدَّرْتَه. ومن ذلك الخُلُق، وهي السجيَّة، لأنّ صاحبَه قد قُدِّر عليه. وفلانٌ خَليق بكذا، وأَخْلِقْ به، أي ما أَخْلَقَهُ، أي هو ممَّن يقدَّر فيه ذلك. والخَلاقُ: النَّصيب؛ لأنّه قد قُدِّرَ لكلِّ أحدٍ نصيبُه. ومن الباب رجلٌ مُخْتَلَقٌ: تامُّ الخَلْق. والخَلْق: خَلْق الكذِب، وهو اختلاقُه واختراعُه

(١) راجـع الأمثل، ج٣، ص ١٧٠.
(٢) سورة البروج، الآية: ١٣.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.
(٤) ترتيب مقاييس اللغة، ص ٧١ - ٧٢ مادة «بـدأ».

وتقديرُه في النَّفس. قال اللّه تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾[١]. وأمّا الأصل الثاني فصخرة خَلْقَاء، أي مَلْساء. ويقال اخلَوْلَقَ السَّحابُ: استَوَى. ورسمٌ مخْلَوِلقٌ، إذا استوى بالأرض. والمُخلَّق: السّهم المُصْلَح. ومن هذا الباب أخْلَقَ الشَّيءُ وخَلُـقَ، إذا بَلِيَ. وأخلقْتُهُ أنا: أبليتُه. وذلك أنَّه إذا أخْلَقَ امْلاسَّ وذهب زئْبرُه. ويقال المُخْتَلَق من كلِّ شيء: ما اعتدَلَ. قال رُؤبة: في غِيل قَصْباءَ وخِيس مُخْتَلَقْ* والخَلُوق معروفٌ، وهو الخِلاَق أيضاً. وذلك أنّ الشيء إذا خُلِّق مَلُسَ. ويقال ثوبٌ خَلَقٌ ومِلحَفَةٌ خَلَق، يستوي فيه المذكَّر والمؤنث. وإنما قيل للسَّهم المُصلَح مُخَلَّقٌ لأنّه يصير أملس. وأمّا الخُلَيْقاءُ في الفَرَس فكالعِرنين من الإنسان[٢].

خلق: أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[٣] أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٤] ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[٥]، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾[٦]، ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ﴾[٧]، ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾[٨]، ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ﴾[٩]، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلّا للّه تعالى، ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[١٠]، وأمّا الذي يكون بالاستحالة، فقد جعله اللّه تعالى لغيره في بعض الأحوال، كعيسى حيث قال: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾[١١][١٢].

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.
(٢) ترتيب مقاييس اللغة، ص ٢٩٥ مادة «خلق».
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٧.
(٥) سورة النساء، الآية: ١.
(٦) سورة النحل، الآية: ٤.
(٧) سورة المؤمنون، الآية: ١٢.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ١١.
(٩) سورة الرحمن، الآية: ١٥.
(١٠) سورة النحل، الآية: ١٧.
(١١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.
(١٢) مفردات الإصفهاني، ص ٢٩٦ مادة «خلـق».

التربية: الراء والباء يدلُّ على أُصولٍ. فالأول إصلاح الشيءِ والقيامُ عليه. فالرّبُّ: المالكُ، والخالقُ، والصَّاحب. والرّبُّ: المُصْلِح للشّيء. يقال رَبَّ فلانٌ ضَيعتَه، إذا قام على إصلاحها. وهذا سقاء مربُوبٌ بالرُّبِّ. والرُّبّ للعنَب وغيره؛ لأنّه يُرَبُّ به الشيء. وفَرَسٌ مربوب. والرّبُّ: المُصْلِح للشّيء. واللّه جلّ ثناؤُه الرَّبُّ؛ لأنه مصلحُ أحوالِ خَلْقه. والرِّبِّيُّ: العارف بالرَّبّ. وربَبْتُ الصَّبيَّ أرُبُّه، وربَّبْتُه أربِّبُه. والرَّبيبة الحاضِنة. ورَبيبُ الرَّجُل: ابنُ امرأته. والرَّابُّ: الذي يقوم على أمر الرَّبيب. وفي الحديث: «**يكرهُ أنْ يتزوَّج الرّجلُ امرأةَ رابِّه**». والأصل الآخرُ لُزوم الشيءِ والإقامةُ عليه، وهو مناسبٌ للأصلِ الأوّل. يقال أربَّت السّحابةُ بهذه البلدةِ، إذا دامَتْ. وأرْضٌ مَرَبٌّ: لا يزال بها مَطَرٌ؛ ولذلك سُمِّي السَّحاب رَباباً. ويقال الرَّباب السحاب المتعلِّق دون السَّحاب. يكون أبيضَ ويكون أسود، الواحدة رَبابةٌ. ومن الباب الشّاةُ الرُّبَّى: التي تُحتَبسَ في البيت لِلَّبَنِ، فقد أربَّتْ، إذا لازمت البيتَ. ويقال: هي التي وَضَعَتْ حديثاً. فإن كان كذا فهي التي تربِّي ولدها. وهو من الباب الأوّل. ويقال الإرباب: الدّنُوّ من الشَّيء. ويقال أربَّت الناقة، إذا لزِمت الفحلَ وأحبّته، وهي مُرِبٌّ. التربية: الرَّبُّ: هو اللّه عزّ وجل، هو رَبُّ كلِّ شيءٍ أَي مالكُه، وله الرُّبوبيَّة على جميع الخَلْق، لا شريك له، وهو رَبُّ الأَرْباب، ومالكُ المُلوكِ والأَمْلاكِ. ولا يقال الربُّ في غَير اللّهِ، إلاّ بالإِضافةِ، قال: ويقال الرَّبُّ بالأَلِف واللام، لغيرِ اللّهِ[1].

التربية: الرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، ويقال ربَّهُ، وربَّاهُ وربَّبهُ. وقيل: (لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن). فالرب مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرب مطلقاً إلّا للّه تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، نحو قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[2]. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾[3] أي: آلهة، وتزعمون أنهم

(١) لسان العرب، ج ١ مادة «ربب».
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٠.

الباري مسبب الأسباب، والمتولي لمصالح العباد، وبالإضافة يقال له ولغيره، نحو قوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١]، و﴿ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٢] ويقال: رب الدار، ورب الفرس لصاحبهما، وعلى ذلك قول اللّه تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾[٤] وقوله: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾[٥] قيل: عنى به اللّه تعالى: وقيل: عنى به الملك الذي رباه، والأول أليق بقوله[٦].

البرّ: الباء والراء في المضاعف أربعة أُصول: الصدق، وحكايـةُ صَوتٍ، وخِلاف البَحر، ونبتٌ. فأمّا الصدق فقولهم: صدَق فلانٌ وبَرَّ، وبَرَّت يمينه صدقت. وأَبَرُّها أمضاها على الصَّدق. وتقول: بَرَّ اللّه حجَّكَ وأبَرَّه، وحجَّةٌ مبرورة؛ أي: قبلت قبول العمل الصادق. ومن ذلك قولهم يبر ربَّـه أي يطيعه.[٧]

الـبرّ: البرّ: ضد العقوق، وكذا المبرّة، تقول: بررت والدي بالكسر أبرُّهُ برّاً فأنا بَرٌّ بِهِ وبارٌّ وجمع البرِّ أبرارٌ وجمع البارِّ بررة وفلانٌ يبرُّ خالقَهُ ويتبرَّرُهُ أي: يطيعه.

قلت: لا أعلم أحداً ذكر التبرُّر بمعنى الطاعة غيره رحمه اللّه. والأم برة بولدها و برَّ في يمينه صدق وبر حجه يبر بالضم فيهما برا بالكسر في الكل و تباروا تفاعلوا من البر وفي المثل: لا يعرف هرّاً من برٍّ؛ أي لا يعرف من يكرهه ممن يبره وقال بن الأعرابي الهرُّ دعاء الغنم والبرّ سوقها و البرُّ ضدّ البحر و البريّةُ الصحراء والجمع البراري و البرّيتُ بوزن فَعْليت البرية. و البربرة صوت وكلام في غضب تقول منه بربر فهو بربار و بربر جيل من الناس وهم البرابرة والهاء للعجمة أو النسب وإن شئت حذفتها و البُرُّ جمع بُرّةٍ من القمح ومنع سيبويه أن يجمع البُرُّ على أبرار

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٢٦.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٢.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٥٠.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٢٣.
(٦) مفردات الأصفهاني، ص ٣٣٦ مادة «رب».
(٧) مقاييس اللغة، ص ٧٩ مادة «برّ».

وجوزه المبرد قياساً و أَبَرَّ اللّه حَجَّهُ ـ لغةٌ في بَرَّهُ أي: قبله وأبرَّ الرجلُ على أصحابه أي علاهم وأبرَّ الرجل رَكِبَ البرَّ(١).

البـرّ: البرُّ الصِّدْقُ والطاعةُ. وفي التنزيل: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾(٢)؛ أراد ولكنَّ البرَّ برُّ مَنْ آمن باللّه(٣).

التغذية: غذو: الْغَيْنُ وَالدَّالُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى زَمَانٍ. مِنْ ذَلِكَ الْغُدُوُّ، يُقَالُ غَدَا يَغْدُو. وَالْغُدْوَةُ وَالْغَدَاةُ، وَجَمْعُ الْغُدْوَةِ غُدًى، وَجَمْعُ الْغَدَاةِ غَدَوَاتٌ. وَالْغَادِيَةُ: سَحَابَةٌ تَنْشَأُ صَبَاحًا. وَأَفْعَلُ ذَلِكَ غَدًا. وَالْأَصْلُ غَدْوًا. وَالْغَدَاءُ: الطَّعَامُ بِعَيْنِهِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُؤْكَلُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.(٤)

التغذيـة: في حديث الأئمة: غذانا ـ يعني رسول اللّه صلَّى اللّه عليه و آله ـ بالعلم غذاء، أي أشبعنا فيه فلم نحتج بعد إلى سؤال. والغذاء ككتاب: ما يغتذى به من الطعام الشراب، يقال: غذوت الصبي اللبن أغذوه فاغتذى به، وغذوته بالتثقيل مبالغة: ربيته به، ولا يقال: غذيته بالياء ـ قاله الجوهري. ويتغذى بالطعام: يتربى به. في حديث طفل المؤمن إذا مات: يرفع إلى فاطمة عليه السَّلام تغذوه حتى يقدم أبواه أو أحدهما أو بعض أهل بيته فيدفعه إليه. وفي حديث الفطرة: على كل قوم مما يغذون به عيالاتهم، بخفة الذال وشدتها مبالغة، أي مما يطعمونهم مما فيه كفايتهم(٥).

التغديـة: الغُدوَة والغداةُ من أول النهار، وقوبل في القرآن الغدو بالآصال، نحو قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾(٦) وقوبل الغداة بالعشي، قال: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾(٧)،

(١) مختار الصحاح، ص ١٩ مادة «ب ر ر».
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٣) لسان العرب، ج٤، ص ٥١ مادة «بـرر».
(٤) مقاييس اللغة، ص ٧٥٠ مادة «غـذو».
(٥) معجم مجمع البحرين، ص ٩٤٠ مادة «غـذا».
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[١]. والغادية: السحاب يَنشأُ غُدوةً، والغداء: طعام يتناول في ذلك الوقت، وقد غدوت أغدو، قال: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾[٢]، وغدٌ يقال لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه، قال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾[٣]، ونحوه[٤].

الهبة: وهب: الواو والهاء والباء: كلماتٌ لا ينقاس بعضُها على بعض. تقول: وهَبْتُ الشَّيءَ أَهَبُهُ هِبَةً ومَوْهِباً. واتَّهَبْتُ الهبة: قَبلتُها. والمَوْهِبَة: قَلْتٌ يَسْتنقعُ فيه الماء؛ والجمع مَواهب. ويقال أَوْهَبَ إليَّ من المال كذا، أي ارتفع. وأصبح فلانٌ مُوهَباً لكذا، أي مُعَدًّا له[٥].

الهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض. يقال: وهبته هبةً وموهبةً وموهباً[٦].

السلف: سلف: السِّينُ وَاللَّامُ وَالْفَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَقَدُّمٍ وَسَبْقٍ. مِنْ ذَلِكَ السَّلَفُ: الَّذِينَ مَضَوْا. وَالْقَوْمُ السُّلَّافُ: الْمُتَقَدِّمُونَ. وَالسُّلَافُ: السَّائِلُ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ قَبْلَ أَنْ يُعْصَرَ. وَالسُّلْفَةُ: الْمُعَجَّلُ مِنَ الطَّعَامِ قَبْلَ الْغَدَاءِ. وَالسُّلُوفُ: النَّاقَةُ تَكُونُ فِي أَوَائِلِ الْإِبِلِ إِذَا وَرَدَتْ. وَمِنَ الْبَابِ السَّلَفُ فِي الْبَيْعِ، وَهُوَ مَالٌ يُقَدَّمُ لِمَا يُشْتَرَى نَسَاءً. وَنَاسٌ يُسَمُّونَ الْقَرْضَ السَّلَفَ، وَهُوَ ذَاكَ الْقِيَاسُ لِأَنَّهُ شَيْءٌ يُقَدَّمُ بِعِوَضٍ يَتَأَخَّرُ. وَمِنْ غَيْرِ هَذَا الْقِيَاسِ السِّلْفُ سِلْفُ الرِّجَالِ، وَهُمَا اللَّذَانِ يَتَزَوَّجُ هَذَا أُخْتًا وَهَذَا أُخْتًا. وَهَذَا قِيَاسُ السَّالِفَتَيْنِ، وَهُمَا صَفْحَتَا الْعُنُقِ، هَذِهِ بِحِذَاءِ هَذِهِ. وَمِمَّا شَذَّ عَنِ الْبَابَيْنِ السَّلْفُ وَهُوَ الْجِرَابُ. وَيُقَالُ إِنَّ الْقُلْفَةَ تُسَمَّى سَلَفًا. وَمِنْهُ أَسْلَفْتُ الْأَرْضَ لِلزَّرْعِ، إِذَا سَوَّيْتَهَا. وَمُمْكِنٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ قِيَاسِ الْبَابِ الْأَوَّلِ: لِأَنَّهُ أَمْرٌ قَدْ تَقَدَّمَ فِي إِصْلَاحِهِ[٧].

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٢.

(٢) سورة القلم، الآية: ٢٢.

(٣) سورة القمر، الآية: ٢٦.

(٤) مفردات الأصفهاني، ص ٦٠٣ مادة «غدا».

(٥) ترتيب مقاييس اللغة، ص ١٠٣٦ مادة «وهب».

(٦) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٨٨٤ مادة «وهب».

(٧) ترتيب مقاييس اللغة، ص ٤٥٩ مادة «سلف».

السلف: المتقدم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾[١]، أي: معتبَراً متقدّماً، وقال تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾[٢]، أي: يُتجافى عما تقدم من ذنبه، وكذا قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[٣]، أي: ما تقدم من فعلكم، فذلك مُتجافىً عنه، فالاستثناء عن الإثم لا عن جواز الفعل، ولفلان سَلَفٌ كريمٌ، أي: آباء متقدمون، جمعه أسلاف، وسُلُوف. والسالفة صفحة العنق، والسَّلَفُ: ما قُدِّمَ من الثمن على المبيع، والسالفة والسُّلافُ: المتقدمون في حرب، أو سفر، وسُلافةُ الخمر: ما بقي من العصير، والسُّلْفَةُ: ما يقدم من الطعام على القرى، يقال: سلفوا ضيفكم ولَهِّنوه[٤].

فهم النص

حين التدبر في المقطع السابق المتقدم بيانه؛ وهو، «**يا ربّ ارحم ضعف بدني ورقّة جلدي ودقّـة عظمي**»، وعند هذا المقطع الذي بين أيدينا، نجد أنّ ثمَّة سؤالاً ضمنيّاً؛ وهو، أن المقطع السابق يتناول مفاهيم مادية تتمثل في ضعف البدن ورقة الجلد ودقة العظم؛ وهي مفاهيم لها صلة وثيقة بعالم الدنيا، التي تخضع لموازين المادة وطبيعتها؛ وتأتي هذه المفاهيم من حيث التقسيم العقائدي من العوالم التي تكون متدنية؛ في حين أن المقطع الذي بين أيدينايتناول مفاهيم أوليـة من حيث مبدأ الخلقة والرعايـة والعناية في عالم الذرّ وعالم الأرحام، وهذه العوالم متقدمة على عالَم الدنيا، وقد اعتمد الداعي على المفاهيم المادية التي هي بالأساس لم تكن موجودة إذا ضممنا هذا المقطع كصلة وثيقة بالمقطع السابق، وندرك جيداً أن وجدان النقش ملزوم عقلي بوجدان العرش، بحيث لا يمكن تثبيت النقش من دون وجود العرش، وهنا المسألـة كذلك؛ إذ لا يمكن طلب الرحمة من اللّه تعالى في هذه المفاهيم المادية بدعوى الضعف والرقّـة تارةً ودعوى الدقّة تارةً أخرى

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٢٣.
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني، ص ٤٢٠ مادة «سلـف».

إلى حدٍّ أنّه لا يمكنه أن يتحمل ألم العذاب، وهو بعدُ لم يذكر المفاهيم الموجبة لوجدانه في عالم الدنيا، من أجل ترتيب هذه المسائل عليها.

والملاحظ: أن هذا من دقة الداعي وفطنته في تناول المفاهيم العقائدية، إذ يشير المقطع الذي يتناول الداعي فيه طلب الرحمة، لكونه؛ ضعيف البدن، ورقيق الجلد، ودقيق العظم، ومن يحمل هذه المواصفات، لا يتحمل ألم العذاب الأُخروي، ومن ثمّ يُبيِّنُ في المقطع الثاني، أساس المبدأ في إفاضة الخلقة والعناية والتربية، والرعاية التي كان يتلقاها هذا الداعي وهو في عالم الأرحام ومن ثَمّ في عالم الدنيا، ناهيك عن تلك الحمايات التي كان اللّه تعالى بها يدفع البلاءات والمصائب عن الداعي، وهو منذ كان في بدايات مراحله الأولى من خلقه، إلى أن أصبح هرماً تقلبه الهموم والرزايا بسبب كثرة الذنوب والمعاصي في عالم الدنيا؛ فهو تعالى؛ بالنتيجة محيط بمضاعفات هذا الجسد البشري، بكل ما يحمل من مواد وأعضاء، ويعلم علماً تفصيلياً، مدى تحمل هذا الداعي الآلام والعذاب الأخروي، إذا ما كان مصيره مأساوياً. فالداعي يطلب من اللّه تعالى أن يفيض عليه من الرحمة والعطف واللطف الإلهي، وذلك لكونه ليس بمقدوره أن يتحمل العذاب والعقاب في عالم الآخرة، ولكونه تعالى محيطاً إحاطة كلية، بعدم تحمل هذا الجسم البشري، تلك العذابات الاخروية، لأنه هو الخالق والمربيّ والمغذيّ.

يبدأ العبد في هذه الفقرة باستعراض الأيادي والكرم الإلهي، الذي مَنّ اللّه تعالى به عليه، ويدرك العبد أن أول تلكم الأيادي هي خلقُهُ، وإفاضة الروح عليه، ونقله من عالم الأصلاب، متنقلاً من صلب إلى صلب، إلى أن أنعم عليه بإخراجه سالماً معافىً من النقائص البدنية والعقليةً والنفسية إلى هذه الحياة الدنيا. حيث يتبيّن للعبد؛ من خلال الآيات القرآنية أنه لم يكن ضمن الموجودين، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا * إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1] توضح الآية: المباركة؛ أنه كان في وقت يذكر فيه الأرض والسماء والبر والبحر وغير ذلك من

(١) سورة الإنسان، الآية: ١-٣.

الموجودات، ولم يكن الإنسان من هؤلاء الذين يذكرون، وبذلك يدرك العبد الحال الذي كان عليه من ذي قبل، فقد كان محكوماً بالعدم.

ثم توضح الآية: المباركة، أن اللّه تعالى أوجد الإنسان من نطفة وكوَّنه بالطريقة التي سنشيرُ إليها بعد برهة. والآية ترشد هذا الإنسان إلى أنّه لم يكن مذكوراً قبل أن يُخلق، وأن يدخل في خضم هذه الحياة الدنيا، وتوضح الهدف من هذا المشوار في هذه الحياة، وهو عنوان الهداية نحو الطريق والسبيل المنشود من هذا الإنسان وبحسب ما يتوصل إليه عقله وأدلته، ووضعه مسارين للهداية، فإمّا أن يضع اللّه تعالى أمام كل تحركاته وأفعاله وأقواله وسلوكياته فهو يؤدي رسالة اللّه تعالى، ويقوم بكل ما أنيط إليه من أدوار يكون فيها مراقباً من قبل اللّه تعالى. وإمّا أن يضع اللّه وراءه بحيث لا توجد موازين يعتمد عليها في معاملاته في هذه الحياة، فهو يخالف أبسط المبادئ والمفاهيم عند عقلاء البشر؛ ومن هنا تجده فاقداً للهوية الفكرية والاجتماعية، وهو المعبر عنه في الآية: المباركة بـ(الكفور)، وبعد كل هذا ينال الإنسان جزاءه في عالم الآخرة الذي يقدر له البقاء فيه، والجزاء يناله بحسب السبيل أو الطريق الذي أخذه كعنوان ومنهج ترتكز عليها معتقداته في هذه الحياة الدنيا.

«أما أوّل الإنسان فهو من أنه لم يكن شيئاً بل كان عدماً بحتاً ومحواً صرفاً ثمّ خلقه اللّه من التراب أذلِّ الأشياء، ثم من المنيّ أقذرها، ثمّ خلقه أطواراً ما هو في شيء منها إلّا وهو متردد فيما هو أخسّ الأوصاف من علقة ومضغة وعظام ضاحية (ظاهرة وخالية من اللحم)، ثمّ مكسوة لحماً في غاية الضعف والتضاؤل حتى صار شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكن كذلك إذ كان في أوّل كونه على هذه الصورة لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يدرك، ثمّ على اختلاف هذه الأحوال وابتلائه بهذه الأطوار منّ عليه بالإدراك عن عدم، وبالحياة عن موت، وبالقوة عن ضعف، وبالهدى عن ضلالة، وبالقدرة عن عجز، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[1] وذلك هو جميع ما تيسّر له في مدة حياته من لدنْ خروجه من رحم الأم

(١) سورة عبس، الآية: ٢٠.

إلى بطن الأرض فانظر إلى قدرة اللّه ورحمته كيف دبّره وصوّره وإلى السبيل كيف يسّره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره! وإلى جهل الإنسان كيف أظهره، كما قال اللّه عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[1] ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[2] ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[3] فانظر إلى رحمة اللّه كيف نقله من تلك الذلـة والقلّـة والخساسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجوداً بعد العدم، حيّاً بعد موت، ناطقاً بعد البكم، بصيراً بعد العمى، قويّاً بعد الضعف، عالماً بعد الجهل، هادياً بعد الضلالة، قادراً بعد العجز، غنيّاً بعد الفقر، فخلقه أولاً من العدم المحض، ثم من التراب الذابل (الدقيق) ثم من الماء المهين ليعرف نفسه من حيث هو»[4].

بعدها يدلف العبد إلى عنوان التربية والبرّ والغذاء؛ وهذه العناوين تختزن مفاهيم عميقة في مجال المجتمع والأسرة في تحركاتنا في هذه الحياة الدنيا، حيث سنفتح بحثاً مستقلاً إن شاء اللّه تعالى بعد قليل في هذا الشأن. فالعبد يسرد حقائـق كان لزاماً أن يظهرها للواقع؛ حيث ينتقل للإشارة الحقيقية في مجال التربية وإفاضة الرحمات وتزويـده بالغذاء الصالح الذي يوجب له البقاء حياً، وهو في عالم الأرحام، وبعدها حينما ولج في عالم الدنيا، حيث هيأ له الحواضن التي ترعاه من عطف أبويه، ما يكون ملهماً في إحسان تربيته، وقد مَنّ اللّه تعالى على الإنسان بالمحافظة عليه من كل ما يَمُتُّ إليه من سوء وأذى، حيث أغدق عليه من النعم التي يتمتع بها في عالم الدنيا، من تهيئة الغذاء الكافي، في المراحل التي يمرّ بها في هذه المسيرة من الحياة الدنيا حملاً، ورضاعةً، وشاباً، وشيخاً، وكهلاً، وفي كل هذه الأدوار منحه اللّه تعالى من نوعية الغذاء ما يتناسب والمرحلة والدور الذي

(١) سورة يس، الآية: ٧٧.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ١ -٢.
(٤) آداب النفس للعيناثي، ص ٣٢٥- ٣٢٦.

يمر به[١]. ومن خلال هذا الأسلوب الاستعطافي؛ يسعى العبد إلى أن تخيم عليه خيمة الرحمة والهبة الربانية، وأن يشمله العطف والرحمة الإلهية، إذ لا حدّ للكرم الرباني، ولا ساحل لبحر الجود.

ويشير الإمام الحسين عليه السلام في دعائه في يوم عرفة، إلى هذا المعنى بكل المراحل التي يقطعها هذا الإنسان منذُ خلقه، إلى أن يدخل إلى هذا العالم الذي بحسب الطبيعة يحتاج إلى رعاية وشأن خاص يخضع لموازين وضوابط تكمل المسيرة لتحرك الإنسان وهو في هذه الحياة، يقول الإمام عليه السلام:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ وَ أَشْهَدُ بالرُّبُوبِيَّة لَكَ، مُقرّاً بأَنَّكَ رَبِّي، وَ أَنَّ إِلَيْكَ مَرَدِّي، ابْتَدَأْتَنِي بنعْمَتكَ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ شَيْئاً مَذْكُوراً، وَ خَلَقْتَنِي منَ التُّرَاب، ثُمَّ أَسْكَنْتَنِي الأَصْلَابَ آمناً لرَيْب الْمَنُون، وَ اخْتلَاف الدُّهُور والسنينَ، فَلَمْ أَزَلْ ظَاعناً منْ صُلْب إِلَى رَحم، فِي تَقَادُم الأَيَّام الْمَاضيَة وَ الْقُرُون الْخَاليَة، لَمْ تُخْرجْني لرَأْفَتكَ بي، وَ لُطْفكَ لِي، وَ إِحْسَانكَ إِلَيَّ، فِي دَوْلَة أَيَّام الْكَفَرَة، الَّذينَ نَقَضُوا عَهْدَكَ، وَ كَذَّبُوا رُسُلَكَ، لَكنَّكَ أَخْرَجْتَني رَأْفَةً منْكَ، وَ تَحَنُّناً عَلَيَّ، للَّذي سَبَقَ لِي منَ الْهُدَى الَّذي يَسَّرْتَني وَ فيه أَنْشَأْتَني، وَ منْ قَبْل ذَلكَ رَؤُفْتَ بي بجَميل صُنْعكَ، وَ سَوَابغ نعْمَتكَ، فَابْتَدَعْتَ خَلْقي منْ مَنيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ أَسْكَنْتَني فِي ظُلُمَات ثَلَاث، بَيْنَ لَحْم وَ جلْد وَ دَم، لَمْ تُشَهِّرْني بخَلْقي، وَ لَمْ تَجْعَلْ إِلَيَّ شَيْئاً منْ أَمْري، ثُمَّ أَخْرَجْتَني إِلَى الدُّنْيَا تَامّاً سَويّاً، وَ حَفظْتَني فِي الْمَهْد طفْلًا صَبيّاً، وَ رَزَقْتَني منَ الْغذَاء لَبَناً مَريّاً، وعَطَفْتَ عَلَيَّ قُلُوبَ الْحَوَاضن، وَ كَفَّلْتَني الأُمَّهَاتِ الرَّحَائمَ، وَ كَلأْتَني منْ طَوَارق الْجَانِّ، وَ سَلَّمْتَني منَ الزِّيَادَة وَ النُّقْصَان، فَتَعَالَيْتَ يَا رَحيمُ يَا رَحْمَانُ، حَتَّى إِذَا اسْتَهْلَلْتُ نَاطقاً بالْكَلَام، أَتْمَمْتَ عَلَيَّ سَوَابغَ الإِنْعَامَ، فَرَبَّيْتَني زَائداً فِي كُلِّ عَام، حَتَّى إِذَا كَمُلَتْ فطْرَتي، وَ اعْتَدَلَتْ سَريرَتي، أَوْجَبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ بأَنْ أَلْهَمْتَني مَعْرفَتَكَ، وَ رَوَّعْتَني بعَجَائب فطْرَتكَ، وَ أَيْقَظْتَني لمَا ذَرَأْتَ فِي سَمَائكَ وَ أَرْضكَ منْ بَدَائع خَلْقكَ، وَ نَبَّهْتَني لذكْركَ وَ شُكْركَ، وَ وَاجب طَاعَتكَ وَ عبَادَتكَ، وَ فَهَّمْتَني مَا جَاءَتْ به رُسُلُكَ، وَ يَسَّرْتَ لِي تَقَبُّلَ مَرْضَاتكَ، وَ مَنَنْتَ عَلَيَّ فِي جَميع ذَلكَ بعَوْنكَ وَ لُطْفكَ،

(١) راجع أضواء على دعاء كميل، ص ٢٦٨.

ثُمَّ إِذْ خَلَقْتَنِي مِنْ خير الثَّرَى، لَمْ تَرْضَ لِي يَا إِلَهِي بنِعْمَة دُونَ أُخْرَى، وَ رَزَقْتَنِي مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعَاشِ، وَ صُنُوف الرِّيَاش، بمَنِّكَ الْعَظِيمِ عَلَيَّ، وَ إِحْسَانك الْقَدِيم إِلَيَّ، حَتَّى إِذَا أَتْمَمْتَ عَلَيَّ جَمِيعَ النِّعَم، وَ صَرَفْتَ عَنِّي كُلَّ النِّقَم، لَمْ يَمْنَعْكَ جَهْلِي وَ جُرْأَتِي عَلَيْكَ، أَنْ دَلَلْتَنِي عَلَى مَا يُقَرِّبُنِي إِلَيْكَ، وَ وَفَّقْتَنِي لِمَا يُزْلِفُنِي لَدَيْكَ، فَإِنْ دَعَوْتُكَ أَجَبْتَنِي، وَ إِنْ سَأَلْتُكَ أَعْطَيْتَنِي، وَ إِنْ أَطَعْتُكَ شَكَرْتَنِي، وَ إِنِ شَكَرْتَنِي زِدْتَنِي، كُلُّ ذَلِكَ إِكْمَالاً لأَنْعُمِكَ عَلَيَّ وَ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ»[1].

ونحاول سرد هذا البحث.

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

أساسيات التربية وأهدافها

مدخل

يحدد لنا هذا المقطع من الدعاء خمسة محاور أساسية في مشروع تكوين هذا الإنسان؛ بدأت من محور الخلقة، ثم عُقبّت بالذّكر والعناية، حيث المدد والإفاضة الربانية، وسيبقى هذا التوجيه والإمداد في كافة المحاور من التربية والبرّ والتغذية، وسيكون منطلقاً أساسيّاً في طريق تحقيق الهدف الموسوم من أجلـه هذا الإنسان، وهو العبادة القائمة على عدّة مرتكزات فقهية، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] حيث تتركز معظم العبادة في فهم مشوار الحياة في هذه الدنيا، ويتمخَّضُ من ورائها إنتاج نفس مزكّاة من اللوثة الدنيوية، التي يشوبها الكثير من المصاعب على المستوى السلوكي والعملي. والآية المباركة تضع الخط العام للتحرك نحو العبادة، التي تنطلق من صياغة الشخصية المؤمنة، كمسار تتركز عليه البنية التحتيّة، لتتحدَّد المعالم الأساسيّة لنفسيّة الفرد المؤمن.

وتستوعب الشريعة الإسلامية كلّ العلاقات الشخصية لدى الفرد، التي تحدد البنية التحتيّة لتكوين الهيكلية النفسية والعقلية والجسدية، حيث بيّنت الضوابط التي ينبغي على الإنسان المؤمن، أن يسلكها من أجل إنتاج مشروع إسلامي متكامل يستمدُّ قوَّته من التعاليم الصادرة من الدين الحنيف والسنة النبوية والأئمة المعصومين عليهم السلام، حيث التكامل المستوعب لحركة الإنسان في هذه الحياة.

ولأجل تكامُلِ هذا التخطيط، كان لا بـدّ من إتباع التعاليم الصادرة عن لسان أهل البيت عليهم السلام، التي ترشد إلى إيجاد العمل الصالح كقاعدة أساسية لتهيئة وتنشئة

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

الجيل الذي يُحسن التعامُلَ مع مختلف التحدّيات في عالم الدنيا، وكعلامة فارقة وواضحة للنجاة من براثن المأزق في عالم الآخرة بعد خروجه من هذا العالم، وكمنطلق لمساعدة المربّين على اكتساب المعطيات الإيجابية في كلا العالمين الدنيا والآخرة.

إنَّ أهل البيت عليهم السلام بيّنوا القيمة الاستراتيجية لتكوين الولد الصالح، وماهيّة الآثار الايجابية التي سيحصل عليها الوالدان، إذا كوّنوا هذا المشروع الصالح، من خلال تعقّب أثر أهل البيت عليهم السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله: «**الولد الصالح ريحانة من اللّه قسمها بين عباده، وإن ريحانتي من الدنيا الحسن والحسين عليهما السلام، سمّيتهما باسم سبطين من بني إسرائيل: شبّراً وشبيراً**».

وقال عليه السلام: «**من سعادة الرجل الولد الصالح**».

وقال عليه أفاضل الصلوات الزاكيات: «**ميراث اللّه من عبده المؤمن الولد الصالح يستغفر له**».

وتمتدّ هذه المميزات من أثر الولد الصالح إلى عالم الآخرة، ليكون عمل الولد الصالح الخيّر مساعداً يزوّد والديه بالحسنات، من أجل أن تضيء قبر أبيه و أمه بنور الملكوت الإلهي، ويُبعِدَ عنهما أهوال وعذابات القبر الرهيبة، وله القدرة على أن يغيّر مصيرهما من المأساة إلى عالم الرفاهية والنعيم الدائم.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاثُ خصال: صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته إلى يوم القيامة، صدقة موقوفة لا تورث، أو سنة هدى سنها وكان يعمل بها وعمل بها من بعده غيره، أو ولد صالح يستغفر له**».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**ست خصال ينتفع بها المؤمن من بعد موته: ولد**

صالح يستغفر له، ومصحف يقرأ فيه، وقليب[١] **يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يُجريه، وسنة حسنة يؤخذ بها بعده»**[٢].

قال أبو عبد اللّه عليه السلام: «**خير ما يخلفه الرجل بعده ثلاثة: ولد بارٌّ يستغفر له، وسُنَّة خير يقتدى به فيها، و صدقة تجري من بعده**»[٣].

وكتحصيل لمثل هذه المميزات، لا بدّ من إيجاد الأسس والبنية الأرضية التي تساعد على تكوين هذا الفرد في الواقع الخارجي، حيث الرعاية والعناية تتطلب ذلك من بدايات غرس البذور، ومحاولة مراعاتها والالتفات إليها بشكل دقيق جداً.

ولكي تكون المنطلقات التربوية قائمة على مرتكزات وأسس متينة، مستمدة من البيئة الإسلامية يلزمنا أن نتقيّد بكل التعاليم الآتية من المشرع الإسلامي، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٤].

وهذه الآية: الشريفة تشير إلى أن ثمّة منعطفَين أساسيّين يقودان الإنسان؛ وهما:

المنعطف الأول: البنيان القائم على موازين، استحكمت فيها المبادئ والمفاهيم النابعة من أصول الدين المحمدي الاصيل، بحيث أن عملية التربية للشخصية المؤمنة تستمد جذور تغذيتها من التعاليم الإسلامية، فهي تقف على أرض صلبة، وصالحة للزراعة والمحصول الجيد والقويّ، الذي سيكون المفعول الذي سينتج منه سليماً وصالحاً تتعاقب عليه الأجيال القادمة، وذلك لأن البنية والأساس قائمان على مرتكز سليم وصحيح.

المنعطف الثاني: البنيان المنحرف القائم على معادلات تدميرية، لم تأخذ البعد الاستراتيجي؛ كهدف ومنطلق تحرك منه في كلّ مشوارها الدنيوي، فهي تغذي التربية

---

(١) بمعنى البئر.

(٢) بحار الأنوار، ج١٠٤، ص ١٠٠ ح٨٠.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٠٤ ص١٠٠ ح٨١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

بطعم غير صالح ورديء يحتوي على مفاعيل فاسدة للكيان التربوي، بحيث تصوغُ شخصيةً تُقدِّم مفاهيم عميقة في الإنحراف السلوكي والتربوي، وحيث إنّه عندما ينطلق في مشواره في الحياة الدنيا يجد نفسه أسفل سافلين في السقوط في مستنقعات الخسارة عند أعلى المستويات، وهذا نابع من اختيار الأرضيـة التي يسعى إلى تشييد مشروعه التربوي عليها، إذ ما دامت محاطةً بالشوك والشبهات وسائر المواد السلبية؛ فإنها لن تنتج ذلك المحصول الذي يغذي الأجيال المتلاحقة في المدى البعيد. وهذا ما يفسر لنا تلك الموروثات التي تعاقبَ عليها بعض فصائلِ البشر من أنهم وُجِدوا في بيئة فاسدة، وقد جعلتهم هذه الأجواء المنحرفة أشخاصاً تستعذب مضغ اللحوم البشرية، أو تستهوي سفك الدماء المحرّمة، وحيث ما كانت الأرضيّة فاسدةً مملوءةً بالأملاح؛ فإنها تبقى صحراويّةً وغير مهيأةٍ لإنتاج الزراعة الصالحة، وسيكون أغلب منتجاتها أشواكاً تؤذي الآخرين، وإذا كانت تلك الأرض قائمة على أسس ومرتكزات ذات مفاهيم ومبادئ عميقة في الصلاح والمنفعة في الزراعة والبناء، فإنها تنتج محاصيل صالحة وسليمة للتعايش بسلام مع الأفراد الإنسانية الأخرى، وسيكون التقوى والورع أحد المحاصيل الأساسيّة في تكوين الشخصية الإيمانية، وذلك بفضل الأرض الصالحة التي تنتج المحصول الزراعيّ الصالح والسليم.

ومردّ صناعة الولـد الصالح يرجع إلى المبدأ الذي على أساسه يتم اختيار الشريك أو الطرف المقابل، فهو الأرضية التي تزرع فيها البذور التي ستصنع المشروع المراد به قيادة المجتمع في المستقبل.

وبالجملة، فإن التربية الصالحة، تتمخض منتوجاتها على أساسيات قائمة بذاتها، ينبغي على الفرد المؤمن أن يكون على أهبّة الوعي والاستعداد لاستيعاب هذه الأساسيات، ومحاولة فهمها بكلّ السبل من أجل إنتاج الولد الصالح الذي أشارت إليه الروايات المشار إليها آنفاً.

ومع هذه البيانات نحاول أن نعقد على أطراف هذه الفقرة من الدعاء، بحثاً متكاملاً حول التربية الصالحة للولد الصالح؛ ولذلك لأنّ التربية تحوي مجموع المفاهيم الواردة في هذا المقطع من الدعاء، من خلال هذه المحاور.

المحور الأول: أهمية التربية في الدين الإسلامي

تشكِّلُ التربية في أيّ أمة من الأمم؛ واحدةً من أهم القوى الناتجة لتكوين الشخصية لدى الشباب، فهي ثروة تكمن في كيفية استغلالها وتطبيقها على الواقع.

وتكمن أهمية التربية لدى الكثير من المجتمعات البشرية، في أنّها تصوغ التركيبة الفكرية والعقلية لدى فئة شبابها بالتقاليد والثقافات التي استمدّوها من أسلافهم، ومحاولة الحفاظ على طراوة هذه الثقافات من الانفلات من أيديها، والحفاظ أيضاً من الانحراف الفكري والنفسي لدى شبابهم. وثمة مجتمعات لم تكتفِ بتعليم شبابها، وإنّما سعت بكل ما أُوتيَتْ من قوة، إلى تصدير هذه الأفكار إلى خارج محيطها، حتى استطاعت بسبب التعاطي الإعلامي، وبشتى أساليب الترويج، وضع الشبهات والأفكار في قوالب جميلة ومضللة، تهدف إلى صناعة جيل من الشباب يقوم بهذا الدور وهو إشاعة هذه الأفكار الفاسدة، التي تؤدّي بالشباب إلى التشكيك والتقليل من المعتقدات والأخلاقيات التي يعتنقها الشباب المؤمنون.

ومن هنا تؤكد الشريعة الإسلامية على أهمية التربية، ومحاولة التدرج فيها بحسب التعاليم الصادرة من قادة الإسلام المحمدي الأصيل، والسير بالشباب بخطى حذرة جداً، ولدى هؤلاء يكمن الدافع حيث تحلّي الشباب بالورع والتقوى، والهدف هو الحفاظ على النسيج الإسلامي أولاً، ومساعدتهم على أنفسهم من الانحراف الفكري والعقدي؛ وإذا وقع الشباب في مثل هذه المحذورات والعياذ باللّه، فإن المأساة ستكون وخيمة وكارثيّة جدّاً، وقد حاولت جهات ومؤسسات غربية أن تروج الفكر الذي ينفّر الإنسان المسلم من التعاليم الدينية أو التكيّف معها بحيث يطرأ على النفس الملل والكلل، وكثير من الشباب وقعوا في هذا المحذور للأسف، حيث يصرّ على ممارسة العبادة بشكل مفرط[1]، وأكثر من المطلوب،

---

(١) وقد وردت روايات تدعو إلى الاقتصاد في العبادة عند الخوف من الملل منها:
عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**أجهدت في العبادة - وأنا شاب فقال لي أبي: يا بُنيَّ! دون ما أراك تصنع، فإن اللّه عزّ وجلّ إذا أحبَّ عبداً رضى منه باليسير**» وسائل الشيعة، ج١، ص ١٠٨ باب ٢٦ استحباب الاقتصاد في العبادة عند خوف الملل ح١.
عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**لا تُكرّهوا إلى أنفسكم العبادة**» وسائل الشيعة، ج١، ص ١٠٨ باب ٢٦ =

مثلاً ومن غير توجّه والتفات، وفي نهاية المطاف نجده مبتعداً عن أغلب الواجبات فضلاً عن المستحبات، وذلك بسبب عدم التوجه، وبحسب توجيهات سماحة الإمام القائد الخامنئي دام ظله حيث يوصي الشباب بالاعتناء بعباداتهم؛ من أجل أن لا يبتلوا بالانحراف والضياع «أوصي الشباب أن يقرنوا عباداتهم بالتوجه والخشوع. وأنا لا أصرّ عليكم بأن تكثروا من عباداتكم، إن هذا الأمر يعود إليكم فإن أردتم الاستزادة وإن أردتم التقليل، شرط أن تكون مقرونة بالتوجه والخشوع. مما لا شك فيه أنه يجب على الجميع أن يؤدوا العبادات الواجبة. وأنا لا أقول على الشباب الإكثار من العبادات المستحبة من قبيل تلاوة العديد من الأدعية وآيات القران وأداء الصلوات المستحبة، وإنما أدعوكم لتكون نفس عباداتكم التي تأتون بها مقرونةً بالتوجّه والخشوع حتى تتحقق المنفعة من ورائها»[1]. إذن الضابطة في

= استحباب الاقتصاد في العبادة عند خوف الملل ح٢.

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **مرَّ بي أبي - وأنا بالطواف وأنا حدث وقد اجتهدت في العبادة - فرآني وأنا أتصابُّ عَرَقاً فقال لي: «يا جعفرُ يا بُنيَّ إنّ الله إذا أحب عبداً يُدخله الجنّة، ورضيَ عنه باليسير»** وسائل الشيعة، ج١ ص١٠٨- ١٠٩ باب ٢٦استحباب الاقتصاد في العبادة عند خوف الملل ح٣.

عن حنان بن سدير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إنّ الله إذا أحبَّ عبداً فعمل (عملاً) قليلاً جزاه بالقليل الكثير، ولم يتعاظمه أن يجزى بالقليل الكثير له**» وسائل الشيعة، ج١ ص١٠٩ باب ٢٦استحباب الاقتصاد في العبادة عند خوف الملل ح٤.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ألا إن لكل عبادة شرَّةً ثم تصير إلى فترة، فمن صارت شِرَّةُ عبادته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن خالف سنتي فقد ضل، وكان عمله في تبار، أما أني أصلي، وأنام وأصوم، وأفطر وأضحك، وأبكي، فمن رغب عن منهاجي وسنتي فليس منّي، وقال: كفى بالموت موعظة، وكفى باليقين غنىً، وكفى بالعبادة شغلاً**» وسائل الشيعة، ج١، ص ١٠٩ باب ٢٦استحباب الاقتصاد في العبادة عند خوف الملل ح٥.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفراً قطع، ولا ظهراً أبقى**». وسائل الشيعة، ج١، ص ١٠٩ باب ٢٦استحباب الاقتصاد في العبادة عند خوف الملل ح٦.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا علي، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تُبغض إلى نفسك عبادة ربك، إن المنبت يعنى - المفرط - لا ظهراً أبقى، ولا أرضاً قطع، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرماً، واحذر حذر من يتخوّف أن يموتَ غداً**» وسائل الشيعة، ج١، ص ١١٠ باب ٢٦استحباب الاقتصاد في العبادة عند خوف الملل ح٧.

عن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث - قال: «**كان أبي يقول: ما من أحد أبغض إلى الله عز وجل من رجل يقال له: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفعل كذا وكذا، فيقول: لا يعذبني الله على أن أجتهد في الصلاة والصوم، كأنه يرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله ترك شيئاً من الفضل عجزاً عنه**» وسائل الشيعة، ج١، ص ١١٠ باب ٢٦استحباب الاقتصاد في العبادة عند خوف الملل ح٨.

(١) كيف نتعاطى مع الشباب في أحاديث الإمام الخامنئي، ص ٩٦.

العبادة هي التوجّه والإدراك والالتفات الى العمل الذي يقوم به؛ لا أن يقوم بالعمل من غير توجه، وبالاندفاع نحو العبادة بلا تركيز على المضامين والمفاهيم، بحيث لو طرأت عليه الشبهات لانحرف عن الخط الإسلامي الأصيل، وهذا من قبيل الآية: الكريمة التي قال اللّه تعالى فيها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾(١)، تشيرُ هذه الآية: الكريمة، إلى أن هذه الفئة من الناس حاولت أن تتسلم المضامين الدينية من غير أن تدرك معانيها، وما تحمل من ثقل وكنز معرفي، فهي تتحرك على حوافِّها دون أن تقتحمها وتتعرّف على كنوزها، وما تحمل من كيفٍ علمي، بحيث أنها لمجرد أن تصطدم بأدنى هزّة فكرية أو ثقافية؛ فإنها سرعان ما تقع، لوقوفها على حافّة هذه المفاهيم من دون إدراك ما تستوعب من حماية جوهرية، ولكونها حاولت أن توقف اجتهادها وفكرها، أصبح الدين لدى هذه الجماعات هشاً، ولا يوجد فيه روح، فهم يخسرون الدنيا وما تحمل من مميزات يمكن أن يحصل عليها الإنسان، لو أنه فعّل هذه المفاهيم على أرض الواقع، وأيضاً يخسر الآخرة، وذلك لكون هذه المفاهيم لم تخترق قلبه، واعتبر هذه المضامين والمفاهيم مجرد عبارات عابرة لا تتجاوز لقلقة اللسان فقط، فهو يقف على حافّة الجبل، الذي يوشك أن تحدث به هزّة خفيفة، ليكون أول الضحايا(٢).

من هنا سعى الإسلام إلى بناء كادر يتحلّى بالحكمة والوعي، ويحكُمُ الترابط والنسيج الإجتماعي، كمنطلق للتلاحم الفكري والثقافي، وذلك من خلال التحلّي بالتقوى والتسليم لمبادئ ومضامين التعاليم النازلة من رب العالمين، واحترام الموازين الايمانية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ * وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ

(١) سورة الحج، الآية: ١١.
(٢) راجع تفسير الأمثل، ج ١٠، ص ١٨٣.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١] فالآية الأولى توجه الخطاب إلى طائفة المؤمنين، وتأمرهم بالتقوى، وهو حال من التربية الهادفة إلى تكوين تيار إيماني يسعى إلى بث الأخلاق التسامحية فيما بينهم، وهو إشارة إلى نشر الفضيلة والحب والقانون الذي يعتمد على الاحترام، ومعالجة جذور الاختلاف بحنكة وتدبير يذيب جليد التنافر والنزاع، وذلك من خلال المبادئ القائمة على قانون الاعتقاد الصحيح، وهو ما تحاول الآية: الأُخرى أن توضحه، وتسعى إلى تجذيره كمنهاج عام في قلب المجتمعات الإيمانية. وإعادة التذكير بالتاريخ السيئ المليء بالأحقاد الطويلة بعمر المجتمع، والعميقة في قلوب الناس، وما تراكم من أثر الضغائن المستحكمة، ما هو إلا قراءة واقعية للحال الذي كانوا عليها بالأمس، والحياة التي يعيش فيها المجتمع اليوم، وما يمثل من عمق الترابط الوثيق في ظل المفاهيم الإسلامية، والتي صبغت الفكر الإنساني بالمزيد من التطور في المستويات الأخلاقية.

ونستفيد من أجواء الآيتين، أن صناعة الولد الصالح تنبثق من مثل هذه المجتمعات التي تؤسس الورع والتقوى، وتجعله ثقافة يتعلم منها الأجيال اللاحقة،التي سوف تسود واجهة المجتمع، وتنبذ الأحقاد والتنافر وخلق فوضى تخريبية من خلال إشاعة مفاهيم تحزبيّة بعيدة عن المبدأ الإسلامي الذي يقول: إنما المؤمنون إخوة.

ومن المعلوم أن الطفل يولد وهو فاقد لأي معلومة تساعده على معرفة متطلبات الحياة في الدنيا، حيث لا يدرك المفاهيم الكلية، والقرآن الكريم يستعرض لنا هذا البند والقانون الذي لا يتخلف عنه أحد، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

تصرح الآية: المباركة، بأنّ الإنسان أتى إلى هذا العالم من بوابة والدته، ولا يوجد طريق آخر يستطيع منه الإنسان أن يدخل إلى عالم الدنيا غير هذا المنفذ، ونلاحظ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢ – ١٠٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.

أن الآية: الكريمة تستدرك؛ حيث تشير إلى أن هذا الإنسان ولج إلى هذا العالم وهو فاقد لأي معلومة تؤهله لاكتساب المقامات والدرجات العليا، وأن هناك ثلاث طرق يمكنه من خلالها أن ينال العلم وهي الطريق الأول: السمع، والطريق الثاني: البصر، والطريق الثالث: العقل وهو الفؤاد[١]، فمن خلال هذه الطرق الثلاث يتكون لدى الإنسان مراحل إكتساب العلم. ولكون أن هذا الطفل يتفاعل مع المحيط والجو الذي يتواجد فيه، فإن صياغة شخصيته، يعتمد على المحيد العائلي وجوه، وبالإشارة إلى حيث قال أبا عبد اللّه عليه السلام: «**ما من مولود ولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، وإنما أعطى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الذمة وقبل الجزية عن رؤوس أولئك بأعيانهم على أن لا يهودوا ولا ينصروا ولا يمجسوا. فأما الأولاد وأهل الذمة اليوم فلا ذمة لهم**»[٢] ومن خلال هذا الحديث يتبيّن أنّ التربية الصالحة يقوم بها الأبوان اللذان تقع المسؤولية عليهما.

ومن هذا المنطلق يلزم على عاتق الطرفين أن يختارا الأرضية المناسبة لزراعة البذور السليمة، وذلك من أجل تحصيل النتاج الصالح، حيث يلزم على الرّجل الذي يقدم على طلب الشريك، أن يبحث عن مرأة مناسبة وذات مواصفات محددة، حتى ينتج عنهما الولد الصالح، وهو ما سنبحث عنه في المحور القادم.

المحور الثاني: ضبط هيكلية الأسرة

عند هذا المحور نقوم بتوضيح الإيجابية والسلبية في تشكيل هيكلية الأسرة، حيث التخبط الذي أخذ الإنسان في سلوكه، نحو بناء الأسرة كان كفيلاً بإحداث المشكلات الجسيمة، نتيجة الابتعاد عن منهجية أهل البيت عليهم السلام في كيفية تنظيم الأسرة السليمة، والتي سيكون نتاجها الولد الصالح. وقد أحدث الابتعاد عن تعاليم أهل البيت عليهم السلام حول كيفية تنظيم البيت الأسري؛ آثاراً وخيمةً امتدت شراراتها إلى عمق المجتمعات، حيث خلفت تصدعاً في الموازين والأركان الثابتة فيها، وهذا ناتج عن عدم السير حسب خطوات أهل البيت عليهم السلام التعليمية، والتي

(١) راجع تفسير الميزان، ج ١٢، ص ٣١٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٦٥ ح٨ باب ١٢.

ترشد إلى تحديد الضوابط التي ينبغي على الإنسان الذي يسعى إلى تكوين البيت الأسري أن يتقيّد بها، من قبيل الصفات الحسنة المتوفرة لدى الطرف الآخر، إذ من اللازم معرفة هذه الضوابط حتى يتمكن من صناعة الولد الصالح، في حين أن التخلف عن هذه التعاليم سيفرز نتاجاتٍ سلبيّةٍ تكون عواقبها على الإنسان ذاته، حيث سيجني الثمار الفاسدة، غير الصالحة للاستهلاك، وسوف تكون صفة ثابتة على طول الخط من عمره، ولن يُرجى من الولد الذي جاء إلى عالم الدنيا بهكذا طريقة أيُّ خير.

وقد عبّر القرآن الكريم عند ما ذكر الصلة أو العلقة الزوجية، بتعبير في غاية الروعة، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1] حيث بيَّنت هذه الآية: المباركة، مدى قوة العلاقة الوثيقة بين الزوجين، وأنّ هذه العلاقة تمثل العمق الترابطي على كل المستويات، فقد عبّرت الآية: الكريمة عن الحال الترابطي بين الزوجين باللباس الذي يفضي الى التستر والحجاب الذي يمنع الآخرين عن النظر، إذ تشير مفردة اللباس، الى عمق الأبعاد التي يتحلى بها كلا الطرفين، وأنّها تمثّل العفاف والغطاء والتستر والحياء، فينبغي أن تتوفر لدى الطرفين، بحسب الخصوصية التكوينية لكل منهما، وحين تتوفر هذه الألبسة ستساعد على إيجاد الولد الصالح، وذلك عندما تكون هذه الألبسة مُحلّاةً بكامل قيوداتها وتفاصيلها التي تصنع المادة التربوية الناتجة عن تعاليم أهل البيت عليهم السلام.

إنّ توفُّر المادة التربوية ليس صعباً ولا تعقيدَ في سبيل الحصول عليه، إذا كان طريقُ اختيار الطرف الآخر قائماً على موازين وضوابط حددتها النصوص الشرعية، قال اللّه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[2] هذه الآية: المباركة، تُبيّنُ الضابطة التي ينبغي على الرجل والمرأة معاً أن يتقيدا بها، حيث بالتقوى تشيع الكلمة الفاضلة، ويتمُّ سترُ العيوب، والابتعاد عن الذنوب، واللابس ملبس التقوى لا يقدم على الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأيضاً يعمل المتقي على عدم افشاء عيوب

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

الآخرين، ولا يقترب من ظلمهم، ولو كان كارهاً لهم، أو كانوا معادينَ له. هذه الضوابط والمبادئ السامية، هي من أعظم الدعائم الإسلامية التي شيد بها البيت الأسري، فما أجملَ كونَ هذه المفاهيم متجسدةً أمام الزوج حين يكون في بيت الزوجية مع زوجته، التي هي معرضة للاضطهاد أكثر من غيرها؛ لكونها المخلوق الأضعف في العادة، ولكون صناعة الولد الصالح سوف لن تثمر بالنتائج السليمة، إذا لم تكنْ عملية اختيار اللباس قائمةً على موازين الورع والتقوى، ومبادئ الدين.

وقد خاطبت الروايات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام، الرجل، في قضية النظر في اختيار الشريك الآخر، حيث ركّزت عليه؛ لكونه الأقدَر على عمارة الأرض، والكفيل بضبط البيت الأسري، والقوة الدافعة في تحديد مسار التوازن التربوي.

فعن عبد اللّه بن مصعب الزبيري ـ في حديث ـ قال: سمعت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام يقول وقد تذاكرنا أمر النساء: «**أمّا الحرائر فلا تذاكروهنّ، ولكن خير الجواري ما كان لك فيها هوى وكان لها عقل وأدب فلست تحتاج إلى أن تأمر ولا تنهى، ودون ذلك ما كان لك فيها هوى وليس لها أدب فأنت تحتاج إلى الأمر والنهي، ودونها ما كان لك فيها هوى وليس لها عقل ولا أدب فتصبر عليها لمكان هواك فيها، وجارية ليس لك فيها هوى وليس لها عقل ولا أدب فتجعل فيما بينك وبينها البحر الأخضر**»(١).

هذه الرواية تهدف في جوهرها إلى وضع ركائز أساسية لتنشئة الأجيال القادمة، التي تطعمت بالتربية الصالحة، وذلك من خلال أمرين أساسيين هما العقل والدين، حيث اعتبرت هذين الركنين في غاية الضرورة، من أجل صناعة الولد الصالح، وقد وضع الإمام عليه السلام أربعة أصناف:

الصنف الأول: يصفُ الإمام في هذا الصنف، المؤمن بكونه ميّالاً للمرأة ومحباً وعاشقاً لها، في إشارة إلى أن بعض البشر من الناس تتزوّج المرأة لا بدافع الحب أو العشق المقدّسين، وإنما لغرض تعطيل المواهب الموجودة لدى هذه المرأة

(١) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص ٢٧ كتاب النكاح باب استحباب اختيار الجارية التي لها عقل وأدب، أو له فيها هوى.

التي تخدم المجتمع بها، أو لكون الأهل هم من اختاروها فهو يميل إلى رأي الأهل أو العائلة، وهذا التوجّه له عواقب وخيمة في المستقبل على حياة وكيفية تربية الأبناء، وبالتالي ضياع البند الأساس من هذه العلقة، وهو تخريج الولد الصالح من هذه المدرسة الأسرية. والأمر الآخر يرجع إلى المرأة؛ التي ينبغي أن تتحلى بعنصرين أساسيين في مشوار حياتها، وهما العقل والدين، واللذان لهما العمق القويّ في مجال صناعة الولد الصالح، وبالتالي يكون الرجل في راحة تامّة في مسألة توصيل المفاهيم الفكرية والثقافة الدينية إلى عقلية الولد، حيث سيكون في حالة اطمئنان إلى أن المدارك سوف يستوعبها بشكل جيد، ولا يحتاج بالضرورة إلى إمداد وتزويد وتربية الزوجة بالمفاهيم التربوية والفكرية؛ لهدف النهي والأمر، حيث تستوعب هذه المدارك من خلال امتلاك العقل والأدب الخُلقي المستمد من التعاليم الدينية، التي مصدرها أهل البيت عليهم السلام.

الصنف الثاني: هذا الصنف يأتي أقلَّ رتبةً من الصنف الأول، وهو المرأة التي يحبها الإنسان ويهواها ويعشقها، ولكن لا تمتلك تلك الصفات التي امتلكتها المرأة في الصنف الأول، وهي المرأة التي ليس لديها المبدأ الديني، حينها ستكون العلقة مشحونة بالحياة الفوضوية، حيث لا يُؤْمَن فيها على الولد الذي يُراد صناعته صناعةً صالحة. ونلاحظ أن الإمام لم يذكر العقل جنباً إلى جنب الأدب، وذلك لسبب بسيط، وهو أن العقل لا يمكن أن يكون مع من لديها سوء أخلاق، ولذلك سيكون الزوج ملزماً بأن يرهق نفسه في توصيل المفاهيم الفكرية، والأدب والثقافة الدينية إلى الزوجة، لتربيتها، ولأجل صناعة الولد الصالح. وينبغي أيضاً، أن ندرك أن الزوج أيضاً تنعكس عليه هذه التعاليم بقدر ما تتحلّى بها الزوجة، وبمعنى آخر: هو أنّ الزوجة لديها مخزون كافٍ من التربية الصالحة، وعمق في الطرح الفكري، والإدراك العقلي، بينما الزوج موجود في عمق الجهل الفكري والانحراف الأخلاقي، وبالنتيجة ستكون الكارثة والطامة الكبرى، في طمس معالم الولد الصالح، إذا كان عمودُ البيت الأسري يتّصف بمثل هذه المفاهيم المنحرفة.

الصنف الثالث: عند هذا الصنف، تقف المعرفة والتعليم، خارج حدود بيت

الزوجية، ولا نرى أي إشارة إلى مسألة إبدال الجهد في تعليم الطرف الآخر، معالم التربية، والمفاهيم الدينية؛ وذلك لعدم القابلية في الطرف الآخر، لتقبّل مثل هذه التعاليم، ولكونه لا يحملُ هويّةَ الدين الذي يستمد منه المرء كامل الهوية الفكرية والثقافة التي ينبغي أن تتجسد به روحاً وكياناً وعقيدةً. والزوج حينئذٍ عليه أن يتحمل كل خطإٍ يرتكبه الطرف الآخر، وذلك بسبب وقوع الاختيار في غير موقعه، وسوف يحمّل المجتمع آثار الأجيال الخارجة من بيت الأسرة هذا، لكون البند الأساس قد فقد تلقائياً بمجرد الإرتباط الأسري وهو صناعة الولد الصالح، وعليه فإن ضبط الهيكلية الأسرية غير وارد إطلاقاً، وسوف تنعكس سلبياً على الحياة بشكل عام.

الصنف الرابع: هذا الصنف خارجٌ عن حدود الزوجية بتاتاً، لكنه يشكل قلقاً كبيراً في هذا الزمان، وذلك لأنه يستهدف البيت الأسري، ويحاول أن يدمر الاستقرار الأسري، من خلال بث السموم الفاسدة؛ بالأساليب الملتوية التي تغذّي المشاعر العاطفية، غير السليمة، والتي لا تصب أهدافها في خدمة الصالح العام، وصناعة الولد الصالح، حيث يتمكن هذا الصنف، من رسم قوة جاذبية تساعده على نشر وإشاعة المفاهيم المغلوطة، وذلك من خلال الحكاية التي تصور المبادئ الدينية، على أنها مفاهيم مخدرة، وليس لديها مصاديق واقعية. وأكثر من يستخدم هذه الأعمال الذين ليس لديهم الوازع الديني، والمبدأ الأخلاقي، فمن حيث المبدأ، هم بعيدون عن البيت الأسري، ومن هنا، يرشد الإمام عليه السلام إلى جعل الحاجز الحديدي، الذي يُؤمّن المؤمن من الاقتحام، والتوغل فيه، إذ يصرح الإمام، باعتبار البحر الأخضر أنّه الحاجز، وهو كناية عن متانة القوة المعنوية والمادية، التي سوف تحفظ المؤمن من الإقتراب من مثل هذه الأصناف من النساء أو الرجال، بشكل عام، وأنّ المرء المؤمن لا يقترب من هذه المناطق المشبوهة، ولا يحاول أن يُقحم الأسرة بمثل هذه الأصناف، ممن يشيعون السلوكيات المنافية للمفهوم الديني، فهو يسعى إلى جعل البيت الأسري نظيفاً من هذه الرذائل والأوساخ، حتى تتحقق البيئة المناسبة للتربية الصالحة، للولد الصالح.

فتحصَّلَ من خلال هذه الرواية، أن الصنف الأول هو المطلوب، حتى لتنضبطَ

الهيكلية الأسرية، وتتواجد المفاهيم المساعدة لوجود الولد الصالح، وحين تُفقَدُ الرتبة الأولى تكون الثانية هي الأفضل من الأخريات، لكن يتعين على الطرف الآخر، بذل جهد عظيم يتركز في أغلبه، على نشر المفاهيم الدينية، والمبادئ الأخلاقية، لتتحقَّق الغاية من الإرتباط الفكري والعاطفي، ويكون البيت قابلاً لصناعة الولد الصالح.

ولكنّ بعض الروايات وضعت مبادئ لتحديد أسلوب الإختيار، وذلك من خلال الابتعاد عن البيوتات التي يكثر فيها المخالفات الشرعية، من قبيل هذه الرواية.

عن الإمام الصادق، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال للناس: «**إيّاكم وخضراءَ الدمن**»، قيل: يا رسول اللّه، وما خضراءُ الدّمن؟ قال: «**المرأة الحسناء في منبتِ السوء**»[(١)].

على الرغم من أن الجمال من الكماليات، ومن الصفات المطلوبة، إلا أن الكمال الجمالي غير كافٍ للتربية الصالحة، إذا لم يتوفر الوازع الديني، والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يُحذِّرُ من اتخاذ المرأة الحسناء، التي تربّتْ في بيئة مفسدة، وأجواء مشحونة بالمخالفات الشرعية، إذ المرء ينبغي أن تكون نظرته ثاقبة في اختيار المرأة المناسبة، فلا يكتفي بأخذ الجمال كعنصر أساسي في تشييد الحياة الأسرية، وإنما عليه أن تكون نظرته واصلةً إلى عمق الحياة لدى الجيل الذي يحاول صناعته صناعة صالحة، ومن هنا تجد قسماً وفيراً من الروايات التي تتناول مفهوم الدين والاخلاق كقانون أساس في تكوين البيت الأسري.

فعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها أو لمالُها وكلَ إلى ذلك، وإذا تزوجها لدينها رزقه اللّه المال والجمال**»[(٢)].

فحينما يكون جوهر الدين هو المحرك الأساس في عملية اختيار المرأة، فإنّه يشملُ ضمناً الجمال، وكثرة المال، ولكن حين تكون عملية الاختيار لا يوجد فيها

(١) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص ٣٥ ح٧ باب جملة مما يستحب اجتنابه من صفات النساء.

(٢) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص ٤٩-٥٠ ح١ باب ١٤.

قانون الدين، فإن خللاً سوف يحدث في توازن الأسرة، والذي بدوره ينعكس على عملية التربية الصالحة وتنشئة الولد الصالح. وعن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «**من تزوج امرأة يريد مالها ألجأهُ اللّه إلى ذلك المال**»(١).

والخطورة تقع هنا، حينما يُقدِمُ الرّجل على اتخاذ الشريك، من خلال النظر الى العناصر المادية، من دون الأخذ بعنصر الدين كثابتة راسخة في جوهر الحياة الأسرية، فهي ستُلقي بظلالها على حياة الأجيال القادمة.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**من تزوج امرأة لا يتزوجها إلا لجمالها لم ير فيها ما يحب، ومن تزوجها لمالها لا يتزوجها إلا له وَكَله اللّه إليه، فعليكم بذاتِ الدين**»(٢).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: حدّثني جابر بن عبد اللّه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**من تزوج امرأة لمالها وكله اللّه اليه، ومن تزوجها لجمالها رأى فيها ما يكره، ومن تزوجها لدينها جمع اللّه له ذلك**»(٣).

كل هذه الروايات وغيرها الكثير، تحاول أن ترسخ في القادم على عملية الزواج، مبدأ اختيار الشريك أو الطرف الأخر، تحت قانون الدين والآداب الإسلامية، التي بدورها تهدف إلى إنشاء كيان يتحلّى بالصلاح والورع والتقوى، والإلتزام بالمبادئ والمفاهيم الدينية، ولا يقولنّ أحدٌ، بأنّ ذلك غير متيسر في الزمن الحاضر، فإنّ ذلك نسفٌ لمبدأ الإيمان الذي يتحلّى به الكثير من الأُسر الإيمانية، التي تغذّت بروح الإسلام، وتربّتْ تحت منبر أهل البيت عليهم السلام.

والمتتبع لأحاديث وروايات أهل البيت عليهم السلام، يجد أنّ ثمّة إرشاداتٍ وطرقاً، وينبغي على الجماعات المؤمنة أن تسلكها؛ حتى تصل إلى الغاية المرجوة، وهي نتاج نسل صالح يعمر الأرض، ويقيم العبادة، ويؤدي الفرائض التي عليه من قبل

(١) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص ٥٠ ح٣ باب ١٤.
(٢) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص ٥٠ ح٤ باب ١٤.
(٣) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص ٥١ ح٥ باب ١٤.

اللّه تعالى، وتتحصل هذه الصفات الحسنة إذا طبق لسان هذه الروايات بكل حذافيرها، إذ ينبغي توفر ملاك الدين في الرجل والمرأة؛ حيث نصت هذه الرواية على ذلك.

فقد ورد عن علي بن مهزيار أنّه قال: كتب علي بن أسباط إلى أبي جعفر عليه السلام في أمر بناته أنه لا يجد أحداً مثله، فكتب إليه أبو جعفر عليه السلام: «**فهمت ما ذكرت من أمر بناتك وأنك لا تجد أحداً مثلك، فلا تنظر في ذلك يرحمك اللّه، فإن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلاّ تفعلوا ذلك تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[1].

الملاك الثاني: الذي ينبغي توفره في الرجل والمرأة، الأمانة، وذلك حسب هذه الرواية، فقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وسلم: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، فإن لم تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[2].

الملاك الثالث: هو الأخلاق الحميدة، وقد أشارة إليها الروايات المتقدمة من خلال «**إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه**».

الملاك الرابع: هو العفّة، حيث ينبغي أن يكون على أتم الحذر من التعقب في اختيار الشريك كما ورد عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «**اختاروا لنطفكم، فإنّ الخال أحد الضجيعين**»[3] حيث ورد في ذلك، عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**عليكم بالعفاف وترك الفجور**»[4].

وورد عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**لما أقام العالم الجدار أوحى اللّه إلى موسى: إنّي مجازي الأبناء بسعي الآباء، إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً، لا تزنوا فتزنيَ نساؤكم، ومن وَطأ فراشَ امرئٍ مسلمٍ وُطِئ فراشه كما تَدينُ تُدان**»[5].

(١) تهذيب الأحكام، ج ٧، ص ٣٥٦ ح ١٠.
(٢) مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ١٨٨ ب ٢٤ ح ١.
(٣) وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٤٨ ب ١٣ ح ٢.
(٤) وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٥٦- ٣٥٧ ب ٣١ ح ٦.
(٥) وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٥٧ ب ٣١ ح ٨.

وغيرها من الملاكات التي أشارت إلى ضرورة التأني في اختيار الشريك المناسب، ذي المواصفات الحسنة، حيث سوف يتكوّن الجوّ الايجابي لتهيئة الهيكلية المناسبة للأسرة لو أُخذ بهذه التعاليم الصادرة عن لسان العصمة والطهارة عليهم السلام.

وثمّة ملاحظة، من اللازم على الإنسان أن يكون على أتمّ الاطلاع عليها؛ وهي عملية إدارة البيت الأسري التي تقع عادةً على عاتق الرّجل، لكونه الأقـدر على إنفاذ الكلمة الحازمة، التي ترتب وضعية العائلة، وترسم المستقبل الناجع، من خلال حكمة الرجل، ومدى نفوذه في الأسرة، ومقدار تحركاته في الدفاع عن كيان وبيضة هذه العائلة. ولكي تحصل هذه العلاقة الترابطية الوثيقة، كان لا بـدّ من تحديد بوصلة إدارة البيت على من تكون؟ هل بيد المرأة؛ التي هي كيان ضعيف لا يتحمل أشدّ الصعّاب، أم تقع بيد الرجل الذي هو في غالب الأحيان يتحمل الشدائد؟ ومعلومٌ أنّ أهل البيت عليهم السلام لم يهملوا هذه الجزئية، لكونها مربط فرس التربية الصالحة للولد الصالح.

فعن أبي حمزة، عن جابر بن عبد اللّه قال: سمعته يقول: كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**إن خير نسائكم الولود الودود العفيفة العزيزة في أهلها الذليلة مع بعلها، المتبرجة مع زوجها الحصان على غيره، التي تسمع قوله وتطيع أمره، وإذا خلا بها بذلت له ما يريد منها، ولم تبذلْ كتبذُّلِ الرجل**»(١).

هذه الرواية تضع المرتكز الأساس في تكوين البيت الأسري من المنهجية المعتدلة، التي تحافظ على كيان الأسرة، من خلال جعل إدارة البيت الأسري بيد الرجل، لكونه في العادة والطابع العام يتحرك وفق الصالح العام للأسرة، وذلك من خلال الصفات التي حاولت الرواية إيرادها، حيث بيّنَت؛ أن خيرَ النساء من تحمل الودّ، والعفة، والعزة، عند أهلها ما بين أقاربها، على أن تكون ذليلة، ومتبرجة عند زوجها، وتسمع، وتطيع، أمر زوجها، وتبذل له كل ما يأمرها إذا خلا بها. وهذه

(١) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص ٢٩ ح ٢ ب ٦.

الرواية كفيلة بخلق البيت الأسري القائم على أسس التقوى، والمبنيّ على أرضية وقواعد المشرّع الإسلامي، والذي سوف يخلق الكيانَ المتربّيَ بالتربية الصالحة.

وترتيب البيت الداخلي للأسرة، ليس متوقفاً على اختيار الزوجة الصالحة، ذات المواصفات والملاكات المشار إليها سلفاً فقط، بل ثمّة تحذيرات كان لزاماً على المؤمنين الاطّلاع عليها، والسعي ببذل الجهد إلى تطبيقها، وقد يكون من أخطر المهمّات التي ينبغي على الفرد المؤمن أن يكون على أتمّ الحذر الشديد منها، ومسألة المكاسب المالية، وما يدخل من الأطعمة في البطون، فهي كفيلة بتحديد مسار الفرد وتوجهاته، وهي التي سوف تخلق الولد الصالح ذا التربية القائمة على الموازين والمبادئ الدينية وقيمها. وبما أنها من المحاور الأساسية، في كيفية صناعة وتنشئة الولد الصالح، لذلك سنفرد لها محوراً يتحدث عنها.

المحور الثالث: المال والطعام والتربية الصالحة

لم تكن الصفات الواردة في المأثور عن الأئمّة الطاهرين ﰀ، حول كيفية اختيار الزوجة الصالحة؛ وحدها كفيلةً بخلق الكيان الصالح للولد الصالح. ولم تكن التربية الروحية النابعة عن التزام تام بمنظومة القيم، مجالاً لصناعة الفكر الواعي والصالح، من دون التقيد ببقية العوامل المتبقية في جوهر الترابط الوثيق من كيان الولد الصالح، وهو الجوهر البدنيّ المتمثّل بالمادة.

لقد اهتمّ الدينُ الإسلاميُّ بتربية الروح والنفس لدى الإنسان، وجعل تهذيبها أحد الموجبات الأساسية لوصول المرء نحو الكمال والعلو الروحي، وقد أَوْلى القرآن الكريم قسماً طويلاً، ومهماً من البيان لكي يبيّن مدى الركيزة الأساسية التي تتحلّى بها النفس الإنسانية، ولكي يوضّح قوام شخصية الفرد في كيفية تهذيب النفس، ومن خلال القسم وعظمته، يظهر لدى الإنسان المعالم الخفية لدى هذه النفس، ناهيك عن العمق الخطير الذي سوف يتجلى بكل وضوح، إذا تُركَت على غاربها من غير تهذيب، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾(١)، لقد أعطت هذه الآيات الكريمة الترابط الذي يمكن أن نستفيده من خلال سياقها، وهو أن الشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، بقدر ما تتّصف من عظمة وهيبة لدى الفرد الإنساني، كذلك الجهاد النفسي هو عظيم، ويتحلى بالكمال والعلو والرقيّ المعنوي، إذا سلك نحو الطريق الصحيح، في كيفية تهذيب النفس، ونظر ما تحتوي أعماله وفلتات لسانه، ومداخل معدته.

ويتعدى اهتمام الدين الإسلامي، من مرحلة التهذيب للنفس؛ ليصل إلى تغذية الجسد أو البدن، لينظم للإنسان كيفية مداخل ومخارج الأموال والأطعمة التي يتغذّى عليها، ويرتب له حليّة وحرمة المأكولات والمشروبات، لما لها من تأثير على السلوكيات والطباع، على شخصية الإنسان، ولكون الطعام الحرام مانعاً من كثير من المميزات والايجابيات التي قال بها الدين الإسلامي. وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى هذه القضيّة الخطيرة، عند ما وجه خطابه إلى عسكر ابن سعد (لع).

حيث قال سيد الشهداء: «**ويلكم ما عليكم أن تنصتوا إليَّ فتسمعوا قولي، وإنّما أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فمن أطاعني كان من المرشدين، ومن عصاني كان من المهلكين، وكلّكم عاصٍ لأمري غيرُ مستمع قولي، قد انخزلت عطيّاتكم من الحرام ومُلئت بطونكم من الحرام، وطُبع على قلوبكم، ويلكم ألا تنصتون؟ ألا تسمعون؟**»(٢).

وهذا مؤشر واضح على أنّ الآثار المترتبة على تناول الحرام قد بدت واضحة، على عسكر بني أمية، وهو عامل أساس في إقدامهم على سفك الدماء الزكيّة لعترة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم. ونلاحظ أن الإمام عليه السلام ذكر سلبيّة الظلم، وهي عدم الإنصاف، والسلبية الأخرى، هي عدم الرغبة في سماع قول الحقّ، ومتابعته، وقد كلّفهم ذلك الكثيرَ من الخسران المبين في الدنيا والآخرة. وهو نتاج ستكون عواقبه وخيمةً

(١) سورة الشمس الآية: ١-١٠.
(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، ص ٤٢٢.

جدّاً، وآثاره كارثيّة، على الروح والبدن وتنشئته للأجيال القادمة وما ستُخلِّفُ من الضرر على البشرية، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في مسألة دعوة النبي نوح، عندما لم يستجبْ قومه، لدعوته، عندها خاطب اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1] إن الأبناء الذين سوف يكونون من أعقاب هؤلاء القوم؛ سيحملون كامل المواصفات الرديئة والسلبية من رفض الخضوع للّه تعالى، وقتل الأولياء الصالحين؛ الذين يعمرون الأرض بالعبادة والعمران والبناء الصالح، ومن هذا المنطلق طلب نبي اللّه نوح أن يهلك هؤلاء القوم، وهي نتيجة يمكن الإفادة من خلالها بأنّ من يأكل المال الحرام، ويملأُ أحشائه بالطعام والشراب المحرم، فإنه سوف يُخلِّفُ الولد الفاسد، وسوف تختلط عليه المفاهيم الحقّة بالباطلة.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**من كسب مالاً من غير حل سلط اللّه عليه البناء والماء والطين**»[2] وإذا كانت هذه طبيعة الحال المادية وما تكون عليه من تشرذم وانهيار بسبب الكلفة الباهظة التي يخلفها المال الحرام، فمن باب الأولوية، أن عملية التربية النابعة من هكذا مستنقع، لن تكون نائية عن الفساد والضياع، لكونها تتفاعل مع الصفات التي يُرادُ أن تنطبع، عليها الروح أو النفس. ومن هنا نلاحظ عزيزي القارئ عند الرجوع الى هيكلية محتوى الفقه المحمدي الأصيل، أنه جعل في كتاب العبادات أحد عشر باباً، وهي ما تُبيِّنُ العلاقة فيما بين العبد وربّه فقط، بحيث لا يوجد هناك ما يكون علاقة ترابطية بين العبد والآخرين من بني جنسه وهي:

١-الطهارة. ٢- والصلاة. ٣- والزكاة. ٤- والخمس. ٥- والصوم. ٦- والاعتكاف. ٧- والحج. ٨- والعمرة. ٩- والجهاد. ١٠- والأمر بالمعروف. ١١- والنهي عن المنكر.

وأمّا كتاب المعاملات فيصل إلى سبعةٍ وأربعينَ باباً، وهو ما ينظِّمُ العلاقة بين الإنسان وبني جنسه، وهي:

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦-٢٧.
(٢) مفاسد الحرام في المال والطعام، ص ٢١٧- ٢١٨.

١-التجارة، ٢- والرهن، ٣- والمُفلَس، ٤- والحجر، ٥- والضمان، ٦- والصلح، ٧- والشّركة، ٨- والمضاربة، ٩- والمزارعة ١٠- والمساقاة، ١١- والوديعة، ١٢-والعارية(الإعارة)، ١٣-والإجارة، ١٤- والوكالة، ١٥- والوقف ١٦- والصدقات، ١٧- والسكنى ١٨- والتحبيس، ١٩- والهبة، ٢٠- والسبق والرماية، ٢١- والوصية، ٢٢- والنكاح، ٢٣- والطلاق، ٢٤-والخلع والمباراة، ٢٥- والظّهار، ٢٦- والإيلاء، ٢٧-واللعان، ٢٨- والعتق (تحرير العبيد)، ٢٩- والتدبير والمكاتبة والاستيلاد، ٣٠- والإقرار، ٣١- والجعالة، ٣٢- والأيمان، ٣٣- والنذر، ٣٤- والصيد والذباحة، ٣٥- والأطعمة والأشربة، ٣٦- والغصب، ٣٧- والشفعة، ٣٨- وإحياء الموات، ٣٩- واللقطة، ٤٠- والفرائض، ٤٠- والقضاء، ٤٢- والشهادات، ٤٣- والحدود ٤٥- والتعزيرات، ٤٦- والقصاص، ٤٧- والديات.

وعلى الرغم من أن كتاب العبادات يحمل الأهمية القصوى في الدين الإسلامي، وهو بنيانٌ يلزم أن يستوعب كلَّ مفاصل تحركاتنا اليوميّة، إلّا أنّه مثّل أحد عشر باباً بالمقارنة بكتاب المعاملات الذي حمل في حقيبته سبعةً وأربعين باباً، الأمر الذي يدعو إلى التأمل مليّاً والوقوف على هذا الكتاب بكل دقة، لنرى لماذا توجد مثل هذه المفارقة؟

والسبب واضح جدّاً، فالعبادة مختصَّةٌ باللّه تعالى فقط، فهو تبارك وتعالى كفيل بالمغفرة والرحمة، بينما المعاملة تكون بين الإنسان وأخيه الإنسان، وحتى تكون هذه العلاقة منظمة ولا تكثر فيها الشبهات والمنازعات، وضع المشرّع الإسلامي هذه الكمية من الأبواب، وبحسب تعامل الإنسان مع بني جنسه فهي علاقة بشرية، ومترتبة في الخارج[1].

(١) عن أبي عبيدة الحذاء، عن ثوير بن أبي فاختة قال: سمعت عليّاً بن الحسين عليهما السلام يُحدِّثُ في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: حدّثني أبي أنه سمع أباه عليّاً بن أبي طالب عليه السلام يحدث الناس قال: «**إذا كان يوم القيامة بعث اللّه تبارك وتعالى الناس من حفرهم غرلا مهلا جردا مردا في صعيد واحد يسوقهم النور وتجمعهم الظلمة حتى يقفوا على عقبة المحشر، فيركب بعضهم بعضا ويزدحمون دونها فيمنعون من المضي فتشتد أنفاسهم، ويكثر عرقهم وتضيق بهم أمورهم، ويشتد ضجيجهم، وترتفع أصواتهم**»، قال: «**وهو أول هول من أهوال يوم القيامة**»، قال: «**فيشرف الجبار تبارك وتعالى عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة فيأمر** =

= ملكا من الملائكة فينادي فيهم: يا معشر الخلائق أنصتوا واستمعوا منادي الجبار» قال: «فيسمع آخرهم كما يسمع أولهم»، قال: «فتنكسر أصواتهم عند ذلك، وتخشع أبصارهم، وتضطرب فرائصهم، وتفزع قلوبهم، ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الداعي»، قال: «فعند ذلك يقول الكافر: هذا يوم عسر»، قال: «فيشرف اللّه عز وجل ذكره الحكم العدل عليهم» فيقول: «أنا اللّه لا إله إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي، لا يظلم اليوم عندي أحد، اليوم آخذ للضعيف من القوي بحقه، ولصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات والسيئات، وأثيب على الهبات، ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم ولاحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها لصاحبها وأثيبه عليها وآخذ له بها عند الحساب، فتلازموا أيها الخلائق و اطلبوا مظالمكم عند من ظلمكم بها في الدنيا، وأنا شاهد لكم (بها خ ل) عليهم، وكفى بي شهيدا»، قال: «فيتعارفون ويتلازمون فلا يبقى أحد له عند أحد مظلمة أو حق إلا لزمه بها»، قال: «فيمكثون ما شاء اللّه فيشتد حالهم، فيكثر عرقهم ويشتد غمهم، وترتفع أصواتهم بضجيج شديد، فيتمنون المخلص منه بترك مظالمهم لأهلها». قال: «ويطلع اللّه عز وجل على جهدهم فينادي مناد من عند اللّه تبارك وتعالى يسمع آخرهم كما يسمع أولهم: يا معاشر (معشر خ ل) الخلائق أنصتوا لداعي اللّه تبارك وتعالى واسمعوا، إن اللّه تبارك وتعالى يقول لكم: أنا الوهاب، إن أحببتم أن تواهبوا فتواهبوا، وإن لم تواهبوا أخذت لكم بمظالمكم»، قال: «فيفرحون بذلك لشدة جهدهم وضيق مسلكهم وتزاحمهم»، قال: «فيهب بعضهم مظالمهم رجاء أن يتخلصوا مما هم فيه، ويبقى بعضهم فيقولون: يا رب مظالمنا أعظم من أن نهبها». قال: «فينادي مناد من تلقاء العرش: أين رضوان خازن الجنان جنان الفردوس». قال: «فيأمره اللّه عز وجل أن يطلع من الفردوس قصراً من فضة بما فيه من الآنية والخدم»، قال: «فيطلعه عليهم في حفافة القصر الوصائف والخدم»، قال: «فينادي منادٍ من عند اللّه تبارك وتعالى: يا معشر الخلائق ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى هذا القصر»، قال: «فيرفعون رؤوسهم فكلهم يتمناه»، قال: «فينادي مناد من عند اللّه تبارك وتعالى: يا معشر الخلائق هذا لكل من عفا عن مؤمن»، قال: «فيعفون كلّهم إلا القليل». قال: «فيقول اللّه عز وجل: لا يجوز إلى جنتي اليوم ظالمٌ، ولا يجوز إلى ناري اليوم ظالمٌ ولأحدٍ من المسلمين عنده مظلمة حتى يأخذها منه عند الحساب، أيها الخلائق استعدوا للحساب»، قال: «ثم يخلى سبيلهم فينطلقون إلى العقبة يكرد بعضهم بعضاً حتى ينتهوا إلى العرصة، والجبار تبارك وتعالى على العرش، قد نشرت الدواوين، ونصبت الموازين، واحضر النبيون والشهداء وهم الأئمة، يشهد كل إمام على أهل عالمه بأنه قد قام فيهم بأمر اللّه عز وجل ودعاهم إلى سبيل اللّه». قال: فقال له رجل من قريش: يا بن رسول اللّه إذا كان للرجل المؤمن عند الرجل الكافر مظلمة أي شئ يأخذ من الكافر وهو من أهل النار؟ قال: فقال له علي بن الحسين عليه السلام: «يطرح عن المسلم من سيئاته بقدر ماله على الكافر، فيعذب الكافر بها مع عذابه بكفره عذابا بقدر ما للمسلم قبله من مظلمته». قال: فقال له القرشي: فإذا كانت المظلمة لمسلم عند مسلم كيف يؤخذ مظلمته من المسلم؟ قال: «يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حق المظلوم فيزاد على حسنات المظلوم»، قال: فقال له القرشي: فإن لم يكن للظالم حسنات؟ قال: «إن لم يكن للظالم حسنات فإن للمظلوم سيئات، تؤخذ من سيئات المظلوم فيزاد على سيئات الظالم». الكافي ج٨، ص ٧٣-٧٤ ح٧٩ وعلم اليقين في أصول الدين للفيض الكاشاني ج٢، ص ١١٢١-١١٢٥ وبحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٦٨- ٢٧٠.

نلاحظ من خلال هذه الرواية، أنها تنظر إلى المعاملة كيف كانت في عالم الدنيا؟ فالإنسان يُحاسَب بحسب معاملته مع أخيه.

وهنا وصية إمام الأمة الراحل الإمام الخميني قدس اللّه سره الشريف لنجله المرحوم سماحة السيد أحمد في تاريخ ٢٨/ ٤/ ١٩٨٢م «... بُنيّ اعمل على أن لا ترحل عن هذه الدنيا مُحمَّلاً بحقوق الناس فإنها تُعرّضُك لحساب عسير. إن حساب الإنسان مع اللّه تعالى وهو أرحم الراحمين أهون بكثير من حسابه مع الناس. إنني أستعيذ باللّه تعالى من تورطي أنا وأنت والمؤمنين في«اهتضام» حقوق الناس والاقتحام في قضايا مع بني الإنسان. وهذا لا يعني التهاون في حقوق اللّه والتجرؤ على عصيانه...» مفاسد الحرام في المال والطعام، ص ٢٦٢-٢٦٣.

من هذا المنطلق وضـع المشرّع الإسلامي التحذيرات المتشددة التي تردع الإنسان من أنه يرتكب الاقتحام في المحظورات، ومن هذه المحذورات عدم الاقتراب إلى الأطعمة والأموال المحرمة.

فقد ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «**إذا وقعت اللقمة من حرام في جوف العبد لعنه كل ملك في السماوات وفي الأرض. وما دامت اللقمة في جوفه لا ينظر اللّه إليه. ومن أكل اللقمة من الحرام فقد باء بغضب من اللّه، فإن تاب تاب اللّه عليه وإن مات فالنار أولى به**»[1] وهذا الحديث مدعاة للوقوف عليه والتأمل في مضامينه، وما يحمل من مفاهيم تربوية، وماهية الآثار المترتبة على الجيل الذي يخرج من هذا الإنسان، وهل بإمكانه أن يكوّن الولد الصالح.

الملاحظ (ومن خلال بعض الحوادث التاريخية التي يسردها لنا قلم مدون التاريخ) أنّ الآثار موجودة؛ ولو بعد حين، وفي أغلب الأحيان يكتسبُ الأبناء جميع المفاهيم المعنوية، ناقلين بذلك كل ما يصنعه الأبوان من مخالفات شرعية، وعلى الخصوص المكاسب المالية التي يعتاش عليها الأبناء، والأطعمة التي يتغذّون عليها، إذا كانت من غير الوجوه الشرعية.

حيث «يُرى أن (بايزيد البسطامي) كان لا يستشعر لذة القيام بالعبادات رغم السنوات التي قضاها من حياته منهمكاً بأدائها. سأل يوماً أمه ـ بعد أن أخبرها بأنه لا يستذوق حلاوة القيام بالعبادات رغم أدائه لها ـ أن تمعن التفكير بذلك الزمان عندما كان ما يزال جنيناً في أحشائها أو رضيعاً، هل تناولت طعاماً مما حرم أم لا؟!. فكرت الأم مليّاً بهذا الشأن ثم قالت: بني، في يوم من الأيام وأنت ما زلت جنيناً في بطني ذهبت إلى سطح الدار فوقعت عيناي على إناء طعام فلعقت منه لعقة دون تحصيل موافقة صاحبه... فطن بايزيد إلى سر عدم استذواقه لذة أداء العبادات فطلب من أمه أن تذهب إلى صاحب الطعام وتسرد عليه الحكاية ثم تستحله وتكسب رضاه. فعلت الأم ما طلب منها بايزيد فزارت صاحب الطعام

(١) مكارم الأخلاق، ص ١٥٤.

وحصلت على حليته، وبعد هذا الحدث أخذ «بايزيد» يشعر بحلاوة العبادة ولذة أدائها»[١].

وهذه حكاية عن لسان صاحب كتاب مفاسد الحرام في المال والطعام يقول فيها: «تناهت إلى مسامعي كراراً حكاية من العهد القديم تسرد قصة طفل خرق قربة سقاء وألحق بذلك خسارة بالغة برأس مال المسكين الذي وجه شكواه مضطراً إلى أبي الطفل وكان من زهاد الحي ووجهائه. دفع الأب للسقاء مقداراً من المال تعويضاً عما لحق به من ضرر فتركه راضياً ممتناً ولكن الأب عاد إلى جناح الحريم في داره فالتقى زوجته وقص عليها ما حدث مؤكداً بأن سلوك ابنهما إنما هو ثمرة فعال أحدهما دون ريب وقال: لقد أطلت التفكير بما بدر منّي على مر حياتي لعلني أجد ضمن فعالي ما قد يكون سبباً لما حدث، ورثه الطفل مني ولكن دون جدوى. يجدُرُ أن تفكري قليلاً وتمعني في ذكريات حياتك لعل تصرف ولدنا يكون ثمرة أحد أفعالك. أجابت الزوجة بعد برهة: لا أجد له باعثاً مهما ولجت أغوار الذكريات سوى أنني ذات يوم وأنا حبلى أحمل هذا الطفل جنيناً بين أحشائي، اجتزتُ زقاقاً فمررت ببستان استقطب انتباهي له غصن شجرة رمان اكتظ بثماره وقد تدلى من سوره، عصرت رمانة وأحدثت فيها ثقباً بإبرة وأخذت أمتص من مائها.. لقد تنبهت الآن من أثر ما فعلت ذلك اليوم في الجنين فآل أمر ولدي ليفعل ما أتى علينا بالخجل وحثا في وجهنا الرماد»[٢].

يستفاد من هذه الحكايات أنها تحمل مفهومين.

المفهوم الأول: أن الحرام يؤثر على العبادة؛ ولو كان ارتكابُ المُحرَّم صغيراً ولا يُعتدّ به، وهو مصداق لقول الرسول الأعظم ﷺ: «**من أكلِ لقمة مَن حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ولم يستجب له دعوة أربعين صباحاً وكل لحم ينبته الحرام فالنار أولى به**»[٣] إذ لم تشر إلى مقدار اللقمة، ولكي يتحرز المكلف من هذه

(١) مفاسد الحرام في المال والطعام، ص ٤٤-٤٥

(٢) مفاسد الحرام في المال والطعام، ص ٦٤-٦٥

(٣) بحار الأنوار، ج٦٦ ص٣١٥ ح٧ ب ٢ مدح الطعام الحلال وذمّ الحرام.

المطبات العميقة عليه أن يكون على أتمّ الحذر والاحتياط في مثل هذه المسائل، قال رسول اللّه ﷺ: «**من أحب أن يستجاب دعاؤه فليطيب مطعمه وكسبه**» وغيرها من الأحاديث التي توجه الإنسان نحو المسار الصحيح، في تحركاته في هذه الحياة الدنيا.

المفهوم الثاني: الأكلة المحرمة ليس لها تأثير في الأكل فقط؛ وإنّما يصل عمقها إلى الأجيال اللاحقة من النسل الخارج من هذا الآكل، ونلاحظ أن التأثير يقع حتى لو كان من غير القصد والغاية؛ وذلك لكونها ذات تأثير تكويني، فشارب الخمر والعياذ باللّه يسكر حتى لو لم يكن قاصداً ارتكاب هذه الجريمة. وقد يحاول الإنسان يحاول أن يتناول الطعام المشتبه به أو يكتسب الأموال بطريقة غير مشروعة، حيث يقدم على حيل، فيحاول أن ينصرف من موقع عمله في غير وقته مثلاً؛ وفي نهاية عمله أو الشهر يتقاضى الاستحقاق الكامل من راتبه، حتّى لتلك الأيام التي حصل فيها الانصراف بالحيلة عن موقع العمل من غير وجه حق.

إنّ التقيد بهذه الأمور له دور عميق في إنتاج جيل يتحمل المسؤولية الكاملة عن صناعة الولد الصالح الذي يقوم بعمارة الأرض عمارةً صالحةً، ويكون أكثر تقبلاً لتوجيهات الصالحين من بني البشرية، وبحسب توصيات الرسول الأعظم ﷺ، فإنه يدعو إلى تناول الطعام الذي جاء من تعب وعرق الإنسان وجهده حيث يقول ﷺ: «**كلوا من كدِّ أيديكم**»[1] وهو ما يمكن أن نعتبره عمق الإنتماء إلى المشروع العمراني الذي كلَّف اللّه تعالى به هذا الإنسان، قال اللّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾[2] وتقصد الآية: الكريمة أن اللّه تعالى؛ سيجعل الأرض عامرةً بالصلاح بأرقى أصنافه، حيث الإسلام المحمدي الأصيل له الدور الأبرز في النظام الثقافي والعلمي لدى جميع المجتمعات البشرية، وسيكون له موقع بارز وواضح في النظام السياسي العالمي، كنظام وحيد هو المسيطر على العالم

(١) بحار الأنوار، ج٦٦ ص٣١٥ ح٣ ب ٢ مدح الطعام الحلال وذمّ الحرام.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥-١٠٦

السياسي، وإنّ هذه الأنظمة القائمة في هذا الوقت الراهن، سوف تكون من غابر التاريخ الذي دفنته الرمال الكثيفة، وسيكون الجانب العملي الرسمي معتمداً على المذهب الفقهي لأهل البيت عليهم السلام. وهذ المسار يرتكز على مدى قبول وقناعة الوالدين بالإسلام من جانب ووعيهما للوقائع من جانب آخر. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**العالم بزمانه، لا تهجم عليه اللوابس**»[(١)] إذ يلزم على الوالدين أن يحيطا بكل تطورات وتقدم الزمن، وأن يسعيا إلى فهم الواقع بصورة صحيحة، في ظل هذا التقدم التكنولوجي الرهيب الذي اكتسح كل مجالات الحياة، وأن يكونا على حماية رصينة ومنيعة من الانحرافات الفكريّة، لكونها تمثل المعسكر المعنوي السامّ، الذي يقتحم بيت العقل من غير أن يأذن له، إذا لم يتسلح الفرد بالأدوات الحامية لكيانه ومعتقداته، ولخلق كيان الولد الصالح الذي سيكون اليد التي تبني عمارةَ الصلاح في هذه الأرض، لا بدّ من وجود الأدوات التي تساعده على صلاحه وتربيته، ومن هذه الأدوات الابتعاد عن الأطعمة والمكتسبات المالية المحرمة التي تنخر الجسد والروح.

وتتبيّنُ الخطورة المحدقة بالإنسان الذي لا يراعي الضوابط الشرعية، في أنّه سوف يخلق كياناً فاسداً ترجع ارتداداته السلبية على المجتمع، حيث سيترتب عليه نشر الكثير من المخالفات الشرعية، وذلك لكونه لعقَ لقمة حرام، وبنى فكره وجسده عليها!، وتكونت أرضيته الخُلُقية والخَلْقية على الطعام والمال الحرام. يقول المرحوم آية: اللّه العظمى الشيخ محمد تقي بهجت قدس اللّه سره الشريف حول دور الطعام الحلال والحرام في سعادة الإنسان وشقائه.

«والويل لنا إذا لم نتجنب تناول الأطعمة والأشربة المحرمة، لأن هذه الأطعمة هي منشأ علمنا وإيماننا أو كفرنا، إذ قد يأتي وقت نجد أنفسنا فيه قد آمنّا بيزيد. ويستفاد من آية: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)] أن نفس الأكل والتناول كان سلسلة العلل والمعاليل في هبوط آدم عليه السلام. والإنسان الذي له قابلية أن يكون

(١) تحف العقول، ص ٢٥٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٥، سورة الأعراف، الآية: ١٩.

ملكاً ـ مهما كان طرفه المقابل في أسفل سافلين ـ (يتحقق له ذلك بواسطة) الأكل والشرب الذي تظهر قوته في الدم، وبالتالي يظهر أثره في الأعضاء، بل في روح ومخ الإنسان وفكره. وكل هذا التوفيق الذي ناله العلماء السابقون في العلم والعمل، والبركة كانت في أعمارهم، والسلامة عن الإنحرافات الفكرية التي اتصفوا بها، كل ذلك كان ناتجاً من تناول الأطعمة الحلال والإجتناب عن الشبهات»[١].

إنّ تناول الطعام المكروه هو أقلُّ وطأةً من الحرام، إلا أنَّه يُخلِّفُ الآثار المعنويّة في مسيرة الإنسان في العبادة، وتكامله في مدارج الكمال الروحي، وإنّ الطعام القادم من مصنع المكروهات يقطع الطريق على الصناعة التربوية للولد الصالح، ويخلف الكثير من المشكلات النفسية للآكل على مستوى العبادة والإتصال باللّه تعالى، ولعل هذه الحكاية، تضع لنا جانباً من الآثار التي يخلفها الطعام المكروه، يقول سماحة الشيخ بهجت أعلى اللّه مقامه الشريف حول ضريبة تناول الطعام المكروه. «أراد أحد الطلاب الرجوع إلى إيران بعد إكمال دراسته في الحوزة العلمية في النجف، فذهب إلى السيد محمد كاظم اليزدي رحمه اللّه وطلب منه إجازة في الرواية ونقل الحديث. فاستغرق الأمر أياماً دون أن يلبي السيد طلبه. يقول ذلك الشيخ: فقلت في نفسي: إني لم أطلب من السيد إجازة في أخذ الحقوق حتى يمتنع عن إعطائي إياها، كما أنه من غير المعلوم أن أحداً في إيران يعرف السيد رحمه اللّه. ولهذا كان غيظي يشتدّ كلما رأيته. وبعد مضي عدة أيام أعطاني المرحوم السيد تلك الإجازة واعتذر عن التأخير قائلاً: كنت قد أكلت في هذه المدة طعاماً مكروهاً ـ لحم كلية أو شيئاً آخر. فأردت أن يزول أثر هذا الطعام من بدني بشكل كامل، حتى أتمكن من إقامة الارتباط بسلسلة سند الروايات مع الأولياء العظام وعلماء الدين، وأكون في زمرة رواة الأحاديث، وحينئذٍ أعطيك الرواية!»[٢].

وحينما يكتمل محور ترتيب الأطعمة والمكاسب المالية وما تستوعب من

---

(١) في مدرسة الشيخ بهجت، ج ١، ص ٢٦١.

(٢) في مدرسة الشيخ بهجت ج ٢، ص ٣١.

الآثار التي ستخلفها في المنظور البعيد من سلوكيات حياة ونفسية الولد الصالح، نجده لا يزال محتاجاً إلى متابعة دقيقة لكيفية ترتيب شؤونه الأخلاقية والفكرية، التي تحتاج إلى متابعة متأنية وفق المضامين الواردة من مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وهنا واقعاً تقع المسؤولية على عاتق الوالدين في فهم مدركات المشرّع الإسلامي عليه السلام، وهو يخضع لطرق وأساليب التربية الصالحة للولد الصالح، وهو ما سنفتحُ بابَهُ في المحور القادم إن شاء اللّه تعالى.

المصادر

١- القرآن الكريم.

- حرف الألف -

٢- آداب النفس للسيد محمد العيناثي العاملي طبعة الاعلمي الطبعة الأولى سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣- الأربعون حديثاً للإمام الخميني طبعة دار التعارف الطبعة السادسة سنة ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٤- إرشاد القلوب، للشيخ الديلمي منشورات الشريف الرضي الطبعة الثانية سنة ١٤١٥هـ.

٥- أسرار العارفين في شرح كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام شرح دعاء كميل، للعالم الجليل والفاضل النبيل السيد جعفر بن محمد باقر بن مهدي بحر العلوم تحقيق فارس حسون كريم طبعة مكتبة فدك لإحياء التراث الطبعة الأولى تاريخ الطبع ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٦- الأسرار الفاطمية في المقامات الملكوتية والمعاني الروحانية للسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام للشيخ محمد فاضل المسعودي طبعة دار الارشاد الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٧- أصول وفروع الكافي، للشيخ أبي جعفر الكليني تحقيق العلامة محمد جواد الفقيه فهرست وتصحيح الدكتور يوسف البقاعي طبعة دار الأضواء الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٨- أعلام الهداية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام الطبعة الثانية سنة ١٤٢٥هـ.

٩- الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني بقلم الشيخ حسن محمد مكي العاملي طبعة الدار الإسلامية الطبعة الثانية سنة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- حرف الباء -

١٠- بحار الأنوار، الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي طبعة انتشارات فقه الطبعة الأولى (الطبعة المطغوطة) سنة ١٤٢٧هـ.

١١- بداية المعرفة، منهجية حديثة في علم الكلام للأستاذ الشيخ حسن مكي العاملي طبعة الدار الإسلامية الطبعة الثانية سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٢- البرهان في تفسير القرآن للعلامة المحدث السيد هاشم البحراني حقَّقه وعلّق عليه لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات الطبعة الثانية سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٣- بصائر الدرجات في مناقب آل محمد للشيخ محمد بن حسن الصفار طبعة منشورات طليعة النور الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤ هجرية شمسية.

- حرف التاء -

١٤- تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للشيخ الحراني طبعة الأعلمي الطبعة السادسة سنة ١٤١٧هج- ١٩٩٦م.

١٥- التربية الروحية بحوث في جهاد النفس للسيد كمال الحيدري طبعة دار الكاتب العربي الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٦- ترتيب مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس ترتيب وتنقيح علي العسكري - حيدر المسجدي طبعة مركز دراسات الحوزة والجامعة الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هجرية شمسية.

١٧- تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار طبعة مكتبة الشروق الدولية القاهرة- مصر الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

١٨- تفصيل وسائل الشيعة، إلى تحصيل مسائل الشريعة للفقيه المحدث الشيخ محمد حسن الحر العاملي طبعة وتحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث الطبعة الثالثة سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- حرف الثاء -

١٩- ثواب الأعمال وعقاب الأعمال للشيخ الصدوق طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات الطبعة الرابعة سنة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- حرف الجيم -

٢٠- جامع السعادات، للشيخ محمد مهدي النراقي طبعة مؤسسة الأعلمي الطبعة السابعة سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٢١- جامع السعادات، للشيخ محمد مهدي النراقي طبعة مؤسسة الاعلمي للمطبوعات الطبعة السابعة سنة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

٢٢- جزاء أعداء وقتلة سيد الشهداء عليه السلام في دار الدنيا للسيد هاشم الناجي الموسوي الجزائري طبعة دار الكتاب الإسلامي.

٢٣- جهاد النفس في مراحله الخمس للشيخ قاسم الهاشمي طبعة دار الحديث الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٤- جهاد النفس للأستاذ حسين مظاهري.

- حرف الخاء -

٢٥- الخصال للشيخ الصدوق طبعة دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- حرف الراء -

٢٦- رحلة في الآفاق والأعماق، شرح دعاء كميل، للأستاذ حسين أنصاريان ترجمه كمال السيد طبعة مؤسسة التاريخ العربي الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- حرف الشين -

٢٧- شرح نهج البلاغة، للشيخ ميثم البحراني طبعة دار الثقلين الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٨- شرح دعاء كميل، للمولى السيد عبد الأعلى السبزواري منشورات مؤسسة الهداية بيروت - لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٩- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي طبعة دار نظير عبود الطبعة الرابعة سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

- حرف العين -

٣٠- عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر طبعة دار الصفوة بيروت - لبنان الطبعة التاسعة سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٣١- علي إمام البررة نظم زعيم الحوزة العلمية آية: اللّه العظمى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي قدس سره قدّم له آية: اللّه العظمى السيد علي الحسيني البهشتي دام ظله الوَارف شرح السيد محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخراسان طبعة دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٢- عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق الناشر انتشارات المكتبة الحيدرية – قم الطبعة شريعت الطبعة الأولى سنة ١٤٢٦هـ.

- حرف الفاء -

٣٣- الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية للعلامة الشيخ محمد جميل حمود طبعة مؤسسة الاعلمي للمطبوعات الطبعة الثانية سنة ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

٣٤- في رحاب اللّه أضواء على دعاء كميل، للسيد عزالدين بحر العلوم طبعة دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان الطبعة الثانية سنة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م.

٣٥- في رحاب دعاء أبي حمزة الثمالي لـ أمل حسن طبعة مؤسسة البلاغ الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

٣٦- في ظِلال الصحيفة السجادية شرح للشيخ محمد جواد مغنية طبعة دار الكتاب الإسلامي الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

- حرف القاف -

٣٧- القرآن باب معرفة اللّه للسيد الامام الخميني طبعة دار المحجة البيضاء الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

- حرف الكاف -

٣٨- كتاب المحاسن، للشيخ البرقي طبعة مؤسسة الاعلمي للمطبوعات الطبعة الأولى سنة ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

- حرف اللام -

٣٩- لسان العرب، للعلامة ابن منظور نشرُ أدب الحوزة سنة ١٤٠٥هـ.

- حرف الميم -

٤٠- مجلة الموسم فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث لصاحبها ورئيس تحريرها محمد سعيد الطريحي العدد (١٣) المجلد الرابع سنة (١٩٩٢م ـ ١٤١٣هـ)

٤١- مختار الصحاح للشيخ الرازي طبعة مكتبة لبنان ناشرون إعادة الطبع سنة ١٩٩٣م.

٤٢- مستدرك الوسائل، ومستنبط المسائل لخاتمة المحدثين الميرزا الشيخ حسين النوري الطبرسي طبعة وتحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث الطبعة الرابعة سنة ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٤٣- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار للشيخ أبي الفضل علي الطبرسي طبعة دار الحديث الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ.

٤٤- معجم مجمع البحرين عربي-عربي للإمام الكبير والمصنف الشريف فخرالدين الطريحي طبعة مؤسسة الاعلمي للمطبوعات الطبعة الأولى المصححة سنة ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٤٥- معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة للإمام الأكبر زعيم الحوزة العلمية السيد أبو القاسم الخُوئي (قدّس سرّه الشريف) طبع في الجمهورية الإسلامية الايرانية غير مذيلة باسم المطبعة الطبعة الخامسة سنة ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٤٦- مفاتيح الجنان، للشيخ عباس القمي طبعة الاعلمي الطبعة الثانية سنة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٤٧- مفاسد الحرام في المال والطعام لـ إسماعيل جوهري طبعة دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى سنة ١٤٢٦هـ ـ٢٠٠٥م.

٤٨- مفاهيم القرآن محاضرات العلامة الشيخ جعفر السبحاني بقلم الشيخ جعفر

الهادي طبعة انتشارات توحيد قم المقدسة الطبعة الثانية سنة ١٤٠٤هـ.

٤٩- مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الأصفهاني تحقيق صفوان عدنان داود طبعة دار القلم والدار الشامية الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٥٠- مكارم الأخلاق للشيخ الطبرسي طبعة دار البلاغة الطبعة الخامسة سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٥١- مِنّةُ المنان في الدفاع عن القرآن لآية اللّه العظمى الشهيد السيد محمد الصدر طبعة دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٥٢- المواعظ العددية أحاديث وحكم ومواعظ تبدأ بالآحاد وتنتهي بالاثني عشر للمحدث الجليل السيد محمد بن محمد بن الحسن الشهير بابن قاسم الحسيني العاملي طبعة منشورات طليعة النور الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤ هجرية شمسية.

٥٣- موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام للشيخ هادي النجفي.

٥٤- الموسوعة العلمية القرآنية شرح الآيات العلمية في القرآن للدكتور لبيب بيضون دكتوراه إبداعية في نهج البلاغة ماجستير في الفيزياء دبلوم في التربية طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٥٥- موسوعة القرن LAROUSSE الفرنسية طبعة الدار المتوسطية للنشر- تونس الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٥٦- الموسوعة الكونية الكبرى، آيات اللّه للدكتور ماهر أحمد الصَّوفي الباحث في وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف دولة الإمارات المتحدة طبعة شركة أبناء شريف الأنصاري صيدا-بيروت-لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٥٧- موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام إعداد لجنة الحديث: معهد تحقيقات باقر العلوم عليه السلام منظمة الاعلام الإسلامي طبعة دانش قم المقدسة- إيران الطبعة الثانية سنة ذي الحجة الحرام ١٤١٥هـ.

٥٨- ميزان الحكمة، للشيخ محمد الريشهري الناشر دار الحديث الطبعة الاولى سنة ١٤٢٢هـ.

٥٩- الميزان في تفسير القران للسيد محمد حسين الطباطبائي طبعة الأعلمي الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- حرف النون -

٦٠- النظام الصحي عند الإمام الصادق عليه السلام للدكتور إبراهيم كسروان أخصائي في الطب المخبري السريري شهادة جامعية بأمراض الجلد دبلوم في طب الأعشاب ط دار المحجة البيضاء الأولى ٢٠٠٦م.

٦١- نفحات الولاية شرح نهج البلاغة، لسماحة آية: اللّه العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي طبعة دار جواد الأئمة عليهم السلام الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٦٢- نهج البلاغة النسخة المتوفرة لديّ وهي من القطع الصغير مطبعة دار المحجة البيضاء الطبعة الأولى لعام ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ.